فن الرثاء في الشعر العربي
في العصر المملوكي الأول

إعداد
رائد مصطفى حسن عبد الرحيم

المشرف
الاستاذ الدكتور عبد الجليل عبد المهدي

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع ..... التاريخ .....

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الدكتوراه في
اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا
الجامعة الاردنية

آيار ٢٠٠١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهـــــــــداء

إلى مَنْ زَرَعَتْ الوَرْدَ
في طريقي وَسَقَتْهُ
بحبّات الجبين
وعاشت تنتظر يوم
الفرح حتّى أتاها

أمّي الحنـون

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
الإهداء	ج
قائمة المحتويات	د - هـ
الملخص بالعربية	و - ز
مقدمة	ح - ك
الفصل الأول: رثاء النفس والأهل والأقارب	١ - ٣٠
رثاء النفس	٢ - ٤
رثاء الأهل والأقارب	٥ - ٣٠
رثاء الأبناء	٥ - ١٧
رثاء الآباء	١٧ - ١٩
رثاء الإخوة	١٩ - ٢٧
رثاء الأخوال	٢٧ - ٣٠
الفصل الثاني: رثاء أرباب الدول	٣١ - ٩٢
كثرة المراثي ودواعي الرثاء	٣٢ - ٤٢
موضوعات متفرقة	٤٣ - ٥٦
تصوير الحدث	٥٦ - ٦٤
المناقب والصفات	٦٤ - ٧٨
الجمع بين التهنئة والتعزية	٧٩ - ٨٢
الحكمة في قصيدة الرثاء	٨٣ - ٨٨
هجاء الموتى من أرباب الدول	٨٨ - ٩٢
الفصل الثالث: رثاء العلماء والأدباء	٩٣ - ١٣٣
كثرة المراثي ودواعي الرثاء	٩٤ - ٩٩
المناقب والصفات	٩٩ - ١١٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع	الصفحة
تصوير الحدث	١١٤ - ١٢١
موضوعات متفرّقة	١٢١ - ١٢٩
التعزية	١٢٩ - ١٣٣
الفصل الرابع: رثاء المرأة	١٣٤ - ١٥٨
الفصل الخامس: رثاء المدن	١٥٩ - ٢٠٨
رثاء المدن التي احتلها المغول	١٦٠ - ١٩٢
رثاء بغداد	١٦٠ - ١٧٦
رثاء الشام	١٧٧ - ١٩٢
رثاء المدن التي احتلها الصليبيون: رثاء الإسكندرية	١٩٣ - ٢٠٨
الفصل السادس: موضوعات رثاء أخرى	٢٠٩ - ٢٤٧
رثاء الحيوان	٢١٠ - ٢٢٢
رثاء الغلمان والمغنين	٢٢٣ - ٢٣٨
رثاء مظاهر حضارية	٢٣٨ - ٢٤١
رثاء اللهو والمجون	٢٤٢ - ٢٤٧
الفصل السابع: الدراسة الفنية	٢٤٨ - ٣٣٠
بنية القصيدة	٢٤٩ - ٢٦٣
اللّغة والأسلوب	٢٦٤ - ٢٩٦
الاتباعية	٢٩٦ - ٣٠٩
الصنعة البديعية	٣١٠ - ٣١٧
الصورة الشعرية	٣١٨ - ٣٣٠
خاتمة	٣٣٢
قائمة المصادر والمراجع	٣٣٣ - ٣٥٦
الملخص باللغة الإنجليزية	٣٥٧ - ٣٥٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخّص

فنّ الرّثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي الأوّل

إعداد

رائد مصطفى حسن عبد الرحيم

إشراف

الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن عبد المُهدي

تناولت هذه الدراسة موضوع " فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي الأول"، وقد نبعت أهميتها من كثرة أشعار الرثاء التي نظمت في هذا العصر، وتباين ألوانها، وتعدد مضامينها، فقد نظم الشعراء دواوين خاصة في رثاء بعض العلماء والملوك، وخصص بعضهم باباً خاصاً في ديوانه للرثاء، وشكّل ذلك الغرض الشعري جزءاً كبيراً من ديوان بعضهم الأخر.

وجاءت هذه الدراسة لتعطي صورة متكاملة عن الرثاء في ذلك العصر، وتكشف عن ألوانه، وما طرأ عليها من تطور وتجديد، وعن المضامين المختلفة التي قدمها الشعراء لكل لون على حدة، ولتبيّن نظرة الشعراء إلى الموت، ولتقف على السّمات الفنية لذلك الغرض الشعري. قامت هذه الدراسة على أساس منهج استقرائي، وصفي ، وتحليلي.

وقد اشتملت على سبعة فصول وخاتمة:

أما الفصل الأول، فتناول الأشعار التي نظمت في رثاء النفس والأهل والأقارب، وتبيّن منه أن الشعراء رثوا أنفسهم، إلا أنهم لم يكثروا من ذلك، ورثوا أبناءهم، وآباءهم، وإخوانهم، وأخوالهم.

وتحدث الفصل الثاني عن رثاء أرباب الدول، وهم الملوك والأمراء، والأعيان، والقادة، فكشف عن غزارة الشعر الذي نظم في رثائهم، وعن الدوافع التي دعت الشعراء الى ذلك.

وقد صور الشعراء في هذا اللون من الرثاء الحدث وأثره في نفوسهم خاصة، ونفوس الناس عامة، وكذلك أثره على مظاهر الطبيعة والكون، وكلّ ماله علاقة بذوات المرثيين، وتحدثوا عن المناقب والصفات، والحياة والموت، وعن بعض العادات التي كانت دارجة آنذاك في الحزن، والعزاء، والجنازة، وجمعوا بين التهنئة والعزاء، وهجوا بعض الموتى من أرباب الدّول.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخُصِّصَ الفصل الثالث للحديث عن مراثي العلماء والأدباء، فتبين منه أن هذا اللون من الرثاء أكثر لون قال فيه الشعراء، وأن هناك حوافز عدة حفزتهم على القول فيه، وقد صور فيه الشعراء الحدث والآثار الناجمة عنه، وعزّوا أنفسهم وذوي المرثيين، وذكروا المكان الذي توفي فيه عدد من المرثيين، وهجوا حسادهم وأعداءهم، وبعض الميتين منهم.

وتناول الفَصل الرابع رثاء المرأة، فبيّن قلّة الأشعار التي نظمت في رثائها، وهي قسمان:

قسم نظم في رثاء المحارم أمثال: البنت والزوجة والجارية، وقسم في رثاء غير المحارم أمثال: أمّ الصديق وأخته وزوجته.

وتحدث الفصل الخامس عن مراثي المدن التي احتلها المغول وهي بغداد سنة ٦٥٦هـ، والشام سنة ٦٥٨هـ، و ٦٩٩هـ، والمدن التي احتلها الصليبيون وهي مدينة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ.

واشتمل الفصل السادس على موضوعات رثاء أخرى، وهي مراثي الحيوان، ومراثي الغلمان والمغنّين، ومراثي اللّهو والمجون، وبعض المظاهر الحضارية.

وتناول الفصل السابع السمات الفنّية لشعر الرثاء في تلك الحقبة، فتمّ الحديث عن لغة ذلك الشعر، وخصائصه الأسلوبيّة، والاتباعية، والفنون البديعية، والصورة الشعرية.

وانتهت الرسالة بخاتمة أجملتُ فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدمة

الرثاء من أكثر الموضوعات علاقة وارتباطاً بحياة الإنسان، لأن موضوعه الموت الذي لا يسلم منه كائن حيّ، وهو من نتائج الموت والهلاك، ولولا الموت لما وجدت قصائد الرثاء، وهي باقية بقاء النّاس على وجه هذه البسيطة، يقول المبرد: " ... فالمراثي وأسبابها باقية مع الناس أبداً إذ كانت الفجائع لا تنقضي إلا بانقضاء المصائب، ولا يفنى ذلك إلا بفناء الأرض ومن عليها"[1].

وقد نظم الشعراء في العصر المملوكي الأول قصائد ومقطوعات كثيرة في الرثاء أودعوها زبدة تجاربهم في الموت والحياة، فبكوا موتاهم، ورثوا، وعزّوا، وأبّنوا، فكان لنا إرثٌ وافر في هذا الباب نجده مبثوثاً في ثنايا كتب الأدب، والتاريخ، والدواوين الشعرية، وتراجم الرجال المطبوعة منها والمخطوطة.

تنوعت ألوان الرثاء في هذا العصر مثل رثاء النفس والأهل والأقارب، وأرباب الدول، والعلماء والأدباء، ورثاء المرأة، ورثاء المدن المحتلة، وغيرها.

وقد عني بعض الباحثين بدراسة الرثاء ضمن كتبهم التي تتناول أدب العصر المملوكي، أو حياة أدبائه، ولم تعن دراسة مستقلة بدراسة هذا الغرض الشعري وحصر ألوانه، وتناول مضامينه المختلفة، الأمر الذي دفعني إلى دراسته.

وقد تفاوتت تلك الدراسات في مدى اهتمامها بذلك الموضوع، وبطريقة عرضه، فبعضها أشار إليه إشارات في سياق الحديث عن أدب ذلك العصر، ومنها ما درست ألواناً مختلفة من ذلك الشعر، وأخرى درست شعر الرثاء عند شاعر بعينه، ومن تلك الدراسات:

- كتاب "آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي" تأليف الدكتور ياسين الأيوبي، وتناول فيه المؤلف نماذج مختلفة من شعر الرثاء في ذلك العصر مثل: رثاء المدن، ورثاء النفس والأبناء، وتحدث عن بعض الشعراء المكثرين من نظمه أمثال: صفي الدين الحلي، وجمال الدين بن نباتة وغيرهم، وعرض نماذج من مراثيهم.
- كتاب "الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء" تأليف الدكتور أحمد فوزي الهيب، تحدث فيه المؤلف عن الحركة الشعرية في مدينة حلب زمن المماليك، وعن الأغراض الشعرية التي طرقها الشعراء في تلك الفترة ومنها شعر الرثاء وألوانه المختلفة مثل:رثاء المدن، ورثاء الأبناء، والأحفاد، والأصدقاء والجواري، والنفس، والعلماء وعرض نماذج شعرية كثيرة محاولاً دراسة مضامينها وخصائصها الفنية، وما فيها من تقليد وتجديد.

---

[1] المبرد، التعازي والمراثي، ٢٦٢/١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- كتاب "أمير شعراء المشرق ابن نباتة المصري" تأليف عمر موسى باشا، وفيه قسم الرثاء قسمين: المراثي الخاصة: وشملت رثاء أهل بيته، والملوك الذين كانوا قريبين من نفسه، والمراثي العامة: وتشمل مراثي الأصدقاء، والقضاة والعلماء، والأدباء، وبيّن مضامين تلك المراثي وما فيها من تقليد وابتكار وتجديد.
- كتاب "تاريخ الأدب العربي - العصر المملوكي" تأليف الدكتور عمر موسى باشا، وفيه درس بعض قصائد جمال الدين بن نباتة، وقسمها قسمين :
- المراثي الخاصة: وتشمل رثاء الأولاد، وأهل بيته "الزوجة أو الجواري"، ورثاء أهل وده.
- المراثي العامة: وشملت رثاء العلماء والفقهاء.

وقد عرض نماذج من تلك المراثي محاولاً دراستها دراسة موضوعية وفنية.

- كتاب "شعر صفي الدين الحلي" تأليف جواد أحمد علوش، وتحدث فيه عن الرثاء وألوانه المختلفة مثل: رثاء الأهل والأقارب، ورثاء السلاطين والقادة وأولادهم، ورثاء الأصدقاء وغيرها، وحاول الباحث دراسة بعض تلك الأشعار من حيث مضمونها وسماتها الفنية.
- كتاب "صفي الدين الحلي حياته وآثاره وشعره"، تأليف الدكتور محمد حوّر، وتحدث فيه عن الرثاء مبيناً ألوانه عنده وهي: رثاء الأهل والملوك والأمراء، والأصدقاء وأعلام عصره من علماء، وأدباء، وتأثره بالشعراء السابقين في هذا المجال معارضة وتضميناً.
- كتاب "التيارات الأدبية إبان الزحف المغولي" تأليف الدكتور محمد التونجي، تحدث فيه المؤلف عن التيارات الأدبية التي كانت منتشرة في البلاد الإسلامية إبان الزحف المغولي، ومنها تيار الرثاء، وخاصة رثاء المدن التي احتلها المغول، وقد فصّل المؤلف بالحديث عن ذلك اللون من الرثاء ، وعرض نماذج منها محاولاً تقييمها فنياً.
- كتاب "أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري"، تأليف الدكتور مأمون فريز جرّار، تناول فيه المؤلف الأشعار التي واكبت الغزو المغولي للبلاد الإسلامية في تلك الفترة، ومنها الأشعار التي رثت المدن الإسلامية التي احتلها المغول، وعرض مضامينها وخصائصها الفنية.
- رسالة ماجستير غير منشورة بعنوان "صورة المغول في الشعر العربي - العصر المملوكي" تقدّمتُ بها للحصول على درجة الماجستير في الجامعة الأردنية سنة ١٩٩٧م، وأفردت فيها باباً للحديث عن أفعال المغول في المدن الإسلامية المحتلة مستمدة من الأشعار التي رثت تلك المدن.

وشجعني على دراسة هذا الموضوع أيضاً أهميته وما يحمله من قيمة إنسانية وأخلاقية تقوم برسم المثل الأعلى الذي تتطلع إليه الجماعة في مراحل تطورها المختلفة.

ومن هنا جاءت هذه الدراسة تهدف إلى:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- تقديم صورة متكاملة لشعر الرثاء في العصر المملوكي الأول وبيان ألوانه المختلفة، وما طرأ عليها من تطور وتجديد.
- الحديث عن المضامين المختلفة التي تناولها ذلك الغرض الشعري بألوانه المختلفة، إذ إنه من المعلوم أن ألوان شعر الرثاء متفاوتة في مضامينها.
- الوقوف على السمات الفنية لشعر الرثاء في هذا العصر.

وتناولت هذه الدراسة شعر الرثاء في فترة حكم الدولة المملوكية الأولى، أي من سنة (٦٤٨-٧٨٤هـ) إلا أنها لم تقتصر على البيئة التي حكمت فيها هذه الدولة، وهي مصر والشام، وإنما تجاوزتها لتشمل العراق. كما شملت مراثي الشعراء الذين عاشوا خارج تلك البيئة، ولكنهم نظموا في رثاء شخصياتها أو مدنها المحتلة، فعلى سبيل المثال الشاعر سعدي الشيرازي فارسي الأصل، إلا أنه رثى بغداد بقصيدة طويلة، وذلك حين سقطت بيد المغول سنة ٦٥٦هـ.

أما عن منهجي في هذه الرسالة، فقد اتبعت المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي، فعكفت على جمع المادة الشعرية من مظانها المختلفة، وطفقت أدرسها، وأصنفها، وأحلّلها، وكنت أتكئ على الحوادث والروايات التاريخية في المواضيع التي تتطلب ذلك، إذ إنها مادة مساندة للمادة الأدبية.

وحرصت على حصر ألوان الرثاء ودراسة كلّ لون على حدة، وتناول القضايا المختلفة التي طرقها الشعراء.

وقد واجهتني في ذلك مصاعب جمّة أهمها غزارة المادة الشعرية، وتشابهها في كثير من المعاني والمضامين، وصعوبة تنسيقها وتنظيمها، الأمر الذي أدى أحياناً إلى تشابه العناوين داخل فصول الرسالة.

وقد بنيت هذه الدراسة على سبعة فصول وخاتمة.

خُصِّصَ الفصل الأول للحديث عن رثاء الذات والأهل والأقارب: وهم الأبناء والآباء، والأخوة، والأخوال، واستثني منه الشعر الذي نظم في رثاء الأمهات والبنات والزوجات المرثيات، إذ إن الحديث عنه جاء ضمن فصل "رثاء المرأة".

وتناول الفصل الثاني مراثي أرباب الدول، وهم الملوك والأمراء والأعيان، فتحدثت فيه عن حجم الأشعار التي قيلت في رثائهم، والدوافع التي حفزت الشعراء على ذلك، وعن مناقبهم وصفاتهم، وتصوير الحدث، وعن الجمع بين التهنئة والعزاء، والحكمة، والمصير، والقبر ، وهجاء الموتى منهم.

وعالج الفصل الثالث رثاء العلماء والأدباء، فبيّنت فيه كثرة الأشعار التي قيلت في رثائهم، والأسباب التي وقفت وراء ذلك، كما تحدثت عن مناقبهم وصفاتهم، وتصوير الحدث،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهجاء بعض الميتين منهم، وهجاء حاسديهم وأعدائهم، وأساليب الشعراء في التعزّي، وعن القبر والمصير، ومكان الوفاة.

وتحدث الفصل الرابع عن رثاء المرأة، فتناولت فيه رثاء المحارم أمثال الأم والزوجة والبنت والجارية، وغير المحارم أمثال أمهات الأصدقاء، وأخواتهم وزوجاتهم، وتحدثت فيه عن حزن الشعراء وتعاستهم عقبهن، وعن المناقب والصفات التي أسبغوها عليهنّ، وأساليبهم في التعزّي، مراعياً في ذلك جوانب الاتفاق والاختلاف بين مضامين المراثي التي قيلت في رثاء المحارم وغير المحارم من النساء.

ودرست في الفصل الخامس مراثي المدن التي احتلها المغول وهي بغداد سنة ٦٥٦هـ، والشام سنة ٦٥٨هـ،و٦٩٩هـ، ومراثي المدن التي احتلها الصليبيون، مثل الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ.

أما الفصل السادس، فقد تناول موضوعات رثاء أخرى، فتحدثت فيه عن رثاء الحيوان، ورثاء الغلمان والمغنّين والمماليك، ورثاء بعض المظاهر الحضارية، ورثاء اللهو والمجون.

واشتمل الفصل السابع على الدراسة الفنية، وتناولت فيه أهم السمات الفنية لشعر الرثاء في تلك الحقبة، فتحدثت عن اللّغة والأسلوب ، والاتباعية، والصنعة البديعية، والصورة الشعرية.

وينتهي البحث بخاتمة أجملت فيها النتائج التي توصلت إليها.

وفي الختام أتوجّه بالشكر الجزيل إلى أستاذي الدكتور عبد الجليل عبد المهدي الذي أحاطني برعايته، واهتمامه، فشجعني، وأرشدني، ونصحني، وصوّبني، حتى استوى هذا البحث على سوقه، فجزاه الله عنّي خير الجزاء.

رائد عبد الرحيم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

رثاء النّفس والأهل والأقارب

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رثاء النفس

رثاء النفس قديم في الشعر العربي، فثمة شعراء في عصر ما قبل الإسلام، وفي مختلف عصور الشعر العربي رثوا أنفسهم، وذلك حينما وقفوا قبالة الموت وجها لوجه، وشعروا بدنو أجلهم، وتغير أحوالهم، فتصورا أنهم ماتوا فعلا، وقد جاءت مراثيهم معبرة عن أزمة الإنسان، وما يجره اعتقاده بفنائه من يأس ومعاناة.[١]

وعرف شعراء العصر المملوكي الأول هذا اللون من الرثاء، ونظموا فيه قصائد ومقطوعات، ولكن النصوص التي عثر عليها قليلة، والسمة الغالبة عليها القصر، ولعل ذلك مرده إلى طبيعة الحالة النفسية للشاعر، وربما " لسوء حالته الصحية التي لا تسمح له بأن يطيل، وخاصة إذا قال مرثيته عند دنو أجله"[٢].

وممن نظم في هذا الموضوع رشيد الدين البصراوي الحنفي، فقد رثى نفسه بقصيدة تخيل نفسه لحظة الموت، وما اعتراه من خوف وحرص على الحياة، وألقى الضوء على جثته وقد تغيرت معالمها، وأهيل عليها التراب، وأضحت مرتعا للديدان مما زاد من تعاسته وحزنه، وجعله يذرف الدموع الغزار، يقول:[٣]

يا عَيْنُ سُحّي دَمَاً وَسُحّي ... غدا تُخلّين في الضّريحِ
ويُصبْحُ النّورُ مِنْك يُمْحَى ... والحُسنُ من وَجهك الصّبيحِ
تمسين والدّودُ سوف يَغشَى ... سوادَ إنسانك المليحِ
يا طولَ غَمّي وما تلا في ... صَفحَةِ وجهي من الصّقيحِ
كأنّني بي وقد أتاني ... رسولُ ربّي ليقبضَ روحي
ينزعها من يدي حريصٍ ... على مُوالاتها شحيحِ
ضاق لخوفِ الوِرْد صدري ... وساحة النّهج الفسيحِ

ويلجأ الشاعر في نهاية قصيدته إلى تعزية نفسه إذ اعترف بأن الموت كأس تدور على الجميع، ولا طاقة لأحد على مواجهته، ولذا دعا نفسه إلى ترك الشكوى والخوف، والانشغال بالطيب من القول، لأنه هو الذي ينفعها في الحياة الأخرى، يقول:[٤]

---

[١] انظر شوقي ضيف، الرثاء، ص٣٠ وما بعدها، مقبول علي، المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام، ص١٣٨، مظفر غانم، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ٢٣٠-٢٣١، عبد المعين الملوحي، الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت.

[٢] مظفر غانم، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص٢٤٤-٢٤٥.

[٣] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٢٦٧/٤.

[٤] المصدر نفسه، ٢٦٧/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكُـلُّ مَـنْ فـي الـوَرى عليـلٌ فـأينَ أشـكو إلـى صَحيـحِ
انطـق بخَـيرٍ فسـوف يَـأتَي صمـتٌ علـى نُطقِـكَ الفصيـحِ
كـلُّ كتـابٍ ومـا خُلقنـا لـه سَـيَنْجابُ بـالضّريحِ

ورثى الشاعر صلاح الدين الصفدي نفسه بأبيات تحدث فيها عن جسده بعدما دب فيه الضعف والهزال، وركز على تصوير موقف الناس منه، فقد تغيرت نظرتهم له، وعافوا رؤيته، وأضحوا فريقين: فريق يتمنى موته وزواله، وآخر شامت به وسعيد لدنو أجله، وتساءل الشاعر في نهاية أبياته عن جدوى البكاء لراحل عن الدنيا، فقال:[١]

كأنّي بـهذا الجِسْـمِ أصبـحَ عـاطلاً وَشَـملُ قـواه بالممـات مُشَـتّتُ
وقَد عافَـه مـن كـان يـهوى لقـاءه وَأنْكَرَهُ مـن طالمـا كـان يُثْبـتُ
وكـم قـائلٍ لا أبْعَـدَ الله دارَهُ وآخـرُ جـذلانٌ يُسـرُّ وَيَشْـمُتُ
فماذا الذي يُجدي على سـاكنِ الثّرى إذا كان يُبدي الحُـزنَ أو يُثبـتُ
قَضَىَ وَمَضَى هيهات لـو يَنْفَـعُ البكـا كأن لم يَكُن من قد غدا وهو ميّـتُ

يضع الشاعر يده على ما يفعله الكبر وتقدم العمر بالإنسان، فهو لا يؤلمه الموت بحد ذاته، وإنما تغير الناس، وانفضاضهم من حوله، وشماتتهم به.

ومن الشعراء الذين رثوا أنفسهم شهاب الدين التّلعفري، فقد عمر هذا الشاعر إثنتين وثمانين[٢] سنة، وقبل موته نظم مقطوعة عبر فيها عن تمنيه الموت، وغبطته به، وطلب من أصحابه أن يهنوه بانتقاله من الحياة الدنيا إلى الآخرة حيث عفو الله ورحمته، يقول:[٣]

إذا مـا بـاتَ مِـنْ تُـربٍ فراشـي وبـتُّ مجـاورَ الـرّب الرّحيـمِ
فـهنّوني أصيحـابي وقولـوا لك البشرى قَدِمْـتَ علـى كريـمِ

ومن العجيب أن يتمنى التّلعفري الموت، وأن يدعو أصحابه إلى تهنئته به، ولعل سبب ذلك الحياة المليئة بالآثام التي عاشها الشاعر، فقد ذُكر أنه كان " خليعا معاشـراً امتحـن بالقمـار"، واشتهر أمره بذلك فنودي في حلب: أي أنه من قامر مع الشهاب التلعفري قطعنا يـده، عندئـذ ضاقت عليه الأرض فجاء إلى دمشق، ولم يزل يستجدي ويقامر،[٤] ولذا حين أحس بدنـو أجلـه شعر بالخوف وراح يتمنى الموت، رجاء رحمة الله وغفرانه.

ومما يدخل في هذا الموضوع بكاء الشعراء شبابهم الزائل وقد كان هـذا الـزوال مثـار حزن وألم كبيرين لهم، ففي مرحلة الشباب يكون الإنسان في قمة عطائه، فإذا ولت أيامها، وأفـل

---

[١] الصفدي، الغيث المسجم، ٢٠١/٢.

[٢] الصفدي، الوافي، ٢٥٥/٥، الكتبي، فوات الوفيات، ٦٢/٤.

[٣] الصفدي، الوافي، ٢٥٧/٤-٢٥٨.

[٤] المصدر نفسه، ٢٥٦/٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نجمها حلّ محلّها الضعف والعجز، وطرأ تغير كبير على شكل الإنسان وحياته، الأمر الذي يزيد من حسرته، ويضاعف تلك الحسرة" أن ذهاب الشباب ذهاب للإنسان نفسه، كما أن مرحلة الشيخوخة وما فيها من حرص وضعف تزيد من أوار تلك الحسرات، وذلك الندم، الأمر الذي جعل الشعراء يندبون شبابهم كثيرا"[١]، ، ومن شعراء العصر المملوكي الاول الذين ندبوا شبابهم صدر الدين بن الوكيل في قوله:[٢]

بَكيتُ على فَقْد الشّبابِ المودّع ... دَمَاً بعدما أفنيْتُ دَمعي ومَدْمعي
وبُدّلْتُ من سُكرِ الشّبيبةِ صَحْوَةً ... من الشّيبِ قالتْ للمَسَرّةِ، ودّعي
فطلّقتُ لذّاتي ثلاثاً ولم تَكُنْ ... لها رَجعَةٌ منّي إلى يَوْمِ مَرجعي

تعكس الأبيات حياة اليأس والقنوط التي عاشها الشاعر عقب زوال شبابه، ولذا بكاه بالدموع الغزيرة، واستسلم لمصيره، وطرد المسرّات والملذات من حياته، وطلّقها ثلاثاً لا تحل له إلى يوم يبعثون.[٣]

ويصف الشاعر عبد الله بن محمد بن عبد القادر سرعة انقضاء الشباب وزواله، إذ قارن بين حاله قبل ذهابه وبعده، فقال:[٤]

يا عَصْرَ شبابي المُفَدَّى أرأيتْ ... ما أسْرَع ما بعدتَ عَنّي ونأيت
قد كُنْتَ مساعدي على كيتٍ وكيت ... واليوم فلو أبْصَرْتَ حالي لبكيت

ومثل هذه المعاني وغيرها تتجلى في قول ابن كثير صاحب كتاب "البداية والنهاية[٥]

تمرُّ بنا الأيامُ مرّاً وإنّما ... نُساقُ إلى الآجال والعَيْنُ تَنْظرُ
فلا عائدٌ ذاك الشبابُ الذي مَضى ... ولا زائلٌ هذا المشيبُ المكدّرُ
ومن بعد ذا فالعَبْدُ إما مُنعَّمٌ ... كريمٌ وإما بالجحيم يُسَعَّرُ

تفوح من هذه الأبيات رائحة الحكمة والموعظة، فهي تلخص حياة الإنسان وتنقله فيها من مرحلة الشباب والفتوة إلى الشيخوخة والعجز، ومن ثم الموت وما يعقبه من مصير.

---

[١] د. أحمد فوزي الهيب، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، ص٢٦٤.

[٢] الإسنوي، طبقات الشافعية، ٢/٤٦٠.

[٣] انظر: د. أحمد فوزي الهيب، الحركة الشعرية، ص٢٦٤.

[٤] ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/٢٦٦.

[٥] الذهبي، الذيل التام على دول الإسلام، ص٢٥٩، ابن حجر، أنباء الغمر، ١/٤٧، ابن العماد، شذرات الذهب، ٦/٤٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رثاء الأهل والأقارب

رثاء الأهل والأقارب من أقدم صور الرثاء في شعرنا العربي، نظم فيه الرجال والنساء، وقد كان للمرأة " الجاهلية في هذا المجال القسط والنصيب الأوفر، إذ كانت تندب أباها وإخوتها، فما تزال تنوح على من يتوفى منهم حتف أنفه، وعلى من يموت قعصا بالرماح"[١]، ومثلها فعل الرجل في ذلك العصر، وفي العصور التي تلته، وسار على طريقتهم شعراء العصر المملوكي الأول فندبوا أهلهم وأقاربهم ورثوهم، وبكوهم بكاء مرا، واقتصرت الأشعار التي عثر عليها على رثاء الأبناء والآباء والإخوة والأخوال.[٢]

رثاء الأبناء

هذا اللون من الرثاء نظم فيه الشعراء منذ العصر الجاهلي وعبر عصور الأدب العربي المختلفة، وقد اهتم بأشعارهم أدباء العرب ونقادهم قدماؤهم ومحدثوهم، فجمعوا الكثير منها في كتب خاصة، وعكفوا على دراستها وتحليلها.[٣]

حظي هذا اللون عند شعراء العصر المملوكي الأول بنصيب الأسد من مراثي الأهل، إذ نظموا فيه أشعاراً كثيرة، وقد أكد كثرتها مؤرخو ذلك العصر وهم يترجمون لشخصياته، فعلى سبيل المثال ذكر أنه حين توفي الشاب الظريف شمس الدين بن العفيف التلمساني تألم " أبوه لفقده وحزن عليه حزنا زائدا ورثاه بشعر كثير" [٤]،وقيل: إن والد تاج الدين بن القاضي شهاب الدين بن غانم رثاه "بشعر كثير"[٥]، ولشهاب الدين أبي العباس الزرعي " مراث في ولده عمر"،[٦] فعلى الرغم من تصريحهم – أي المؤرخين – بكثرة ما نظم أولئك الشعراء إلا أنهم أحجموا عن ذكر الكثير من أشعارهم، ولم يكتفوا بذلك، فاختزلوا بعض مراثي الأبناء الطويلة،

---

[١] د. شوقي ضيف، الرثاء، ص١٣، وانظر حسين جمعة، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، ص٤٨، مقبول علي، المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام، ص١٤٨.

[٢] ورثى الشعراء أمهاتهم وبناتهم وزوجاتهم، وسيأتي الحديث عن ذلك في مبحث "رثاء المرأة"

[٣] من هذه الكتب: كتاب د. محمد حور، رثاء الأبناء في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، د. نجيم صالح، رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري.

[٤] المقريزي، المقفى، ٥/٦٩٥.

[٥] الصفدي، أعيان العصر، ٢٢/٦٥٢.

[٦] ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٢/٥٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يذكروا منها سوى المطلع، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في ترجمة داود بن الحسن بن المنصور بن سوّاق أنه حين توفي سنة ٧٠٦هـ فجع به أبوه ورثاه بقصيدة أولها[١]:

مُصابُكَ يا داودُ لَيْس يَهونُ فَقَدْ أنبعتْ فيكَ العيونَ عيونُ

وقال ابن العراقي في أخيه إبراهيم بن عبد الرحيم المتوفى سنة ٧٨٤هـ: " وحصل لوالده عليه تألم كثير لحسن صورته وخلقه وكثرة توده، وذكائه، وفطنته، وتوسمه النجابة، ورثاه بأبيات أولها:

أإبراهيمُ كُنْتَ لي أنيساً تروِّح بالحديث لنا نفوسا[٢]

أما المراثي التي عثر عليها، فهي لشعراء متفرقين، واشتملت على موضوعات مختلفة ومنها الندب والتأبين والعزاء.

أما موضوع الندب ووصف الناحية الوجدانية فهو جزء لا يتجزأ من بنية المراثي، وذلك أن الرثاء مبني على شدة الجزع،[٣] ويجب "أن يكون شاجي الأقاويل مبكي المعاني مثيرا للتباريح."[٤]

وإذا كانت تلك المعاني الشجية سمة الرثاء عامة، فإنها من الأولى أن تكون في مراثي الأبناء خاصة، ذلك أنها من أكثر ألوان الرثاء ذاتية، فحزن الشعراء على أبنائهم لا يدانيه حزن، فهم " فلذات الأكباد ولموتهم مرارة تتقد في الصدور فتأكل القلوب"،[٥] ولذا قيل: إن موتهم "صدع في الكبد لا ينجبر آخر الأمد".[٦]

وقد عبرت أعرابية بسليقتها عن مصيبتها في ابنها حين سئلت بعد وفاته: " ما أحسن عزاءك؟، قالت: إن فقدي إياه أمنني كلّ فقد سواه، وإن مصيبتي به هونت علي المصائب بعده".[٧] وأكدت الأحاديث النبوية، عمق المأساة بموت الأبناء حين حثت الآباء على الصبر والسلوان، ووعدتهم بالأجر العظيم، وبينت لهم أن هذا الأجر يتضاعف بزيادة عدد الأبناء المتوفين، ومنها ما روي " عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قدّم ثلاثة لم يبلغوا الحنث كانوا له حصنا حصينا من النار، فقال أبو ذرّ: قدمت أثنين قال: واثنين، قال أبيٌّ بن كعب سيد القراء: لقد قدمت واحدا، قال: وواحدا لكن إنما ذلك عند الصدمة الأولى".[٨] ومن هنا كانت مراثي الأبناء لوحة تقطر بالحزن والأسى،وتتسم بالصدق

---

[١] الأدفوي، الطالع السعيد، ص٢٤١، الصفدي، أعيان العصر، ٢/٢٤٨، ابن حجر، الدرر الكامنة، ٢/١٨٧.

[٢] ابن العراقي، الذيل على العبر، ٢/٥٣٤.

[٣] ابن رشيق، العمدة، ٢/١٥٣.

[٤] حازم القرطاجني،منهاج البلغاء، ص٣٥١.

[٥] د. شوقي ضيف، الرثاء، ص٢١٧.

[٦] ابن عبد ربه، العقد الفريد، ٣/٢٥٨.

[٧] المصدر نفسه، ٣/٢١٧، المدائني، التعازي، ٢/٦٩، ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص٥٢-٥٣.

[٨] ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص٩١وما بعدها، الغزالي، سكرات الموت، ص١٥٠-١٥١.

٥٤٣٣٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والواقعية، فهي نتاج معاناة وتجربة حقيقية صاحبت الحدث، وتلقت تأثيره المباشـــر. واكتسـبت مراثي الأبناء في العصر المملوكي الأول تلك السمات إذ عكست مشاعر صادقة فصـــورت مـــا خيّم على الشعراء من حزن وأسى، وكشفت عن قلوبهم المحترقة، وأكبادهم المتفتتـــة، وحياتـــهم المريرة، ودموعهم المتدفقة والممزوجة بالدماء، ويؤكد صدقها أنها لم تتغير ولم تتبدل مـــن أول القصيدة أو المقطوعة إلى آخرها، فظلت ملتهبة تنبئ عن حرارة نفوســـهم المكلومـــة، وقلوبـــهم الجريحة.

وقد تقاربت المعاني والصور التي قدموها تقاربا واضحا، " ولعل مرد ذلك إلى أن طبيعـــة النفس الإنسانية في مثل هذه الأحداث متقاربة وإن لم تكُن واحدة"[١]

ومن المعاني التي قدموها في هذا الموضع أنهم راحوا وهم يبثـــون لوعاتـــهم، وينفثـــون آهاتهم يلقون تبعة موت أبنائهم على الزمن والدهر، ويجعلون منه العـــدو الـــذي يـــتربص بـــهم ويحرمهم طعم السعادة والهناء، وهذا ما عبر عنه جمال الدين بن نباتة حين أعلن عـــن تماســـكه أمام الزمن وصروفه، وأنه لم يعد يخشاه أو يرجو لينه بعدما اختطف منه أغلى الناس عليه ابنـــه عبد الرحيم، يقول:[٢]

أقْصَدْتَنـــي يـــا زمـــاني ... كـــأنّني كُنْـــتُ قَصْـــدكْ
وكـــان مـــا خِفْـــتُ مِنْـــه ... فأجْـــهدِ الآنَ جَـــهْدكْ
لا لينَـــك اليـــوم أرجـــو ... ولَسْـــتُ أرْهَـــبُ شـــدّكْ

ويصب الشاعر شهاب الدين بن غانم جام غضبه على الموت الذي انتزع منه ولـــده تـــاج الدين، ويصور نيران الحزن المتأججة في جوانحه، ويبين أنـــه لا خـــلاص منـــها إلا بـــالموت ويتجلى ذلك فيما كتبه تحت خط ابنه بعد وفاته:[٣]

أهـــا لكاتبـــها ومـــا ... فَعلَـتْ بأنْمُلِـــها الظّـــراف
نُـــوَبُ المنـــون العارضـــا ... ت لِكُـــلّ حـــيٍّ بـــالتّلاف
تجتـــاحُ أرْواحَ الـــورى ... بظواهـــرٍ مِنْـــها خـــواف
لتعيدهـــم كَمَرامـــدٍ ... بـــالريح تَنسِـــفُها السّـــواف
أجّجْـــنَ نـــيرانَ الجحيـــ ... ـــمِ أسـىً بقلبـي والشّـــغاف
أطْلقـــن سَـــقماً مالَـــهُ ... إلا عـــلاجُ المـــوتِ شـــاف

واستعان الشعراء في وصف حالتهم النفسية وما آلوا إليه بعد الحدث بوسائل متعددة، وكـــان أكثرها النداء، فقد وجدوا في مناجاة أبنائهم متنفسا يفرج عنهم كربتهم، ويطلق آهاتهم ولوعاتـــهم،

---

[١] د. نجيم صالح، رثاء الأبناء، ص١٩.

[٢] ابن نباتة، الديوان، ص١٥٦.

[٣] الصفدي، أعيان العصر، ٦٥٢/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويؤكد قرب أولئك الأبناء من نفوسهم، فهذا الشاعر عفيف الدين التلمساني يلجأ إليه، ويكرره في القصيدة التي رثى بها ابنه شمس الدين وذكر بها أخاه محمدا، فيعمق من خلاله الصورة التي رسمها لضعفه ويأسه ونفاد صبره وتمنيه الموت، ويتبين فيها أن ما زاد من حزنه وتعاسته أن ابنه مات في وقت كان فيه الوالدان في سن الشيخوخة والعجز الذي يصعب معه إنجاب الأطفال، يقول:[١]

مالي بفَقْد المُحَمّدين يَدُ ... مَضَى أخي ثُمّ بَعْدَهُ الوَلَدُ
يا نار قَلبي وأينَ قلبي أو ... يا كبدي لو يكونُ لي كِبدُ
يا بائعَ الموتِ مشتريه أنَا ... فالصّبْرُ ما لا يُصابُ والجَلَدُ
بي كِبَرٌ مَسّني وأُمُّك قَدْ ... شَاخَتْ فمن أين لي الولد؟

وفقد محيي الدين بن النحاس ابناً له أسمه عمر، فأسف عليه أسفا شديدا، ورثاه بأبيات عبر فيها عن حرقته، وعما يكنه لأبنه من حب عميق " ويبدو هذا في ندائه الموحي الحزين يا سمعي ويا بصري، ويبدو فيما تتركه ذكراه عليه من حزن كاد يقضي عليه، ويبدو أيضا في جملته الدعائية التي أنهى بها مقطوعته"[٢] ،يقول:[٣]

اللهُ يَعْلَمُ ما في القَلْبِ مِن أسَفٍ ... عَلَى فِراقِك يا سَمْعي ويا بَصَري
إذا تذكّرتُ شَمْلاً كان مجتمعاً ... فإنّ نفسيَ في الدُّنيا على خَطَرِ
وإنْ حَلَلْتُ مَحَلاً كُنْتَ مُؤنِسَهُ ... ناديْتُ لا أوْحَش الرّحمنُ من عموي

ورثى أبو الحسين الجزار ولدا له كانت إحدى عينيه قد أصيبت بجدري، بقصيدة وصل إلينا منها أربعة أبيات، استعان فيها بالقرآن الكريم، وبأسلوب المقابلة ليرسم صورة لحياة الجحيم التي عاشها بعده، وما نزل به من وهن وضعف،فقال:[٤]

مِنْ بَعْدِ فَقْدِكَ قُلْ لي كَيْفَ أصْطَبِرُ ... والحُزْنُ عندي لا يبقي ولا يَذرُ
يا مَنْ أقامَ بجنّاتِ النّعيمِ وفي ... قلبي عليه لهيبُ النارِ يَسْتَعِرُ
كم قَدْ تأسّفتُ لكنْ لم يُفِدْ أسَفي ... كَمَا حَذِرتُ وما أغنانيَ الحَذَرُ
بكيتُ إذْ قيلَ في عَيْنِهِ أثَرٌ ... فَكَيْفَ حالي ولا عَينٌ ولا أثَرُ

وعز على بعض الشعراء ومنهم محمد بن أبي بكر المارديني أن يدخل داره بعد رحيل ابنه عنها، وأن يمشي على الأرض التي دفن فيها، فقال في رثائه:[٥]

---

[١] الصفدي، الوافي، ٣/١٣٥، الكتبي، فوات الوفيات، ٣/٣٨١، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٨/٨٨-٨٩.

[٢] د. أحمد فوزي الهيب، الحركة الشعرية في حلب الشهباء زمن المماليك، ص٢٦٠.

[٣] محيي الدين القرشي، الجواهر المضية، ٣/٤٠٢.

[٤] ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ١/٣٤٧.

[٥] الطباخ، أعلام النبلاء، ٥/١٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعزُّ عليّ يـــا ولـــدي وعينـــي ... ويا من فاقَ بالفَضلِ النّبيـــهِ
بأن ألجَ الدّيـــارَ ولَسْـــتَ فيـــها ... وأنْ أطأ التُّرابَ وأنتَ فيـــهِ

ومن أطول مراثي الأبناء في هذا العصر القصيدة التي نظمها شهاب الدين الزرعـــي فـــي رثاء ابنه عمر، فقد بلغت أثنين وأربعين بيتا، صور في قسم كبير منها جزعه، وغصصه وعمـق جراحه، وبدا فيها كالمتيم الذي أوجعه هجر محبوبه، فراح يسكب العـــبرات، ويتلظـــى بنـــيران الجوى والشوق، ويتمنى الموت على حياة الأسى والعذاب وقلة الصبر، فقال منها:[١]

عَزّ العَزَاءُ فَدَمعُ عينـــــي يَـــهْمَعُ ... أسَفَاً علـــى عُمَـــرٍ وقلبـــي مُوجَـــعُ
والوَجْدُ موجـــــودٌ ونـــارُ فراقِـــهِ ... في مُهجتي مُذْ بـــانَ عَنّـــي تَلْـــذَعُ
ما خِلْتُـــهُ يفْنَـــى وألقـــى بَعْـــدَهُ ... فـــي كـــلّ حيـــنٍ بـــالفِراق أُرَوّعُ
أسفي عليه ومـــا يفيـــد تأسُّـــفي؟ ... لـــهفي عليـــه لـــو أنّ لَـــهْفاً يَنْفَـــعُ
غلب الأسى صبري فعزّ تجلّـــدي ... لجوى الحنينِ علـــى لظَـــاه أضلّـــعُ
يا راحلاً لم يبـــقَ بَعْـــد رحيلـــهِ ... للصّبر في قَلْـــبِ المتيّـــم مَوْضِـــعُ
لو كان يُفْدى جُدْتُ عنْهُ بمـــهجتي ... جـــود امـــريء بحياتِـــهِ يتـــبرّعُ

ثم يلقي الشاعر الضوء على حياته المكروبة، إذ غاب عنها طعم السعادة والسرور، وحـــل محله فيض الدموع والأحزان المتجددة التي أضحت كالقميص يرتديه على مر الأيـــام، ويقـــارن بين حاله في الماضي والحاضر، فقد كان لا يرضيه لقاء ابنه الدائم، أما اليوم وبعد رحيله رحلـــة اللاعودة، فأصبح يكفيه منه طيف الخيال، يقول:[٢]

لو أستطيع كَفَفْتُ فيضَ مَدَامعـــي ... هَيْهات ذاك وَعَيْنُ حُزْني تَتْبـــعُ
يا غائباً غـــاب السّـــرورُ لِفَقْـــدِهِ ... والحزنُ يَغْرُبُ في الفؤادِ ويَطْلُـــعُ
قد كُنْتُ لا أرْضى بوَصْلِكَ دائمـــاً ... واليومَ عُدْتُ بَزور طَيفكَ أقْنَـــعُ
حزني عليك مجـــدّدٌ وقميصُـــهُ ... عَنّي على طُولِ المَدى لا يُخْلَـــعُ

وكان ابن نباتة المصري، أكثر شاعر ابتلاء بموت أبنائه، إذ سقط منهم عدد كبـــير أمـــام عينيه، وسقطت معهم أحلامه وآماله، وقد وصف صلاح الدين الصفدي، وهو صديق ابن نباتـــة، تلك المأساة بقوله: " وأُضيف إلى نكد الزمان أنه لم يعش له ولد، فدفن فيما أظن قريبا من ســـتة عشر ولداً كلهم إذا ترعرع وبلغ خمساً أو ستاً أو سبعاً يتوفاه الله فيجـــد لذلـــك الآلام المبرحـــة ويرثيهم بالأشعار الرائقة الرقيقة"،[٣] ووصل من تلك المراثـــي ثـــلاث قصـــائد طويلـــة وعـــدة مقطوعات جلها في ابنه عبد الرحيم. وهي أشعار اقتطعها الشاعر من كبـــده، فجـــاءت تنطـــق

---

[١] ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٥٦٧/٢.

[٢] المصدر نفسه، ٥٦٨/٢.

[٣] الصفدي، الوافي، ٣١٢/١، وانظر ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٢٩٥/٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

باللوعة، وتتفجر بمعاني الأسى والشقاء، وتعددت أفكارها وتنوعت صورها، ولكنها ظلت تدور في دائرة الحزن والألم، ويتضح منها أن الشاعر كان كلما رزق بمولود واستبشر به خيراً، ورجا الخير على يديه قام الموت باختطافه منه وتبديد تلك الآمال، فيقع لذلك فريسة للهموم والأحزان، وهذا ما يوضحه قوله في رثاء ولد له لم يكتمل حولا:[١]

يا راحِلاً مِنْ بَعْدِ ما أقْبَلَتْ ... مَخَايِلٌ للخَيْرِ مَرْجُوَّهْ

لَم تَكْتَمِل حولاً وأوْرَثْتني ... ضَعْفَاً فَلا حَولٌ ولا قُوَّهْ

ويصور في مقطوعة أخرى ما تركه حزنه على أحد أبنائه من أثر على قريحته الشعرية، فيقول:[٢]

قالوا فُلانٌ قَدْ جَفَتْ أفكارُهُ ... نَظْمَ القريضِ فلا يكادُ يجيبُهُ

هيهاتَ نَظْمُ الشّعرِ منهُ بَعْدَما ... سَكَنَ التُّرابَ وليدُهُ وحبيبُهُ

ويظهر من النصوص الشعرية التي نظمها ابن نباتة في رثاء أبنائه أنه كان حزينا على ولده عبد الرحيم أكثر من غيره من الأبناء، وتؤكد ذلك رسالته " حظيرة الأنس إلى حضرة القدس"، تلك الرسالة التي كتبها بعد أن عرض عليه الوزير الأشرف الأميني زيارة بيت المقدس بصحبته رجاء التخفيف عنه ومواساته، فأجابه الشاعر إلى ذلك وقاما بزيارتها، ومما جاء فيها"... وكان له في اصطحابي مقصد تقبل الله عمله الصالح، ومتجره الرابح، وذلك أني كنت لابساً ثياب الحزن على ولدي مقيما بين المقابر، إقامة تفت حبه قلبي على قطعة من كبدي، سلقيا روض الحزن بغمائم الجفون، باكيا على دينار وجه عاجلته الأيام بصرف المنون، وأطلب قلبي في الترب، أطارح صوت الصدى فينشد لي وأنشده:

يا لَهْفَ قَلْبي على عبدِ الرّحيمِ ويا ... شَوْقي إليه ويا نَوْحي ويا دائي

في شهرِ كانونَ وافاه الحِمامُ لَقَدْ ... أحْرَقْتَ بالنّارِ يا كانونُ أحشائي[٣]

وقد نظم ابن نباته ثلاث قصائد في رثاء ابنه رسم فيها صورة دقيقة، لشدة مصابه، وسوء حاله، وعمق جراحه، وتجلت معالم تلك الصور الحزينة في قوله:[٤]

---

[١] ابن نباتة، الديوان، ص٦٣.

[٢] ابن نباتة، الديوان، ص٥١، ابن حجة،كشف اللثام، ص٨٥.

[٣] ابن حجة، ثمرات الأوراق، ص٣٦٠، كشف اللثام، ص٨٥، خزانة الأدب، ١٥٣/٢، ابن نباتة، الديوان، ص٦٢.

[٤] ابن نباتة، الديوان، ص٢١٧-٢١٨، ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص١٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الله جَـارُك إنّ دَمْعـــيَ جـــاري ... يا موحـــشَ الأوطـــانِ والأوطـــارِ
لَمّا سَـــكَنْتَ مـــن الـــتّرابِ حَديقـــةً ... فَـــاضَتْ عَلَيْـــكَ الدّمـــعُ بالأنْـــهارِ
شتّان ما حالي وَحـــالُك أنـــت فـــي ... غُرَفِ الجِنانِ وَمُهْجتي فـــي النّـــارِ
خَفَّ النّجا بِكَ يا بنيّ إلـــى السّـــرى ... فَسَـــبَقْتَني وَثَقُلْـــتُ بـــالأوزارِ
لَيْتَ الرّدى إن لَم يَدَعكَ أهابَ بـــي ... حَتّى ندومَ مَعَـــاً علـــى مِضْمـــارِ
أبكيكَ مـــا بَكَـــتِ الحَمَـــامُ هَديلَـــها ... وأحنّ مـــا حَنَّـــت إلـــى الأوكـــارِ
أبكـــي بِمُحْمَـــرّ الدّمـــوعِ وإنّمـــا ... تَبكي العيـــونُ نَظيرهـــا بنضـــارِ
قـــالوا تَصَـــبّر قُلْـــتُ إنّ وَرُبّمـــا ... كانَتْ به الحَسَراتُ غـــيرَ صِغـــارِ
وأحقّ بالأحزانِ ماضٍ لـــم يســـيء ... بَيـــدٍ ولا لَسْـــــنٍ ولا إضمـــــارِ

يكشف الشاعر عن تعاسته بعد ما وارى ابنه التراب، ويصف دموعه التي فاضت غزيـــرة من مآقيه وامتزجت بالدماء، ويعقد الأيمان أن تظل تلك الدموع منهلة ما دامت الحمـــائم تنـــوح بهديلها على أوراق الشجر، ويقابل بين حاله وحال ابنه وهنا يصوره وهو يتقلـــب فـــي جنـــات النعيم، أما هو فيتلظى بنيران الأسى واللوعة، وتثقله الذنوب، ولعل فكرة الأوزار التي جاء بـــها نابعة من اعتقاده بأنه جاوز الحد المسموح به شرعا في البكاء والنوح، ولذا غدت أحزانه آثامـــاً وأوزاراً، ومما زاد من حزنه أن ابنه مات صغيرا بريئا من الخطايا والذنوب.

ويؤكد الشاعر في قصيدة أخرى غزارة دموعه وعظم مأساته، ويصور أشجانه وقد لازمتـه الليل والنهار، وأشابت فوده، وأقضت مضجعه فحرمته من النوم، يقول مخاطبا ابنه:[١]

بنيّ لولاك ما استَعْذَبْتُ وِرد بُكـــيّ ... ولا أنِسْـــتُ بتســـــهيدٍ ولا أرَقِ
ليصنع الدّمْعُ والتّسْهيدُ مـــا صَنَعـــا ... فإنّ ذلـــك مَحْمـــولٌ علـــى الحَـــدَقِ
بنـــيّ لا وجبيـــنٍ تحـــت طُرّتِـــهِ ... لم يَخْلُ حُزْنك لا صُبْحي ولا غَسَـــقي
يهَيّجُ اللّيـــلُ نـــاراً فيـــك أُنْكِرُهـــا ... فإنْ صَدَقْتَ فقلبـــي ليلـــةُ الصّـــدقِ
ويَجْلِبُ الصُبْحُ لي مِمّـــا أُســـاء بـــهِ ... بياضَ شَعْرٍ فيا فَرْقـــي ويـــا فَرَقـــي

ومن كانت تلك حالته فمن الطبيعي أن تنهكه الكآبة، وتضنيه الأوجـــاع والآلام، وتضعـــف من عزيمته، وتجعله يفضل الموت على الحياة، يقول معبرا عن ذلك:[٢]

أها لَهَا حَسَرات لـــو رَمَيْـــتَ بِـــها ... ثهلانَ خَلّ حَصاةَ القَلْبِ لم تَطِـــق
مَضَيْتَ حيثُ بقايا العُمْرِ تضعف لي ... واطولَ حُزْنيَ مِمّا قد مَضى وبقـــي
قد أخْلَقَتْ جَسَدي أيدي الأسى فمتـــى ... للأرضِ تَرمي بهذا الملبسِ الخَلِـــق

---

[١] ابن نباتة، الديوان، ص٣٤٧-٣٤٨.

[٢] المصدر نفسه، ص٢٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واكتفى الشاعر عفيف الدين التلمساني في رثاء ابنه شمس الدين بوصف حزن خالاته عليه، فقال:[١]

أبْكيتَ خالاتِك الضّواحِكَ مِنْ قَبْلُ وما مِنْ صِفَاتِكَ النّكَدُ

وفي نهاية الحديث عن هذا الجانب من مراثي الأبناء تجدر الإشارة إلى أن الأفكار والصور التي عبروا بها عن ناحيتهم الوجدانية وموقفهم من الحدث، لم تكن جديدة، وإنما ظلت تدور في دائرة التقليد والمعاني التي تداولها شعراء هذا الاتجاه قبلهم.[٢]

* * *

وأشاد الشعراء بأبنائهم، وتحدثوا عن مناقبهم وصفاتهم التي كانوا يتحلون بها، وقد استحسن المبرد ذلك، في الرثاء فقال: " فأحسن الشعر ما خلط مدحا بتفجع، واشتكاء بفضيلة، لأنه يجمع التوجع الموجع تفرجاً، والمدح البارع اعتذاراً من إفراط التفجع باستحقاق المرثي، وإذا وقع ذلك بكلام صحيح ولهجة معربة، ونظم غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين"[٣]

ولم يكن هذا الجانب كبيرا في مراثي الأبناء في هذا العصر، وغيره من العصور،[٤] وقد فَسّر ابن رشيق ذلك حين قال: إن " أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلاً أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصفات"،[٥] ويتبين من مراثي الأبناء في العصر المملوكي الأول أن الرثاة أنقسموا في الحديث عن تلك المناقب والصفات إلى اتجاهين:

الاتجاه الاول: ويمثله الشعراء الذين رثوا أطفالهم، وقد ركز هؤلاء على وصف براءة أولئك الأطفال، ومحاسنهم الجسدية.

أما الاتجاه الثاني: فيتمثل في الشعراء الذي رثوا أولادهم الكبار، وقد أضاف هؤلاء إلى الصفات السابقة الحديث عن مناقب أبنائهم وفضائلهم النفسية، تلك السمات التي اكتسبوها من تقدم العمر بهم.

ومن هؤلاء الشعراء شهاب الدين الزُّرْعي، فهو يشيد بذكاء ابنه عمر وجماله، ويبين أن فقده لتلك الصفات هو الذي جعله يندبه ويبكيه، يقول:[٦]

أبكي وأنْدُبُ حَسْرةً ويحقّ لي إذْ من فُجِعْتُ به النّجيبُ الأرْوَعُ
كيف السّلوُّ وكيف أنْسَى ذكرَهُ وجَمَالُهُ عن ناظري لا يُقْلِعُ

---

[١] الصفدي، الوافي، ١٣٥/٣، الكتبي، فوات الوفيات، ٣٨١/٣، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٨٩/٨.

[٢] انظر د. نجيمر صالح، رثاء الأبناء، ص١٩ وما بعدها.

[٣] المبرد، التعازي والمراثي، ص٢٧.

[٤] انظر، د. نجيمر صالح، رثاء الأبناء، ص٣٨.

[٥] ابن رشيق، العمدة، ١٥٨/٢.

[٦] ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٥٦٧/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثله جمال الدين بن نباتة إذ أثنى على عقل ابنه عبد الرحيم، وصور محاسنه الجسدية وألقى الضوء على جمال قدّه وخدّه وثغره فقال متلهفاً:[١]

يَسِيلُ أحْمَرُ دَمْعي ... لمّا تَذكّرتُ خَدّكْ
وَقَدّ بالهمّ قَلْبي ... لمّا تذكّرتُ قَدّكْ
لَهفي عليه لحُسنٍ ... قد كان أسْبَل بَرْدَكْ
لَهفي عليك لعقلٍ ... قد كان أحْسَنَ عَقْدكْ
لَهفي عليك لثغرٍ ... قد كان يفضل عَقدكْ

ويصور ابن نباتة جمال ابنه عبد الرحيم ونضارته حين جعله مصدر الحسن كله، وأعطاه صورة الغصن والبدر والجوهرة التي طوى محاسنها التراب، وتجلت تلك المعاني في غير قصيدة ومقطوعة، ومنها قوله مخاطبا ابنه:[٢]

أصْبحتُ في الحُزْنِ وَخْدِي ... إذْ كُنْتَ في الحُسْنِ وَخْدَكْ

وقال:[٣]

بالرّغم إن باتَ بَدْرُ الأُفقِ مُعتلياً ... وباتَ بدريَ مدفوناً على الطُّرقِ

وقال متلهفا على تلك المحاسن:[٤]

لَهفي لغِصْنٍ راقني بنباتِهِ ... لو أمْهَلَتْهُ التّربُ للإثمارِ
لَهفي لجوهرةٍ خَفَت فكأنّني ... حَجَبْتُها من أدمعي ببحارِ

وتظهر صورة الجوهرة في قوله يرثي أحد أطفاله:[٥]

بَدَا وفي حَالِهِ تَوارى ... فيا لها طَلْعةٌ شَريفهْ
جوهرةٌ ما عَمِلْتُ لها ... إلاّ دموعَ عيني عقيقهْ

أما الشاب الظريف شمس الدين بن العفيف التلمساني، فقد مات وهو في سن السابعة والعشرين،[٦] وكان في حياته شاعرا مشهورا، اشتغل بالكتابة وخبر الخط وفنونه،[٧] وقد ذكر ذلك أبوه عفيف الدين حين رثاه، وأشاد بعلمه وتقواه فصور الملائكة محيطة به عقب موته، وصوره يتقلب في جنات النعيم، فقال متحسرا ومتفجعاً على زوال تلك المآثر والصفات:[٨]

---

[١] ابن نباتة الديوان، ص١٥٦-١٥٧.
[٢] المصدر نفسه ،ص١٥٧.
[٣] المصدر نفسه، ٣٤٨.
[٤] المصدر نفسه، ٢١٨.
[٥] المصدر نفسه، ص٦٣، ابن حجة، خزانة الأدب، ١٥٤/٢.
[٦] الشاب الظريف، الديوان، ص٩ من المقدمة.
[٧] المصدر نفسه، ص١٣ من المقدمة.
[٨] الصفدي، الوافي، ٣/ ١٣٥، الكتبي، فوات الوفيات، ٣٨١/٣، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٩٨/٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيــنَ البنــانُ التـــي إذا كَتَبَـــتْ وعَــايَنَ النّــاسُ خَطّــها سَـــجَدوا
أيــن الثّنايــا التــي إذا ابتَسَـــمتْ أو نَطَقَـــتْ لاحَ لؤلـــؤٌ نَضِـــدُ
مُحمّـــدٌ يـــا محمّـــد عـــدداً ومــا لمــا ليــس يَنْتَــهي عَـــدَدُ
مَاذا على الغاسلينَ إذ قـــرُبَ الـــ أمــلاكُ منــه لــو أنّــهم بعـــدوا
قَدْ حَمَلَتْ نَفْسُهُ العلـــومَ إلـــى الـــ فِـرْدوسِ والنّعـــشُ فوقَـــهُ الجَسَـــدُ

ولم يكتف الشعراء بالثناء على محاسن أبنائهم وخصالهم الحميدة، ولكنـــهم بكـــوا أمانيـــهم الضائعة التي كانوا يأملون أن يحوزها أولئك الأبناء، وقد تنبه ابن رشيق إلى هذا الجـــانب مـــن مراثي الأطفال فقال: " ورثاء الأطفال أن يذكر مخايلهم، وما كانت الفراسة تعطيـــه فيـــهم، مـــع تحزن لمصابهم وتفجع بهم"[١]، ومن هؤلاء الشعراء جمال الدين بن نباتة، فإنـــه كـــان يـــأمل أن يصبح ابنه عبد الرحيم شاعراً، ولذا عز عليه أن يختطفه القدر دون أن تحظى مســـامعه بشـــيء من أشعاره، فقال:[٢]

أعْزِزْ عليّ بـــأنّ ضَيـــفَ مَســـامعي لم يَحْظَ مـــن ذاك اللّســـان بقـــاري
أعْزِزْ عليّ بأن رَحَلْتَ ولـــم تَخُـــضْ أقـــدامُ فِكْـــرِكَ أبحُـــرَ الأشـــعارِ

أما شهاب الدين الزرعي، فقد كان يصبو إلى أن يكون ابنه عمر خليفته الذي يهرع النـــاس إلى بابه يطلبون رفده وعونه في حل مشكلاتهم، ولكن أحلامه بددهـــا القـــدر وســـلبها المـــوت، يقول:[٣]

وأراكَ في يومـــــي ســـرورٍ وترحـــةٍ وإليـــكَ أبنـــاءُ الأمـــاني تَفَـــزعُ
وتكـــونُ أنْـــتَ خليفتـــي والمُرتَجـــى بعدي وبابُك في الحـــوادث يُقـــرعُ
خـــاب الرّجـــاءُ وخـــاب مـــا أمّلتُـــهُ وأتى القضاءُ بضـــدّ مـــا أتَوَقّـــعُ

* * *

ووقف الشعراء على قبور أبنائهم، فبثوا لواعجهم وأشجانهم وذكروا مكانها، فهذا ابن نباتـــة يذكر أنها منتشرة في بقاع الأرض، وما ذلك إلا ليؤكد كثرة أبنائه المتوفين ومصيبته العظمـــى فيهم، فقال:[٤]

كَيْفَ الحَياةُ وقـــد دَفَنْـــتُ جوانحـــي مـــا بيـــن أنجـــادٍ إلـــى أغْـــوارِ
وحوى بنيّ تـــرابُ مصـــرَ وجلّـــق كـــالغيمِ مرتكنـــاً علـــى أقمـــارِ
وبَدتْ لدى البيدا مطـــيُّ قبورهـــمْ علَمـــاً بأنـــهمُ علـــى أســـفارِ

---

[١] ابن رشيق، العمدة، ١٥٨/٢.

[٢] ابن نباتة، الديوان، ص٢١٨، ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص١٣٨.

[٣] ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٥٦٨/٢.

[٤] ابن نباتة، الديوان ص٢١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ودعوا لتلك القبور بالسقيا ولساكنيها بالرحمة والغفران، فاستمطروا لها الغيوم، واستنزلوا لها المطر، وجاءت تلك المعاني في نهاية مراثيهم، ومنها قول ابن نباتة في رثاء ابنه عبد الرحيم:[١]

ويا حَيا الغَيْثِ أجْزلْ ... لذابلِ العَطفِ رفدكْ
واجْعَل بكاكَ عَلَيْهِ ... نَداكَ والنّوحَ رَعْدَكْ
فأنتَ صَاحبُ عهدٍ ... فوفّ للحُسْنِ عهْدكْ
ويا رحيماً دعاهُ ... واصلْ برحماكَ عَبْدكْ

ومثله قول شهاب الدين الزرعي في رثاء ابنه عمر:[٢]

جَادَت ثَرى قَبرِ جَوالُ سحابهِ ... هَطّالةٍ برضى المُهَيْمِنِ تَهْمَعُ
وتعاهدُ بك تَحِيةٌ وكرامَةٌ ... ما دامَتِ الشمسُ المنيرةُ تَطْلُعُ

* * *

وراح الشعراء وهم في غمرة أحزانهم وكآبتهم، وسواد ليلهم يبحثون عما يعزي نفوسهم، ويسليها، ويحثها على الصبر والسلوان، فبين بعضهم وهو ابن نباتة أن مصيبته في أبنائه لم يتجرع غصصها وحده، فهناك كثير من الناس ذاقوا مرارتها قبله، وهذا ما عبر عنه في قوله:[٣]

كم نائحٍ كالصّدى مِثْلي على وَلَدٍ ... يقول واحرقي إن قُلْتُ واحرقي

وتعزوا عن موت أبنائهم حين نفذوا إلى آفاق الحكمة السامية، ووقفوا ممعنين في حقيقة الموت، فبينوا أنه الكأس التي سيشرب منها البشر جميعهم، وأنه النهاية الطبيعية لهم، ولكل المخلوقين على وجه البسيطة، فهذا ابن نباتة يجعل من حياته القصيرة ونهايته القريبة تسلية له عن موت ابنه عبد الرحيم وأملاً في لقائه، ويضيف إلى ذلك أن زمانه الذي يعيش فيه نكد فلا أسف على الحياة فيه، فيقول مخاطبا ابنه:[٤]

أبنيّ إن تُكْسَ التّرابَ فإنّه ... غاياتُ أجْمَعِنا وليس بعارِ
ما في زمانِكَ ما يسرُّ مؤمّلاً ... فاذهبْ كما ذهب الخيالُ السّاري
أبنيّ إن تَبعدْ فإن مَدى اللقا ... بيني وبينكَ مُسرعُ التّيّارِ

---

[١] ابن نباته، الديوان، ص١٥٧.

[٢] ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري،٢/٥٦٨.

[٣] ابن نباتة، الديوان، ص٣٤٨.

[٤] المصدر نفسه، ص٢١٨-٢١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما شهاب الدين الزرعي، فيتعزى عن موت ابنه عمر بمن اختطفهم الموت قبله من أهلـــه وغيرهم، فيقول:[١]

أبنـــيّ مـــالي فـــي المنيّـــةِ حيلَـــةٌ ... ما أنْتَ أوّل مَـــنْ فَقَـــدْتُ فـــأجزعُ
لك أسْوةٌ بـــالذّاهبين مـــن الـــوَرى ... ولَنهجـــهمْ كـــلُّ الخلائـــق تَتبَـــعُ

وأكد ابن نباتة في مراثيه لأبنائه حتمية الموت وقوة بأسه وعدله، حين عاد إلـــى التـــاريخ و استلهم منه العبرة و العظة، فضرب الأمثال بالملوك الذيـــن بلغـــوا أقصـــى درجـــات المجـــد، والشجعان الأبطال الذين خبروا الحروب وخاضوا غمارها، وتساءل عن مصيرهم ومآلهم، فبيـــن أن الموت اختطفهم بين عشية وضحاها، وأنه لم ينفعهم عزهم ولا سطوتهم حين أزفت المنيـــة، ويتجلى ذلك في قوله في رثاء ابنه عبد الرحيم:[٢]

أين الملوكُ الرّافلـــونَ إلـــى العُـــلا ... عثروا إلى الأجـــداث أيّ عِثـــارِ
كـــانوا جبـــالاً لا تُـــرامُ فـــأصبَحوا ... بيَدِ الرّدى حفنـــاتِ تُـــرْبٍ هـــارِ
أين الكمـــاةُ إذا العَجاجـــةُ أظلمـــتْ ... قدحوا القسيّ ونـــاضلوا بشـــرارِ
سلِموا على عَطبِ الوغى ودعـــاهُمُ ... داعي المَنون إلى مَحـــلٍّ بـــوارِ
أين الأصاغرُ فـــي المُـــهودِ كأنّمـــا ... ضَمّتْ كمائـــها علـــى أزهـــارِ
خلطَ الحِمـــامُ عِظامَـــهُمْ ولحومَـــهُم ... حتّى تســـاوى الـــدّرُّ بالأحجـــارِ
فلئن صبرتُ ففي الأُولـــي مُتَصَـــبرٌ ... ولئن بدا جَزَعي فعـــن أعـــذارِ

وعدد في قصيدة أخرى أسماء بعض الملوك الجبابرة الذي هزمهم الموت ولم يشـــفع لـــهم منه شيء، فقال مخاطبا ابنه:[٣]

بنيّ إن تُسْقَ كاســـاتِ الحِمـــامِ فكـــمْ ... مليكٍ حُسنٍ كما شاء الزّمانُ سُـــقي
بنيّ إنّ الـــرّدى كـــأسٌ علـــى أمـــمٍ ... ما بين مُصْطبـــحٍ منـــها ومُغْتَبـــق
ما ردّ سيفُ الرّدى سيفَ بن ذي يـزنٍ ... ولا نجا تبّع في الزّعـــف والحلـــق
ولا احتمى عنه ذو سندادَ في شـــرفٍ ... ولا اختفت دونَهُ الزّباءُ فـــي نَفَـــقِ

رثاء الآباء:

عرف الشعر العربي هذا الاتجاه من الرثاء منذ العصر الجاهلي، ونظم فيه الشعراء عـــبر عصور الأدب العربي المختلفة، إلا أنه لم يحظ باهتمام كبير لدى شعراء العصر المملوكـــي الأول إذ لم يسفر البحث في المصادر المتوفرة عن شعر كثير في هذا الموضوع، وكل ما عـــثر عليـــه

---

[١] ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٥٦٧/٢.

[٢] ابن نباتة، الديوان، ص٢١٩-٢٢٠، ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص١٣٨-١٣٩.

[٣] ابن نباته، الديوان، ص٣٤٨، ولمزيد من الأمثلة أنظر ص٢١٩، ٢٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثلاث مقطوعات شعرية لشعراء مختلفين، وقصيدة نظمها شرف الدين حسين، رد فيها على القصيدة التي بعثها له صلاح الدين الصفدي إذ عزاه بوالده القاضي جمال الدين سليمان ابن ريان، ولا تتضمن تلك القصيدة سوى أبيات قليلة في رثاء ذلك الوالد، ركز فيها الابن على تأبينه، وذكر خصاله الحميدة التي شاعت بين الناس، وهي مآثر وصفات يعجز شعره عن حصرها، ومنها الجود والكرم والتقوى ومظاهرها الصلاة والصوم وقراءة القرآن، وأداء الواجبات الدينية المختلفة، يقول فيها:[١]

أكرمْ به من أبٍ شاعتْ مناقبُهُ ... في النّاسِ واشتهرتْ بالجودِ إعلانا
كم بات في ظُلُماتِ اللّيلِ مُنْتصباً ... في خدمَةِ الله يقضي اللّيلِ يقظانا
كم خَتْمةٍ قد تلاها في النّهارِ وكم ... أفنى الحنادسَ تسبيحا وقرآنا
ولازم الصّومَ أوقاتَ الهواجرِ لا ... يرتدّ عن صومِهِ ديناً وإيمانا
لم أقضِ بالشّعرِ حقا من علاه ولو ... نظمت في كلّ يومٍ فيه ديوانا
لو قيل منْ فاقَ أربابَ الصّلاحِ تقىً ... كان الجوابُ سليمانَ بن ريّانا

ويموت الشيخ عبد الله بن عساكر المقدسي سنة ٦٧٢هـ، وكان من علماء التصوف، وله كرامات جليلة،[٢] سكن مدينة نابلس فكان معظما فيها، وله هناك " زاوية معمورة بالفقراء والأخيار الواردين إلى البيت المقدس، وكان له بالقدس أيضا زاوية وأتباع ومريدون".[٣] وقد رثاه ولده أبو الحسن بأبيات عبر فيها عن حزنه وألمه وحرقته عليه، وألقى الضوء على قبره إذ أضحى مكانا عظيما ومقدسا يرتاده المتصوفة لزيارته، وزاد من عظمته أنه مجاور مدينة الخليل حيث قبر إبراهيم عليه السلام وحرمه، وقارن الشاعر بين حال دياره قبل موت والده وبعده، فصورها موحشة مقفرة، خيم عليها الحزن والأسى، بعدما كانت عامرة وآهلة بزائريها والوافدين إليها، يقول: [٤]

أأرْضٌ بها قَبْرُ الحبيب يُزارُ ... لك الدّمعُ من جفني القريح نثارُ
لقد آنس الرحمن أرضا ثوى بها ... وأصبح فيها مَعْهدٌ ومَزارُ
وطاب ثرى البَطْحاءِ من طيبِ نَشْرِهِ ... وحَسْبُكَ قبرٌ للخليلِ جوارُ
فلا تسألنّ الصّبرَ عمّنْ أُحبّهُ ... ففي القلبِ منْ فقدِ الأحبّةِ نارُ
ولا تذكرا لي الدّارَ منَ بعد أهلِها ... فما الدّارُ من بعد الأحبّةِ دارُ

---

[١] الصفدي، أعيان العصر، ٤٣١/٢، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ١٢٣/٣.

[٢] انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/ ٢٩٧، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٥٨/٣.

[٣] الكتبي، عيون التواريخ، ٣٩/٢١، وانظر ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٩٧/١٣، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٥١/٣.

[٤] المصدر نفسه، ٤٤/٢١، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٥٩/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد أوْحَشتْ تلـــك المنـــازلُ بعدهـــمْ وكـــان عليـــها هيبـــــةٌ ووقـــــارُ
سلامٌ علـــــى تلـــك الخيـــامِ وأهلِـــها لقد خلّفوني فـــي الدّيـــارِ وســـاروا

ورثى الشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر والده عبد الله بن نشوان، فبين أن سكب الدمـــوع والحزن لا يجديان نفعا على والده الذي اختطفه الموت، وصور علم ذلك الوالـــد، وتمكنـــه مـــن القراءات القرآنية، حيث جعل قبره وقد غدا خزانة علم، ومكانا يختم فيه القرآن الكريـــم يوميـــا، فقال:[١]

فما ابنٌ كثيرُ الدمّعِ إن مـــات نـــافعٌ ولا نـــافعٌ حُـــزنٌ عليـــك يُحتّـــمُ
خزانـــة علْـــمٍ قـــبرُه فلـــذا غـــدا بـــها كـــلّ يـــومٍ بـــالتّلاوةِ يُخْتَـــمُ

ويتّخذ الشاعر أبو الحسين الجزّار من رثاء والده وسيلة لا ليصور حزنه عليه، وإنما ليـبرز روحه الفكهة، ويسخر من زوجة أبيه العجوز، ويظهر نقمته عليها،[٢]إذ جعلها السبب في موتـــه، ويبدو أن والده كان قد أوصى لها بالصداق قبل موته، ولذا يعجب الشاعر منه لأنه أوصى بذلـــك لقاتله، يقول:[٣]

أذابتْ كلى الشّـــيخِ تلـــك العجـــوزُ وأرْدَتْـــــهُ أنفاسُـــــها المُرْديَـــــه
وقد كان أوصـــــى لـــها بـــالصّداقِ فمـــا عـــن مُصيبـــــةٍ تَعْزِيَـــــه
لأنّـــي مـــا خِلْـــــتُ أنّ القتيـــلَ يوصـــــي لقاتِلـــــــه بالدّيَـــــه

رثاء الإخوة:

هذا الضرب من الرثاء قديم في الشعر العربي، فقد أكثر الشعراء من النظم فيه، وخاصـة في العصرين الجاهلي والإسلامي، ففي هذين العصرين كان رثاء الإخوة ظـــاهرة عامـــة شـــاع القول فيها شيوعا كبيرا الأمر الذي حدا بكثير من أدباء العرب ومؤرخيهم إلى التركـــيز عليـــه، والاحتفاظ بكم هائل من نماذجه في مصنفاتهم،[٤] وقد دفعت هذه الوفرة في مراثي الإخوة بعـــض

---

[١] الصفدي، الوافي، ٤٦٤/١٨، ابن دقماق، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، ص٢٠١، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١/٣٧٠،٣٧١.

[٢] على ما يبدو أنه كان كارها لها، ويوضح ذلك قوله حين تزوجها والده:

تزوّج الشيخ أبي شيخة ليس لها عقل ولا ذهن
كأنها في فرشـــه رمّـــة وشعرها من حولها قطن
لو برزت صورتها في الدُّجا ما جسرت تبصرها الجنّ
وقائل قال لي ما سنّها؟ فقلت ما في فمها سنّ

انظر الكتبي، عيون التواريخ، ٢١/ ٢٥٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٢٨/١٣.

[٣] المصدر نفسه، ٢٥٧/٢١، فوات الوفيات، ٦٣١/٢.

[٤] انظر حسين جمعة، الرثاء في العصر الجاهلي وصدر الاسلام، ص٤٩،٥٧، أحمد يعقوب، شعر رثاء الأخوة من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي، ص٢٩، مظفـــر غانم، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص٢٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباحثين إلى عد هذا اللون من الرثاء ظاهرة فريدة تميز بها الأدب العربي عن آداب الأمم الأخرى، وبلغ به الأمر إلى القول: " إن الرثاء العربي هو رثاء الأخ قبل كل شيء وبعده صدر عن الرجال والنساء معاً"[١]. ولكن هذا الحكم ليس عاما، وربما يقتصر على العصرين الجاهلي والإسلامي، أما في العصور التي تلتهما، فقد تراجع هذا الاتجاه من الرثاء، إذ لم يعد القول فيه ظاهرة عامة كثر القول فيها.[٢] ولعل سبب ذلك " تغير طبيعة المجتمع من مجتمع بدوي غير مستقر إلى مجتمع حضري مستقر، وشمول ذلك الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وأصبحت الدولة بقوانينها وأنظمتها هي المسيطرة فضعفت حاجة الأخ لأخيه في مسائل الغزو، فاختفت لذلك القيادة الفردية " القبلية" وبرزت قيادة الدولة، ومن هنا برز دور القائد العسكري في ظل الدولة فكانت هناك مراثي القواد".[٣]

أما في العصر المملوكي الأول، فقد حظي الإخوة إلى جانب الأبناء بنصيب الأسد من مراثي الأهل، ولكن ما عثر عليه في رثائهم لا يعدو كونه مقطعات قصيرة لا تتجاوز البيتين أو الثلاثة أبيات، أما القصائد، فإنها قليلة إذ لم يصل منها سوى قصيدتين كاملتين للشاعر صفي الدين الحلي، وشرف الدين الأنصاري شيخ الشيوخ، ووصلت بعض أجزاء من قصيدة للشاعر صلاح الدين الصفدي .

وتعددت الدواعي التي حفزت الشعراء على رثاء إخوانهم، فهناك دواع ذاتية اشترك فيها الرثاة في مختلف العصور، ذلك أن الأخ مرتبط بأخيه روحيا وعاطفيا، فقد تربيا تحت سقف واحد، وأكلا من زاد واحد، وتقاسما السعادة والشقاء، وتعاونا علىأعباء الحياة ومصاعبها، فإذا رحل أحدهم رحلة اللاعودة كان ذلك مأساة للباقي أو الباقين من إخوته " يعبرون عنها بحزنهم العميق، وأساهم المؤلم، فيسيل على ألسنة الشعراء منهم مراث مفجعة فيبكونه دموعاً ودما"،[٤] فرثاء الإخوة إذن" مرتبط بالنفس الإنسانية يعبر عن قيم الشاعر التعبيرية، وصدقة الفني، وهو فن يوازي الواقع دون تزييف، وبالإضافة إلى ذلك فهو يحمل التجربة المأساوية بصورة مؤثرة وموحية فهو يمتاز بالصدق والتأثير والواقعية".[٥]

ويدفع الشاعر إلى رثاء أخيه أيضا شعوره بأنه أصبح مهيض الجناح، يواجه الحياة ومشاقها وحيدا، بعد أن فقد المعين الذي كان يشد من أزره، ويقاسمة لقمة العيش، ويحمل عنه

---

[١] حسين جمعة، الرثاء في العصر الجاهلي، ص٥٢.

[٢] المرجع نفسه، ص٦٨، أحمد يعقوب، شعر رثاء الأخوة، ص٣١.

[٣] مظفر غانم، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص٢٩٧.

[٤] مظفر غانم، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص٣٢١ وانظر أحمد يعقوب، شعر رثاء الإخوة، ص٣٩.

[٥] أحمد يعقوب، شعر رثاء الإخوة، ص٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أعباء الحياة. ومن الحوافز على رثاء الإخوة بكاء قيمهم الخيرة، وأخلاقهم الحميدة التي سلبها الموت، وخسرها الشاعر وأهل المرثي، والمقربون منه، وأبناء مجتمعه.

وفي العصر المملوكي الأول كانت تلك الدواعي الذاتية هي حافز الشعراء على رثاء إخوانهم، إذ غلب على أشعارهم السوداوية والبكاء، فعبروا فيها عن حزنهم الحقيقي الممضّ، وصورا انفعالاتهم الصادقة، وعواطفهم الجياشة النابعة من أعماق النفس المكلومة التي فقدت صنوها وعديل روحها، فهذا الشاعر عز الدين بن أبي الحديد يرثى أخاه القاضي موفق الدين أبا المعالي القاسم بن أبي الحديد، فينقل مشاعره وحرقته ببراعة وصدق وواقعية، ويناجي أخاه فيستعمل أداة نداء للقريب ليؤكد قربه من نفسه وقلبه، يقول:[١]

أأبا المعالي هل سَمِعْتَ تأوّهي ... فلقد عَهِدْتُكَ في الحياةِ سميعا
عيني بَكَتْكَ ولو تُطيقُ جوانحي ... وجوارحي أجرَتْ عليكَ نجيعا
أنفاً غَضِبْتَ على الزّمان فلم تُطِعْ ... حَبْلا لأسبابِ الوَفاءِ قطوعا

أما قطب الدين القوصي، فقد رثى أخاه المجد بمقطوعة وقصيدة لم يذكر منها الصفدي سوى بيتين، صور فيهما الشاعر لوعته وأشجانه، فأقسم أن تظل دموعه منهلة، وبكاؤه متجددا كلما رأى الأحياء والأموات، حتى يلتقي بأخيه يوم القيامة، فقال:[٢]

فلا والله لا أنفكُّ أبكي ... إلى أنْ نلتقي شُعثا عُراتا
فأبكي إنْ رأيتُ سواهُ حيّاً ... وأبكي إنْ رأيتُ سِواهُ ماتا

وفي مقطوعة أخرى للقوصي، يصور الشاعر قومه وهم يحاولون التخفيف عنه ومواسلته، ولكنه يستنكر ذلك عليهم، إذ بين لهم أن مصيبته كبيرة لا ينفع معها العزاء، ولذا عاهد نفسه على مداومة البكاء حتى يلحق بركب أخيه، يقول:[٣]

أتطلبُ منّي مَعشري صَفْوَ عيشةٍ ... وكيف يهنا العَيْش مَنْ غاب إلفُهُ
إذا المَجْدُ ولّى فالحياةُ ذميمةٌ ... وأيّ فتىً هذا الأسى لا يشِفُّهُ
حَلَفْتُ يمينَ اللهِ حَلْفَةَ صادقٍ ... وإنْ راق هذا الدّهرُ أو رقّ صَرْفُهُ
فلا دأبَ لي إلا البكاء وعيشتي ... مكدّرةٌ أو يعترينِي حَتْفُهُ

وتتجلى معاني الحرقة واللوعة والألم في القصيدة التي نظمها شرف الدين الأنصاري في رثاء أخيه، ومنها قوله:[٤]

---

[١] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٢٣٦.

[٢] الصفدي، الوافي، ٣/٢٤٠.

[٣] الأدفوي، الطالع السعيد، ص٥٣١.

[٤] شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص٣١٠-٣١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جَـهْدُ فـؤادي عليـكَ أن يجـزعْ ... وحـظُّ عينـي لديـكَ أن تَدْمَـعْ
وتلـكَ حـال أخـي مسـيئةٌ ... إذ لا تـردُّ الـرَّدى ولا تـردعْ
كيف قراري؟ لا سبيلَ إلى الصّبـ ... ـرِ ولا فـي اللّقـاءِ لـي مَطْمَـعْ
أيـنَ فـؤادي والجفـنُ والجِسْـمُ إذْ ... نبت سروري والغمضُ والمَضْجَـعْ؟
توحشـني بعـدكَ الدّيـارُ كمـا ... يؤنـسُ نفسـي محلُّـك البَلْقَـعْ
سيّرتَـهُ لـي رَبْعـاً فصـيّرهُ ... قلبـي مَصْيفـا ومَدْمعـي مَرْبَـعْ

تكشف الأبيات عن حزن الشاعر، ومعاناته وكآبته، وقد زاد من نبرة الحزن فيها أساليب الاستفهام المتكررة، التي لجأ إليها ليؤكد حياته المريرة التي عاشها بعد فقد أخيه، إذ هجرته السعادة، ولازمه الأرق، وعدم الصبر الجميل، لكنه يبدو مستسلما للقضاء والقدر، ومدركا أن الشقاء الملازم له لن يدفع الموت، ولن يرد عزيزا ميتا.

وإذا كان الشعراء السابقون قد نجحوا في تجسيد مشاعرهم وأحاسيسهم، ونقلها بكل صدق وواقعية، فإن بعضهم أخفق في ذلك، إذ بدت في شعره بصورة باردة لا حرارة فيها ولا انفعال، فاختفت مشاعره الحقيقية، وما ذلك إلا لطغيان الصنعة على شعره، وهذا ما يوضحه قول ابن الوردي في رثاء أخيه المتوفى بمرض السل:[١]

بعلّـةِ السـلّ مـات أخـي ... وكـان فـي الأسـيافِ مَعْـدودا
يا مَغْمداً فـي التّربِ مِـنْ بيننـا ... أبكيـكَ مسـلولاً ومَغْمـودا

وكان صلاح الدين الصفدي أكثر شاعر نظم في هذا الاتجاه، إذ رثى أخاه إبراهيم المتوفى بمرض الطاعون سنة ٧٤٢هـ[٢] بأشعار كثيرة، أثبت منها في كتابه "الوافي" خمسا وعشرين مقطوعة، وأجزاء من قصيدة أخرى، واعترف أنه نظم غيرها، لكنه أحجم عن تدوينها فقال: "ونظمت فيه من القصائد والمقاطيع غير هذا، ولكن هذا القدر كاف" [٣].

أما عن مضامينها، فقد سعى فيها الشاعر إلى تنويع صوره ومعانيه، ونهج فيها نهج سلبقيه من الرثاه فحّمل الدهر وتصاريفه مسؤولية موت أخيه، وما نزل بساحته من أحزان، ورماه بالخيانة والجور والظلم، وتجلى ذلك في غير مقطوعة، ومنها قوله: [٤]

ألا يـا دَهْـرُ قـد راعيتنـا فـي ... أخـي فَتَرْكَتَنـا نَصْلـى سَـعيرا
أتَيْـتَ لنـا بـه نجمـا صغـيرا ... وعُـدْتَ أخذتَـهُ قَمَـرا كبـيرا

---

[١] ابن الوردي، الديوان، ص٣٧٦.

[٢] انظر الصفدي، الوافي، ٥/ ٣٣٠،٣٣١، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٥٧/١٢.

[٣] المصدر نفسه، ٣٣٧/٥.

[٤] المصدر نفسه، ٣٥٣/٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال:[١]

قد خانَ دهري يا أخي ... قلْ لي بأيٍّ يدٍ يَمُتْ
لم يبقَ لي فيه مُنىً ... مَنْ شاء بَعْدَهُ فليَمُتْ

ومثله قوله مخاطبا أخاه:[٢]

وجار عليكَ الدّهرُ دوني ظالماً ... فغادرني نَبْعا وأذواكَ رَيْحانا

ويقدم الشاعر صورا كثيرة تكشف عن حالته النفسية بعد موت أخيه، فقد أضحى عيشه نكداً وحياته مريرة، يعاني فيها الوحدة والشقاء والدموع والأحزان، وتتجلى ملامح من تلك الصورة في قوله:[٣]

رَحَلْتَ برَغمي يا أخي وتَرَكْتَني ... وحيدا أُقاسي فيكَ أحْزَابَ أحزاني
وحلّ بك الأمْرُ الّذي جلّ خَطْبُهُ ... لقد بَلّ أردانِي بِدَمْعي وأردانِي
دنا منكَ دوني يا لَها فيك حَسْرةً ... ولما تناءى ما أراه تناساني
مضى فوقَ أعناقٍ وَرِجلي أمامه ... تدوسُ من البَلْوى أسِنّةَ مُرّانِ
يُمَثّلُهُ وَهْمي إذا زرتُ قَبْرَه ... كما اعتدتُ منه قائما يتلقّاني
أيا نارَ إبراهيمَ أحرقتِ مُهْجتي ... فهل ينطفي جَمْري بدمعٍ كطوفانِ
وقالوا: تجلّدْ كي يَهابَك حُزْنُهُ ... ولو كان يخشاني لما كان يغشاني

ومما قاله معبراً عن وحدته وأرقه وأشجانه:[٤]

لمّا فَقَدْتُ أخي تضاعفَ للأسى ... حُزني فَنَومي لا يزالُ طَريدا
حُزني لمِصرَعِهِ وحُزْن رزيّتي ... فيه وحُزْني إذ بقيتُ وَحيدا

ولجأ الصفدي إلى أساليب النداء لتسعفه في التعبير عن مكنون نفسه، فأكثر من مناجاة أخيه وبث أشجانه له، وتصوير ما فعل البكاء والأسى بعيونه وقلبه فقال:[٥]

يا أخي حَيْثُك وافى ... لَيْتَهُ وافق حَيْني
الجوى حرّق قلبي ... والبكا حرّق عيني

ومن ذلك قوله:[٦]

---

[١] الصفدي، الوافي، ٥/٣٣٥.
[٢] المصدر نفسه، ٥/٣٣٦.
[٣] المصدر نفسه، ٥/٣٣٢-٣٣٣.
[٤] المصدر نفسه، ٥/٣٣٤.
[٥] المصدر نفسه، ٥/٣٣٦.
[٦] المصدر نفسه، ٥/٣٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أخي لا تَلُمني إنْ دَفَنْتُكَ فـــي الـثّرى وأنّك في الأحشـــاءِ لـــم تتخّـــذْ دارا
وكيف يكونُ القبرُ ما بيـــن أضلعـــي وأنت بفَضْلِ الله لا تَسْـــكن النّـــارا

يستعين الشاعر بالإضافة إلى النداء بالتورية وحسن التعليل ليسوغ لأخيه دفنه في الـــتراب وأنه لم يدفنه في أحشائه، فبين له أن حياة القبر حيث الحياة الرغيدة والنعيم، أفضـــل لـــه مـــن أحشائه التي تعمرها نيران الحزن والأسى.

وشدة المعاناة واللوعة التي عاناها الصفدي عقب موت أخيه جعلته يخشى منها على أهلـــه وأقربائه من بعده، ويوضح ذلك قوله:[١]

يـــا ذاهبـــا ذابَ قلبـــي بعـــده لَـــهْفا وليـــت لـــو كـــان يُغنيـــه تلهفُـــــهُ
ومن بلائي الذي قد حلّ بعـــدك بـــي حملـــتُ هـــمّ الـــذي بَعْـــدي أخلفـــهُ

وكان الصفدي أكبر من أخيه إبراهيم سنا، وقد أرقّه هذا الأمر وأقض مضجعه، وجعل منـــه دليلا على جور الموت الذي اختطف أخاه الصغير، وجاء ذلك في قوله:[٢]

سأشـــرحُ قصتّـــي للنّـــاسِ حتّـــــى يؤدّينـــي السّـــؤالُ إلـــــى خبـــيرِ
أيمضى الجـــورُ حتّـــى فـــي المنايـــا بتقديـــمِ الصّغـــيرِ علـــى الكبـــيرِ؟

ويقول معبرا عن المعاني السابقة ومصورا حبه العميق لأخيه: [٣]

قضى نَحْبـــا أعـــزُّ النّـــاس عنـــدي ومـــا أحـــدٌ علـــى الأيـــامِ بـــــاقِ
فيـــا عجبـــا تقدّمنـــي لربّـــي أخـــي وأنـــا أراه فـــي السّـــياق

ولم يكن الشاعر وحده الذي ندب أخاه وبكاه، بل شاركته ذلك السحب والحمائم، وهـــذا مـــا يوضحه قوله:[٤]

راح إلـــى الله أخـــي مُسْـــرعا لا أصْنَغَـــرَ الرحمـــنُ مَسْـــعاهُ
والسّـــحبُ تبكيـــهِ بدمـــعِ الحيـــا والـــوُرقُ فـــي الأغصـــانِ تنعـــاهُ

ومن ذلك قوله مخاطبا الحمائم:[٥]

ويا ساجعاتِ الوُرقِ هِجْتِ صبـــابتي وقد نُحْتُ من شجوٍ على عَذَبِ البـــانِ

وجرت العادة في أشعار الرثاء أن يعزي الراثي نفسه عن مصابه، وأن يتحدث عن الأشياء التي تخفف من وطأة حزنه، وتهدئ من لوعة نفسه، وقد تناول الصفدي هذا الجانب فبين أن مـــا

---

[١] الصفدي، الوافي، ٥/٣٣٧.

[٢] المصدر نفسه، ٥/٣٣٤، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ١/٥٧١.

[٣] الصفدي، الوافي، ٥/٣٣٤.

[٤] المصدر نفسه، ٥/٣٣٦.

[٥] المصدر نفسه، ٥/٣٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يواسيه في خطبه الجلل هو أن أخاه مات قبله، ولم يذق مرارة الثكل، وقسوة الفراق، فقال معبراً عن ذلك:[١]

وهوّن خَطْبي كَوْنُه راح سالماً وما ناله لو مِتُّ حُرْقَةُ أشجاني

ومثله قوله:[٢]

فهوّن خطباً لم يَهُنْ كونُه قضى وما ذاقَ ما قد ذُقْتُ من غُصّةِ الثّكلِ

وعزى الشاعر نفسه حين تحدث عن مشكلة الحياة والموت، تلك المشكلة التي طالما أرقت البشرية، فبين أن الدنيا دار عبور، وأن الإنسان فيها ضيف نهايته الرحيل والموت، وما دامت كذلك فإن الحزن والأسى لا يجديان، فمن أخذه الموت لا يرده البكاء، يقول:[٣]

هذي الحياةُ إذا فرضنا أنّها طالتْ وقد سَلِمَتْ من الأنكادِ
واللهِ ليس تفي بأنّ وجوهَنا في التّربْ تغدو طُعْمةً للدّودِ

ومن ذلك قوله:[٤]

يا ليت شعري وعِلْمي قد مضى وقضى بأن دهري بما أهواه غيرُ سخي
هل عاد مَيْتٌ على مَنْ بات يَندبُه طولَ الزّمانِ فأرجو أن يكونَ أخي

وألقى الصفدي الضوء على المصير الذي آل إليه أخوه بعد موته، وكشف النقاب عن حاله في قبره، فقدم لذلك صورتين: إحداهما يظهر فيها الأثر الديني جليا إذ صورت الفقيد وهو ينعم في قبره، ويحظى برحمة الله وغفرانه، وتتجلى في قوله:[٥]

كأنّي به إذْ بات في قَعْرِ لَحْدِهِ وحيدا ولم يأنسْ بأهلٍ وجيرانِ
تداركه لُطْفُ الإله بنسمةٍ تهبّ على أزْهار عفوٍ وغُفْرانِ
وقد نوّرَ التوّحيدُ ظُلْمَةَ قَبْرِهِ وحيّاه رِضْوانٌ بروحٍ وَرَيْحانِ

وفي الصورة الثانية ظهر أخوه في قبره، وقد أضحى جسده بالياً وطعاماً لديدان الأرض وهوامها،وهي صورة واقعية، قلّما برزت في مراثي هذا العصر، يقول مخاطبا أخاه:[٦]

يا ساكناً تحت طباقِ الثّرى وهو مع المعدومِ مَعْدودُ
بأيّ خَدّيكَ تبدّى البِلى وأيّ عينيكَ رَعى الدّودُ

---

[١] الصفدي، الوافي، ٥/٣٣٦.

[٢] المصدر نفسه، ٥/٣٣٣.

[٣] المصدر نفسه، ٥/٣٣٥.

[٤] المصدر نفسه ٥/٣٣٥.

[٥] المصدر نفسه، ٥/٣٣٣.

[٦] المصدر نفسه، ٥/٣٣٦-٣٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما قصيدة صفي الدين الحلي التي رثى بها أخاه عبد الله بن سرايا، فتبلغ خمسة وثلاثين بيتا، ويتضح منها أن تلك الفاجعة التي نزلت بالشاعر كانت مكملة لسلسلة من مآسي الموت التي فقد فيها ستة من أهله وأقربائه وصحبه، ولذا يبدو فيها ناقما على الدنيا وصروفها، يقول:[١]

أرى العيشَ في الدّنيا كأحلامِ نائمٍ ... فلذّاتُها تَفْنى، وأحداثُها تُفْنى
فمن حادثٍ جمٍّ صَفَقْتُ له يدي ... ومن فادحٍ صَعْبٍ قَرَعْتُ له سنّي
أفي الستّ والعشرين أفقِدُ ستّةً ... جبالا غدَتْ من عاصفِ الموتِ كالعِهْنِ
فقدْتُ ابنَ عمّي وابنَ عمّي وصاحبي ... وأكبرَ غِلماني بها وأخي وابني

ويقدّم الشاعر في قصيدته معاني لم يتطرق إليها غيره من شعراء رثاء الإخوة في هذا العصر، فقد كشف فيها عن روحه القبلية، وذلك حين، تمنى أن يكون أخوه قد مات في ساحة المعركة حتى يهب فيدرك ثأره كما أدرك ثأر أخواله من قبل، وصور فيها العلاقة المتينة التي ربطته بأخيه، فجعل ذلك الفقيد بمثابة الأب النصوح الذي كان يعطف عليه، ويسهر على راحته وخدمته، وبمثابة الابن الذي يطيعه في الأمور كلها، ولهذا كان موته مصيبة كبرى له تهون عندها المصائب كلها، تركته مقيدا بالدموع والأحزان، وحبيس الهموم والآلام، ولا يقدر من وهنه وحزنه على قول الشعر ونظم القوافي، يقول:[٢]

ولو سلَبَتهُ الحَربُ منّي لشَاهَدَتْ ... كما شاهَدَتْ في ثأرِ أخوالهِ منّي
وأبكَيتُ أجفانَ الصّوارمِ والقنا ... نجيعا، غداةَ الكرّ في الضّرب والطّعنِ
فيا ابن أبي والأمّ، قَد كنتَ لي أباً ... حُنُوّاً، ولكن في الإطاعة لي كابني
ليهْنِكَ أنّ الدّمعَ بَعْدَكَ مُطلَقٌ ... لفِرَطِ الأسَى، والقلبَ بالهمّ في سِجْنِ
وحاولتُ نَظْمَ الشّعرِ فيكَ مراثياً ... فأرتجّ حتّى كدِتُ أخطئُ في الوزنِ
أمِنْتُ صروفَ الدّهر بعدك والأذى ... فَمَن ذا رأى من صَار بالخَوفِ في أمنِ
سأبكيكَ بالعزّ الذي كُنْتَ مُلبسي ... لَدَيكَ وثقلٍ كنتَ تَحْمِلُهُ عنّي
وأعْلَمُ أنّ الحُزْنَ والموتَ واحدٌ ... عليّ فذا يُضني القلوبَ وذا يفني

ويخصّص الشاعر جزءا من قصيدته للحديث عن مناقب أخيه وخصاله الحميدة، وهذا أمر مألوف في مراثي الأخوة وغيرها منذ عصور الأدب العربي الأولى، فيشيد برجاحة عقله، وشجاعته وعفة نفسه وطهارتها، وجوده وكرمه، وابتعاده عن الكذب وارتكاب الفواحش، ويركز على وصف تقواه وزهده، ويؤكد أن تلك الصفات قد ورثها الابن عن أبيه، فيقول:[٣]

---

[١] الحلي، الديوان، ص٣٠٩.

[٢] المصدر نفسه، ص٣١٠.

[٣] المصدر نفسه، ص٣١٠-٣١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عفيفُ نواحي الصّدرِ من طـــيّ ريبـــةٍ ... سليمُ ضَميرِ القَلْبِ من دَنَسِ الضّغـــنِ
قريبٌ إلى المعروفِ والخَـــيْرِ والتّقـــى ... بعيدٌ عن الفحشاءِ والإفـــكِ والأفـــنِ
جبانٌ عـــن الفحشـــا شـــحيحٌ بعِرضِـــهِ ... إذا عيبَ بعضُ النّاس بالشحّ والجُبْـنِ
ومَن أتّعَـــبَ اللّـــوامَ فـــي بَـــذلِ بِـــرّهِ ... فَلاَئمـــه يثنـــي وآملـــهُ يثْنـــي
مَضَى طاهرَ الأثوابِ والنّفسِ والخُطـــى ... عفيفَ مَنَاط الذّيلِ والجيبِ والـــرّدنِ
سَرايا خِصَـــالٍ مـــن سَـــرايا وَرِثْتَـــها ... على أنّ هذا الوَرْدَ من ذلك الغصـــنِ
فَقَد كُنْتَ تَحيي اللّيلَ بـــالذّكر ضارِعَـــاً ... إلى الله حتى صِرْتَ بالنّسك كالشـــنّ
فيؤنسني ترتيبُ نَفْلِـــكَ فـــي الضُّحـــى ... ويُطْربني تَرْتيلُ وردِك في الوَهـــنِ

رثاء الأخوال:

الأخوال جزء من الأهل والأقارب الذين رثاهم الشعراء منذ العصر الجاهلي وأكثروا مـــن ذلك، فقد كانت رابطة الدم تحتم عليهم ندبهم والثناء عليهم، وتعداد فضائلهم وصفاتهم الحميـــدة، وحذا ذلك الحذو شعراء العصر المملوكي الأول إلا أن هذا الاتجاه من الرثاء لم يكـــن ظـــاهرة عامة شاع القول فيها آنذاك، إذ لم يسفر البحث إلا عن ثلاث قصائد طويلة نظمها الشاعر صفـــي الدين الحلي في رثاء أخواله، واحدة في رثاء خاله صفي الدين بن محاسن، وأثنتان فـــي رثـــاء خاله جلال الدين عبد الله بن حمزة بن محاسن، وقد قتل هؤلاء في الصراع الذي كان دائرا بيـــن قبيلة الشاعر بني سِنْبِس،[1] وقبيلة آل أبي الفضل،[2] ذلك الصراع الذي شارك فيه الشاعر نفســـه، واصطلى بناره، وأدرك فيه ثأر أخواله الأمر الذي جعله مطارداً، واضطره إلى تـــرك العـــراق والتنقل في البلاد. وتشابهت القصائد الثلاث في مضامينها، إذ ظهرت فيها الروح القبلية جليـــة، وغلبت عليها معاني التهديد والوعيد، وهجاء آل أبي الفضل ورميهم بكل قبيـــح، والدعـــوة إلـــى الأخذ بالثأر منهم والتنكيل بهم، وقد جعلت تلك المعاني لغة القصائد أقرب إلى شـــعر الحماســـة منها إلى شعر الرثاء، وتحدث الشاعر فيها أيضا عن مآثر أخواله المقتولين وخصالهم الحميـــدة، وما اتصفوا به من شجاعة ونجدة وكرم وفصاحة وعطف على الفقراء والمحتـــاجين، وبيـــن أن تلك الصفات والفضائل كفيلة بأن تجعلهم خالدين مدى الحياة، كما صور مكانتهم العظيمـــة فـــي قبيلتهم، ودورهم في مساندتها والذب عنها، وفي مقابل ذلك مدح قبيلته، سنبس، وأشاد بمآثرهـــا،

---

(١) بنوسنبس ويقال لهم سنبس بطن من طيء، وهم بنو معاوية بن جرول بن طيء كانت منهم طائفة في العراق وطائفة بدمياط من مصر، انظـــر ابـــن فضـــل الله العمري، مسالك الابصار، ص١٥٦، المقريزي، البيان والإعراب، ص٧-١١، القلقشندي، نهاية الأرب، ص٢٩٦.

(٢) انظر الصفدي ، الوافي، ١٨/٤٨٥، أحمد الإسكندري، صفي الدين الحلي، ص ٢٤٤، ٢٤٧، د. محمد حور، صفي الدين الحلي، حياته، وآثاره وشعره، ص ٢٤، بطن من آل ربيعة كانت منازلهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبة آخذين على شقي الفرات وأطراف العراق، انظر ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ص١٤ وما بعدها، القلقشندي، نهاية الأرب، ص١١٠-١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبمنزلتها المرموقة في العراق، وبين صفات أفرادها وما تميزوا به من شجاعة وجود وسيادة، وكشف الشاعر عن الأثر الذي خلفه موت أخواله في نفسه وعلى قبيلة وعلى الدنيا بأسرها بإنسانها وحيوانها وجمادها، ودعا لأولئك المرثيين بالرحمة والمغفرة، ولقبورهم بالسقيا، وعكس موقفه من الموت فصوره ذا قوة وجبروت لا يمنع منه مانع ولا يصده شجاع، ولا توقفه السيوف ولا الرماح.

ويكتفي هذا البحث بدراسة نموذج واحد من تلك القصائد،[١] وهي القصيدة الميمية التي نظمها الحلي في رثاء خاله صفي الدين بن محاسن،[٢] وفيها يهاجم الشاعر آل أبي الفضل فيهجوهم هجاء مرا، وينعتهم بالغدر والمكر، ويرميهم بالجبن، ويتعجب من تغير الأحوال في العراق وتجرؤ أولئك الذئاب على أسود قومه وشجعانهم، ويظهرهم بصورة المعتدين الذين بدأوا بالشر والعداوة والحرب، وما ذلك إلا ليؤكد أن الحروب التي أشعلوا فتيلها ستحرقهم بنارها، وأنها لن تجدي نفعا أمام صمود قومه وبأسهم، وهو في كل ذلك يتمنى الموت على أن يرى اليوم الذي يتحكم فيه أولئك القوم من آل أبي الفضل بأخواله، يقول:[٣]

انظرْ إلى المَجْدِ كيف يَنْهَدِمُ ... وَعُرْوَة المُلْكِ كَيْفَ تَنْفَصِمُ
واعجبْ لشهبِ البُزاة كيف غَدَتْ ... تَسْطو عليها الحِداةُ والرّخَمُ
قد كنتُ اختار أن أغَيّبَ في التـ ... ـترب، وتَبْلى عظامي الرِّمَمُ
ولا أرى اليومَ من أكابِرِنا ... أُسداً وفيها الذئابُ قد حكموُا
ظنّوا الولاياتِ أن تدومَ لهم ... فاقتطعوا بالبلادِ واقتسموا
واقتدحوا بالوعيدِ نارَ وغىً ... ورُبّ نارٍ وقُودُها الكَلِمُ
لم يعلموا أيّ جذوةٍ قَدَحوا ... وأيّ أمْرٍ إليه قد قدِموا
بل زعموا أن يصدنّا جَزَعٌ ... كانت يدُ اللهِ فوق ما زَعَموا

ثم يكشف الشاعر عن نقمته على آل أبي الفضل، فيحث قومه على قتالهم وإدراك ثأر خاله ويبين أنهم قادرون على ذلك بما يملكون من وسائل وصفات تكفل لهم النصر، ومنها السيادة والبأس والشجاعة التي تميز بها صغيرهم وكبيرهم، فضلا عن عدلهم، وفصاحة لسانهم، ويتساءل عن سبب قعودهم إلى تلك اللحظة عن مواجهة أعدائهم وهم ذوو عدد كبير وأصحاب

---

[١] انظر القصائد الأخرى في ديوان الحلي، ص٢٨٣-٢٨٦.

[٢] انظر الصفدي، الوافي، ١٨/٤٨٥، أحمد الإسكندري، صفي الدين الحلي، ص٢٤٤،٢٤٧، د. محمد حور، صفي الدين الحلي، حياته وآثاره وشعره، ص٢٤، العمري، مسالك الأبصار، ص١٤ وما بعدها، القلقشندي، نهاية الأرب، ص١١٠-١١١.

[٣] الحلي، الديوان، ص٢٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سطوة في العراق، ويفضل الشاعر مرة أخرى الموت على أن يرى قومه أذلاء مهانين يتحكم بهم من هو أقل شأنا منهم، يقول:[١]

لا عُـرِفَ العـزُّ فـي منازلنـا ... وأنكَرتْنَـا الصَـوارمُ الخُـذُمُ
إن لـم نَقُدْهَـا شُـعْثاً مُضمـرةً ... تَذوبُ من نـارِ حِقدهـا اللّجُـمُ
بكـلّ أزرِ فـي مَتْنِـهِ أسَـدٌ ... وكلّ طـودٍ مـن فَوقِـهِ صَنَـمُ
مـن فِتْيـةٍ أرخصـوا نفوسَـهُمُ ... كأنّـهم للحيـاةِ قـد سَـئِموا
إن زأروا فـي الـهَياج تَحْسَـبُهُم ... أسْـداً عليـها مـن القَنـا أجَـمُ
صغـيرهم لا يَعيبـهُ صغَـرٌ ... وشَـيخُهُم لا يشـينُهُ هَـرَمُ
ففي القضايـا إن حُكّمـوا عَدَلـوا ... وفي التّقاضي إن حوكموا ظَلَمـوا
إنْ صَمَتُوا كـان صَمْتُـهم أدبـاً ... أو نطقـوا كـان نُطْقُـهم حِكَـمُ
مـا عُذْرُنَـا والسّـيوفُ قاطِعـةٌ ... وأمرُنـا فـي العـراقِ مُنْتَظَـمُ
وحَوْلَنـا مـن بنـي عُمُومتِنـا ... كتـائبٌ كالغمـامِ تَزْدَحِـمُ
بـأيّ عَيْـنٍ نَـرى الأنـامَ وَقَـدْ ... تحكّمَـتْ فـي أُسـودنا الغَنَـمُ

ثم يعبر عن رغبته الشخصية في الانتقام، وتحرقه للأخذ بالثأر، فيعاهد نفسه على ذلك، ويدعو عليها بأن تنزل بها الأسقام إن هي لم توف بعهدها، ويتخيل تلك الحرب التي سيخوض غمارها فيصورها حربا لا هوادة فيها، تطحن فيها الرؤوس، وتسفك الدماء، ويسلب هولها العقول، يقول:[٢]

لا شـاع ذكـري بنظـمِ قافيـةٍ ... تَلـوحُ حُسْـناً كأنّـها عَلَـمُ
وشَـلّ منّـي يـدٌ عوائدُهـا ... يجـولُ فيـها الحُسـامُ والقَلَـمُ
إن لم أُخضّـبْ ملابسـي علَقـاً ... يُصْبَغُ من سَـيْلِ قَطْرِهـا القَـدَمُ
وأخذ الثّـارَ مـن عـداكَ ولَـو ... تَحَصّنوا بالحصونِ واعتصمـوا
في وقعـةٍ تسْـلَبُ العقـول بـها ... وأنْفُـسُ الدّارعيـن تُخْـتَرَمُ
إن باشَـرَتْها أقـاربي بيَـدٍ ... يومـاً، فلـي دونَـهُم يَـدٌ وفَـمُ

وينتقل الشاعر إلى مناجاة خاله، فيشيد بمناقبه، ويعدد خصاله الحميدة، فيظهره على درجة عالية من الشجاعة والبأس والسخاء، ويتحدث عن العلاقة المتينة التي كانت تربطه بابن اخته الشاعر، وبقبيلته، ويكشف عن دوره في حمايتهم ورعايتهم والذب عنهم، وهذا ما يجعله جديرا

---

[١] الخلي، الديوان، ص٢٨٢.

[٢] المصدر نفسه، ص٢٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالبكاء والثأر، ويعاهد الشاعر نفسه في نهاية القصيدة، على أن يظل وفيا لخاله، وألا تجف له دموع حتى يدرك ثأره، ويشفي غليله من قاتليه، يقول:[1]

يا صاحبَ الرتبةِ التي نَكَصَتْ ... من دون إدراكِ شأوها الهِمَمُ
قد كُنْتَ لي ذابلاً أصولُ بهِ ... ما خِلْتُهُ في الهياجِ يَنْحَطِمُ
كَفَفْتَ عنّا كَفَّ الخُطوبِ فَمِنْ ... بعدك أمسى الزّمانُ يَنْتَقِمُ
ما أكْسَبَتْنا الأيامُ ثَوْبَ عُلىً ... إلاّ وأنتَ الطّرازُ والعَلَمُ
تبكي المواضي وطالما ضحكتْ ... منك وأمستْ غُمودُها القِمَمُ
فاليوم قد أصبحتْ صوارمُها ... وَشَمْلُها في الهياج منصرمُ
يذكرني جودُك الغمامَ إذا ... أصبح دَمْعُ الغَمامِ ينسجمُ
إذ كنتَ لي ديمةٌ تسحُّ ولا ... يَنساكَ قَلبي ما سحّت الدّيَمُ
لا جَمُدَت أدْمُعي، ولا خَمَدَتْ ... نارُ أسى في أحْشايَ تَضطَرِمُ
وكيف يَرقأ عليك دَمعُ فتىً ... وَلحمُه من ثَراكَ مُلْتحمُ

---

[1] الحلي، الديوان، ص٢٨٢-٢٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني
رثاء أرباب الدول

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من سير خاصة تؤرخ حياته، وتصف دقائقها، وتصور ملامح شخصيته،[١] كما تغنى الشعب بانتصاراته وعدوا شخصيته وسيرة حياته مثالاً يحتذى، فكتبوا فيها سيرة شعبية من أروع ما نطق به وجدان الشعب العربي، عدوه فيها "ولياً" يأتي بالعجائب والخوارق، ومخلصاً ينتظره الناس بصبر نافذ، ليرفع عن كواهلهم الظلم، ويرد عنهم غاشية العدو، ويوزع الأمر بينهم بالقسط"[٢] ،وهذا ما جعل كثيراً من الشعراء يتسابقون في رثائه وبكائه وندبه، والإشادة بمآثره.

ودعا بعضهم إلى رثائه رغبتهم في التكسب ونيل الجوائز والعطايا، ويؤيد ذلك أنه في سنة ٦٧٧هـ – أي بعد وفاته بسنة – عملت له أعزية " بالديار المصرية، وتقرر أن تكون أحد عشر يوماً في مواضع متفرقة، ونصبت الخيام العظيمة، وصنعت الأطعمة الفاخرة، واجتمع الخاص والعام، وحملت الأطعمة إلى الربط والزوايا، وحضر القراء والوعاظ إلى صلاة الفجر"[٣] وانفرد ابن شداد بخبر مفاده أن الشعراء حضروا في ذلك اليوم، وأنشدوا المراثي بين يدي الملك الجديد وهو السعيد بن الظاهر بيبرس، وكان عددهم أثني عشر شاعراً، وخلع على الأديبين أبي الحسين الجزار، وناصر الدين بن النقيب، "وأعطي من بقي من الوعاظ والشعراء جوائز بحسب مراتبهم" [٤] ولعل هذا يفسر جودة المراثي التي نظمت في رثاء بيبرس، فالتنافس بين الشعراء وقدرتهم على نظم الشعر، فضلاً عن أن جلهم كانوا من فحول الشعراء في زمانهم أمثال الجزار، وابن النقيب، ومجد الدين بن الظهير الإربلي، وشرف الدين الإربلي وغيرهم.

ومن الشعراء الذين حضروا العزاء ورثوا بيبرس محيي الدين بن عبد الظاهر، وكان ذا حظوة كبيرة عند المليك الراحل، فقد عمل كاتباً في دولته، وشاركه في حركاته وسكناته، وعوف تفاصيل حياته ودقائقها، فألف فيه السيرة المعروفة بـ " الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"،وصفه فيها وصف المطلع الخبير، ووصل إلينا من مراثيه قصيدتان وعدة مقطوعات بدا فيها حزيناً، وباكياً على ماضيه العريق، وخائفاً من المستقبل المجهول، فصرح بأحاسيسه الداخلية، وصراعه الداخلي، وهذا ما وضحه الحوار التالي الذي دار بينه وبين ذاته، فقال في نهاية إحدى مراثيه: [٥]

---

[١] من تلك السير" تاريخ الملك الظاهر" لابن شداد، و " الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" محيي الدين بن عبد الظاهر.

[٢] عبد الحميد يونس، الظاهر بيبرس في القصص الشعبي، ص١٩.

[٣] العسقلاني، الوافي ١٠/٣٣٧، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٣١-٢٣٢، وانظر اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٣/٢٤٩.

[٤] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٣١-٢٣٢، وانظر اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ص٢٤٩.

[٥] المصدر نفسه، ص٢٣١-٢٣٢، المصدر نفسه، ٣/٢٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَخَلِيّةٍ مِنْ حُزْن قلبـــي أقْبلَـتْ عَنْ شرحِ أحوالي الخفيّةِ تَسْـألُ
أفْهمتُها بَثّي وحزني بَعْـدَ مَـنْ كـانَتْ لديـه مكـانتي تَتَـأثّلُ
وشـئتُ آمـالي وأنّـي بَعْـدَهُ لو أستطيعُ رَحَلْتُ فيمن يَرْحَـلُ
قالتْ: لك القَلَمُ الذي كَمْ طُـرّزتْ سـيرٌ بـه وقصـائدٌ وترسّـلُ
نَاديتُهَا لا شـيء مـن ذا نـافعٌ قَلَمُ البليغ بغـيرِ حـظٌ مُغْـزَلُ
قلتُ: الوسايط عِنْده مَنْ لي بِـهِمْ لـو أنّنـي بعلاهُـمُ أتَوصّـلُ
قالتْ: فَذَكرّهم بحرْمَةِ من مَضى فَلَعَلّهم أنْ يُجْملـوا أوْ يَفْضلـوا
والآن قـد ذكرتُكـمْ ولأنتُـمُ في كلّ أمْـرٍ للخلائـقِ مَوْئـلُ
فارْعوا حقوقي إنّني لي عِنْدكُـم خِدَماً بأيْسَرها الإرادةُ تَحْصُـلُ

يعبر الشاعر عن أحاسيسه الحزينة، ويتمنى الموت بعدما فقد مليكه، وتقطعت به الأسباب، لكن ذاته تواسيه وتخفف عنه، وتبين له أن مكانته ستظل محفوظة في دولة الملك السعيد بن الظاهر بيبرس، وتحثه على مناشدة أرباب تلك الدولة، فيتوجه لهم بالخطاب، ويذكرهم بمكانته السابقة عند الملك الراحل، ويطلب منهم أن يحفظوا له تلك المكانة، وأن يرعوا له حقوقه.

وتتجلى بعض المعاني السابقة في قصيدة أخرى نظمها ابن عبد الظاهر في رثاء بيبرس، يقول فيها مخاطباً الملك السعيد: [1]

أنَا جارُ بابِكمُ القديـمِ ومثْلُكُـمْ يمشي لديه الجَـارُ ليْسَ يُضَـامُ
والرّأيُ أعلى في رعايةِ خِدمتي فَبِمثْـلِ بـرّك يَجْمُـلُ الإتمـامُ

ونظم الشاعر شرف الدين بن سليمان الإربلي قصيدة في رثاء بيبرس، وأرسلها إلى العزاء،فألقاها نيابة عنه شاعر آخر،وقد صوّر الشاعر قصيدته تربو في قوّتها وحسن ديباجتها على كلام فصحاء العرب وشعرائهم، وذلك لبيان أحقيّتها بالعطايا والجوائز، وبدافيها نادماً ومتأسفاً على عدم مشاركته في العزاء، ولذا وعد الملك السعيد بقصيدة أخرى يسعى بها إليه، ليلقيها على مسامعه، وهنا تظهر رغبته في نيل الأموال حين صور ذلك الملك كعبة ينال عندها الزائر ما يتمناه، يقول فيها: [2]

مَلِـكٌ رفَعْـتُ إلـى عـلاه حُـرّةً حَسْـنَاءَ زاريـةً علـى حَسّـانِ
تُنْسـي مَعَانيـها ورقّـةُ لَفْظِـها ما قيلَ عَنْ قَيْسٍ وعـن سَـحْبانِ
أرْسلْتُها إذْ لـم أطـقْ سَـعْياً بـها لأغرّ من وَلَـدِ الملـوكِ هِجَـانِ
لتَنـوبَ عنّـي فـي مقـرّ جلالـه يَعْنـو لعزّتـها العظيـمُ الشـانِ
وأزورَ بالفَسْـطاطِ كَعْبتَـه التـي فَرْضٌ زيارتُـها علـى الإنسـانِ

---

[1] ابن الفرات،تاريخ ابن الفرات، ١٤٤/٧.

[2] ابن شداد،تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأحـــلُّ بـــالحَرَم الشَّـــريف فكـــم بـــه نـــالَ المُنـــى قَـــاصٍ أتـــاهُ ودانِ

وعبّر أولئك الشعراء عن رغبتهم في الجوائز والعطايا حين ركزوا على مضامين بعينـــها، واتبعوا نهجاً متشابهاً في بناء قصائدهم، فقد انتهت جلها بالجمع بين التهنئة والعزاء، وتخلصـــت من ذلك إلى الإشادة بالملك السعيد، وأكثر معنى تردد على ألسنتهم هو معنى الجود والكرم، فقـــد بالغوا في عرض تلك الصفة، وتفننوا في ذلك فجعلوه المتفرد فيها، وصاحب السبق الذي يعطـــي دون حساب، وعدوه أملهم المنشود في تغيير أوضاعهم البائسة.

إن الأساليب والمعاني السابقة تؤكد رغبتهم في المال خاصة وأنها جاءت في القسم الأخـير من مراثيهم، وهو القسم الذي يظل عالقاً بالنفس، وربما يكـــون علـــى أساســـه حجـــم العطايـــا والجوائز،[1]ولعل ذلك هو السبب بعينه الذي كان وراء حصول جميع الشـــعراء علـــى جوائـــز الدولة.

أما الملك المنصور سيف الدين قلاوون، فلا يقل دوره أهمية عن الدور الذي لعبه الظـــاهر بيبرس، فقد سار على نهجه في حماية الأمة، والتصدي لأعدائها المغـــول والصليبيـــن، وفـــي الاهتمام بشؤون الرعية، وحفظ أمنها واستقرارها، ونشر العدل بينها، ولذا كان لموته أثر كبـــير في نفوس المسلمين عامة، وشعرائهم خاصة، فرثوه بمراث وصل منها أربع قصائد ومقطوعـــة واحدة.

وقد حفز الشعراء على رثائه ما خيم على نفوسهم من حزن وأسى، وما أحسوا بـــه مـــن رغبة في الوفاء له، وبرز عند أولئك الذين كانوا على صلة مباشرة به، ولازمـــوه فـــي الغـــدو والعشي، ومنهم الأديبان شافع بن علي الكاتب، ومحيي الدين بن عبد الظاهر اللذان كانا كـــاتبين في دولته، وألفا سيراً تقص مواقف حياته، فقد كتب شافع بن علي "الفضل المـــأثور فـــي ســـيرة الملك المنصور"، وألف ابن عبد الظاهر "تشريف الأيام والعصور في سيرة الملـــك المنصـــور"، ويصف شافع بن علي في مقدمة كتابه العلاقة التي ربطته بقلاوون، ودفعته إلى كتابة ســـيرته، إذ قال:" وكنت باشرت خدمته كاتب إنشاء سفراً وحضراً...، وكتبت عنه سراً وجـــهراً، وشـــهدت وقائعه براً وبحراً، وأطلعت على ما لم يطلع عليه غيري بمشافهته، وعلمت من أحواله مـــا لـــم يعلمه إلا كاتب سره بوساطة مشاركته، وحضرت مهادنته وموادعته، وكتبت بما اســـتقر منـــها، وحررت نسخ الإيمان له وعليه، .. فأوجب عليّ ذلك أن أسطره عند المثول بين يديـــه محاســـن أيامه الزاهرة، وأن أثبتها لتغدو على ألسنة الأقلام على الدوام والاستمرار سائرة"[2] .إن شـــعور ذلك الكاتب بواجب الوفاء لمليكه دفعه إلى كتابة سيرته ومن ثم إلى رثائه وبكائـــه، إذ إنـــه مـــن الطبيعي بعد تلك العلاقة التي ربطتهما أن يرثيه ويندبه ويتوجع لموته.

---

[1] ستأتي الأمثلة في الصفحات القادمة من هذا الفصل.

[2] شافع بن علي، الفضل المأثور، ص٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الملوك الأيوبيون في الشام، فقد كان منهم الأدباء والعلماء، وعرف عنهم اهتمامهم بالناحية العلمية والأدبية، فكان بلاطهم مأوى لكثير من الأدباء، ذكر أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب كان شاعراً "يحاضر الأدباء والفضلاء، وعلى ذهنه كثير من الشعر والأدب، وله نوادر ونظم"،[١] " وكانت سوق الشعر نافقة في أيامه"،[٢] وكان " في خدمته جماعة كثيرة من الفضلاء والعلماء والأدباء والشعراء وغيرهم، ولهم عليه الرواتب السنية"،[٣] وقد مدحه شعراء دولته وغيرهم في حياته، ورثوه بمراث بعد موته معبرين عن تعاستهم الحقيقية، وحزنهم الصادق بعده، وبكوا أيامهم الماضية عنده، ولم يهدفوا من مراثيهم التكسب، ذلك أنهم كانوا مدركين أن بقتله من قبل المغول قد زالت الدولة الأيوبية التي كانت تحتضنهم، وممن رثوه الشاعر أمين الدين السليماني يقول: [٤]

بكى الملأُ الأعلَى على الملِك الأغلى ... وأصبَحَتِ الدُّنيا لفقدانهِ ثَكْلَى
تولّى صلاحُ الدّينِ يوسفُ وانقضتْ ... محاسنُهُ الحُسْنى وسيرتُهُ المُثْلَى
وفارقَ ملْكَ الشّام والشّرقِ عَنْوةً ... فَريداً كما جرّدت من غمده نَصْلا
فيا ليتَ عيْني عاينَتْ كُنْه حالِهِ ... لَقَدْ شفّني حُزْني عليه وقد أبْلَى
ووالله لا يسلوكَ قلبُ ابن حرّةٍ ... جَعَلْتَ له من طولِكَ الفرضَ والنّفْلا

فالأبيات تكشف عن انفعالات نفس فقدت مصدر رزقها وعطائها،ويختم الشاعر قصيدته معاهداً مليكه على الاستمرار في بكائه،والإعراض عن أبواب غيره من الملوك،يقول: [٥]

فؤادي وطَرفي مَنْزلاكَ على النّوى ... فَغَيْرُكَ لا يَحْلو لديّ ولا يَحْلا
وها أنا قد أعْرَضتُ عن كلّ مُنْعمٍ ... فلا أحدٌ أدعوه بَعْدك للجَلا

واهتم ملوك حماة الأيوبيون بالعلم والعلماء والشعراء، ففي عهد الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل أبي الفداء، وابنه الملك الأفضل محمد كان العصر الذهبي للثقافة في حماة، إذ أصبحت في عهدهما محجاً للعلماء والأدباء،[٦] وقد أشاد المؤرخون بشخصية الملك المؤيد في هذا الجانب، فبينوا أنه كان "مكباً على الاشتغال والتصنيف، وحضرته محط رجال أهل العلم من كلّ فن، ومنزلاً للشعراء والفضلاء، على أنه إمام بارع مفنن ماهر في الفقه، والتفسير والأصلين، والنحو، والتاريخ، وعلم الميقات، والفلسفة، والمنطق، والطب، مع الاعتقاد الصحيح،

---

[١] الكتبي، فوات الوفيات، ٣٦٢/٤، عيون التواريخ، ٢٦١/٢٠، الذهبي، تاريخ الإسلام، وفيات سنة ٦٥٩هـ، ص٤٠٢، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٤٢/٢.

[٢] الكتبي، فوات الوفيات، ٣٦٢/٤، الذهبي، تاريخ الإسلام، وفيات ٦٥٩هـ، ص٤٠٢،اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٤٢/٢.

[٣] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٤٢/٢.

[٤] المصادر نفسها، ١٤٥/٢، الكتبي، فوات الوفيات، ٣٦٥/٤، عيون التواريخ، ٢٦٢/٢٠.

[٥] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٤٦/٢.

[٦] انظر خضراء الجعافرة، الحركة الأدبية في عهد الملك المؤيد صاحب حماة، ص٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والعروض، والأدب والنظم والنثر، وكان للشعراء به سوق نافقة"،[١] وأشـــاروا إلـــى اهتمامـــه بالشعر، إذ كان يميل إليه "ميلاً زائداً، ويجيز عليه بالجوائز السنية"،[٢] ولذا توافد عليـــه فحـــول شعراء زمانهم أمثال جمال الدين بن نباتة، وشهاب الدين محمود الحلبي، وصفي الديـــن الحلـــي، فقربهم، واحتضنهم، فمدحوه وأجازهم حتى إن صاحب الدرر الكامنة ليذهل من كـــثرة الأشـــعار التي امتدحته، وامتدحت ابنه بعده، فيقول: " ولا أعرف في أحد من الملوك من المدائح ما لابـــن نباتة، والشهاب محمود وغيرهما فيه إلا سيف الدولة، وقد مدح الناس غيرهما من الملوك، ولكـــن اجتمع لهذين من الكثرة والإجادة من الفحول ما لم يتفق لغيرهما".[٣]

وكان جمال الدين بن نباتة على علاقة مميزة بأولئك الملوك، فقد نظم فيهم غرر المدائـــح، واجتمع له ديوان خاص في مدح الملك المؤيد أسماه "منتخب الهدية من المدائح المؤيدية"، وألـــف في الأيوبيين عامة كتاب" شعائر البيت النقوي"،[٤]وفي مقابل ذلك أدناه المؤيد، وقرر لـــه راتبـــاً سنوياً قدره ستمائة درهم غير ما يغدقه عليه من العطايا. [٥]

ولما مات هذان الملكان رثاهم العديد من الشعراء، ونظموا القصائد الطويلة فـــي بكائـــهم، وممن رثوهم جمال الدين بن نباتة، وقد كان الوفاء باعثه الأساسي على نظم أكثر مراثيه، ولكنـــه لم يكن الباعث الوحيد، فحرصه على مكانته السابقة عند المؤيد ورغبته في الحفاظ عليـــها عنـــد ابنه الملك الأفضل كان أحد بواعثه على رثاء المؤيد خاصة، وقد نطق شعره بذلك، وبـــرز فـــي الأجزاء التي مدح الأفضل فيها، ومن ذلك قوله في إحدى مراثيه: [٦]

وعـــاشَ لَنَـــا مَلْـــكٌ نلـــوذُ بظِلِّـــهِ ... وَنَغْفرُ ذَنْبَ الدّهـــر بَعْـــدَ احتقابـــهِ

فما السَّعْدُ إلا لمْحَـــةٌ فـــي جبينـــهِ ... ومـــا العـــزُّ إلا وقْفَـــةٌ عنـــد بابِـــهِ

فالشاعر يغفر ذنب الدهر الذي اختطف أبا الفداء، وما ذلك إلا لبقاء ابنـــه الـــذي ســـيلوذ الشاعر بظله، ويقف على بابه راجياً العز والمال.

وفي مرثية أخرى يخاطب الشاعر الملك الأفضل، ويذكره بمدائحه التي كان ينظمها فـــي أبيه، وما كان يغدقه عليه من عطاء، ويصرح بحقه عليه مقابل مدائحه فيه، ويبين أن حياة العـــز والجاه التي عاشها في عهد المؤيد لم تأفل بعد، وإنما باقية ببقاء الملك الجديد وعطاياه الكثـــيرة، يقول: [٧]

---

[١] ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٤٠١/٢، وانظر النجوم الزاهرة، ٢١٥/٩، الصفدي، الوافي ١٧٤/٩، المقريزي، المقفى، ١٠٢/٢، أحمد سباتو، مملكـــة حمـــاة الأيوبية، ص١٣١.

[٢] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٠١/٢، وانظر الصفدي، الوافي، ١٧٤/٩، المقريزي، المقفى، ١٠٢/٢، خضراء الجعافرة، الحركة الأدبية، ص١٣١.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ٣٩٨/١.

[٤] انظر الصفدي، الوافي، ٣١٩/١، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٤٠١/٢، النجوم الزاهرة، ٢١٥/٩.

[٥] انظر الصفدي، الوافي، ١٧٤/٩، ٣١٢/١، المقريزي، المقفى، ١٠٢/٢، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٤٠١/٢.

[٦] ابن نباتة، الديوان، ص٤٩.

[٧] المصدر نفسه، ص٤٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَذِكْرُ نَدَى كفّيْكَ يُدْني مـــن الغِنَـــى ... ولَثْمُ ثَرى نَعْليكَ يَرْوي من الظَّمـــا
ولَمّا عقَدنا باســـم عَلْيَـــاكَ خُنْصُـــراً ... رَأينا مـــن التّحقيـــقِ أن يَتَحَتّمـــا
سَبَقْتُ لَك المـــدّاحَ قِدْمـــاً وبَـــادَرَتْ ... يدا كَلِمي فاستلزمتْ مِنْـــكَ مَلزَمـــا
ليـــاليَ أُنشـــي فـــي أبيـــك مَدائحـــاً ... وفيكَ فأروي مُسْنَدَ الفَضْل عَنكمـــا
وأغـــدو بـــأنواعِ الجميـــلِ مُطَوّقـــا ... فأســـجَعُ فـــي أوصافِـــهِ مُتَرنّمـــا
أعَدْتَ زمانَ البشْرِ والجـــودِ والثّنـــا ... إلى أنْ مَلأتَ العينَ والأنْفَ والفَمَـــا

وبكى ابن نباتة في مراثيه ماضيه المجيد، وعبر عن حالته بعدما فقد حياة السعادة والـــهناء التي كان يحياها، يقول في رثاء الملكين المؤيّد والأفضل: [١]

ذَهَبَـــا فَـــلا ذهـــبٌ أُناديـــه سِـــوى ... ما صـــاغَ خـــدّي بـــاحْمرار بُكـــائي

وتجلى بكاؤه على ماضيه العريق، وأيام عزه في الأبيات التي نظمها في رثـــاء الأيوبيـــين جميعاً، إذ ركز فيها على تصوير جودهم وعطاياهم، وقارن بين حماة أثنـــاء حكمـــهم وبعدهـــا، فوجدها لا تجيب السائلين، وهي التي طالما لبت نداءهم، يقول: [٢]

يـــا آل أيّـــــوب سَـــــقَتكمُ ... سَحب الرّضا تَحْتَ الضرائحِ وبَلّـها
لهفي على أوقـــاتِ مُلْـــكٍ أسْـــبغَتْ ... نعمـــاكمُ فـــوقَ البريّـــةِ ظلّـــــها
ما كان أقوى فـــي العـــداة أشـــدّها ... بأساً وأعلى فـــي النّجـــوم محلّـــها
وفدىً لكم مُتَســـرّعٌ أنْحَـــى علـــى ... أموالكـــم فأزالـــــها وأذَلّـــــها
كم أنْشَـــدَتْ مـــن بَعْدِهـــا أيديكـــمُ ... مـــا كـــان أكثرهـــا لَنَـــا وأقلّـــها
ناديتُ ســـاحتكم وقُلْـــتُ لصـــاحبي ... ما كان أســـرع للمنـــادي فَضْلـــها
فدنـــا وقـــال: لَعلّـــها مَعْـــــذورةٌ ... من بَعْـــد أهليـــها فقلـــتُ لَعَلّـــها

وكان صفي الدين الحلي من أكثر شعراء العصر المملوكي الأول رثاء لأرباب الدول، فقـد رثى ملوك الأيوبيين في حماة، وبني أرتق في ماردين، ورثى الملك الناصر محمد بن قـــلاوون، فقد ربطته بهم جميعاً علاقات حميمة، إذ كان يرحل إلى الشام ومصر ومـــاردين وغيرهـــا فـــي التجارة، ثم يرجع إلى بلاده، وفي غضون ذلك يمدح الملوك والأعيان، وانقطع مدة إلـــى ملـــوك ماردين، وله فيهم غرر المدائح،[٣]التي اشتهرت "في الصادرين والواردين"،[٤] "وكان يتردد إلـــى حماة، ويمدح ملكها المؤيد والأفضل، وكانا يعظمانه،[٥] وورد إلى مصر غـــير مـــرة، وامتـــدح

---

[١] ابن نباتة، الديوان ص١٥.

[٢] المصدر نفسه، ص٤١٢.

[٣] ابن حجر، الدرر الكامنة، ٤٧٩/٢، وانظر الصفدي، الوافي، ٤٨٥/١٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٨٨/١٠.

[٤] الصفدي، الوافي، ٤٨٥/١٨، وانظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ٤٧٩/٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٨٨/١٠.

[٥] الصفدي، أعيان العصر، ٧٠/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الناصر محمد بن قلاوون،[١] وقد صرح الحلي في مقدمة ديوانه أن علاقته بأولئك الملوك كانت نقطة تحول في حياته الفنية، إذ كان عازفاً عن شعر المديح، والتكسب بالشعر، يقول: " كنت كارهاً للكسب بالتقريض، إذ كان ديدني ألاّ أمْسَحَ يد دنّي، وأن أفرّ من العادة الخشناء، ولومن الغادة الحسناء، وأعدّ الشعر من أدب الفضائل، وأحقر الوسائل"،[٢] ويقول: " وكنت عاهدتُ نفسي ألا أمدح كريماً وإن جلّ.." [٣] ولكنه بعد أن تغيرت به الأحوال، وشبت نار الفتن في العراق و غادر ها، ولجأ إلى ماردين حيث استقبله ملوكها وأنعموا عليه، اضطر إلى مدحهم والإشادة بجودهم، وخصص ديواناً كاملاً في مدح الملك المنصور نجم الدين غازي بن أُرتق سمّاه " درر النحور في مدائح الملك المنصور"، يقول معبراً عن ذلك: " ولولا وجودهما وجودهما لعشت من هذا النتاج عقيماً، ودمت على رفض المدائح مقيماً"،[٤] وتلك الأسباب ذاتها دفعته إلى مدح الملوك الأيوبيين في حماة، والملك الناصر في مصر.

إن الحياة التي عاشها الشاعر، وصلاته المتعددة أوجبت عليه الرثاء والوفاء للأيدي الكريمة التي رحبت به وآوته بعد أن تقطعت به السبل،[٥] وقد عبر في جل مراثيه عن وفائه لأولئك الملوك، واعترف بفضائلهم عليه، فندبهم وتألم لفراقهم، وتحسر على أيامه بينهم، فهم الذين عوضوه في غربته عن أهله وأقربائه، ومن ذلك ما قاله في رثاء الملك المنصور نجم الدين غازي: [٦]

كُنْتَ ذُخْراً لَنا لو أن المنايا ... جنّبتْ عن رفيع ذاك الجَنابِ
لم أكُنْ جازعاً وأنْتَ قريبٌ ... لبعاد الأهلين والأنسابِ
كان لي جودُك العميمُ أنيساً ... في انفرادي وموطناً في اغترابي
ما بقائي من بَعْدِ فَقْدك إلا ... كبقاء الرّياض بَعْد السّحاب

ومثله قوله في رثاء الملك ناصر الدين عمر الأرتقي: [٧]

يا ناصرَ الدّين وابنَ ناصِره ... ومَنْ بِهِ في الخُطوب يُعتَصمُ
يبكيكَ مألوفُك التّقيُّ أسَفاً ... وصاحباكَ العَفافُ والكرمُ
لم يشْقَ يوماً بك الجليسُ ولا ... مسَّ ندامَاك عندكَ النّدمُ
أغْنَيْتَني بالوِدادِ عَن نَسَبي ... كأنّما الودُّ بيننا رَحِمُ

---

[١] انظر الصفدي، أعيان العصر ٣/٧٠، الكتبي فوات الوفيات ٢/٣٣٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٠/١٨٨، ابن حجر الدرر الكامنة، ٢/٤٧٩، د. محمد حور، صفي الدين الحلي، ص٣٠-٣٤.

[٢] الحلي، الديوان، ص٢١.

[٣] المصدر نفسه، ص٢١.

[٤] المصدر نفسه، ص٢٢-٢٣.

[٥] انظر د. محمود رزق سليم، صفي الدين الحلي، ص١٠٣.

[٦] الحلي، الديوان، ص٢٩١، ابن حبيب تذكرة النبيه، ٢/٤٩.

[٧] المصدر نفسه، ص٢٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعترف الحلي بفضل مرثيه عليه، فيبكي مجده التالد، وأيام النعيم التي قضاها في كنفـــه، فيقول من قصيدة أخرى في رثائه: [١]

قد كان جودُكَ لي عَيْـــنَ الحَيَـــاةِ إذا ... وَرَدْتُهُ وحوانـــي رَبْعُـــكَ الخَضِـــرُ
أعزز عليّ بـــأن أدعـــوك ذا أَمَـــلٍ ... فَـــلا يُجـــابُ برفـــدٍ مِنْـــكَ يَنْـــهَمِرُ
طابَتْ مراثيكَ لي بعدَ المديح ومـــن ... بَعْد السّرورِ براني الحُزْنُ والفِكـــرُ

ورثى الشاعر الملك الأفضل محمد بن إسماعيل، فبكى عطاياه التي تعطلت بموتـــه، واعـــترف بنعمه عليه، وبين أنه لم يخطر في ذهنه أن تقلع تلك النعم وتزول، فقال مخاطباً إياه: [٢]

يـــا غائبـــاً أخْفَـــى الـــتّرابُ جَمَالَـــهُ ... عَنّـــا وأنْعُمُـــه لـــــديّ حُضـــــورُ
ما خِلْتُ أنّ نـــــداك تُقْلَعُ سُحْبُـــهُ ... عَنّـــا ويَنْضُـــبُ بَحْـــرُه المسْـــجورُ

وسعى الحلي في بعض مراثيه إلى كسب ود الملك الجديد وعطاياه، والحفاظ على مكانتـــه السابقة عند أبيه، وبرز ذلك في قصائده التي رثى فيها الملك المنصور نجم الدين غازي، وأشـــاد بابنه الملك الصالح، فقد ذكر أن هذا الملك كان " يحب المديح ويجيز عليه بالجوائز الســـنية"[٣]، ويبدو أن الحلي كان مدركاً ذلك، فجعل مراثيه لأبيه وسيلة للإشادة بتلك الصفات، وللتقرب منـــه، ويتجلى ذلك في قوله: [٤]

وأهْوَنُ شيءٍ عندَهُ الخَيْلُ واللُّـــهى[٥] ... وأنْفَقُ شَيءٍ عنـــده النّـــثر والنّظـــمُ
ورُبَّ حديـــثٍ مـــن عُـــلاهُ سَـــمِعْتُهُ ... لحلو جَنَاهُ مِنْ حُلوقِ النُّـــهى طَعْـــمُ
وفَيْـــضُ نَـــوالٍ مِـــنْ يَدَيْـــه أفَدْتُـــهُ ... لَهُ في قُلوبِ النّاس من جَسَدي وَسْـــمُ
ولمـــا أراد الدّهـــرُ كيـــدي فزرتُـــهُ ... وَبتٌّ ولي في صُحْف إنعامِـــهِ رَسْـــمُ
فأخّر صَرْف الدّهر عنّي فلا يَـــرى ... مقـــابلتي لمّـــا دَرى أنّـــهُ الخَصْـــمُ

ورثى الشعراء ملوك العراق، وذكروا في مراثيهم بواعثهم على الرثاء، فحين توفي الملـــك عز الدين عبد العزيز النيسابوري سنة ٦٧٢هـــ، رثاه الشاعر عبد السلام بن الكبّوش البصـــري، بقصيدة منها قوله: [٦]

---

[١] الحلي الديوان، ص٢٩٥.
[٢] المصدر نفسه، ص٢٢٣.
[٣] ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٢/٣٣٠.
[٤] الحلي، الديوان، ص٢٨٨.
[٥] اللهى، بمعنى العطايا.
[٦] ابن الفوطي الحوادث الجامعة، ص٣٧٩-٣٨٠، الكتبي، عيون التواريخ، ٢١/٦٦-٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قَـد كُنْـتَ كَعْبَـةَ أطـوفُ بـها ... يَـا مَـنْ حِمَـاهُ لِوَفْـدِهِ حَـرَمُ
مالي أرى المكرُماتِ بَعـدك قـد ... شُـلّتْ يداهـا وزلّـتِ القَـدمُ
مـاتَتْ فمـا تبشّـر المكـارمُ إذْ ... تَنْشُرُ مِنْـك الأعـرافُ والشّـيَمُ
يَزْدَحِـمُ القَـولُ حيـنَ أمْدَحُـهُ ... كجـوده والوفـودُ تَزْدحـمُ
كأنّمـا النّظـمُ مـن سُـهُولَتِه ... يَنْظُمُـه قَبْـلَ نَظْمِـهِ الكَلِـمُ
إنّ القوافي التي أقَمْتَ لـها سـوقاً ... عَفَـتْ مثـل مـا عَفـا الكَـرَمُ
وانقرضَتْ دولـةُ القريـضِ فَمـا ... يَنْظُـمُ فِكـرٌ ولا يَقـولُ فَـمُ

تكشف الأبيات عن لوعة شاعر يبكي ماضيه المجيد،فقد كان ذلك الملك مـأوى للشـعراء يتوافدون على بابه، ويمدحونه فيجيزهم، والشاعر واحد منهم، ولذا صور مليكـه كعبـة كـان يطوف بها، ويجني من خيرها ما يشاء، وبين أن بموته انقضت تلك الحياة الرغيـدة، وتقوّضـت آماله، وعفت سوق شعره التي طالما باع فيها مدائحه، وقبض ثمنها.

أما فيما يتعلق بمراثي الأمراء والقادة، فإن جلها تكشف عن رغبة الشعراء في الوفاء لـهم، وبيان علاقة الود والصحبة التي كانت تربطهم بهم، ومن الأمثلة على ذلك قول الشاعر عز الدين ابن أبي الحديد في رثاء علاء الدين الطبرسي الظاهري المعروف بالدوايدار الكبير المتوفى سـنة ٦٥٠هـ: [١]

أبكيكَ للأُنـسِ القديـم وَصُحْبَـةٍ ... كانَتْ وَقَـدْ يَتَفَـرّق الإخـوانُ
ووراء ذلك منك إحسـانٌ مَضـى ... يُذْكَـرُ فَلَيْـسَ وراءَ ه إحْسَـانُ
ولئن هَجَرْتَ قبيلَ موتِـك ناسـياً ... عَهْدي فما مِن شـأنيَ النّسـيانُ
ما كان ذلك مِنْك بل مِـنْ مَعْشَـرٍ ... خانوك إذ كذبوا علـيّ ومَـانوا
طلبوا القطيعةَ بيْنَنَـا ووَدِدْتُ لـو ... تَبقى ويَبقـى بيننـا الـهِجرانُ

دفع الوفاء للصحبة القديمة والإحسان العميم الشاعر إلى رثاء ذلك الدويدار الكبير، فعلـى الرغم من القطيعة التي حدثت بينهما بفعل الوشاة، لم ينس الشاعر أيامه التي قضاها برفقته، فـأكد وفاءه له بالرثاء.

ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن شعر رثاء ملوك الدولة المملوكية الأولى يكاد يختفـي بعد سنة ٧٤١هـ، أي بعد وفاة الملك الناصر محمد بن قلاوون، ذلك أن موته كان نهاية للعصـر الذهبي لتلك الدولة، فقد استلم الحكم بعده ملوك ضعفاء لا يحترف جلهم السياسة، وإدارة شـؤون الحكم، فكانت عهودهم عهود فتن وصراعات سياسية وانقلابات، فلا يكاد يثبت ملك فـي حكمـه حتى يفاجأ بثورة رجال الدولة عليه، وقد وصف ابن الوردي تلك الدول بقوله: " فانظر إلى هـذه

---

[١] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٢٦٦، الأشرف الغساني، العسجد المسبوك، ٥٩٢/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدول القصار التي ما سمع بمثلها في الأعصار"،[١] فلم يكن أولئك الملوك يتمتعون بقوة الشخصية والكفاءة التي كان عليها سابقوهم، ولم ينصب اهتمامهم المباشر بالحكم، وتوطيد أركان الدولة، وإقامة شؤون الرعية، ولكنهم اهتموا بمتعهم الذاتية، وانكبوا على مجالس اللهو والأنس، ولعل ذلك كان السبب المباشر في انهيار صرح الدولة المملوكية الأولى وقيام الثانية. وحين ملت أولئك الملوك لم يتركوا أثراً في نفوس رعيتهم، وأدباء عصرهم، فلا مآثر تستحق أن تخلد أو ترثى ويبكى عليها.

واختفت كذلك مراثي بعض الملوك الذين كانت لهم أياد بيضاء، فالملك السعيد بن الظاهر بيبرس على سبيل المثال لم يحظ بأشعار الرثاء على الرغم من إشادة المؤرخين به، فقد قالوا عنه: إنه كان " سلطاناً جليلاً كريماً سخي الكف، كثير العدل في الرعية محسناً للخاص والعام.. ليس في طبعه عسفٌ ولا ظلم، كثير الشفقة والرحمة على الناس، ولين الكلمة محباً لفعل الخير، قليل الحجاب عن الناس، يتصدى للأحكام بنفسه، وكان لا يميل لسفك الدماء مع قدرته على ذلك"[٢]، وبعد موته سنة ٦٧٨هـ حزن الناس " كثيراً وعمل عزاؤه بسائر البلاد، وخرجت الخوندات حاسرات بجواريهن يلطمن بالملاهي والدفوف أياماً عديدة".[٣]

وهنا يتساءل الباحث عن سبب سكوت الشعراء المقربين وغيرهم عن رثائه، وهم الذين مدحوه، وأنزلوه المنزلة الرفيعة حين رثوا والده بيبرس.

لعل ذلك يعود إلى النكبة التي نزلت به، فهو لم يمت على سرير ملكه، لكنه أُقصي عن الحكم، إذ خلعه الملك المنصور قلاوون، ونفاه إلى الكرك حيث مات، وانقضت أيامه، وقيل إنه هو الذي دس له السم في الطعام.[٤] فخشية الشعراء على مراكزهم في الدولة مثل محيي الدين ابن عبد الظاهر كاتب السعيد وأبيه من قبله، وخوفهم من بطش السلطان الجديد منعهم من الرثاء والبكاء.

ولم يعثر الباحث على مراثي في الخلفاء العباسيين الذين أحيا الظاهر بيبرس خلافتهم سنة ٦٥٩هـ، وأقامها في مصر، ومرد ذلك أن هؤلاء الخلفاء لم يكن لهم دور سياسي بارز وفعّال في الدولة المملوكية، وإنما كانوا وسيلة ملوكها في إضفاء الشرعية على حكمهم، وكانوا لعبة في أيديهم يولون ويعزلون من شاءوا، ويحجبونهم عن الرعية متى شاءوا، حتى إن حوادث موتهم لم يعتن بها المؤرخون كثيراً، ولم يصفوا أثرها في نفوس العامة والخاصة كما فعلوا حين أرّخوا لموت سلاطين المماليك.

---

[١] ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٣٣٦/٢.

[٢] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٣٣/٧، وانظر الذهبي، العبر، ٣٣٩/٣.

[٣] المصدر نفسه، ٢٣٣/٧، وانظر المقريزي، السلوك، ١٢٦/٢.

[٤] انظر المقريزي، السلوك، ١٢٦/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما عن مضامين ذلك اللون من الرثاء، فقد تنوعت، ومنها تصوير أرباب الدولة لحظة الاحتضار وبيان سبب وفاتهم، وبعضهم كان موته طبيعياً بعد مرض ألم به، ومن هؤلاء الملك المنصور قلاوون، فقد صوره الشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر، وهو في تلك اللحظة يعاني الآلام الشديدة، تحيط به الناس والأمراء، ويتوجعون لحاله، ويتمنون لو أنهم يستطيعون فداءه أو تخفيف آلامه، فقال: [١]

وتَمنّى كلُّ امرىء لويوافيـ ـه نصيبٌ من سَقْمِهِ موفورُ
واغتدوا خيفَةً عَلَيْهِ وَمِنهُ لأميرٌ يَرْتو ولا مأمورُ
لَمْ يَزَلْ سَقْمُهُ يزيدُ وشكوا هُ تنادي أنّ الحَيَاةَ غرورُ
فأتاه ما يُذْهلُ العقْلَ واللّبَ ب لديه وَمِنْهُ يعْمَى البَصيرُ
باحتضارٍ له ملائكةُ الرّحـ ـمة والعفو والقبولِ حُضورُ
ووفاةٌ وافتْ لهُ والرَّزايا من سُطاهُ وخوفِه تَسْتجيرُ

ووصف الشاعر صفي الدين الحلي الملك الناصر محمد بن قلاوون وقد أحاط به الأطباء لحظة احتضاره يبغون علاجه دون جدوى، فقال: [٢]

أحاط به الآسونَ يَبْغون طبّهُ وقد حارتِ الأفهامُ واشتغل السوُّ
وكيف يَردُّ الطبُّ أمراً مقدّراً إذا كان ذاك الأمْرُ ممّن لَهُ الأمرُ

يبدو الشاعر مؤمناً بقضاء الله الذي لا مردّ له، وهذا الإيمان يتجلى عند محيي الدين بن عبد الظاهر حين دعا للأمير حسام الدين الأيدمري الملقب بالدرفيل بالشفاء من مرضه، وصور النساء باكيات عليه، ولكنه لم ينفعه دعاؤه، ولا بكاؤهن حين نزلت به مشيئة الله، يقول: [٣]

كم قَدْ رفَعْت يدي عِنْدَ الدُّعاء لَه بأن يُعَافى وكم قد قيل: آمينا
وكم سَمِعْتُ البَواكي في تمَرُّضِهِ فَقُلْتُ: بُعْداً لها لا جينَ لا جينا
فما أفادَ دعائي لا ولا حَذَري ما شاءه اللّهُ يمضي لا الذي شينا

وتعرض بعض أرباب الدول للاغتيال، وقتل بعضهم في ساحة المعركة، ففي سنة ٦٩٣هـ بينما كان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون يتصيد، ومعه شخص يدعى شهاب الدين الأسل، اغتنم بعض الأمراء فرصة انفراده وبعده عن عساكره، فغدروا به، وتناوبوا على التمثيل بجثته،[٤] وقد أشار بدر الدين بن حبيب إلى ذلك حين رثاه بمقطوعة، عرض فيها بقاتليه،

---

[١] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص١٨١-١٨٢.

[٢] الحلي، الديوان، ص٣٢١.

[٣] الصفاعي، تالي وفيات الأعيان، ص١٣٣، الصفدي، الوافي، ٣٩١/٢٤.

[٤] انظر تفاصيل مقتله في: بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص١٣٦، زبدة الفكرة، ص٢٩٦. الدواداري، كنز الدرر، ٧٤٧/٨، الذهبي، العبر،٣٧٩/٣، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ١٦٧/٨، ابن حبيب، درة الأسلاك، ١٨١/١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢١/٨، المنهل الصافي، ٢٧٩/٥، السيوطي، حسن المحاضرة، ١١٥/٢، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق٣٧٤/١،ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٥/٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووسمهم بالعبيد الذين اشتراهم الأشرف بأمواله وقربهم منه، ولكنهم خانوه فقتلوه، وفتكـــوا بـــه، ويعدهم الشاعر بالعذاب الأليم في الآخرة، فقال: [١]

تبّـــاً لأقـــوامٍ بِمَـــالِكَ رِقُّـــهم ... فتكوا ومـــا رَقُّـوا لِحَالَـةِ مُـتْرَفِ
وافـوه غـدراً ثـمّ صـالوا جُمْلَـةً ... بالمشرفيّ علـى المليـكِ الأشْـرفِ
وافَى شهيداً نَحْو روضـاتِ الرّضـى ... يَخْتَـالُ بَيْـنَ مُزَهّـرٍ ومُزَخْـرَفِ
وسمعتُ يقولُ لقاتليه تربّصـــوا ... بينـي وبَينكُـمُ عـراصُ المَوْقِـفِ

وفي سنة ٦٧٤هـ سقط "ركن الدين بن النقيب محيي الدين محمـد بـن حيـدر، نقيـب الموصل بفرسه إلى نهر دجلة ببغداد، وكان مجتازاً على الجسر فأصعد إلى مشهد عليّ.. فدفـن هناك، وكان شاباً حسن الخلقة"،[٢] فرثاه الشاعر شمس الدين الكوفي الواعـظ بقصيـدة طويلـة أوردها في العزاء، تحدث فيها عن قصة سقوطه عن ظهر جواده في نهر دجلة وإخراجه منـه، وصور ذلك النهر وقد تكدر ماؤه بعده، وسأله عن سبب اعتدائه على ذلك الشاب دون شـفقة أو رحمة عليه وعلى ذويه، وعلل ذلك بشغفه به وحبه له، وأشاد الشاعر بالفقيد، ووصف جمالـه، وحسن منطقه وكرم أخلاقه، فقال: [٣]

ألقاهُ فـي المـاء الجـوادُ كأنّـه ... بَدْرٌ هَوى فـي جَنْـدلٍ[٤] متمـوّرِ
أمواجُ دجلـةَ أغْرَقَتْـهُ إذ طَغَـتْ ... وكَذَا الطّغاةُ على الأكارم تجـتري
ولَقَد تكـدّرَ صفْوهـا مِـنْ بَعْـدِهِ ... ومَتى صفَتْ لـهُمُ ولـم تتكـدّر؟
باللّـه هـل أغرقْتَـهُ شـغفاً بـه ... يا ماءُ أوْ حَسَـداً لمـاء الكَوْثـرِ؟
هـلا رَحِمْـتَ شـبابَهُ وتركْتَـهُ ... من أجْلِ وَلْـهَى فيـهَ ذاتِ تَحَـيّرِ
أوَما علِمْـتَ بأنّـه رحـبُ الفَنَـا ... والصّدر عذبُ اللّفظِ حلْوُ المَنْظَـرِ
يا مـاءُ مـا أنْصفْـتَ آل مُحَمّـدٍ ... وعلى كمال الدين كُنْتَ المُجْـتري
في الطفّ[٥] لم تُسْعِد أباهُ بقَطْـرةٍ ... واليومَ قَـدْ أغرقْتَـهُ فـي أبْحُـرِ
غاصوا عليه وأخرجـوه مُعَظّمـاً ... ومكرّماً وكـذا نفيـسُ الجَوْهَـرِ
واللّه ما نُزِعَت ملابـسُ جِسْـمِهِ ... حتّى تَبختَرَ في الحرير الأخْضَـرِ

---

[١] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٨٦.

[٢] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٨٧.

[٣] ابن حبيب، درة الاسلاك، ١٨١/١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢١/٨، المنهل الصافي، د/٢٧٩، السيوطي، حسن المحاضرة، ١١٥/٢، ابن إياس، بدائـع الزهور، ج١ق١/٣٧٤.

[٤] الجندل "مكان في مجرى النهر فيه حجارة يشتد عندها جريان النهر". المعجم الوسيط، مادة "جندل".

[٥] ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق، والجانب والشاطئ، وسفح الجبل، المعجم الوسيط مادة "طفف".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقتل الأمير ركن الدين إسحاق بن الملك سيف الدين بهادر المنصوري في معركة خاضها ضد الأكراد اللاذخية في وادي جهنم من الجزيرة الفراتية، فرثاه صفي الدين الحلي بقصيدة وصف فيها تلك المعركة، ومصرع الأمير فيها، وسعى إلى تعظيم الدور الذي لعبه ركن الدين وكشف عن السبب الذي دفعه إلى القتال، وهو رغبته في تحقيق الخلود بسيفه وشجاعته، فقال:[١]

ولَمْ يَحْزِ العُلَى إلا كميٌّ ... رَحيبُ الصّدر في ضيقِ المَجالِ
تيقّن أنّ طيبَ الذّكر يبقى ... وكلُّ نعيمِ مُلْكٍ في زوالِ
لذاك سَمَتْ بُركْنِ الدّين نَفْسٌ ... تَعَلّمَ ربّها طَلَبَ الكمالِ
سَمَت فأَرتْهُ حرَّ الكرّ بَرداً ... وَيَحْمومَ المنيّةِ كالزُّلالِ
فألبس عِرْضَه درْعاً حَصيناً ... وَصَيّر جِسْمَه غَرَضَ النّبالِ
تبوأ جَنّةَ الفردوس داراً ... وَحَلّ على الأرائك في ظلالِ
فَعِشْتَ وأنت ممدوحُ السّجايا ... ومِتّ وأنتَ محمودُ الخِلالِ

ودعا الشعراء في قصائدهم إلى الأخذ بالثأر لأرباب الدولة المقتولين، وهاجموا قاتليهم، فالشاعر صفي الدين الحلي في قصيدته السابقة بكى الأمير ركن الدين، وتحسر على أيامه الخوالي، وبين أن موته سيكون وبالاً على قاتليه، وعاهده على ترك التقاعس، وهجر النوم حتى يدرك ثأره ويروي سيوفه من دماء قاتليه، ويطفئ نار غيظه منهم، فقال: [٢]

وتُمسي اللّاذخيةُ في رُقادٍ ... توهِمُ فِعْلَها طيفَ الخَيالِ
ولم تُقْلِع لِقَلْعَتِهم عروشٌ ... إذا استوتْ الأسافِلُ والأعالي
ولا وادي جهنّم حين حلّوا ... به أمسى عليهم شرّ فالِ
سأبكي ما حييتُ ولَسْتُ أنْسَى ... صَنَائِعَكَ الأواخرَ والأوالي
ولو أنّي أبلّغ فيك سؤلي ... بكيتُكَ بالصّوارم والعَوالي
بكلّ مُهنّدِ الحدّينِ ماضٍ ... تدبُّ به المنيّةُ كالنّمالِ
يريك به ركامَ الموتِ مَوْجاً ... وتَمْنَعُهُ الدّماءُ من الصّقالِ
وأشفي من دماء عِداك نَفْساً ... تتوطُ القولَ مِنْها بالفِعَالِ

ولم ينس الشاعر ملكَ ماردين الصالح بن غازي بن قرا أرسلان، فحثّه على إدراك ثأر الأمير والتشفي بقاتليه، وإشفاء نفوس العالمين منهم،فقال: [٣]

---

[١] الحلي، الديوان،ص٢٩٦.

[٢] المصدر نفسه، ص٢٩٧.

[٣] المصدر نفسه، ص٢٩٧-٢٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لَعَـلّ الصّـالح السُّـلطانَ يَجْلـو ... بغـرّةِ وَجْهِـهِ ظُلَـمَ الضّـلالِ
وَيُجْريـها مـن الشّـعبين قُبّـاً ... إلى الـهَيجاء تَسْـعى كالسَّـعالي
يحرّضها الطّرادُ علـى الأعـادي ... كـأنّ الكـرّ يُذْكرهـا المخـالي
علَيْها كـلُّ مـاضي العَـزْم ذِمْـر ... كميّ في الجـلاد وفـي الجـدالِ
ويشفي عِنْـد أخـذِ الثـأرِ منْـهم ... نفوسـاً ليـسَ تَقْنَـعُ بالمِطـالِ

وحين قتل الملك عز الدين أيبك رثاه الشاعر سراج الدين الوراق بقصيدة دعاه فيها إلى أن ينام قرير العين، مطمئن البال، فهناك سيوف تشحذ وتتحيـن الفرصـة المواتيـة لإدراك ثـأره والاقتصاص من قاتليه، فقال: (١)

ألا نَمْ هنيئـاً إنّ ثـارَكَ لـم يَنَـمْ ... لَهُ أعْيُنٌ قَدْ حَصّنَـتْ كـلّ لـهْذَمِ
مليكَ الورَى بُشْرى لِمُضْمرِ طاعَـةٍ ... وبؤسى لطاغٍ في زمـانِكَ مُجْـرمِ

* * *

وأشار الشعراء إلى بعض العادات المتبعة في العصر المملوكي فيما يتعلق بمـوت واحـد من أرباب الدولة، ومنها كيفية نعي الميت منهم، فقد بينوا أن البريد كان يتولى ذلك، وهـذا مـا كشف عنه الشاعر ناصر الدين حسن بن النقيب، حين صور رجل البريد لحظة إعلانه نبأ مـوت الملك الظاهر بيبرس، وما اعتراه من حزن وتلجلج في الكلام، يقول: (٢)

ولقد تـأمّلْتُ الـبريدَ وقَـدْ أتَـى ... ولِسـانُهُ مُتَلَجلـجٌ إذْ يُسْـألُ
وعليه مـن أثـر الكآبـةِ شـاهِدٌ ... بالحـال وهـو مصـدّقٌ ومُعَـدّلُ

وأشاروا كذلك إلى عادة حجب نبأ موت الملك حتى تستقر شؤون الحكم، وتتوطد أركانـه، خشية القلاقل والفتن والنزاع على السلطة، وهذا ما يوضحه قول أحد الشعراء في رثـاء الملـك المنصور قلاوون: (٣)

حَجَبوكَ حيناً عن ضَريحكَ غـيرةً ... أنْ يَنْظُروا بَطنَ الثّرى لـك موطنـا
حتـى تبيّـن أنّ قـبرَك رَوْضَـةٌ ... مِن جنّةِ الفِـرْدوسِ دانيـةُ الجنـى

وتحدث الشعراء عن جنازة بعض الملوك، وما أحاط بها من مظاهر الحفـاوة والتبجيـل والتكريم، فالملك ليس رجلاً عادياً، يدفنه الناس ولا يعلم بأمره سـوى القليليـن منـهم، ولكنـه شخصية عظيمة يزدحم الناس حول نعشها يتباكون، ولذا تفنن الشعراء في إظهار جنائز الملـوك في أبهى صوره. وقد أشار المؤرخون إلى بعض العادات المتبعة في جنائز الملوك في العصـر المملوكي الأول، فذكروا أن كثيراً منهم لا يوضعون في توابيت، وإنمـا يخـرج بـهم الأمـراء

---

(١) الصفدي، الوافي، ٩/١٧٤، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ١/٢٨، النجوم الزاهرة، ٧/١٧.

(٢) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٠.

(٣) بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٧٢، التحفة الملوكية،ص١٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مكشوفين على رقابهم، كي يتمكن الناس من رؤيتهم، وإلقاء النظرة الأخيرة عليهم.[١] وقد فعلوا ذلك في جنازة الملك الناصر محمد بن قلاوون، يذكر المقريزي أن الأمراء حملوه في محفّة من قلعة الجبل، وحوله الأمراء الآخرون، وقدامه بعض الحراس يضيئون بمسرجة زيت، ثم لحقه فانوس، وشيّعه إلى المدرسة المنصورية وحمل إلى القبة، فغسل وحنط، وكفّن، ثم دفن.[٢]

ومن العادات التي ذكرها المؤرخون أن تقلب سروج الخيول المصطفة حول جنازة السلطان، وألا تبقى على هيئتها المعتادة،[٣] وهذا يذكر بظاهرة تنكيس الأعلام اليوم حداداً على الملك الميت، وقد صور الشعراء ذلك كله في مراثيهم، ومن ذلك قول محيي الدين بن عبد الظاهر متحدثاً عن جنازة الظاهر بيبرس: [٤]

خَرَجوا بهِ فَوْق الرِّقابِ وساروا ... تهديهمُ من وَجْهِهِ الأنوارُ
وَسَروا بهِ ليلاً ليخفوا قبرَهُ ... واللّيلُ لا تخفَى بهِ الأقمارُ
لِمَ سارَعوا نحوَ التُّراب بِنقلِهِ ... وقبورُهُ الأسماعُ والأبصارُ؟
لكنّهُ رُكنٌ أقاموه بِهَا ... كي يستقرّ لها بذاك قرارُ

يصور الشاعر الظاهر بيبرس وهو محمول ليلاً على رقاب الأمراء، ويبين أن نوره كان الهادي لهم وقت الظلام، ويلقي الضوء على قبره فيصوره وقد أضحى مناراً هادياً بعد مواراته فيه.

ووصف الشاعر نفسه في قصيدة أخرى الملائكة والناس يحيطون بنعشه، ويتزاحمون على قبره المتضوع بالرائحة الزكية، فقال: [٥]

قَضَى ولهُ على الدُّنيا أيادٍ ... يَصحُّ بها من الزّمن السّقامُ
فراحَ من الملائك في صُفوفٍ ... لهم من حَولِ تُربتِه زحامُ
يقول النّاس: هَلْ ملكٌ كريمٌ ... ثوى في القَبرِ أمْ ملكٌ هُمَامُ ؟
كأنّ صعيدَه مُذْ حلّ فيه ... نوافجُ فضّ عَنْهن الختامُ

وتحدث صفي الدين الحلي عن جنازة الملك ناصر الدين عمر الأرتقي، فصوره محمولاً على رقاب الأمراء، تحيط به الخيول مقلوبة السروج، فقال: [٦]

وَسار فوقَ الرقابِ مُطَّرَحاً ... وَحَولَهُ الصَّافناتُ تَزْدحِمُ
مُقَلّباتُ السُّروجِ شاخصةٌ ... لها زَفيرٌ ذابتْ بهِ اللُّجُمُ

---

[١] انظر ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/٢٨٥.

[٢] المقريزي، السلوك، ٣/٣١٩.

[٣] ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/٢٨٧.

[٤] ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر، ص٤٧٥، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٧/٩٧.

[٥] المصدر نفسه، ص٤٧٥. المصدر نفسه، ٧/٩٨.

[٦] الحلي، الديوان، ص٢٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأكثر صور برزت في جنائز الملوك، صورهم وهم محمولون على الرقاب، ومن ذلك قول الصفي الحلي من قصيدة له في رثاء الملك المنصور نجم الدين غازي: [١]

حَمَلوه علـى الرّقـاب وقـد كـا ن نـداهُ أطـواقَ تلـك الرّقـابِ

وتحدث الشعراء عن جنائز الأمراء وصوّروهم محمولين على الرقاب والناس يبكونهم بالدموع الغزار، ومن ذلك قول صلاح الدين الصفدي في رثاء الأمير سيف الدين قماري: [٢]

سار فـوقَ الأعنـاقِ للـتّربِ عـزّاً ودموعُ الورى عليـه جـواري

ويتجلى ذلك في قول محيي الدين بن عبد الظاهر إذ رثى الأمير حسام الديـن الأيدُمُـري الملقب بالدرفيل، وقارن بين حاله قبل الموت وبعده: [٣]

سَرا نَعْشُهُ فوق الرّقـاب وطالمـا سَرا برّهُ فـوق الرّكـاب ونايلـهْ

يمرُّ على الـوادي فتثنـي رِمَالـهُ عليـه وبالنّـادي فتثنـي أراملـهْ

ووصف الشعراء جوانب من العادات الدارجة في العصر المملوكي في تأبين أرباب الدول، وعزائهم، فقد كان تأبين الملك يجتمع فيه العلماء وقراء القرآن، وتمد الولائم، فيأكل منها العامـة والخاصة، وتوزع النقود على الفقراء والمحتاجين، وتكثر أعمال البر والإحسان، [٤] ففـي سـنة ٦٧٧هـ عمل عزاء للظاهر بيبرس في مكان بين القرافتين [٥] يسمى الأندلس " فـاجتمع هنـاك القراء والفقهاء وأقيمت المطابخ، وهيئت المطاعم الكثيرة، وفرقت على الزوايا، ومدت أسـمطة عظيمة بالخيام التي ضربت حول الأندلس، فأكل الناس على اختلاف طبقاتهم، وقرأ القراء ختمـة شريفة، وعد هذا الوقت من المهمات العظيمة المشهورة بديار مصر"، [٦] وقد صور محيي الديـن ابن عبد الظاهر ذلك العزاء بقوله: [٧]

يـا أيّـها النّـاسُ اسـمعوا قَـولاً بِصِـدْقٍ قَـدْ كُسـي

إنّ عَـزا السُّـلطان فـي غَـرْبٍ وَشَـرْقٍ مـا نُسـي

أليـسَ ذا مأتَمُـهُ يُعْمَـلُ فـي الأنْدَلُـسِ

يوظف الشاعر اسم المكان الذي عمل فيه المأتم، وهو " الأندلس" ليوهـم بأنـه الأندلـس الحقيقية، فيدلل بذلك على عظمة بيبرس الذي عملت له التعازي في الشرق والغرب.

---

[١] الحلي، الديوان، ص٢٩٠، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٢/٤٩.

[٢] الصفدي، أعيان العصر، ٤/١٣٤.

[٣] الصقاعي، تالي وفيات الأعيان، ص١٣٣.

[٤] انظر سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص١٠٩.

[٥] هما القرافة الصغرى والكبرى، مدافن للموتى في القاهرة.

[٦] المقريزي، الخطط، ٤/٣٣٤، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٧/١١٥.

[٧] المصدر نفسه، ٤/٣٣٤، المصدر نفسه، ٧/١١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكشف الشاعر نفسه عن النعم التي حلت على العباد آنذاك فقال: [١]

فشكراً لـــها أوقـــاتُ بـــرٍّ تقبّلـــتْ ... لقد كان فيها الخَيْرُ والـــبرُّ أجْمَعـــا
لقد عَمّت النّعمى بها كلّ مَوْطـــنٍ ... سَقَتْها الغوادي مَرْبعـــا ثـــم مَرْبعـــا
فَلمّا مَضى السُّلطانُ لم يمضِ جوده ... وخلّـــفَ فينـــا بـــرّه مُتنوّعـــا

وصور الشعراء بعض العادات التي كانت شائعة آنذاك في الحزن علـــى أربـــاب الـــدول الميتين، وقد أشار المؤرخون إلى بعضها، فذكروا أن العادة جرت في المدن الكبرى عند مـــوت أحدهم أن تخرج النساء بالدفوف، والندب، والنياحة، واللطم،وأن يقمن بتقطيع شعورهن، وتلطيـخ وجوههن بالدبس والسخام، أما الرجال والمماليك منهم خاصة، فإنهم كانوا يمزقـــون ملابســـهم، ويجتمع علماؤهم، وقضاتهم ووعاظهم وأعيانهم وقرّاؤهم في العزاء، ويقيم القـــراء علـــى قـــبر الميت منهم أياماً أو شهوراً، وهم يتلون القرآن لقاء أجر يدفع لهم.[٢]

ومثال ذلك ما عبر عنه شرف الدين سليمان الإربلي حين رثى الظاهر بيبرس، وأشار إلـــى عادة تمزيق القمصان فقال:[٣]

ما أنْصفَ الباكي عليك ودمْعُـــهُ ... ينهلُّ حُزْنا غير أحمر قـــانِ
وممزّقو قمصانهم إذ لـــم تكُـــنْ ... أكبادهم عِوَضا عن القمصـلن

وألقى الشاعر أمين الدين السليماني الضوء على النساء المخـــدّرات ذوات العيـــال، وقـــد خرجن من خدورهنّ نائحات، وحاسرات حزناً على الملك الناصر صـــلاح الديـــن بـــن أيـــوب، فقال:[٤]

تبكيكَ وَلْولَةُ الحَريم حَواســـراً ... من كـــلّ مُعْولَـــةٍ تضـــمّ عيالَـــها
ومَصونَةٍ في خِدْرها ما شَـلهَدَتْ ... قَبْـــل الرَّزيّـــة مـــا يُـــروِّع بالَـــها
بَرزَتْ ولم تَكُ بَرّزتْ من قَبْلـــهَا ... كيمـــا يُشَـــاهد ذو الحَميّـــة حَالَـــها

* * *

وأخذ الحديث عن قبور أرباب الدول حيزاً كبيراً من مراثيهم، إذ قدم لها الشعراء صـــوراً متنوعة، فذكروا أماكن بعضها، وصوروا ذلك تصويراً واقعياً، فقد اقتضت ظروف معينـــة نقـــل جثة أحدهم من المكان الذي دفن فيه حين مات إلى مقر ملكه أو نيابته، فالظاهر بيـــبرس علـــى سبيل المثال مات في دمشق، ودفن في قلعتها، وظلت جثته هناك إلى أن ابتاع ابنه الملك الســـعيد

---

[١] المقريزي، الخطط، ٣٣٤/٤، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات،١١٥/٧.

[٢] المصدر نفسه، ٣٣٤/٤، المصدر نفسه، ١١٥/٧.

[٣] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٨.

[٤] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٤٧/٢، الكتبي، فوات الوفيات، ٣٦٥/٤، عيون التواريخ، ٢٦٢/٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"داراً تعرف بالعقيقي وبناها تربة، ونقل إليها والده"،[١] وقد ذكر ذلك محيي الدين بن عبد الظاهر في قوله يحث الناس على زيارة قبر بيبرس: [٢]

صاحِ هذا ضريحُـــهُ بيـــن جَفْنـــي فَزوروا مِنْ كـــلّ فـــجٍّ عَميـــق
كيف لا وهو من عقيـــق دموعـــي دفنـــوه مِنْـــها بـــدار العقيقـــي

ولا يخفي فتور عاطفة الشاعر، ورغبته في إبراز مقدرته الفنية أكثر من التعبير عن حزنـه وألمه .

وتوفي في سنة ٧٤٢هـ الأمير سيف الدين تنكـز الحسـامي نـائب الشـام فـي سـجن الإسكندرية، ودفن هناك، ثم نقل في سنة ٧٤٤هـ " تابوته من الإسكندرية إلى دمشق في تربتـه جوار جامعة المعروف بإنشائه".[٣] وقد نظم الشاعر صلاح الدين الصفدي غير مقطوعة معـبراً عن ذلك، ومعللاً إياه، ومنها قوله: [٤]

فـــي نَقْـــل تَنْكـــز سِـــرٌّ أرادَهُ اللّـــــهُ ربُّـــــهْ
أتَـــى بـــــه نَحْـــوَ أرْضٍ يحبّـــــها وتُحبّـــــهْ

إن إرادة الله - كما يصور الشاعر - هي التي اقتضت نقل جثة ذلك الأمير إلى دمشق حيث الأرض التي بادلته حَباً بحب.

وصور الشاعر في مقطوعة أخرى دمشق جنة الدنيا، ليبين أن نقل جثمان تنكز إليها كرامة اختص بها، لتكون جثته في نعيم الدنيا هذا فضلاً عن النعيم الذي يتقلب فيه في الآخرة، فقال: [٥]

إلـــى دِمَشْـــقَ نَقَلـــوا تَنْكـــزاً فيالَـــها مـــن آيـــةٍ ظـــاهرهْ
فـــي جنّـــة الدُنيـــا لـــه جُثَّـــةٌ ونَفْسُـــهُ فـــي جَنّـــةِ الآخـــرهْ

وقال أيضاً: [٦]

أعَـــادَ اللّـــهُ شَـــخْصَكَ بَعْـــدَ دَهْـــرٍ إلـــى بَلَـــدٍ وَليـــتَ فَلَـــمْ تَخُنْـــها
أقَمْـــتَ بِـــهَا تدبّرهـــا زمانـــا وتـــأمُرُ فـــي رعاياهـــا وتَنـــهى

وألقى الشعراء الضوء على القبور وقد أضحت مقاماً لأرباب الـدول، فصوروهـا هللـت لمقدمهم، وأضحت عظيمة الشأن وسامية المقام، ومتسعة الأرجـاء، تشـع بـالأنوار، وتفـوح بالروائح العطرة التي تضاهي المسك والعنبر، وغدت روضة من رياض الجنة. وهدف الشـعراء

---

[١] بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص١٦٦، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٤٧٥، العيني، عقد الجمان، ٢٠١/٢.

[٢] المصدر نفسه،ص١٦٦،المصدر نفسه،ص٤٧٥، المصدر نفسه، ٢٠١/٢.

[٣] الصفدي، الوافي، ٤٣٢/١٠، تحفة ذوي الألباب، ٢٤٣/٢، أعيان العصر، ١٣٧/٢، ابن تغري بردي، المنهل الصافي ١٦٦/٤، ابـن إيـاس بدائـع الزهـور، ج١ق١/٤٧٩.

[٤] المصادر نفسها على التوالي: ٤٣٢/١٠،٢٤٣/٢،١٣٨/٤،١٦٦/٤،ج١ق١/٤٧٩.

[٥] المصادر نفسها على التوالي: ٤٣٢/١٠، ٢٤٣/٢،١٣٧/٢، ١٦٦/٤، ج١ق١/٤٧٩.

[٦] الصفدي، الوافي، ٤٣٣/١٠، تحفة ذوي الألباب، ٢٤٣/٢، أعيان العصر، ١٣٨/٢، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ١٦٦/٤-١٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ذلك تعظيم مكانة أولئك الأرباب، وبيان مكانتهم التي يستحقونها، والكشف عن مصيرهم في حياة القبر، فهو الحد الفاصل بين الدنيا والآخرة، فإذا كان الإنسان سعيداً فيه، فإن حياته الأخرى كذلك، وتلك الصور التي قدمها الشعراء للقبر وسيلة من وسائلهم في تعزية نفوسهم، وتعزية ذوي الميتين والتخفيف عنهم، وبيان أن هناك نعيماً ينتظرهم في قبورهم أسمى مقاماً وأعلى شأناً من النعيم الذي فقدوه في دنياهم، وقد نبعت الأفكار التي عبّر عنها الشعراء من معتقداتهم الدينية، فلا تكاد معانيهم تخرج عما جاء به القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، والصور التي قدموها ليست جديدة في شعر الرثاء، بل هي قديمة طرقها الشعراء منذ بزوغ فجر الإسلام، ونشره تعاليمه المتعلقة بالحياة والموت، ومن تلك المعاني ما قاله الشاعر أبو الفَضْلِ قاسم البجّائي القصّار من قصيدة له في رثاء الملك الناصر محمد بن قلاوون: [١]

زار الثّرى فأضا الثّرى من نوره ... وأجابَهُ أهْلاً بِنِعْمَ الزّائِرِ
فغدا بِهِ القَبْرُ الذي قد حَلّه ... روضٌ يفوح كَنَشْرِ مِسْكٍ عَاطِرِ
وكأنّه مُذْ حَلّ فيه رَوْضَةٌ ... مَمْطورةٌ قد نُمّقتْ بأزاهرِ
سقيا لترب حَلّ فيها جِسْمُهُ ... قَدْ عُطِّرتْ مِنْهُ بجِسْمٍ طاهِرِ

وصور الشاعر صفي الدين الحلي وجه الأرض قد غبط بطنها لأنه ضم جسد الناصر محمد فقال: [٢]

وقد كانَ بطْنُ الأرضِ يَغْبِطُ ظَهْرَها ... عليه فأمسى البَطْنُ يحْسدهُ الظّهْرُ

ووصف الشاعر شهاب الدين العزازي تربة الملك المنصور الثاني صاحب حماة، وقَدْ غدت تَضوع بالمسك، وعبر عن حزنه ولوعته حين رأى مليكه مستقراً في قعر الأرض، ينادي فلا مجيب لندائه، وهو الذي طالما أجاب السائلين، فقال: [٣]

بروحي مَنْ هَالّوا على وَجْهِهِ الثّرى ... فطاب الثّرى من نَشْرِهِ وتضوّعا
وحُزْني على من أضجعوه بِلَحْدِهِ ... وما كان يرضى داره الشمس مَضْجَعا
تصامَمَ عَنْهُ رهْطُهُ وَحُماتُهُ ... وكان مجاباً في الخُطوبِ إذا دَعا

ولا يخفى في البيت الثالث تأثر الشاعر بالأحاديث النبوية التي تحدثت عن حال الميت بعد دفنه وذهاب رهطه عنه.

---

[١] النويري، الإلمام، ٤/١٥٦.
[٢] الحلي، الديوان، ص٣٢١.
[٣] العزازي، الديوان، ص٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووقف الشاعر شافع بن علي الكاتب موقفاً مغايراً إذ نظر إلى القبر على أنـــه دار الفنـــاء، وموطن الأوحال، وهذا ما يوضحه قوله في رثاء الملك الصالح بن منصور قلاوون : [١]

أوَمَا علاء الدِّينِ أضحى مودعاً ... لَحْـداً رَهِيـنَ جنـادلٍ ورِمـالِ
مُستوطنا دارَ الفنـــاءِ برَغْمِنـا ... مُنفـرّداً عـن صَحْبِـــهِ والآلِ
يا قبرَه أصْبَحتَ ســامي رُتْبَـةً ... أوَ ما أقام بـــك المقـامُ العـالي
أعليُّ قد غادَرْتَنا فـــي مُطْلَـقٍ ... لمّا سَـكَنْتَ بِمَوْطِـنِ الأوْحـالِ

إن تلك النظرة إلى القبر ليست من الفكر الإسلامي الذي تحـدث عـن حيـاة الـبرزخ، ووصف نعيمها وجحيمها، ولم يعدها مكاناً لفناء الإنسان، كما أنها غير شائعة في مراثي الملـوك المسلمين وغيرهم من الميتين، وذلك أن فلسفة الشعراء تقتضي أن يجعلوا ملوكهم في أهنأ عيـش بعد موتهم، وألاّ يكون دفنهم نهاية لهم، وإنما بداية لحياة جديدة تفوق في رِغدهـــا حياتـــهم فـــي الدنيا.

وكشف الشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر عظمة القبر الذي دفن فيه الظـــاهر بيـــبرس وسمو رتبته حين كرر لفظة "قبر" غير مرّة، فقال: [٢]

قبرٌ به تتضـــاعفُ الأقســـامُ مِـنْ ... بَرَكاتِـهِ وتُؤكّـــدُ الأقســـامُ
قَـبْرٌ بـــه تَتَوسّـلُ الآمـــالُ فـــي ... حاجاتها وتُصَـــرَّفُ الأحكـامُ
قَبْرُ الـــذي لـــو أنْصَفَتْـــهُ قلوبُنـــا ... ما أصبحـــتْ لمسـرّةٍ تَسْـتامُ
قبرُ الذي قَلَع القـــلاعَ فـــأصبحتْ ... سكّانها وله الحصـــونُ خيـامُ
قبرُ الذي قهرَ التّتـــار فـــأصبحوا ... ولهم إذا نـــاح الحَمـــام حِمـامُ

* * *

ودعا الشعراء لأرباب الدول المرثيين، ونهجوا في ذلك نهجين:

النهج الأول: قديم، وهو شائع في الرثاء منذ العصر الجاهلي، ويتمثل بالدعاء لقبر الميـت بالسقيا، وهذا النوع أصيل في بناء قصائد الرثاء ومضمونها، ولم يستطع الشعراء أن يفلتوا مـــن عقال هذا التقليد عبر عصور الأدب العربي المختلفة [٣] ، ولكنهم منذ مجيء الإســـلام "خلصـــوه من أبعاده الأسطورية" [٤] ،وأضحت تلك السحب التي تسقي قبر الميت سحب رحمـــة وغفـــران غزيرة المياه، ودائمة الانهمار، وكأنها وكلما زاد تدفقها نال الميت الأجر والثواب العميـــم، وقـــد

---

[١] شافع بن علي، الفضل المأثور، ص١٦٥.

[٢] الدواداري، كنز الدرر، ٢١٨/٨، العيني، عقد الجمان، ١٨٣/٢، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ١٤٣/٧.

[٣] انظر مصطفى الشورى، شعر الرثاء في العصر الجاهلي، ص١١٨.

[٤] المرجع نفسه، ص١٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جاءت تلك الدعوة في أماكن شتى من مراثي أرباب الدول، وبرزت كثيراً في مراثي الظاهر بيبرس، ومنهما قول تقي الدين بن شبيب الحرّاني: [١]

سقى الإلهُ ثـــراهُ سُـحبَ رَحْمتـهِ وجاد مَثْواه صَوْبُ الغيثِ يَنْسَـجِمُ

ومثله قول شرف الدين سليمان الإربلي: [٢]

يا من تروّى النّـاسُ مِـنْ إحسـانِهِ رَوّى ضريحَكَ صيّـبُ الغُفْـرانِ

ودعا الشاعر جمال الدين بن نباته في قصائده التي رثى بها الملك المؤيـد عمـاد الديـن إسماعيل لقبره بالسقيا، فقال في إحداها: [٣]

سقى قبرَ إسماعيل مُنْبَجَسُ الحيا وأرسى هضابَ المزنِ حولَ هِضابِهِ

وقال في أخرى: [٤]

سقى الغيثُ عنّا تربةَ الملكِ الّذي عَهِدْنا سجاياه أبرّ وأكْرَما

ومثله قول الشاعر شهاب الدين العزازي في مرثية نظمها في الملك الأفضل نور الدين علي: [٥]

فلا برِحتْ تسقي ثراكَ لأجلِهِ سحائبُ تهمي أو مدامعُ ترفضُّ

ويثور الشاعر ابن الكَبّوش البصري على فكرة الدعوة لقـبر الملـك بالسـقيا، ووجـه اعتراضه أنه كيف تسقي الغمائم قليلة المياه، بحر الجود والكرم المدفون تحت التراب، ويتجلـى ذلك في قوله يرثي الملك عز الدين النيسابوري: [٦]

لا أحمـدُ الغيـثَ إن عـداك ولا إذا انـبرى فـي ثـراكَ ينسـجمُ

وكيف يسقي ثـراكَ صـوبُ حَيـا وفيـه بحـرٌ بـالجودِ يَلْتَطِـمُ

ومثله قول صفي الدين الحلي في رثاء الملك ناصر الدين عمر: [٧]

سقى ضريحَكَ صَوْبَ المزنِ مُنْبجساً حتّى يُذبّج أقصى تربهِ الزّهَرُ

وكيف أسألُ صَوْبَ المزنِ ريَّ ثرىً حَلَلْتَ فيه، وفيه البَحْرُ والـمَطَرُ

وهدف الشعراء من الدعوة لقبور أرباب الدول بالسقيا إلى رؤيتها خضراء تحيـط بـها الزهور المختلفة الألوان، التي تعبق بالروائح الزكية، وبذلك تستكمل الصورة التي رسموها لتلـك القبور، إذ تضحي رياضاً من الداخل والخارج.

---

[١] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٦.

[٢] المصدر نفسه، ص٢٥٨.

[٣] ابن نباته، الديوان، ص٤٩.

[٤] المصدر نفسه، ٤٢٩، ابن حجّة، خزانة الأدب، ١٣٩/١.

[٥] العزازي، الديوان، ص٧٥.

[٦] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٧٨، الكتبي، عيون التواريخ، ٦٦/٢١.

[٧] الحلي، الديوان، ص٢٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما النهج الآخر، فظهر في المراثي منذ مجيء الإسلام، ونشره الأفكار المتعلقة بالحياة والموت والآخرة، فقد درج الشعراء منذ عصور الإسلام الأولى على الدعاء للميتين بالرحمة والغفران، وبأن يكون مصيرهم الجنة يخلدون فيها، ويتقلبون في نعيمها، ويتمتعون بحورها، وهذه الغيبيات استمدها الشعراء من المعاني والصور التي جاء بها القرآن الكريم وقدمتها الأحاديث النبوية، فالموت "نهاية رحلة الحياة الدنيا فقط، وليس نهاية الحياة عامة في الفكر الإسلامي، إذ بعد الموت تكون الحياة البرزخية التي تكون نعيماً أو جحيماً على صاحبها بحسب عمله إلى يوم القيامة" [١]

ولعل الدعاء للموتى والإكثار منه نابعٌ من اعتقاد الشعراء بانتفاع أولئك الميتين بها، وهناك أدلة كثيرة من القرآن والسنة تؤكد ذلك الانتفاع، وقد أفرد ابن قيم الجوزية فصلاً خاصاً في كتابه الروح [٢] ، ومما قاله صلى الله عليه وسلم: "ما الميت في قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له، فإذا ألحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها، وإن هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار"[٣] ، ومن تلك الأدعية قول الشاعر عز الدين بن أبي الحديد في رثاء علاء الدين الطبرسي المعروف بالدويدار الكبير: [٤]

فعليكَ من رضوانِ ربّكَ رحمةٌ ... يعدوك منها الروحُ والرّيحانُ

وتجدر الإشارة إلى أن أدعية الشعراء لأرباب الدول الميتين بالغفران والجنة جاءت مختلطة بدعوتهم لقبورهم بالسقيا،وهذا ما يوضحه السيف الشطرنجي في رثاء صلاح الدين يوسف بن أيوب: [٥]

فعليهِ من الإلهِ تعالى ... رحمةٌ أُنزلَتْ على الأولياءِ
ولهُ الحورُ في جنّانِ أعدّتْ ... لأولي العزمِ شاكر للعَطاءِ
فسقى اللهُ تربَةً هو فيها ... مزنة في صباحِهِ والمساءِ
كي ترى تربها عبيراً سحيقاً ... طِبْنَ نشراً عن رَوْضَةٍ غنّاءِ

ومثله قول الشاعر جمال الدين بن نباته في رثاء الملك عماد الدين إسماعيل: [٦]

---

[١] د. عبد الحي الفرماوي، الموت في الفكر الإسلامي، ص٨١.

[٢] انظر ابن قيم الجوزية، الروح، ٢٩٩/١-٣٠٢.

[٣] الغزالي، سكرات الموت، ص١٥٨.

[٤] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ٢٢٦٦، الأشرف الغساني، العسجد المسبوك، ٥٩٢/٢.

[٥] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٥٠/٢.

[٦] ابن نباته، ص٥٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جادَ الحيا قبرَهُ الزّاكي فلا بَرِحَتْ سحائبُ العفو والرّضوانِ تسقيهِ
نِعْمَ السّحائب تسقى صوبَ وابلها نِعْمَ الضريحُ ونِعْمَ المرءُ ثاويهِ

ويتجلى ذلك في قول صلاح الدين الصفدي من قصيدة له في رثاء الأمير سيف الدين تنكز: [١]

ألا فاذهبْ سقيتَ أبا سعيدٍ فَقَدْ روّى زمانَكَ كلُّ ظامِ
فأنت وديعةُ الرّحمن منّا تحوطُكَ في الرّحيلِ وفي المقامِ
ونِلْتَ من السّعادةِ والمعالي منالاً حاز غاياتِ المرامِ
وَدُمْتَ ممتّعاً بالخُلدِ حتّى يقومَ النّاسُ من تحت الرّجامِ

فالشاعر يدعو لقبر ذلك الأمير بالسقيا، ويرجو له حياة سعيدة في قبره حتى يبعث الناس، وينشرون من قبورهم.

* * *

وتحدث الشعراء عن مصير أرباب الدول في الآخرة، فصوروهم وهم ينعمون بالجنة بما فيها من رغدٍ وقصور، وأسرة، وحور عين، وتلك الحياة هي التي وصفها القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة جزاء للصالحين الذين قضوا حياتهم في العبادة والتقوى وطاعة الله، وتلك المعاني التي عرضها الشعراء أسلوب من الأساليب في التأسي والعزاء، وبها تكتمل حياة النعيم التي عاشها هؤلاء في الدنيا والقبر، وتتجلى تلك المضامين في قول شافع بن علي لكاتب في رثاء الملك المنصور قلاوون: [٢]

إنْ زالَ ملكُهُ بالموتِ إنّ لهُ عند الإلهِ لملكاً عنهُ لم يَزُلِ
في جنّةِ الخُلْدِ في أعلى القصورِ على أعلى الأسرّةِ يُحبى أشْرَفَ الحلُلِ
فهو السّعيدُ إذاً دنيا وآخرةً عن عهدِهِ السّعدُ في الدّارينِ لم يحلِ

فالملك المنصور لم يزل ملكه بموته، لكنه حظي بملكٍ أعظم عند ربه، في جنات الخلد حيث يتقلب في النعيم المقيم.

ويكرّم الشاعر صفي الدين الحلي الملك الأفضل محمد بن إسماعيل حين صور الملائكة وقد أتت تبشره بالجنة بعدما انفض عنه الغاسلون، وحين وصف الجنة بحورها وولدانها مهللة ومرحبة بقدومه إليها، يقول:[٣]

---

[١] الصفدي، الوافي، ١٠/٤٣٤، أعيان العصر، ٢/١٣٧، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٢/٣٢٢.

[٢] شافع بن علي الكاتب، الفضل المأثور، ص١٧٧، حسن المناقب السرية، ص١٤٢.

[٣] الحلي، الديوان، ص٣٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سَمِعَتْ بمقدَمِكَ الجنـــانُ فَزَخْرَفَـتْ وتَباشَرَتْ ولدانُـــها والحــورُ
لم تثــن عنــكَ الغاســلونَ عنانــها إلاّ أتــاكَ مبشّــرٌ وبشـــيرُ
وغَدَتْ تقول العالمونَ وقـــد بَكَـتْ علماً بلذّة مـــا إليــه تصــيرُ
تبكي عليـــه ومـــا اســتقرّ قــرارُهُ في اللّحدِ حتّى صافَحَتْهُ الحورُ

وخاطب الشاعر صلاح الدين الصفدي علاء الدين المارداني نـائب السـلطنة بدمشـق، فدعاه إلى الصبر على مصيبته بموت أخيه سيف الدين قماري، وبيّن له المكانة التي حظي بـــها المتوفى عند ربه، إذ انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء والخلود، فقال: [١]

صـــبّرَ اللهُ قلبَـــهُ فـــي مُصـــابٍ زاد منه الأمواتُ أكــرمَ جــارِ
تركَ المـــالَ والبنـــينَ وولّـــى عن ديارِ البلى لـــدارِ القــرارِ
هو ضَيْـــفٌ قــد بــات عنــد كريــمٍ بــاذلِ العفــو ســاترِ غَفّـــارِ

تصوير الحدث

صور الشعراء المصيبة التي نجمت عن موت أرباب الدول، ووصفوا حزنهم وجزعـهم، ودموعهم الغزيرة التي انهمرت حزناً عليهم، وهذا الجزء أساسي في الرثاء وربما كان المميز لـه عن غيره من الموضوعات الشعرية. نُقل عن الأصمعي قوله:"قلت لأعرابي مـا بـال المراثـي أشرف أشعاركم ؟ قال: لأنا نقولها وقلوبنا محترقة "[٢] .

وقصر ابن رشيق تلك المعاني على مراثي الملوك والسادة، فقال : "وســبيل الرثــاء أن يكون ظاهر التفجع، بين الحسرة مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام إن كان الميـت ملكـاً أو رئيساً كبيراً ". [٣] ويرى حازم القرطاجني أن الرثاء يجب "أن يكون شـاجي الأقـاويل، مبكـي المعاني، مثيراً للتباريح" [٤] ، وأنه "ما صدر عن نفس شجية، وقريحة قريحة" [٥] ، ويرى بعـض الباحثين أن "قصائد الرثاء تعبر عن عاطفة إنسانية سامية لا يأتي الإبـداع فيـها دون انفعـال حقيقي وتأثر صادق بالحدث" [٦] ، إن الكلام الآنف بحاجة الى معاودة النظر، إذ لا يشترط فـي الراثي حتى يكون مبدعاً في مراثيه أن يكون تأثره حقيقياً بالحدث، وإنما يكفي أن يكـون قـادراً على تمثل تجربة الحزن وعكسها في مراثيه. ويؤيد ذلك ما ذهب إليه النقـاد قديمـاً أو حديثـاً،

---

[١] الصفدي، أعيان العصر، ٤/١٣٥.

[٢] النويري، نهاية الأرب، ٥/١٦٥.

[٣] ابن رشيق، العمدة، ٢/١٤٧.

[٤] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص٣٥١، وانظر د. أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، ص٢٢٥.

[٥] المصدر نفسه، ص٣٤١.

[٦] مظفر غانم، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فحازم القرطاجني الذي فضل المراثي الصادرة عن نفس شجية، لا يقدح بتلك التي استطاع الشاعر إبراز حزنه جلياً فيها، وإن لم يكن حزيناً بالفعل.[١]

أما ريتشاردز في كتابه "مبادئ النقد الأدبي"، فقد جعل أول ما يميز الفنان شاعراً كان أو غيره هو قدرته على تمثل الحالة الشعورية الخاصة بتجربة معينة [٢] ، فالشاعر برأيه يملك قدرة غير عادية على تمثل التجارب وتنسيقها [٣] وفي الحقيقة " إن عاطفة النص تقاس بقدرته على إثارة عاطفة القارئ، وإدامة تلك الإثارة في نفسه أطول فترة ممكنة" [٤]

كشفت معظم نصوص الرثاء عن انفعالات حقيقية وصادقة تجاه المرثي، إذ صور ناظموها بجلاء، أحزانهم وأشجانهم، وجوّهم النفسي، واستطاعوا تصوير الجو المحيط بهم إثر موت واحد من أرباب الدول الكبار أو الصغار، وتفننوا في تنويع تلك الصور، واتفقت جميعها على أن شيئاً عظيماً قد فقد وزال، وبأن حادثاً جللاً قد حدث.

ومن الملوك الذين بكاهم الشعراء وأكثروا من ذلك الظاهر بيبرس، فالشاعر علاء الدين علي المعروف بابن قاضي اللاذقية يتبرم من الحياة بعد ذلك الملك، ويتمنى أن يفديه بروحه، لكنه يبدو مقتنعاً بأن ذلك من الأمور المستحيلة، يقول :[٥]

لا خَيْرَ في العيشِ من بعد الفراقِ له ... طالَ العزاءُ به حقّاً فعزّونا

من كان يُسعدُ إخواناً على حُزنٍ ... بالدّمعِ ها وقته يبكي ويُبكينا

لو كان يُفْدَى فديناه بأنْفُسنا ... لكنّ أرواحَنا ليستْ بأيدينا

وتستثار انفعالات ناصر الدين بن النقيب، فيصرخ بأعلى صوته أسفاً وحزناً، وذلك حين رأى العساكر، والمواكب السلطانية خاليه من بيبرس بعد أن اعتاد على عرضها والسير فيها، يقول: [٦]

وقد افْتقدتُكَ والعساكر عندما ... نزلوا على عاداتهم وترجّلوا

فإذا المواكبُ ليس فيها ركْنُها الـ ... ـعالي الذُّرى أو بدرُها المتهلّلُ

فقَطَعْتُ ثمّت ما قَطَعْتُ وقلت وا ... أسفاه أين الغائبُ المتـرحّلُ

ومثله قول سراج الدين الوراق في رثاء عز الدين أيبك : [٧]

---

[١] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص٣٤١.

[٢] انظر ريتشاردز، مبادئ النقد الأدبي، ص٣٤٠.

[٣] المرجع نفسه، ص٢٤٣.

[٤] د. فائق مصطفى، د. عبد الرضا علي، في النقد الأدبي الحديث، ص٣٤.

[٥] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٥.

[٦] المصدر نفسه، ص٢٥٧.

[٧] الصفدي، الوافي، ٤٧٤/٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يمثّلُ لي شخصُ المُعزّ إذا بَدَتْ لعينيَ أطلابُ الخميس العَرَمْـرمِ
وتُذْكرنيه الخيلُ ما بين مُسْرَجٍ غدا مُلجماً صبري وما بين مُلْجَمِ

ويدعو الشاعر مجد الدين بن ظهير الإربلي إلى بكاء بيبرس وندبه، وبين أنه مـــن لـم يمت كمداً عليه فإنه لن يوفيه حقه، فيقول: [١]

يا للنّوادبِ والرّجالِ لحـــادثٍ جلل للأشتاتِ الهمومِ مؤلّـفِ
ومن لا يذوبُ أسىً عليه فؤاده ويشيبُ فوداهُ فليس بمُنْصِفِ

ومثله قول شبيب الدين الحراني: [٢]

فَلْتبك كلُّ البرايا رُكْنَ دينهمُ مَلْك الملوكِ وإنْ مدَّ الدّموعَ دَمُ

فالشعراء يرغبون في أن يروا الحزن قد عمّ الخلق كلهم، وبذلك يوفون بيـــبرس حقـــه، ويكونون منصفين له، ولذا يستنكر محيي الدين بن عبد الظاهر، على من خدموا ذلـــك الملـــك، وغمرهم جوده فتور عاطفتهم، وشح دموعهم، فيدعوهم إلى شقّ الجيوب، فيقول: [٣]

بالله يا مَنْ في صنائع جـــودِهِ عاشوا ومن بلغوا به ما راموا
يا مَنْ به خدمتهُمُ الأيامُ والـــــ أقــدارُ والأرزاقُ والأقـــوامُ
لم لا شَقَقْتُمْ مثل ما شقّ الدُّجـــى حببَ الصّباحِ وشقّت الأقـــلامُ
أين البكاءُ على الذي كانَتْ لـــه عندَ الخلائق حُرْمةٌ وذمـــــامُ؟
أين المدامعُ يا جفونُ أما تَـــري قِرْنَ الرّجالِ ثَوَتْ عليه رجامْ؟

ورثى الشاعر شافع بن علي الكاتب الملك الصالح علاء الدين بن المنصـــور قـــلاوون، وعبر عن حزنه ولوعته، إذ راح يخمش خده ، ويمزق ثيابه عليه، فقال: [٤]

حقّاً أقول فلنْ يردّ مقالـــــــي ممّا دهى واخيبةَ الأمـــــالِ
وأجودُ بالدّمعِ المصونِ فيغتدي بتواترِ الهَمْلان كالسّلســـالِ
وأخمش الخدّين لطماً مؤلـــماً بيمينِ نَدبٍ مُسْمعٍ وشمـــالِ
وأنوحُ بالإعلانِ وهو محـــرّمٌ إلاّ على فَقْدِ العزيزِ الغـــالي
وأشقّ مـــمّا شقّ أثوابي وإنْ ألفى بغير حُلى التّفجّع حالي

ويرثى الشاعر شهاب الدين العزازي الملك المنصور صاحب حمـــاة، فيبكيـــه، وينـــوح عليه، ويتمنى الموت بعده عله يوفيه بعض حقوقه عليه، فيقول: [٥]

---

[١] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٦٣.
[٢] المصدر نفسه، ص٢٥٦.
[٣] ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ١٧٣/٧.
[٤] شافع بن علي، الفضل المأثور، ص١٦٥.
[٥] العزازي، الديوان، ص٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بكَيْتُ ولو وفيتُهُ بعضَ حقِّـــهِ عليّ لأجريتُ السّحائبَ أدْمُعـا
وقُلْتُ وقد أكبرتُ رزءاً أصابهُ عَدِمتُكَ رزءاً ما أمضّ وأوْجَعـا
فلم تَرَعيني قرّةٌ بعد وَجْهِـــهِ ولا أعلى في الجاه والمال مَطْمعا
وإنْ كنتُ قد أخّرتُ بعد رحيلِهِ فإنّي على التّرحالِ ما زلتُ مُزْمِعا

وعبر جمال الدين بن نباته بصورة جلية عن لوعته وأحزانه وتعاسته، ودموعـــه، فـــي أشعاره التي رثى فيها أرباب الدول، واعترف بفضلهم عليه [١] ، فأكثر من ترداد ألفـــاظ اللهفـــة والحسرة ومن الأمثلة على ذلك قوله في رثاء الملكين المؤيد والأفضل. [٢]

يا جفْـــنُ امـــزْج أدمعـــي بدمـــائي واشـــهد بـــها لمُلُوكنـــا الشُّهـــــداءِ
لهفي علـــى ملكيـــنِ جـــادَ عليـــهما فـــي كـــلِّ أرضٍ أفـــقُ كـــلِّ سَـــماءِ
لـــهفي لإســـماعيل قبـــل مُحَمّـــدٍ لـــم أُلْـــقَ يـــوم رداهمـــا لفِـــداءِ
أمّـــا ذبيحـــا مُقْلتـــي ومَدامعـــي لَـــهُما فمـــا وَفَيـــا بفَيْـــضِ دمـــاءِ
نـــمْ يـــا محمّـــدُ مـــع أبيـــك فإنّـــه مـــا رثّ وأبيـــك عَـــهْدُ رِثـــائي

وأكثر المعاني ترداداً في مراثي ابن نباتة إلى جانب حديثه عـــن حزنـــه وحســـرته، تلـــك المعبرة عن معاناة الجماعة وتعاستها، وتشتتها بعدما فقدت راعيها، وحاميها، ومحقـــق آمالـــها، ولذا تلهف الشاعر على حالها، وتحسّر على وفودها الذين أُغلقت أبواب العطايا فـــي وجوهـــهم، وهو بذلك يمزج بين همّه الذاتي وهموم الجماعة، ويتجلّى ذلك في قوله في رثاء الملك الأفضـــل محمد بن إسماعيل:[٣]

تَـــلا فَقْـــدُ إســـماعيل فَقْـــدُ مُحَمّـــدٍ فيا للأُســـى مـــن فـــادحٍ بَعْـــدَ فـــادحِ
وزالا فما إنســـانُ عَيْنـــي بِمُمْسِـــكٍ بكـــاءٌ ولا إنســـانُ قَـــولٍ بكـــادحِ
كأنّ زنادَ الفَضْلِ لـــم يَـــورَ مِنْـــهُما سَـــنَا شِـــيمٍ مـــا فيـــه قَـــولُ لقـــادحِ
كأنْ لم يقُـــمْ بالمكْرمـــات مُطـــوّقٌ لدى البابِ يشدو بالثنا شـــدو صـــادحِ
خُذ الزادَ يا ضَيْفَ المكارم وارْتَحـل بنـــوحٍ فقـــد أقْـــوَتْ رُبُـــوع المنـــائحِ
نَزَفتَ دموعـــاً أو نَزَحـــتَ ركائبـــاً فللّـــه فـــي الحـــالين حَسْـــرة نـــازحِ

وقال مصوّراً الوفود تبكي الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل:[٤]

مالي أرى الملكَ قد فضّـــت مَواقِفُـــهُ مالي أرَى الوَفْدَ قـــد فَاضَـــتْ مآقيه

---

[١] انظر، ص ٣٨ من هذا الرسالة.

[٢] ابن نباتة، الديوان، ص ١٥.

[٣] ابن نباتة، الديوان، ص ٩٩، الصفدي، الوافي، ٢٢٦/٢، أعيان العصر، ٤٢٦/٤.

[٤] ابن نباتة، الديوان، ص ٥٧٠، الصفدي، الوافي، ١٧٥/٩، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٤٠٣/٢، النجوم الزاهرة، ٢١٥/٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرثي الشاعر صفي الدين الحلّي الملك الناصر محمد بن قَلاوون، فيصور النـــاس، وقـــد طاشت عقولهم بعده، ووحّدت قلوبهم الهموم والأحزان، وأضحت كقلب الخنساء حزناً على أخيـها صخر، وتقوّضت آمالهم التي كانوا يرجون تحقيقها على يديه، قال:[١]

توفيـت الآمـــالُ بَعْـــدَ مُحَمّـــدٍ ... وأصْبَحَ في شُغْل عـــن السَّـفَر السَّـفْرُ
وزالتْ حصاةُ الحِلمْ عَـــنْ مســتقرّها ... وأصْبَحَ كالخَنْســـاءِ فـــي قَلْبـــه صَخْـــرُ
وساوى قُلوبَ الناسِ في الحـزن رزؤُه ... كأنّ صُدُورَ الناسِ في حُزْنـــها صَـــدْرُ

وتتجلى المعاني السابقة في قول شافع بن علي الكاتب في رثاء الملك المنصور قَلاوون:[٢]

لَهْفي علَيْـــه لَقَـــدْ غَمّـــت مُصيبَتُـــهُ ... وَعَمّـــتِ النّـــاسَ مـــن حَـــافٍ ومُنْتَعِـــلِ
وَصيّرتْ كـــلّ قَلْـــبٍ بَعْـــد فرْغتِـــهِ ... من الشّـــواغلِ بـــالأحزانِ فـــي شُـــغلِ
وأضْرمتْ في الحشَا ناراً تأجّجُ فـــي ... فَيْضِ المَدامعِ مِثْـــلَ ا لعَـــارضِ الـــهَطِلِ

وبكى الشعراء الأمراء والقادة، وعبّروا عن أحزانهم وأوجاعهم، فالشاعر شـــمس الديـــن الكوفي الواعظ يرثي نقيب الموصل ركن الدين بن النقيب، فيصف تكدّر حياته بعـــده، وشـــوقه إليه، ويخاطب نفسه فيدعوها إلى الإغراق في الحزن واللّهفة، ويبدو مقتنعاً بأنه لا جـــدوى مـــن الكآبة والتعاسة، فهي لا تمنع موتاً، ولا تردّ قضاء، فيقول:[٣]

فالشّـــوقُ يُظْمِئُنـــــي إليـــه وكُلّمـــا ... حَـــاوَلت شـــربَ المـــاءِ زاد تكـــدّري
يـــا نَفْـــسُ ذوبـــي حَسْـــرةً وكآبـــةً ... وتأسّـــفي وتَلَـــهّفي وتَحَسّـــــري
مـــاذا يكـــون غـــير مـــا هـــو كـــائنٌ ... نَزَل القَضاءُ صبَرْتِ أمْ لـــم تَصْـــبِري

ومثله قول صفي الدين الحلّي في رثاء الأمير عماد الدين الدلقندي:[٤]

بَسَطْت لـــي منْـــكَ أخْلاقـــاً وتَكرمَـــةً ... حتّى غـــدا الـــودّ فيمـــا بيننـــا رَحمـــا
فكيف نَحْيـــا وقَـــدْ زالَ الحيـــاةَ لنـــا؟ ... فإن نَمـــتْ بَعْـــدَهُ حُزنـــاً فَـــلا جَرَمـــا
أبكي علَيْه وهل يشـــفي البكـــا كمـــداً ... ولو مَزَجْـــتُ دموعـــي بالدّمـــاء لَمـــا؟

وصوّر الشعراء موت أولئك الأرباب مصيبةً كبرى، وحدثاً جللاً، وفاجعةً اضطربت لـــها مظاهر الكون، وعمّ أثرها المسلمين والدنيا والدين، وهذا أمر شائع في الرثاء منذ القديم، هـــدف منه الشعراء إلى بيان أن موت أولئك الناس ليس حدثاً عادياً، لكنه خطب مهول، وحادثة تنســـى ما قبلها من الحوادث، ولذا تنافسوا في عرض تلك المعاني وتنويعها، فاختاروا لها مـــا يتـــلاءم معها من الألفاظ والصّور، تجعل المتلقي يعيش الحدث. ويتمثله ويدرك شدته، وبرز ذلك بصورة

---

[١] الحلي، الديوان، ص٣١٩.

[٢] شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ١٧٧، حسن المناقب السرية،ص ١٤١-١٤٢، ولمزيد من الأمثلة انظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر،ص ٢٦٢-٢٦٣، ابـــن نباتة، الديوان، ص ١٥، ٥٧٢، الصفدي، الوافي، ٣٩٣/٢١، النويري، الإلمام، ١٥٥/٤.

[٣] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٢٨٧.

[٤] الحلي، الديوان، ص ٣٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جلّية في مراثي الظاهر بيبرس، فالشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر صوّره خطباً فادحاً، تزلزلت منه الأرض، وعمّ الوجود البؤس والكآبة، وأنذر هوله بدنو القيامة، فقال:[١]

ما مثلُ هذا الرزء قَلْبٌ يَحْمِلُ ... كلاّ ولا صَبْرٌ جميلٌ يَجْمُلُ
اللّه أكبر إنّها لمصيبةٌ ... منها الرّواسي خِفّةً تتزلزلُ
عزّ العَزاءُ لأنّ رزءاً مثل ذا ... ما كان في ذِهْن أمرئ يَتَشَكّلُ
ما للوجودِ علتْ عليه كآبةٌ؟ ... أترى القيامَة عن قريبٍ تُقبِلُ؟

ويستمر الشاعر في تصوير الحدث فيقول: [٢]

الخَطْبُ أعظَمُ أن يَقالَ فجيعَةٌ ... إنّ الفَجائعَ ربّما تَتَسَهّلُ
هذا هو الرّزءُ الذي فدحت به الـ ... ـدنيا فأحشاءُ الزّمانِ تَقَلْقَلُ
سَهْمٌ أصَابَ وما رُئي من قبلِهِ ... سَهْمٌ لَهُ في كلّ قَلْبٍ مَقْتَلُ

وسعى الشعراء إلى حشد الألفاظ الدالة على هول المأساة، وفداحة الخبر، وشدّة وقعه في نفوس الناس، الذين لم تستطيع مسامعهم وقلوبهم تحمله، فطاشت ألبابهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وتزلزلت بهم أركانها،[٣] ويتجلى ذلك في قول ناصر الدين بن النقيب:[٤]

للأرض بَعْدَك رَجّةٌ وتَزَلْزُلُ ... لم يستقرّ بمنْ عليها مَنْزِلُ
والخَلْقُ بَعْدك في صَعيدٍ واحدٍ ... جُمِعوا وكلٌّ ذاهِلٌ لا يَعْقِلُ
هذا هو النبأُ العَظيمُ وإنه الـ ... أمْر الجَسيمُ لكلّ من يَتَعَقّلُ
خَبَرٌ تفوه به العيونُ بدَمْعِها ... إذ لا لسانَ يُقلّهُ أو يَنْقُلُ
ومُصيبَةٌ عُظْمى وَخَطْبٌ فادحٌ ... ورزيّةٌ كُبْرى وأمرٌ مُعْضِلُ

وجعل الشعراء مظاهر الطبيعة تشاركهم حزنهم وبكاءهم فَشَخّصوها، وأعطوها ما يلائمها من صفات، وبينوا ما طرأ على وظيفتها من تغير، وقد كان لذلك تأثيره على عاطفة الشاعر فخفّفَ من حدّتها وبروزها في المرثّية، ومن ذلك قول الشاعر صلاح الدين الصفدي في رثاء الأمير سيف الدين قماري:[٥]

ونجومُ الدُّجى لَبِسْنَ حِداداً ... وأرَتْنا تَهَتُّكَ الأستارِ
وعيونُ الغمام تبكي بِجَفْنٍ ... وتبلّ الثّرى بدَمْعِ القطارِ
ولكم لَطّم الرّعودُ سَحاباً ... فتراهُ مشقّقَ الأطمارِ

---

[١] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ٢٤٤، شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص١٦٤، بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة،ص ١٦١، الدواداري، كنز الدرر، ٨/٢١٥، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٧/٩٠.

[٢] المصادر نفسها على التوالي، ص٢٤٥، ص١٦٤، ص١٦٢، ٨/٢١٥، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١/ ٣٣٩.

[٣] انظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٤، ٢٥٧-٢٥٨.

[٤] المصدر نفسه، ص٢٤٨، ٢٥٠.

[٥] الصفدي، أعيان العصر، ٤/١٣٤، ولمزيد من الأمثلة انظر اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٤/١٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجبيـــنُ الصبّـــاحِ شـــقّ فـــأضْحَى شَـــفَقُ الصُّبْـــحِ زائـــدَ الاحمـــرارِ
ونســـيمُ الصبّـــا يـــــهبُّ عليـــلاً بفتـــورٍ فـــــي ســـــاعة الأسْـــحارِ

وصوّر الشعراء أثر موت أرباب الدول على الأشياء التي كانوا يزاولونها، وعلى كلّ مالـه علاقة بذواتهم من سيوف ورماح، وقسي وخيول وحصون، وبلاد، وحروب، وغير ذلك.

وقد تنبه قدامة بن جعفر إلى هذه القضيّة، ووضع لها محددات وقوانين يـرى أنـه علـى الشعراء الاهتداء بها، وإلاّ عيب عليهم تجاوزها، يقول: "ومن الشعراء من يرثي بذكـر الأشـياء التي كان الميّت يزاولها، وعند ذلك ومثله يحتاج إلى أن يعلم صحة المعنى فيما يتكلم به من مثـل هذه الأشياء، فإنه ليس من إصابة المعنى أن يقال في كل شيء تركه الميّت إنه يبكي عليـــه لأن مثل ذلك ما إن قيل إنّه بكى عليه كان سبّاً وعيباً لاحقين به، فمن ذلك مثلاً إن قـــال قـــائلٌ فـــي ميّت: بكتك الخيلُ إذ لم تجد لها فارساً مثلك فإنّه مخطئ لأن من شأن ما كان يوصف في حياتـــه بكدّه إيّاه أن يذكر اغتباطه بموته، وما كان يوصف بالإحسان إليه في حياته أن يذكـــر اغتمامـــه بوفاته".[١]

ولكن الشعراء لم ينظروا للأمر كما نظر إليه قدامة، وإنّما نظروا إليه مـــن وجهـــة نظـــر الوظيفة التي كانت تؤدّيها الأشياء الباكية، فالخيول والسيوف والرماح والقسي على سبيل المثـــال تكمن وظيفتها في الكر والفرّ، والضرب والطعن، فإذا مات من كان يقودها لأداء مهمتـــها فإنـــها تصبح مغمومة وكئيبة وفاقدة إياه، ولا يقال فيمن جعلها تقوم بدورهـــا إنّـــه كـــان مســـيئاً لـــها، والشعراء حين يصوّرون حزن تلك الأشياء على أرباب الدول خاصة، فإنهم يسعون إلى إبـــراز دورهم في الجهاد ومقارعة الأعداء، وإلى انعدام من يقوم بذلك الدّور بعدهم، وبذا يصلون إلـــى ما ينشدون من اكتمال دائرة الحزن، وتفرد أولئك المرثيين بكل الصفات والمآثر.

وبررت تلك المعاني جلّية في مراثي الظاهر بيبرس، ويتجلى ذلك في قول ناصر الدين بـن النقيب:[٢]

والحَرْب مِنْك تـــأيّمتْ والخيـــلُ مِنْـــ ـــكَ تيتّمَـــتْ وَكـــذا الظّبـــاءُ الذّبّـــلُ
ولطَالَمـــا أبكيتَـــها بـــدمٍ علـــى مُغـــلِ التتـــارِ وهـــم بـــها قـــد قتّلـــوا
قد كُنْـــتَ راميـــها المُصيـــبَ بِسَـــهْمِه وبظنّـــهِ مـــا لا إليـــه يُوَصّـــلُ

---

[١] قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص ٤٩-٥٠.

[٢] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثله قول محيي الدين بن عبد الظاهر مصوّراً كآبة الخيول والرماح والسيوف والقسيّ:[١]

ما للجيادِ كئيبةً مَحْزونَةً ... أفذا الحنين أنينُها إذ تَصْهَلُ؟
ما للقسيّ تئنُّ أنّةَ فاقِدٍ ... إنّ القِسيَّ لفيه أيضاً ثكّلُ؟
ما للسّيوف قد انحنتْ أترى درَتْ ... أنّ المَنونَ لحَدّها سُتُفلّلُ؟
ما للرّماحِ تخوّلتها رِعْدةٌ ... أَلِتَّركِها أن ليسَ تَعقِلُ تَعقِلُ؟

ويشفق الشاعر مجد الدين بن الظهير الإربلي على الحصون والخيول والبحار عقب موت بيبرس فيقول متسائلاً عن مصيرها:[٢]

مَنْ للمَعاقِلِ فاتحاً أو حامياً ... بمَضاء عَزْمٍ للصّوارم مُرْهَفِ
من للسّوابح والبحارِ دَم الطّلى ... والشّهبُ تَظْهَرُ في العجاج وتختفي

ويرثي الشاعر صفي الدين الحلّي الملك المنصور نجم الدين غازي بن أُرتق، فيصوّر الآداب حزينة، والأقلام باكية، والرماح يعلو نحيبها وعويلها، فيقول:[٣]

طارَ لُبّ السّماح يوم توفيـ ... ـتَ وشقّت مَرَائرُ الآداب
وعَلا في المَلا عويلُ العَوالي ... ونحيبُ اليَراعِ والقِرَضابِ[٤]

وصوّر الشعراء الديار والأماكن التي كان يسكنها أرباب الدوّل، وقد غدت ربوعها أطلالاً بعدهم، ويوضح ذلك قول الحلّي في رثاء الأمير ركن الدين بن إسحاق:[٥]

أَرُكْنَ الدّينِ كم رُكْنٍ مَشيدٍ ... هَدَدْتَ بِفَقْدِ ذيّاكَ الجَمالِ
ربوعُك بَعْدَ بهجتِها طلولٌ ... وحاليها من الأنوارِ خالِ

ويرسم ابن نباتة صورة لمدينة حماة ووادِيها وعاصيها، ومنازلها، ونواعيرها، تكشف عن حالها عقب موت الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل، فيقول:[٦]

هذي حماةُ أغصّ الهمُّ واديها ... وطاوَعَ الحُزنُ فيه دمعُ عاصيهِ
كأنّه استشعَرَ الأحزانَ من قِدَم ... فللنّواعير نوحٌ من نواحيهِ
هذي المنازلُ والدّنيا مُعَطّلةٌ ... كأنها اللّفظُ خالٍ من معانيهِ

---

[١] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٥، بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة،ص١٦١، الداوادار، كنز الدرر، ٢١٥/٨، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٩٠/٧، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١/ ٣٣٩.

[٢] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦٣.

[٣] الحلي، الديوان، ص ٢٩٠-٢٩١، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٤٩/٢.

[٤] اليراع: القلم، القرضاب: السّيف.

[٥] الحلّي، الديوان، ص ٢٩٦.

[٦] ابن نباتة، الديوان، ص ٥٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وألقى صلاح الدين الصفدي الضوء على المصيبة التي نزلت بدمشق وناسها عقب موت الأمير سيف الدين تتكز فقال:[١]

بكيتُ دِمَشْقَ لمّا غابَ عَنْها ... وأوْحَشَ أفقَها بدرُ التّمامِ
فيا تمزيقَ شَمْلِ العَدلْ فينا ... ويا تفريقَ ذاك الانتظامِ
ويا لمصيبةٍ بدمشق حلّتْ ... شدائدُها بأحداثٍ عِظامِ

وصوّر عز الدين بن أبي الحديد الدار التي بناها علاء الدين الطبرسي الدويدار على نهر دجلة، وما أحاط بها من جسر وميدان، وهي تبكيه، فقال:[٢]

تبكيك دارُ الشطّ فهي كئيبَةٌ ... والجِسْرُ والشَّرقيُّ والميدانُ

وصوّر صفي الدين الحلّي وحدة الشام ومصر في الأحزان بعد الناصر محمد بن قلاوون، فقال:[٣]

فإن أظْلَمَت أرْضُ الشآم لِحُزنِهِ ... فَلَمْ يَخْلُ من ذاك الصّعيدُ ولا مِصْرُ

وقبل الانتقال من هذا الجزء من البحث تجدر الإشارة إلى أن المعاني والصّور التي قدّمها الشعراء في جملتها تقليدية، لا جديد فيما سوى ما كان مستمداً من واقع الأرباب المرثيين، لكنهم مع ذلك عمّقوها، وبالغوا في عرضها، خاصّة في الجزء المتعلق بتصوير المصيبة، وأثرها على الكون والطبيعة.

المناقب والصفات

ويسمّى هذا الجزء التأبين، وهو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص، وفيه تطغى صورة المرثي على الراثي، أي أن صورة المرثي تبدو شاخصة في الوقت الذي تكون فيه مشاعر الراثي مستترة قياساً بالجزء المعبر عن الناحية الوجدانية، وهو يصوّر "حزن الجماعة وما فقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها، ولذلك يسجّل فضائله ويلّح في هذا التسجيل، وكأنه يريد أن يحفرها في ذاكرة التاريخ حفراً حتى لا تنسى على مرّ الزمن".[٤] وقد وقف النقاد العرب عند هذا الموضوع، وهو مدح الميّت وتأبينه. ولعل أوّل من وقف عنده قدامة بن جعفر إذ رأى أنّه لا فرق بين المديح والرثاء إلاّ في اللّفظ دون المعنى فقال: "ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر اللفظ ما يدل على أنه لهالك مثل "كان"، و "تولّى"، و "قضى نحبه"..، وما أشبه ذلك، وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص لأنّ تأبين الميّت إنّما بمثل ما كان يمدح به في حياته، وقد يفعل في التأبين شيء ينفصل به لفظه عن لفظ المدح بغير "كان" وما جرى مجراها،

---

[١] الصفدي، الوافي، ١٠/ ٤٣٣، أعيان العصر ١٣٦/٢، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٣٢٢/٢.

[٢] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦٦، الأشرف الغساني، العسجد المسبوك، ٥٩٢/٢.

[٣] الحلّي، الديوان، ص ٣١٩.

[٤] د. أحمد فوزي الهيب، الحركة الشعرية، ص ٢٥٨، وانظر د. شوقي ضيف، الرثاء، ص ٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونمائها، ولذا خاضوا الحروب الكثيرة ضد قريش والمرتدين، والفرس، والروم، والصليبيين، وأحرزوا انتصارات عظيمة ارتبطت بأسمائهم، وعملوا في الوقت ذاته على الاهتمام بالدولة الإسلامية على الصعيد الداخلي فبنوا المراكز الدينية والعلمية والاجتماعية، وحين ماتوا خلدهم الشعراء بتلك المآثر والصفات، وأثنوا على مجهوداتهم الخاصة، وأعطوا كلّ واحد منهم حقّه.

أما مراثي أرباب الدول في العصر المملوكي الأول، فقد أكثر فيها الشعراء من الإشادة بفضائل مرثييهم، وأطنبوا في ذلك غاية الإطناب، وبرز في عرضها تياران:

تيار تقليدي، وتيار مستمد من الواقع.

أما التيار التقليدي، فقد سار فيه الشعراء على نهج سابقيهم، فاستحوذت الفضائل النفسية على معظم أشعارهم، فأشادوا بشجاعة مرثييهم، وكرمهم، وعدلهم، ووفائهم، وتواضعهم، وتسامحهم، وحنكتهم، ومظاهر سيادتهم المختلفة، وهي صفات تترجم لحياة أولئك الراحلين إلا أن الفرق بين ما يقدمه الشعراء والترجمة الحقيقية هو أن الشعراء، يقدمون المعلومة، ويصفون تلك المآثر بصورة مبالغ فيها، فتظهر الميت رجلاً مثالياً متفرداً في كل شيء، وتجعله في المقام الأول في مجتمعه وأمته، وجاروا القدماء كذلك في التركيز على صفتي الشجاعة والكرم في الربط بينهما، وما ذلك إلا لأنهما كما يقول قدامة موجودتان بكثرة، في بعداء الهمم وأهل الإقدام والصولة"[١] هذا فضلاً عن أن هاتين السمتين احتاجتهما الجماعة في العصر المملوكي الأول، وكانتا من أكثر السمات التي أحبوها وتعلقوا بها، ومرد ذلك إلى حياة الخوف والفقر التي عاشوها آنذاك، فقد كانوا بحاجة مستمرة إلى من يرعاهم، ويجود عليهم، ويذب عنهم أعداءهم المغول والصليبيين، والشعراء جزء من الشعب تؤرقهم الهموم التي تؤرقه، ولذا شددوا على بكاء تلك الصفات، وعدوا موت ملوكهم إنذاراً لحياة الشدة والفاقة، وبالخطر الداهم الذي سيعصف بهم وبديارهم، ولعل ذلك هو الذي دعاهم إلى ربط مصيرهم ومصير أمتهم بموت ملوكهم،وهذا ما عبر عنه صفي الدين الحلّي في رثاء الملك ناصر الدين عمر: [٢]

لم يعْلَم العالمون ما فَقَدوا ... مِنْهُ ولا الأقربون ما عَدِموا

ما فَقْدُ فَردٍ في الأنام كَمَنْ ... إذْ مات ماتَتْ لِفَقْدِهِ أُمَمُ

وهو الذي دفعهم إلى جعل ملوكهم ظل الله في الأرض ، بيدهم رزق العباد، ويوضح ذلك قول مجد الدين بن الظهير الإربلي في رثاء الظاهر بيبرس:[٣]

وَطَوَيْتَ ظلّ الله في الأرضِ الذي ... لولا سطاهُ وجيشه لم تَرْجُفِ

---

[١] قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص٤٠.

[٢] الحلي، الديوان، ص٢٩٣.

[٣] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول صفي الدين الحلي في رثاء الملك الناصر محمد بن قلاوون:[١]

مفـــاتحُ أرزاق العِبـــاد بِكفّـــــهِ فيُمْنى بِهَا يُمْنٌ وَيُسْرى بها يُسْـــرُ

أما سمة الكرم، فقد تنوعت طرق التعبير عنها وتعددت معانيها، وبرزت بصـــورة جليّـــة على مستوى المرثية الواحدة، وكثيراً ما ربطها الشعراء بغيرها من الصفات والفضائل. فالشـــاعر تقيّ الدين بن شبيب الحراني يصور الكرم سمة أصيلة في نفس مرثيه بيبرس، ويصـــوّره غيثـــاً يعم الخلق بعطاياه، ولا يريد من وراء ذلك جزاء ولا شكورا، فيقول:[٢]

عَـــمّ الخلائـــقَ بالحُسْـــنى فكلُّـــهُم يثني ولو جَحَدوا جَدْواه ما حرمـــوا

كالغيث يسقي البرايـــا لا لمحمـــدةٍ يرجو لديهم ولكنْ طَبْعُـــهُ الكَـــرَمُ

ويجعله شرف الدين سليمان الإربلي صاحب يد مبسوطة، ويكشف عن أثر موتـــه علـــى الفقراء والمحرومين الذين كان يحييهم جوده ورفده، فيقول:[٣]

قد كان جـــودُك للأنـــام جميعـــهمْ كالماء يَعْذبُ فـــي فَـــمِ العَطشـــانِ

فَرَداك قد سلبَ القلـــوبَ سِـــرارَها ورمى بنـــي الآمـــالِ بالحِرْمـــانِ

بنوالِـــهِ إحيـــاء كـــلّ مؤمّـــلٍ فكأنّـــهُ الأرواحُ فـــي الأبـــدانِ

فتكاتـــه بالسّـــيف فـــي أمْوالِـــهِ فتكاته بالسّـــيف فـــي الشّـــجعانِ

مبسوط كفٌ ليس يعرف قبضـــها إلاّ على سَـــيْفٍ وفضـــلِ عِنـــان

وصوّر الشعراء مرثيهم بحراً يعمّ بخيره الناس جميعهم، ويتجلى ذلك في الصـــورة التـــي قدّمها صفي الدين الحلّي للملك الناصر محمد بن قلاوون، ويظهر فيها تأثره بمدائح المتنبي فـــي سيف الدولة، يقول:[٤]

كريـــمٌ أفـــادَ الدّهـــرُ مِنْـــهُ خلائقـــاً فأيّامُـــهُ مِنْـــهُ مُحَجّلَـــةٌ غـــرُّ

وما كان يدري مَـــنْ تيمّـــمَ جـــودَه ونكّـــبَ لـــجّ البَحْـــرِ أيـــهما البَحْـــرُ

فتىً طبّق الأرضَ البســـيطةَ جـــودُه ففي كلّ قُطْرٍ مِنْ نَـــدَاهُ بـــها قَطْـــرُ

ويرسم الشاعر ابن الكبوش البصري صورة جميلة لمكارم الملك عز الدين النيســـابوري، فيجعله متفرداً في هذه السّمة فاق فيها البرّية جميعها، والسابقين الذين طبقـــت شـــهرتهم الأرض لجودهم وسخائهم، وأجمل ما في الصورة أنه جعل عظامه البالية تهتز وتهلل مرحبة بالســـائلين، يقول:[٥]

وأين جـــودُ الغَمـــام مِنْـــك ولَـــو جَادَتْ عَلَيْنـــا بالعَسْـــجَد الدّيَـــمُ

---

[١] الحلّي، الديوان، ص ٣٢١.

[٢] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٦.

[٣] المصدر نفسه، ص ٢٥٧-٢٥٨.

[٤] الحلي، الديوان، ص ٣٢٠-٣٢١.

[٥] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٧٨-٣٧٩، الكتبي، عيون التواريخ، ٢١/٦٦-٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لو كان يُحيي النّدى الكِـرامَ لَقَـد أحْيَاك مِنْ بَعْـدِ مَوتِـكَ الكَـرَمُ
أنْتَ أمـام النّـدى قـد اتفقَـت عَلَيْـكَ بَعْـد اختلافـها الأُمَـمُ
جُزْتَ المَدى في النّدى فلا عَـوَبٌ يَلْقَـاك فـي شـأوهِ ولا عَجَـمُ
ما نال كعْبٌ مـا نِلْـتَ مِنْـه ولا معـنٌ ولا حـاتمٌ ولا هَـرِمُ
مِنْ بَعْد عبد العزيـز لا وخـدتْ إلـى رسـومِ المكـارمِ الرّسـمُ
الموقد النّار فـي الدّجـى كَرَمـاً بالمندلِ الرّطـبِ والشّتا شـيمُ
لو سـألنا عبـدَ العزيـز ومـا في القـبرِ إلاّ عِظَامُـه الرّمـمُ
لقـام يـهتزّ كالقنـاةِ فتـى أغـرّ أقنـى فـي أنْفِـهِ شَـمَمُ

ويصوّر الشاعر شهاب الدين العزازي مرثية الملك المنصور الثاني صاحب حمـاة يـهتز طرباً عند السؤال، ويتفنن في العطاء، ويتقن أساليبه، فيقول في رثائه:(١)

ألا متّعـا سَـمْعي بطيـب حديثـه فَقَدْ كان مقبولَ الأحـاديث مُمتِعـاً
لـه نَشـوةٌ عنـد السّـؤال كأنّمـا سَـقَاهُ السـؤالُ البـابليّ المشعشـا
وما كان إلاّ شاعَر الجـودِ والنّـدى روى الدّهرُ عن نُعمى يَديهِ فأسْـمَعا
أجـادَ معـاني المكرمـاتِ ولفظـها وأغْرَبَ في صُنْع الجميـلِ وأبدعـا
وأسـنى أسـاليب العطايـا وطالمـا تفنّـن فـي إسـدائها وتنوّعـا

ومن الطبيعي أن يكون موت ذلك الملك وبالاً على قاصديه ولذا طلب منهم الشاعر ذاتـه أن يسكبوا دموعهم عليه، فقد أضحوا تائهين بعده، قال:(٢)

ليبـكِ ملـوكُ الخـافقين مُصَابـهُ فقـد كـان أرواهـمْ غمامَـاً وأمْرَعـا
ويَـذْرُ عليـه الوافـدون دُموعَـهم إذا اسـتبطأوا ذاك الـذي المتسـرّعا
أيـا مـوت أيتَمْـتَ العُفَـاةَ بِفَقْـدِهِ وَغَـادَرْتَ عرنيـنَ المَكـارِمِ أجْدَعـا

ويجعل الشاعر صفي الدين الحلّي الملك ناصر الدين الأرتقي مثالاً يحتـذى فـي البـذل والإنفاق فهو يعطي دون حساب، ويوزع ماله وهو منفرج الأسارير، قد حكم قاصديه بأموالـه، وأعطاهم ما شاءوا حتى سئمّوا ذلك، وحين مات كان موته صدمة قوية لهم، يقول:(٣)

مُحَكّـمٌ فـي الـوَرَى وآمِلُـهُ يَحْكُـمُ فـي مالِـهِ ويَحتَكِـمُ
يَجْتَمِـعُ المَجْـدُ والثنـاءُ لَـهُ ومالُـهُ فـي الوفـود يقْتَسِـم
قَـد سَـئِمَتْ جـوده الأنـامُ ولا يَلْقَـاهُ مِـنْ بذلِـهِ سَـأمُ
الواهـبُ الألـفِ وهـوَ مُبْتَسِـمٌ والقـاتِلُ الألـفِ وهـو مُقْتَحِـمُ

---

(١) العزازي، الديوان، ص ٢٤.
(٢) المصدر نفسه، ٢٣-٢٤.
(٣) الحلّي، الديوان، ص ٢٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مضـــى الـــذي كـــان للأنـــام أبـــاً فـــاليومَ كـــلُّ الأنـــامِ قـــد يَتمـــوا

ويطول المقام لو استقصيت كلّ الشواهد الدّالة على سخاء أولئك المرثيين وجودهم، فـــهي كثيرة ومتشابهة في معانيها فلا تكاد تخرج عمّا قدمته الشواهد السابقة.(١)

أما الشجاعة، فهي من مظاهر السيادة والقوّة، ولذا أكثر الشعراء من الإشادة بها، وكثـــيراً ما ربطوها بغيرها من الصفات والفضائل مثل الحنكة والجود والتسامح وغيرها. وهذا ما عـــبر عنه محيي الدين بن عبد الظاهر إذ رثى بيبرس، وعزّ عليه أن يـــرى تلـــك الصفـــات يطويـــها التراب، فقال:(٢)

بيبرسُ ركنُ الدّيـــن والسّـــمْحُ الـــذي من جودِه جـــودُ السَّـــحايبِ يَخْجَـــلُ
لـــهفي علـــى آرائـــه تلـــك التـــي مثل السّهام إلـــى المَصـــالحِ تُرْسَـــلُ
لهفي على تلـــك العزائـــم كيـــف قَـــدْ غَفِلَـــتْ وكـــانت قبـــلَ ذا لا تَغْفـــلُ
لهفي على شُـــمّ الحُصُـــونِ وكونـــها مـــن بَعْـــدِه قـــدْ أصْبَحَـــتْ تَتَمَلْمَـــلُ

ويصوره شرف الدين الإربلي أشجع الفرسان يوم الوغى، فهو صاحب العزمـــات القويّـــة التي لا تفتك إلاّ بعظماء الملوك، وأسلحته تفتك بالمدرعين والكماة، ويقارن بينه وبين غيره مـــن الملوك، فإذا كان هؤلاء يشيدون الحصون ويعلون البنيان لتحميهم، فإنّ حصن بيـــبرس فرســـه القويّ السّريع، ثم يلقي الضوء على جنود ذلك البطل، فيصورهم شجعاناً لا يرهبـــون الحـــرب، ويستعذبون طعم الرّدى، فيقول:(٣)

يا صايداً صيـــدَ الملـــوكِ بسـيفِهِ يوم الوَغـــى يـــا فـــارسَ الفُرســـانِ
مَنْ عزْمُهُ في كلّ خَطـــبٍ فـــادحٍ أمْضى وأرْهفُ مـــن شَـــبَاة سِـــنانِ
في مأزقٍ أجرتْ صوارمُـــهُ الدّمـــا مـــنْ نَحْـــرِ كـــلّ مُـــدَرّع مِطْعـــانِ
كمْ كلّمـــتْ فيـــهِ صـــدورُ كماتِـــهِ خُرْسَ الرّمـــاحِ بألسـن الخِرْصـــانِ
وسَـــطَتْ ثعالبـــها علـــى آســـاده يوم الوَغـــى لمـــا التقـــى الجَمْعـــانِ
فاستعذبوا طعْمَ الـــرّدى لمّـــا رأوا مـــا رَاعَـــهُم ومـــرارة المُـــرّانِ

---

(١) لمزيد من الأمثلة انظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٩، العزازي، الديوان، ص ٧٥-٧٦، الحلّي، الديوان، ص ٢٩٠، ٢٩٤-٢٩٥، ابن نباتة، الديـــوان، ص ٣٢٢.

(٢) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٥، بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ١٦١-١٦٢، الداوادار، كنز الدرر، ٨/٢١٥، شافع بن علـــي، حســـن المنـــاقب السرية، ص ١٦٥، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١/ ٣٣٩.

(٣) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ٢٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويربط الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي بين الشجاعة والكرم والتسامح حين رثى الملك المنصور قلاوون، فصوّره يدفع بنفسه إلى ساحة الوغى، ويقتصّ من أعدائه، ويدفع بماله إلى ساحة الندى، فيغيث الملهوفين، ويغني السائلين، ويسامح المجرمين، يقول:[١]

ولكم أبادَ عدىً ولكم أبدى يداً ... وندىً وجدّد رَسْمَ مَكْرُمةٍ عَفا
وأقالَ مُعْتَذِراً وأغنى راجياً ... وأعَانَ مُلتجئاً وسامَحَ مُسْرِفا

أما جمال الدين بن نباتة، فقد أشاد بشجاعة الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل حين أشار إلى الانتصارات العظيمة التي أحرزها ذلك الملك، وأشفق على حال الحروب وأعلامها بعده، فقال:[٢]

تَرْوي صحاحُ القَضايا عنْ بَراعتِه ... والنّصرُ في الحرب يروي عن عواليهِ
مَنْ للعلومِ وللأعلامِ ينشرها ... وللوغى ورداءُ الخَوْفِ يطويهِ

وصور الشاعر صفي الدين الحلّي مرثيه الأمير ركن الدين بن إسحاق جريئاً يقدم على القتال بقوة ورباطة جأش، ويسارع في تلبية نداء الحرب، وهو غير مبال بها، فقال معبراً عن ذلك:[٣]

بَذَلْتَ النّفسَ في طَلَبِ المعالي ... كَبَذْلِك للنّهى يومَ النّوالِ
تسابق للوغى قبل التّنادي ... كَسَبْقِكَ بالعَطا قَبَل السُّؤال
شَدَدْتَ القلبَ في خوض المنايا ... ووَبْلُ النّبلِ منحلّ العزالي[٤]
لَبِسْتَ على ثياب الوَشْي قَلْباً ... غَنيت به عن الدّرعِ المُذالِ
تهزّ لمُلْتقى الأعْداء عِطْفاً ... يهزّ رَطيبه مَرَح الدّلال

وأكد الشعراء سيادة مرثييهم من أرباب الدول حين بينوا اتساع رقعة أراضيهم، وكشفوا عن هيبتهم في نفوس أعدائهم، وصوروا ملوك الأرض وشجعانها يعترفون لهم بالسبق، ويقرون لهم بالطاعة والولاء، وهذا ما يوضحه قول تقيّ الدين بن شبيب الحراني في رثاء الظاهر بيبرس:[٥]

وكَمْ تملّك إقليماً ودَانَ لَهُ ... وإنْ نَأوا لُسُطاه العُرْبُ والعجمُ
وإذا تذكّرَهُ مُسْتيقظاً بَطَلاً ... أغْفى ليَنسى وكم قَدْ راعَهُ الحُلُمُ

ومن ذلك قول أبي الحسين الجزار في رثائه:[٦]

---

[١] ابن حبيب، درة الأسلاك، ١٥١/١.
[٢] ابن نباتة، الديوان، ص ٥٧٣.
[٣] الحلّي، الديوان، ص ٢٩٦.
[٤] جمع عزلاء، وعاء من جلد يتّخذ للماء ونحوه، المعجم الوسيط، مادة "عزل".
[٥] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٦.
[٦] المصدر نفسه، ص ٢٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كَفَى الظاهر السّلطان بيبرس أنّـــه أجلُّ ملوكِ الأرضِ مَجْداً وسـؤدُدا
وأنّ سـلاطين البـلادِ بأسْـرِهَا تُقِرُّ له بالفَضلِ في النّاسِ والنَّـدى

ورسم الشاعر صفي الدين الحلّي صورة جميلة يعبّر فيها عن هيبة الملك الناصر محمد بن قلاوون، وعن صيته، الذائع الذي طبق الأرض فيقول:[1]

يَروعُ جيوشَ الحادثـاتِ يراعُـهُ ويغني الأعـادي قبـل أسـيافِهِ الذّكـرُ
إلى بابه تَسْعَى الملوكُ فإن عَـدَتْ تعدّى إليـها القَتْـلُ والنّـهبُ والأسْـرُ
لَقَدْ شَهِدتْ أهـلُ الممـالك أنّـهُ مليـكٌ لـه مـن فَـوْقِ قَدْرِهِـمُ قَـدْرُ
كأنّ أديمَ الأرض قُدَّ من اسـمِه فَمـا وُجِـدَت إلاّ وفيـها لـه ذِكْـرُ

ويؤكد شافع بن علي الكاتب عظمة المنصور قلاوون وسيادته ومنعة دولته،حين صوّرهـا مـن أحسن الدول،وقفت الأقدار لخدمتها، حتى غدت مضرباً للأمثال بين الناس،وهذا ما يوضحه قولـه في رثائه:[2]

سُقيا لدَوْلَتِـهِ مـا كـان أحْسَـنَها كأنّـها غُـرّةٌ فـي جَبْهَـةِ الـدُّولِ
كانَتْ ولا مثل والأقـدارُ تَخْدمـها حتّى سَرى ذكرُهـا فـي النّـاس كـالمَثَلِ

وقريب من ذلك ما جاء في قول شهاب الدين محمود الحلبي في رثاء الملك الأشرف خليل ابـن قلاوون:[3]

ملكٌ تَلَفّتت العصورُ وَقَد مَضَـتْ أسـفاً علـى أيّامـه وتلـهُّفا
وتَطَلّـعَ الآتـي فكـادَ لِوجْـدِهِ يطـوي الظّـلام تشـوّقاً وتشـوّفا

وأضفى الشعراء على مرثيهم سمة العدل بين الرعية، وهي أيضاً مـن مظـاهر السـيادة والسلطة، وقد عبّر عنها محيي الدين بن عبد الظاهر حين رثى الملك المنصور قلاوون فقال:[4]

أينَ مَنْ كان عَدْلُهُ يكْشِـفُ الظّلـ ـمَ ومنْـهُ داجـي الظّـلامِ يُنـيرُ

ويصوّر الشاعر صفي الدين الحلّي مرثيه الملك المنصور نجم الدين غازي عادلاً لا يقـع ظلمه إلا على أمواله التي يبددّها بالعطاء فيقول:[5]

مليكٌ أفَاضَ العَدلَ فـي كـلّ مَعْشَـرٍ فَلَيْـسَ لـه إلاّ لأموالِـهِ ظُلْـمُ

وتبرز تلك السّمة بصورة جليّة في القصيدة التي نظمها صلاح الدين الصّفدي فـي رثـاء الأمير سيف الدين تنكر نائب الشام، إذ أشاد فيها بحسن تدبير ذلك الأمير وعدله الذي ساوى فيـه بين الناس كلهم، وجعـلهم ينامون مطمئنين، فكسب لذلك التأييـد الإلهي ، وهذا ما يعبر عنه

---

[1] الحلّي، الديوان، ص ٣٢٠.
[2] شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص ١٤١، الفضل المأثور، ص ١٧٦-١٧٧.
[3] ابن حبيب، درّة الأسلاك، ١/١٨٢.
[4] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ١٨٢.
[5] الحلّي، الديوان، ص ٢٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قوله:[١]

رَعـــاهُ اللهُ مِـــنْ راعٍ أميـــنٍ أنَـــام بِعَدْلِـــهِ عَيْـــنَ الأنَـــامِ
حنـــوٌّ زادَ فـــي إفـــراطِ بـــرٍّ يُسـكّنُ بَـــرْدُهُ لَـــهَبَ الضّـــرامِ
وَدَسْـتُ حُكمِـهِ فـي دارِ عَـــدْلٍ تـــأيّدَ بالملائكـــةِ الكِـــرامِ
يُسَاوي عنده في العَدْل بيـــن الـــ ـكـرامِ الغُـــرّ والسّـــودِ اللُّئـــامِ

وسجل الشعراء جوانب أخرى من شخصية أرباب الدول، فأسبغوا عليهم سمات الحلم والتواضع والتقوى، وهي فضائل ينبغي أن تكون في شخصية الحاكم العادل والشجاع الكريم حتى تكتمل صورة المثل الأعلى التي رسمها الشعراء له، وتجتمع فيه كل القيم النبيلة التي يندر اجتماعها في غيره من البشر.

أما صفة الحلم، فقد جعلها الشاعر شهاب الدين العزازي من فضائل مرثيه الملك المنصور الثاني صاحب حماة، فقال:[٢]

هوَى جَبَلُ الحِلْم الذي كـــان شـاهقاً وشـعْبُ العُـلا والمكرمـاتِ تصدّعـا

وهي فضيلة اتصف بها الملك الأفضل محمد بن إسماعيل وهذا ما كشف عنه جمال الدين ابن نباتة في قوله:[٣]

وزاوج بين الحِلـم والبـأسِ ملكـه فَمِـنْ أعـزلٍ مثـل السّـماك وَرامـحِ

وأكد الشعراء خلوّ مرثييهم من الكِبْر، وأثنوا على تواضعهم علـى الرغـم مـن مجدهـم ومنزلتهم الرفيعة، وقد جاءت تلك الصفة مقترنة بغيرها من الصفات، ومن الأمثلة على ذلك قول صفي الدين الحلّي في رثاء الملك المنصور نجم الدين غازي:[٤]

لـم تُرنّـح أعْطَافَـهُ نَشْـوَةُ الملـ ـكِ ولا يزدهيـه فـرطُ اعتجـابِ

ومثله قوله في رثاء الملك الناصر محمد بن قلاوون:[٥]

فَتىً لم تُرنّح نَشْـوةُ الكِـبْر عطْفَـهُ ومن بعضِ ما قد نالَهُ يحْـدُث الكِـبْرُ

ومثله قول السيف الشطرنجي يرثي الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب:[٦]

مـا رأى النـاسُ مِثْلَـهُ فـي زمـانٍ نحن فيـه فكيـف لـي بالبقـاء؟
كـــانَ واللهِ للمقلّيـــن كَـــنْزاً وَجَـواداً يُغْنـي عـن الأغنيـاء
ورؤوفـاً بكـلّ قـاصٍ ودانٍ في دنـوٌّ خـالٍ مـن الكِبْريـاءِ

---

[١] الصفدي، الوافي، ١٠ ٤٣٤، أعيان العصر، ٢/١٣٧.
[٢] العزازي، الديوان، ص ٢٣.
[٣] ابن نباتة، الديوان، ص ٩٩.
[٤] الحلّي، الديوان، ص ٢٩٠.
[٥] المصدر نفسه، ص ٣٢١.
[٦] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٢/١٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصف الشعراء مرثيهم عفيف النفس طاهر الأثواب، وهذه السمة –العفة– عزّ وجودها في مراثي أرباب الدول، ومنها قول صفي الدين الحلّي في رثاء الملك الأفضل:[١]

عـفُّ الإزارِ فـلا يُـلاثُ بزلّـةٍ فيقـالُ: إن هباتِـهِ تكفـيرُ

وأشاد الشعراء بتقوى أرباب الدول، وانقيادهم لشرع الله، واستقامتهم على أمره وبرزت تلك السّمات بصورة جلية في مراثي الظاهر بيبرس وقد أكد المؤرخون تحلّي ذلك الملك بها، فقال ابن شداد: "كان رحمة الله ملازماً للصلوات الخمس في أوقاتها سفراً وحضراً.. كلّف سلئر مماليكه وحاشيته القيام بها، والمحافظة عليها، ورتّب لكلّ طائفة من مماليكه معلماً يعلمهم القرآن، وإماماً يصلّي بهم. وجعل عليهم عيوناً حتى لا يخوضوا في حديث غير ما ندبوا إليه.. ومنها أنه لم يشرب خمراً قطّ مدّة حياته".[٢]

وقد صوّر الشعراء ذلك، وتحدّثوا عن مظاهر تقواه، ومنهم الشاعر علاء الدين علي المعروف بابن قاضي اللاذقية الذي جعله كهفاً للشريعة الإسلامية في قوله:[٣]

كهفُ الشّريعة بيبرسٌ أخو كَـرَمٍ وَخَايضُ النَّقْـعِ والـهَيْجَا يُواسـينا

ومن مظاهر تقوى بيبرس التي صوّرها الشعراء زهده في الحياة الدنيا وزخرفها وملذاتها، وسعيه نحو الآخرة، ونيته الخالصة لله في حركاته وسكناته، ومنها مواظبته على أداء الفرائض، وسيرته الحُسنى التي تشبه بها بالعمرين رضي الله عنهما، ولهذا استوحش الإسلام بعد موته، وافتقدته مكّة والحرمان، وهذا ما عبر عنه قول مجد الدين ابن الظهير الإربلي:[٤]

زينـت صَحيفتُـهُ بآيـةِ سَـيْفِهِ لمّا استَشارَ بـهِ لأهـل المُصْحَـفِ
لم تُلْهِهِ الدُّنيـا ولا أصْبَتْـهُ بَهْـ ـجَتُها ولا مَلَكَتْ هـواه بِزُخـرُفِ
وأبَـتْ لـه الـهِممُ العليّـةُ أنّـهُ يَرْضى وحاشـاه بعَيْـشِ المُـتْرفِ
فبغير أبكـارِ العُلـى لـم يَحتَلِـمْ وبغـير ذُخـرٍ صـالحٍ لـم يكْلَـفِ
لمْ يَخْلُ فـي خَلَوَاتِـهِ مـن نيّـةٍ للهِ مُثْمِـرَةٍ لِفِعْـلٍ مُزْلِـفِ

وقول شرف الدين بن سليمان الإربلي:[٥]

واستوحشَ الإسْلاَمُ مِنْـكَ لسـيرةٍ مَـا سـارَ إلاّ مِثْلَـها العُمَـرانِ
وابـتزّت الدُنيـا بفَقْـدِكَ حُسْـنَها وضياعَها واسـتوحش الحَرَمـانِ
وتقولُ مَكّةُ أيْنَ مَـن يُدْعـى لَـهُ بَعْـد الصّـلاة وَعِنْـدَ كـلّ أذانِ
أين الـذي كـانَتْ إلـيّ صَلاتُـهُ مَوصولَـةٌ تَـترَى مـع الرّكبـانِ

---

[١] الحلّي، الديوان، ص ٣٢٣.

[٢] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٩٩، وانظر ص ٣٠٠.

[٣] المصدر نفسه، ص ٢٥٤.

[٤] المصدر نفسه، ص ٢٦٣.

[٥] ابن شداد، تاريخ الملك الظّاهر، ص ٢٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الفضائل والصفات الجسدية، فقد ندر وجودها في مراثي أرباب الدول في هذا العصر، واقتصر الشعراء على وصف نضارة مرثييهم، وجمال وجوههم التي ضاهأت البدر ليلة تمامه، وهذا ما عبر عنه صفي الدين الحلّي، إذ رثى الملك ناصر الدين الأرتقي فقال:[1]

أبْلَجُ غَضّ الشّبابِ مُقْتَبِلُ العمرِ ولكنّ مَجْدَهُ هَرِمُ

ومن ذلك قوله في رثاء الملك الأفضل محمد بن إسماعيل:[2]

ذو الرّتْبة العلياءِ والوَجْهِ الذي مِنْهُ البدورُ تَغارُ ثُمَّ تَغورُ

ومثله قوله في رثاء الملك المنصور نجم الدين غازي:[3]

وأشْرَقَ في الشّهْباءِ في الدّسْتِ مِنْهُمُ وَقَدْ غابَ عَنْهَا نَجْمُها بَدْرُها التّمُّ

ويوضح ذلك قول شهاب الدين محمود الحلبي في رثاء الملك الأشرف خليل بن قلاوون:[4]

بَدْرٌ أقامَ الحَقَّ فانْصَدَعَ الدُّجى نوراً وتمّ ضِيَاؤُهُ لمّا اختفى

تلك هي الصفات والفضائل النفسية والجسمية التي قدّمها الشعراء في هذا اللّون من الرثاء، وقد تبيّن من البحث أنّها تقليدية، نهجوا في عرضها نهج سابقيهم من الشعراء، وإن حاول بعضهم عرضها بأسلوبه الخاص، إلا أنّه ظلّ حبيس دائرة التقليد والمعاني والصّور المتداولة.

أما عن التيار المستمد من الواقع، فيشمل المآثر والأعمال المستمدة من حياة أرباب الدول المرثيين، تلك الأعمال التي اختصوا بها دون غيرهم من الناس، فارتبطت بأسمائهم، وهذا التيار قسمان: قسم صوّر فيه الشعراء بطولات مرثييهم وجهادهم ضد أعداء الإسلام، وآخر تحدثوا فيه عن مآثرهم العمرانية.

أما القسم الأول، فهو الأكثر شيوعا وتصويرا في مراثي الشعراء، فمن المعلوم أن الأمة الإسلامية في العصر المملوكي تعرضت لأقسى غزوين في تاريخها الطويل، وهما الغزو الصليبي، والغزو المغولي، وقد هيأ الله لهذه الأمة سلاطين المماليك وهم طبقة عسكرية، مهتمون بالجيش، والإعداد العسكري، ولذا هب هؤلاء ليذودوا عن المسلمين، ويدافعوا عن مقر ملكهم، فخاضوا الحروب الكثيرة على الجبهتين الصليبية والمغولية، فاستطاعوا أن يوقفوا زحفهم، ويجبروهم على التراجع، ويطردوهم من بلاد المسلمين، بل هاجموهم في عقر دارهم، فحولوا تاريخ المسلمين آنذاك إلى تاريخ انتصارات.

---

[1] الحلّي، الديوان، ص ٢٩٣.

[2] المصدر نفسه، ص ٣٢٢.

[3] المصدر نفسه، ص ٢٨٧.

[4] ابن حبيب، درّة الأسلاك، ١٨٢/١، ولمزيد من الأمثلة، انظر: الحلّي، الديوان، ص ٢٨٩، ص ٣٢١، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢١٩/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد حظيت تلك الوقائع بإعجاب الشعراء، فراحوا يشيدون بها في قصائد خاصة هنأوا بها قوادها، ومن ثم تحدثوا عنها في مراثيهم كونها من المآثر الخاصة بهم، ومن أعظم ما أسدوه للإسلام والمسلمين، وتميزت لغة هذا الجزء بالجزالة والقوة والمتانة، فكانت أقرب إلى لغة الحماسة، وأبعد ما تكون عن الرثاء ذلك أنها صورت الحرب، وما تخللها من كر وفر، وقرع للسيوف، ورمي للقسي والرماح، وتفليق للهامات.

ومن الملوك الذين صور الشعراء وقائعهم الظاهر بيبرس، فقد تحدثوا عن حروبه التي خاضها ضد المغول، فذكروا أسماءها، وصوروا مجرياتها ونتائجها، ومنها ما شارك فيها قبل توليه السلطة والحكم مثل موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ حيث قاتل جنديا تحت راية الملك المظفر قطز، فأبلى بلاء حسنا "بفره وكره، وبطشه، وقهره، وأسره".[١] ومن المعارك ما تولى قيادتها بنفسه بعد تملكه مثل معركة الفرات سنة ٦٧١هـ، وفيها خاض بجيشه نهر الفرات، وقاتل المغول وهزمهم.[٢] ومنها معركة البلستين أو الأبلستين سنة ٦٧٥هـ، وفيها هاجم المغول المقيمين بأرض الروم، وانتصر عليهم، واستولى على حامياتهم.[٣]

ومن الشعراء الذين رثوه، وركزوا الضوء على تلك المعارك، مجد الدين بن الظهير الإربلي، وقد راعى هذا الشاعر في عرضها الترتيب الزمني، فبدأ بوصف جهاده في عين جالوت، فقال.[٤]

سلْ عَنْ مواقِفِه الحَميدةِ مُجْمَلاً ... إنّ المُفَصّلَ فَوقَ وصْفِ الوَاصِفِ

فبعينِ جالوتٍ أعَزّ الدّينَ عَنْ ... عَزمٍ لكَيْدِ عدوّهِ مُتَلَهِّفِ

يومٌ أغرُّ مُحَجّلٌ نُصِرَ الهُدَى ... فيهِ وذَلَّ الكُفْرُ بَعْدَ تَغَطْرُفِ

هو مَوْلِدُ الإسلامِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ... ومقَوّمُ الأعداءِ بَعْدَ تَحَرُّفِ

كَمْ طُلْيَةٍ بَرَتِ الظُّبى قَطّاً وكَمْ ... مَنْ رأسِ رأسٍ فَوْقَ أسْمرَ مُشْرِفِ

يصور الشاعر ذلك الانتصار مولداً للإسلام، وهزيمة منكرة للكفر، ليبرز عظم الدور الذي لعبه بيبرس في إنقاذ الدين وأهله، ويحقّ له ذلك، فالمغول قبل تلك المعركة كانوا القوة الغالبة بعدما أنهوا وجود الخلافة العباسيّة في بغداد، واستولوا على الشام، وقضوا على الحكم الأيوبي فيها، ولم يبق أمامهم سوى مصر آخر معقل للإسلام في الشرق، ولذا كانت عين جالوت هي الفيصل، أعاد الانتصار فيها الثقة إلى نفوس المسلمين، ووطد أركان دولتهم من جديد.

---

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٣١٨، وانظر ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٢٢٦.

(٢) انظر عن المعركة: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٥٥- ٥٦، ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ٤٠٦. بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٧٥- ٧٦، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٣/٢-٣.

(٣) انظر عن المعركة، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ١٧١- ١٧٢، بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٨٤، ابن حبيب، درة الأسلاك، ٨٣/١، الذهبي، دول الإسلام، ١٣٣/٢.

(٤) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانتقل الشاعر إلى الحديث عن معركة الفرات، فصوّر بيبرس وجنوده وقد رموا بأنفسهم فيه، فكانوا كالسيّل في هجومهم على الأعداء، ثم فصّل في تصوير معركة الأبلستين وعرضها من بدايتها إلى نهايتها على شكل قصة، وألقى الضوء على شجاعة بيبرس وجنوده الذين خلضوا معركة حامية الوطيس مع المغول، فتركوهم صرعى في ساحة المعركة بعد أن فتكت بهم أسلحتهم، ومزّقتهم أشلاء، فقال:[١]

وَسل الفُراتَ عن السّوابح كمْ جَرَتْ ... مِثْلَ الأتيّ خلالَ تلْكَ الأجْرُفِ
فأطارت الهَامات عَنْ أوْكارها ... فتكات أصْيَدَ كاسِرٍ مُتَخَطِّفِ
ودَعتْهُ أرْضُ الرّوم لاستنقاذها ... مَنْ قَبْضَةِ المُتَغَلِّبِ المُتَعَسِّفِ
فأهابَ بالأسدِ الغِضَاب لنَصْرها ... وأجَابَ دَعْوَتَها ولم يتَوقّفِ
هابوه فاحتفلوا بِجَمْعٍ كُمْنا تِهِمْ ... وتَمَسّكوا بوعودِ ظَنٍّ مخْلِفِ
في مَعْرَكٍ حالَ النّهارُ بهِ دُجىً ... بظلامِ عِثْيَرِ خَيْلِهِ المُتَكَثِّفِ
حتّى إذا أخَذَتْ ظُباهُ مِنْهُمُ ... ثَأرَ القَنَا المُتَقَصِّدِ المُتَقَصِّفِ
أخَذَتْ مَصَارعَها الجُنوبُ فَكُلُّهم ... سَكرَانُ كأسُ حِمامِهِ لا القَرْقَفِ

وتحدث الشعراء بإجمال عن الحروب التي قادها بيبرس ضد الصليبيين، فلم يذكروا مجرياتها أو أسماءها، وإنّما اكتفوا بذكر نتائجها، وأثر الانتصارات فيها على حياة المسلمين، ومن ذلك قول مجد الدين بن الظهير الإربلي في مرثيته السابقة:[٢]

أخْلَى السّواحِلَ بَعْدَ طُولِ تَمَنّعٍ ... بعِلاجِهِ مِن كلّ عِلْجٍ أغْلَفِ
وأزال عَنْها الشركَ بَعْدَ حُلُولِهِ ... وأحلّ فيها الأمْنَ بَعْد تخوّفِ
صان البلادَ عن المكاره فالورى ... ما بين وَصْفي عِفّةٍ وتَعَفُّفِ
لولاه دام وتلك أشْنَعُ خُطّةٍ ... أبداً على الحكّام حكم الأسْقُفِ

ويتجلى ذلك في قول شرف الدين سليمان الإربلي:[٣]

ومُقرّبُ الأمَلِ البعيدِ بفتحِهِ ... ومُبَعّدُ الإنجيلِ والصُّلبانِ

أما الرجل الثاني الذي صوّر الشعراء جهاده ومعاركه، فهو الملك المنصور قلاوون الألفي، فقد ذكروا بعض الوقائع التي شارك فيها جندياً قبل توليه الحكم مثل معركة الفرات سنة ٦٧١هـ، حيث قاتل تحت قيادة الظاهر بيبرس، وكان من أوائل المبادرين إلى خوض الفرات ومهاجمة المغول،[٤] كما تحدثوا عن معاركه الكبرى التي قادها بنفسه، وأحرز فيها انتصارات

---

[١] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦١-٢٦٢، ولمزيد من الأمثلة انظر: المصدر نفسه، ص ٢٤٦، ٢٥٦، الدواداري، كنز الدرر، ٨/٢١٦- ٢١٧، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٧/٩١.

[٢] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦١.

[٣] المصدر نفسه، ص ٢٥٨.

[٤] انظر شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

باهرة على المغول والصليبيين، وهي معركة حمص سنة ٦٨٠هـ.[١]، وفتح حصن المرقب سنة ٦٨٤هـ،[٢] وفتح طرابلس سنة ٦٨٨هـ،[٣] وقد وصف أحد الشعراء تلك المعارك في قصيدة له في رثاء قلاوون، فقال مخاطباً إيّاه:[٤]

أنْتَ الذي خُضْتَ الفُراتَ مُبَادراً ... فَسَقَيْتَ جَيْشَ المُغْلِ كاساتِ الفَنا
وَبِمَرْجِ حِمْصٍ أنْتَ جَاعِلُ جَمْعِهِمْ ... فِرَقاً وما خانوا لواشِ مَطْعَنا
وعلى طَرابلسٍ نزلْتَ فَأصْبَحَتْ ... خَبَراً يَقولُ نزيلُها كانَتْ هُنا

ورثى الشاعر شهاب الدين محمود ذلك الملك، فألقى الضوء على هزيمة الأعداء في تلك الحروب، وقارن بين حالهم قبل الهزيمة وبعدها، إذ تحدث عن عددهم، وعدّتهم، وحصانة قلاعهم، وما نزل بهم من قتل وأسر وتشريد، فقال:[٥]

سَلْ يوم حمْصَ عن الأُلوفِ وَقَدْ سَطا ... في شَمْلِها هَلْ بَعْدَ ذاك تَأَلُّفا؟
وانْظُر تجدْ تِسْعينَ أَلْفاً مِنْهُمُ ... ذَهَبوا كما حَكَمَتْ صوارمُهُ جَفا
وَغَدوا وطَاءً للوَرَى فَلكَمْ تَرى ... من حافِرٍ قد داسَ خدّاً مُتْرَفا
والمَرقبُ العالي الذي سَامى السّما ... فغدا عَلَى نَهْرِ المَجَرّة مُشْرِفا
وأتى إليه بِعَزْمةٍ جَاءَت بِهِ ... يومَ الإباءِ مُسَلِّماً مُسْتَعْطِفا
وكذا طرابلس التي لم يَرْجها ... ملك سواه إذا تنبّه أو غَفا

ومجد الشعراء بطولة الأمراء الصغار الذين شاركوا في الحروب، وأبلوا فيها بلاءً حسناً، ففي سنة ٧٠٢هـ قتل الأمير حسام الدين الاستادار الرومي على يد المغول في معركة مرج الصفّر، فنظم الشاعر الطبيب شهاب الدين أحمد بن يوسف الصفدي قصيدة في رثائه صوّر فيها شجاعة ذلك الأمير وجهاده في تلك المعركة، وألقى الضوء على مجرياتها، واستعدادات المغول العسكرية، فقال مخاطباً مرج الصفّر:[٦]

يا مَرْجَ صفّر أصفَرَتْ بك أربُعٌ ... وَجَرَتْ دموعٌ نَظْمُها مَنْثُورُ
وردوا بمائة ألف مُغلٍ بَعْدَها ... عَشرون أَلفاً بأسُها مَحْذورُ
لله مَنْ فَادى الأنامَ بِنَفْسِهِ ... لَمْ يُرْهبهُ مُنكِرٌ ونَكيرُ

---

[١] وهي معركة واجه فيها المغول وانتصر عليهم انظر: الذهبي، العبر، ٣٤٢/٣، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٨٠هـ، ص٥٧، الكتبي، عيون التواريخ، ٢٧٨/٢١، ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٢٩/٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٥٧/٧.

[٢] أخذه من العسليين، انظر شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ١٤١، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص ٧٧، الدواداري، كنز الدرر، ٢٦٨/٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٤٠/١٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٧٢/٧.

[٣] أخذه من العسليين، انظر: شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ١٤٩، بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ١٢٠، الدواداري، كنز الدرر، ٢٨٣/٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ٣٤٩/١٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٧٢/٧.

[٤] بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٢٧١، التحفة الملوكية، ص ١٢٣-١٢٤.

[٥] ابن حبيب، درة الأسلاك، ١٥٠/١-١٥١، ولمزيد من الأمثلة انظر ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص ١٨٢، شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ١٧٦، حسن المناقب السرية، ص ١٤١.

[٦] الصفدي، أعيان العصر، ١٧٨/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في مَحْضرٍ شَرْعُ الأسِـنَّةِ شـاهدٌ ... إنّ الثّنـاءَ لِغَـيْره مَحْظـورُ
فالسَّيفُ يَكْتُـبُ والمُثَقَّـفُ نـاقطٌ ... والسّهمُ يَشْكُلُ والطّـلا المَسْـطورُ
حِضْنَ السّيوفُ به وهـنّ ذكـورٌ ... وَقَدحْـنَ نـاراً والأكـفُّ بحـورُ

أما القسم الثاني من التيار المستمد من الواقع وهو وصف المآثر العمرانية، فإنه لـم يحـظ باهتمام كبير من الرثاة، واكتفى بعضهم بوصف أعمال المنصور قلاوون في هذا المجـال، فقـد اشتهر ذلك الملك ببنائه للبيمارستان المنصوري، والمدرسة المنصورية التي قال فيها ابن تغـري بردي: "وهذا البيمارستان وأوقافه، وما شرطه فيه لم يسبقه إلى ذلك أحدٌ قديماً ولا حديثاً شـرقاً ولا غرباً".[1] وقد عبّر أحد الرثاة عن ذلك إذ عدّها من الأمور التي تفرد بها قلاوون دون غـيره من الملوك، فقال:[2]

عَمّـرتَ مَدْرَسَـةً وَمَارسْـتانَ فـي ... عـامٍ فَـأعْجَزَ ذَاكَ قَبْلَـكَ مـن بَنـى
وَكَشَـفْتَ بالعلمـاء والحُكَمـاء عَـنْ ... مُهَجِ الوَرى كُرَبَ الضَّلالَـةِ والضَّنـا
فـأخو السّـقام بـدا صَحيحـاً سـالماً ... وأخـو الضّـلالِ غـدا فَقيـهاً دَيّنـا

---

[1] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٧٧/٧، وانظر وصف المدرسة والبيمارستان في: ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص ٥٦-٥٧، شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ١٦٧-١٦٨.

[2] بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٢٧١، التحفة الملوكية، ص ١٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجمع بين التهنئة والتعزية

جمع الشعراء في هذا اللّون من الرثاء بين التهنئة والتعزية، وقد أطلق النقاد على هذا الأسلوب اسم الافتنان، وهو "أن يفتنّ الشاعر، فيأتي بفنين متضادين من فنون الشعر في بيت واحد فأكثر مثل النسيب والحماسة، والمديح والهجاء، والهناء والعزاء"[١] وهذا الأسلوب ليس جديدا في الرثاء العربي، فقد وجد "بسبب تحول الخلافة إلى حق وراثي يتناوبه الأبناء بعد آبائهم"،[٢] ويؤكد ذلك ما ذكره ابن رشيق من أنّ أول من جمع بينهما هو عبد الله بن همام السلولي حين توفي معاوية بن أبي سفيان، ووقف الشعراء على باب ابنه يزيد يعزونه ويهنئونه بالخلافة.[٣] وأشار ابن رشيق إلى صعوبة هذا الجمع حين دلل على ذلك بعجز الشعراء عن الإتيان به في قصائدهم التي رثوا بها معاوية.[٤]

ولكن شعراء العصر المملوكي الأول تجاوزوا هذه الصعوبة، وتضمنت جل مراثيهم الجمع بين التهنئة والعزاء، وجاء ذلك غالباً في القسم الأخير منها، وتخلصوا منه إلى الإشادة بالملوك الجدد ومعاونيهم.

وقد دعت الشعراء إلى ذلك الأسلوب أسباب عدّة وهي:

أولاً: فرضته عليهم طبيعة الموقف الذي وقفوه بين يدي الملوك الجدد وذويهم، فكان لزاماً عليهم أن يشيدوا بهم، ويثنوا على خصالهم الحميدة.

ثانياً: رغبتهم في نيل عطاء أولئك الملوك وأرباب دولتهم، ولذا تنافسوا في الوصول إلى أروع المعاني المعبرة عن صفات الملك الجديد مع التأكيد على مآثر الملك الراحل ومناقبه.

ثالثاً: لجأوا إليه لتعزية نفوسهم ونفوس أمتهم عن مصابها في ملوكها، فبينوا أنه إذا كان أولئك الملوك قد ولّوا، وانقضى عهدهم، فإنهم تركوا من سار على دربهم، واختط نهجهم في العدل والجود والجهاد وغير ذلك.

رابعاً: مقاومة فكرة الفناء وتأكيد فكرة الملك الحي، بمعنى أنهم قصدوا من خلال هذا الأسلوب أن يبينوا أن الملك الراحل لم يمت على وجه الحقيقة، ولكنه ظلّ حيّاً فيما ورّثه لابنه الحاكم الجديد من صفات، هذا الحاكم الذي تمثلت فيه كل مظاهر شخصية أبيه.

٥٤٢٣٢٥

---

[١] ابن حجة، خزانة الأدب، ١/١٣٨.

[٢] روضة الحمد، اتجاهات الرثاء في القرن الثالث الهجري، ص ٨٢.

[٣] ابن رشيق، العمدة، ٢/١٥٥، وانظر روضة الحمد، اتجاهات الرثاء، ص ٨٢.

[٤] المصدر نفسه، ٢/١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتضح هذا الأسلوب بجلاء في مراثي الظاهر بيبرس، فقد سعى الشعراء بكلّ ما أوتوا من مقدرة شعرية وبراعة إلى إجادته وإلى التوفيق بين موقفين نفسيين متناقضين موقف الحزن على الملك الراحل، والغبطة بالملك الجديد، ويتجلى ذلك في قول محيي الدين بن عبد الظاهر:[١]

أنَا إنْ بَكَيْتُ فإنّ عُذْريَ واضِحٌ ... ولئن صَبَرْتُ فإنّني أتَمثّلُ
خَلَفَ السّعيدُ لنا الشّهيدَ فَأدْمعٌ ... مُنْهَلّةٌ في أوْجُهٍ تَتَهَلّلُ
ما كان هذا راحلاً وثناؤه ... باقٍ وذا باقٍ ثناه يُؤَجّلُ
للنّاس من هذا ربيعٌ آخرٌ ... ومن الشّهيد لهم ربيعٌ أوّلُ
قمران هذا طالعٌ لإنارةِ ... يَهْدي الأنامَ بها وهذا يأفلُ
أكرِمْ به منْ ميّت وبِنَجْلِهِ ... حيّاً بدا في دَسْتِهِ يَتَمثّلُ

وسعى الشعراء بكل جهدهم إلى التوحيد بين الشخصيتين، والمساواة بين الراحل والباقي، والظاعن والمقيم ليؤكدوا فكرة الملك الحيّ بشخص ابنه، فابن عبد الظاهر جعلهما قمرين إذا أفل أحدهما أنار الآخر دنيا العّباد، أما شرف الدين السليماني فقد عبّر عن ذلك بقوله:[٢]

ما غابَ عَنّا منه إلاّ شخصُهُ ... إذْ فيه توجَدُ مِنْهُ خَيْرُ معانِ
عينان زال النّور عن إحداهما ... فَسَرى إلى الأُخْرى كذا العينانِ
أعلاه لما انحطّ لكنْ قدرُهُ السـ ... ـسامي كذلك كفّتا الميزانِ

وممن عبر عن تلك الفكرة تقي الدين بن شبيب الحرّاني وجاء ذلك في قوله:[٣]

وَعَبّستْ أوْجُه العَلْيا لموت فتىً ... أخي السّعيد به الأكوانُ تَبْتَسِمُ
وأقلَعَتْ سُحبُ الجدْوى فأعقَبَها ... ربيعُ فَضْلٍ به وبحرٌ طيّبٌ شَبِمُ
رُكنٌ تزَلْزَلَ حتّى كادَ مِنْ فَرَقٍ ... لولا المليكُ السّعيدُ الدّين يَنْهَدِمُ
فلا عَجَبٌ إذا الإصباحُ فارَقَنا ... بقي النّهارُ الذي لم تَلْقَهُ العَتَمُ
بَدْرانِ ذاك تَخَفّى بالسّرار وذا ... حُسْناً تجلّتْ عن الدّنيا به الظّلَمُ
سَيْقَان أغْمَدَ ذاك اللهُ مُصْطَفياً ... وَسَلّ هذا على الأعداءِ يَنْتَقِمُ

ونظم الشاعر ناصر الدين بن النقيب قصيدة في رثاء بيبرس جمع فيها بين التهنئة والتعزية، وهي قصيدة تدلّ على حذق الشاعر ومهارته، وجهده الذي بذله في صياغتها حتى استوت على سوقها، ولعل ذلك هو السبب الذي جعلها تحظى بالجائزة الأولى في المنافسة الشعرية التي ضمّها عزاء بيبرس، صور الشاعر فيها الحزن العام على الملك الراحل، وهو

---

(١) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٧، بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ١٦٢، الدواداري، كنز الدرر، ٢١٧/٨، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٩٢/٧، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١/ ٣٣٩.

(٢) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٩.

(٣) المصدر نفسه، ٢٥٥-٢٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حزن قابله سرور وغبطة بابنه السعيد، ورسم صورة جميلة حين جعل عزاء بيبرس ومأتمه عرساً وابتهاجاً بالملك الجديد، ثم انتقل للمقارنة بين الملكين ساعياً إلى تخليد الراحل، وإثبات حق الباقي وأهليته للحكم، ومنها قوله:[١]

أبْدا بِك الدَهْرُ ما أبداهُ واعتذرا ... ولم يهدّ بناءَ المُلْكِ أو عَمَرا
أخْفَى أباك وأبداك الزّمانُ لنا ... ما غيّبَ الشّمسَ حتّى أطْلَعَ القَمَرا
لم يُظْمِنا أوْ سقانا الرّيَّ من عَطَشٍ ... ما غيضّ البَحْرَ حتى أنْزَلَ المَطَرا
ولا محا صورةً حتّى أتى عَجلاً ... بصورةٍ بَعْدَها أبْقَتْ لنا صُوَرا
ولا قَضى سَلَفٌ حتّى أتى لنا خَلَفٌ ... ولا ذَوى الدّوحُ حتّى أخْرَجَ الثّمرا
مَلْكٌ مَضَى وأتى من بَعْدِهِ مَلِكٌ ... مِنْ نَسْلِهِ مقتَفٍ من إثْره الأثَرا
فالعينُ باكيةٌ والسنُّ ضاحِكَةٌ ... يا مَنْ رأى مأتماً والعُرْسَ فيه نَوى
فَنَحْنُ ما بَيْنَ حُزْنٍ في القُلوبِ ثَوىْ ... وبين فرطِ سرورٍ للنّفوس سَرى

ورثى أحد الشعراء الملك المنصور قلاوون بقصيدة عزّى فيها ابنه الأشرف خليلاً وهنأه بمنصبه الجديد، واستبشر به، وأشاد بما ورثه عن أبيه من سجايا وخصال حميدة، فقال:[٢]

إنْ أوْجَعَ الدّهرُ القُلوبَ وأحْزَنا ... فَلَقَدْ تدارك بالمسرّة والهَنا
خَطْبٌ عظيمٌ جاءنَا مِنْ بَعْدِهِ ... فَرَحٌ أزال صَبَاحُهُ ظُلَمَ العَنا
بمنيّةِ المَنصورِ شاهَدْنا الرّدى ... لكن شَهِدْنا في ابنِهِ كلّ المُنَى
فلئن أساءَ الدّهرُ فيه فإنّهُ ... بالأشرفِ الملك المؤيّد أحْسَنا
يا راحِلاً أبكى العُيونَ تَرَكْتَ مَنْ ... ملأ القُلوبَ مَسَرّةً والأعْيُنا
أحْسنتَ ثمّ خَلَفْتَ فينا مُحْسِناً ... فَجُزِيتَ خيراً غابَ شَخْصُك أودَنا

ولجأ إلى ذلك الأسلوب جمال الدين بن نباتة في قصائده التي رثى بها ملوك الأيوبيين في حماة.[٣] وصفي الدين الحلّي في رثائه ملوك بني أرتق في ماردين، ومن ذلك ما جاء في قصيدته التي عزّى بها أولاد الملك المنصور نجم الدين غازي بوفاة أبيهم المذكور، وخصّ بها الملك الجديد وهو الصالح بن المنصور، فهنأه بالملك، وأثنى عليه، فقال:[٤]

وَخَلّف أشبالاً سَعَوا مِثْلَ سَعْيِهِ ... لئلا يعمّ النّاسَ من بَعْدِهِ اليُتْمُ
ملوكاً حذوا في الجودِ حَذْوَ أبيهم ... ففي كلّ وَصْفٍ من نداهُ لَهُم قِسْمُ
هو الصّالحُ المَلكُ الذي لَبسَ البَها ... وللنّاسِ منْهُ فوق ثوبِ البَها رَقْمُ

---

[١] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥١.

[٢] بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص ٢٧١، التحفة الملوكية، ص ١٢٣، العيني، عقد الجمان، ٣/٢٠-٢١.

[٣] انظر ابن نباتة، الديوان، ص ٤٢٩.

[٤] الحلّي، الديوان، ص ٢٨٧-٢٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جميعُ أمارات الشّهيدِ ظواهِرٌ عليهِ تَساوَى البَاسُ والرّأيُ والفَهْمُ

ومثله قوله في رثاء الملك الناصر محمد بن قلاوون:[١]

ومّما يُسَلّي النّفْسَ حُسْنُ انتقالِهِ عفيفُ إزارٍ لا ينَاطُ بهِ وِزْرُ
وإنّ لَنا مِنْ بَعْدِهِ من سَلِيلِهِ مليكاً بهِ عن فقدِهِ يحسن الصّبْرُ
فإن فَلّتِ الأيّامُ حدّ مُحَمّدٍ فَقَدْ جرّدت سيفاً بهِ يُدْرِكُ الوَتْرُ
وإنْ أحْدَثَتْ بالنّاصر الملك زَلّةٌ فبالملك المنصورِ قام لَها عُذرُ

وتجدر الإشارة إلى أن الشعراء ركزوا في تعازيهم على الإشادة بالملوك الجدد وبذويهم، وبأرباب الدّولة الآخرين، وقصد الشعراء من ذلك إرضاء جميع أطراف الدّولة الجديدة، وكسب ودّهم، ونيل عطاياهم، وأكّد ذلك أن جلّ المعاني التي قدّموها تدور حول الإشادة بكرم ممدوحيهم، وحبهم للبذل المال والإنفاق، والأمثلة على ذلك كثيرة، فالشاعر شهاب الدين العزازي أشاد بالملك المظفر محمود، وذلك في القصيدة التي رثى فيها والده الملك المنصور الثاني صاحب حماة، فأثنى على عدله، وتقواه، وجوده، وجماله، ومجّد الأيوبيين جميعا، فقال:[٢]

فَنَحْنُ بهِ في دَوْلَةٍ تقوّيَةٍ نَرَى نَهْجَهَا بالعَدْلِ واليُمْنِ مَهْيَعا
حَمِدْنَا بِمحمودٍ ذميمَ زماننا وعاوَدَ مشتانا بنعماه مَرْبَعا
وبدر ذممْنا سُنّةَ البَدْرِ عندما رأينا له من سدّة المُلكِ مَطْلَعا
وسلطانُ عَدْلٍ يملأُ العينَ هيبةً إذا ما حِجابُ المُلْكِ عَنْهُ تَرَفّعا
ملوكُ بني أيوبٍ طولوا الوَرى عُلاً كما طُلْتُم فيهم سيوفاً وأذْرُعا
ودوموا فإنّ المُلْكَ فيكم مُخَلّدٌ تَقَسّم في أبنائكم وتوزّعا

ورثى محيي الدين بن عبد الظاهر الملك المنصور قلاوون، فأشاد بكرم ابنه الأشرف، إذْ صوّره باحثاً عن الفقراء والمحتاجين ليهبهم الأموال، ويجزل لهم العطاء، فقال معبّراً عن ذلك:[٣]

مَلِكٌ أشرف صلاحٌ لدنيا ولدينٍ فالخَيْرُ مِنْهُ كثيرُ
أكرمُ النّاسِ راحةً وعطايا هُ تنادي إليّ أين الفقيرُ؟
واهبُ الألوفِ مالاً وخيلاً ويَرى ذاكَ أنّه تقصيرُ

---

[١] الحلّي، الديوان، ص ٣٢١، ولمزيد من الأمثلة انظر: ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٦٠، شافع بن علي، الفضل المأثور، ص ١٧٧، حسن المناقب السرية،ص١٤٢، الصفدي، أعيان العصر، ٤/١٣٤-١٣٥.

[٢] العزازي، الديوان، ص ٢٥.

[٣] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور،ص ١٨٢،ولمزيد من الأمثلة انظر ابن شداد،تاريخ الملك الظاهر،ص٢٥١-٢٥٢ ، ٢٥٥ ،ابن نباتة ، الديوان ، ص٤٢٩-٤٣٠، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٤/١٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصور الشعراء الموت كأساً دائرةً على جميع البشر، وشبهوا نفوس الخلق بالراحلة التي تسير إلى نهاية محتومة وهي الموت، ويوضح ذلك قول شهاب الدين الصفدي في رثاء الأمير حسام الدين الاستادار الرومي:[١]

كأسُ الحِمام على الأنامِ يَدورُ والعُمْرُ ماضٍ والزّمان يَسيرُ
أنفاسُنا كرواحِلٍ لنفوسِنا لمراحلٍ فيها الأنامُ تصيرُ

وقول ابن نباتة في رثاء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل:[٢]

يا آل أيّوبَ صَبْراً إنّ أرْثكمو من اسم أيّوب صبر كان يُنْجيهِ
هي المنايا على الأقوام دائرةٌ كلٌّ سَيأتيه مِنْها دورُ ساقيهِ
هي المقاديرُ هذا الأصلُ تَنْزِعُهَ بعد النّموّ وهذا الفرع تُنْميهِ

ويصوّر شرف الدين بن سليمان الإربلي الموت هادماً للذّات، وعادلاً في حكمه لا يفرق بين بني البشر، فيقول:[٣]

ولَهادمُ اللّذاتِ يَهْدِمُ كلّ ما يبني من الآمال فِكْرُ الباني
عَمّ البريّة عادلاً في حُكْمِهِ فضعيفُهم وقويُّهم سيّانِ

وهاجم الشعراء الدنيا فوصفوها بالغدر وقلة الوفاء، وعدّوها دار زوال لا أمان لها، ويتجلى ذلك في قول صلاح الدين الصفدي في رثاء الأمير تنكز نائب الشّام:[٤]

وَهَلْ يُرْجى من الدُّنيا وفاءٌ ولم تُطْبَع على رَغْمي الذّمامِ
إذا ضاقَتْ جوانِحُنا بَهَمٍّ توسّعُهُ بأنواعِ السّقامِ

والحياة الدنيا مثل السراب عند الحلّي كما جاء في قوله:[٥]

قُلْ لِصادي الأمال لا ترد العَيْـ ـشَ فإنّ الحياةَ لَمْعُ سَرابِ

ودعا الشعراء إلى الزهد فيها، وبيّنوا أن السعيد من تزوّد بالتقوى، فهي الذخر الذي ينفعه في حياته الأخرى، وهذا ما عبر عنه السيف الشطرنجي إذ قال في رثاء الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب:[٦]

فانتَهِزْ فُرْصَةَ التُّقَى غَيْرَ وانٍ لِتَكُنْ في غَدٍ من الأتقياءِ
ما الغَنيُّ السّعيدُ والبائسُ المسـ ـكينُ حاليهما إذاً بِسَواءِ

---

[١] الصفدي، أعيان العصر، ١٧٧/٤.

[٢] ابن نباتة، الديوان، ص ٥٧٢.

[٣] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٧.

[٤] الصفدي، الوافي، ٤٣٣/١٠، أعيان العصر، ١٣٥/٢.

[٥] الحلّي، الديوان، ص ٢٨٩.

[٦] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٤٩/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مَنْ لَـــهُ اللهُ فـــهْوَ عَبْـــدٌ مُنيـــبٌ ومن احتـــالَ فـــهو مـــن الأشـــقياءِ
إنّمـــا هـــذه الحيـــــاةُ غـــــرورٌ ومَتـــاعُ الدُّنيـــا لنـــــا كالـــــهَواءِ

ومما يدخل في هذا الاتجاه ما تنبه إليه ابن رشيق حين قـــال: "ومـــن عـــادة القدمـــاء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك والأعزّة والأمم السالفة، والوعول الممتنعة في قُلل الجبـــال، والأسود الخادرة في الغياض، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار، والنسور والعقبان والحيّـــات لبأسها وطول أعمارها، وذلك في أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر".[١]

وقد راح الشعراء يحتذون حذو سابقيهم، ويتأملون في حال الجبابرة وأصحـــاب السّـــطوة والجاه من البشر، فوجدوا أنهم خضعوا للموت كما خضع غيرهم من ضعفاء الناس، وهدفوا مـــن ذلك بيان قوة الموت وعدله، وفيه ربط بين الماضي والحاضر، وأسى عميق على العظماء مـــن بني الإنسان، فهو بكاء على العظمة من خلال تصوير عظمة الموت رجاء التأســـي.[٢] وركـــز الشعراء على أمم وملوك بعينهم، وهم الذين طار صيتهم بين الناس، وعُرفوا بالقوة والبأس أمثـــال كسرى، وقيصر، وسابور، والهرمزان، والفراعنة، وقوم عادٍ وتبّع وغيرهم،[٣] ويتجلى ذلك فـــي قول ابن الكبوش البصري في رثاء الملك عز الدين عبد العزيز النيسابوري:[٤]

هـــي اللّيـــالي التـــــي تفرّقنـــــا أيـــــدي ملّماتـــــها وتلتنـــــــمُ
مـــا دام فيـــها مُلْـــكٌ ولا ملِـــــكٌ ولا تـــدومُ البؤســـى ولا النّعَـــــمُ
فـــأين كســـرى وأيـــن قَيْصَـــــرُه وما دهـــىَ قومَـــهُ وأيـــن هـــمُ؟

وضرب الشاعر صفي الدين الحلّي الأمثال بـــالملوك الســـابقين مـــن الفـــرس والـــروم، والأيوبيين، وصوّر ما فعله الموت بالأنبياء والرسل أمثال سليمان بن داود عليه السلام، فإنهم لـــم تشفع لهم عظمتهم ولا معجزاتهم، قال في رثاء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل:[٥]

إنْ لُمْتُ صَرْفَ الدّهرِ فيه أجـــابني أبَـــتِ النُّـــهى أنْ يُعْتَـــبَ المقْـــدورُ
أو قُلْتُ: أين ترى المؤيد؟ قال لـــي: أيـــنَ المظفّـــرُ قبـــلُ والمَنْصـــورُ؟
أم أين كِسْـــرى إزْدَشـــير وقَيْصَـــرٌ والـــهرمزانُ وقَبْلَـــــهمُ ســـــابورُ؟
أيْـــنَ ابـــنُ داودٍ سُـــليمانُ الـــــذي كـــانت بجَحْفَلِـــهِ الجبـــالُ تمـــورُ؟
والرّيحُ تجري حَيْـــثُ شَـــاءَ بِـــأمرِهْ مُنْقَـــادَةٌ وبـــه البِســـاطُ يســـيرُ
فَتَكتْ بهم أيدي المَنونِ ولَـــم تَـــزَلْ خَيْلُ المَنونِ علـــى الأنـــام تغـــيرُ

---

[١] ابن رشيق، العمدة، ٢/١٥٠-١٥١، وانظر ابن بسام، الذخيرة، ج١ ق١/ ٣١٥.

[٢] د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص ١١٩.

[٣] انظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٧.

[٤] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٧٩، الكتبي، عيون التواريخ، ٢١/٦٦.

[٥] الحلّي، الديوان، ص ٣٢٧، وورد بعضها في تذكرة النبيه، ٢/٢٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لو كـــان يَخْلُـدُ بالفَضَـائلِ مـاجدٌ ما ضَمّتِ الرُسْـلَ الكـرامَ قُبـورُ
كلٌّ يَصـــيرُ إلـى البِلَـى فَأَجَبْتُـهُ إنّـي لأعْلَـمُ واللّبيـبُ خبـيرُ

أما الاتجاه الآخر، فقد استمد فيه الشعراء حكمتهم من واقع مرثييهم وحياتهم، وذلك حيـن راحوا يتأملون فيما كان عليه أولئك الناس من قوّة وبأس ومجد، وما كان لهم من صيـت ذائـع، وجاه وسلطان، ونفوذ ورأي، وأموال وكنوز، وأراضٍ ممتدة، فوجدوا أن ذلك كلّه لـم يعصمـهم من الموت، ولم يحمهم منه حين نزل بساحتهم، ولهذا عدّوا موتهم أكبر عظة ودليلاً علـى فنـاء البشر، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها قول الحلّي في رثاء الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل:[١]

في فَقْدنـــا الملـكِ المؤيّـدِ شـاهدٌ ألاّ يـدومَ مـع الزّمـان سـرور

وقوله في رثاء الملك المنصور نجم الدين غازي:[٢]

يا بـدوراً تغيـبُ تَحْـتَ الـتّرابِ وجبـالاً تَمُـرّ مَـرّ السّـحابِ
إنّ فـي ذلـك اعتبـاراً وذكـرى يَتَوعّـى بـها ذَوو الألبـابِ
أين ربُّ السّريرِ والجـيزة البيْـ ـضـاء ذات النّخيـلِ والأعنـابِ
عرصـاتٌ كأنّـهنّ سَـماءٌ قَد تَـوارَتْ شموسُـها فـي الحِجـاب

وقال ابن نباتة في رثاء الملك الأفضل محمد بن إسماعيل:[٣]

كَفَى ببني أيّـوب للنّـاس واعظـاً وإنْ صَمَتَتْ أفواهـهم فـي الضّرائـحِ
ومرقى المنايا نَحْوَ آفـاقِ عَرْشِـهِمْ وما كان يَرْقى نَحْوَهـا طَـرْفُ طَـامحِ

ويدلّل الشاعر عز الدين بن أبي الحديد على زوال الدنيا وغدرها، وتلّونها بما فعلته بعـلاء الدين الطبرسي الدويدار، فقد قلبت حاله، وأذلته بعد طول عزّ ونعيم، ويبدو متأثراً بأبي العـلاء المعرّي حين صوّر جسم الإنسان حبساً، ونفسه مقيمة فيه، يقول.[٤]

لا تـأمَنِ الدُنيـا وَقَـد غَـدَرَ الزّمـانُ بالطّبرسـي
ورمـاه مِـنْ بَعْـدِ المَيَـا مِـنِ والسُّـعودِ بيـومِ نَحْـسِ
وكَسـاهُ ثوبـاً مـن تُـرا بٍ بَعْـدَ أثـوابِ الدّمَقْـسِ
فـاحبسْ عِنَـانَ النّفسِ فهـ ـي مقيمَـةٌ فـي شـرّ حَبْـسِ
واقنـعْ مـن الدُنيـا بثـو بٍ لا يُسـاوي نِصْـفَ فِلْـسِ

إن المعاني السابقة ما هي إلاّ ترانيم وعظية، تطرق قلوب الناس وعقولهم وتدعوهم إلـى التأمل والتفكير، ومراجعة النفس، وتطهيرها من دنس الحياة وأدرانها، فالعمر مـاضٍ وقصـير،

---

[١] الحلّي، الديوان، ص ٣٢٦.
[٢] المصدر نفسه، ص ٢٨٩-٢٩٠.
[٣] ابن نباتة، الديوان، ص١٠٠.
[٤] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٢٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والموت يقترب يوماً بعد يوم، فالشعراء هنا أشبه ما يكونون بحكماء ووعاظ يقتنصون التجارب من حولهم، ويعبرون عنها بطريقتهم الخاصة، علهم يجدون صدى لأصواتهم، فيساهمون في استقامة الناس، وردهم إلى الطريق القويم.

وكشف الشعراء عن سطوة الموت وقوة بأسه حين صوروا خضوع مرثييهم له، وانكسارهم أمامه، وانقيادهم صاغرين لحكمه، فبينوا أنه لو كان غير الموت خصماً لهؤلاء لفدوا بالأرواح والأموال والحصون والمعاقل، ولهبت الجيوش تنصرهم وتذب عنهم، وقد عبر غير شاعر عن تلك المعاني، ومنهم مجد الدين بن الظهير الإربلي إذ قال في رثاء بيبرس:[١]

لولا القَضَاءُ فَدَتْهُ أنْفُسُ أنْفُسٍ ... للمؤمنين ولو فَدَتْه لم تفي

طَلَبَتْ ديونَ الدّينِ مِنْ غُرَمائِهِ ... عَزَماتُهُ طَلَبَ المُلِحِّ المُلْحِفِ

بفوارسٍ كالأُسْدِ في غاب من الـ ... ـبيض المواضي والرّماح الرُّعَّفِ

ومثله قول شهاب الدين العزازي في رثاء الملك المنصور الثاني صاحب حماة:[٢]

أتاه الرَّدى فانقادَ مُستَسْلماً لَهُ ... وَقَدْ كانَ يَقْتَادُ الكميَّ المُدرّعا

ولو كانَ غَيْرُ الموتِ خَصْمُ مُحمّدٍ ... لَزُلْزِلتِ الأقدامُ واشتدّت الدُّعَا

وَجَالت عِنان الخَيْلِ واضْطَربت لَهُ ... حِدادُ المواضي والوشيجُ تزعْزعَا

ولكن هو الموتُ الذي طالَما ... لَوى من المَلْكِ الجَبّارِ ليتاً وأخدعا

إذا دَعا أوفى البريّةِ ناصراً ... أجابَ ولَبّى ناكس الرأسِ مُهْطِعا

وتأمل الشعراء في حال مرثييهم عندما كانوا يطبقون الأرض بصيتهم وهيبتهم، ويقودون الجيوش لمقارعة الأعداء، ويصولون ويجولون في البلاد، ويسوسون الرعية، وينشرون العدل بينها، ويجودون بأموالهم عليها، ويؤوون الوافدين، فوجدوا أن ذلك كلّه طواه الموت، وصار نسياً منسياً كأن لم يكن، ولم يكونوا على وجه هذه البسيطة.[٣] ومن ذلك ما عبّر عنه صفي الدين الحلّي في رثاء الملك النّاصر محمد بن قلاوون:[٤]

قضى النّاصرُ السُّلطانُ مِنْ بَعدما قَضى ... فُروضَ العُلا طُرّاً وسَالمهُ الدَّهْرُ

ولم يُغن عنْهُ الجاشُ والجيشُ واللُّهى ... وفرطُ النُّهى والحُكْمُ والنّهيُ والأمْرُ

ولا الخيل تجري بين آذانِها القَنا ... لِحَرب العدا والدّهمُ مِن دَمِهم حُمْرُ

كأنْ لم يَقُدْها في الهِياجِ عَوَابساً ... بِكلِّ كميٍّ ضَمّ في قَلْبِهِ الصّدرُ

---

[١] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦٤.

[٢] العزازي، الديوان، ص ٢٣-٢٤.

[٣] انظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٥، شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ١٤٠، ١٦٥، الفضل المأثور، ص ١٦٥، ١٧٦، الدواداري، كنز الدرر، ٢١٦/٨، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٤٩/٢، ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص ١٨٠-١٨١، الصفدي، الوافي، ٤٧٤/٩، الحلّي، الديوان، ص ٢٨٧، ٢٩١، ٣٢٣، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٩١/٧.

[٤] الحلّي، الديوان، ص ٣١٩-٣٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم ترجع البيضُ الصّفاحُ مِـــنِ العِـدا مُخَضّبةً والبرّ مـــن دَمِـهِم بَحْـرُ
ولم يترك الأبطالَ صَرْعـــى وغسْـلُها دِماها وأحشاءُ النّســـورِ لَـهَا قَـبْرُ

هجاء الموتى من أرباب الدول

شاعت في هذا العصر ظاهرة هجاء الموتى، فلم يعد الشعر الذي يقال في الميتين مقتصـراً على الإشادة بهم، وبيان مآثرهم وخصالهم الحميدة، بل وجدت إلى جانب ذلك أشـعار انتقدتـهم، وهجتهم هجاءً مرّاً، وكشفت عن صفاتهم السيئة، وسخرت من وضعهم الذي آلـو إليـه، وهنـا يتساءل الباحث عن الأسباب التي وقفت وراء شيوع هذه الظاهرة وانتشارها في ذلك العصر؟

بعد الاطلاع على تلك الأشعار ودراستها، وقراءة سيرة حياة المهجوّين ظـهر أن الدافـع الأساسي وراء شيوع تلك الظاهرة ما كان يتصف به أولئك السادة مـن أخـلاق سـيئة، وظلـم وجبروت، فهم لم يكونوا أمناء على مصالح الشعب، ولم يكونوا على قدر المسؤولية التي أنيطـت بهم، بل إنهم أساءوا استخدامها، وجيّروها لمنافعهم الشخصية، ومارسوا الضغط علـى النـاس، وأنزلوا بهم فنون العقاب المختلفة، من قتل، وضرب، وسجن، ومصادرة للأموال والممتلكـات، وظلوا يختطون ذلك منهجاً في حياتهم إلى أن طواهم الموت، ونالوا ما يستحقونه من جزاء.

والشعراء جزء من الشعب يتأثرون بما حولهم، ولكنهم يتميزون بأنهم قادرون على التعبير عنه بطريقتهم الخاصة، وكان هؤلاء الشعراء عاجزين عن التعبير عما يعتمـل فـي خلجاتـهم وخلجات الشعب، حين كان أولئك السادة على قيد الحياة خشية بطشهم وجبروتهم، ولكنـهم بعـد موتهم، وزوال مخاوفهم راحوا ينشرون ما في نفوسهم، فكان الشعر وسيلتهم كشـفوا بـه عـن عيوب أولئك الميتين، وتهكموا منهم وسخروا أشد سخرية، ورسموا الصور المضحكة التي تنبـئ عن الحالة المتردية التي وصلوا إليها فبدل أن تخلد ذكرى هؤلاء قصائد الرثاء حطـت، أشـعار الهجاء من قدرهم، وهبطت بهم إلى الحضيض، وأكدت كره الشعب لهم.

وقد "جرت العادة عند الدارسين والنقاد أن ينظروا إلى فن الهجاء على أنه فن لا أخلاقـي، فن قائم على السب والشتائم."[1] وإن كانت هذه النظرة صادقة في بعض جوانبـها، إلا أنـها لا تنطبق تماماً على ما بين أيدينا من أشعار، ذلك أن الهدف منها حث أرباب الدولة البـاقين علـى العودة إلى الأخلاق، فهم حين يرفضون تلك السياسات اللاأخلاقية التي سـار عليـها سـابقوهم، يقصدون بذلك توجيه رسالة لهم ليكفوا عن المظالم والتجاوزات الخاطئة، هذا فضلاً عن رغبتـهم في السخرية والتشفي بأولئك الراحلين، فهذا الاتجاه وسيلة من وسائل الشعراء في النقد السياسـي، وتقريع رجال الدولة.

---

[1] د. عبد الحميد جيدة، قصيدة الهجاء عند دعبل الخزاعي، ص ٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واتسمت تلك الأشعار بالقصر والإيجاز، وسهولة الألفاظ، والبعد عن الإفحاش، وتميزت بالصدق، ذلك أن المعاني التي قدمها الشعراء حقيقية نابعة من حياة المهجوين وأخلاقهم، كما أنها ركزت على سلب فضائلهم النفسية، ولم تتطرق إلى ذم صفاتهم الجسدية، وأكثر خاصية ظهرت في أشعارهم هي السخرية والتهكم، وقد سلكوا في إبرازها مسالك عديدة، فبعضهم وظف اسم الأمير الميت ليصنع فكاهة وتهكماً منه، ففي سنة ٧٤٤هـ توفي بحلب الأمير سيف الدين بهادر المعروف بحلاوة، وكان عنده ظلم، وتوعد أهل حلب بشرٍ كبير، فأراحهم الله منه".[١] فوظف ابن الوردي اسم الأمير الذي اشتهر به في حياته وهو "حلاوة" ليصّور المصير المرّ والمؤلم الذي آل إليه بعد الموت، وهو البلى والهلاك، فقال:[٢]

حَلاوَةٌ مَرّ فَما أمْلَحَهُ أنْ يُدْفَنا
إلى البلى مسَتِّراً وفي الثّرى مُكَفّنا

ولجأ أحد الشعراء إلى التورية بلقب الأمير الميت ليحقق غايته، وليبين كيف تغيرت الأحوال به، فحين توفي الأمير سيف الدين طَشْتَمُر الملقب "بحمص أخضر" سنة ٧٤٢هـ، نظم صلاح الدين الصفدي أبياتاً صوّر فيه حمصاً أخضر وقد اندرس بالموت، وعجب من الحال التي وصل إليها الأمير بعدما كان ذا بأس وشجاعة، وحرصٍ على الحياة، يقول:[٣]

طوى الرّدى طَشْتَمَرَاً بَعْدَما بالَغَ في دَفْع الأذى واحترسْ
عهدي به كان شديدَ القُوَى أشجع من يركبُ ظهرَ الفَرَسْ
ألم تقولوا "حمّصاً أخضراً" تعجبّوا بالله كيف اندرسْ

واقتنص بعض الشعراء مواقف معينة من حياة الأمير، ووظفها في شعره، يقال: إن الأمير تنكز نائب الشام كان قبل موته "قد تبرم من نقيق الضفادع، فأخرجها من الماء"[٤]، "وقتل أكثر الكلاب بدمشق، وحبس الباقي"[٥]، فحين مات جعل أحد الشعراء ميتته بشرى لتلك الضفادع والكلاب، ويتجلى ذلك في قوله مصوراً ما كان يتحلى به ذلك الأمير من كِبْر واستعلاء:[٦]

تَنَكّرَ تنكزُ بدمشق تيهاً وذلك قد يدلُّ على الذّهابِ
وقالوا للضّفادعِ ألف بشرى بميتته فقلتُ وللكلابِ

---

[١] ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/٣٢٥.

[٢] المصدر نفسه، ٢/٣٢٦.

[٣] الصفدي، أعيان العصر، ٢/٥٩٠-٥٩١، الوافي، ١٦/٤٤٢، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٦/٣٩٣، النجوم الزاهرة، ١٠/٨٤، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١/ ٤٩٨.

[٤] ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/٣١٨.

[٥] المصدر نفسه، ٢/٣١٨، ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٢/٣٣٢.

[٦] المصدر نفسه، ٢/٣١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يقذع في الحطّ من قيمة تتكز إذ كشف أن الحقد عليه ليس مقتصراً على النـــاس فحسب، بل وعلى الحيوانات التي كان يؤذيها، فكان موته بشرى لها.

ويهاجم الشعراء أرباب الدولة الميتين في أخلاقهم، ويرمونهم بالطغيان والبغي، والظلـــم، والجهل، والنفاق، ويصورون أفعالهم ضد الشعب، وما كانوا يقومـــون بـــه مـــن قتـــل للنـــاس، ومصادرة لأموالهم. وإزهاقها لأرواحهم، جزاء لهم على تلك الأفعال، وبدل أن يصور الشـــعراء ما ينعم به أولئك الناس في جنات الخلد، أو أن يدعوا لهم بنيلها- كما هو معتاد في شعر الرثـــاء- راحوا يصورونهم يتقلبون بنار جهنم، ويتلظون بسعيرها، وتلك النهاية في نظر الشـــعراء هـــي النهاية الطبيعية لأمثال هؤلاء، فحين توفي الأمير شرف الدين القبطي المعروف بالنشو،[١] وكـــان "قد قهر أهل القاهرة، وبالغ في الطرح والمصادرة، فعظمت به المصيبـــة، وقتـــل خلقـــاً تحـــت العقوبة"[٢]، قال زين الدين بن الوردي يهجوه:[٣]

النّشّـــو لا عَـــدلٌ ولا مَعْرفـــةْ قـــد آنَ للأقـــدار أنْ تَصْرفَـــةْ
مـــن أتْلَـــف النـــاسَ وأموالـــهمْ يحـــقُّ للسّـــلطان أن يتلِفـــةْ

ومن الذين هجاهم الشعراء بعد موتهم وزير الظاهر بيبرس بهاء الدين بن حنا وكـــان قـــد صادر "أرباب الأموال حتى مات أكثرهم تحت العقوبة"[٤]، فنقمت عليه الدولة في آخـــر حياتـــه، وصادرت أموال عائلته ووضعوا تحت الحوطة،[٥] فقال النجم بن السحت كمال، يصور إســـراف ذلك الوزير وطغيانه، حتى دارت عليه الدوائر، وأوقع أهله تحت العذاب:[٦]

خَربتْ ديارُك يا ابن حَنّا وانقضـــى زَمَنَاً بـــه أسْـــرَفْتَ فـــي الطّغيـــانِ
ونُقِلْتَ من دار النّعيـــمِ إلـــى لظـــىً بفضفاضةٍ مَلأتْ فضـــاء النّـــيْرانِ
تَرَكْتَ رَهطَكَ في العذاب فلـــم يُفـــد ما نِلْتَ من عـــزٍّ بـــذا الخســـرانِ
كـــم ذا تزخـــرفُ بـــاطلاً لبطالـــةٍ قام الدّليـــلُ عليـــك بالبُرهـــانِ

ويقول السراج الوراق مصورا مآل الأمير سنجر بن عبد الله الشجاعي في الدُّنيا والآخـــرة بعد مقتله سنة ٦٩٣هـــ: [٧]

أبـــاد الشـــجاعيّ ربُّ العبـــادِ وعقباه في الحشر أضعـــافُ ذلـــكْ
عصـــى رأسُـــه فـــالعصى نعشُـــهُ وشُـــيّع للدّفـــنِ فـــي نـــارِ مـــالكْ

---

[١] لمزيد من المعلومات عنه انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٣٨/٩. اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص ٣١١، ٣٧٥.

[٢] ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٣١٦/٢، وانظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٢٣٨/٩.

[٣] ابن الوردي، الديوان، ص٤٩٦، تاريخ ابن الوردي، ٣١٦/٢-٣١٧.

[٤] ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٨٥/٧.

[٥] انظر الدواداري، كنز الدرر، ٢٢٥/٨.

[٦] المصدر نفسه، ٢٢٦/٨.

[٧] ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٨٢/٦، الوافي ٤٧٦/١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي سنة ٧٥٠هـ قَتَلَ الأميرُ سيف الدين أَلْجَيْبُغا نائب صَفَدَ، الأميرَ سيفَ الدين أرغون شاه نائب دمشق، فدفن في زاوية المُنيبع،[١] فقال صلاح الدين الصفدي يهجوه، ويتعجب من حمقه، وإسرافه في الحكم حتى أتاه حمام الموت ودفن في المنيبع [٢]

تَعجّبتُ من أرغون شاه وطيشه الـ ـذي كان فيه لا يفيقُ ولا يَعي
وما زال في سُكرِ النّيابةِ طافحاً إلى حين فاضتْ نَفْسُهُ في المُنَيبعِ

وقتل في السنة ذاتها سيف الدين ألجيبغا، فقال الصفدي[٣] يهجوه، ويصف بغيه، وقتله لأرغون شاه، ويتشفى منه حين صوّره بعد مقتله وقد علّق من عرقوبه كالشاة على نهر بَرَدى:[٤]

لمّا بَغى ألجيبُغا واعتلى إلى السُّها في ذَبْحِ أرغون شاه
قبل انسلاخِ الشّهرِ في جلّقٍ عُلِّقَ من عرقوبِهِ مِثل شاه

ومن السلاطين الذين نال منهم الشعراء بعد موتهم سيف الدين حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون، وكان المذكور فيه ظلم وجبروت، أفنى أمراء دولته، وسفك دماءهم، وأثار الفتن فملأ قلوب الأمراء حقداً عليه فقتلوه سنة ٧٤٨هـ[٥]،وقد عدّد صلاح الدين الصفدي خصال ذلك السلطان، وبين أفعاله، وهي أعمال عظيمة أعظم من أن تغتفر أو تكفر، يقول: [٦]

خان الرّدى للمُظَفّرْ وفي الثّرى قَدْ تَعفّرْ
كم قد أبادَ أميراً على المعالي توفّرْ
وقاتِلُ النّفسِ ظُلماً ذنوبُهُ ما تُكفّرْ

ويذكر المؤرخون أمراً آخر كان السبب في ثورة الأمراء على السلطان المظفر حاجي، وهو أنه كان قد أغفل أمور الرعيّة وشغل نفسه بتربية الحمام واللّهو بها، وأنفق عليها الأموال الطائلة، واعتمد في رأيه على النساء والخدام، [٧] وقد سجل الصفدي ذلك في قوله مصوراً بغْي السلطان وعبثه:[٨]

---

[١] "من متنزهات دمشق قديماً، كان له زاويتان، ومكانه اليوم بناء جامعة دمشق القديم المطل على نهر بانياس، وأرض معرض دمشق الدولي" الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ٢/٢٧٦ حاشية (١).

[٢] الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ٢/٢٧٨، الوافي، ٨/٣٥٤.

[٣] الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ٢/٢٧٨.

[٤] انظر المصدر نفسه، ٢/٢٧٧.

[٥] انظر الصفدي، أعيان العصر، ٢/١٧٦، الوافي، ١١/٢٣-٢٤٠، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٠/١٣٩، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١/ ٨.

[٦] الصفدي، أعيان العصر، ٢/١٧٩، الوافي، ١١/٢٣٩، السخاوي، الذيل على دول الإسلام، حوادث ٧٤٨هـ، من ٩٣، ابن تغري بردي، المنهل الصافي ٥/٥٤ النجوم الزاهرة، ١٠/١٣٩، السيوطي، حسن المحاضرة، ٢/١٢١، ابن إياس بدائع الزهور، ج١ ق١ /٥١٨.

[٧] انظر الصفدي، أعيان العصر، ٢/١٧٩، الوافي، ١١/٢٣٩-٢٤٠، السخاوي الذيل التام، حوادث ٧٤٨هـ، ص ٩٢، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٥/٥٤.

[٨] الصفدي، أعيان العصر، ٢/١٧٩، الوافي، ١١/٢٣٩-٢٤٠، السخاوي، الذيل التام، حوادث ٧٤٨هـ، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٥/٥٤، النجوم الزاهرة، ١٠/١٣٩، السيوطي، حسن المحاضرة، ٢/١٢٠-١٢١، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١/٥١٨-٥١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيّـها العـاقلُ اللّبيـبُ تفكّـرْ فـي المليـكِ المَظَفّـر الضّرغـامِ
كم تمادى في البغي والغيّ حتـى كان لُعْـبُ الحَمَـامِ جَـدَّ الحِمـامِ

وتعدى هجاء الموتى أرباب الدول الإسلامية ليشمل ملوك الأعداء وقادتهم، وقـد اشـتهر علاء الدين الوداعي الكندي بمقطوعاته التي نظمها في القائد المغولي غازان بعد موته، وكـانت الأخبار بموته قد اختلفت "على البلاد الإسلامية، وخبط القصاد فيها تخبيطـاً كبـيراً "[١] وحيـن تأكدت قال الوداعي:[٢]

وكـم جَعَـل القُصّـادُ حيّـاً ومَيْتَـاً قَرَانَ وأوْحَتَـهُ شـياطينُهم وَحْيـا
إلى أنْ قضى نَحْباً وصار إلى لظـىً وأصبح فيها لا يمـوتُ ولا يحيـا

يصوّر الشاعر مصير قازان بعد موته، ويبدو متأثراً بالقرآن الكريم حين يجعل مآله جـهنم يصلى فيها، ولا يموت ولا يحيا كالكفرة تماماً.[٣]

ويسخر الوداعي من ذلك القائد حين صوّره وقد شبع من قبره، وخـرج منـه مـن شـدة العذاب، وهو بذلك يؤكد موته، يقول:[٤]

لقـد مـاتَ غـازانُ فَوَيْـلُ منـافقٍ يكـابرُ فيـه بالخديعـةِ والمكـرِ
ولـم يبـقَ إلاّ أن يجـيء بِنَفْسِـهِ ويَحْلِفُ أنّي قد شبعتُ مـن القـبرِ

---

[١] الصفدي، أعيان العصر، ٧/٤.

[٢] الصفدي، أعيان العصر، ٨/٤، تحفة ذوي الألباب، ٢٠٦/٢.

[٣] انظر رائد عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص ٥٣.

[٤] الصفدي، أعيان العصر، ٨/٤، تحفة ذوي الألباب، ٢٠٦/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث
رثاء العلماء والأدباء

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كثرة المراثي ودواعي الرثاء

يعّد هذا اللّون من الرثاء أكثر لون قال فيه الشعراء ، فقد عُثر بعد البحث والتنقيب على مراثٍ كثيرة في هذا الاتجاه . وحظي بعض العلماء والأُدباء باهتمام الشعراء فأكثروا من رثائهم، ومن هؤلاء الشيخ محيي الدين النووي ، فقد كتب فيه تلميذه علاء الدين بن العطّار سيرة أسماها " ترجمة الإمام النووي "، حاول فيها استقصاء الأشعار التي نُظِمَتْ في رثائه ، فأثبت فيها اثنتين وعشرين قصيدة ومقطوعة واحدة ، أشار فيها قائلوها إلى كثرة ما قيل في رثائه ، ومنهم تلميذه الفقيه الأمين سلطان إذ قال: [١]

قد أكثرتْ فيك الرثاةُ وما أرى تُجدي سوى تذكارِها وغناها

ورثى الشعراء تقيّ الدين بن تيمية بقصائد كثيرة ، وأشار المؤرخون إلى ذلك ، ومنهم المقريزي في قوله: "ورثاه جماعات من الناس بالشام ، ومصر ، والعراق ، والحجاز ، والعرب من آل فضل"[٢]، ويقول ابن كثير : "ورثاه جماعات بقصائد جمّة"[٣] ، و "مطوّلة جداً"[٤]، وصل من تلك القصائد ثماني عشرة قصيدة طويلة، أورد أكثرها الكرمي في كتابه "الكواكب الدرية في مناقب الشيخ ابن تيمية". وضاع من تلك القصائد الكثير بدليل أن الكرمي أشار إلى أن أنه لم يضمن كتابه سوى بعضها[٥]. وذكر الصفدي أسماء ستة عشر شاعراً رثوا الشيخ ، وبيّن أنه رثاه غيرهم، وأن منهم "من رثاه بقصيدتين وثلاث"[٦] ، إلاّ أن جلّ أولئك الشعراء لم تصلنا قصائدهم ، إذ جاءت معظمها لغيرهم .

ورثى الشعراء آل السُّبكي بمراثٍ كثيرة أمثال : تقيّ الدين السّبكي ، وابنيه : تاج الدين ، وبهاء الدين ، وأحفاده مثل : تقيّ الدين بن بهاء الدين السّبكي . ووصلت من مراثيهم إحدى عشرة قصيدة ومقطوعة واحدة جلّها للشاعرين صلاح الدين الصفدي ، وبرهان الدين القيراطي الذي كان على علاقة وطيدة بهم ، وكان يمدحهم ويراسلهم [٧].

ورثى الشعراء الكثيرَ من العلماء والأدباء الآخرين ، وأكثروا من ذلك ، ولكنّ جلّ ما نظموه ضاع وطوته يد النسيان ، ويدل على ذلك ما قيل في تراجمهم ، فالعالم شمس الدين بن

---

[١] ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٥٣ ، وانظر ص ٣٧ .

[٢] المقريزي ، المقفى ، ٤٧٥/١ .

[٣] ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٤٦/١٤ .

[٤] المصدر نفسه ، ١٥٢/١٤ انظر البزار ، الأعلام العليّة، ص ٧٦ .

[٥] انظر الكرمي، الكواكب الدرية ، ص ٢٣١ .

[٦] الصفدي ، أعيان العصر ، ٢٤٧/١ــ٢٤٨ ، الوافي ٣٠/٧ــ٣١.

[٧] ابن العراقي ، الذيل على العبر ، ٤٩/٢ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٣٢/١ ، أنباء الغمر ، ٣٢١/١ ، ابن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، ص ١٢ ، ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٨/٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قدامة الجماعيلي "رثاه نحو ثلاثين شاعراً"[١]، ذكر الصفدي سبعة منهم[٢]، ولم يعثر إلاّ على قصيدة واحدة نظمها الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي .

ونظم الصفدي ديواناً في رثاء نجم الدين بن الخطيب أسماه "ساجعات الغصن الرطيب في مراثي نجم الدين بن الخطيب"[٣]، ولكنه لم يورد منه سوى قصيدة واحدة .

وجاء في ترجمة تقيّ الدين بن دقيق العيد أنه " رثاه جماعة من الفضلاء بالقاهرة وقوص"[٤]وقيل في ترجمة عبد الله بن محمد بن مكي البغدادي : ولجماعة من أهل بغداد فيه مدائح ومراث كثيرة[٥]، وذكر في ترجمة تاج الدين الموصلي أنّه "لما مات رثاه جماعة"[٦]، والأمثلة على ذلك كثيرة[٧]، وهي تدلّ على الكمّ الكبير من المراثي الضائعة .

واشتهر عدد من الشعراء في هذا اللّون من الرثاء ، إذ نظموا فيه أكثر من غيرهم ، ومنهم شهاب الدين محمود الحلبي ، وصلاح الدين الصفدي ، وجمال الدين بن نباتة ، وبرهان الدين القيراطي ، وزين الدين بن الوردي ، وشمس الدين الكوفي الواعظ .

دفع الشعراء إلى الإكثار من رثاء العلماء والأدباء غير سبب ، ومنها الحركة العلمية النشطة في ذلك العصر ، فبعد سقوط بغداد وقيام الدولة المملوكية ، وإحياء الظاهر بيبرس للخلافة العباسيّة ، أضحت مصر والشام قبلة العلماء ورجال الأدب ، فحملت لواء الزعامة الفكرية والحضاريّة ، إذ توافد عليها الكثير من علماء بغداد والأندلس[٨]. وأشار السيوطي إلى الدور الذي لعبته مصر يومذاك ، فقال : "اعلم أن مصر من حيث صارت دار خلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الإسلام فيها ، وعلت فيها السنّة ، وعفت منها البدعة ، وصارت محلّ سكن العلماء ، ومحط رجال الفضلاء"[٩].

وحظي عدد من العلماء والأدباء بمكانة مرموقة وامتيازات في العصر المملوكي، "رغم ما تعرضوا له من امتهان نتيجة لحقد طوائف المماليك ، ومن هذه الامتيازات نفوذهم في الدولة، واحترام السلاطين لهم وإجلالهم"، والإغداق عليهم[١٠] فعاشوا في سعة وبسطة "ومنشأ هذه السّعة

---

[١] ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ، ٣٠٩/٤ .

[٢] الصفدي ، الوافي ، ٢٤١/١٨—٢٤٢ ، النويري ، نهاية الأرب ، ١١٦/٣١، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١٨٧/٤ ، المقريزي ، السلوك، ١٨٠/٢ .

[٣] المصدر نفسه، ٢٦٢/١٢، أعيان العصر، ٢٣٦/٤ .

[٤] الأدفوي ، الطالع السعيد ، ٥٩٩.

[٥] ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ، ٤١٢/٤ .

[٦] اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٧٦/٣ .

[٧] لمزيد من الأمثلة انظر ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٣٨٠ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ١٩٢/٢ ، الذهبي ، تاريخ الإسلام ، وفيات ، ٦٦٤ هـ ، ص ١٦٧ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٢٢/٩ ، الصفدي أعيان العصر ، ٣٣١/١ ، الوافي ، ١٣/١٩ ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي ، ٢٠٥/٧ ، ٣٠٩ ، ابن العراقي ، الذيل على العبر ، ٣١٧/٢ .

[٨] انظر ، آمنة بدوي ، شعر النازحين من الأندلس إلى مصر والشام ، ص ٦ وما بعدها .

[٩] السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٩٤/٢ .

[١٠] د. سعيد عاشور، المجتمع المصري ، ص٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والبسطة في الحياة أن المماليك أحسّوا دائماً بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها وبأنهم في حاجة إلى دعامة يستندون إليها في حكمهم ، ويستعينون بها على إرضاء الشعب ، وطبيعي أنهم وجدوا هذه الدعامة في فئة العلماء بحكم ما للدين ، ورجاله من قوة ، وسطوة في النفوس[١]. ومن مظاهر احترام السلاطين المماليك للعلماء أنهم لم يدعوهم يقبّلون الأرض حسب العادة المتبعة ، وكانوا ينتصبون لهم قائمين ، وكان بعضهم يبوس يد العالم ، ويزوره في بيته مرتين في الأسبوع ، وكانوا يمشون في جنائزهم ، إلى جانب مخاطبتهم بالرسائل بألقاب تدلّ على إجلالهم واحترامهم[٢] .

وكان كثير من العلماء جريئين في قول الحقّ ، ولذا خشيهم السلاطين ، وكبار رجال الدولة، وتعجبوا من جرأتهم، فقد ذكر أن الإمام محيي الدين النووي"كان مواجهاً للملوك والجبابرة بالإنكار لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان إذا عجز عن المواجهة كتب الرسائل، وتوصّل إلى إبلاغها"[٣]، و "حكي أن الظاهر بيبرس قال: أنا أفزع منه"[٤] ، وحكي عنه أيضاً أنه لمّا بلغه موت العزّ بن عبد السلام قال : "لم يستقر مُلكي إلاّ الساعة ، لأنه لو أمر الناس بما أراد لبادروا إلى امتثال أمره"[٥] .

وحظي العلماء في ذلك العصر باحترام الناس وتقديرهم ، فكانوا يقدّمونهم على أنفسهم في الأسواق ويقصدونهم "لقضاء حوائجهم ، ويتوسلون بهم للشفاعة لهم عند أهل الدولة"[٦]، ويشاركون في جنائزهم ، فيتزاحمون حول النعش ، ويتبركون به الأمر الذي كان يثير دهشة السلاطين[٧].

وحين ماتوا تركوا فراغاً كبيراً خلفهم ، فتسابق الشعراء في رثائهم معبرين عن مكانتهم، وأثر موتهم على نواحي الحياة المختلفة وجعلوهم يمثلون الأمة بأسرها ، وعبر عن ذلك غير شاعر ، ومنهم علاء الدين الوداعي الكندي إذ قال في رثاء النووي:[٨]

ما ماتَ يحيى إنّما جبلٌ هوى ... فأخاف ذلك يَذْبُلاً وثبيرا

ما غابَ عنْهُ عالِمٌ بل عَالَمٌ ... كانت به التّقوى أعزّ نفيرا

---

[١] د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص٢٨ .

[٢] انظر ابن فضل الله العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٩٨ ــ ٩٩ ، د. سعيد عاشور ، المجتمع المصري ، ٢٩ــ٣٠ ، د. محمد سلام ، الأدب في العصر المملوكي ، ٢٢٦/١ .

[٣] ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص٢٠ ، الكتبي ، عيون التواريخ ، ٦١/٢١، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٣.

[٤] الكتبي ، عيون التواريخ ، ١٦١/٢١، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان، ٢٨٣/٣ .

[٥] ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٥٢٤/٧ . وانظر ابن بطوطة ، الرحلة ، ٣٢/١.

[٦] د. سعيد عاشور ، المجتمع المصري ، ص ٣١ .

[٧] انظر اليوسفي ، نزهة الناظر ، ص٢٢٢، الصفدي ، أعيان العصر ، ٢٠٥/٥، البزاز ، الأعلام العلية ، ص ٧٥ ، الذهبي ، العبر ، ٣٩٩/٣ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١٧٦/٢ .

[٨] ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص٤٠ ، وانظر القيراطي ، الديوان ، ص٢٥، ٧٦ ، ابن العجمي ، كنوز الذهب ، ٤٧٣/١، الطباخ ، أعلام النبلاء ، ٧٨/٥، الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٢٢٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتحدث الشعراء عن الأسباب التي دعتهم إلى رثاء العلماء والأدباء ، فبيّنوا أن الحزن الحقيقي ، والرغبة في الوفاء للصحبة ، والاعتراف بالجميل ، وبكاء الماضي المجيد كانت دوافعهم وراء ذلك ، ويتجلى ذلك في قول شهاب الدين حسين في رثاء تقيّ الدين السبكي :[١]

رثَيتُكَ يا قاضي القضاة لصُحبةٍ قَضَتْ لي بأنْ أبكي عليك واستبكي

وكان الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي أكثر شاعر عبر في مراثيه عن الصداقة التي ربطته بمرثييه من العلماء والأدباء ، ووظّف فيها العبارات والألفاظ الدالة على ذلك مثل "يا خليلي"، و "يا أخي ومصاحبي" ومن ذلك قوله في رثاء القاضي نجم الدين بن صصري[٢].

فلأبكينّكَ ما حييتُ وما البكا في فَقْد مِثْلكَ يا خليلي مُقْنعا
ولألبسنّ عليك ثوبَ كآبةٍ مهما تمادت مُدتّي لن يُنْزَعا
ولأبعثنّ من الرّثاءِ قوافياً محزونةً تُبكي الحمامَ السّجّعا
ويقلُّ ذاك فإنّها جهدُ الأخ المحزون أنْ يبكيكَ أو يتفجّعا

ورثى ابن الوردي العالم كمال الدين بن الضياء العجمي ، فصور العلاقة الحميمة التي ربطتهما إذ جمعتهما صلة العلم والبحث فيه ، الأمر الذي دعاه إلى رثائه على الرغم من معاتبة أعداء كمال الدين له ، وغضبهم عليه ، قال مخاطباً إياه: [٣]

يا مؤنسي في غربتي ومشاركي في العِلمْ أسْمَعُهُ وطوراً أُسْمَعُ
كم قد قطَعْنا ليلةً في وَصْلِنَا نَظَر العلومِ لغيرنا لا يُقطَعُ
فارقْتَ مَنْزِلَكَ المنيفَ وقصرَك العـ ـعالي ورُحْتَ إلى المقابر تُسْرعُ
وتركتني وَجعاً وأنْت بِمَعزلٍ عنّي فلا تشكو ولا تتوجّعُ
لم تَسكُنِ الأعداءُ من خوفٍ بهمْ حتى سكنْتَ فليتهمْ لا مُتّعوا
أغضبتُهم لمّا رثيتكَ فاغتدى كلٌّ له في العتْبِ سمٌّ مُنْقِعُ
ما سُنّتي رفضُ الودادِ لصاحبٍ ولكلّ مَنْ رفض الودادَ مصَرّعُ

وجمعت الصداقة العلمية بين شمس الدين الهواري الأندلسي ، وشهاب الدين أبي جعفر الأندلسي ، حتى عُرفا لمداومة الملازمة "بالأعمى والبصير"[٤]، وحين مات شهاب الدين رثاه شمس الدين بقصيدة صور فيها أواصر المحبة بينهما ، إذ كانا كسيفين ضمهما غمد واحد ،

---

[١] السبكي ، طبقات الشافعية ، ٥/٤٠٧ .

[٢] الصفدي ، أعيان العصر ، ١/٣٣٣ وانظر ٣/١٩٤ ، الوافي ، ١٩/٣١٩-٣٢٠، الكتبي ، فوات ، ٢/٣٢٣.

[٣] ابن الوردي ، الديوان ، ص ٤٢٩-٤٣٠.

[٤] ابن العجمي ، كنوز الذهب ، ١/٤٦٧ ، الطباخ، أعلام النبلاء ، ٥/٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يمضيان الأوقات والليالي في تدارس العلوم ، وما زالا كذلك حتى فرق الموت بينهما ، كما يبدو في قوله :[١]

وفي ذاك ما زِلْنَا جميعاً كأننَا ... حُسامان ضمّ الصّفحتين قِرابُ
نلازم تحقيق العُلوم وجَمْعها ... وليس نُرى إلاّ بحيث نُثابُ
فَنَسْهَرُ حتى يقضي اللّيل عمرَه ... ويُكشَفُ عن وجهِ الصّباحِ نِقابُ
أبا جعفر قد كُنْتَ أكرمَ صاحب ... إذا عُدَّ من أهلِ الوفاءِ صحَابُ
فوالله ما أنساك حتى يضمّني ... كَمثْلِكَ في بَطْنِ الضّريحِ تُرابُ

ورعى عدد من العلماء والأدباء الذين تولوا مراكز مرموقة في الدولة المملوكية، بعض الشعراء ، فكانوا يدنونهم ويغدقون عليهم الأموال ، ويجزونهم لقاء مدائحهم ، فعاش الشعراء في ظلّهم حياة رغيدة ، وحين ماتوا وفَقَدَ الشعراء مصدر رزقهم ، قاموا يندبونهم، ويبكون على مصيرهم بعدهم .

ومن هؤلاء الشعراء جمال الدين بن نباته ، فقد كان على علاقة بعدد منهم مثل نجم الدين ابن صَصرَي الذي عمل كاتباً في ديوان الإنشاء ، ودرّس في عدّة مدارس ، وتولّى قضاء العسكر ، وولي قضاة القضاة[٢] ، وله أموال ضخمة ، ومماليك ، وخدم ، وحشم وحشمة[٣]، وكان يدني الشعراء ، فيتوافدون عليه في المواسم "رجاء برّه وجوائزه ، فيوفيهم غاية آمالهم ، فبلغت مدائحه جملة وافرة[٤]" وكان ابن نباته مّمن توافدوا عليه فمدحه وأجيز بجوائزه[٥] ، ورثاه بعد موته بقصيدة صور في معظم أبياتها علاقة المنفعة التي ربطته به ، وعبّر عن حزنه على الأيام التي قضاها تحت ظله ، وبكا جوده ومكارمه ، وبدا دائم التذكّر لها ، ومنها قوله[٦] :

مالي أُناديك والنّعماءُ صامتةٌ ... وما عَهِدْتُكَ تُلقي من يُناديكا ؟
مَنْ للفضائلِ تحلوها لُهاك لنا ... وللفواضلِ تجلوها مساعيكا؟
منْ للقصائدِ يستوفي موازنها ... فيضُ النّدى وهو من جدوى معانيكا؟
فمن يُجاريكَ يعرف قدرَ ما فَقَدَتْ ... منك الأنامُ وَقُلْ لي من يجاريكا ؟
يا غائباً ولُهى كفّيه حاضرةٌ ... مهما سَلَوْتَ فلا والله أسلوكا
إنّي لأذكرُ للإحسانِ مَرّ يدٍ ... فكيفَ أنسى وقد حلّت أياديكا ؟

---

[١] ابن العجمي، كنوز الذهب،١/٤٧١ ، الطباخ، أعلام النبلاء، ٥/٨٧-٨٨ ، ولمزيد من الأمثلة انظر الصفدي ، أعيان العصر ، ٢/٣،٦٩٩/٤٥٨،٥/٥٥٦، الوافي، ١٧/٣٥٣-٣٥٤، السّبكي، طبقات الشافعية ، د/٤٠٣ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٣/٤٠٤، الكتبي ، عيون التواريخ ، ٢١/١٨٥ .

[٢] الصفدي ، أعيان العصر ، ١/٣٢٧ ، المقريزي ، المقفى ، ١/٧١٦ .

[٣] المصدر نفسه، ١/٣٢٨ .

[٤] المقريزي ، المقفى ، ١/٧١٧ وانظر أعيان العصر ، ١/٣٢٨ .

[٥] انظر السبكي ، طبقات الشافعية ، ٩/٢٠ ، المقريزي ، المقفى ، ١/٧١٧ .

[٦] ابن نباتة ، الديوان ، ص ٣٦٧-٣٦٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما كُنْتَ إلاّ غماماً زال عــن أُفُــقٍ من بَعْدِ مـــا كفّـت الدّنيـا غواديكـا

وربطت صلة المدح والعطاء ابن نباته بكلّ من القاضي تاج الدين بن الزيات ، والقـاضي كمال الدين بن الزّملكاني ، وقاضي القضاة جلال الدين القزويني ، والكاتب كمـال الديـن بـن الأثير ، واعترف الشاعر في مراثيه لهم بفضلهم عليه ، وصوّر كساد شعره وحياتـه بعدهـم[١]، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في قوله في رثاء جلال الدين القزويني[٢] :

ودّع الشّعرُ كان للشّعـــرِ وَقْـــتٌ بنـداهُ وقـــد تـــغيّر حـــالـــــهْ
وسلا الصـــبُّ واســتراح المُعنّـــى لا صـــــــابته ولا عذّالـــــــهْ
أقْفرتْ ساحةُ العُـــلا فبيـوت الشـــ ـــشعر مِنْ بَعْـد بُـعْـدهِ أطـلالـــهْ
كم أتتني مـــــع الرّكـــاب لـــهاهُ ووَفَـتْ لـي مـع الزّمـانِ خِصالـــهْ

ويصف ابن نباته قصته مع القاضي تاج الدين بن الزيات ، ويتحدّث عن رعايتـــه لـــه ، وعطاياه التي أغدقها عليه ، فيقول في رثائه[٣] :

وصادفني في مَعْشَـــرٍ بديارهـــمْ بعيداً مـن الحَيّيـن داراً ومَعْشـــرا
فكمّل منقوصاً من اسمـــي لديـهمُ وعرّفني فيهم وقـد كُنْـتُ مُنكـــرَا
ويسّرَ من رزقـي بيمـــن بنَانـــه فَيَمّن ما شـاءت يـــداهُ ويسّـــرا
وأثنى على جَهدي بمـا هـو أهلـهُ وأظهرَ أفعال الجميـلِ وأضمـــرا
فمالي لا أثني علـــى جـــود كفّـهِ لديّ كما أثنى على المطرِ الـثّرى ؟

المناقب والصفات

تغنى الشعراء بمناقب مرثييهم وصفاتهم ، فرسموا لهم صورة مثالية قلّمـا تجتمـع فـي غيرهم من الناس ، إذ جعلوا مناقبهم ذائعة الصيت ، ومشـتهرة فـي الصـادرين والواردين ، ونزهوهم عن النقائص والعيوب[٤]، وهدفوا من ذلك إلى تخليدهم ، والاحتفاظ بذكراهم على مـرّ السنين، وبيان أحقيتهم في الرثاء والبكاء، ومن ذلك ما جاء في قول مجـد الديـن بـن الظـهير الإربلي في رثاء محيي الدين النووي[٥] :

كسـاك ربُّـكَ أوصافـاً مُجمّلـــةً يضيقُ عن حَصْرِها التّفصيلُ والجُمَـــلُ

---

(١) انظر ابن نباته ، الديوان ، ص ٤٠٧ ، الصفدي ، أعيان العصر ، ٤٩٢/٣ ، الوافي ، ٥٩/٢٢ــ٦٠ .

(٢) ابن نباته ، الديوان ، ص ٤٠٤ ــ ٤٠٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢٤ .

(٤) انظر ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٢٩،٣٧،٣٨،٣٩، ابن الوردي ، الديوان ، ص ٤٢٩ ، ابن الظهير الإربلي ، الديوان ، ص ٦١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٢٩٠/٣ ، الكتبي ، عيون التواريخ ، ١٦٥/٢١ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ١١٠/٧ــ١١١ .

(٥) ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أسلى كمالُك عن قومٍ مَضـــوا بـــدلاً وعـــن كمـــالِكَ لا مُسْـــلٍ ولا بَـــــدَلُ

والصفات التي تحدّث عنها الشعراء منها ما هو تقليدي ، وهي تشكل الجزء الأكبر مـــن مراثيهم مثل صفات العلم ، والحلم ، والجود ، والتقوى ، والعفة ، والحياء،والعقـــل، والشـــجاعة وحسن التدبير وغيرها ، ومنها ما هو مستمد من حياة المرثيين وواقعهم ، واعتمد الشعراء فـــي عرضهم لها على الإجمال والتفصيل .

ومن الصفات التي تحدثوا عنها ما تحلّى به مرثيوهم من تواضع ، وحياء وأخلاق حميدة تشبه النسيم في رقتها ولطفها ، ويتجلى ذلك في قول شهاب الدين محمود في رثاء نجم الدين بـــن صصرى[١]:

وخلائـــق كـــالرّوض دبّجـــه الحيـــــا أُصـــلاً فوشّـــى حلّيتـــه ووَشّـــعا

وتواضـــع أمســـى ســـناهُ كنَعْتِـــهِ يدنـــو وقـــد سَـــكَن السّـــماء ترفّعـــا

وقول جمال الدين الغسّاني إذ رثى مبارك بن حامد المنعوت بـــالتّقي الحـــدّاد، وصـــوره كالفتاة حياءً وخجلاً[٢] :

وقـــد كـــان أحيـــا مـــن فتـــاةٍ حيّيـــةٍ وافتكَ في الـــهَيْجاءِ مـــن كـــلِّ فـــاتكِ

وأسبغ الشعراء سمة الحلم على المرثيين ، وجعلوها جزءاً لا يتجزأ من أخلاقهم كونـــهم يتعاملون مع فئات مختلفة من الناس سواء أكان ذلك أثناء نشرهم العلم ، أو توليهم منصبـــاً مـــن مناصب الدولة، وبرزت هذه الصفة في شعر غير شاعر ، ومنهم شهاب الديـــن بـــن فضـــل الله العمري، إذ رثى ابن تيمية، وصوره جبلاً شامخاً في حلمه ، فقال[٣] :

طـــودٌ مـــن الحِلْـــمِ لا تَرقـــى لَـــهُ قِنـــنٌ كأنّمـــا الطّـــودُ مـــن أحجـــارهِ حَجَـــرُ

ورثى صلاح الدين الصفدي الإمام تقيّ الدين السبكي ، فأثنى على حلمه ، وتحدث عـــن مظاهره المختلفة مثل : سعة الصدر ، والتغاضي عمّن أساء إليه ، ويتجلى ذلك في قوله[٤] :

تزايـــدَ الحِلْـــمُ مـــنْ زاكـــي ســـجيّتِهِ فَلَـــم يَكُـــنْ مـــن عـــداه قـــطُّ ينتَقِـــمُ

وقوله[٥] :

كـــم قـــد تغمّـــدَ حِلْمُـــهُ مـــن مُذْنِـــبٍ عَنْـــهُ تغـــافَلَ تـــارةً وتغـــاضى

وإذا توعّـــدَ مـــن أســـا يَنْســـى وَعْدَ الولـــي مـــا احتـــاج أنْ يتقـــاضى

---

[١] الصفدي ، أعيان العصر ، ٣٣٢/١ .

[٢] اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١٤٩/٣ ، ولمزيد من الأمثلة انظرالصفدي، أعيان العصر، ٥١٩/١ ، ٢٥٦/٥، الوافي، ٢١٨/٩، ابن نباتة، الديوان، ص ٢٢١ .

[٣] التبريزي ، المقفى ، ٤٧٦/١ ، الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ١٨٤ وانظر ص ٢٠٧ .

[٤] السبكي ، طبقات الشافعية ، ٤٠٢/٥ ، الصفدي، أعيان العصر ، ٤٥١/٣ .

[٥] المصدر نفسه ، ٤٠٤/٥ ، وانظر اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٧٨/٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأشاد الشعراء بعفة المرثيين وتعفّفهم ،وبرزت هذه الصفات بصورة جلية حين تحدّث الشعراء عن زهد أولئك في الحياة الدنيا وإعراضهم عن متعها الزائلة، ومن ذلك قول برهان الدين القيراطي في رثاء تاج الدين السّبكي[١] .

مُطهّرُ البابِ معلومٌ تعفُّفُهُ والقولُ في مثل هذا غيرُ مُنْتَقَدِ

وقول شهاب الدين محمود في رثاء شرف الدين بن فضل الله العمري[٢] :

وعفٌّ عن الأغراضِ مُغْضٍ عن القَذى صبورٌ عليه في الورى يَحملُ الكَلا

وأثنى الشعراء على شجاعة العلماء والأدباء ، وصوّروا إقدامهم في القتال، ومرابطتهم في ثغور المسلمين ، ومقاومتهم لقوى الظلم والبغي، وعبر عن ذلك سراج الدين الوراق إذ قال في رثاء الشاعر ناصر الدين بن النقيب[٣] :

عزّ القبائلَ لا تخْصصْ قبيلتَهُ بِمَذْرِهِ جَمْعَ الإقدام والوَرعا

مُرابطٌ في ثغورِ المسلمين فلم يَهجعْ ولا سيفهُ في الله ما هَجَعا

ونالت شخصية تقي الدين بن تيميّة وشجاعته عناية الشعراء ، فصوّروا مواقفه البطولية، وهي مواقف مستمدة من حياته، كان له فيها أياد بيضاء ، فقد ذكر أنّه كان "من أشجع الناس وأقواهم قلباً" يجاهد في سبيل الله بقلبه ويده ، ولا يخاف لومة لائم ، وأخبر غير واحد أن الشيخ كان إذا حضر عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتهم ، وقطب ثباتهم ، إن رأى من بعضهم هلعاً أو جبناً شجّعه وثبّته ، ووعده بالنصر والظفر والغنيمة[٤] .

ومن مواقفه البطولية التي ترددت في مراثيه دوره في مواجهة المغول سنتي ٦٩٩هـ، و٧٠٢هـ، وجهاده أهل جبال كسروان سنة ٧٠٤هـ .

يذكر أنّه حين هاجم المغول الشام سنة ٦٩٩ هـ، وصمدت قلعة دمشق، كان ابن تيمية "يدور كلّ ليلة على الأسوار يحرّض على الصّبر والقتال، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط[٥]"، وأرسل إلىٰ نائبها يقول له : "لو لم يبقَ فيها إلا حجر واحد فلا تسلّمهم ذلك إن استعطت ، وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام[٦] .

---

[١] القيراطي ، الديوان ، ص ٣٢ .

[٢] الصفدي ، الوافي ، ٣١٩/١٩ ، أعيان العصر ، ١٩٤/٣ ، الكتبي ، فوات الوفيات ، ٢٢٣/٢ .

[٣] المصدر نفسه ، ٥٣/١٢ .

[٤] الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٩١-٩٢ .

[٥] ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢/١٤ .

[٦] المصدر نفسه ، ٩/١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكـذا بشـقحب[١]والتتـارُ أقبلـوا كـالطمّ فـي أمَـمٍ بغـيرِ مِـراءِ
مَنْ حرّضَ السُّلطان والأمراءَ علـى ترك الّـنزولِ عنـد كـلّ مسـاءِ
قال : اثبتوا فلكم دليل النّصـر قـد وافى فكـان النّصـرُ عنـد لقـاءِ
وأتـى جبـالَ الكسـروان فـأذّنتْ بدَمَارها مـن بعـد طـولِ بقـاءِ

وركز الشعراء على تصوير شجاعة الشيخ حين سرح الكثيرين من أسـرى المسـلمين وواجه القائد المغولي غازان، وأغلظ له في القول، وعنّفه على ما فعله بالمسلمين، وعدّوا ذلـك من مآثره العظيمة التي يعجز عنها صناديد الرّجال[٢]. ومن ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمـها شهاب الدين بن فضل الله العمري ، إذ قال متحدثاً عن بطولاته السّابقة[٣] :

رَمـى إلـى نَحْـرِ غـازانٍ مواجهـةً سِهامُهُ من دعـاءٍ عَوْنُـهُ القَـدَرُ
بتلّ راهـط[٤] والأعـداءُ قـد غَلبـوا على الشآم وطارَ الشـرُّ والشـررُ
وشقّ في المَـرْج والأسـيافُ مُسْـلطةٌ طوائفَ كلّـها أو بعضـها التّـترُ
وبعدهـا كسـروانٌ والجبـال وقـد أقامَ أطوادهـا والطـودُ مُنفطـرُ
واستحصدَ القـومَ بالأسـيافِ جُـهدهم وطالما بطلوا طغوى وما بطـروا

وانتسب عدد من العلماء إلى قبائل عريقة تضرب في عمق التاريخ العربي،ولمّا رثـاهم الشعراء،أشادوا بنسبهم،ومن هؤلاء العلماء عماد الدين القيسراني،وشهاب الدين القيسراني، فقـد كانا من بني مخزوم رهط خالد بن الوليد رضي الله عنه[٥]، وأشار صلاح الدين الصفـدي إلـى ذلك حين رثاهم،وأثنى على أصولهم وقربهم من خالد بن الوليد،فقال في رثاء عماد الدين[٦]:

مـن كـرامٍ راقَـتْ معـاني علاهُـمْ وتَغنّـى بِمَدْحِـهم كـلُّ شـادِ
نَسـبٌ بـاهرُ السّـنا خـالديٌّ قـد تساوت غاياتُـهُ والمبـادي

وأشاد الصفدي بتلك القبيلة ، وبيّن مكانتها في قريش ، فقال في رثاء شهاب الدين[٧] :

مـن سـراةٍ إن سـارَ عَنْـهم ثنـاءٌ مـادَ مِنْـهُ غصـنٌ ومـاج كثيـبُ
إنّ مخـزومَ فـي قريـش لريحـا نٌ شـذاهُ يـوم الفَخـار يطيـبُ

---

[١] اسم آخر يطلق على معركة مرج الصفّر .
[٢] انظر الصفدي ، أعيان العصر ، ٢٥٢/١ ، الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ١٩٥، ٢٠٩ -٢١٠ .
[٣] المقريزي ، المقفى ، ٤٧٧/١، الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ١٨٥ .
[٤] مكان قريب من دمشق اجتمع فيه ابن تيمية بغازان .
[٥] الصفدي ،الوافي ، ٢١٧/٩ .
[٦] المصدر نفسه ، ٢١٨/٢ ،أعيان العصر ، ٥١٩/١ .
[٧] الصفدي ، أعيان العصر ، ٥٥٥/٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورثى الشاعر ذاته الإمام تقيّ الدين السُّبكي، فأشاد بانتسابه إلى قبيلة الخزرج من الأنصار، فقال[١] :

خزرجيّ الأصولِ لو فاخَر النّجـ ـمَ عَلا مجدُهُ عليه وطالا

ونالت سمة التقوى عناية الشعراء، فأكثروا من تناولها، والحديث عن مظاهرها المختلفة، وبرزت بصورة جليّة في مراثي محيي الدين النووي، والشيخ ابن تيمية نظراً للقصائد الكثيرة التي قيلت في رثائهما و لاشتهارهما في ذلك فقد صورهما الشعراء دائبي العبادة والقنوت ، وتلاوة القرآن، ووصفوا زهدهما،وتقشفهما،وعزوفهما عن مناصب الدنيا[٢]،فالشاعر مجد الدين ابن الظهير الإربلي رثى النووي،فصور تقواه،وربط شخصيته التقية بشخصية النبي يحيى عليه السلام، فقال[٣] :

القانتُ القَوّامُ والصّوامُ والسّـ ـاعي بخَطو في العلوم وِساعِ
قد جُمّعتْ فيه خلالُ سميّه وثبوتها بشهادةِ إلاجماعِ
طوبى له مِنْ واصلٍ حسناتهِ بالصّالحاتِ لليلهِ قطّاعِ

وتتجلى المعاني السابقة في قول محمد المنبجي البزاز في رثاء النووي[٤] :

عَزفتْ عن الدّنيا الدّنيّة نَفسُهُ وهي التي عددُ الحصا خطّابُها
وتخيّرَ الباقي على الفاني أصباه منها حليّها وخضابُها

ورثى شهاب الدين محمود العالم مجد الدين بن العديم ، فصوره أفنى حياته في العبادة حتى غدا جسده ضعيفاً هزيلاً ، فقال[٥] :

صحيحُ الزّهد غادَرُه تقاهُ وخَوفُ اللهِ كالنِّضو السّقيمِ
فكم قد بات وهو مِنَ الخطايا سليمُ النفسِ في ليل السَّليمِ

ومن مظاهر التقوى التي صورها الشعراء تجنّب الغيبة والنميمة،وسلامة النفس من الضغائن والأحقاد،ويتجلى ذلك في قول شهاب الدين محمود في رثاء جلال الدين بن القلانسي[٦]:

حرٌّ تقيٌّ طاهرٌ ورعٌ قد آمن النّاسَ من فيه ومن يدهِ

---

[١] السبكي ، طبقات الشافعية ، ٥/٤٠٠ ، الصفدي ، أعيان العصر ، ٣/٤٤٨ ، السيوطي ، حسن المحاضرة، ١/٢ .

[٢] انظر ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٢٩ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٦٧ ، الصفدي ، أعيان العصر ١/٢٥٢ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٥/٤٠٤ ، الأدفوي ، الطالع السعيد ، ص ٦١٩ ، الكتبي ، عيون التواريخ ، ٢١/١٦٥ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٣/٢٨٩ ، المقريزي ، المقفى ، ١/٢٧٥ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ٧/١١٠ ، الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ١٨٣ ، ١٩٤ ، الشهادة الزكية ، ص ٦٧ .

[٣] ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٣١ .

[٤] المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

[٥] الصفدي ، الوافي ، ١٨/٢٠٣ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٣/٣١٨ ، الكتبي ، عيون التواريخ ، ٢١/١٧٥ .

[٦] الصفدي ، أعيان العصر ، ٥/١٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مُغضٍ عن النّـــاس لا يعنيــه عيبــهم مُغــرىً بمنزلـــهِ فيـــهم ومَســـجده

ورثى صلاح الدين الصفدي، القاضي جمال الدين بن ريّان،فأشاد بورعه،وتحـــدث عـــن مظاهر تقواه،ومنها المداومة على الصلاة في المساجد،وتلاوة القـــرآن وتدبّـــر معانيـــه،وصيـــام النوافل، فقال[١]:

كـــم قـــد ختَمْـــتَ كتـــابَ اللهِ مُتّعِظـــاً وفـــي تدبّـــره كـــم رُحْـــــتَ ولْـــهانا

وكم حثثتَ الخُطا نحو الصّـــلاة لأجـــ ـــل الصفِّ الأول في الأســـحارِ عجلانـــا

تواظبُ الصّومَ في يوم الخميس وفي الـــ إثنيـــن حتّـــى لقـــد أمســـيتَ خَمْصانـــا

صوّر الشعراء المكانة الرفيعة التي حظيَ بها العلماء والأدباء في مجتمعهم،وتحدثوا عـــن مظاهرها المختلفة،ومنها جودهم،وبذلهم،وعطاؤهم، وهي صفة ركزوا عليـــها ، وعـــبّروا عنـــها بمعانٍ مختلفة ، وبرزت بصورة جليّة في مراثي ابن تيمية،فقد صوّره الشعراء جـــواداً يضـــاهي سابقيه من أهل الكرم،أمثال حاتم الطائي والبرامكة،ويتفـــوق عليـــهم،وجعلـــوه مـــأوى للفقـــراء والمحتاجين،الذين كانوا يتوافدون عليه،فيعطف عليهم،ويدنيهم ويمد لهم يد العـــون والمســـاعدة ، ويؤثرهم على نفسه[٢]،ويتجلى ذلك في قول الشيخ عبد الله الرومي في رثائه[٣]:

في جوده ما وَجَدْنـــا مـــن يُشـــاكِلُهُ غيرَ البرامكِ كانوا فـــي ســـعَاداتِ

وقول تقيّ الدين الدقوقي[٤] :

قد كـــان يؤثـــرُ مـــن أتـــاهُ بقوتـــهِ ويظـــلُّ طـــولَ نـــهارهِ لا يَطْعَـــمُ

وصوّرهم الشعراء دائمي البشر في وجوه قاصديهم،قد ملكوهم بإحسانهم،لمـــا يفيضـــون عليهم من ذهب وفضة وعطاء عميم،كما صوروهم كعبة يطوف حولها السائلون،ويتجلى ذلك في قول شهاب الدين محمود في رثاء شمس الدين بن قدامة الجماعيلي[٥] :

وذوو الحوائـــج مـــا أتـــوه لحـــادثٍ إلاّ ونـــالوا عنـــده مـــا رامـــوا

يَلْقـــاهم بشـــرٌ يبشّـــرهُم بمـــا قصدوا من الحاجـــات وهـــي جِسَـــامُ

وقوله في رثاء مجد الدين بن العديم[٦] :

وكـــان لِوَفـــدِ الجـــودِ مَغْنـــاه كعبـــةً يطوفون فيـــها مـــن يمينـــهِ بـــالرُّكنِ

---

[١] الصفدي ، أعيان العصر ، ٢/ ٤٢٩ .

[٢] انظر الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٢٠٠ــ٢٠١ .

[٣] المصدر نفسه ، ص ٢٣٠ .

[٤] المصدر نفسه ، ص ٢١٨ .

[٥] الصفدي ، الوافي ، ١٨/ ٢٤٣، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٤/ ١٨٨ ، الكتبي ، عيون التواريخ ٢١/ ٢٣٢ ، ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ، ٤/ ٣١٠ .

[٦] اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٣/ ٣١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول برهان الدين القيراطي في رثاء تاج الدين السّبكي[١] :

قد استعبدَ الأحرارَ إحسانُ رفدِهِ ... وحرّر تدبيجَ الثّناءِ لهُ فِكري

فإن تَبكهِ بالبيض والحُمرِ أعينٌ ... فقد كان يغني الوفدَ بالبيضِ والحُمرِ

إذا جادَ لا يدري الحسابَ ونَفسَهُ ... يحاسبها خوف المعادِ على الذرِّ

وتوافد الناس على العلماء ليستنيروا برأيهم،وحسن تدبيرهم ، والاستعانة بهم في حل مشكلاتهم،وعبّر عن ذلك عز الدين الضرير الإربلي إذ قال في رثاء شمس الدين الخسروشاهي الطبيب[٢] :

وكُنّا لحلّ المشكلاتِ نَعدُّهُ ... إذا أعْيَتِ الحذّاق منّا المسائلُ

وصورهم الشعراء يدافعون عن حقوق العباد ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وينصرون المظلومين ، فيقفون في وجوه ظالميهم بقوّة وحزم ساعين إلى استرداد حقوقهم، وبرزت المعاني بصورة جلية في هذا اللّون من الرثاء ، وخاصة في مراثي الإمام محيي الدين النووي،و الشيخ تقيّ الدين بن تيمية[٣] ، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها نجم الدين بن صصري في رثاء النووي،فقد صوره فيها مواجهاً للملوك والأمراء، يكشف بلسانه ورسائله عن ظلمهم وجبروتهم ، وجورهم وفسادهم ، ويتجلى ذلك في قوله[٤] :

تعزّوا جميعَ النّاسِ فيه فكلُّكمْ ... مصابٌ به من عالمينَ وجاهلِ

فكم قامَ فيما نابكمُ من مَلمّةٍ ... وشَغْلٍ بما فيه من الحزن شاغلِ

على قاصديكم بالنّوائبِ مُنْكراً ... بلفظٍ وجيزٍ للمواعظِ شاملِ

وكم من مقامٍ قام فيه بنصرةِ الـ ... أنام مقامَ الذّابلاتِ العواملِ

وكم لذوي الجاهات واجه مُعلناً ... بإنكاره عند الضُّحى والأصائلِ

وكم بالهدى والحقّ شافه منكراً ... لمنْ لم يكنْ يصغي لأقوال قائلِ

فإنْ هو عن رؤياه أصبح عاجزاً ... يبلّغُهُ إنكارَهُ في الرّسائلِ

ومن مظاهر مكانة العلماء الإجتماعية ، إجلال الناس لهم ، ومشاركتهم في جنائزهم، وتزاحمهم حول نعوشهم ، وحزنهم عليهم ، وقد وصف الشعراء جنازة ابن تيمية ، وما أحاط بها من مظاهر التبجيل والاحترام ، ذُكر أنه "لم يُسمع في جنازة بمثل هذا الجمع إلاّ جنازة الإمام

---

[١] القيراطي ، الديوان ، ص ٧٦ ، ولمزيد من الأمثلة انظر اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٧٧/٣ ، ٤٣٨-٤٣٩ ، الصفدي ، أعيان العصر ، ١٩٥/٣-١٩٦ ، ٥٧٣/٥ ، الوافي ، ٣٢١/١٩ السبكي ، طبقات الشافعية ، ٤٠٤/٥ ، الكتبي ، عيون التواريخ ، ٥٠/٢١ ، ابن الجزري ، تاريخ ابن الجزري ، ٢٣٤/٢ ، ابن نباتة ، الديوان ، ص ٤٤-٤٥، ٢٢٣، ٤٠٤-٤٠٥،٤٠٧-٤٠٨ .

[٢] ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ٦٠١ .

[٣] انظر ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٢٩-٣٠، ٤٠،الصفدي،أعيان العصر،٢٥١/١-٢٥٢ ابن الظهير الإربلي، الديوان ، ص ٦٢-٦٣، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٢٩٠/٣ ، الكتبي ، عيون التواريخ ، ١٦٦/٢١، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ١١/٧.

[٤] ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحمد بن حنبل"[١]، وقال البزاز وهو من معاصري الشيخ " ولمّا خرجت جنازته فما هـــي إلاّ أن رأها الناس،فأكبّوا عليها من كلّ جانب،كلّ منهم يقصد التبرك بها،وحصـــل البكـــاء والضجيـــج والتّضرّع،واشتد الزحام حتى خشي على النعـــش أن يتحطّـــم قبـــل وصولـــه ، فـــأحدق بـــها الأمراء،والأجناد،واجتمع الأتراك ، فمنعوا الناس من الزحام عليها خشـــية ســـقوطها ، وجعلـــوا يردّونهم عن الجنازة بكلّ ما يمكنهم،وهم لا يزدادون إلاّ زحاماً وكثرة ، حتى أدخلت جامع بنـــي أمية المحروس ظنّاً منهم أنه يسعُ الناس ، فبقي كثير من الناس خارج الجامع"[٢] .

وممن صوّروا جنازة ابن تيميّة الشيخ أبو العباس أحمد بن الحسن البغدادي الدمشـــقي ، فقد بيّن أن ذلك اليوم كان يوماً حزيناً، اجتمع فيه الرجال والنساء والحكام،وكان هؤلاء يتدافعـــون نحو النعش ، ويذرفون الدموع الغزار ، ودويّ أصواتهم يملأ الفضاء ، قال[٣] :

حَفّـــهُ النـــاسُ أجمعـــونَ رجـــالاً ونســـاءً ســـعياً علـــى الأقـــدامِ
ومشوا تحت نَعْشِهِ وهـــو مـــن فـــو ق رؤوسِ الأعيـــانِ والحكّـــامِ
يسبلون الدّموع مـــن خشـــيةِ اللـــ ـــه وحزنـــاً كمســـبلاتِ الغمـــامِ
وضجيـــجُ العبـــادِ ســـرّاً وجـــهراً كدويٍّ في شـــاهق الجـــوّ ســـامِ

ووصف الشيخ عبد الله بن خضر الرومي حشود الرجـــال المشـــاركين فـــي الجنـــازة، وصرّح بعددهم، وألقى الضوء على جموع النساء اللّواتي خرجن ثيّبات وأبكاراً يُعولن وينتحبـــن، فقال مخاطباً ابن تيمية[٤] :

حُملتَ على النّعـــشِ الـــذي كـــان تَحتَـــهُ مئين ألوفـــاً فـــي بكـــاءٍ وضجّـــةِ
وصلّـــى عليـــك المســـلمون جميعـــهُمْ بحُسْنِ اعتقادٍ فيك يا شـــيخَ قُـــدوةِ
وأمـــا النّســـاءُ المؤمنـــاتُ فإنـــهنّ خَرجْنَ حيارى فوَجةً بعـــد فوَجـــةِ
ومعـــهنّ أبكـــارٌ تحجّبـــنَ بـــالتُّقى يَنُحْـــنَ بأكبـــادٍ عَليـــك حزينـــةِ

وصوّرها الشيخ شهاب الدين أنو شروان التبريزي حفلة مثل حفلة العروس ، لا نظـــير لها في أعدادها التي تدفّقت كالبحار الزاخرة ، تصدح بالتهليل والتكبير ، فقال[٥] :

غـــار الإلـــه عليـــه مـــن أغيـــارِه فـــزواهُ عنـــهم والمحـــبُّ غيـــورُ
فخـــلا بـــه يتلـــو عليـــه كلامَـــهُ ولـــه الحبيـــبٌ مؤانـــسٌ وســـميرُ

---

[١] البزار ، الأعلام العلية ، ص ٧٤ ، الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ١٧٧ .

[٢] المصدر نفسه ، ص ٧٤ ، انظر ما قيل عن جنازة ابن تيمية في: ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤٨/١٤ وما بعدها،الصفدي، الوافي ، ١٨/٧ ، الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ١٧٧ .

[٣] الكرمي، الكواكب الدرية ، ص ١٧٧ .

[٤] المصدر نفسه،، ص ٢٢٧ .

[٥] المصدر نفسه، ص ٢٠٥-٢٠٦ ، ولمزيد من الأمثلة انظر الصفدي ، الوافي ٣٢/٧ ، أعيان العصر ، ٢٤٩/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حتـــى إذا اشـــتدّ التشـــــوقُ زفّـــــهُ زفُّ العـــروسِ وذيلُـــها مجـــرورُ
ولقد سرى فـــوق الرّقـــاب ســـريرُهُ فعجبت كيـــف الرّاســـياتُ تســـيرُ
ما كنـــتُ أعلـــمُ قبـــل يـــوم وفاتِـــهِ أنّ البحـــارَ الزّاخـــراتِ تفـــــورُ

وتحدث الشعراء كثيراً عن المكانة العلمية والأدبية التي حظي بها مرثيوهم،وكشفوا عـــن دورهم في إثراء الحركة العلمية والفكرية وتنشيطها ، وتنّوعت المعاني التي قدّموهـــا ، وجلّـــها تدور حول شخصية المرثيين العلمية ، وغزارة علمهم ، واشتغالهم بـــه ، وشـــهرتهم فـــي هـــذا المجال ، وصيتهم الذائع ، الأمر الذي جعل الناس عامة وطـــلاب العلـــم خاصـــة يقصدونـــهم ويتوافدون من بقاع الدنيا عليهم ، لينهلوا من علمهم ، ويظفروا بكنوزهم .

وأكثر الشعراء من تصويرهم بالبحار الزاخرة علماً ومعرفة ، وتتجلى المعاني الســـابقة في شعر غير شاعر منهم ، ومن ذلك قول زين الدين عمر بن الحسام الشبلي فـــي رثـــاء ابـــن تيمية[١] :

بَحرُ العلوم حوى الفضـــائلَ كلَّـــها وســـما ســـموّ كواكـــبِ الجـــوزاءِ
متفـــردٌ فـــي كـــلِّ علـــمٍ دونَـــهُ لعلـــوّ رتبتـــهِ ذرى العليـــــاءِ

وقول برهان الدين القيراطي في رثاء تاج الدين السبكي[٢] :

في الشّرقِ والغربِ قد سارتْ فوائـدهُ مثل الكواكب تَهْدي من بـــهنَّ هُـــدى
تأتي الفتاوى إلـــى ناديـــهِ قـــاصدةً من كلّ فـــجٍّ بعيـــد القُطْـــرِ أو بَلَـــدِ
قال الوفـــودُ وقـــد حلّـــوا بســـاحتِهِ لولاك يـــا عـــالمَ الأفـــاق لـــم نَفِـــدِ

وبيّن الشعراء أن مرثييهم ربطوا العلم بالعمل ، فسعوا إلى نشره ، وتبليغة للناس ، ولـــذا كانوا يعقدون حلقات العلم ومجالسه ، فيتحلق حولهم الناس يسألونهم ، ويستمعون لقولهم ، وبـــرز ذلك بصورة جلية في مراثي محيي الدين النووي[٣] ، ومن ذلك قول أبي محمـــد بـــن إســـماعيل البسطي في رثائه[٤] :

وكنّا كَعَقْـــدٍ وهـــو واســـطةُ الضّيـــا فلمّـــا انجلـــى ذاك الضّيـــاءُ تنـــاثرا
وكـــان كبـــدرٍ نحـــن هالـــةُ أُفقِـــــهِ فَلمّـــا دنـــا منـــه الأفـــــولُ تغـــيّرا

---

[١] الكرمي، الكواكب الدرية، ص ٩٩ .

[٢] القيراطي ، الديوان ، ص ٣٢ .

[٣] انظر ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٢٩، ٣٢ ،ابن حبيب ، تذكرة النبيه،١/١٩٧ ، ابن الظهير الإربلي، الديوان،ص ٦١—٦٢،اليونيني،ذيل مرآة الزمان،٢٨٩—٢٩٠،الكتبي،عيون التواريخ،٢١/١٦٥،ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات،٧/١١٠—١١١.

[٤] ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول أحد الشعراء في رثائه[١] :

وكم غامضٍ أوْضَحتَ للناس غمْضَـــهُ ... وإنْ كـــان قَـد أعيـــا الإمـــامَ المحقّقـــا
وكـــم شـــنّفَ الأســـماعَ درّاً ولؤلـــؤاً ... إذا ما شجى في مَجلـــسٍ منـــه مَنْطِقـــا
بلفـــظٍ يفـــوقُ المـــاءَ منـــه عذوبـــة ... بـــل اللؤلـــؤُ الرّطـــبُ الأنيـــقُ المُنَمّقـــا
ومفتقـــراً للعلـــمِ أغْنيـــتَ فَقْـــره ... فـــأضحى غنيّـــاً بعـــد أن كـــان مُمْلقـــا

وصوّرهم الشعراء موسوعة حوت المعارف الجمّة والمتنوعة ، وعـــدّوا العلـــوم التـــي تميزّوا فيها، وقرنوا بينهم وبين سابقيهم ممن اشتهروا فـــي المجـــالات العلميـــة التـــي تحدثـــوا عنها،وجعلوهم يتفوّقون عليهم،ويتجلى ذلك في القصيدة التي نظمها برهان الدين القـــيراطي فـــي رثاء بهاء الدين السبكي،فقد صوره فيها بارعاً في العلوم الدينية والعقلية،وعلوم المعاني،والبديـــع والبيان، وجعله يجاري سيبوية في علم النحو،والخليل بن أحمد في العـــروض ، ويتقـــدم علـــى النّضر بن شميل في اللغة،فقال[٢] :

أتى في أصول الدّين بالحُجَجِ التّـــي ... تـــردّ ذوي الإلحـــادِ والزّيـــغ والفِكـــرِ
غدا في أصولِ الفِقْهِ كالسّيف عندمـــا ... أتى تحته المشهورُ كالسيف إذْ يفـــري
إذا حرّر الإشكالَ في علـــمِ مَنْطـــقٍ ... يفوقُ على الأشكال في صحّـــةِ الفِكـــرِ
روى عن أبي بشرٍ غـــزارةَ نَحْـــوهِ ... وتقواهُ يروي النّسكَ والدّينَ عن بشْـــرِ
وعلـــمُ المعـــاني والبيـــانِ جلاتـــه ... عروساً تحلّى بـــالبديع مـــن السّـــدر ِ
وفي اللغّة العرباءِ ما ابـــنٌ قرينُـــها ... يقاربه وانظرهُ يســـمو علـــى النّضـــرِ
وقد كان في علمِ ابن أحمـــد أحمـــدَ ... فريداً لـــه التقديـــمُ دون بنـــي الدّهـــرِ

واهتم بعض العلماء بعلم بعينه ، فعكفوا على دراسته، والاشتغال به ، وسبر أغـــواره ، وتنبه الشعراء لذلك حين رثوهم ، فأشادوا باهتمامهم بذلك العلم ، ومن هـــؤلاء العلمـــاء شـــهاب الدين أبو جعفر الأندلسي المتوفى سنة ٧٧٩ هـــ ، فقد ذكر أنّه كان ذا عناية بالحديث النبـــوي ، فكتب "نسخة من البخاري في ثلاثين مجلداً ، وكذا نسخة من صحيح مسلم[٣]" وحين رثاه شـــمس الدين الهواري الأندلسي صوّر أهتمامه بالأحاديث النبوية ، وأشاد بوقوفه على ضبطها، وتحـــدث

---

[١] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي،ص ٣٦ .
[٢] القيراطي ، الديوان،ص ٣٦ .
[٣] ابن العجمي ، كنوز الذهب ، ٤٧١/١ ، الطباخ ، أعلام النبلاء ، ٧٧/٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن عنايته بصحيح البخاري ، ومواظبته على قراءته،وتدبر معانيهَ ، وأشاد بصوته الجميل حين كان يرتله عند قبر الرسول صلى الله عليه وسلّم ، قال مخاطباً إياه [١]:

عَطفْتَ على كتْبِ الحديثِ وضبطِهِ ... فولّى مشيبٌ فيهما وشبابُ
وكُنْتَ إذا أدّيتَه قارئاً لَه ... تكادُ القلوبُ القاسياتُ تُذابُ
فتُطْرِبُ أهلَ الحيّ كأنّما ... غدا القومُ من ثغرِ الكؤوسِ رضلبُ
فما للبخاري بعد موتك قارئٌ ... ولو علموا عِظَمَ المقام لهابوا
مراراً أمام المصطفى قد قرأتهُ ... بأفصحِ نُطْقٍ لم يَفتْهُ صَوابُ

وذكر الشعراء بعض المصنفات التي ألفها مرثيوهم ، وكشفوا عن شهرتها في زمانهم وتفرّدها في مجالها ، وأثرها في طلاّب العلم خاصة ، والحركة الفكرية عامّة[٢]. وممن تحدث الشعراء عن مؤلفاتهم علم الدين البرْزالي ، وهو صاحب تاريخ كبير في ثمانية مجلدات[٣]، وقد صوّر الشاعر شهاب الدين بن فضل الله العمري أهميته وتحدث عمّا فيه من معلومات قيّمة تعود إلى عهد بعيد ، ، فقال في رثاء مؤلفه[٤] :

وعَرّفَ الناسَ في التّاريخ ما جَهِلوا ... وبعض ما جهلوا أضعاف ما علموا
يريك تاريخُهُ مهما أردتَ بهِ ... كأن تاريخَه الآفاق والأُممُ
ما فاته فيه ذو ذكرٍ أُخِلّ بهِ ... ولو يَرومُ لعادتْ عادٌ أو إرمُ
إذا نَشَرتَ له جزءاً لتقرأهُ ... تظلُّ تنشرُ أقواماً وهمْ رِمَمُ

وألّف جمال الدين الإسنائي كتباً كثيرة،منها،"التمهيد"،و"الجواهر"،و"الإيضاح"،و"الألغاز"، و"الفروق" [٥]، ولما مات ورثاه برهان الدين القيراطي عدّد تلك الكتب ، وكشف عن دورها في رفد الحركة الفكرية فقال[٦] :

لئن مهّد "التمهيدُ" مَضْجَعَهُ لَه ... فكوكَبُهُ من بعده غيرُ آفلِ
وأبْرزتَ مكنونَ "الجواهر" للورى ... لأنك بَحْرٌ ما له من سواحِلِ
وأوْضَحْتَ "بالإيضاحِ" في الخَلْقِ مُشْكلاً ... فليس له في حُسْنهِ من مُشاكِلِ
وإنْ جمعَتْ أهلَ العلوم محاسنٌ ... "فألغازُك" العُلْيا طرازُ المحافلِ
"فروقُك" يا من كان للعِلْمِ جامعاً ... تُحيّرُ أذهانَ الرّجالِ الأماثلِ

---

[١] ابن العجمي، كنوز الذهب، ٤٧١/١ ، الطباخ، أعلام النبلاء، ٧٧/٥.

[٢] انظر ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٣٢، ٤٢، ٥٦ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ١٩٨/١ ، الصفدي ، الوافي ، ٢٨٢/٥ ، أعيان العصر ، ٣٢٩/٥ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٤٣٩/١، بغية الوعاة ، ٢٨٤/١ ، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ق٥٠٢/١ .

[٣] انظر الصفدي ، أعيان العصر ، ٤٠/٤ .

[٤] المصدر نفسه ، ٥٣/٤ .

[٥] انظر السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٣٦١/١ .

[٦] القيراطي ، الديوان ، ص ٢١ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٣٦٢/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تصـــانيفُ لا تَخْفَـــى محاسِـــنُها التـــي هدايتـــها تـــهدي الـــورَى بـــــالدلائل
وتبـــدو فتلـــهي عـــن ريـــاض أنيقـــةٍ وتُتْلى فتغنـــي عـــن ســـماع البلابـــلِ

وصوّر الشعراء قدرة العلماء على الجدل والحـــوار والمنـــاظرة ، والإتيـــان بـــالحجج والبراهين التي تدلّ على غزارة علمهم،وفصاحة لسانهم ، وقوّة شخصيتهم،وقابلوا بينـــهم وبيـــن مناظريهم الذين راحوا يدقون يداً بيد ندماً على تجرؤهم عليهم،ومن ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها الصفدي في رثاء تقيّ الدين السّبكي [١] :

فكم كمـــاةٍ مـــن النّظـــار قـــد مَـــهَروا في البَحْث جاءوا بما ظنّوا وما زعمـــوا
فكـــرّ فيـــهم بـــلا فِكْـــرٍ وجدّلـــهم جدالـــهُ ثـــمّ لمّـــا ســـلّموا سَـــلِموا
وقصّروا عن مبـــادي غايـــة حَصَلَـــتْ لـــه وأيـــن عُقـــابُ الجـــوّ والرّخـــمُ ؟
ولّـــوا فـــراراً وقـــد ألقـــوا ســـلاحَهُمُ وهم أناسٌ على التّحقيـــق قـــد وهمـــوا

وأكثر الرثاة من الحديث عن براعة ابن تيمية في هذا المجال ، فصوروا مناظرته للفـــرق الإسلامية المختلفة في زمانه[٢]، ولليهود والنصارى ، وبيّنوا ما كان يدور بينهما من حـــوار ، إذ كان الشيخ ينبرى للدفاع عن الإسلام وأهله ، فيأتي بالحجة وراء الحجّة ، والدليل وراء الدليـــل ، حتى يفحم أحبارهم ، ويدحض ما يثيرونه من شبهات ، ويتجلى ذلك في قول شهاب الديـــن بـــن فضل الله العمري في رثائه[٣] :

ألـــم يكـــنْ للنّصـــارى واليـــهود معـــاً مجادلاً وهمُ في البحثِ قد حُصِـــروا

وقول تقي الدين الدقوقي في رثائه[٤] :

سَـــلْ عنـــه ديّـــان اليـــهود أمـــا غـــدا متلفّعـــاً بِصَغَـــارِهِ المتـــهوّدِ

وتحدّث الشعراء عن مكانة مرثييهم الأدبيّة ، وأكثروا من ذلك ، فصوّروا براعتهم فـــي الكتابة، والقريض ، وكشفوا عن فصاحتهم ، وتمكنهم من العلوم البلاغية المختلفة،وأشاروا إلـــى طريقة بعضهم في نظم الشعر ، فبينوا أنهم كانوا امتداداً لمن قبلهم من فحول الشعراء ، وأشـــادوا بجودة ما ينظمون ويكتبون،وصوّروا قوة تأثيره في نفوس المتلقين عامتـــهم وخاصتـــهم، ولـــذا راحوا يكيلون عبارات الثناء والإطراء ، ويعبّرون عن الأدب المفضّـــل عندهـــم، وهـــو الأدب المطبوع ، البعيد عن التعقيد ، والمحلّى بأنواع الزينـــة ، واســـتعملوا للتعبـــير عـــن معانيـــهم مصطلحات النقاد كقولهم "على كتبه طلاوة" ، وفي شعره "انسجام"، و"يتجنب التعقيـــد"،و شـــعره "كالماء عذوبة" وغير ذلك .

---

[١] الصفدي ، أعيان العصر ، ٣/٤٥٠ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٥/٤٠١ـــ٤٠٢.

[٢] انظر القصيدة التي نظمها الشيخ عبد الله بن حضر الرومي في رثائه ، الكرمي ، الكواكب الدرية ، ٢٢١ .

[٣] انظر المقريزي ، المقفى ،١/٤٧٨، الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ١٨٦ ، الشهادة الزكية ، ص ٦٧ .

[٤] الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٢١٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتجدر الإشارة إلى أنّ كثيراً من الأدباء الذين رثاهم الشعراء ، كانوا قد تولوا كتابة السّر في الدولة المملوكية الأُولى،فكانت تُلقى على كاهلهم الكثير من المهمات المتعلقة بشؤون الحكم، فقد كانوا يحفظون سرّ الملك ويردّون على الرسائل الواردة إليه من أعدائه وأصدقائه، ونوابه أو يبادرون بالكتابة عنه إلى أولئك جميعهم،ومن بين رسائلهم تلك التي تردّ على تهديدات العدو أو على طلبهم الصلح والمهادنة ، أو تدعوهم إلى فك أسرى المسلمين ، وغير ذلك .

وكان للكتاب دور في جعلها مؤثرة إذ استعملوا فيها أسلوب اللّين تارة،والتهديد والوعيد تارة أخرى،فاستطاعوا أحياناً دفع العدوّ وردّ كيدهم،وإنقاذ أسرى المسلمين،ولمّا توفوا رثاهم الشعراء،فصوّروا المهام التي أُنيطت بهم،فقاموا عليها خير قيام،وبيّنوا ما صنعته أقلامهم بقوّة تأثيرها [١].

ومن أولئك الأدباء شهاب الدين بن فضل الله العمري ، فقد رثاه غير شاعر بعد موته ، ومنهم شهاب الدين محمود ، إذ قال معبراً عن المعاني السابقة[٢] :

فكم حاط بالرّأي الممالكَ فـاكْتَفَتْ ... به أن تعدّ الخيلَ للصّون والرّجلا
وكم جرّدتْ أيدي العدا نَصْل كيدهِمْ ... فردّ إلى أعناقهم ذلك النَّصلا
وكم جلّ خَطْبٌ لا يُحَل انعقادُهُ ... فأعمل منه صائب الرّأي فانحلاّ
وعهدي به لا أبعد اللهُ عَهْدَهُ ... وأقلامهُ أنّى جَرَت نَشَرتْ عدْلا
وتجري بما يَجري الملوكُ من النّدى ... بها فتزيل الجَدْبَ والمَحْلَ والأزْلا

ورثى صلاح الدين الصفدي جمال الدين بن إبراهيم بن محمود الحلبي،فصوّر ما أدّاه قلمه للإسلام والمسلمين،إذ استطاع أن يدفع العدّو به،ويردهم عن ديار المسلمين فأغنى بذلك الجيش عن الحركة والقتال،كما أشاد بخطه وتحدث عن تأثير أدبه في نفوس السامعين،فقال معبّرا عن ذلك[٣]:

تولّى السرَّ في حلبٍ زماناً ... فما احتاجت جلاداً أو جدالا
وأغنى الجيشَ عن حركاتِ غزوٍ ... لمّا ركبوا السّهولة والجبالا
ووفّرهم فما هزّوا رماحاً ... ورفّعهم فما سلّوا نِصالا
برأيٍ كالحسامِ العضبِ ماضٍ ... أفادته تجاربُه صِقالا
وخطٍّ لو رآه الزّهر غضّاً ... لجوّد تحتَ أحرفهِ مثالا
ونثرٍ تكرعُ الأسماعُ فيه ... على ظمأ فَترشفه زلالا

---

[١] انظر الصفدي . أعيان العصر ، ٣٣٢/١ ، ١٩٥/٣ ، ٣٧٣/٥، ٣٧٥ ، ٥٥٦ ، الوافي ، ٣٢٠/٩-٣٢١.

[٢] المصدر نفسه، ١٩٣/٣ ، المصدر نفسه، ٣١٩/١٩ - ٣٢٠ ، الكتبي ، فوات الوفيات ، ٤٢٣/٢ .

[٣] الصفدي، أعيان العصر ، ١٣١/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورثى سراج الدين الوّراق صديقه ورفيق دربه الأديب أبا الحسين الجزّار،فركز على وصف شاعريته،وقدمّه على عدد من فحول الشعراء العرب،أمثال جرير، والفرزدق،وزهير،وقرنه بفصحائهم مثل سحبان وائل،وقس بن ساعدة الإياديّ،وأشار إلى طريقته في النظم حين صوّر القوافي والزخارف البديعية تبكيه ، فقال [١] :

ألا عزّ القوافي اليومَ عمّن ... بَكَتْهُ البكْرُ منها والعوانُ
ولو رقّت بحورُ الشعر دمْعاً ... وكان على الخليل لها الضمّانُ
ويا أسفَ البديعِ على بديعٍ ... وكلّ فنونِهِ منها افتتانُ
إذا التفتَ استطالَ على جريرٍ ... وأخرس من فَرَزْدقهِ اللّسانُ
فلا تنسى به سحبانَ يوماً ... ولا قُسّاً إذا ذُكِرَ البَيانُ
ولو هَرِمٌ رأه سلا زهيراً ... وكان له عليه ثَمّ شانُ

وأبرز الشعراء قدرة مرثييهم على قول الشعر، حين تحدّثوا عن الجوائز التي منحوها من علية القوم ، وهم لم يقصدوا بذلك أن يعيبوا عليهم التكسب بالشعر، وإنما سعوا إلى بيان قوة تاثيره في النفوس ، الأمر الذي جعلها تطرب إليه ، وتجيزهم عليه، وتجلت تلك المعاني في القصيدة التي نظمها الورّاق في رثاء الجزار ، وقصيدته التي رثى بها الشاعر ناصر الدين ابن النقيب[٢] ، ومن ذلك قوله في رثاء الجزار[٣] :

وكم عادتْ محافلُنا عكاظاً ... به ولهُ بها ذاك الجنانُ
فأدْنَتْهُ الملوكُ فكان منها ... بحيث السّمع يَنْصُتُ والعيان
فأسنتْ من جوائزِهِ فَلَولا ... غِناهُ غدا نداه يُسْتَعان

وقوله في رثاء ابن النقيب[٤] :

إذا أفاض على أملاكنا خِلَعاً ... منه أفاضتْ عليه المالَ والخِلَعا

---

[١] اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٧٨/٤ ، الكتبي ، عيون التواريخ ، ٢٦٦/٢١-٢٦٧

[٢] ذكر أن الجزار "عاش مرتزقاً بالمدح" وأن له أشعاراً "كثيرة في مدح الملوك والأمراء والوزراء والأعيان". اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٧٨/٤، الكتبي ، عيون التواريخ ، ٢٥١/٣٢١ .

[٣] اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٧٨/٤ ، الكتبي ، عيون التواريخ ، ٢٦٧/٢١ .

[٤] الصفدي ، الوافي ، ٥٣/١٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما عن الصفات الجسدية ، فإنها لم تحظ باهتمام الشعراء ، الذين اكتفوا بالحديث عن وجه المرثي وجماله وتشبيهه بالقمر أو البدر ، والأمثلة على ذلك قليلة ، ومنها قول أحد الشعراء في رثاء محيي الدين النووي[١] :

أتراك يا قمراً تحجّبَ بالثّرى وجمالُه تحتَ التّرابِ يلوحُ

وقول الصفدي في رثاء شهاب الدين القيسراني[٢] :

كان للنّاس والأنام جمالاً فهو للبدرِ في التّمامِ نسيبُ

يملأ العينَ شكلُهُ وتسرّ النـ ـنفسَ أوصافُهُ فما تستريبُ

تصوير الحدث

تحدث الشعراء عن نعيّ العلماء والأدباء ، وصوّروا شدة وطأته في نفوسهم خاصة والناس عامة، فالشاعر صلاح الدين الصفدي صوّر الآذان وقد أصيبت بالصمم ، فقال في رثاء عماد الدين القيسراني[٣] :

قد أصمّ الأسماعَ نعيُ عماد الدْ دينِ فالنّاسُ بَعْدهُ في جهادِ

ومثله قول برهان الدين القيراطي في رثاء بهاء الدين السّبكي[٤] :

أتى مِصْرَ من أهْلِ الحجازِ نعيُّهُ فودَّ سميعُ القوم لو كان ذا وَقْرِ

أتى خَبَرٌ عن موته قالتِ المنى وقد سَمِعَتْه ليتَه كاذبُ الخبرِ

وبين الشعراء ان رجل البريد كان يتولى مهمّةَ النّعي،الأمر الذي يدلّ على الميزة العظيمة التي حظي بها بعض علماء ذلك العصر وأدبائه ، وقد أشار إلى ذلك برهان الدين القيراطي إذ رثى تقي الدين السّبكي ، وصوّر أثر موته على مصر والشام وسائر البلدان[٥] :

خَبَرٌ له بالشّام أعظمُ مَوْقعٍ في مِصْرَ لم يترك سوى حزّانِ

أعظِم بيومِ مُصابِهِ مِنْ مَصْرَعٍ في مِصْرَ حَلّ بسائر البلدانِ

أدّى البريدُ نعيَّه فيها فيا فَضْلَ الأصمّ على ذوي الآذانِ

وصوّر الشعراء موت العلماء والأدباء مصيبة عامّة ، وحادثاً جللاً ، وبالغوا في تعظيمه وتهويله، وبينوا أن ثمّة كارثة كبرى قد وقعت ، وهذه أثارها تعمّ الأرض والكون والإنسان،

---

[١] ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤٨ .

[٢] الصفدي ، أعيان العصر ، ٥/٥٥٥ .

[٣] المصدر نفسه، ١/٥١٩ ، الوافي ، ٩/٢١٨ .

[٤] القيراطي ، الديوان ، ص ٢٦

[٥] المصدر نفسه ، ص ٥٩، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٥/٤٠٦ ، ولمزيد من الأمثلة انظر ديوان القيراطي ، ص ٢٥، ٣١ ، ابن الجزري ، تاريخ ابن الجزري ، ٢/٢٣٤ــ٢٣٥ ، الصفدي ، أعيان العصر ، ٢/٤٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتنذر بدمار شامل ، وتجلّت هذه المعاني بصورة جليّة في مراثي تقي الدين بن تيمية ، ومن ذلك قول شهاب الدين أبو شروان التبريزي[١] :

صبراً جميلاً فالمصابُ كبيرُ كادَتْ جبالُ الأرضِ منه تَمورُ

وجسيمُ خطبٍ قد علا كلَّ الورى فُقِدَ الضّياءُ وأظْلَمَ الدّيجورُ

وصوّر الجندي المصري بدر الدين المغيثي ذلك التغيّر الذي طرأ على مظاهر الكون إيذاناً بدنوّ الساعة ، فقال في رثائه[٢] :

فكأنّ أشراطَ القيامةِ قد دنتْ وانحلّ من سَرْجِ الزّمانِ حِزامُ

وصور الشعراء مظاهر الطبيعة والكون حزينة مفجوعة على مرثييهم، فجعلوا لها عيوناً تسكب الدموع،وملابس حداد تُلبس،وخدوداً تُلطم،وشعوراً تُنثر،وقلوباً يحرقها الأسى،كما صوّروها وقد توقفت عن أداء وظائفها،ويتجلى ذلك في القصيدة التي نظمها برهان الدين القيراطي في رثاء بهاء الدين السّبكي،إذ صوّر الصّبح وقد توقف عن الخروج،والزهر عن النموّ والمطر عن النزول،والبرق عن الوميض،والنيل عن الفيضان،فقال[٣] :

مَضَيْتَ فما وَجْهُ الصّباحِ بِمُسْفِرٍ وبِنْتَ فَما ثَغْرُ الأقاح بمفترّ

فَزُلْتَ فما ودقُ النّوالِ بِهاطلٍ وَغبْتَ فما بَرْقُ المنى باسمُ الثّغْرِ

توقّع قَلْبُ النّيل فقدانَ ذاتِهِ أَلَسْتَ تَراه في احتراق وفي كسرِ

وصوّر شهاب الدين محمود الحلبي الظّلام وقد عمّ الكون،فطمس نجومه،وكسف شمسه،ويتجلى ذلك في قوله في رثاء شمس الدين بن قدامه[٤] :

ما للوجودِ وقد علاهُ ظلامُ ؟ أعَراه خَطْبٌ أم عداه مَرامُ ؟

أم قد أُصيبَ بشمسِهِ فغدا وقد لَبِستْ عليه حِدادَها الأيّامُ

لم أدْرِ هل نَبَذَ الظّلامُ نجومَهُ ؟ أم حُلَّ للفَلَكِ الأثيرِ نِظامُ ؟

وصوّر الشعراء أحاسيسهم وأحزانهم، وعبروا عن لوعتهم وأساهم ومعاناتهم، ووصفوا أرقهم وقلة صبرهم وآهاتهم وحسراتهم، وما ذرفوه من دموع غزار، ولا تكاد تخلو قصيدة من هذه المعاني، ومن ذلك قول ابن نباتة في رثاء شهاب الدين محمود الحلبي : [٥]

وا وحشتي لمقامٍ منك محمودُ واحسرتي لوِدادٍ فيك معهودِ

---

[١] الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٢٠٥ .

[٢] المصدر نفسه ، ص ٢١٠ .

[٣] القيراطي ، الديوان ، ص ٢٥ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٣٦٥/١ .

[٤] الصفدي ، الوافي ٢٤٢/١٨ ، النويري ، نهاية الأرب ، ١١٦/٣١ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١٨٧/٤، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ٨٢/١ ، الكتبي ، عيون التواريخ ، ٢٣٣/٢١ ، ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ٣٠٩/٤ ، المقريزي ، السلوك ، ١٨٠/٢ .

[٥] ابن نباتة، الديوان، ص ١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لو شامَ طَرْفُكَ مـــا ألقـــاه مـــن حَـــرَبٍ لم تَذرِ مـــن مُنّـــا الـــهالك المـــودي
إنّـــا إلـــى الله مـــن رُزْءٍ دنـــا فَرَمـــى دَمْعي وشـــجوي بـــإطلاقٍ وتَقْييـــدِ

ويعبر شهاب الدين محمود عن حرقته على مرثيه مجد الدين بن العديم إذ قـــارن بيـــن حالتيهما فقال مخاطباً إياه [١] :

أمَجْـدَ الدّيـــن دعـــوةَ مســـتتيمٍ لأنـــواع الكآبـــة مســـتديمِ
حلَلْـتَ مـن الجنّـــات أجـــلَّ دارٍ وقلبي حَـــلَّ بعـدكَ فـي جحيـمِ

وبرزت المعاني السابقة بصورة جليّة في مراثي محيي الدين النووي ، وابـــن تيميـــة ، فالشيخ زين الدين الشبلي يصور حزنه عليه يفوق حزن الخنساء على أخيها صخـــر ، ويكشـــف عن لوعته وأرقه ودموعه الممتزجة بالدماء ، فيقول[٢] :

لـــو كـــان يُقْنعنـــي عليـــكَ بكـــائي لَجَـــرَتْ سَـــوابقُ عَـــبْرتي بدمـــاءِ
وكُنْـــتُ فـــي يـــوم انتقـــالك للبلَـــى صَخْراً لزِدت علـــى بكـــا الخَنْســـاءِ
أسفي عليـــكَ ومـــا التّأســـفُ نـــافعٌ صبّـــا عليـــك مُقَلْقـــلَ الأحشـــــاءِ
أسفي عليك نُفي الكرى عن نـــاظريّ من فَرْط أحزانـــي وفَـــرط عنـــائي

وصوّر تقيّ الدين الدقوقي حزنه على ابن تيمية حين بين عجـــزه عـــن نظـــم الشـــعر واستعانته بدموعه ودمائه في كتابته ، فقال[٣] :

ولَقـــد دَعـــوْتُ الشّـــعر يـــوم نعيّـــهِ فـــأبى علـــيّ فَلَـــم أطـــقْ أتكلّمـــــا
وأخذتُ أكتـــبُ مـــا أقـــولُ وأدمُعـــي بيـــن السّـــطور كعقـــدِ درٍّ يُنْظَـــــمُ
نَفِـــدَ المـــدادُ فســـاعَدَتْه مدامعـــــي فعصى علـــيٌّ فسَـــاعدَ الدّمـــعَ الـــدّمُ

وصوّر الشعراء موت محيي الدين النووي رزيّة عمّت بلاد المسلمين والأرض جميعـــها، وخصّت دمشق موطن الشيخ ومحل إقامته ، ويتجلى ذلك في قول أحد الشعراء[٤] :

وخطبٌ يجوب الأرضَ شرقاً ومغربـــاً فأشـــأمَ فـــي قَطْـــع البـــلاد وأعْرَقَـــا
وعمّ جميعَ الأرضِ مـــن كـــلِّ وجهـــةٍ وإن خـــصّ مـــن دونَ الأقـــاليم جلّقـــا

وتحدث الشعراء كثيراً عن حزن الجماعـــة ، فصـــوّروا مـــا كـــابده النـــاس مـــن الآم وأحزان،وما عانوه من مرارة ولوعة ، وما ذرفوه من دموع ، وتميّزت مراثـــي محيـــي الديـــن

---

[١] الصفدي، الوافي، ٢٠٣/١٨، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٣١٩/٣، الكتبي، عيون التواريخ، ١٧٥/٢١، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٢٢/٧-٢٣.
[٢] الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ١٩٩ .
[٣] المصدر نفسه، ص ٢٢٠ .
[٤] ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٥٣، وانظر ص ٣٢ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ١٩٨/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النووي بكثرة هذه المعاني ، فقد صوّر الشعراء موته فجيعة لم يصبْ الناس بمثلها بعد الرسول عليه الصلاة والسلام ، والأئمة السابقين ، وهذا ما عبر عنه أحد الشعراء في قوله[١] :

يا خَيْرَ مَنْ فُجِعَ الأنامُ بِفَقْدِهِ ... بَعْدَ النّبيّ وبَعدَ كلِّ إمامِ

إن كانَ عاجَلَكَ القَضاءُ وصُرّمَتْ ... من عُمْرِكَ الأعوامُ بالأيامِ

فَلَقَدْ تَرَكْتَ العَيْنَ بعدك ثَرّةً ... تبكي لِفَقْدِكَ والقلوبُ دوامي

ويصوّر أحد الشعراء أصحاب النووي يندبونه ويتوجّعون لفراقه ، ويتمنّون فداءه بمهجهم وأرواحهم، فيقول[٢] :

لم يبقَ خِلٌّ ناظِرٌ أو سَامِعٌ ... إلاّ عليكَ فؤاده مجروحُ

ويودّ لو جُعِلَتْ وقاءك نفسُهُ ... ودوام مَجْدك بالبقاء صريحُ

وتحدث الشعراء بصورة خاصة عن حال الوفود ، والأرامل ، واليتامى بعد مرثييهم من العلماء، فكشفوا عن معاناتهم ، وعن حياة الفقر والشظف التي عاشوها بعد من كانوا يرعونهم ، ويقضون حوائجهم ،ويتبرعون لهم بالأموال ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، ومنها ما جاء في القصيدة التي نظمها جمال الدين بن نباتة في رثاء القاضي نجم الدين بن صصري فقد ذكر أن هذا القاضي كان جواداً "يعم بإحسانه الآفاق حتى قيل مات بموته مكارم الأخلاق[٣]" وكان يجمع "الناس ببستانه كلّ يوم سبت ، ويمدّ لهم سماطاً يجمع أنواع الأطعمة والفواكه والحلوى ولا يمنع منه أحد"[٤]، وقد صوّر ابن نباتة موت ابن صصري مصيبة نزلت بالفقراء،ودعا الوفود إلى التوقف عن شد الرحال له ، وطلب رفده فقال[٥]:

يا طالبَ الجود لا تتعب أمانيكا ... فقد تَغيّبَ نَجْمٌ كان يهديكا

لهفي عليك لفضلٍ ما تَركتَ به ... في القول فَضلاً ولا في الخلق صعلوكا

هذي وفودُك قد أمّت ثراك كما ... أمّت بعين النّدى قِدَماً معانيكا

قاموا يعزّون فيك اليومَ أنفسَهم ... وقُمْتُ في الجود والعليا أُعزّيكا

ويتساءل شهاب الدين محمود الحلبي عن مصير الأيامى والفقراء بعد ذلك القاضي فيقول في رثائه [٦]:

مَنْ للأيامى واليتامى فارقوا ... بالرّغم ذاك الكافلَ المتبرّعا

---

[١] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٤٥-٤٦.

[٢] المصدر نفسه ، ص٤٨ .

[٣] ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ٢٦٤/٢

[٤] المقريزي ، المقفى ٧١٧/١ .

[٥] ابن نباته ، الديوان ص٣٦٧ ، ٣٦٨ .

[٦] الصفدي ، أعيان العصر ، ٣٣٢/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثله قول محمد بن محمد القوصي في رثاء تقيّ الدين بن دقيق العيد[١]:

مَـنْ للضّعيـف يعينُـه أنّـى أتَـى مُستَصرخاً ياغوثَ كلّ ضعيـفِ ؟
مَـنْ لليتـامى والأرامـلِ كـافلٌ يَرْجونه فـي شـتوةٍ ومصيـفِ ؟

وصوّر الشعراء الآثار الناجمة عن موت مرثييهم على النواحي الاجتماعية، والدينيـة ، والعلمية والأدبية ، أما الاجتماعية ، فقد ألقوا الضوء فيها على المجالس التي كان يعقدها أولئـك الناس في مجتمعهم ، فصوروها وقد تعطّلت بعدهم ، وانفضّ جمعها، وتبـدّد شـمل روّادهـا ، وبرزت تلك المعاني جليّة في مراثي النووي ، ومن ذلك قول أبي محمد إسماعيل البسـطي فـي رثائه[٢] :

لقد عطّلَـتْ منـا دروسـاً عزيـزةً كمـا عطّلـت أوراقُـه والمَحـابرا

وتساءل أبو الفضل المصري عن حال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعـد ذلـك العالم فقال[٣] :

مَنْ ذا لدَفْعِ المُنْكَرات وقـد غَـدَتْ بيـن الأنـام كثـيرةَ التّرداد ؟

ومثله قول بدر الدين المغيثي في رثاء ابن تيميّة [٤]:

فـالأمرُ بـالمعروفِ يُفْقَـدُ بَعْـدَهُ والفـاعلون النّكـر ليـس يُلامـوا

أما عن الأثر الذي خلفه موت العلماء على الناحية الدّينية، فقد تجلى حين صوّر الشـعراء الإسلام يبكيهم،وأضحى غريباً بعدهم[٥]،وحين قارنوا بين حاله قبل موتهم وبعـده، فصوّروهـم حصنه الحصين،وبموتهم تهدمت قواعده،وتسلط عليه الأعداء،ويتجلى ذلك في قول الصفدي فـي رثاء تقيّ الدين السّبكي[٦] :

أهكـذا جبـلُ الإسـلامِ ينـهدمُ وهكـذا سـيفُهُ المسـلولُ يَنْثَلِـمُ
وهكـذا جيشُـه المعـهودُ نصرتُـهُ على أعاديه بعـد اليـوم يَنْـهَزِمُ ؟
وهكـذا مجـدُهُ الرّاسـي قواعـدُهُ تنحـطّ منـهُ أعاليـهِ وتنحَطِـمُ
وهكـذا الدّيـن أزرى بـه خَنَـسٌ من بَعْدِ ما كـان بـالأمواج يلتطِـمُ

---

[١] الأدفوي ، الطالع السعيد ، ٦١٩ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٢٧٦/١ .

[٢] ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤١ .

[٣] المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

[٤] الكرمي ، الكواكب الدرية ، ٢١٠ .

[٥] انظر المصدر نفسه ، ص ٢٠٨ ، الصفدي ، أعيان العصر ، ٣٣١/١.

[٦] الصفدي ، أعيان العصر ، ٤٥٠/٣ ، السّبكي ، طبقات الشافعية ، ٤٠١/٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصوّر الشعراء حزن الأماكن التي كان يؤدي فيها العلماءُ شعائرهم الدينية ، فترددت صورة المساجد والمصلى،وهي تبكيهم،وتحنّ إلى صلواتهم.ويتجلى ذلك في قول علاء الدين الوداعي الكندي في رثاء النووي[١] :

وكذا المساجدُ بالمصابيح انثنتْ تُبْدي عليك حُرْقةً وزفيرا

وقول تقيّ الدين الدقوقي في رثاء ابن تيمية[٢] :

أبدى معللاّك البكاءَ وحَسبهُ يبكي عليكَ وَحقُّهُ يتندّمُ

أسفاً على ما فاتهُ من وردِهِ واللّيل ساجٍ والخلائقُ نوّمُ

وأكثر الشعراء من الحديث عن الآثار الناجمة عن موت العلماء والأدباء على الناحيتين العلمية والأدبيّة فكشفوا عن الضياع الذي عاناه طلاب العلوم بعدهم ، وصوّروا الجهل وقد انتشر ونفق سوقه ، وتطاول الجهال في المحافل ، ورفعوا رؤوسهم ، ولم يجدوا من يردعهم، ويرشدهم إلى الطريق القويم ، وتجلى ذلك في شعر غير شاعر ، ومنهم نجم الدين اللّبودي ، إذ قال في رثاء الطبيب شمس الدين الخسروشاهي[٣] :

أيا ناعياً عبد الحميد تَصَبُّراً عليّ فإن العلم أُدرجَ في كَفَن

وقول عز الدين محمد بن الضرير في رثائه [٤]:

فبعدك شمس الدين أعوز عالمٌ وأبدى الدعاوي في المحافل جاهِلُ

ويتجلى في قول شمس الدين الهواري الأندلسي حين رثى شهاب الدين أبا جعفر الأندلسي [٥]:

بموتك ماتَ العلم والحِلْمُ والتّقى فأصْبَحَ رَبْعُ الفَضْل وهْوَ خرابُ

وأصْبَحت الطلاّب بعدك لا يُرى لهم طمعٌ في أن يُنالَ طلاب

وصور الشعراء العلوم التي اهتم بها المرثيون في حياتهم حزينة مغتمة بعدهم ، أصابها الإهمال ، وتوقف البحث فيها ، وأضحى مصيرها مجهولاً ، فالحافظ زكي الدين المنذري اشتغل بعلوم النحو والنسب ، وحين مات رثاه الشاعر الموفق عبد الله بن عمر الأنصاري المعروف بالورن ، فصور حالها بعده ، وما أصابها من إهمال ، فقال [٦]:

مَنْ لضبط الإعرابِ جزماً بإعرا بِ فصيح إن أبهم الإعجامُ ؟

مَنْ لحفظِ الأنساب ضاع بنوها يا أباها فكلّهم أيتامُ

---

[١] ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤٠ .

[٢] الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٢٠٨ .

[٣] ابن أبي أصيبعه ، عيون الأنباء ، ص ٦٠١ .

[٤] المصدر نفسه، ص ٦٠١ .

[٥] ابن العجمي ، كنوز الذهب ، ٤٧٢/١ ، الطباخ ، أعلام النبلاء ، ٧٨/٥ .

[٦] اليونيني ، ذيل مرآة الزمان / ٢٥١/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونبغ عدد من العلماء المرثيين في العلوم الدينية،من فقه وتفسير وحديث وإفتاء وقد صور الشعراء حزن تلك العلوم عليهم وأكثروا من ذلك ، وبرز بصورة جلية في مراثي النووي وابن تيمية[١] ، كما برز في مراثي غيرهم ، ويتجلى ذلك في قول جمال الدين بن نباته في رثاء القاضي كمال الدين بن الزملكاني[٢] :

أيّها الراحِلُ الذي عطّلت مِنْ ... بعده القاصدون شدَّ الرّحال
غاب علمُ التّفسير عنّا وهمتْ ... كتبُ الفقهِ فيك بالإعوالِ
ودموعُ الحديثِ سلسلها الحز ... نُ وأنكى في القلبِ جرحُ النّصالِ

وتحدث الشعراء عن كتب العلوم وما اعتراها من أحزان ، وتلك الكتب قسمان: قسم عكف أولئك الراحلون على قراءته والبحث فيه،وآخر ألفّوه وتركوه وراء ظهورهم، ومن هؤلاء العلماء الحسن بن محمد الصّغاني الذي ألف كتاب "مجمع البحرين"و"العباب الزاخر ودرر اللّباب الفاخر ولم يكمله[٣]،"وحين مات رثاه عز الدين بن الوزير فصور بكاءها عليه قائلاً[٤]:

بكاك كتابٌ لم تتمّ فصولَهُ ... ودون أمانيّ الرّجال صَوادفُ
كذا مَجْمَعُ البحرينِ فرّق شَمْلَهُ ... وغاضَ اكتئاباً موجُه المتقاذفُ

وصوّر سراج الدين الوراق ما أصاب كتب اللّغة بعد مرثيّه رضي الدين الشاطبي ، ومنها كتاب المحكم لابن سيدة ، "والصّحاح" للجوهري ، "والعين" للخليل بن أحمد، فقال: [٥].

وأحْكِمَ "مُحْكَمٌ" بلجامِ حُزْن ... لفقد الفَارِسِ البطل الكميّ
ولما أعتلّ قالوا أعتلّ أيضاً ... لشكواه "صحاحُ الجوهريّ"
وجازى كلَّ عينٍ قد بكتْهُ ... كتابُ العينِ بالدّمع الرّويّ

وصوّر الشعراء أدوات الكتابة مثل الأقلام والمحابر ، والأوراق وهي تندب مرثييهم وتبكيهم، كما شخصوا المراكز العلمية التي كانوا يدرّسون فيها ، وينشرون فيها العلم ، فصوّرها معطلة ودارسة بعدهم ، ويتجلى ذلك في قول الصفدي في رثاء جمال الدين بن غانم[٦] :

تبكي الطّروس عليك والأقلامُ ... وتَنوحُ فيك على الغصون حِمَامُ

---

(١) انظر ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٣٢،٣٨، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ١٩٨/١ . الكرمي، الكواكب الدرية ، ص ١٩٠ ، ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ، ٤١٢/٤ .

(٢) ابن نباته ، الديوان ، ص ٤٠٦.

(٣) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ، ص ٢٦٣

(٤) المصدر نفسه ، ٢٦٤ .

(٥) الصفدي، الوافي، ١٩١/٤، السيوطي، بغية الوعاة، ١٩٥/١.

(٦) الصفدي ، أعيان العصر ، ٦٩٨/٢ ، الوافي ، ٣٥٢/١٧ ، الكتبي ، فوات الوفيات ، ٢٠٧/٢ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ٥٥/٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول برهان الدين القيراطي في رثاء جمال الدين الأسنائي[١] :

وما شُقّت الأقلامُ إلاّ تأسّفاً ... لفقدانها بالرّغم خير أنامِلِ

وكم لبستْ ثوب الحِدادِ محابرٌ ... لِحَبْرٍ غدا في سُندس أيّ رافلِ

وقوله في رثاء تقيّ الدين السبكي[٢] :

ومدارسُ العلمْ التي قد أصْبَحَتْ ... وكأنّهنّ دوارسُ البنيانِ

من بعدِ ما قد كان في أفلاكِها ... شمساً يُشارُ لنحوِها ببنانِ

وألقى الشعراء الضوء على الفنون الأدبيّة والبلاغية ، فصوّروا ما أصابها بعد موت الأدباء الذين كانوا يحترفونها ، فالشعر غاضت بحوره ونضبت قرائح قائليه وأقفلت أبواب المعاني والبديع والفصاحة ، وتعطلّت الكتابة ودواوينها وتوقّفتْ الرسائل عن الصدور ، ويتجلى ذلك في شعر الكثيرين ، ومنهم سراج الدين الوراق إذ رثى ناصر الدين بن النقيب فقال[٣] :

شقّت جُيوبُ القوافي والقلوب معا ... واستشعر الماضيان الخوف والجَزَعا

وأبْحُرُ الشّعرِ غاضت عندما عَدِمَتْ ... منك الخليلَ ومجرى الشّعر قدَ نَبعا

ولا تواتي المعاني مَنْ يُمارسُها ... بعد الأميرِ وقد كانت به تَبَعا

وليسَ يُفْتَحُ بابٌ في البديعِ وقد ... أودى بعمدتِهِ دَهْرٌ وقد فُجِعا

ومنهم جمال الدين بن نباته إذ قال في رثاء شهاب الدين محمود الحلبي[٤] :

لم يَبْقَ بَعْدَك من تدعو بديهته ... لحجّ بيتٍ من الأشعار مقصودِ

مَنْ للدواوينِ يقضي بالتأمّل في ... مخرّجٍ من معانيها ومَرْدودِ

كنّا نعدّك فرداً في موازنها ... لقد رُزئنا بمَوْزونٍ ومَعْدودِ

مَنْ للرّسائل في لاماتِ أحْرُفها ... تغزو العداةَ بألفاظٍ صناديدِ ؟

موضوعات متفرقة

سجّل عدد من الشعراء تاريخ وفاة مرثييهم[٥] ، وذكروا المكان الذي ماتوا فيه ، ذكر أن بهاء الدين السّبكي توفي أثناء رحلته لأداء مناسك الحج والعمرة ، وزيارة قبر الرسول صلى الله

---

[١] القيراطي ، الديوان /، ص ٢٠ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٣٦٢/١ .

[٢] القيراطي، الديوان، ص ٥٩ ، السّبكي ، طبقات الشافعية ، ٤٠٥/٥ .

[٣] الصفدي ، الوافي ، ٥٣/١٢ .

[٤] ابن نباتة ، الديوان ص ١٥٦ ، وانظر ص ٢٣٢ .

[٥] انظر ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الله عليه وسلم[١] ، فرثاه برهان الدين القيراطي بقصيدة ذكر فيها ذلك كلّه ووصفه على شكل قصّة ، قال [٢]:

إلى مكّةٍ سارتْ ركائبُ قَصْدِهِ ... ليَظْفَر فيها بالعَظيمِ من الأجْرِ
وبالكعبةِ الغرّاءِ كان طَوافُهُ ... تلاوتُهُ مقرونةٌ فيه بالذِّكرِ
تعلّق أحياناً بسودِ سُتورها ... لينعمَ بالفردوسِ بالحلل الخُضْرِ
وزمزم كم قد فاز منها بشربةٍ ... تُقَرِّبُ من جنّاتِ عدنٍ ومن نهْرِ
وشَدّ رحالَ العيسِ من بعدُ قاصداً ... زيارةَ قبر المُصطَفَى جلّ من قَبْرِ
وسافر نحو التّربِ في السّفرِ الذي ... نواه ولم يَرجع إلينا مع السَّفرِ

وتوفي كمال الدين بن الزملكاني "بمدينة بلبيس ــ وهو قاصدٌ القاهرة،فإنه طلب... لولاية قضاء الشام[٣]، "فرثاه القاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري،وتحدّث عن مكان موته فقال[٤]:

الله أكبر أيّ موقف ساعةٍ ... في أرْضِ بلبيسٍ لحطّ رِحالِهِ
في جانب الطوّر المقدّس صَعْقَةٌ ... خَضَعَتْ لِموقِعِها رؤوس جبالِهِ
يا يوم بلبيسٍ بموت مُحَمّدٍ ... أعْدمْتَ هذا الدّهر خيرَ رجالِهِ

وتحدّث الشعراء عن القبر،وشكّل الحديث عنه جزءاً كبيراً من مراثيهم،وتناولوه من ثلاثة جوانب:

الجانب الأول،صوّروا فيه ما اكتسبه القبر من رفعة،وعلوّ شأن مذ صار مأوى لمرثييهم، وعبّروا عن ذلك عن طريق مناجاته ، والوصف المباشر له ، فالشاعر شهاب الدين محمود صوّر الأرض الوعرة التي توارى فيها مرثيّه كمال الدين بن العديم ، روضةً غنّاء تفاخر غيرها من الأماكن ، فقال[٥]:

ثوى المَجْدُ في حزْنٍ من الأرضِ فاغتدت ... تتيهُ على سَهْلِ الرُّبى روضةُ الحزْنِ

---

[١] الشامي ، العهد الثمين ، ٢٤٩/٣ ، ابن العراقي ، الذيل على العبر ، ٤٠٦/٢ .

[٢] القيراطي ، الديوان ، ص ٢٦ .

[٣] انظر ابن الجزري ، تاريخ ابن الجزري ، ٢٣٣/٢ ، المقريزي ، المقفى ، ٣١٨/٦ .

[٤] الصفدي ، أعيان العصر ، ١٥٢/٣ ، ولمزيد من الأمثلة انظر ابن الجزري ، تاريخ ابن الجزري ، ٢٣١/٢ ، الصفدي ، أعيان العصر ، ١٥٢/٣ ، ٦٣٣/٤ ، الوافي ٢١٦/٤ ، الكتبي ، فوات الوفيات ، ٨/٤ ، المقريزي ، المقفى ، ٣١٨/٦ .

[٥] اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٣١٩/١٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقابل الشاعر ذاته بين ظهر الأرض وبطنها الذي غدا موطناً للقاضي نجم الدين بن صصري فيصوّر ما حظي به البطن من رفعة ومجد ، فيقول[١] :

الدّهرُ أبْخَلُ حين جاد بمِثْلِهِ ... من أن يُديمَ به الوجودَ مُمَتّعا

فأعاد وجهَ الأرضِ فيهِ مجدباً ... كَلحاً وبطنَ الأرضِ منهُ مُمْرِعا

ويصور الصفدي قبر مرثيّة الشيخ جمال الدين بن غانم قصراً في عيون ناظريه ، فيقول في رثائه[٢] :

وكأنّ قبرَكَ للعيون إذا بدا ... قَصْرٌ عليه تَحيّةٌ وَسَلام

ويُرجع الشعراء تلك المهابة التي بدت على تلك القبور إلى غير سبب ، منها ما حوته من علوم، وفضائل ، وأخلاق حميدة ، ولذا تعجّبوا من مساحتها الصغيرة التي ضمّت بحاراً من العلوم ، ويتجلى ذلك قي قول برهان الدين القيراطي في رثاء تقيّ الدين السبكي[٣] :

قبرٌ عليه من العلوم مهابةٌ ... تبدو وأُنسُ تلاوةِ القرآنِ

وقول تقيّ الدين الدقوقي في رثاء ابن تيمية[٤] :

قِفْ إن مَرَرْتَ بقاسيون على ثرى ... فيه ضريحُ العالمِ المتفرّدِ

واعجبْ لقبرٍ ضمَّ بحراً زاخراً ... بالفضل يَقْذفُ بالعُلا والسؤددِ

أما الجانب الثاني ، فتحدث فيه الشعراء عن القبور من الداخل ، فصوروها قطعة من الجنة، فيها الحور والولدان ، وتعمرها الرحمة والمغفرة ، وهدفوا من ذلك إلى :

أولاً : وصف المصير الذي آل إليه مرثيوهم ، والحياة السعيدة التي عاشوها في قبورهم وبالتالي التأكيد على النعيم الذي ينتظرهم في الآخرة .

ثانياً : مقاومة فكرة الفناء ، فمرثيوهم لم يفنوا على الحقيقة ، وإنما بدأوا حياة جديدة في قبورهم.

واستمد الشعراء أفكارهم ومعانيهم وألفاظهم من القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة التي وصفت القبر ونعيمه ، ويتجلى ذلك في قول صلاح الدين الصفدي في رثاء برهان الدين الأغرّي بن لاجين [٥]:

فهْوَ في قبرِهِ مع الحورِ يلهو ... ببياض الطّلى وَوَرْدِ الخدودِ

ما تَملّتْ جفونُهُ بدورِ ... قبلها في براقعٍ وعقودِ

---

[١] الصفدي ، أعيان العصر ، ٣٣٢/١ .

[٢] المصدر نفسه ، ٦٩٨/٢ ، الوافي ، ٣٥٣/١٧ ، الكتبي ، فوات الوفيات،٢٠٨/٢ ، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ٥٥/٣.

[٣] القيراطي ، الديوان ، ص ٥٩ ، السبكي ، طبقات الشافعية ، ٤٠٥/٥ .

[٤] الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٢١٤ .

[٥] الصفدي ، أعيان العصر ، ١٣٧/١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول أحد الشعراء مصوراً قبر مرثيه النووي يفاخر الجنة وما فيها من نعيم[١] :

وطوبى لِقَبْرٍ ضَمّـــهُ فلقــد غــدا يباهي بـــه دار المقامـــةِ والبقــا

أما الجانب الثالث : فيتمثل بالدعوة للقبور بالسقيا ، ولساكنيها بالرحمة والمغفرة وحســـن المآل، وقد تردّدت هذه المعاني كثيراً في مراثي الشعراء ، وعبّروا عنها بطرق شتى فعلى ســبيل المثال تعدّدت الأسماء التي أطلقوها على السحب ، فهي "غيوث الرضى"، و"سحب الرضـــى"،و" صوب الحياة"،و"السّاريات"،و"الحياء"،وغير ذلك من الألفاظ الدالة على غزارتها، وما فيـــها مـــن خير ورحمة ، ومن الأمثلة على ذلك قول الصفدي في رثاء ابن تيمية[٢] :

فجادت الرحمـــــةُ أرْضــاً ثــوى فيــها وســقتْها غُيــوثُ الرّضـــــى

ومثله قول جمال الدين عبد الصمد الحنبلي في رثائه[٣] :

سُقيا لتلك الرّوح من سُحب الرّضـــا وتبــوّأتْ جَنّــاتِ عــدن مَســكَنا

وحين يدعو الشعراء للقبور بالسقيا ، يكشفون عن رغبتهم في بقائها خضـــراء يانعــة ، تحيط بها الزهور المختلفة الألوان ، المتضوعة بالروائح الزكية ، وهذا ما عبّر عنه جمال الديــن ابن نباته إذ قال في رثاء بدر الدين بن فضل الله العمري[٤] :

سقى ضريحكَ رضْوانٌ ولا بَرِحَتْ تتــهلُّ نافعــةً فــي تُرْبــكَ الدّيَــمُ

حتّى تتــوّر أرضٌ أنــت ســاكنها نوراً ونوراً ويزهى القــاعُ والأكَــمُ

وبرزت معاني الهجاء في هذا اللّون من الرثاء ، وانقسم الشعراء في التعبير عنها إلـــى قسمين:قسم نظموا أشعاراً في هجاء العلماء والأدباء الميتين ، وآخر تجلت معاني الهجاء عندهــم حين وجّهوا سهام النقد إلى حسّاد المرثيين وأعدائهم .

أما القسم الأول ، فكانت الأشعار التي نظمت فيه قليلة ، ومن العلماء والأدباء المــهجوين أحمد بن محمود بن صدقة المتوفى سنة ٧٦٧هـــ الذي مهر "في الأدب والتصّــوف ، فضُبطــت عليه ألفاظ موبقة ، فرفع أمره إلى الحكّام بحلب،فحكم القاضي المالكي صـــدر الديــن الدمــيري

---

[١] ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٣٦ .

[٢] الصفدي ، أعيان العصر ، ٢٥٢/١ .

[٣] الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٢٠٤ .

[٤] ابن نباته،الديوان،ص ٤٦١،وانظر ابن العطار،ترجمة الإمام النووي،ص ٤٧،ولمزيد من الأمثلة انظر:ابن العطار،ترجمة الإمام النووي،ص٣١ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٥ ، ٥٦ ،اليونيني، ذيل مرآة الزمان،٨٧/٣ ، ٣١٩، ٤٠٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٩ ، ابن نباته،الديوان ، ص ٤٥ ، ١٥٦ ، ٢٣٣ ، ٣٦٨ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٢٢ ،الصفدي أعيان العصر،١١٧/١ ، ١٣٨ ، ١٣٧/٢ ، ١٩٥/٣ ، ٥٣/٤ ، ٥٤ ، ٢٨٢ ، ١٩٠/٥ ، ٢٥٥، ٢٨٠ ، ٣٧٦ ، ٥٥٦،الوافي ، ١٤/٥ ، ٢٦٣/١٢ ، ٢٤٤/٨، ٣٢٠/١٩ ، ٣٢١، ٦١/٢٢ ،الكتبي،فوات الوفيات،٤٢٤/٢،عيون التواريخ،٧٦/٢١ ، ١٨٧ ، ٣٣٦،السبكي،طبقات الشافعية ، ٤٠٥/٥،ابن حبيب،تذكرة النبيه ، ١٩٨/١ ، ٩٦/٣ ، القيراطي ، الديوان ، ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسفك دمه فقتل[١] " فهجاه أحد الشعراء بمقطوعة صوّره فيها رجلٌ ضلال ، وألقى الضوء على مصيره الذي آل إليه ، إذ انتقل من يد القاضي المالكي إلى مالك خازن النار ، قال[٢] :

مضى مستبيحُ الزّنا والرِّبا إلى خازنِ المهلك الحالكِ
وفاز الدّميري بتَدْميره فمن مالكيٍّ إلى مالكِ

ومنهم أبو القاسم بن الحسين بن العود،وكان هذا شيعياً،وإماماً يُقتدى به في مذهبهم ويُرجع إلى قوله عندهم،وكان ينال من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلّم،توفي في قرية جزّين[٣] مقرّ الشيعة سنة ٦٧٩هـ[٤] ، فرثاه جمال الدين بن الحسام العاملي بقصيدة أوّلها[٥]:

عرّس بجزّين يا مُستَبْعدَ النَّجَفِ فَفَضْلُ مَنْ حَلّها يا صاحِ غير خفي

يقرن الشاعر مكان دفن ابن العود بالنجف حيث قبور أعلام الشيعة،ويدعو إلى زيارته وجعله من الأماكن المقدسة عندهم،إلاّ أن الشاعر جمال الدين بن يحيى الحمصي لم يَرُق له ذلك، فنظم قصيدة هجا فيها الشاعر وابن العود معاً،بيّن فيها أن ابن الحسام بلغ درجة الكفر حين قرن قبر ابن العود بالنجف،ثم قارن بين المكانين،فحط بلغة مقذعة،من قدر المكان الذي دفن فيه ابن العود،وأعلى من شأن النجف،وتعجّب من قرية جزّين أنها لم تنخسف بساكنيها،فقال[٦]:

أرى تجاوز حدّ الكفرِ والسَّخَفِ من قاسَ مقبرةَ ابنِ العودِ بالنّجفِ
ما راقبَ الله أن يُرمى بصاعِقَةٍ من السمّاواتِ أو يهوى بمنخَسفِ
واعْجَبْ لجزّين ما ساخَتْ بساكنها بجاهلٍ لعظيمِ الزّور مُقْترفِ
وقد تحيّرت فيما فاه من سَفَهٍ ومن ضلالٍ وإلحادٍ ومن سَرَفِ
ما أنتَ إلاّ كَمَنْ يقيسُ منطقةَ الـ ـبيتِ المحرّمِ ذي الأستار بالكنَفِ
ولا أقولُ كَمَنْ قاستْ جهالتُه الدرَّ الثمينَ بمكسور من الخَزَفِ
أو من يقيسُ الجبال الشامخاتِ بمنـ ـحَط الحطيمِ وعُرْف المِسك بالجيفِ
أو من يقيسُ النجومَ الزاهراتِ إذا سَمَتْ إلى أوْجِهَا والسّعدُ بالحرفِ
ولم أُوفّك ما استوجبتَ من قذعٍ ولَستُ أجمعُ سوءَ الكيلِ والحَشَفِ

---

[١] الطباخ ، أعلام النبلاء ، ٤٧/٥ .

[٢] المرجع نفسه ، ٤٨/٥ .

[٣] قرية من قرى نيسابور ، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، مادة "جزين" .

[٤] انظر اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٤٣٤/٣ـ٤٣٥ ، ابن العجمي ، كنوز الذهب ، ٣٦٣/١ـ٣٦٤ . الطباخ ، أعلام النبلاء ، ٤٧٩/٤ـ٤٨٠ .

[٥] المصادر نفسها على التوالي : ٤٣٥/٣ ، ٣٦٤/١ ، ٤٨٠/٤ .

[٦] المصادر نفسها على التوالي ، ٤٣٦/٣ـ٤٣٧ ـ ٣٦٤/١ـ٣٦٥ ، ٤٨٠/٤ـ٤٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما القسم الثاني ، فقد احتلّ جزءاً من مراثي العلماء ، كشف فيه الشعراء عن مزايا الحساد والأعداء الذين ما فتئوا ينصبون المكائد لمرثييهم ، ويحاولون الإيقاع بهم بشتى الوسائل والسبل ، وشمتوا بهم بعد موتهم .

وقد وقف الشعراء إلى جانب مرثييهم،فراحوا يدافعون عنهم،ويقارنون بينهم وبين حسادهم وأعدائهم،فأظهروا العلماء المرثيين في منزلة رفيعةً من العلم،والحلم،والتقوى والشجاعة، وعرّضوا بالآخرين،وهجوهم هجاءً مراً،وبرزت معانيهم تلك حين تحدّثوا عن المحن التي نزلت بمرثييهم .

ومن العلماء الذين تعرضوا لمحن كثيرة تقي الدين بن تيمية ، ذلك أنه أنفرد بآراء خاصة وفتاوي خالف بها جلّ علماء عصره ، وهاجم كثيراً من الفرق الإسلامية المختلفة في زمانه واعتقد فساد عقائدهم ، ولهذا ناصبوه العداء ، وسعوا به عند سلاطين الدولة المملوكية وأمرائها ، وافتروا عليه ، ونسبوا إليه ما لم يقله "ولم ينقله ، ولم يوجد له به خطّ ، ولا وجد في تصنيف ولا فتوى ، ولا سمع منه في مجلس[١] "، فسجن غير مرة "ولم ينتقل طول عمره من محنة إلاّ إلى محنة[٢] "، وما زال كذلك حتى وقعت المحنة الأخيرة ، فسجن على إثرها في قلعة دمشق ، ومُنِع من الكتابة، وصودرت كتبه وكراريسه ، وظلّ مسجوناً سنتين وثلاثة شهور وأياماً حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى سنة ٧٢٨هـ[٣]، فرثاه الشعراء،وتحدثوا عن محنه ، وهجوا أعداءه ، وممن رثوه شهاب الدين بن فضل العمري ، فقد نظم قصيدة طويلة ، صوّر فيها ما تعرّض له الشيخ من ظلم واضطهاد ، واستنكر على حسّاده سعيهم للإيقاع به ، وأنهم ارتضوا حبسه، مدلّلاً في كلّ ذلك على بغيهم،وجهلهم بقدره وعلمه،وكرّر عبارة "مثل ابن تيمية" غير مرة ليعبر عن استهجانه مما حلّ بالشيخ ، وليؤكد مكانته الرفيعة من جهة،وكِبْر أعدائه وصدوعهم عن الحق من جهة أخرى ، وليبيّن أن موته محبوساً دون أن ينتفع بعلمه خسارة عز نظيرها، ومنها قوله[٤] :

أمِثْلُهُ بينكم يُلفى بمضيعةٍ ... حتّى يُطيحَ له عَمْداً دمٌ هَدَرُ

يكونُ وهو أمانيٌّ لغيركُمُ ... تتوبه منكُمُ الأحداثُ والغيرُ

والله لو أنّه في غير أرْضِكُمُ ... لكان منكمْ على أبوابِهِ زُمَرُ

مِثْلُ ابن تيميةٍ يُنْسَى بِمَحْبَسِهِ ... حتّى يَموتَ ولم يُكْحَلْ به بَصَرُ

---

[١] البزار ، الأعلام العليّة ، ص ٦٦،٦٧ .

[٢] الكرمي ، الشهادة الزكية ، ص٢٨ .

[٣] انظر عن محنة : البزار الأعلام العليّة ، ص٦٨ ، الصفدي ، الوافي ، ٧/٢٠،٢٢—٢٣ . المقريزي ، المقفى ، ١/٤٦١ ، الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ١٨٣—١٨٤ .

[٤] المقريزي ، المقفى ، ١/٤٧٦ ، الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ١٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مرامه،والوصول إلى رتبته في العلم،وتنبأ لهم بمصير كلّه ندم وخسران ، وزجرهم حين سألهم عن سبب تعدّيهم على ذلك الشيخ ، وهو الذي ترك لهم مناصب الدنيا ، وآثر الزهد والتقشّف والرضى بالقليل ، يقول[١] :

عثا في عِرْضِهِ قومٌ سلاطٌ ... لَهُم من نَثْر جوهرِهِ التقاطُ
فكم حسدوه لمّا لم ينالوا ... مناقبهُ فقد مكروا وشاطوا
وكانوا عن طرائقه كُسالى ... ولكنْ في أذاه لَهُم نشاطُ
إمامٌ لا ولايةَ كان يرجو ... ولا وقفٌ عليه ولا رباطُ
ولا جاراكمُ في كسب مالٍ ... ولم يُعْهَد له بكم اختلاطُ
ففيمَ سجنتُموهُ وغظتموهُ ... أما لجزا أذّيتهِ اشتراطُ ؟

ويبدو أن ابن الوردي كان مطلعاً على حقيقة نفوسهم حين عبّر عن رفضه لموقفهم من ابن تيمية، وأعلن عن رغبته في فضحهم ، ولكنه عدل عن ذلك كونهم من أهل العلم ، ودعاهم إلى الاستمرار في إثارة الضغائن والعداء حتى يلاقوا يومهم الموعود ، وتكشف النفوس عن حقيقتها ، يقول[٢] :

وسِجْنُ الشّيخ لا يرضاهُ مثلي ... ففيهِ لِقَدْرِ مثلكم انحطاطُ
أما والله لولا كتمْ سرّي ... وخوفُ الشرّ لانحلّ الرّباط
وكنتُ أقولُ ما عندي ولكنْ ... بأهلِ العلمِ ما حَسُنَ اشتطاطُ
سيظهرُ قصدُكم يا حابسيهِ ... ونيّتكم إذا نُصبَ الصّراطُ
فها هو مات عندكمُ استرحتمْ ... فعاطوا ما أردتمْ أنْ تعاطوا
وحلّوا واعقدوا من غير ردٍّ ... عليكمْ وانطوى ذاك البساطُ[٣]

ورثى برهان الدين القيراطي العالم جمال الدين الأسنائي بقصيدة،قارن في بعض أبياتها بينه وبين خصومه،فصوره أفنى حياته في العلم والمثابرة حتى نال ما يستحق من رفعة وعلوّ شأن،وصورهم وقد قضوا حياتهم في جمع المال،والسعي في الوصول إلى رتبته ومكانته، ولكن هيهات لهم ذلك،فقد ابتعدت الشقة بينهم وبينه بُعْدَ الأرض عن السماء،وتجلى ذلك في قوله[٤]:

فقل لحسودٍ لا يسدّ مكانَهُ ... سيفضحُكَ التخجيلُ بين المسافلِ
بحقٍّ حَوى عبدُ الرحيمِ سيادةً ... وأعداؤُهُ كم حاولوها ببباطلِ

---

[١] ابن الوردي ، الديوان ، ٢٦٦—٢٦٧، تاريخ ابن الوردي ، ٢/٢٧٥—٢٧٦ ، الصفدي ، الوافي ، ٧/٣٢ أعيان العصر، ١/٢٥٠ ، المقريزي ، المقفى ، ١/٤٧٨—٤٧٩ ، الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ١٨٧—١٨٨.

[٢] المصادر نفسها على التوالي : ص ٢٦٧، ٢/٢٧٦ ، ٧/٣٣ ، ١/٢٥٠ ، ١/٤٧٩ ، ص ١٨٨ .

[٣] ولمزيد من الأمثلة انظر الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ١٩٧ ، ٢٠٤ .

[٤] القيراطي ، الديوان ، ص ٢١ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ١/٣٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تطاول قومٌ كـــي يحلّـوا مَحلّـــهُ فما ظَفِـــروا ممّـــا تمنّـــوا بطـــائلِ
أتمتدُّ نحو النجّم راحـــةُ قـــاصرٍ وأين الثّريـــا مـــن يـــدِ المتطـــاولِ
أيُشْبِهُ من ضيّـــعَ العُمْـــرَ كلّـــه على جمعِ مالٍ ما يَرى منه ســـائلِ

التّعزية

التعزّي جزء أساسي من بنية قصيدة الرثاء ، وهو قديم لجأ الشعراء إليه ليتســـلوا عـــن مصابهم، ويخففوا وطأته في نفوسهم ونفوس الآخرين، وقـــد كـــان العـــرب منـــذ الجاهليـــة ، "يتحاضّون على الصبر ، ويعرفون فضله ، ويعيّرون بالجزع أهله إيثاراً للحزم وتزيناً بـــالحلم، وطلباً للمروءة، وفراراً من الاستكانة إلى حسن العزاء، حتى إن كان الرجل منهم ليفقـــد حميمـــه فلا يعرف ذلك فيه[١]" .

انقسم شعراء هذا اللّون من الرثاء إلى اتجاهين في التعبير عن معاني العزاء:اتجاه عـــزّوا فيه أنفسهم والأمة جمعاء بمرثييهم، وآخر توجهوا فيه بالعزاء إلى ذوي المرثيين وأبنائهم.

كانت معانيهم منها ما هو تقليدي درج عليه الشعراء منذ الجاهلية ، ومنها ما هو مســـتمد من واقعهم ، كأن يتعزوا بأهل الفقيد وأبنائه،ومآثره،ومصنفاته،وتنوعت طرقهم في العزاء ومنـــها التأسي بموت الرسول محمد صلى الله عليه وسلّم،وأصحابه، وقد أمر الرسول صلـــى الله عليـــه وسلم المسلمين بذلك فقال: "تعزوا عن موتاكم بي[٢]" ، وتحدث المبرد عن شيوع هـــذه الوصيـــة بعده فقال :"وهذا كلام تلقاه عنه المؤمنون ، ثم أدوه إلى مَنْ بعدهـــم مِـــنْ إخوانـــهم المؤمنيـــن، فاحتذى هذا المثال يقيناً وإيماناً جماعة كلّهم سلكه فاهتدى، ووصفه فأحسن" [٣]، ومـــن الأمثلـــة على ذلك قول تقي الدين الدقوقي في رثاء ابن تيمية[٤] :

لكـــن لنـــا عـــن كـــلِّ خـــلٍّ ســـلوة بمصـــابِ ســـيدنا النبـــيِّ محمـــد

وقول أحد الشعراء في رثاء النووي[٥] :

إن كـــان يحيـــى قـــد حـــواه لَحْـــدُهُ فكذا الرّسولُ وبَعْلَ فاطمـــة الرّضـــي

---

[١] المبرد ، التعازي والمراثي ، ص ٤ .
[٢] المصدر نفسه ، ص ٨.
[٣] المصدر نفسه ص ٨.
[٤] الكرمي ، الكواكب الدرية ، ص ٢١٧ .
[٥] ابن العطار ، ترجمة الأمام النووي ، ص ٤٩ ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتعزى الشعراء عن موتاهم حين تحدثوا عن مشكلة الحياة والموت، فصوروه المصير المحتوم الذي يسعى إليه الخلق كلهم ، والمنهل الذي سيردونه جميعهم، لا حصن يقي منه ولا ملجأ ، ويتجلى ذلك في قول جمال الدين بن نباته في رثاء تقي الدين السّبكي [١]:

وَخَفِّفَ الحُزْنَ أنّا لاحقون بِمنْ ... مضى فأمضى شباة الحادث الأشبِ

إن لم يَسرْ نَحْوَنا سِرنا إليه على ... أيّامنا واللّيالي الذّهب والشّهبِ

وقول شهاب الدين محمود في رثاء شهاب الدين بن القلانسي[٢] :

لكنّه طالبٌ لا حِصْنَ منه فمن ... أرجاه في يَوْمه فاجاه في غدِهِ

ومنهلٌ مالحيٌ في الورى صَدَرٌ ... إلاّ عن الرّيّ في أثناء موردِهِ

فحقّ من كان هذا الموتُ غايتَهُ ... بدءُ العزاءِ به من يوم مولدِهِ

وصوره الشعراء عادلاً يساوي في حكمه بين بني البشر غنيّهم وفقيرهم، قويّهم وضعيفهم ومن ذلك ما عبر عنه جمال الدين الحمصي إذ قال في رثاء مبارك بن حامد المنعوت بالنقي الحداد[٣] :

ولو أنّه ممّا يردّ بقوّةٍ ... رَدَدْناه بالبيض الرّقاقِ البُواتكِ

ولكنّه الموتُ الذي فيه يستوي ... فقيرٌ ومسكينٌ بربِّ الممالكِ

وتحدّث الشعراء عن الأمم السابقة وجبابرتها ، وعن الرسل والأنبياء ، وعددوا بعض أسمائهم ، وتساءلوا عن مصيرهم ، وما فعل الموت بهم ، وتجلى ذلك في قول جمال الذين بن نباته في رثاء شهاب الدين محمود [٤]:

أين الملوكُ الأُلي كانت منازلهم ... تزاحمُ البحْرَ في عزٍّ وتشييدِ

لم يَحمهم سَرْدُ داودَ الذي ملكوا ... من المَنون ولا جندُ ابن داودِ

وقول أحد الشعراء في رثاء النووي [٥]:

أين المعمّرُ عمر سبْعَةِ أنْسُرٍ ... أين الخليلُ مكسّرُ الأصنامِ ؟

أين الكليمُ المستجابُ دعاؤه ... بالشام حين دعا على بلعامِ ؟

أين النبيُّ محمد الهادي إلى ... سبل الهدى وحلول دار مقامِ ؟

---

[١] ابن نباتة، الديوان ، ص ٤٣ ، السّبكي ، طبقات الشافعية ، د/٣٩٩ ــ ٤٠٠ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٢٨١/١ ، ابن إياس ، بدائع الزهور، ج١ق١/١٥٧.

[٢] الصفدي ، أعيان العصر ، ٥، ١٨٩ .

[٣] اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ١٥٠/٢ .

[٤] ابن نباتة ، الديوان ، ص ١٥٦ .

[٥] ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي ، ص ٤٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونظر الشعراء إلى المصير الذي انتهى إليه مرثيوهم، إذ أصبحوا تحت التراب من بعد جاه وسلطان، وعلم غزير، ولم يدفع عنهم ذلك الموت ، وجعلوا من موتهم دلالة على الزوال والفناء ، وموعظة لهم وتسلية لنفوسهم ، وتتجلى هذه المعاني في قول نجم الدين اللّبودي في رثاء شمس الدين الخسروشاهي [١]:

مصابُك شمسَ الدّينِ تسليةٌ لَنا وَمثليَ من أضحى بمثلك يُمتَحن

وقول ابن نباتةَ في رثاء القاضي تاج الدين بن الزيات[٢] :

ولم أنسَ مَسْرى نَعْشِهِ يوم جُمْعَةٍ تُجَمِّع هَمّاً كالخميس إذا سرى

وقد وعظَتْنا الحالُ منه كأنّه خطيبٌ رقى في صهوة النّعش منبرا

مواعظ من حيث السّكوتِ وإنّها لأبْلَغُ من نطق الفصيح إذا انبرى

وتعزى الشعراء عن مصابهم حين تحدثوا عن الدنيا ، ووصفوا متاعها الزائل ، وغدرها ببني الإنسان ، وقدموا لها صوراً متعددة ، فهي كالأفعى التي تخدع الإنسان بملمسها، لكنها لا تلبث أن تعضه بأنيابها[٣].والأمثلة على ذلك كثيرة ، نكتفي منها بما جاء في القصيدة التي نظمها شمس الدين الهواري الأندلسي في رثاء شهاب الدين أبي جعفر الأندلسي ، إذ تتميز هذه القصيدة بكثرة الحديث عن مشكلة الحياة والموت ، فالدنيا برأيه كالجيفة التي تتقاتل عليها الكلاب وسيفها مُسلّط على رقاب العباد ، تفنيهم واحداً تلو الآخر،يقول [٤]:

لعمرك ما الدنيا بدار إقَامَةٍ فللنّاس عنها رِحْلَةٌ وذَهابُ

ومن صحب الأيّام كرّتْ خُطُوبُها عليه وكرّات الخطوبِ غرابُ

وكيف خلاصُ المرءِ منها وخَلْفَهُ خيولُ الرّدى يجرين وهي عراب

تغرُّ الورى حتّى إذا أطمعتْهمُ فطالوا إلى نيل المُرادِ وطابوا

رَمَتْهمْ بأنواعِ الخُطوبِ فلم تكنْ لتسمعَ شكوى أو يخاف جوابُ

وما مَثَلُ الدّنيا وطلاّب مثلها سوى جيفٌ من حولهنّ كِلابُ

فتباً لها مذ جرّدتْ سيفَ غَدْرِها لِقَتْلِ الوَرى ما جَفّ منه ذبابُ

---

[١] ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ٦٠٣ .

[٢] ابن نباته ، الديوان ، ص ٢٢٤ .

[٣] انظر اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ، ٧٦/٤ ، الكتبي ، ، عيون التواريخ / ٢٦٥/٣٢١ .

[٤] ابن العجمي ، كنوز الذهب ، ٤٦٩/١ــ٤٧٠ ، الطباخ ، أعلام النبلاء ، ٧٦/٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصل الشاعر إلى أن الحياة لمع سراب ، ويدعو إلى أخذ العبرة ممن أفنتهم هذه الدنيا وكأنهم ذباب لا قيمة لهم ، ويعطي صورة جميلة حين صور الناس في حياتهم بحبات الماء الذي يعلو على السطح ثم ينطفئ ويتلاشى يقول معبّراً عن ذلك[١] :

فكم قَتَلَتْ من ذي جلال ولم تقلْ كأنّ نفوس العالمين ذبابُ
لقد راع قلبي من تقلّب دَهْرِهِ أمورٌ قَضَتْ أنّ الحياةَ سرابُ
أرى النّاسَ تمضي واحداً بعد واحدٍ ولم أرهم بعد التّرحّل آبوا
هُمْ كحبابِ الماءِ يعلو فينطفئ ولا طمعٌ في أن يدومَ حُبابُ

وتعزّى الشعراء عن موتاهم حين وصفوهم يتقلّبون في نعيم الجنّة،ويفوزون بمتاعها، وقد أكثروا من الحديث عن هذا الجانب، فصوروا سرعة انتقالهم إلى الجنة،واستقبال الملائكة، والحور والولدان،والجنان لهم واستبشارها بهم،واستمدوا معانيهم وصورهم وألفاظهم من القرآن الكريم والحديث الشريف،وعبّروا عن الجنة بألفاظ "الفردوس"، و"عليين"و"دار المقام"، ومن الأمثلة على ذلك قول صلاح الدين الصفدي في رثاء محمد بن أحمد بن سيّد الناس[٢]:

وبات بالحورِ والولدان مُشْتَغِلاً إذْ أقْبَلَتْ تتهادى في تلقّيهِ
حتّى غدا في جنان الخُلْدِ مُبْتَهجاً والقَلْبُ بالحزنِ يفنى في تلظّيه

وقوله في رثاء أثير الدين أبي حيّان[٣] :

ما باتَ في أبيض أكفانهِ إلاّ وأضْحى سُنْدساً أحضرا
تُصافح الحورُ له راحةً كم تَعِبَتْ في كلّ ما سَطّرا

ومن الأمور التي كانت عوناً للشعراء على الصبر والسلوان ما تركه مرثيوهم من علوم ومصنفات ، وفضائل ضمنت لهم الخلود ، وحسن الثناء ، وكذلك ما تركوا من أولاد ورثوا عنهم العلم والمناقب الحميدة ، وكأنهم يستلهمون معانيهم من قوله صلى الله عليه وسلم : "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة ، إلا من صدقة جارية،أو علم ينتفع به،أو ولد صالح يدعو له[٤] " وتتجلى هذه المعاني في قول ابن الوردي في رثاء كمال الدين بن العجمي[٥] :

إنْ كان قد مات الكمالُ فذكرُهُ باقٍ ونَشْرُ علومه يتضوّعا

---

[١] ابن العجمي ، كنوز الذهب ، ١/٤٧٠ ، الطباخ ، أعلام النبلاء ، ٥/٧٦ .

[٢] الصفدي ، أعيان العصر ، ٥/٢١٧ .

[٣] المصدر نفسه ، ٥/٣٣٠، الوافي ، ٥/٢٨٣ ، السيوطي ، بغية الوعاة ، ١/٢٨٥ ، حسن المحاضرة ، ١/٤٣٩ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ق١/٥٠٢ .

[٤] مسلم ، صحيح مسلم ، ص ٧٩١ .

[٥] ابن الوردي ، الديوان ، ٤٢٩ / ابن حجر ، الدرر الكامنة، ٣/٢٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول شمس الدين الهواري في رثاء شهاب الدين أبي جعفر [١]:

أبا جَعْفرٍ ما ماتَ من عــاشَ ذِكْــرُهُ وَذِكْــرُكَ بــاقٍ لــم يَنَلْــهُ ذهــابُ

ورثى جمال الدين بن نباتة الإمام تقيّ الدين السبكي ، فتعزى عن موته حين صوره وقد ظلّ ماثلاً في شخص ابنه،وأنه لم يغب منه سوى جسده،فقال [٢]:

ما غاب عَنّا سِــوى شــخصٍ لوالــدِهِ وَعِلْمُه والتّقى والجــودُ لــم يَغِــبِ

ومثله قول شهاب الدين محمود إذ رثى جلال الدين بن القلانسي،وتسلّى عن موته ببقــاء أخيه وابنه[٣]:

ولو لَم أُســلّ القَلْــبَ عَنــه برؤيتــي أخاه لأودى بي بكــائي وتســهيدي

ولكنْ لــي فــي أُنْسِــهِ بعــد وَحْشَــةٍ لها حرقٌ فــي مــهجتي أيّ تــبريد

ولي فــي ابنــه ظــنٌّ جميــلٌ وأنّــه سيخلفهُ في الزّهد والنّســك والجــودِ

وعزّى الشعراء ذوي المرثيين ، وحضوهم على الصبر والتماسك واحتساب موتاهم عند الله سبحانه وتعالى كي ينالوا بذلك أجره وثوابه الذي أعده للصابرين ويتجلى ذلك في شعر غير شاعر ، ومنهم شهاب اليدن محمود الحلبي،إذ عزّى شرف الدين بن فضل الله العمري بوفاة أخيه محيي الدين [٤]:

عزاءك محيي الدين في الذّاهــب الــذي قضى إذ قضى فرضَ المناقب والنّفــلا

فمثْلُكَ مــن يلقــى الخُطــوبَ بكــاهلٍ يُقلُّ الذي تعيــا الجبــالُ لــه حَمْــلا

وفي الصّبر أجرٌ أنــتَ تعــرف فَضْلَــهُ وآثاره الحُسْنى فــلا تــدع الفَضْــلا

وســلّم لأمــر الله وأرضَ بِحُكْمِــهِ تَحُزْ مِنْه فضلاً ما بَرِحْتَ لــه أهْــلا

وعزّوا ذوي المرثيين حين بيّنوا لهم أنهم ليسوا وحدهم في المصيبــة ، ولكنــها عمــت الناس جميعهم ، ويتجلى ذلك في قول الصفدي الذي عزّى به بهاء الدين السّبكي بموت والده تقيّ الدين[٥] :

فاصبر أبا حامِدٍ فالنــاسُ قــد فُجِعــوا فيمن مضى لم تُخَصّص أنــت دونــهُمُ

تشارَكَ الناسُ في هــذا العــزاءِ كمــا نُعمــى أياديــه فيــها النــاسُ تقتَسِــمُ

---

[١] ابن العجمي ، كنوز الذهب ، ٤٧٢/١ ، الطباخ أعلام النبلاء، ٥ /٧٨ .

[٢] ابن نباتة ، الديوان ، ص ٤٣ ، السّبكي ، طبقات الشافعية ، ٣٩٩/٥ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ٢٨١/١، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ق٥٥٧/١ .

[٣] الصفدي،أعيان العصر ، ١١٧ .

[٤] الصفدي، أعيان العصر، ١٩٥/٣، الوافي ، ٣٢٠/١٩ ، الكتبي ، فوات الوفيات ، ٤٢٤/٢ .

[٥] الصفدي ،أعيان العصر ، ٤٥٢/٣ ، السّبكي ، طبقات الشافعية ، ٤٠٣/٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

رثـــــاء المــرأة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يلاحظ المستقرئ للمصادر التي تحدثت عن أدب العصر المملوكي الأول، ودواوين شعرائه المطبوعة منها والمخطوطة قلة الأشعار التي نظمت في رثاء المرأة، إذا ما قورنت بتلك التي نظمت في ألوان الرثاء الأخرى، كما أن المراثي التي عثر عليها تتسم بالنفس الشعري القصير، إذ لا تعدو كونها مقطوعات لا تتجاوز البيتين أو الثلاثة أو الأربعة أبيات، أما القصائد، فليست كثيرة وطويلة، ويتضمن بعضها موضوعات أخرى طغت على شخصية المرأة المرثية، مما قد يخرجها من موضوع رثائها.(١)

ولعل قلة تلك المراثي تعود لأسباب منها:

أولا: صعوبة رثاء المرأة، وقد تحدث عن ذلك ابن رشيق فقال: " ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلاً أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصفات"(٢), وقد عانى من تلك الصعوبة جمال الدين بن نباتة حين رثى والدة ناصر الدين بن عبد الظاهر، فقال يخاطبها:(٣)

أذاتَ الحِجى إنّ الحِجَابَ لَيَمْنَعُ عن اللّفظِ حتّى في رثائِك يُسْمَعُ

فهي إمرأة ذات صون وعفاف يجعل القول في رثائها صعباً، ولعل هذه الصعوبة أكثر ما تواجه الشاعر في رثاء النساء اللواتي لا تربطهن به علاقة خاصة، أما محارمه فالأمر في رثائهن أكثر سهولة، فهناك معان كثيرة يمكنه التعبير عنها مثل حديثه عن علاقته بها، وحزنه عليها، ووصف محاسنها، وحياته بعدها، وغير ذلك.

ثانياً: إن قلة تلك المراثي يمكن أن تفسرها النظرة العامة إلى المرأة في العصر المملوكي، فعلى الرغم من أن المصادر والدراسات التي تناولت الحياة الاجتماعية في ذلك العصر، تشير إلى أن المرأة تمتعت " بقسط وافر من الاحترام سواء في ذلك طبقة المماليك أم سائر طبقات الشعب"(٤) ، وأن دورها كان بارزاً في مجالات الحياة المختلفة السياسية والدينية والاجتماعية والثقافية إلا أنها " ظلت محل الازدراء والاستخفاف"(٥) من قِبَل مجتمع الرجال، إذ نظروا إليها عل أنها أقل مكانة ورتبة منهم، وأنها مجرد أداة للمتعة، وأن " دورها لا ينبغي أن يتعدى دور

---

(١) سيأتي الحديث عن ذلك في الصفحات القادمة.

(٢) ابن رشيق، العمدة، ١/١٥٤.

(٣) ابن نباتة، الديوان، ص٣٠٦.

(٤) انظر في ذلك: بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص٨٦،٨٧، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/١٨، ٢١، ٢٠٩، ٢٤٥،٢٦٣، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٩٥، ٣٠١، ٣١٥، ابن بطوطة، الرحلة، ١/٨٣،١١٣-١١٤، اليوسفي، نزهة الناظر، ١٥٨، ٢٦١، ٢٦٢، ٤٠٦، السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ٦٩،٧٢،١٤٠، ابن الأخوة، معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٣٢، المقريزي، السلوك، ١/٤٩٣،٤٩٥،٥٢٥، ٢/١٨،٢١، ٢٨٣، ٣٦٢،٤٠٣، ٤١٠، ٥٢١، ٣، ٤٠٨، ١٢٨،١٩٢،٧٥، الخطط ٢ ١١٦-١٢٣. ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري ١/٥٩، ومن الدراسات الحديثة: د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص١٢٨ وما بعدها.

د. عبد الجليل عبد المهدي، المرأة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع٣٨، سنة ١٩٩٠،ص٣٥-٧٥. خلود حرادة، المرأة في أدب الدولة المملوكية الأول،رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٣م.

(٥) د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص١٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ربة المنزل القائمة على تدبير شؤون المأكل وتربية الصغار"[١]، وعبر عن تلك النظرة أدب ذلك العصر، وكتب مؤرخيه، والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد بينت أن بعض الناس كان إذا بشر بالأنثى أسود وجهه، وامتلأ غيظاً، روي أن زوجة الأشرف خليل بن قلاوون كانت حاملاً، وكان زوجها يأمل أن يأتيه ذكر فاستعد للاحتفال بقدومه، وأسرف في ذلك، وبالغ في الإسراف، ولكن زوجته وضعت أنثى " فلما بلغه الخبر خامره الغيظ العظيم"[٢].

وقد أحسّ بالشعور ذاته سراج الدين الوراق حين رزق ببنت فقال معبراً عن ذلك:[٣]

رُزِقْتُ بنتاً لَيْتَها لم تَكُنْ ... في ليلةٍ كالدّهر قضّيتُها

فقيل: ما سمّيتها قلتُ لَوْ ... مُكِنْتُ منها كُنْتُ سَمّيتُها

وعدّ بعض الناس المرأة ضعيفة الرأي لا قدرة لها على إتخاذ القرارات الحاسمة، ولذا فالغالب أنها كانت تجبر على الزواج، إذ لم يكن لها رأي في اختيار شريك حياتها، فقد ظل الرأي الأول والأخير لوالدها وربما شاركته في ذلك أمها،[٤] ووقف بعضهم موقف الرفض من تعليم المرأة، فقد بلغ الأمر بابن بسام أن عد تعليمها شراً، للناس فقال معبّرا عن ذلك "ولا يعلّم الخطّ لامرأة ولا جارية لأن في ذلك مما يزيد المرأة شراً، وقد قيل إن المرأة التي تتعلم الخط كمثل الحية تسقى سماً"،[٥] وبلغ الأمر بهم أنهم نظروا إليها على أنها رمز للغدر والخيانة وقلة الوفاء، وكفران العشير، وهذا ما عبر عنه الشاعر برهان الدين القيراطي في قوله:[٦]

فديتَك لا تَركِنْ لنسوةِ عَصْرنا ... فَبَرْقُ الوَفا منهنّ ياصاحِ خلّبُ

وإن صدْنَ مولانا فهنّ حبائلٌ ... وقد يفلت الطيرُ المصيدُ فيهربُ

وعيشك لا ترضى النّساءُ معيشةً ... ولو أنّها من جنّة الخُلْدِ تُجْلَبُ

وما زلنَ يكْفُرن العشيرَ سجيّةً ... وينكرن خيراً فيه سَعْيٌ ومدأبُ

وأخذ العامة على بعض القضاة في ذلك العصر أنه إذا تحاكم إليه رجل وامرأته نصر المرأة مما جعلهم يثورون على القاضي ويضربونه بالنعال وينهبون بيتهَ.[٧] ويتحدث السبكي في كتابه "معيد النعم" عن جوانب من تلك النظرة السلبية ،يقول: " وكثير من العرب لا يتزوجون المرأة بعقد شرعي، وإنما يأخذونها باليد، وربما كانت في عصمة واحد فنزل عليها أمير غيره، واستأذن أباها وأخذها من زوجها ..... ومن قبائحهم أنهم لا يورثون البنات ولا يمنعون الزنى

---

[١] د. فوزي أمين، أدب العصر المملوكي الأول،ص٢٩٦.

[٢] بيرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص١٣٤، المقريزي، السلوك، ٣/٣٥٣-٣٥٤.

[٣] الصفدي، فض الختام، ص٢١٤، ولمزيد من الأمثلة انظر فوزي أمين، أدب العصر المملوكي الأول، وخلود حرادة، المرأة في أدب الدولة المملوكية الأول، ص٣٣ وما بعدها، ص٢٩٨ وما بعدها.

[٤] انظر السخاوي، الذر المنسوك، ص٣٩١، المقريزي، إغاثة الأمة، ص٦، د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ١١٩-١٢٠.

[٥] ابن بسام، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٦٢.

[٦] القيراطي، الديوان،ص١١١.

[٧] انظر ابن حجر، الدرر الكامنة، ٢/٤٢،د. سعيد عاشور،المجتمع المصري، ص١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الجواري، بل جواريهم يتظاهرن بالزنا مع عبيدهم"،[١] ويؤكد تلك النظرة ابن بطوطة، إذ بين بعد أن زار مدينة عيذاب ووقف عن كثب على موقف أهلها من المرأة أنهم لا يورثونها.[٢] وكثيراً ما تعرضت النساء في ذلك العصر للامتهان وهتك الاستار، من قبل أمراء المماليك، فقد كانوا يأخذون من حرم الناس دون أن يجرؤ أحد من العامة على ردهم،[٣]، يذكر اليوسفي أن الأمير أيْدَكين الأزْكُشي والي القاهرة زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون كان ظالما يظلم الناس، ويهتك المساتير،[٤] وأقدم بعضهم على التنكيل بهن وربطهن بالحبال والزناجير،[٥] وربما أجبرن على الإقامة الجبرية في بيوتهن، فقد جاء في حوادث ٦٥٣هـ أن الملك المعز أيبك أمر " ألا تخرج امرأة من بيتها، ولا يمشي رجل بلا سراويل، فقال أبو الحسين الجزارفي ذلك[٦]

حَنَا المَلِكُ المُعزُّ على الرَّعايا ... وألْزَمَهُمْ قوانينَ المُروّهْ
وَصَان حَريمَهمُ من كلِّ عارٍ ... وألْبَسَهُمْ سراويلَ الفُتُوّهْ

وتجلت جوانب من تلك النظرة السلبية إلى المرأة في الأشعار التي نظمت في رثائها، فعلى الرغم من أن الشعراء كانوا يهدفون إلى الإشادة بها، ورفع منزلتها في تلك المراثي إلا أنهم لم يستطيعوا التخلص من إسار النظرة العامة، فعكسوا أفكاراً منها في مراثيهم، ومنها ما جاء في قول زين الدين بن الوردي في رثاء الشيخة المسندة أم محمد أسماء بنت محمد بن صصري المتوفية سنة ٧٣٤هـ[٧] :

كذلك فلتكن أختُ ابن صَصْري ... تفوقُ على النّسا صبياً وشيبا
طرازُ القومِ أُنثى مثل هذي ... وما التّأنيثُ لاسمِ الشّمسِ عيبا

يضمن الشاعر شطر بيت للمتنبي من قصيدته المشهورة التي رثى بها أخت سيف الدولة وهو" وما التأنيث لاسم الشمس عيبا"،[٨] فيكشف عن نظرة عامة في مجتمعه، إذ كانوا يعيبون على الشمس أنها أنثى، ويؤكد ذلك أن غير شاعر ضمنوا الشطر ذاته في هذا اللون من الرثاء.[٩]

ويعبر ابن الوردي عن ملامح من تلك النظرة حين يرثي ابنته، ويبكيها بكاء مراً، فيحاول بعض أصحابه أن يخفف عنه، ويبين له أنها لا تستحق كل ذلك البكاء والتوجع لأنها عورة

---

[١] السبكي، معيد النعم،ص ٥٥، وانظر ابن طولون، نقد الطالب لِمَ زغل المناصب، ص٨٣.

[٢] انظر ابن بطوطة، الرحلة، ٣٩/١.

[٣] انظر السبكي، معيد النعم، ص٥٢، المقريزي، السلوك، ٢٨/٢،٣، ٢٤٨، ابن طولون، نقد الطالب، ص٨٣.

[٤] انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٣١.

[٥] انظر ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٣٢٤/٢.

[٦] المقريزي، السلوك، ٤٨٧/١.

[٧] ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي،٢٩٤/٢،الديوان، ص٤٨٢.

[٨] وبيت المتنبي: وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ... ولا التذكير فخر للهلال البرقوقي، ديوان المتنبي، ١٤٩/٣.

[٩] انظر ابن الوردي، الديوان ص٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سترها التراب، لكن ابن الوردي يرفض ما قاله صديقه، ويرد عليه بقوة إذ بين له مكانتها من نفسه فهي جزء لا يتجزأ من كيانه وتستأهل ما نثره عليها من دموع، يقول: [١]

أثّر الحُزْنُ بقَلْبي أثراً ... يوم غيّبتُ الثريّا في الثّرى
إنْ تألّمتُ فقلبي موجَعٌ ... أو تَصَبّرتُ فمثلي صَبَرا
دُرّةٌ يا طالما حَجّبتُها ... وبرغمي نبذوها بالعَرا
عنّف العاذلُ في حزني ومِنْ ... حقّه تمهيدُ عذري لو دَرَى
قال: هذي عورةٌ قَد سُترَتْ ... قُلْتُ: لا بل ذاك بعضي قُبرا
فلذةُ الكبْدِ التي لمّا نَأتْ ... نثرتُ مَنْظومَ دمعي دُرَرا
كُنْتُ أبكي من تشكّيها فمذْ ... بَعُدَتْ صار بكائي أكثرا
فَجَرَى من دَمْع عيني ما كَفَى ... وكَفى من رَوْعِ بيني ما جَرى

ويعزي الشاعر جمال الدين بن نباتة بامرأة، فيقول:[٢]

تفدي كِرامَ الحِمى مِنْكُم كرائِمهُ ... يا آل بيت العُلا والفَضْلِ والحَسَبِ
أمَا وقد بقيتْ عليا سمائكمو ... فما يضرّ زوالُ السّبعة الشّهبِ

يمدح الشاعر أهل الفقيدة فيبين لهم أن موت امرأتهم ليس خسارة كبيرة، فذلك لا يضيرهم، " طالما بقي سادة البيت ورجاله، فكرائم النساء فداء لكرائم الرجال على حدّ قوله"[٣].

وتتجلى المعاني السابقة في قول الشاعر نفسه يعزي بامرأة، ويصورها تأتي بالدرجة الثانية بعد الرجال:[٤]

يَفْدي كِرامَ الحِمى مِنْكُم كرائِمُهُ ... وَيَعْبَقُ الرّوضُ إن ولّتْ كمائمُهُ
يا آل تغلبَ لا يَغلِبْ تصبّرَكُمْ ... صَرْفُ الزّمانِ ولا تُرهبْ عَظائمُهُ
ليس النّفائسُ ممّا تأسفون بها ... لا التثبتُ منقوصٌ عزائمُهُ

فالمكان لا يخلو بموت المرأة ما دام الرجل يملؤه، كما أن الروض لا يضيره سقوط إحدى زهراته.

وهكذا تتجلي الصورة عن موقف طائفة من الناس من المرأة في العصر المملوكي الأول، وهو موقف يمتد في جذوره إلى العصر الجاهلي، تلك الجذور والأفكار التي توارثها الناس حتى وصلوا بها إلى ذلك العصر، ولم تستطع مبادئ الإسلام التي جاءت تضمن العدل والمساواة بين الجنسين أن تغيرها.

---

[١] ابن الوردي، الديوان،ص ٢٠٣-٢٠٤.

[٢] ابن نباتة، الديوان، ص٤٨.

[٣] د. فوزي أمين، أدب العصر المملوكي الأول،ص ٢٩٧.

[٤] ابن نباتة، الديوان، ص٤٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرغم من ذلك فإن الأشعار التي قيلت في رثاء المرأة تكشف أيضا عن النظرة الإيجابية لها في ذلك العصر.

أما عن الأشعار التي وصلت إلينا في رثاء المرأة فهي قسمان:

قسم نظمه الشعراء في رثاء محارمهم، وذوات العلاقة الخاصة بهم من النساء، مثل: الزوجة والأم والبنت والجارية، ولم يعثر على مراثٍ في الأخت والعمة والخالة.

وقسم نظموه يعزون فيه أصدقاءهم أو من تربطهم بهم علاقة ود ومحبة بإحدى نسائهم كأن يواسونهم بموت أمهاتهم أو زوجاتهم أو بناتهم أو أخواتهم، وقد حظيت أم الصديق بنصيب الأسد في هذا القسم.

وكان جمال الدين بن نباتة، وابن الوردي، وبرهان الدين القيراطي أكثر الشعراء قولا في هذا الاتجاه من الرثاء.

وتعددت المضامين التي قدمها الشعراء في مراثي المرأة، فقد صوروا فيها مشاعرهم الحزينة، وأشادوا بمآثرهن وصفاتهن، ومدحوا أهاليهن، وبثوا فيها نفثات من الحكمة والموعظة، والمعاني الفلسفية حين تناولوا مشكلتي الحياة والموت.

وبرزت العاطفة الصادقة بصورة جلية في الأشعار التي نظمها الشعراء في رثاء محارمهم، وذوات العلاقة الخاصة بهم. أما في الأشعار التي قالوها في رثاء النساء اللواتي لا تربطهم بهن تلك العلاقة، فقد ظهرت عاطفتهم فيها بصورة باهتة وباردة، وربما اختفت منها تماماً، ويفسر ذلك أنهم لم يقصدوا فيها بث أشجانهم ولوعتهم،وإنما قصدوا تأدية واجب عليهم تجاه صديق أو أحد أرباب الدولة. وقد دفعهم ذلك الشعور بواجب الوفاء، وتقديم فروض العزاء أن يعتذروا في أشعارهم عن تقصيرهم، وعن عدم تمكنهم من المشاركة في مراسيم الدفن والجنازة، وهذا ما يوضحه قول محمد بن سليمان الجعبري في تعزيته علم الدين البرزالي بوفاة ابنته، إذ عبر فيه عن حرجة وخجله واعتذر عن عدم تمكنه من أداء الواجب بمرض ألم به:[1]

أنَا خَجِلٌ يا مالكي من تخلّفي ... عن السّعي مع مَنْ راحَ معها إلى القَبْرِ

ولكنّني في شدّةٍ بي مَضرّةٌ ... بها قَدْ حُرِمْتُ النومَ من وَجَع الظّهْرِ

ولي هكذا من مُدّةٍ في تألّم ... وفي وَجَعٍ بي قَدْ عَدِمْتُ به صَبْري

وإنّي مع التقصير بي حقيقة ... بهذا الذي قد صَارَ بي واضح العُذْرِ

وهذا الواجب هو الذي دعا جمال الدين بن نباتة إلى رثاء والدة الكاتب ناصر الدين شافع ابن عبد الظاهر، إذ كان لذلك الكاتب أياد بيضاء على الشاعر، فقد كان يكرم جانبه، ويجود

---

[1] ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٨٤١/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عليه، ولذا سعى ابن نباتة إلى مواساته، والتخفيف عنه، فحزن لحزنه، وشاركه في البكاء، ولكن دموعه لم تكن تعبر عن تعاسة حقيقية، وإنما هي دموع الوفاء والواجب، يقول:(١)

ولكنّ تطويقي لُهيّ ناصريّةً تَحُثُّ على أنّي أنوحُ وأسْجَعُ
ولَمْ لا وقَدْ أبْصَرتُهُ مُتحرّقاً بفرقةِ حبٍّ راحلٍ لَيْس يَرْجِعُ
أيُسْرعُ لي بالمالِ جوداً ولا أرى بماء جفوني جائداً أتسرّعُ

وفي الأعم الأغلب لا تكون دموع الشعراء سخية، وأحزانهم صادقة، وهم يرثون نساءً لا مكانة لهن في حياتهم ونفوسهم، ولا صلة تربطهم بهن سوى أنهن نساء أصدقاء، وقد أومأ ابن رشيق إلى ذلك حين بين أن الطريقة الدارجة في رثاء المحارم والقريبات أن يعبر الشعراء عن جزعهم، وشجونهم وتباريحهم بحرارة وصدق، وعدها " الغاية التي يجري حذاق الشعراء إليها.. ما لم تكن المرثية من نساء الملوك، وبنات الأشراف، وغير ذوات المحارم، فإنه يتجافى عن هذه الطريقة إلى أرفع منها"(٢)، فهو يميز بين طريقتين في رثاء المرأة:

الطريقة التي ينهجها الشاعر في رثاء محارمه وقريباته، والطريقة التي يسلكها حين يعزي غيره بنسائهم، وفيها يجدر به أن يتجافى عن الحزن والبكاء، ويستعيض عنه بالمعاني الدالة على جلالة قدرهن، وشرف نسبهن، ومنزلتهن الرفيعة في قومهن، وهذا معنى قوله: "فإنه يتجافى عن هذه الطريقة إلى أرفع منها"، ويؤكد ذلك الأمثلة التي استشهد بها على المعاني السابقة.(٣)

وتلك الطرق هي التي جرى إليها الشعراء في هذا اللون من المراثي، لكن هذا لا يعني أنهم لم يصرحوا بأحاسيسهم وآلامهم على نساء الأصدقاء، بل فعلوا ذلك، إلا أن مشاعرهم جاءت مفتعلة وزائفة، إذ لا حرارة فيها تثير نفوس المتلقين وتجعلها تتوجع على حالهم، وترثي لها، فالشاعر صلاح الدين الصفدي يعزي أثير الدين أبا حيان بوفاة ابنته نضار فيتصنع، ويأتي بالجناس والطباق الأمر الذي أخفى صدق مشاعره، وحدّ من انفعالاته، يقول:(٤)

بَكيْنَا باللّجين على نُضارٍ فَسَيْلُ الدّمع في الخدّين جارِ
فياللّهِ جاريةً تولّتْ فنَبكيها بأدْمُعِنَا الجواري

ويكشف جمال الدين بن نباتة عن حزنه ودموعه في قوله يعزّي بطفلة:(٥)

لَقَدْ وَضَع الأسى حُزناً عَلَيْها وَقَدْ طَلَعتْ شجونٌ من ثنايا

---

(١) ابن نباتة، الديوان، ص٣٠٦.
(٢) ابن رشيق، العمدة، ١٥٦/٢.
(٣) انظر ابن رشيق، العمدة، ١٥٦/٢.
(٤) الصفدي، الوافي، ١٢٤/٢٧.
(٥) ابن نباتة، الديوان، ص٥٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعزي الإمام علي بن عبد الكافي السبكي صديقة الإمام تقي الدين السبكي بوفاة والدته، فيدعوه إلى التجلد والتماسك في مصابه، ويعبر الشاعر عن حزنه وتألمه لوفاة تلك المرأة، ويكشف عن أثر ذلك فيّ جسده وحياته فيقول:[١]

تَسلّ تقيّ الدين عَنْ فَقْدِ مَنْ أودى وأحْرَقَ لي قلباً وشيّب لي فَوْدَا
لقد بان عنّا مُذْ ترحّلَ شَخْصُها سُرورٌ وآلى لا يواصِلُها عَوْدا

وصور الشعراء مشاعر أصدقائهم الحزينة على من مات من نسائهم، وبينوا أن معاناتهم لم تقتصر عليهم، ولكنها تجاوزتهم إلى الناس جميعاً، ويوضح ذلك قول جمال الدين بن نباتة يعزي بامرأة:[٢]

أجلّ ذِكْرك عَنْ سَعْدٍ وأعْلَمُ ما تَلْقَى العُلا بك من هَمّ ومِنْ حَرَبِ

وتتجلى المعاني السابقة في القصيدة التي نظمها الشاعر ذاته وعزى بها الكاتب ناصر الدين بن عبد الظاهر بوفاة والدته، إذ عبر فيها عن حزن ذلك الكاتب، وقارن بين حالته وحال أمه، فهو يكتوي بنيران الحزن والأسى، أما هي، فتنعم في جنان الخلد، يقول:[٣]

يعزّ عليها نار حُزْنٍ تَمَسّهُ وتلك بجَنّاتِ العُلا تتمتّعُ
ولو بلَغَتْ ما مَسّه من مُصابِها لكادتْ به في جنّةِ الخُلْدِ تجزعُ

أما في مراثي المحارم من النساء وذوات القربى، فقد عبر الشعراء فيها عن انفعالات حقيقية، وأحاسيس صادقة، إذ صوروا معاناتهم، وما فعله بهم الجوى والشوق، وبكوهن بكاء صباً أضناه البعد والجفاء، وتحدثوا عن ولعهم وهيامهم وولههم، وكشفوا عن العلاقة المتينة التي كانت تجمعهم بهن.

وقد ربط النقاد العرب القدامى منهم والمحدثون بين موضوع رثاء المرأة، والغزل الباكي، ذلك أن الشاعر الذي هجرته محبوبته يعبر في شعره عن تعاسته وحنينه إليها، وتشوقه، ويصف ما فعله الفراق به، ويصور مفاتنها ومواطن الجمال فيها، والمعاني ذاتها ينطق بها الشاعر الذي رثى امرأة هجرته بالموت، ولعل ذلك ما دفع حازماً القرطاجني إلى بيان أنه لا فرق بين الغزل ورثاء المرأة سوى أن الأول توجع على امرأة حية، والثاني توجع على ميتة، يقول معبراً عن ذلك: " والفرق بين النسيب المقترن به وصف حال توجع القائل، ورثاء النساء به حال توجعه أيضاً أن النسيب بموجود والرثاء لمفقود".[٤] ويقيم الدكتور عناد غزوان كتابه المعنون بـ " المرثاة الغزلية في الشعر العربي" على فكرة الربط بين الغزل الباكي ورثاء المرأة، وقد وضح

---

[١] السبكي، طبقات الشافعية، ٥/٩٧.
[٢] ابن نباتة، الديوان، ص٤٨.
[٣] المصدر نفسه، ص٣٠٧.
[٤] القرطاجني، منهاج البلغاء، ص٣٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك في مقدمة كتابه إذ قال: " أما الرثاء فيشترك مع شعر الغزل في التعبير عن معنى الألم والأسى سواء أكان ذلك بكاء على عزيز غال، أم ندباً على حبيبة جميلة، والرثاء في رسمه لصوره الباكية الحزينة ينتزع تشبيهاته وأخيلته من واقع الأحداث المرتبطة بصاحب المرثاة، فلا غرابة إذا ما تفاعل الرثاء بواقع الحياة وعبر عن بعض هموم الشاعر ومشاعره عن طريق الحزن واللوعة والتحسر والبكاء، إن رثاء الحبيب لحبيبه أو الزوج لزوجه وبالعكس لا يختلف كثيراً في مظهره الحزين عن شعر الغزل الباكي، والذي يرثي به الشاعر تجربته وخيبة أمله، بل يرثي نفسه فيه، هذه الظاهرة الفنية النفسية جعلتني أحس بأن مثل هذا الغزل هو رثاء، ومثل هذا الرثاء هو غزل"،[١] وبناء على ذلك عرّف الكاتب المرثاة الغزلية بأنها تلك التي تجمع بين البكاء على المرأة الجميلة، وبين التغزل بها وبمفاتنها.[٢]

إن ما ذهب إليه أولئك النقاد حق في بعض جوانبه، فمواطن الاتفاق بين الغزل الباكي ورثاء المرأة يكمن في المعاني التي أشير إليها آنفا، ولكن في الوقت ذاته هناك اختلافات بين الموضوعين ففي شعر الرثاء معان يعز وجودها في شعر الغزل مثل الحديث عن القبر والجنة والمصير، ومشكلتي الحياة والموت.

وتبين من البحث آنفا أن الشعراء ندبوا بناتهم وأمهاتهم وزوجاتهم وجواريهم وتوجعوا لفراقهن، وقد مرت في الصفحات الماضية قصيدة ابن الوردي التي رثى بها ابنته، فبكاها بكاءً مراً، وزجر فيها من لا موه في ذلك إذ بين لهم أنها فلذة الكبد والحبيبة الغالية التي يحق عليها البكاء. وفي الحقيقة إن مراثي الأبناء والبنات من أكثر ألوان الشعر ذاتية فالعاطفة تبرز فيها جياشة وصادقة، إذ لا مجال لتزييفها أو الشك فيها، فمن أغلى على الإنسان من هؤلاء فيبكيه ويتماوت في بكائه ؟.

وممن ندبوا بناتهم الشاعر شهاب الدين بن الخيمي، فقد رثاها بقصيدة تفيض بمعاني اللوعة والأسى، وتعكس بكل صدق حالته النفسية، وحياته التعيسة، يقول منها:[٣]

إنّي لأكرهُ أنْ أنَام فألتقي ... بك في الكَرى خوفَ الفِراقِ الثّاني

ويلذُّ لي سكنُ الثّرى إذْ صِرْتِ سا ... كنةً به والدّارُ بالسُّكانِ

ويقول خال القلب: تلك صغيرةٌ ... لا تَسْتحقُّ أسىً على الفقدانِ

يا صاحِ إنّ العَينَ وهي صغيرةٌ ... فَضُلت كبار جوارح الإنسانِ

والقَلْبُ يا هذا على صِغَرٍ بهِ ... مأوى العلومِ ومنزلُ الرّحمنِ

وأبيك إنّ أحقّ مفقودٍ بأن ... تُحْنى الضُلوعُ له على الأحزانِ

---

[١] د. عماد غروان، المرثاة الغزلية، ص٢-٣.

[٢] المرجع نفسه، ص٤٤.

[٣] ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ١٩٣/١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعـزّ فيـه عنـد مخلّفـه العـزا مَنْ لـم يسـيء بيـد ولا بلسـانِ
لم تكتسـبْ إثمـاً لجارحـةٍ ولـم تملأ لـها صَـدْراً مـنَ الأضغـانِ

إن الأبيات السابقة لوحةٌ حزينة تعبر عن نفثات أب محزون يجفو النوم حتى لا يرى فيه ابنته فيفقدها مرة أخرى، ويلذّ في فمه طعم الموت بعدها، وتظهر هنا صورة اللائم الذي يعاتب الشاعر على بكائه تلك الصغيرة، ولكنه يرد عليه كما رد ابن الوردي من قبل بأنها أحقّ موجود بالدموع، وبأن تحنى عليها الضلوع من الأسى، ويحاججه بالدليل العقلي فإذا كانت تلك البنت صغيرة فإن العين والقلب وهي أصغر أعضاء الإنسان وجوارحه، ولكنها مع ذلك أرفعهن رتبة ومنزلة، ويتعزى الشاعر في نهاية الأبيات عن موتها بأنها قضت دون أن ترتكب الخطايا والآثام، ودون أن تقدم إساءة لأحد من الخلق.

أما أمهات الشعراء، فإنهن لم يحظين بنصيب كبير من مراثيهم، ولم يعثر إلا على مقطوعة واحدة نظمها رشيد الدين الفارقي في رثاء والدته، وفيها تبرز المعاني الدينية جلية، ويظهر استسلام الشاعر لقضاء الله وقدره وصبره على حكمه، يقول:[١]

إنّـا لله وإنّـا إليـه راجعـون ولدعوةِ داعيةٍ سامعون مُسـارعون
وإنّـا علـى قضائـه صـابرون وإلى الرّضـا والتّسـليمِ صـائرون

أما الزوجات، فقد رثاهن غير شاعر، وفجعوا بموتهن فهم قد فقدوا الأنيس الذي شاركهم أكثر أيام العمر حلوها ومرها، وصبر معهم على مشاقها، ولذا بدوا في أشعارهم بمظهر متيم سلاه الحبيب، فهذا القاضي علم الدين المعروف بابن كاتب قراسنقر يرثي زوجته، فيصور منزلتها من نفسه، وحبه العظيم لها فيقول:[٢]

إنّي لأعْجـبُ لاصطبـاري بَعْدمـا قَدْ غُيِّبتْ بَعْدَ التّنعُّـمِ فـي الـثّرى
هذا وكُنْـتُ أغـار حـال حَيَاتـها مِنْ مَرّ عاطفـةِ النّسـيمِ إذا سـرى

ويتعزى الشاعر ذاته عن موت زوجته، فيخاطب قلبه ويحثه على الصبر والسلوان مبرراً موتها بالموت الذي هو مآل كل حي، يقول:[٣]

أقولُ لِقلْبي حيـنَ غيّبـها الـثّرى تَسَـلّ فكـلٌّ للمنيّـةِ صـائرُ
وفي كلّ شيءٍ للفَتـى ألـفُ حيلـةٍ ولا حيلـةٌ فيمـن حَوَتْـهُ المقـابرُ

ورثى الشاعر جمال الدين بن نباتة زوجته بقصيدة بلغت ثمانية عشر بيتاً بدا فيها بصورة زوج ملتاع، ومفجوع بزوجة غالية، يقول فيها:[٤]

---

[١] ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ١٠/١.
[٢] العسقدي، الوافي، ٣٤٢/١٥.
[٣] العمري، مسالك الأبصار، ج١١ ق١٦٠/١،العسقدي، الوافي، ٣٤٢/١٥-٣٤٣.
[٤] ابن نباتة، الديوان، ص٥١٦-٥١٧، العسقدي، الغيث المسجم، ٢٣٤/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هجَرْتُ بديعَ القَولِ هَجْرَ المبـاينِ ... فلا بالمعـالي لا ولا بالمعـاينِ
وكيف أُعاني سَـجعةً أو قرينـةً ... وَقَدْ فُقِدَتْ منّـي أجـلّ القرائـنِ
فو الله ما أدري لحسـن خلائـقٍ ... تسحُّ جفوني أم لخلـقِ محاسِـنِ
إلى الله أشكو يـوم فَقْـدكِ إنّـه ... عليّ ليوم الحَشْر يـوم التّغـابُنِ
وكنت أخافُ البينَ قبلكِ والنّـوى ... فأصْبَحتُ لا آسى على إثر بـائنِ
شكوتُ زماناً خان بعـد أحبتـي ... وبَالَغَ في العَدْوى وبثّ الضّغـائنِ
فلو طابَ لي طابتْ حياتي بَعْدَهُمْ ... وكُنْتُ ألاقيـهمْ بطَلْعَـة خـائنِ

يعبر الشاعر عن حبه لتلك الزوجة والتصاقها بنفسه ووجدانه، فقد كانت من أجل زوجاتـه منزلة، يعشقها ويتماوت في عشق جمالها وحسن خلقها، ولذا كان موتها فاجعة سلبته القدرة علـى نظم الشعر، وتركته مذهولاً يعاني أهوال يوم القيامة، ويشكو الشاعر الزمان ويحمله مسؤولية مـا جرى لزوجته، ويسمه بالعدو الذي طالما وقف له بالمرصاد وسلب منه طعم السعادة.

وتموت زوجة الشاعر سراج الدين الوراق، ولكنه لا يأسى عليها مثل غيره من الشـعراء، ويؤكد ذلك أنه نسي حادثة موتها، وتعزى عنها بدراهم بعثها له بهاء الدين بن حنا، يقول معـبراً عن ذلك:[١]

أتتنـي صنجـةٌ [٢] وأتَـتْ مَعـادهْ ... علـى عاداتِـها والخَـيْرُ عـادهْ
وأنْسـتني مصيبـةَ مَـنْ تولّـتْ ... فَلا ولّتْ عـن المولـى السّـعادهْ

وحظيت الجواري بنصيب الأسد من مراثي الشعراء، وهذا يدلّ على المكانة المرموقة التـي بلغنها آنذاك، ويعكس مظهراً اجتماعياً، وجانباً من الحياة في ذلك العصر الذي زخر بـالجواري اللواتي جلبن من سبي الحروب، ومن بلاد الفرنج والأتراك والمغـول، وقـد شـغف سـلاطين المماليك باقتنائهن، ودفعوا الأموال الطائلة في شرائهن، وحاكاهم في ذلك الأمراء وعامة النـاس كلّ حسب سعته،[٣] والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها ما قيل بحق الملـك النـاصر محمـد بـن قلاوون، فقد روي أنه كان مغرما بهن، " فكتب إلى أعمال مصر ببيـع الجـواري المولـدات، وحملهن إليه، وأخذهن حتى من المغنيات، فزادت عدتهن عنده على ألف ومـائتي وصيفـة"،[٤] وذكر المقريزي أن مقداد بن شماس أحد أمراء العربان " بلغ عدد جواريه أربعمائه جاريـة"،[٥] ونقل اليوسفي أنه كان لشخص يدعى ابن زعازع مائتان وعشرون جارية.[٦]

---

[١] العسقدي، الغيث المسجم، ٢/١٨٥.

[٢] نوع من الدراهم.

[٣] انظر، د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص١٣٢.

[٤] المقريزي، السلوك، ٣/٣١٨-٣١٩، وانظر ٣/٦٦، اليوسفي، نزهة الناظر، ص١٣١.

[٥] المصدر نفسه، ٢/٤٨٩.

[٦] انظر اليوسفي، نزهة الناظر، ص٢٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن يطالع كتب ذلك العصر يرى أن اقتناءهن أصبح أمرا عاديا ومتفشيا في المجتمع المملوكي، وأن وجودهن أصبح أمرا قائما تسن له القوانين والشرائع لتنظيمه.[١]وقد كان هناك سوق خاصة لبيعهن عرفت " بسوق الجواري"[٢] ،وغيرها من الأسواق حيث كانت تباع فيها الرقيق، "كما تباع الأنعام والمواشي، ولكل سوق منها دلال يجيد عرض البضاعة والترويج لها، وإظهار محاسن الجارية ذات الوجه الجميل أو الصوت العذب أو غير ذلك من ضروب الفتنة والإغراء".[٣]

ومن الشعراء الذين رثوا جواريهم ابن نباتة المصري، وزين الدين بن الوردي، أما ابن نباتة، فقد رثى جارية له غير مرة، ويبدو من شعره أنها كانت " مريضة بالسل ويظهر أنها توفيت بهذا الداء بعد أن أصبح مرضها عضالا وطال عليه الأمد"،[٤] وقد رثاها بقصيدة تجلت فيها العاطفة الصادقة، ومعاني الأسى والحزن والعشق، يقول فيها:[٥]

أقيما فروض الحزن فالوقت وقتها ... لشمس ضحى عند الزوال ندبتها
ولا تبخلا عني بإنفاق أدمع ... ملونة أكوى بها إن كنزتها
يقولون كم تجري لجارية بكى ... وما علموا النعمى التي فقدتها
ملكت جهاتي الست فيك محبة ... فأنت وما أخطا الذي قال ستها
تعرفتها دهرا يسيرا فأعقبت ... دوام الأسى يا ليتني لاعرفتها
وقال أناس إن في الدمع راحة ... وتلك لعمري راحة قد نكرتها
هل الدمع إلا مقلة قد أذبتها ... عليك وإلا مهجة قد غسلتها
نصبت جفوني بعدك للدجى ... وأما أحاديث الكرى فرفعتها
وقال زماني هاك بعد تنعم ... كؤوس الأسى والحزن ملأى فقلت ها

إن الأبيات السابقة تجسيد لمشاعر الحب الرقيقة، والحنين إلى الماضي، والبكاء عليه، وهي صورة من رثاء النفس، تمثل الحرمان وخيبة الأمل واليأس، فالشاعر لا يريد وحده أن يكتوي بنيران الحزن، ولكنه يدعو غيره إلى مشاركته وإقامة مآتم الحزن والبكاء عليها، ويكشف الشاعر عن منزلة تلك الجارية من نفسه، ودورها في إسعاده، فعلى الرغم من المدة القصيرة التي عاشتها معه إلا أنها تركت أثرا كبيرا في نفسه، فأحبها حبا جما، ولذا كان موتها ضربة قاصمة له حرمه طعم النوم، وسلب منه السعادة، ولكنه يؤكد عشقه لها حين صور قلبه وقد

---

[١] انظر: د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص١٣٣.
[٢] المقريزي، الخطط، ٣/٧٩.
[٣] د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص١٣٣.
[٤] ابن نباتة، الديوان، ص٧٣.
[٥] المصدر نفسه، ص٧٣-٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أضحى مثوى لها، وحين رد على من يلومونه في بكائها وبين لهم أنها الحبيبة التي عاش معها أحلى أيام عمره.

ويواصل الشاعر بث جواه وحرقته وسقمه، ويتمنى لو أنه يفديها بروحه، وأن يموت إثرها، إذ لا حياة تُرتجى، ولا عيش يبتغي بعد موتها، وتردد على قبرها علّه يخفف من آلامه، ولكن دون جدوى فيستعين بالشعر والدموع، يقول:[١]

كلانا طريحُ الجسْم بالٍ فَلَو دَرَتْ ... إذاً نَدبَتني في الثّرى من ندبتُها
بروحي من أُخفي إذا زرتُ قَبْرَها ... جواي ولو أعلمتها لَعَقَقْتُها
كَفى حُزْنا أن لا معينَ على الأسى ... سوى أنّني تحت الظّلام بعثتُها
وتتميقُ ألفاظٍ عليكِ رقيقةٍ ... كأنّي من نَثْر الدُموع نَظَمتُها
قَضيْتِ فما في العيشِ بعدك لذّةٌ ... ولا في أمانٍ لو بقيتُ بلغتُها
سلامٌ على الدُنيا فَقَدْ رَحَل الذي ... تطلّبتها من أجله وأرَدْتُها

إن العواطف الشجية التي عبر عنها ابن نباتة، وتلك اللّوعة التي أظهرها دعت عمر موسى باشا إلى القول: إن تلك المرأة كانت زوجة أخرى للشاعر بالإضافة إلى زوجته أم بنيه،[٢] ولكن الحزن الذي أبداه الشاعر لا يكفي دليلاً على أنها كانت زوجته، وخاصة إذا عُلم أنه لا يستطيع أن يجمع بين زوجته الحرة وبينها في عصمته، إلا إذا منحها حريتها، وهذا ما اشترطه الفقهاء،[٣] ولكنه يصرح في رثائه لها أنها ما زالت جاريته، وأنه لم يمنحها الحرية، ولذا يمكن القول: إنها لم تكن زوجة له وإنما محبوبة، فهي ملك اليمين تحل له كما تحل زوجته.

ويرثي ابن نباتة جاريته بقصيدة أخرى تمتاز بالحكمة والهدوء، ويعبر عن معاني اللوعة والفراق يقول فيها:[٤]

أشكو إلى الله بيناً لا انقضاء لَهُ ... ورِحْلةً للنّوى لا تشبه الرّحلا
بينا أرى فيه للنعشِ انبعاث سُرى ... لاناقةً للسرى فيه ولا جَمَلا
فليتَ أنّ بنات النّعشِ تُسْعدني ... بأدْمُعِ النّوءِ للبدرِ الّذي أفَلا
لم يتركِ الدّهرُ من أوقاتِ منتظري ... إلا أواخر عُمْرٍ تندبُ الأوَلا

يصور الشاعر رحلة الموت فيبين أنها رحلة " لا رحلَ فيها ولا ناقة تسير في مسارب الخلود نحو الدنيا الآخرة، ويذكر الشاعر في هذه الرحلة نعشها،...، ويذكر بنات نعش وهنّ

---

[١] ابن نباتة، الديوان، ص٧٤.

[٢] انظر: د. عمر موسى باشا، أمير شعراء المشرق، ص٢٥٣.

[٣] انظ د. سعاد عاشور، المجتمع المصري، ص١٣٣.

[٤] ابن نباتة، الديوان، ص٥٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يندبنها، ويودعنها إلى مقرها الأخير، ثم يتحدث بعد ذلك عن الدهر، ويصف لنا أيامه تندب أوائلها"[١].

ويرثي الشاعر ذاته جاريته بمقطوعة أخرى فيصور فيها أحزانه، ودموعه التي جفت من كثرة البكاء، وجفونه التي تقرحت، ويكرر صورة اللائمين له في ذلك، يقول:[٢]

يَقولونَ قَدْ أخْلَقْتَ جَفْنَك بالبكا نَعَمْ إنّ جفني بالبكاء حقيقُ
دَعوا الدّمْع للجَفْنِ القريحِ مؤاخياً فإنّي عَدِمْتُ الدّمعَ وهو شقيقُ

أما ابن الوردي، فقد كانت له جارية اسمها " لؤلؤ" يحبها حباً شديداً، فماتت وهي شابة جميلة، ولذا رثاها بخمس مقطوعات،[٣] عبر عن هيامه بها، وجعلها ربة للحسن والجمال، ومنها ما جاء في قوله يشكو فيه فراق تلك الحبيبة والشباب معا:[٤]

مَضَتِ الحبيبةُ والشبيبةُ آه وا أسَفاهُ مِنْ فَقْدِ الصّبيّةِ والصّبَا
يا ربُّ ذُقْتُ الحادثاتِ فَلَم أجِدْ شيئاً أمرَّ من الفراقِ وأصْعَبَا

وفي مقطوعة أخرى يصفها وهي في العالم الآخر تبحث عنه ويبحث عنها فلا تجده ولا يجدها، فيبكي ويستبكي النادبات بكل أرجاء الدنيا لينحن على شبابها الزائل، يقول:[٥]

وتَنظُرُ في القبور فَلا تَراني وانْظُرُ في القُصورِ فَلا أرَاها
فَلَيْتَ الباكياتِ بكلِّ أرضٍ جُمِعْنَ لَهَا فَنُحْنَ على صِباها

* * *

وتحدث الشعراء عن صفات النساء المرثيات ومآثرهن، وقد أطلق د. إحسان عباس على هذا الاتجاه من الرثاء اسم " البكاء على زوال الرقة والجمال"،[٦] ذلك أن الشاعر يتحدث فيه "عن الجمال وحلاوة العشرة، وعن سهره، وحزنه، ويمثل في دوره دور المحب الشغوف".[٧] فهو يمزج بين التغزل والبكاء والشعور بالخسارة العظيمة التي لا تعوض.

وقد اتجه شعراء العصر المملوكي الأول اتجاهين في حديثهم عن صفات المرأة المرثية:

الاتجاه الأول: ويتمثل في حديثهم عن صفاتها الحسية المادية، فقد صوروا ما كانت تتمتع به من جمال وحسن حتى أظهروها بصورة المثال أو التمثال الذي نحتت أجزاؤه بكل دقة ومهارة، فغدت متناسقة تنطق بالروعة والجمال، وغلبت تلك الصور الحسية المادية في الأشعار

---

[١] د. عمر موسى باشا، أمير شعراء المشرق، ص٢٥٥.
[٢] ابن حجة، خزانة الأدب، ٢/١٥٤.
[٣] انظر ابن الوردي، الديوان، ص٣٩٣، د. أحمد فوزي الهيب، الحركة الشعرية، ص٢٦٣.
[٤] المصدر نفسه، ص٣٩٣.
[٥] المصدر نفسه، ص٣٩٣.
[٦] د. إحسان عباس، تاريخ الأدب العربي عصر الطوائف والمرابطين، ص١١٩-١٢٠.
[٧] المرجع نفسه، ص١٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي نظمها الشعراء في رثاء محارمهم وغيرهن ممن تربطهم بهنّ علاقة حب متينة وخاصة الزوجة والجارية، وهي صور شائعة درج الشعراء على تداولها والاهتمام بها منذ القدم، ذلك أن الشاعر نظر إلى امرأته على أنها متعته ومحل رغبته، فلا يعنيه من أمرها " ما هي عليه من عقل، وما وراء جمالها من فكر، وما بين جنبيها من هم أو مثل عليا، فلا يحلّق في رسم عواطفها ورغباتها وأهوائها وتفكيرها، وإنما يحوم حول نفسه، ويجعلها المثال المنشود".[١] وقد سعى الشعراء الذين رثوا المرأة إلى جعلها ربة للحسن والجمال، وبعيدة عن كل منقصة وعيب، ولذا نعتوها بنعوت تعبر عن جمالها المتألق، فضلاً عن الاستعارات التي تربط جمالها بمظاهر الطبيعة الجميلة، فهي كالبدر أو الشمس أو الثريا أو الظبي أو الدر، وهي في العقد واسطته، وتلك الصور التي رسموها لمفاتنها الجسدية تقليدية طرقها الشعراء كثيراً في غزلهم وتشبيبهم، وربما أتوا بها عينها. وكشف الشعراء كذلك عن صفات المرأة المحببة إلى نفوسهم مثل النضارة والشباب وحسن الوجه، ورشاقة القد الذي يشبه الغصن في تأوده ولينه، وهي التي دعتهم إلى بكائها وندبها، وهذا ما يوضحه قول ابن نباتة في رثاء جاريته:[٢]

ألا في سبيلِ الله شَمْسُ مَحاسنٍ ... وإنْ لم تَكُنْ شمسُ النّهارِ فأُخْتُها
بكَيْتُكِ للحسْنِ الذي قَدْ شَهِدتُهُ ... وللشّيمِ الغُرِّ التي قَدْ عَهِدتُها
ورَوْضَةُ لَحْدٍ حلّهُ غُصْنُ قَامَةٍ ... لَعَمري لَقَدْ طابَتْ وطابَ نبتُها
خبيّةُ حُسْنٍ كُنْتُ مُغْتبطاً بها ... ولكن بِرَغْمي في التّراب دَفَنْتُها
أُنادي ثَرى الحَسْناءِ والتّربُ بيننا ... وَعَزّ على صَمْتِ المتيّمِ فَقْدُها

إنه المتيم الذي أنهكه الحزن فتردد على قبر محبوبته يرثي جمالها، ويخاطب قبرها علها تسمعه فترفق بحاله وتجيبه، ولكن علامات اليأس تبدو عليه فلا أمل له بعودتها.

ويتحسر الشاعر ذاته في القصيدة التي رثى بها زوجته على مظاهر حسنها التي اختطفها الموت، ويعبر عن شغفه بها، ويصور عيونها ووجهها وقوامها، ويبين أن موتها كان منقذاً له من ذلك السحر، ولكنه مع ذلك يتأسف على الخسارة الكبيرة التي مني بها، ويتمنى لقاءها يوم القيامة كي يمتع ناظره بمفاتنها، يقول:[٣]

ثَوَتْ في مَهاوي التّرب كالتّبر خَالِصاً ... فَحَقّقْتُ أنّ التّربَ بَعْضُ المعادنِ
كأنّكِ بادَرْتِ الرّحيلَ تخوّفاً ... عليّ مِنَ الحُسْنِ الذي هو فاتني
أأنسى قواماً ما أتَقّفَ حُسْنُ رُمْحِه ... فما فيه مِنْ عَيْبٍ يعدّ لِطَاعنِ ؟
ووَجه حكَى عَنْ حُسْنِهِ كلّ مُقْمِرٍ ... ولَحْظاً رَوَى عَنْ طَرْفِهِ كلّ شَادنِ

---

[١] سامي الدهان، الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية، ص١١، وانظر ج.ك فادية، الغزل عند العرب، ص٧٢.

[٢] ابن نباتة، الديوان، ص٧٣-٧٤.

[٣] المصدر نفسه، ص٥١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فوا أسفاً حتـــى أُوَسَّـدَ فـــي الـــثّرى ... وَيُدْني الرّدى مِنّـــا مُقيمـــاً لظـــاعِنِ
ويا ليتَ شِعْري في القيامةِ هـــل أرَى ... مَحَاسِنَها مـــا بيـــن تلـــك المواطـــنِ
رشـــاقة ذاك القـــدّ فـــوق صراطـــهِ ... ودينار ذاك الخـــدّ بيـــن المـــوازنِ

إن أكثر ما يلفت النظر في الأبيات السابقة الصورة التي جاءت في الأخيرين منها، فـــالمرء يتوقع في ذلك اليوم العظيم أن يكون الناس في هول وخوف شديد، ولكن ابن نباتـــة اســـتطاع أن يرسم بريشته زوجته وهي تزداد جمالاً وتألقاً، فلا يغير من محاسنها شدة الحدث أو مرورها عـــن الصراط، أو عرض أعمالها على الميزان.

ونظم الشاعر زين الدين بن الوردي قصيدة على لسان صاحب له مـــاتت زوجتـــه، وهـــذا الأسلوب من الأساليب الجديدة التي برزت في الرثاء في العصور المتـــأخرة، وقـــد اتقـــن ابـــن الوردي ذلك الدور، وتمثل تجربة الحزن التي عاشها صاحبه، واستطاع أن يعكسها بكـــل دقـــة وصدق، فكشف عن عشقه لها، ومنزلتها في حياته، وقارن بين حاليهما، فـــهو يتلظـــى بنـــيران الحزن، أما هي فتتقلب في جنان النعيم، يقول:[١]

يا نورَ عيني ويـــا حيـــاتي ويـــا ... أُنْســـي ويـــا مـــودعَ أسْـــــراري
لـــم تنصفينـــي أنـــتِ فـــي جنّـــةٍ ... ومُـــهجتي بَعْـــدكِ فـــــي نـــارِ
وإنْ لم أجِدْ مثْلَكِ مـــن أيـــن لـــي ... فـــي عِشْـــقي الطّـــاري صباطـــار
إنْ كان صَبْري نـــاصري بَعْدمـــا ... بنْـــتِ فيـــا قلّـــة أنْصَـــاري
آثـــارُكُ الحُسْـــنى إذا مـــا بَـــدَتْ ... تكـــادُ أنْ تُذْهـــبَ آثـــــاري

ويحاول ابن الوردي أن يرسم صورة مثالية لزوجة صديقه، فيصفها خالية مـــن العيـــوب الأمر الذي جعل من الصعب على زوجها أن يقتنع بغيرها وإن كانت من الغيد الحسان، يقول:[٢]

أوْحَشَـــني يـــا صَنعـــةَ البـــاري ... جَمَـــالُكِ العَـــاري مـــن العـــــارِ
بَعْـــدكِ لا تَعجبنـــي غـــــادةٌ ... ولو غَـــدَتْ كـــالكوكبِ السَّـــاري
والله قـــد أبكَيْـــتِ عينـــي وَقـــــدْ ... أوْحَشْتِ يا شَمْسَ الضُّحَـــى داري

ويرثي الشاعر ذاته جاريته " لؤلؤ" فيخاطب الموت طالباً منه أن يرفق بجمالـــها، ويعاقبـــه على اختطافها منه فيقول:[٣]

أيا مـــوتُ رِفْقـــاً علـــى حُسْـــنِها ... فَقَـــدْ بَلَغَـــتْ روحُـــها الـــــترقوهْ
تَركْـــتَ جواهـــرَ عنـــد اللّئـــــامِ ... وَتحْســـدُ مثْلـــي علـــى لولـــــوهْ

---

[١] ابن الوردي، الديوان، ٣٩٧-٣٩٨.
[٢] المصدر نفسه، ص٣٩٧،٣٩٨.
[٣] المصدر نفسه ص٣٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي مقطوعة أخرى يصورها شابة غضة وبدراً حواه التراب، فيقول:[١]

خَلَعَتْ ثَوْبَ صباها وهو غُصْنٌ يتثنّى
إنّ قبراً قد حَواها قد حوى بَدْراً وَغُصْنَا

ويتساءل الشاب الظريف حين يرى مرثيته الحسناء محمولة على الرقاب عن جمالها الذي أخفاه الموت في نعش وأدرجه في كفن، وهو تساؤل يحمل في طياته معنى التعجب والاستغراب مما يفعله الموت بالحسن والجمال، يقول موريّاً:[٢]

قُلْتُ وقد أُبْرزتْ بِنَعْشٍ فوقَ رقابِ الأنام تمشي
من البدورِ التّمامِ كانَتْ فلمْ غَدَتْ من بناتِ نَعْشِ ؟

ويصور الشعراء المرأة المرثية منعمة في حياتها، تعيش حياة مترفة وكريمة،[٣] وهذا ما يوضحه قول الإمام علي بن عبد الكافي السبكي إذ رثى والدة تقي الدين السبكي:[٤]

ولو كانَ حُزْنٌ نافعاً لَجَعلْتُهُ شعاري عَسَى أفْدي مُكَرّمَةً خودا

لم يحالف الشاعر التوفيق حين صور تلك المرأة خوداً بمعنى " الفتاة الحسنة الخلق الشابة"،[٥] وذلك أنه وصفها بغير ما فيها، فهي لا شك امرأة كبيرة تجاوزت مرحلة النضارة والشباب.

أما الاتجاه الثاني: فيتمثل في حديث الشعراء عن الصفات المعنوية والخصال الحميدة التي كانت تتحلى بها المرأة المرثية مثل: حسن الخلق، والصون والعفاف، والرزانة، والتقوى والمكانة الاجتماعية، وبرزت تلك المعاني بصورة جلية في الأشعار التي قيلت في رثاء نساء الأصدقاء وأرباب الدول ولعل مما يفسر ذلك:

أولا: حساسية ذلك الموضوع، فهناك قيود كثيرة يفرضها المجتمع على الشاعر، تمنعه من التغني بالجمال الحسي لنساء لا تربطه بهن علاقة وثيقة، هذا فضلا عن أن تناولها ووصفها قد يثير الضغينة والحقد في نفوس ذوي المرأة.

ثانيا: أن جل النساء المرثيات كن قد بلغن من العمر عتياً، الأمر الذي جعل محاسنهن تختفي أو تكاد، ومع ذلك فقد تجرأ بعض الشعراء فصور صفاتهن الحسية المادية، ولكن ذلك بدا بصورة نادرة وتجدر الإشارة إلى أن الحديث عن الصفات الحسية للمرأة الكبيرة كان موضع

---

[١] ابن الوردي، الديوان، ص٣٩٣.
[٢] الشاب الظريف، الديوان، ص١٨٩-١٩٠.
[٣] انظر الصفدي، الوافي، ١٥/٣٤٢.
[٤] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٥/٩٧.
[٥] ابن منظور، اللسان، مادة "خود".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طَعْن على الشاعر من النقاد العرب القدامى، فقد أخذوا على المتنبي قوله في رثاء أم سيف الدولة:[١]

صَلاةُ اللهِ خالقنا حَنوطٌ ... على الوَجْهِ المكَفَّنِ بالجَمالِ

" فقالوا: ماله ولهذه العجوز يصف جمالها؟"[٢]

ومن شعراء هذا العصر الذين مزجوا بين الصفات الحسية والمعنوية برهان الدين القيراطي، فقد قال في رثاء زوجة القاضي تقي الدين ناظر الجيش:[٣]

انظرْ إلى الشّمْس كَيْفَ تَتْكَسِفُ ... والغُصْنِ الرّطبِ كيفَ يَنْقَصِفُ

والقَمَر التمّ كَيفَ غاب وقَدْ ... مَحا مَحاسِنَهُ المُحاق والتّلَفُ

والدرّ إذْ عاد وهو مُنْتثرٌ ... وضمّهُ بَعْد عَقْدِهِ الصّدفُ

والحُسْنُ كَيْفَ انطوت مَحَاسِنُهُ ... وزال ذاك الدّلالُ والتّرفُ

لَهْفي على حُمْرةِ العَفاف مَضَتْ ... جميعُها والجَمالُ والصّلَفُ

لهفي لديارِ وَجْهِها أبداً ... كيف بِصَرْف الزّمانِ مُنْصَرِفُ

لهفي ولهفي وليس يَنْفَعُني ... مِنْ بَعْدِ ما غابَ وَجْهُها اللّهفُ

إن غُيّبتْ في ثَرى اللّحودِ فَكَمْ ... قَدْ حَجَبتْها السُّتورُ والسُّجُفُ

آهالَها زهرةً مَعطرةً ... أضْحَت بأيدي الخُطوب مُخْتَطَفُ

وَرْدَةً زُيّنتِ العقودُ بها ... أمْسَتْ بأيدي الخُطوبِ تُخْتَطَفُ

لقد كان القيراطي أكثر الشعراء جرأة في التغني بمحاسن امرأة لا تخصه، فمن يقرأ الأبيات السابقة قبل أن يعرف فيمن قيلت لا يستوقفه أدنى شك أن تلك المرأة هي محبوبة الشاعر، وأنه يرتبط بها بعلاقة متينة، فهو يبدو في لهفته المتكررة كالعاشق المتيم الذي هجرته الحبيبة، وتركته يعاني مرارة الفراق، بيد أن الشاعر في الوقت ذاته يقع في تناقض مع نفسه حين يفصل في عرض مفاتنها الجسدية، إذ كيف عرف تلك الصفات؟، وكيف رأي تلك المحاسن؟ وهي المحجبة ذات الطهر والعفاف.

ويؤكد الشاعر ذاته جمال تلك المرأة حين صور مظاهر الطبيعة الجميلة متأثرة بجاذبية جمالها، ولذا راحت تندبها بعد موتها وتذرف عليها الدموع الغزار، يقول: [٤]

شَمْسٌ بَكَتْها السَّماءُ إذْ غَرُبَتْ ... فَطَرْفُها لايكفُّ إذ يكفُ [٥]

قَدْ ضَرَبَ البَدْرُ خَدَّهُ أسفاً ... مِنْ بَعْدِها أو بدا به الكَلَفُ

---

[١] البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ١٤٤/٣.

[٢] ابن رشيق، العمدة، ١٥٤/٢.

[٣] القيراطي، الديوان ص٤٠.

[٤] المصدر نفسه، ص٤٠.

[٥] بمعنى يسيل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأطـــرق الظّبـــي بعـــد لَفْتَتِـــــهِ حُزْنـــاً ومـــاهَزّ بانـــةً هَيَـــــفُ

أما الصفات المعنوية، فقد تعددت وتنوعت، وكانت خصال العفاف والصـــون والطـــهارة والرزانة أكثرها ترداداً، فقد حظيت بإعجاب الشعراء فعبروا عنها حين صوروا مرثيتهم متحجبـة داخل جدران منزلها لا تنظرها عيون الناظرين، فهي التي قضت حياتها كذلـك، وحيـن مـاتت حجبها التراب، وتلك السمات كانت محببة إلى نفوس الناس في المجتمـــع المملوكـــي، إذ كـــان اختلاط المرأة فيه يثير الأنظار حولها" فتلك الأجواء الاجتماعية التي تجاوزت فيها بعض النســـاء حدود الحرية المعطاة لها في الأسواق والمتنزهات والحمامات ومجالس الغناء، بل تمرد بعضـــهن على حدود التقاليد والعادات المتبعة في المجتمع دفع الرجال الذين يعرفون تلك الأجواء ... إلـــى الخوف على نسائهم وبناتهم من ذلك، ففرضوا عليهن ضروب الحراســـة والاحتجـــاب"[١]. ولـــم يقتصر منعهن من الخروج على عامة الناس، وإنما كانت الدولة في كثير من الأحيان تجـــبرهن على التزام بيوتهن، والاحتشام وترك التبرج والتشبه بالرجال،[٢] فالأمير علم الديـــن الشـــجاعي" أمر بدمشق ألا تلبس النساء خفافاً ولا عمائم"[٣]، فقال علاء الدين الوداعي الكندي معـــبراً عـــن ذلك:[٤]

هـــــذا الأمـــــيرُ غَيُـــــورٌ لأنّـــــــه قَـــــــــدْ أزالا
عمائمـــــــــاً وخِفافـــــــــاً علـــــى النّســـــاءِ ثقـــــالا
وغـــــار لمّـــــا تبرّجْـــــــ ـــــنَ والـــــتزمْنَ الحِجَـــــالا
والآن عُـــــــدْن نســـــــاءً وكـــــنّ قبـــــلُ رجـــــالا

وقد أكثر شعراء ذلك العصر من التعبير عن حبهم واحترامهم للمرأة العفيفة المحتجبـــة، وذلك حيث تغزلوا بها،[٥]وكذلك فعلوا حين رثوها، فابن نباتة يعزي بامرأة، ويبين أنها لم تخـــرج من بيتها إلاّ إلى القبر فيقول:[٦]

يا نَبْعَةَ الفَضْلِ مُذْ فاز التّرابُ بـــها لم تَسْرِ مِنْ حُجُبٍ إلاّ إلى حُجُـــبِ

ويتخذ الشاعر برهان الدين القيراطي من صون والدة القـــاضي تـــاج الديـــن المليحـــي وعفافها وتقواها وسيلته إلى تعزية ذلك الابن، فيقول مخاطباً إياه:[٧]

وتَعَـــزّ عـــــن جِهَـــــةٍ سَـــــمَتْ عـــن كـــلّ مَنْقصـــــةٍ وعـــــابِ

---

[١] حلود حرادة، المرأة في أدب الدولة المملوكية الأولى، ص٢٧.

[٢] انظر ذلك في: ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٥٩/١، المقريزي، السلوك، ٣/٢، ٣٦٢، ٤١٠.

[٣] الصفدي، الوافي، ٤٧٨/١٥.

[٤] المصدر نفسه ٤٧٨/١٥.

[٥] انظر حلود حرادة، المرأة في أدب الدولة المملوكية الأولى، ص٢٦ وما بعدها، ص٤٣ وما بعدها.

[٦] ابن نباتة، الديوان، ص٤٨.

[٧] القيراطي، الديوان، ص٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شـــمس الصّيانـــةِ والتُّقـــــى سَـارتْ إلـــىَ أفُـــقِ الغيـــابِ
لزمـــتْ فِنـــــاءَ حِجابـــــها حتـــى تـــوارتْ بالحِجَـــابِ

إلى جانب تلك الصفات لم يغفل الشعراء الحديث عن مكانة المرأة وعـن الـدور الـذي لعبته في مجتمعها، فالشاعر زين الدين بن الوردي رثى زوجة الشيخ محمد بن نبهان، فتحـدث عن جودها، وما كانت تقدمه للفقراء من عطف ورعاية، ويفضلها على الرجال حين جعلها أكـثر منهم عقلا ونهى، يقول :[١]

وماضيةٍ إلى الرّحمن أضحَـتْ أجلّ نساءِ أهلِ العَصْرِ صَيْبَـا
مباركَـــةٌ مُمَنّعـــــةٌ رزانٌ تردّ عـن النّسـا ذمّـاً وَرَيْبـا
تحـنّ علـى الفقـير حنيـنَ أمٍّ وترحمُهُ فويبَ المـوتِ وَيْبـا
تزيدُ على الرّجالِ نُهىً وَعَقْـلاً "وما التأنيثُ لاسم الشّمس عيبـا"

ويخاطب الشاعر شهاب الدين بن فضل الله العمري الإمام تقي الدين السبكي فيشيد ببر والدته المتوفية قائلا:[٢]

فقَـدْتَ أمّـاً بـرّةً لـم يَـزلْ كَوْكَبُـها المُشْـرِقُ فـي سَـعْدِهِ

ويكثر الشاعر جمال الدين بن نباتة في القصيدة التي نظمها في رثاء والدة الكاتب نـاصر الدين ابن عبد الظاهر من الحديث عن صونها وعفافها وتقواها التي تجلت فيما كانت تقوم به من أعمال بر وإحسان، وفي مداومتها على الصلاة والصوم والتسبيح، ولذا فقد بكتـها بعـد موتـها محاريب المساجد والكعبة والأماكن المقدسة جمعاء، يقول:[٣]

فمالـيَ لا أرثـي تُقاهـا وفَضْلَـها وأرثي لَهُ والقَلبُ حَـرّانُ موجَـعُ
وأنْدبُ للمحـــرابِ قنديـلَ غِـرّةٍ بنور التّقى طول الدّجى يتشعشـعُ
وأندبُ للمعروفِ والـــبرّ راحـةً ترى راحةَ تعبانـها حيـن يَنْفَـعُ
وأندبها للتّربِ في حُجـبِ العُـلا وديعة أستارٍ إلـى عـدنَ تـودَعُ
وأندُبها لليـــوم صومـاً وللدُّجـى صلاةً واذكـاراً ونسـكا يـوزّعُ
وللبيتِ بيتِ الفَضْل كـدّر صَفْـوَهُ وللبيتِ من ذات الصّفا حين يَـهرعُ
فيالَك من بيتٍ جديـدٍ بكـى لَـهَا وبيـتٍ عتيـق نَحْوَهَـا يَتَطلّـعُ

وتتجلى بعض المعاني السابقة في قول الشاعر ذاته يعزي قاضي القضاة نجم الديـن بـن صصري بوفاة بعض حرمه: [٤]

---

[١] ابن الوردي،الديوان، ص٧٤-٧٥.
[٢] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٥/٩٩.
[٣] ابن نباتة، الديوان، ص٣٠٦-٣٠٧.
[٤] المصدر نفسه، ص٤٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إنّا إلى الله مـــن رُزْءٍ برَاحلـــةٍ بَكى لَها الحَرَمُ الأقْصَى وقادمُـهُ
وبئرُ زمزمَ قَدْ هاجَتْ مَدَامِعُـها وبيتُ وائلَ قَدْ ماجَتْ دعائمُـــهُ
إنْ لم تُزاحم بأولاها لها نَســباً فَقَدْ غَدَتْ بمَســاعيها تزاحِمُـهُ
ما خصّ ماْ تمُ أهليها بل اتّفقـتْ في كلّ بابٍ من التّقوى مآتمُـــهُ

ومما يدخل تحت الحديث عن مكانة المرأة الاجتماعية وصف تنشئتها، فالشاعر ابن نباتـــة يعزي بطفلة فيتحدث عن كرم أصلها ويصورها من بيت علم ومجد وســـؤدد، يقـول مخاطبـاً أباها:(١)

فقيدتُكَ التـــي صَغُـرتْ كبـيرٌ قضـــاء عزائـها بيـن القَضايـا
فيا لَكِ طفلةٌ مـــن بيـتِ عِلْـمٍ علَيْـها قَـدْ تطَفّلَـتِ المنايَـــا
ويا لكِ زَهْرة مـــن دوح قَـوْمٍ سَرَتْ بجدودِها مَسْـرى البجايـا

* * *

واشتملت قصائد التعزية التي أرسلها الشعراء إلى أصدقائهم أو من تربطهم بهم علاقة مـن أرباب الدول على الدعوة لهم، ومدحهم، وحثهم على التماسك والصبر، وقد اختفى مـن بعضـها الحديث عن المرأة المرثية لتحل محله المعاني السابقة، الأمر الذي قد يخرجـها مـن موضـوع رثائها.

وتنوعت الأساليب التي نهجها الشعراء في تعزية أهل الفقيدة ومواسـاتهم، فحيـن توفيـت والدة الإمام تقي الدين السّبكي عزّاه غير شاعر، فحثوه على الصبر الجميل، والتجلد، ودعوه إلـى الرضا بحكم الله وقضائه، وأن يحتسب أمه عنده سبحانه وتعالى عله يظفر بالثواب الجزيل، وهـم في ذلك كله يشيدون بقوة تحمله، وقدرته على مواجهة الخطوب، ومن هؤلاء الشـعراء شـهاب الدين بن فضل الله العمري إذ قال مخاطباً إياه:(٢)

فاسْمَعْ أبا الفَتْـــحِ وُقيـتَ الـرّدى ولا تثـيرُ النـارُ مـن زَنـــدِهِ
مِثْلُكَ مَنْ يَلْقَـــى الـرّدى صَـابراً مُحْتَسِـباً للأجْـرِ فـي فَقْـــدِهِ

ومثله ما جاء في قول الإمام علي بن عبد الكافي السبكي في تعزيته:(٣)

فَرَاجِعْ وَكُنْ بالصّبْرِ والحُكمِ والرّضـا عن الله للبَلْوى تَـذودُ بـه ذَوْدَا
ولا تُبْـدِ ضَعْفـاً إنّ عِلْمَـكَ قُـدْوَةٌ وَكُـنْ جَبَـلاً ذا قـوّةٍ شـامِخَا

---

(١) ابن نباتة، الديوان، ص٥٧٣.
(٢) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٥/٩٩.
(٣) المصدر نفسه، ٥/٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثله قول الشاعر ذاته يعزي القاضي تاج الدين المليحي عن موت أمه:[١]

لا تَجْزَعَـــنّ فإنّمـــــا خُلِـــقَ البريّـــةُ للذّهـــــابِ

ويطيل الشاعر شهاب الدين بن فضل الله العمري في الحديث عن مشكلة الحياة والمـوت، جـاء ذلك في القصيدة التي عزى بها تقي الدين السبكي بوالدته، وفيها يبدو متأثراً بفلسفة أبي العـلاء المعري ويؤكد ذلك أنه عارض بها إحدى قصائده، وقد رسم الشاعر صورة للموت تنبـئ عـن حتميته وبطشه، ومساواته بين الناس عبر العصور، فقيرهم وغنيهم، عبدهم وسيدهم، وبيـن أن الإنسان في هذه الدنيا إما والد يبكي على ولده أو ولد يبكي على والده، وما دامت تلـك صـورة الحياة والموت، فلا جدوى من البكاء على الميتين، وعلى الإنسان أن يستعيض عن ذلك بأن يسلم أموره جميعاً إلى الله، ويؤمن بقضائه المحتوم كي ينال رضاه، ويفوز بجناته، يقول:[٢]

وكـلُّ مَـنْ طـالَتْ بـه مُـدَّةٌ فَنَقصُـهُ فـي مُنْتَـهى حَـدّهِ
وما على المَـرءِ إذا لـم يَمُـتْ من ميت قَدْ صَـارَ فـي لحْـدِهِ
لـو كـان يغنيـه عَلَيْـه البُكـا لكـانَت الأنـواءُ مِـنْ مَـدّهِ
ميعادُنَا المـوتُ فمـا لامـرئ يفرُّ فـي الميعـادِ مـن وَعـدهِ
وإنّمـا الأيـامُ مَعْـدودةٌ لا يَغْلَـطُ الإنسـانُ فـي عَـدّهِ
وكلّ مَـنْ حَـامَ علـى مَـوْردٍ مَصـيرُهُ يـأتي إلـى وردِهِ
وسَـائقُ المـوتِ بِنَـا مُزْعـجٌ وكلّ مَنْ يَسْـعى علـى جـهدهِ
كـم ولـدٍ يبكـي علـى والـدٍ ووالـدٍ يبكـي عَلـى وُلْـدِهِ
فَقَدْ تَسـاوَى فـي الـثّرى أوّلٌ وآخَـرُ قَـدْ جـاء مـن بَعْـدهِ
مَـنْ سَـلّم الأمْـرَ إلـى ربِّـهِ فازَ بما يَرجـوه مـن قَصْـدِهِ
كلُّ امرئ مِنّـا سَـيَلْقى الـرّدى بذمّـهِ إنْ شـاءَ أو حَمْـدِهِ[٣]

وأشاد المعزون في قصائدهم بأهل الفقيدة، ودعوا لهم بأن يظل جنابهم محروسـاً مـن خطـوب الدهر ومصائبه، وألا تنزل بساحتهم الأحزان، وأن يبقى مجدهم وعزهم في ازدياد ورفعة، وهـذا ما عبر عنه برهان الدين القيراطي في قوله يعزي القاضي تاج الدين المليحي بوالدته:[٤]

عُوفيـتَ مـن جَـوْرِ الزّمـــا نِ وَعِشْـتَ مَحْـروسَ الجَنـاب
لا ذُقْـتَ تـاجَ الدّيـن فـي دُنْيَـاكَ بَعْـد أذى مُصَـاب
حصّلـتَ بـالصّبرِ الجَميـــ ـلِ على الجزيلِ مـن الثّـواب

---

[١] القيراطي، الديوان، ص٥٥.

[٢] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٥/٩٨-٩٩.

[٣] لمزيد من الأمثلة انظر: ابن نباتة، الديوان، ص٣٠٧، القيراطي، الديوان، ص٥٥.

[٤] القيراطي، الديوان، ص٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا زِلْـــتَ تَرْقَـــى للعُـــــلا رُتَبـاً تفـوقُ علـى السَّـــحاب
حتّـــى تـــرى الشّـهبَ السّـــرا عَ بطيّـــهِ والـــبرقَ كـــابي

ومن ذلك ما جاء في دعوة جمال الدين بن نباتة للكاتب ناصر الدين بن عبد الظاهر:[١]

وخَفّفَ عن أحْشاهُ وَهْجاً لَـــو أنَّـــهُ سَحَائبُ صَيفٍ عن قريـــبٍ تُقْشـــعُ

ويمدح الشاعر برهان الدين القيراطي القاضي تقي الدين ناظر الجيش حين عزاه بوالدته، ويغتنم الفرصة ليهنيه بمنصبه الجديد وهو نظر خزانة السلاح، وهنا يعلي الشـــاعر مـــن قيمـــة ذلـك المنصب بعد أن تولاه ممدوحه، ويشخص السلاح فيصوره مغتبطاً بناظره الجديد، ومعلنـــاً عـــن رغبته في خوض الحروب ضد الأعداء يقول:[٢]

تقـــيّ ديـــنِ الإلـــهِ عِـــشْ ابَـــداً ما للّهنا عَـــنْ حِمَـــاكَ مُنْصَـــرَفُ
بكُـــمْ تُـــهَنّى منـــاصِبٌ كُسِـــيَتْ مِنْـــكَ فخـــاراً ونالَـــها الشّـــرفُ
اهنـــأ بـــها خِلْعَـــــةً مكمّلـــــةً صِفَاتُها الغُرُّ فـــوق مـــا أصِـــفُ
عَـــزَّ سِـــلاحٌ غَـــدَت خزائنُـــهُ بـــالنّظرِ الصّـــدقِ مِنْـــك تُكْتَنَـــفُ
فلا يُـــراع الّظبـــا لـــها زَعَفـــاً ولا ظُبَاهَـــا يردّهـــا الزّعَـــفُ
والسَّهْمُ قد كـــاد أن يطـــيرَ بِـــلا ريـــشٍ لَنحْـــرِ العِـــدا ويَزْدَلِـــفُ
جَاءَتْكَ بِكْراً مـــن الكَواعـــبِ لا شمطاءُ إنْ أسْفَرتْ ولا نَصـــفُ[٣]

وفي مقابل القصائد التي كان يبعثها المعزون إلى ذوي الفقيدة، كان هؤلاء يردّون عليهم بقصـــائد على نفس الوزن والقافية، فيثنون عليهم، ويمدحونهم، ويشيدون بقدرتهم الشعرية، ويكشفون عـــن الأثر الذي خلفته أشعارهم في نفوسهم، وعن دورها في مواساتهم وحملهم على الصبر والسلوان، فالإمام تقي الدين السبكي على سبيل المثال ردّ على القصيدتين اللتين بعث بهما الشاعران علـــي ابن عبد الكافي السبكي، وشهاب الدين بن فضل الله العمري حين عزياه بوالدتـــه، فتحـــدث فـــي القصيدة التي رد بها على عليٍّ السبكي عن فضل ذلك الرجل، وأشاد بعلمه وتفوقـــه فيـــه علـــى الخلق كلهم، وأثنى على مقدرته الشعرية وفصاحته، وقدمه فيها على فصحاء العرب مثل قسّ بـــن ساعدة الإيادي، وأودِ بن سعد العشيرة،[٤]وألقى الضوء على الدور الذي أدته قصيدة ذلك الشـــاعر في إزالة همومه،وشبه أثرها في نفسه بالأثر الذي يتركه السحر والخمر في الإنسان، يقول:[٥]

أيَا مُحْسِناً بدءاً وَمُسْـــتَأنِفاً عَـــوْدا وَمَنْ حازَ مِنْ وَصْفِ العُلا سؤددا عَودا
وَمَنْ عِلْمُـــهُ بَحْـــرٌ تزايَـــدَ مَـــدّهُ وَفَيْضُ نَدى كفّيهِ عَـــمّ الـــوَرَى جـــودا

---

[١] ابن نباتة، الديوان، ص٣٠٧.

[٢] القيراطي، الديوان، ص٤١.

[٣] النصف: الكهل كأنه بلغ نصف عمره، والأنثى نصف ونصفه، اللسان، مادة، " نصف".

[٤] انظر ابن حزم، جمهرة ابن حزم، ص٤١١.

[٥] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٩٨/٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملَكْتَ زمامَ العلم فانقـــاد طائعـــاً ... وإنّـــك بالإذعـــانَ إذْ قُدْتَـــــهُ قَـــوْدا
وأرْسلْتَ سحْراً يُطْرِبُ السّمْعَ نَفْثُـهُ ... وخمراً تذودُ الهَمّ عـــن خـــاطري ذَوْدَا
وسَلّيتني عَنْ ذاهبٍ أحْرَقَ الحَشَـــا ... وأذْهَبَ عَـــنْ قَلْبـــي المَسَـــرَّةَ إذْ أوْدَى
وغادر مِنّي أسودَ الشّـــعْرِ أبيضـــا ... كما كلُّ بَيْضَا من تنائيـــه لـــي سَـــوْدا
فَبرّدتَ نارَ الشّوقِ إذْ زاد وَقْدهـــا ... وخَفّفْتَ حِمْـــلَ الوَجْـــد إذ آدنـــي أوْدَا

وتجلت أكثر المعاني السابقة في القصيدة التي أرسلها تقي الدين السبكي إلى شـــهاب الديـــن بـــن فضل الله العمري، وأضاف إليها مدحه بالجود والتقوى، وإظهار براعته في الكتابة، يقول:[1]

لله درٌّ فـــاقَ فـــي عِقْـــده ... جَاءَ مـــن المَوْلـــى إلـــى عَبْـــدِهِ
أرْبَى على الزّهْـــرِ عُلُـــوا كمـــا ... عَـــلا شـــذا الزّهْـــرِ شـــذا رَنْـــدِهِ
فأنْعشَ الصّبَّ وقـــد كـــادَ مِـــنْ ... أحْزانِـــه يَـــهْلِك فـــي جلْـــدِهِ
فـــأيّ فَضْـــلٍ جَـــادَ فـــي وبْلِـــهِ ... وأيّ بَحْـــرٍ زادَ فـــي مَـــدّهِ
من المقرّ الأشْـــرفِ المرتضـــى ... يكشفُ صَعْبَ الأمْـــرِ مِـــنْ شـــدّهِ
شـــهابُ ديـــنِ الله ربُّ النّـــدى ... وجـــامعُ الوَفْـــدِ علـــى رِفْـــدِهِ
ذي القَلَم الأعلـــى الـــذي حَـــدُّهُ ... كَصَـــارمٍ جُـــرِّدَ مـــن غِمْـــدِهِ
يَصنَعُ إنْ مَـــرَّ علـــى طِرسِـــهِ ... مـــا يَصنَـــعُ الناشِـــرُ فـــي بُـــرْدِهِ

[1] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٥/٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الخامس

رثـــــــاء المـــــدن

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رثاء المدن التي احتلها المغول

أفاق العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري على هجمة مغولية شرسة، استهدفت القضاء عليه، وتصفية وجوده السياسي، وبدأت تلك الحملة سنة ٦١٦هـ على الدولة الخوارزمية التي امتدت من العراق إلى حدود تركستان [١]، فأزالتها، ووضعت أقاليم إيران تحت نفوذها [٢]، فلم تبق هنالك قوة تستطيع أن تقف أمام المغول ، وذلك لأن السلطان محمد خوارزمشاه كان قد استولى على البلاد وأفنى ملوكها، وبقي وحده سلطان البلاد جميعها، فلما هزمه المغول لم يبق فيها من يمنعهم ولا يحميها. [٣].

وفي أوائل العصر المملوكي كان المشرق الإسلامي مقسماً بين قوى سياسية رئيسية ثلاث: الدولة العباسية في بغداد، والدولة الأيوبية في أجزاء من الشام، والدولة المملوكية ومقرها مصر.

وقد زاد في هذا العصر عنف المغول وهمجيتهم، وأطماعهم في السيطرة على بلاد الإسلام، فهاجموا دولاً من المشرق الإسلامي، واستطاعوا القضاء على الدولة العباسية، ثم الدولة الأيوبية، وأرادوا التوجه إلى مصر، إلا أن المماليك استطاعوا أن يوقفوا زحفهم بعد الانتصار عليهم في معركة عين جالوت قرب بيسان في فلسطين سنة ٦٥٨هـ ، وقد استمر الصراع بين دولة المماليك والمغول مدة قرن من الزمن تقريباً وتمكن المماليك خلاله من دحر القوات المغولية ، وتسجيل أروع الانتصارات عليها، وإنقاذ المسلمين وأوطانهم من فظائعها [٤].

رثاء بغداد

عهد منكوقان إلى أخيه هولاكو "بفتح غرب إيران" والشام، ومصر، وبلاد الروم والأرمن، وطلب منه أن يكون موقعه القلب من الجيش "[٥]، وفي سنة ٦٥٢هـ غادر هولاكو

---

[١] انظر ابن الأثير، الكامل، ٣٧١/١٢، الذهبي، العبر، ١٦٥/٣، ١٦٨، ١٧٣، تاريخ الإسلام، حوادث ٦١٦هـ ، ص٣٥، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٢١٨/٨، ابن العماد، شذرات الذهب، ١١١/٧، ١١٨، ١٣٠، ١٣١ .

[٢] انظر تفصيل ذلك: ابن الأثير، الكامل، ٣٥٨/١٢ وما بعدها، ابن واصل ، مفرج الكروب، ٣٤/٤، الداوادارى، كنز الدرر، ٢٣٦/٧، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ١٥١/٢ وما بعدها، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٣٢٩/١، اليافعي، مرآة الجنان، ٣٠/٤ وما بعدها.

[٣] ابن الأثير، الكامل، ٣٦١/١٢، ابن الجوزي، مرآة الجنان ، ج٨ ق٢/٦١٠.

[٤] لمزيد من التوسع انظر : النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، برتولد شبولر، العالم الإسلامي في عصر المغول، ريتيه غروسيه، جنكزخان قاهر العالم، هارولد لام، جنكيز خان وحجافل المغول، فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، الباز العريني، المغول.

[٥] الهمذاني: جامع التواريخ، ٢٣٤/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثكناته متوجها إلى تلك الديار [١]، فبدأ بالاستيلاء على قلاع الإسماعيلية ، وعددها مئة قلعة[٢] فتم له ذلك سنة ٦٥٤هـ[٣] .

وكان في ذلك الوقت المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، وقيل إنه كان "مستضعف الرأي ... قليل الخبرة بأمور المملكة ، مطموعاً فيه غير مهيب في النفوس، ولا مطلع على حقائق الأمور، وكان زمانه ينقضي أكثره بسماع الأغاني، والتفرج على المساخرة، وكان أصحابه مستولين عليه ، وكلهم من أراذل العوام"[٤].

أما جيشه، فكان في غاية القلة، ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقية الجيش، كلهم صرفوا عن اقطاعاتهم، حتى استعطى كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد [٥]، وكانت أخبار زحف المغول واقترابهم من بغداد تصل إلى الخليفة تباعاً، لكنه لم يتخذ الإجراءات اللازمة لصدهم، بل كان يقول: "أنا بغداد تكفيني، ولا يستكثرونها عليّ إذا نزلت لهم عن باقي البلاد، ولا أيضاً يهجمون عليّ وأنا بها، وهي بيتي ، ودار مقامي[٦]" ، "ومما اشتهر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه منجنيقات، وآلات الحصار، فقال بدر الدين: انظروا إلى المطلوبين، وابكوا على الإسلام وأهله [٧]"، ولكن المستعصم بالله حين أحس بالخطر الحقيقي المحيط به، ورأى ذلك عياناً ، واستيقن قصد التتار بلاده، أرسل إلى الأيوبيين مستنجداً، إلا أن بغداد سقطت قبل تحرك العساكر الشامية . [٨]

وكان لسقوط بغداد صدى كبير في الشعر العربي، فقد نظم الشعراء أشعاراً كثيرة في رثائها [٩] ، ووصف المؤرخون ذلك فقالوا: "وعمل الشعراء والعلماء قصائد في مراثي بغداد

---

[١] الهمذاني، جامع التواريخ، ٢/٢٣٨.

[٢] المصدر نفسه، ٢/٢٥٥

[٣] انظر ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ٣١٢-٣١٤، ابن الأثير، الكامل، ٩/٣٢٠، النويري، نهاية الإرب، ٢٧/٣٧٩، الكتبي، عيون التواريخ، ٢٠/١٣١، الهمذاني ، جامع التواريخ، ٢/٢٥٤.

[٤] ابن الطقطقا، الفخري، ص٣٣٣، الدواداري، كنز الدرر، ٧/٣٤٩-٣٥٠، الذهبي، تاريخ الإسلام،، حوادث ٦٥٦هـ ، ص ٢٥٩، الأشرف الغساني ، العسجد المسبوك،، ٢/٦٢٥،، السيوطي، تاريخ الخلفاء،ص ٤٦٧.

[٥] انظر ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٢٠-٣٢١، أبو الفداء، المختصر، ٣/١٩٤، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١/٨٧، ٢٥٥،النويري، نهاية الأرب، ٢٣/٣٢٣، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ ، ص٣٤، الكتبي، فوات الوفيات، ٢/٢٣١، عيون التواريخ ، ٢٠/١٢٩،١٣٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/٢٢٧، ٢٢٨،٢٢٩، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٧/١٢٧-١٢٨.

[٦] ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٢٥٥.

[٧] ابن الطقطقا،الفخري، ص٤٦، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ٣٢٠-٣٢١، الأشرف الغساني، العسجد المسبوك، ٢/٦٢٥، الكتبي، عيون التواريخ، ٢٠/١٢٩-١٣٠.

[٨] انظر اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١/١٧٣.

[٩] انظر مأمون جرار ، أسماء الغزو المغول، ص٥٤، د. نوري حمودي القيسي، تقويم جديد لدور الأدب في العصور المتأخرة، ص٣٩، محمد التونجي، التيارات الأدبية إبان الزحف المغولي، ص١٦٠، فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، ص ١٨٩-١٩٠، حسن الأمين، جنكيز وهولاكو الغزو المغولي للبلاد الإسلامية، ص١٤٠، د. أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية في مصر والشام، ص٥٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأهلها[١]"، وقال ابن الفوطي: "ولقد قال الشعراء في واقعة بغداد أشعاراً كثيرة[٢]" ، ووصل من تلك الأشعار إحدى وعشرون قصيدة ومقطوعة، في حين ضاع الكثير منها أيضاً، ولم تكن كل القصائد التي عثر عليها كاملة، بل جاء بعضها مختزلاً، ومنها على سبيل المثال قصيدة الشاعر تقي الدين ابن أبي اليسر التنوخي،"وجملتها ستة وستون بيتاً[٣]"، ولكن البحث لم يسفر إلا عن اثنين وعشرين بيتاً منها [٤] .

كان الشاعر شمس الدين الكوفي الواعظ في مقدمة الشعراء الذين عانوا مرارة سقوط بغداد، وشاهد النكبة بأم عينيه، فرثاها بأشعار كثيرة، وصل إلينا منها خمس قصائد ومقطوعتان، ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين إلى تسميته بـ "شاعر مأساة بغداد"[٥].

ولم يقتصر رثاؤها على الشعراء، بل جر الحدث جميع الفئات المثقفة إلى النظم فيه، ومنها العلماء والمؤرخون والفقهاء.

وهز سقوط حاضرة الخلافة العالم الإسلامي بأسره، فرثاها شعراء من بلاد فارس، منهم سعدي الشيرازي، فقد رثاها باللغتين العربية والفارسية [٦]، وكانت قصيدته العربية أطول قصيدة وصلت إلينا، إذ بلغ عدد أبياتها أربعة وتسعين بيتاً.

وتفاوتت الأشعار التي قيلت في رثاء بغداد،فبعضها جاء طويلاً أتاح للشاعر التفصيل والتعبير عن تلك المأساة،ومكنه من بث آهاته ولوعاته،أما بعضها الآخر،فلم يتجاوز البيت أو البيتين.

أما عن مضامين تلك الأشعار فهي متعددة ومتنوعة، فقد وقف الشعراء حائرين مذهولين أمام المصيبة التي نزلت ببغداد وأهلها، فراحوا يبكونها، ويتوجعون لحالها، محاولين تعليل مصابها، وواصفين ما نزل بها من دمار وتخريب، وقد أرجعوا مسؤولية ما جرى لها لأسباب عديدة، فبعضهم حمل وزير المستعصم بالله مؤيد الدين العلقمي تبعة كارثتها، والأحداث التي جرت فيها [٧]، فهاجموه ، وصرحوا بخيانته، وتحدثوا عما جره فعله من وبال عليه ،وعلى

---

[١] الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث، ٦٥٦هـ ، ص٣٧، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٧٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٨/٧، العاصمي، سمط النجوم العوالي، ٥٢٠/٣.

[٢] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ص ٣٣٤ .

[٣] الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص ٣٩، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٨/٧.

[٤] الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص ٣٩/٣٧، العاصمي، سمط النجوم العوالي، ٥٢٠/٣.

[٥] انظر الشبيبي، مؤرخ العراق ابن الفوطي، ج١٦٤/٢.

[٦] انظر براون، تاريخ الأدب في إيران، ص ٤٠-٤٢، عبد الوهاب عزام، الشيخ سعدي الشيرازي، ص٧، مأمون حرار ، أصداء الغزو المغولي، ص١٥١.

[٧] ذكر عدد من المؤرخين العرب أن ابن العلقمي كان شيعياً، كاتب التتار ومالأهم على المسلمين بعد أن أمر الخليفة المستعصم بنهب الشيعة في الكرخ، وقد سهل ابن العلقمي على المغول دخول بغداد والاستيلاء عليها، ولكنه لم "يتم له ما أراد، وما اعتقد أن التتار يبذلون السيف مطلقاً في أهل السنة والرافضة معاً". انظر:اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٨٦/١-٨٧، الكتبي عيون التواريخ، ١٣١/٢-١٣٢، الأشرف الغساني، العسجد المسبوك، ٢-٢٦٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٢٨/٣-١٢٩، الذهبي، دول الإسلام، ١٢٠/٢، أبو الفداء، المختصر، ١٩٣/٣-١٩٤، الدواداري، كنز الدرر، ٢٩/٨، ٣٩، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ١٨٩/٢، السبكي، طبقات الشافعية، ٢٦٩/٨، النويري، نهاية الأرب، ٣٢٤/٢٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٣/٧-٤٥، المنهل الصافي، ١٢٨/٧.

وهناك بعض المؤرخين والدارسين برأوا ساحة ابن العلقمي. انظر: ابن الطقطقا، الفخري في الآداب السلطانية، ص٣٣٨، محمد الشيخ السامرائي، مؤيد الدين العلقمي وأسرار سقوط الدولة العباسية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أشياعه، وعلى المستعصم بالله، فالشاعر زين الدين بن الوردي ينظم مقطوعتين في ذلك، فيقول مشيراً إلى المستعصم:[١]

وَخانَه الفاجرُ ابن العلقمي إلى أن بدّل الدولة الغرّاء تَبَديلاً
وكان ما كان لَستُ أذكرهُ "ليقضي الله أمراً كان مفعولاً"

وقال في مقطوعة أخرى مصوراً ذلك:[٢]

وأتى الخائنُ الخَبيثُ بمغلٍ طَبَقَ الأرضَ بغْيُهُمُ تَطبيقا
هكذا ينَصرُ الجهولُ أخَاه ومن البرّ ما يَكون عقوقا

وصرح ابن أبي حجلة التلمساني بمكاتبة ابن العلقمي للتتار إذ قال: [٣]

ولم يَزَلْ وزيرُهُ ابن علَقَم يكاتبُ التتارَ في المستعصِم

وذهب بعض الشعراء إلى أن ما تنزل بالمسلمين في بغداد، كان عقاباً من الله لهم على حياة اللهو والفساد التي كانوا يعيشونها، وعلى إغفالهم حقوقه سبحانه وتعالى، فسلط عليهم أولئك الكفرة الأشداء الذين لا يخشونه، ولا يرحمون المسلمين[٤]، وقد تجلى ذلك في قول تقي الدين ابن أبي اليسر: [٥]

والله يعلم أن القوم أغفلهم ما كان من نعمٍ فيهنّ إكثار
فأهْمَلوا جانبَ الجبّارِ إذ غَفَلوا فجاءهم من جنودِ الكفرِ جبّارُ

ولجأ الشعراء إلى تحميل الدهر مسؤولية الغزو المغولي، وهذه سنة قديمة، سار عليها الشعراء منذ الجاهلية، فهم ما إن تزل بهم مصيبة، أو يصيب أمتهم حتى ينسبوها إلى تقلبات الدهر، الذي لا يبقي شيئاً على حاله وهم بذلك يؤمنون بحركة المجتمعات، وزوال الدول، وولادة دول جديدة، وقد عبر الشعراء عن الدهر بتعبيرات متعددة،مثل "صروف الليالي"،"أيادي الدهر"،"تصاريف الزمان[٦]" ومن ذلك جاء في قول شمس الدين الكوفي الواعظ :[٧]

ثم عَاثتْ أيدي صروف اللّيالي في الجنابِ المُنَّعِ المحَروسِ
يا ديارَ الأحبابِ ما صنَعَ الدّهرُ المعُادي بِرَبعك المأنوسِ؟

وقول أبي عبد الله المعروف بابن الشّروي:[٨]

عَرَم الزّمانُ على الذين عَهِدْتهُم بك قاطنين وللزّمانِ عرامُ

---

[١] ابن الوردي، الديوان، ص٤٩٧، تاريخ ابن الوردي، ٢٥٢/٢.

[٢] ابن الوردي ، تتمة المختصر،١٩٠/٢، وانظر راند عبد الرحيم، صورة المغول ، ص١٥.

[٣] ابن أبي حجلة، سلوة الحزين في رثاء البنين، ص ٨٣.

[٤] انظر مأمون حرار، أسماء الغزو المغولي، ص١٤٢، راند عبد الرحيم، صورة المغول، ص٢٨.

[٥] الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص٣٨. SOMOGY, Aqasida On The Destruction Of Baghdad, Page.44.

[٦] انظر راند عبد الرحيم، صورة المغول ص٣٠.

[٧] الكتبي، عيون التواريخ، ٣٤٣/٢٠، النويري، الإلمام، ١٣٩/٢.

[٨] الكتبي، عيون التواريخ، ١٤١/٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقال سعدي الشيرازي معبراً عن ذلك:[١]

إلاَم تصاريفُ الزّمانِ وجوره، تكلّفنا ما لا نطيقُ من الإصرِ

• • •

ووصف الشعراء الذين رثوا بغداد عنف الغزو المغولي لـــها، وكشــفوا عــن شــدته، وصوروا أحداثه المهولة، وعبروا عن ذهولهم جراء ذلك الحدث[٢] ، فالشاعر بــدر الديــن بــن حبيب صوره مصيبة كبرى ستبقى ذكراها محفورة في ذاكرة التاريخ، فقال:[٣]

دَهَم العراقَ مُصيبةٌ أهوالُها ما تَنْقَضي أبــداً ولا تَتَعدّدُ

واها لها من محنَةٍ فتّاكــةٍ يبلى الزّمَانُ وذكرُها يتَجدّدُ

وصوره تقي الدين بن أبي اليسر إعصاراً لقوته وشدته فقال: [٤]

يا نارَ قلبي من نارٍ لحرْبِ وَغَىً شبّت عليه ووافَى الرّبْعَ إعْصارُ

وقرن الشعراء أحداث ذلك الغزو في بغداد بأحداث يوم القيامة، وهذا يعبر عــن عمــق الصدمة التي منوا بها، ومنهم تقي الدين بن أبي اليسر، إذ قال:[٥]

إنّ القيامَةَ في بَغْدادَ قَدْ وُجِدَتْ وَحَدُّها حين للإقبال إدْبارُ

أما سعدي الشيرازي، فقد تضخمت صورة أحداث الغزو المغولي في نفسه حين جعلــها مثل يوم القيامة، وصورها "فتنة عامة، كالنار التي تتأجج وتنتقل من قطر إلى قطر، وكأن أولئــك المغول من مردة الشياطين، الذين قيدهم سليمان بن داود عليه السلام، انطلقوا وأسالوا على بغداد عيناً من النحاس المذاب فأحرقها، وقد كان لجحافلهم غبار ارتفع حتى جعل علــى وجــه البــدر ركاماً لا يزول فأصيب بالخسوف الدائم[٦]"، وهذا ما عبر عنه بقوله: [٧]

وإنّ صَبَاحَ الأسرِ يَوم قِيامَــــةٍ على أُمَمٍ شُعْثٍ تُساقُ إلى الحَشْرِ

لَقَدْ كان فكري قَبْلَ ذلك مائــــزاً فَأحْدِث أمْرٌ لا يُحيطُ بــه فِكْرِي

وبَينَ يدي صَرفِ الزّمانِ وَحُكْمِهِ مُغَلّلةٌ أيدي الكياسَةِ والخبْــــــرِ

نَعوذُ بعفوِ اللهِ مِنْ نــــار فِتْنَــةٍ تأجّجُ مِنْ قُطْرِ البــلادِ إلى قُطْرِ

---

[١] جعفر الشيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، من ٣٨، سعدي الشيرازي، كليات سعدي، ص٨٧، حسين محفوظ، المتنبي وسعدي، ص٧٥، سعدي الشيرازي خريج بغداد، ص١٧٩.

[٢] انظر رائد عبد الرحيم، صورة الغزل، ص٣٢ وما بعدها.

[٣] ابن حبيب، درة الأسلاك، ٢٥/١.

[٤] الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص٣٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٨/٧، العاصمي، سمط النجوم العوالي، ٥٢١/٣، ابن العماد، شذرات الذهب، ٤٨/٧، SOMOGY, Aqasida On the Destruction of Baghdad, Page44.

[٥] الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص٣٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٨/٧، SOMOGY, Aqasida On the Destruction of Baghdad, Bage44.

[٦] مأمون جرار، أصداء الغزو المغولي، ص١٥٦.

[٧] جعفر شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية،ص٣٦، ٣٧، ٣٨، سعدي الشيرازي، كليات سعدي، ص٨٧، حسين محفوظ، المتنبي وسعدي، ص٧٥، سعدي الشيرازي خريج بغداد، ص١٧٦، د. عبد الوهاب عزام بك، سعدي الشيرازي شعره العربي، ص٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كأنّ شياطينَ القيودِ تَفَلَّتَـــتْ فَسالَ على بَغدادَ عَينٌ من القِطرِ
بدا وتَعَالى مِنْ خُراسانَ قَسطَلٌ فَعَادَ رُكاماً لا يــزولُ عَن البَدْرِ

* * *

وتحدث الشعراء في مراثيهم عن مشاعرهم الحزينة، وصوروا الجرائــم التــي اقترفــها المغول في بغداد من قتل، ونهب، وسبي، وتدمير، ووصفوا ما حل ببني العباس فيها، وتحدثـــوا عن أحلاف المغول وما ارتكبوه فيها من فظائع.

لقد كانت مأساة بغداد لطمة قاسية وبلاءً عظيماً سلط على رؤوس المسلمين، ومعركتـــها "لم تكن في الحقيقة حدثاً عادياً يمكن أن يمر بسهولة ويسر، بل كانت قضيــة الأمــم الإســلامية جمعاء التي أحسّت بالخطر الداهم خصوصاً بعد أن توقف قلبها، وانتزعت منها كعبتها، وانفــرط عقد الوحدة الإسلامية المقدس[١] "، ولذا بكى الشعراء بدموع ســجام حتــى تقرحــت جفونــهم، وصوروا ما انتابهم من يأس وإحباط بعدما وجدوا أنفسهم دون خليفة للمرة الأولى في التـــاريخ، وجاء بكاؤهم صادقاً ومعبراً عن مرارة نفوسهم التي أرهقتها حوادث الدمار والتخريب، وفقـــدان الأهل والوطن.

ومن الشعراء الذين رثوا بغداد شاعر النكبة شمس الدين الكوفي الواعظ، فقـــد جــاءت قصائده لوحة تفيض بالحزن والأسى ، تجول فيها بين أطلال بغداد وخرائبها، وبكــى مصابــها، وظهر "في صورة عاشق فارق أحبابه، فوقف على ديارهم يناجيها، ويسألها عن ساكنيها، ويبثــها أحزان قلبه [٢]،فقد تحدث في إحدى قصائده عن المغول الذين ساروا بأحبابه أهل بغداد، وصــور حياته بعدهم، إذ صار يعاني مرارة العيش، ويتجرع كؤوس الآلام واللوعة، والاشتياق، وتبدلــت حياته، بعد النعيم بشقاء، ولازمته الأسقام والأحزان والدموع ، حتــى غــدت طعامــه وشــرابه ولباسه، وأكد حبه العميق لأولئك الراحلين ومكانتهم في نفسه، فقال معبراً عن ذلك: [٣]

أين سارتْ ترى حداةُ العيسِ بحبيبي وواحـــدي وأنيسي ؟
حينَ ساروا حَثّوا الرّكابَ ولم يلووا على راحةٍ ولا تَعْريسِ
جرّعوني من الفراقِ كؤوســاً مُرّةً ما أمرَّها مــن كــؤوسِ
فتَبدّلــتُ بَعْدَ عِــزّ بــذلٌ وتَبَدّلـــت من نــعيم ببوسِ
وشرابي دَمعي وزادي حُزْني وَسقامي مِنْ بَعْدهم ملبوســي
يا غُصوناً غَرَسْتُها في فــؤادي وبماء المنــى سقيتُ غروسي
عِنْدَما رُمتُ أن أنالَ جَنَاهـــا رُميتْ بالذّبـــولِ والتّيبيــسِ

---

[١] فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، ص١٨٨.
[٢] مأمون حرار، أصداء الغزو المغولي، ص١٤٤.
[٣] الكتبي، عيون التواريخ، ٢٠/١٣٨-١٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كُنتمْ للقلوبِ روحـــــاً وللأو طـــانِ روحاً وَراحَة للنّفوسِ

وفي قصيدة أخرى وقف الكوفي على أطلال بغداد،وبكى على فراق أهلها،وصور عجزه عن الصبر بعد رحيلهم،وخاطب صاحبه طالباً منه العون والمساعدة والبكاء على مصابه،وعبر عما يشعر به من ضيق وحيرة حين أيقن انه لن يرى أحبابه مرة أخرى،ووجد في نفسه الرغبة في الانتقام من المغول،ولكنه كالطائر الذي وقع في الشرك،وهذا ما جاء في قوله :[١]

بانوا ولي أدمعٌ في الخـــدّ تَشْتَبـكُ ولَوْعَةٌ في مَجـــال الصّدرِ تَعْتَرِكُ
بالرّغمِ لا بالرّضـــى منّي فـراقهُمُ ساروا ولم أدرِ أيّ الأرض قد سَلكوا
يا صاحبي ما احتيالـــي بَعْدَ بُعْدِهِمُ أشِرْ علـــيّ فإنّ الرّأيَ مُشْتَـــركُ
عزّ اللّقاءُ وضَاقَت دُونَـــه حيلي فالقَلبُ في أمْرِه حَيْـــرانُ مُرْتَبـكُ
يعوقني عن مُرَادِي ما بليـتُ بِـــهِ كما يعَوق جناحي طَائـرٍ شَـــركُ
أروم صَبراً وقلبـي لا يُطاوعنـــي وكيفَ ينَهْـضُ مَنْ قَدْ خَانَهُ الوركُ؟
إنْ كُنْتَ فاقدَ إلـــفٍ نُحْ عليه معـي فإنّنا كلّنا في النّـــوحِ نَشْتَركُ
لا تحسبوا الدّمعَ ماءً في الخُدودِ جرى وإنّما هي روحُ الصّـبّ تَنْسبـكُ

وعانى الشاعر سعدي الشيرازي، من الحزن ما عاناه غيره من الشعراء، فقد صور في قصيدته انعكاس النكسة في نفسه، وعبر عن ذهوله وحيرته ، وعجزه عن الاحتمال، فقال:[٢]

حَبَسْتُ بجفنيّ المدامعَ لا تَجـــري فلَمّا طغى الماءُ استطالَ على السّكرِ
نسيمُ صَبَا بغـداد بَعْدَ خرابـــها تمَنّيت لو كَانَتْ تمرُّ على قَبـــري
لأنّ هلاك النّفسِ عند ذوي النّهـى أحبُّ لَهُمْ من عَيْشٍ مُنْقَبض الصّدْرِ
زَجَرْتُ طبيباً جسّ نبضي مُداويـاً إليكَ فما شكواي من مَرضٍ يبـري
لزمْتُ اصطباراً حيث كُنْتُ مُفَارقاً وهذا فراقٌ لا يعالجُ بالصّبـــرِ
مَرَرْتُ بصَمّ الرّاسياتِ أجوبُـــها كخَنساء من فَرطِ البكاءِ على صَخرِ
أيا ناصحي بالصّبرِ دعني وزفرتي أموضعُ صَبْر والكبودُ علـى جَمْرِ؟
تُهدّم شخصي مـن مداومـة البُكا ويَنْهدِم الجُرْفُ الدوارسُ بالمـــخْرِ

ومن الجدير ذكره أن القصائد التي نظمت في رثاء بغداد حملت نزعة تشاؤمية سيطرت عليها روح الرضوخ والاستسلام للواقع المرير، فقد اكتفى الشعراء بالانغمـــاس فـي البـؤس، والإعراض عن الدنيا، وتمني الموت، والشعور بالغربة، واختفت من شعرهم الدعوة إلى الجـهاد

---

[١] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٣٤-٣٣٥، الكتبي، عيون التواريخ، ٢٠/١٣٧.

[٢] جعفر شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية ، ص٣٩، ٤٠، سعدي الشيرازي، كليات سعدي، ص٨٧، حسين محفوظ، التتـــي وســعدي، ص٧٦-٧٧، سعدي الشيرازي غريب بغداد، ص١٧٧. ولمزيد من الأمثلة انظر القصائد التي نظمها ابن الشروي، وياقوت المستعصمي، وشمس الدين الكوفي في: الكتـبي، عيـون التواريخ، ٢٠/١٤١، فوات الوفيات، ٢/٢٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وضرب الأعداء [١]، ولم يملكوا سلاحاً غير البكاء ، وذرف الدموع الغزار، ووصف الدمار والخراب، ولذا كان شعرهم من الأدب الباكي، بمعنى أنهم اكتفوا بتصوير مشاعرهم وأحزانهم، وما أصاب بغداد جراء هذا الحدث الجلل مع أنهم ينبغي "أن يكونوا لسان الأمة الداعي إلى الجهاد والتحرير، وأن يكون شعرهم ذا أثر كبير في انتشال الأمة من وهدة الهزيمة، وتخليصها مما لحق بها، وبهذا يكون شعرهم مقاوماً معبراً عن الأمة آخذاً بيدها ملتزماً مدافعاً عن الدين والأرض والإنسان ، داعياً إلى الجهاد والوحدة، ولا يكون شعراً باكياً يكتفي بتصوير الفاجعة وإحساسات النفوس ومشاعرها الآنية"[٢]

ولعل ما دعا الشعراء إلى تلك النظرة السوداوية هو ما كان عليه واقعهم من تمزق وتناحر واختلاف، فلا مغيث يستمع لندائهم، ولا مجير يدفع عنهم الضيم، ولذلك كانت آخر خطبة في بغداد تحمل مشاعر الانكسار والاستسلام ومضمونها "الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار، إلى أن قال: اللهم أجرنا في مصيبنا التي لم يصب الإسلام، وأهله بمثلها، وإنا لله وإنا إليه راجعون"[٣]، فالخطيب لا يملك إلا التوجه إلى الله، وطلب العون والمساعدة منه، لإنقاذ هذه الأمة، وكذلك الشعراء توجهوا بالشكوى إلى الله ، وطلبوا الخلاص من أولئك الكفار، وتوسلوا بنبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، وبآل البيت جاعلين التضرع والتوسل سبيلين إلى النجاة والخلاص، ويتجلى ذلك في قول تقي الدين بن أبي اليسر:[٤]

إليك ربّنا الشّكوى فَأنْتَ تَرى ما حلّ بالدّينِ والباغونَ فُجّارُ

وقول السراج عبد اللطيف التكريتي: [٥]

يَا ربِّ قد عَمّ البَلادَ مَصائبٌ عَظُمَتْ وَحارَتْ عندها الألْبَابُ
ووَهَتْ عُرى الإسلامِ وانحلّ القوى وتَقَطّعَت من دونكَ الأسبابُ
يا آلَ هاشم يا قريشَ وسيلة يا آل غَالبَ أنتم الغلّابُ
فارفع لواء النّصرِ فوق رُؤوسنا فأغثْ إذا ما صُفّت الأطلابُ
واشْدُدْ عُرى الإسلام مِنْك بِعَزْمَةٍ وَسلِ الإله لَهم فأنت مُجابُ
فَمتَى عَطَفْتَ على الوجودِ بِعَطْفَةٍ وَلَوَيت جيداً مِن وجودك طابوا

---

[١] انظر مأمون جرار، أصداء الغزو المغولي، ص٢٢٤، د. نوري حمودي القيسي، تقويم جديد لدور الأدب العربي في العصور المتأخرة، ص٦٩.

[٢] د. عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص١٥.

[٣] الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص٣٧، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٨/٧، الأشرف الغساني، العسجد المسبوك، ٦٣١/٢-٦٣٢، ابن العماد،شذرات الذهب، ٤٦٩/٧.

[٤] العاصمي، سمط النجوم العوالي، ٥٢١/٣.

[٥] النويري، الإلمام، ٢٢٧/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصور الشعراء في مراثيهم بغداد بعد نكبتها، وما أصاب عمارتها من دمار وتخريب ، وألقوا الضوء على عمليات الإبادة والقتل، والتشتيت والنهب وانتهاك المحرمات التي قام بها المغول هناك، وقد أطلق الناس على تلك السنة سنة المصائب، لشدة ما نزل بهم من المغول.[١] ولعل تلك الوحشية التي تميز بها هؤلاء القوم تعود إلى أسباب منها إيمانهم بأنهم يملكون تفويضاً إلهياً للسيطرة على الشعوب الأخرى، وشعارهم "هنالك شمس واحدة في السماء،وسيد واحد على الأرض"[٢] و هذا الاعتقاد دفعهم إلى الاندفاع بكل قوتهم، ودحر كل معترض يقف في طريقهم، ولذا كان الجندي المغولي الذي يجبن في المعركة يعاقب دونما شفقة، أو رحمة بعقوبة الموت[٣]، ومنها طبيعتهم البدائية، بحيث كانوا إذا احتكوا ببلدٍ من البلدان المتحضرة يندفعون إلى تدمير ما يجدونه فيه من مظاهر الحضارة والمدنية بسبب خوفهم منها، فيهاجمونه ويحرقون المدن، وينكلون بالرجال والنساء والأطفال بحيث لم يتركوا بعد انتهاء فترة الغزو إلا بلداناً مخربة مكتظة بجثث القتلى. [٤]

وتعود همجية المغول إلى أهدافهم التوسعية، فقد كانوا يرغبون في إنشاء دولة واسعة قوية[٥]، ولذلك لم يكن كما يقول السيوطي: "في قتلهم استثناء، ولا إبقاء يقتلون الرجال والنساء والأطفال، وكان قصدهم إفناء النوع وإبادة العالم"[٦] .

ويرى أحد الباحثين: " أن قسوة المغول وشدتهم جرت وفقاً لخطة موضوعة كيما يثيروا من الخوف والرعب ما يشل حركة الذين سوف يعترضون لهجومهم، ورأوا أن ما ينزلونه بالمدن والبلاد من خرائب تتدلع فيها النيران، يكفل لجيشهم الأمن والسلامة، ويجنبهم تمرد الذين نجوا من القتل" [٧].

ويضاف إلى ما سبق إلى أن همجية المغول وفظائعهم في بغداد مرجعها أوامر منكوقان الصارمة لهولاكو قبل مغادرته بالحملة العسكرية، فقد أوصاه قائلاً: "أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والمهانة مع نسائه، وأبنائه وأقاربه، وكل ما يتعلق به" [٨] "وإذا بادر خليفة بغداد بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له مطلقاً، أما إذا تكبر فألحقه بالآخرين من الهالكين" [٩] ، وكان

---

[١] انظر العاصمي، سمط النجوم العوالي، ٢/٢٢٧، الكاتبي، نزهة الناظر، ص٩٩.

[٢] انظر برتولد شبولر، المغول في التاريخ، ص١٩، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص٢٦.

[٣] برتولد شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص٢٧.

[٤] النسوي، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص١٣ من مقدمة المحقق، فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، ص٣٤.

[٥] برتولد شبولر، المغول في التاريخ، ص١٨، فؤاد الصياد، المغول في التاريخ، ص٢٢٥.

[٦] السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٦٧.

[٧] العريني، المغول، ص٢-٣.

[٨] الهمذاني، جامع التواريخ، ٢/٢٣٦ .

[٩] المصدر نفسه، ٢/ ٢٣٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تنفيذ هولاكو "للوصية تنفيذاً حرفياً، إذ أغرق في الذلة والمهانة فضلاً عن المنية كل من أجتـــاز بهم، وزاد فلم يقتصر في التخريب على القلاع والحصون، بل شمل جميع العمران[١] " .

ومن الشعراء الذين رثوا بغداد ، وصوروا ممارسات المغول الوحشية فيها، علـــي بـــن ممدود بن مسعود السنجاري، فقد وصف ما نزل بها من دمار، إذ وقف على أطلالـــها متحســراً ومتفجعاً، ومخاطباً إياها "يا دار"، ومتسائلاً عن أهلها الذين كـــانوا يعمرونـــها، وعـــن مظـــاهر الحضارة والمدنية التي كانت تزينها، وعن الأسباب التي جعلتها خراباً، ويكني عن المغول بـــــ "الشاني" ويصور ما غمرهم من سعادة بعد استيلائهم عليها، إلا أن الشاعر يعدم المجيـــب عـــن أسئلته ولا يجد سوى الطيور الصادحة الحزينة الواقفة على أطلال بغداد معلنةً عن فناء أهلـــها، وزوال عمارتها، وهو في كل ذلك يصور ما في نفسه من ألم وتعاسة وبؤس، وما ينســكب مـــن عينيه من دموع، وما يجيش في خاطره من أماني وذكريات، فيقول:[٢]

دارَ الأحـــبّةِ بالزّوراءِ حـــيّاكِ وَجادكَ المـــزْنُ هطّـــالاً وروّاكِ
كم قد جنينا ثمارَ الوصلِ فيك وكم فُزنا بنيل المنُى من قرُبِ سُكناكِ
يا دَارُ عَهْدي بشَمْلِ القومِ مجتمـــعٌ في ساحَتَيكِ وَبَدرُ التمّ يَغشـــاكِ
وأنْتِ بالسّعْدِ والإقبالِ ضاحـــكةٌ فما الذي أضـــحَكَ الشّاني وأبكاكِ
وأين مَنْ كانـــت الأيّامُ مُشرقـــةً بنورهم وإليـــهم مُشتَكى الشّاكي؟
وأينَ تلك النجومُ الزاهراتُ لنـــا؟ تـــرى الذي أبـــلاهنّ أبـــلاك؟
أجَابتِ الدّارُ والأطيارُ صادحـــةً فيها وكلٌّ عليـــها نائحٌ باكـــي
أخْنَتْ عليهم صروفُ الدّهرِ فافترقوا وأصبحوا عِبْرةً يحكيهمُ الحاكي

ويقف الشاعر موفق الدين ابن أبي الحديد على أطلال بغداد "ويكنى عنها بـــدار علـــوة، فيبكيها، ويعطي صورة قديمة حين يتحدث عن الغراب الذي نعب بديار محبوبته،فتشـــتت أهلـــها بعد طول اجتماع، وقد كانت المصائب التي حلت بتلك الديار أكبر من أن يتحملها الشاعر، فبكـــى ولم يعد للأفراح مكان في نفسه، ذلك أن سيوف المغول ورماحهم قضت على أهلـــها، ونهبتـــهم، وفرقتهم حتى أصبحوا يسكنون القفار مجاورين وحوشها الضارية "[٣]، يقول: [٤]

قَد أوحشتني دارُ علوةَ لا أرى إنسانَهَا في ليلتـــي وَصَباحي
نَعَبَ الغُرابُ بأهلها فتفرّقوا بالنّهبِ بين صفـــائحٍ ورماحِ
تركوا منازلهم وصاروا جيرةً للوَحش بين مَفاوزٍ وضواحي
كانت طريقي قبل حادثةِ النّوى وهوى غدوّي دائماً ورواحي

---

[١] حسن الأمين، جنكيز وهولاكو الغزو المغولي للبلاد الإسلامية ، ص١٠٨.
[٢] الكتبي، عيون التواريخ، ٢٠/١٤١-١٤٢.
[٣] رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص٨٤.
[٤] الكتبي، عيون التواريخ، ٢٠/١٣٨

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واقرِ السّلامَ على الأهلِ وَقُلْ لَهُم بنتمْ فبانَتْ بعدكم أفراحي

ووصف شمس الدين الكوفي الواعظ ما حل ببغداد من دمار حين راح يتجول في ربوعها الخربة، ويناجيها، ويسألها عن ساكنيها، ويصف حواضرها المقفرة، المدمرة بفعل أيدي المغول، ونيرانهم، وقد هيجت تلك المشاهد مشاعره، فاعتصر ألماً وحزناً وشوقاً إلى الأيام الخوالي حين كانت بغداد عامرة بسكانها، وحسانها، وحين كان الشاعر يتقلب في أرغد عيش وأهنئه بين أهله وجيرانه وأحبائه، ومن ذلك قوله مخاطباً أهل بغداد:[١]

فدهاكُمُ مالو فُدى لَفَداهُ كلُّ شَخْصٍ بِنَفْسِهِ والنَفيسِ
ومغانٍ كانت بكم فَرِحاتٍ بُدّلَتْ بَعْدَ بِشرها بالعبوسِ
أين تلك الوجوه فيك منيرا تٌ حسانٌ مضيئةٌ كالشّموسِ
كلُّ وَجْهٍ كالشّمس لكن سرى بين أوج سَعْدٍ إلى حضيض النحوسِ
وقد وقَفْنا في الدار سكرى ولكن سكر حزن لا سكرة الخندريسِ
حين أضحَتْ عواطلاً بعدما كا نت تجلّى في زينةٍ كالعروسِ
ما انتفاعي بَعَدهمْ بوقوفي في محلٍّ بالٍ ورسمٍ دريسِ؟

ويبين الكوفي في قصيدة أخرى أن المغول قد قتلوا سكان بغداد ، واستوى في ذلك الناس جميعهم،فقال:[٢]

يا نكبةً ما نَجا من صَرْفِها أحَدٌ من الوَرَى فاستوى المملوكُ والمَلِكُ
تَمكّنَت بَعْدَ عزٍّ في أحِبّتِنا أيدي الأعادي فما أبقوا وما تركوا

وتجدر الإشارة إلى أن الشعراء البغاددة [٣] ، الذين عايشوا النكبة ، وشاهدوها بعيونهم، وعاشوا تحت ظل الحكم المغولي، لم يصرحوا باسم المغول في أشعارهم، بل لجأوا إلى الكنايات للتعبير عنهم، ولعل سبب ذلك خوفهم من بطش المغول[٤] ، ومن الوشاة الذين كانوا يراقبون حركة أهل بغداد، ويلتقطون أنفاسهم لينقلوها إلى المغول[٥] ، وهذا ما كشف عنه علي بن ممدود السنجاري في قوله :[٦]

أقَسْمَتُ يا دارُ بالقومِ الذين هُم كانوا مغاني بني الدُّنيا وَمَغْناكِ
لولا مخافةُ واشٍ كُنتُ أحذره سقيتُ من ماءِ جفني تُرْبَ مغناكِ
ونُحتُ فيكِ خِلافَ النّائحاتِ على مرّ الزّمانِ وما انسيتُ رؤياكِ

---

[١] الكتبي، عيون التواريخ، ١٣٩/٢، النويري، الإلمام، ٣٤٤/٢، ولمزيد من الأمثلة انظر فوات الوفيات ، ٢٣٤/٢.

[٢] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٣٤، الكتبي، عيون التواريخ ، ١٣٧/٢٠.

[٣] وهم: شمس الدين الكوفي الواعظ، وعلي بن ممدود السنجاري، وياقوت المستعصمي، وموفق الدين بن أبي الحديد.

[٤] انظر مأمون جرار، أصداء الغزو المغولي، ص١٤٥، رائد عبد الرحيم، صورة المغول ، ص٣٠.

[٥] انظر رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص٣٠.

[٦] الكتبي، عيون التواريخ، ١٤٢/٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالشاعر يصرح أن الذي يمنعه من البكاء والتعبير عن مشاعره الحزينة وجود واشٍ يقف له بالمرصاد.

أما تقي الدين بن أبي اليسر، فقد تجلت في قصيدته ملامح النكبة بأدق صورها ومعانيها، إذ ألقى الضوء على أفعال المغول في بغداد، فوقف على أطلالها متسائلاً عن جدوى الوقوف على خرائب صماء رحل عنها أهلها، وطلب من الوافدين إليها أن يكفوا عن زيارتها، فلا مضيف لهم بعدما قتل سكانها، وأقفر ربعها، وعفيت آثارها، فقال:[١]

لَسائل الدّمع عن بغدادَ أخبارُ فَمَا وُقُوفُكَ والأحبابُ قد ساروا
يا زائرين إلى الزَّوراءِ لا تفدوا فما بذاكَ الحمى والدارِ ديّارُ
تاجُ الخلافةِ والرّبعِ الذي شَرُفتْ به المعالمُ قد عفّاه إقفارُ
أضحى لِعصْفِ البلى في رَبعِهِ أثرٌ وللدّموعِ على الآثار آثارُ

ثم صور الشاعر ما فعل المغول بنساء بغداد الجميلات العفيفات ، فقد سبوهن، وانتهكوا أعراضهن، وأخذوا " الدفائن والأموال التي لا تعد ولا تحصى، وكانوا يدخلون الدار فيجدون الخبيئة فيها ، وصاحب الدار يحلف أن له السنين ما علم أن بها خبيئة" [٢]، وقاموا أيضاً بقتل السكان، ولا يملك الشاعر حين شاهد النساء الشريفات يسوقهن المغول إلى السفاح، ويدفعوهن إلى الموت إلا أن يرفع يديه إلى السماء راجياً من الله تعالى أن يسلط عليهن عذابه ونقمته، وأن يحرقهن بالنار قبل أن يتلطخن بالعار والمذلة، يقول:[٣]

وكم حريمٍ سَبتهُ التُّركُ غاصبةً وكان من دون ذاك السّترِ أستارُ
وكم بدورٍ على البدريّة[٤] انخسفَتْ ولَم يَعُدْ لِبدورِ الحيّ إبدارُ
وكم ذخائرَ أضحَتْ وهي شائعةٌ من النّهاب وقَدْ حازتهُ كُفّارُ
وكم حدودٍ أُقيمتْ من سيوفهمُ على الرّقابِ وَحُطّتْ فيه أوزارُ
ناديتُ والسّبيُ مَهتُوك تجرّهمُ إلى السّفاح من الأعداء دُعّارُ
وهم يُساقون إلى المَوْتِ الذي شَهدوا النّار يا ربّ من هذا ولا العارُ

وكشف الشاعر سعدي الشيرازي في قصيدته عن جرائم المغول في بغداد، وجسّد مأساتها الحضارية، وبيّن فداحة خطبها، وما نزل بأهلها من عذاب، فقد حاصرهم المغول، وتقاسمتهم أيدي المنايا، وعمهم القتل، وكان لتلك الأفعال صداها في الأماكن الدينية الأخرى،

---

[١] الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ابن حبيب، درة الأسلاك، ٢٥/١، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٨/٧، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٧٣، ابن العماد، شذرات الذهب، ٤٦٩/٧، العاصمي، سمط النجوم العوالي، ٥٢١/٣. SOMOGY, Aqasida On the Destruction Of Baghdad, Page 44.

[٢] الذهبي ، تاريخ الإسلام، ص٣٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٨/٧-٤٩، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٧٣، العاصمي، سمط النجوم العوالي، ٥٢١/٣، ابن العماد، شذرات الذهب، ٤٨/٧، . SOMOGY, Aqasida On the Destruction Of Baghdad, Page 44.

[٣] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٢٧١/٨.

[٤] البدرية: أحد أبواب الخلافة في بغداد، يسكن فيه أمراء الدولة وقوادها، انظر ابن الكزروني، مقامة في قواعد الدولة العباسية، ص٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فثكلت مكة، وسكبت الكعبة دموعها من الميزاب الذي يصب في حجر إسماعيل، ولم يستثنِ المغول العلماء من القتل، بل شملهم الفناء[١] ، حتى بكتهم مدرسة المستنصرية[٢] ، التي كانوا يدرّسون فيها، ومحابرهم التي كانوا يستعملونها، وتمنى الشاعر الموت قبل نكبة أولئك العلماء ، فقال:[٣]

تسائلني عمّا جرى يوم حَصْرهم ... وذلك ممّا ليس يَدْخلُ في الحَصْرِ
أُديرتْ كؤوسُ الموتِ حتّى كأنه ... رؤوس الأسارى تَرجحنّ من السّكرِ
لقد ثكلت أمُّ القُرَى ولكعبةٍ ... مدامعُ في الميزابِ تُسكبُ في الحِجْرِ
بكتْ جُدرُ المستَنصِريّة نُدبةً ... على العلماءِ الرّاسخين ذوي الحِجْرِ
نَوائبُ دَهرٍ ليتني متُّ قَبلها ... ولم أرَ عُدوان السّفيه على الحَبرِ
محابرُ تبكي بعدهم بسوادها ... وبعضُ قلوبِ النّاس أحلك من حِبرِ
لحى اللهُ من يُسدى إليه بنعمةٍ ... وعِند هجوم النّاس يألفُ بالغَدرِ

ويقف الشاعر عند عبادان [٤] يرقب نهر دجلة ، فيجد مياهه مصبوغة بالدماء، ويسلط الضوء على ما حلّ بمدينة واسط من القتل والسجن والنهب ، فتشتعل نار الحرقة في قلبه، ولم يجده ذلك في تخفيف الألم واللوعة، ويتخيل الشاعر المكان الذي ذبح فيه أهل بغداد، وقد نبت فيه العندم ، فيقول:[٥]

وقَفتُ بعبّادان أرقُبُ دجلةً ... كمثل دمٍ قانٍ يسيلُ إلى البحرِ
وفائضُ دمعي من مُصيبةِ واسطٍ ... يزيد على مدّ البحيرةِ والجزرِ
فجَرتُ مياه العينِ فازدَدْتُ حُرقةً ... كما احتَرَقَتْ جوفُ الدّماميلِ بالفَجرِ
ولا تَسألَني كَيفَ قلبُكَ والنّوى ... جراحةُ قلبي لا تبيّنُ بالسّبرِ
كأنّ دمَ الأخوين أصبح نابتاً ... بمذبح قتلى في جوانبه الحُمرِ

ويتحدث الشاعر عما أصاب نساء بغداد من ذل الأسر، ويقارن بين وضعهن قبل ذلك وبعده، فهن عزيزات، ومتنعمات، وكواعب وعذارى كالشهب جمالاً، ومخدرات لم يبرزن من خدورهن، أما بعد الأسر فقد أشقاهن المغول، وقطعوا بهن القفار الشاسعة مشياً على أقدامهن،

---

[١] لقد ارتكب المغول جرائم كبيرة بحق علماء بغداد وأدبائها، انظر الأشرف الغساني، العسجد المسبوك، ٢/٦٣٥-٦٤٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/٢٣٩،٢٤١،٢٤٢، ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ٤/٢٦٢-٢٦٤، الكتبي ، عيون التواريخ، ٢٠/٢٠٤، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١/٣٤٠، ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ٣٢٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧/٦٢-٦٣، ابن العماد، شذرات الذهب، ٧/٤٨١-٤٩٤.

[٢] بناها الخليفة العباسي المستنصر بالله، سنة ٦٣٠هـ، وسميت باسمه، انظر كليمان هوار، خطط بغداد، ص٢١.

[٣] جعفر شيرازي ، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، ص١٢، سعدي الشيرازي، كليات سعدي، ص٨٦، حسين محفوظ، المتنبي وسعدي، ص ٧٣، سعدي الشيرازي، ص١٧٤، د. عبد الوهاب عزام، سعدي الشيرازي شعره العربي ، ص٥.

[٤] عبادان: جزيرة في فم دجلة العوراء، انظر البغدادي، مراصد الاطلاع، ٢٠/٩١٣.

[٥] جعفر شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، ص٣٤، سعدي الشيرازي، كليات سعدي، ص٨٦، حسين محفوظ، المتنبي وسعدي، ص٧٣، سعدي الشيرازي خريج بغداد، ص١٧٤-١٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وساقوهن وهن لم يعتدن الزجر والمشي على الحجارة، وكشفوا أستارهن. ولذلك نجد الشاعر متمنياً لو أنه أصيب بالصّمم قبل استماع نبأ سبيهن وهتك أعراضهن[١]، ويكرر الشاعر وقوفه على عبادان ، ونهر الصراة[٢] ، ويبدو أن تلك الأماكن كانت ملطخة بدماء المسلمين أكثر من غيرها، ويقرنها بمنى حيث ينحر المسلمون ذبائحهم، ثم يرسم صورة للدموع الغزيرة، التي تدفقت من عيون النساء الثكالى حزناً على من فقدن من أولادهن، وأزواجهن. ويكنى عن المغول " بعترة قنطوراء"[٣] ، ويصور ما فعلوه ببني العباس بعد أسرهم إذ طافوا بهم الأسواق بحثاً عن مشترين، يقول:[٤]

فَلَيتَ صِماخي صمّ قبل استماعهِ بهتكِ أساتيرِ المحارمِ في الأسرِ
عَدَونَ حفايا سَبْسَباً بعد سَبْسَبٍ رخائم لم يَسطعن مشياً على الحُبرْ
لعمرك لو عاينتَ ليلةَ نَفرِهم كأنّ العذارى في الدّجى شهبٌ تسري
ومستصرخ يا للمروءة فانصروا ومن يُصرْخ العُصفور بين يدي صقْرِ؟
يساقونَ سوقَ المعزِ في كبدِ الفَلا عزائز قومٍ لم يعوّدن بالزّجرِ
جُلبنَ سبايا سافراتٍ وجوهُها كواعبُ لم يبرزنَ من خَلَلِ الخدرِ
وعترةُ قنطوراء في كلّ مَنْزلٍ تصيحُ بأولادِ البَراملكِ من يشري؟
وقفتُ بعبّادان بعد صَراتها رأيتُ خضيباً كالمنى بدمِ النّحرِ

وقد أكثر الشعراء الذين رثوا بغداد من وصف ما حل ببني العباس على أيدي المغول، وكشفوا عن أثره على الدين الإسلامي، فقد قتل المغول "من كان في دار الخلافة من الأشراف، ولم يسلم منها إلا من هرب أو كان صغيراً، فإنه أخذ أسيراً"[٥] ، وأسروا "من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما يقال"[٦] .ومن الطبيعي أن يتوجع الشعراء على مصير الخليفة وآل بيته، ويركزوا على تصوير ما نزل بهم، فالخليفة رمز موحد للمسلمين، ونفوذه الديني بعيد الأثر في نفوسهم، والقضاء عليه يعني اضمحلال الإسلام، وفقدان رمز وحدتهم وحمايتهم، وقد أشار السبكي إلى ذلك حين قال: "هذه بغداد لم تكن دار كفر قط، جرى عليها هذا الذي لم يقع منذ قامت الدنيا مثله، وقتل الخليفة، وإن كان وقع في الدنيا أعظم منه إلا أنه أضيف له هوان

---

[١] راند عبد الرحيم، صورة المغول، ص٨٨.

[٢] نهر في بغداد يعبر في دجلة عند باب البصرة، انظر ياقوت، معجم البلدان، مادة "صراة".

[٣] اسم يطلق على الترك والصين، انظر ابن منظور، لسان العرب ، مادة "قنط".

[٤] جعفر شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، ص٣٦-٣٧، سعدي الشيرازي، كليات سعدي، ص٨٧، حسين محفوظ، المتنبي وسعدي، ص٧٤-٧٥، سعدي الشيرازي خريج بغداد، ص١٧٥-١٧٦.

[٥] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، الهمذاني ، جامع التواريخ، ٢/٢٩٤، العيني، عقد الجمان، ١/١٧٥، النويري، نهاية الأرب، ٢٣/٣٢٤.

[٦] ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/٢٢٩، وانظر الهمذاني، جامع التواريخ، ٢/٢٩٢، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٤٧٥، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٨/٢٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدين و البلاء الذي لم يختص بل عم سائر المسلمين"[١] ، فهذا الشاعر تقي الدين ابن أبي اليسر أنطفأت في نفسه الرغبة بالحياة، واسودت الدنيا في عينيه، بعدما أسر المغول العباسيين، وقتلوا رجال العلم في بغداد، وبين الشاعر مكانة العباسيين الدينية حين نعتهم "بآل النبي"، وكشف عن أثر فقدهم على الدين والدنيا، فقال:[٢]

يا للرّجالِ بأحداثٍ تحدّثنا ... بما غدا فيه إعذارٌ وإنذارُ
منْ بعد أسر بني العبّاسِ كلّهمُ ... فلا أنارَ لوجهِ الصُّبحِ إسفارُ
فما راق لي قطّ بعد بينهمُ ... إلاّ أحاديثُ أرويها وأخبارُ
لم يبقَ للدّينِ والدُّنيا وقد ذهبوا ... شوقٌ لمجدٍ وَقَد بانوا وقد باروا
آلُ النبيّ وأهلُ العلْم قد سبيوا ... فمن ترى بعدهم تحويه أمصارُ ؟
ما كُنْتُ آملُ أنْ أبقى وقد ذهبوا ... لكن أتَتْ دون ما أختارُ أقدارُ

وقال أحد الشعراء في "فقد الخلافة من بغداد بيتاً مفرداً وأجاد"[٣]

خَلَت المنابرُ والأسرّةُ منهمُ ... فعليهمُ حتّى الممات سَلامُ

أما سعدي شيرازي، فتساءل عن مصير بني العباس ذوي الأخلاق الحميدة والسيادة، فأجاب بأنهم هلكوا وأصبحوا ذكرى يسترجعها الناس في مسامراتهم وأحاديثهم، وبيّن أثر هلاكهم على الدين، وتأثر بقوله صلى الله عليه وسلم: "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ" [٤] ، ليصور غربة الإسلام بعد زوال الخلافة، وأسر نساء المسلمين ونقلهن إلى ديار الكفر، وتعجب من الخطب التي غدت خالية من ذكر المستعصم بالله، واستعار صورة الضفادع المتجمعة حول مياه المستنقعات ليشير إلى المغول، وما غمرهم من فرح حين شعروا بنشوة الانتصار، وشمتوا بالخليفة الذي استعار له شخصية يونس عليه السلام الذي التقمه الحوت، واستقر به في قعر البحر لتصوير شدة المحنة التي وقع فيها، ثم أورد صورة لبغداد وقد امتلأت بالغربان فلزمت العنقاء وكرها، والغربان هنا هم المغول، والعنقاء الخليفة[٥]، وهذا ما عبر عنه في قوله:[٦]

وهَب أنّ دارَ المُلْك تَرجعُ عامراً ... ويُغسل وجهُ العالمين من العَفرِ
فأين بنو العبّاسِ مُفتَخرُ الورَى ... ذوو الخُلُق المرضيّ والغررِ الزُهرِ؟
غدا سَمَراً بين الأنامِ حديثُهم ... وذا سَمَرٌ يُدمي المسامعَ كالسُّمرِ

---

[١] السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ٢٧٢/٨.

[٢] الذهبي ، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص٣٨-٣٩، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٤٩/٧، SOMOGY, Aqasida On the Destruction of Baghdad, Page 44.

[٣] بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص٣٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،٤٩/٧.

[٤] صحيح مسلم، ١٣٠/١.

[٥] انظر مأمون حرار، أعداء الغزو المغولي، ص١٥٥، رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص٧٣، ٧٩.

[٦] جعفر شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، ص٣٤-٣٥، سعدي الشيرازي، كليات سعدي، ص٨٦-٨٧، حسين محفوظ، المتنبي وسعدي، ص٧٤، سعدي الشيرازي خريج بغداد، ص١٧٤-١٧٥، د. عبد الوهاب عزام، الشيخ سعدي الشيرازي شعره العربي، ص٥-٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الخَبَرِ المرويِّ دينُ محمدٍ يعود غريباً مثْـل مُبتدا الأمـرِ
أأغربُ من هذا يعودُ كما بـدا وسْبي ديار السّلمِ في بَلَدِ الكُفـرِ ؟
أيُذكَرُ في أعلى المنـابرِ خُطْبَةٌ ومُستعصِمٌ بالله لم يكُ في الذّكـرِ
ضفَادعُ حولَ الماء تَلعَبُ فرحةً أصبرٌ على هذا ويُونسُ في القعرِ؟
تزاحمَت الغربانُ حول رُسومها فأصبَحَت العَنْقاءُ لازِمَةَ الوَكْـرِ

ولم يكتف المغول بالاعتداء على الأحياء من بني العباس، بل تعداهم إلى الموتى منـهم، فحين شاهد شمس الدين الكوفي الواعظ "ترب الرصافة[١] وقد نبشت قبور الخلفـاء، وأحرقـت تلك الأماكن وأبرزت العظام والرؤوس ، كتب على بعض الحيطان"[٢] :

إنْ تُرِدْ عِبرةً فَتِلكَ بنو العـبـ ـباسِ حلّتْ عليـهم الآفاتُ
استبيح الحريمُ إذ قُتِلَ الأحْـ ـياء منهم وأحـرقَ الأمواتُ

وأكد الشاعر نفسه أثر سقوط حاضرة الخلافة على الدين الإسلامي في غـير قصيـدة، ومن ذلك قوله:[٣]

ربعُ الهدَايةِ أضحى بَعْدَ بُعدهمُ معطّلاً ودمُ الإسـلامِ مُنْسَـفِكُ
والشّركُ منجبرٌ والملكُ منكسرٌ والحقُّ مُستَتِرٌ والسّترُ مُنْهتكُ

وقوله:[٤]

فَلبِعدهمْ قرُبَ الرّدىَ ولفِقْدهمْ فُقِدَ الـهُدى وتزلزلَ الإسلامُ

وتحدث الشعراء عن الأفعال التي ارتبكها أحلاف المغول من النصـارى فـي بغـداد، وأشاروا إلى المنزلة الرفيعة التي وصلوا إليها آنذاك[٥] ، وتجدر الإشارة إلى أن المسيحيين فـي أوروبا حرصوا على عقد تحالفات مع المغول لضرب العالم الإسلامي، والقضاء علـى الخلافـة الإسلامية، ولتحقيق ذلك تبادلوا الرسل معهم، ووقعوا اتفاقيات هدفوا من ورائها التعاون للسيطرة على البلاد الإسلامية[٦] ، ولقد هلل المسيحيون الشرقيون لما قام به المغول مـن أعمـال ضـد المسلمين، وعدّوهم حماة للمسيحية الذائدين عنها، الآخذين بالثأر لها، فحرص بعـض ملوكـهم وأمرائهم على ملازمتهم، وتحريضهم ضد المسلمين، ووجدوا غزو المغول للعراق فرصة طيبـة للثأر من الإسلام، والمسلمين " واعتبروا تلك الغزوة حملة صليبية أتت لنصـرة المسـيحيين[٧] ، ولذلك كانت القوات المغولية التي غزت بغداد مدعومة بقوات من أرمينيا، وجورجيـا، وبعـض

---

[١] هي مدفن الخلفاء العباسيين في بغداد.

[٢] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٣٥.

[٣] المصدر نفسه، ص٣٣٤، الكتبي عيون التواريخ، ٢٠/١٣٧.

[٤] الكتبي، فوات الوفيات، ٢/٢٣٢، عيون التواريخ، ٢٠/١٤٠.

[٥] انظر ماهود حرار، أعداء الغرو المغولي، ص٨٩ وما بعدها، رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص١٠٤ وما بعدها.

[٦] انظر د. نعمان حرار، د. محمد العماري، محاولات المغول "إيلخانية فارس" للتحالف مع القوى الأوروبية لاقتسام بلاد الشام، ص٢٣٧، ص٢٤٥-٢٤٦.

[٧] د. سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ٢/١٠٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رثاء الشام

تعرضت الشام في العصر المملوكي الأول غير مرة لغزو المغول، ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها، وهزيمة الجيش الإسلامي سوى مرتين. أما المرة الأولى، فكانت سنة ٦٥٨هـ، فبعد سقوط بغداد لم يبق أمام هولاكو من الخطة المرسومة له سوى الشام ومصر، فراح يخطط للاستيلاء عليها، وكانت الشام آنذاك تخضع في جزء كبير منها لسيطرة الملوك الأيوبيين، وفي مقدمتهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان الأخير على عداء مع غيره من أمراء الأسرة الأيوبية، ومع الدولة المملوكية في مصر[١]، ولم يتخذ المذكور الإجراءات اللازمة لصد المغول، بل على العكس من ذلك تقاعس على نصرة غيره من الأمراء الأيوبيين، الذين جاءوا يعرضون عليه الوحدة لصد المغول[٢]، وبعد أن أرسل له هولاكو رسالة يتهدده فيها، ويأمره بتقديم فروض الطاعة والاستسلام[٣] ، ما كان منه إلا أن خارت قواه، ومال إلى المسالمة والموادعة، ورغب في عقد حلف مع هولاكو، فأرسل إليه ابنه العزيز مع غيره من الأمراء بهدايا كثيرة، وطلب منه "نجدة ليأخذ مصر من المماليك"[٤]، إلا أن هولاكو شك في صدق نية الملك الناصر فأرسل إليه رسالة مع ابنه العزيز يطلب منه المجيء إليه وإعلان الخضوع والتبعية، فلما وصلت الرسالة الناصر تملكه الخوف، وبقي متردداً، ولم يمكنه الأمراء من المشي إليه[٥]، "وأجابه بجواب يظهر فيه القوة وعدم المبالاة" [٦]، ولما علم الناصر بحركة التتار رحل إلى وطاة برزة شمالي دمشق " في جحافل كثيرة من الجيش والمتطوعة والأعراب وغيرهم، ولما علم ضعفهم عن مقاومة المغول ارفضّ ذلك الجمع ولم يسر هو ولا هم". [٧]

أما هولاكو ، فقد سار من بغداد بنفسه، وأخذ يستولي على ما تحت يد الملك الناصر حتى استولى على مدينة حلب "وقتل فيها أكثر من الذي قتل في بغداد"[٨]، وسبى من النساء والذراري، وبقي السيف مبذولاً سبعة أيام، وامتنعت عليهم قلعة حلب فحاصروها مدة شهر ثم

---

[١] انظر ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٤٧/١٣.

[٢] انظر ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٢٧٧.

[٣] انظر الرسالة في الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٧هـ، ص٤١، ٥٨، الكتبي، عيون التواريخ، ١٣٦/٢٠، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٤٧٣-٤٧٥، الطباخ، أعلام النبلاء، ٢٢٧/٢.

[٤] المقريزي، السلوك، ج١ق١/٤١٠-٤١١، وانظر ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ١٩٤/٢، النويري، نهاية الأرب، ٣٨٢/٢٩، العيني، عقد الجمان، ٢١٧/١.

[٥] انظر ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٤٨٦.

[٦] الغزي، نهر الذهب، ١٥٦/٣، الطباخ، أعلام النبلاء، ٢٢٨/٢.

[٧] ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٤٤/١٣، وانظر الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص٢٨٠، الكتبي، عيون التواريخ، ٢١٤/٢٠، النويري، نهاية الأرب، ٣٨٩/٢٩، المقريزي، السلوك، ج١ق٢/٢٤٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٦٩/٧، العيني، عقد الجمان، ٢١٩/١، أبو الفداء، المختصر، ٣٠٠/٣.

[٨] ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٧٨٧، الطباخ، أعلام النبلاء، ٢٣٢/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سلمت إليهم بالأمان[١] ، ثم استولى المغول على دمشق بالأمان وسائر الشام إلى غزة، واستقر نوابهم فيها[٢] ،وبسقوط الشام سقطت الدول الأيوبية منها، وكانت قد انقضت من مصر قبل ذلك.

أما المرة الثانية التي سقطت فيها الشام، فكانت سنة ٦٩٩هـ، وكانت وقتذاك تحت سلطة الدولة المملوكية، ففي تلك السنة سار القائد المغولي غازان بجموعه إلى بلاد الشام، فخرج المسلمون بقيادة الملك الناصر محمد بن قلاوون لقتاله، والتقى الجمعان في وادي الخزندار بين حمص وسلمية، فلحقت الهزيمة بعساكر المسلمين، واستولى المغول على حمص ودمشق، وتبعوا المنهزمين إلى غزة والقدس، والكرك، وتوجهت طائفة منهم إلى صفد وبيسان، ولم تمتنع عليها سوى قلعة دمشق، فإن نائبها علم الدين أرجواش المنصوري، امتنع عن تسليمها، وقام في حفظها خير قيام، وأقام غازان في الشام نواباً عنه، سيف الدين قبجق، وسيف الدين بكتمر، وسيف الدين إلبكي، وكان هؤلاء قد رحلوا إلى غازان، وحثوه على دخول الشام، ثم غادر غازان راجعاً إلى بلاده.[٣]

أما عن سقوط الشام سنة ٦٥٨هـ، فقد نظم الشعراء أشعاراً عبروا من خلالها عن تلك المأساة، وكانت مدينة حلب أكثر مدينة حظيت باهتمام الشعراء، وذلك لكثرة ما نزل فيها من بلاء المغول الذين نكلوا بسكانها، وقتلوا الكثيرين منهم حتى غدت الطرقات ممتلئة بجثث القتلى.

ويلخص الذهبي نكبتها بقوله: فصارت حلب "خاوية على عروشها، فقد هدت أسوارها، وهدمت قلعتها، وأحرقت دورها الفاخرة، وباد أهلها ، وأصبحت عبرة للناظرين".[٤]

ولم يشر المؤرخون إلى حجم الشعر الذي نظم في رثاء تلك المدينة، كما أشاروا من قبل حينما سردوا وقعة بغداد على سبيل المثال، ولكن البحث والتنقيب أسفر عن العثور على قصيدة نظمها الشاعر كمال الدين ابن العديم، وبلغت خمسة وثلاثين بيتاً، وشارك الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في رثاء حلب، فبعد أن أسره المغول، ومروا به على خرائب ملكه، صنع "في نعيها أشعاراً يغني بها المسمّعون" [٥] ، ولم يصل إلينا منها سوى مقطوعات قليلة، وأجزاء من قصائد مختزلة.

---

[١] انظر أبو الفداء، المختصر، ٣/١٩٩، ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٤٨٦، النويري، نهاية الأرب، ٢٧/٣٨٥، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١/٣٤٢، العيني، عقد الجمان، ١: ٢٣٠، المقريزي، السلوك، ج١ق٢/٤١٩، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٨هـ، ص٥٠.

[٢] انظر أبو الفداء، المختصر، ٣/٢٠٥، بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص٤٣، المقريزي، السلوك، ج١ق٢/٤٤٦، ابن الشحنة، تاريخ ابن الشحنة على هامش الجزء التاسع من تاريخ ابن الأثير، ص١٢١، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٦هـ، ص٥١،٥٥.

[٣] انظر وقائع المعركة: ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٥٠٢-٥٠٣، بيبرس المنصوري، تختار الأخبار، ص١١٢، الدواداري، كنز الدرر، ٩/١٥وما بعدها، المنصوري،زبدة الفكرة، ص٣٣، أبو الفداء، المختصر، ٤/٤٣، الذهبي، العبر، ٣/٣٩٤، ابن كثير ، البداية والنهاية، ١٤/٧، الكتبي، عيون التواريخ، ١٩/١٤٦، العسقلاني، تحفة ذوي الألباب، ٢/٢٠٤، أمراء دمشق في الإسلام، ص١٥٧، النويري، نهاية الأرب، ٣١/٣٨٤، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٨/٩٤، العيني، عقد الجمان، ٤/٨، ابن سباط ، تاريخ ابن سباط، ١/٥١٩-٥٢٠، ابن حبيب ، تذكرة النبيه، ١/٢٢٠، المقريزي، السلوك، ج١ق٣/٨٨١، اليافعي، مرآة الجنان، ٢/١٧٢، ابن الشحنة، تاريخ ابن الشحنة، ص١٠٣، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١/٤٠٣.

[٤] الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٩هـ، ص٤٠٣، وحوادث ٦٥٨، ص٥٠، وانظر العبر، ٣/٢٨٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/٢٤٧.

[٥] المقري، نفح الطيب، ٣/١٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأشار الدواداري، إلى طول بعض القصائد التي نظمها ذلك الملك، فقال بعد أن ذكر أجزاء من قصيدة الناصر التي مطلعها:

يَعزُّ عَلَيْنَا أنْ نَرى رَبْعَكُم يَبلى وكانَتْ به آياتُ حُسنكُمْ تُتْلى

"وهي قصيدة طويلة نيف وستون بيتاً ..... فلذلك أضربت عن إثبات جملتها كون تاريخنا تاريخ اختصار لا تاريخ تحشيةٍ وإكثار"[١].

أما دمشق، فلم ينظم الشعراء أشعاراً خاصة في رثائها، ووصف سقوطها ، بل جاء الحديث عن ذلك في الأشعار التي تناولت الغزو المغولي عامة، وتلك التي رثت الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومرد ذلك إلى أنها لم تستعص على المغول مثل حلب، بل سلّمت إليهم بالأمان ، ولقيهم كبراؤها بالترحيب والتهليل[٢] ، ولذا لم يرتكب فيها هولاكو أعمالاً وحشية مثلما فعلوا في حلب، فهو إلى جانب الأمان الذي أعطاه لسكانها، كان يحمل فكرة مفادها أنه "من آذى دمشق وأهلها يموت"[٣] .

واختفى الشعر الذي رثى مدن الشام الأخرى، على الرغم من فظائع المغول فيها[٤]، ولم يصل سوى مقطوعة واحدة صورت ما فعله المغول بقلاع معرة النعمان.

أما الأشعار التي رثيت بها مدينة حلب، فقد تنوعت مضامينها، فالشاعر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب عزّ عليه أن يرى دار ملكه يتحكم فيها الغرباء، وآلمه حالة الدمار التي وصلت إليها بعدما كانت عامرة بالحسن والجمال، ولذا راح يتوجع على ما أصابها، ويبكي بدموع غزار، وصار يستذكر أيام نعيمها، وصور حالته النفسية، وما يعانيه من ذل الأسر، حين رأى جموع المغول وأحلافهم من الأتراك يصولون في أكنافها، ولكنه عزّى نفسه بما نكب به العباسيون قبله، فقد نكل بهم المغول، وأسروا بعضهم، وقتلوا الآخرين، وهذا ما عبر عنه في قوله:[٥]

يَعزُّ عَلَيْنَا أنْ نَرى رَبْعَكُم يبلىَ وكانَتْ بـه آياتُ حُسـنكُمْ تُتْلى
لقد مرَّ لي فيه أفانيـن لـذَّةٍ فَما كان أهنا العَيْش فيهِ وما أحلا
أقلِّب قَلبي نحوَكُم في دياركـم فأكثرُ فِيهِ النوحَ كالنّاحـة الثّكلى
أأحبابنا والله ما قُلتُ بَعدكُـم لحادثةِ الأيـامِ رفـقاً ولا مَهْلا

---

[١] الدواداري، كنز الدرر، ٥٩/٨.

[٢] انظر الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٨، ص٥١، العبر، ٢٨٨/٣، ابن كثير، البداية والنهاية، ٢٤٧/١٣.

[٣] الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث ٦٥٨هـ، ص٥٩.

[٤] انظر ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص٤٨٨، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢٠٠/٢، ابو الفداء، المختصر، ٢٠٣/٣، الدواداري، كنز الدرر، ٤٧/٨، المقريزي، السلوك، ج١ق٤٤٦/١، العيني، عقد الجمان، ٢٤٠/١.

[٥] الدواداري، كنز الدرر، ٥٨/٨-٥٩، ابن دقماق، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، ص٢٦٠، الذهبي، تاريخ الإسلام ، حوادث ٦٥٩هـ، ص٤٠٣، بيبرس المنصوري ، زبدة الفكرة، ص٥٠، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢٩٦/٢، العيني، عقد الجمان، ٢٣٥/١، أعلام النبلاء، ٢٣٥/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عَبَرتُ على الشّهباءِ وفي القلبِ حَسرةٌ ومن حولها تركٌ يشايعهم مغلا[١]
لقد حَكموا في مُهْجَتي حُكـــمَ ظالـمٍ ولا ظالم إلا سَيُبلـــى كَما أبلى
ولي أسوَةٌ مـــع آل بَيـــتِ مُحـــمّدٍ فبعَضهمُ أسرى وبَعـــضُهمُ قَتلى

وقال متوجعاً ومعبراً عن حبه لحلب:[٢]

مَرَرتُ بجَرعاءِ الحمـــى فَتلَفّتـتْ لحاظي إلى الدّار التّي رَحَلوا عَنها
ولو كان عنْدي ألفُ عَيْنٍ وقُمتُ في مَعالمها عُمْري لمـــا شَبِعَتْ مِنـــها

وفي مقطوعة أخرى يدعو الشاعر لحلب بالسقيا ، ويصور دموعه المتدفقة، ويؤكد حبـــه لها، فهي البلد الوحيد الذي يصبو للعيش فيه، يقول:[٣]

سَقى حَلبَ الشّهباء في كلّ بقعـــةٍ سحائبُ غيثٍ نوءها مثلُ أدمعي
فتِلكَ مَرامي لا العقيقُ ولا اللّوى وتلكَ ربُوعي لا زرُود ولعلـــى

وأكثر ما يؤلم الملك الناصر أن يموت في أسر المغول، وديار الغربة، ولا يشعر به أحـــد من أحبابه، ويوضح ذلك قوله:[٤]

لكنّ أصْعَبَ ما ألقاه مِنْ ألمٍ أنّي أمَوتُ ولا تَدْري الأحِبّةُ بي

ويواصل الشاعر الدعوة للشام بالسقيا، ويخص حلب وأهلها بالحزن المتجـــدد والشـــوق، ولكن روح اليأس تغلب عليه، فيستسلم للقضاء، الذي حكم عليه بالفراق فيقول:[٥]

سَقى الله أكنَـــافَ الشّآمِ ومَعْهـــداً به العَهدُ باقٍ لا يَزال مُواظبـــا
ولا بَرحَتْ أرض المَواسِمِ عِصْمَةً من السّوءِ تُسقى دائمَ الأفُقِ دائباً
أيا ساكِنَ الشّهْبَاءِ لا زال حـــبّكمُ يخالِط مِنّي أعَظُمي والتّرائبـــا
وَحُزني عليكُم لا يـــزَالُ مجـــدّداً وشَوْقي إليكم لا يَزالُ مُغالبـــا
أرومُ لِقاكم والقَضـــاءُ يعُيقنـــي فَلْو جَاد سيّرت السّحَابَ رَكائباً
وعفّرتُ خدّي في الثّرى فَرَحاً بِكُم وقُلْتُ لقَلْبي وقد بَلغتُ المآربـــا

تكمن أهمية تلك الأشعار في أنها صدرت من رحم المعاناة التي عاشها ملك فقد ملكـــه، وصار ذليلاً بين يدي آسريه، ولذلك جاءت مشاعره صادقة تنطق عما يجيش في نفسه ، وتتجسد في ثناياها معاني الألم، والغربة، والحزن، والضياع، والذكريات، والتلهف على الأمجاد الزائلـــة، فهو لا يرثي حلب فحسب، ولكنه يرثي نفسه أيضاً.

---

[١] خطأ نحوي والصواب "مغل"، وهذا إقواء.
[٢] المقري، نفح الطيب، ١٢٣/٧.
[٣] الدواداري، كنز الدرر، ٥٧/٨.
[٤] الدواداري، كنز الدرر، ٥٨/٨.
[٥] المصدر نفسه، ٥٨/٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما كمال الدين بن العديم، فكان قد قدم "مصر لما جفل الناس من التتار، ثم عاد إلى حلب بعد خرابها، فلما نظر إليها ورأى ما فعله التتار بها،تأسف وقال في ذلك قصيدة طويلة"[١]، بدأها بالحكمة والموعظة والشكوى من الدهر الذي لا يبقي شيئاً على حاله، فقانونه التبديل والتغيير والهدم، وقد أفنى هذا الدهر قديماً ممالك كسرى وقيصر المنيعة، وبدد جيوشها، وقضى على ملك العباسيين، وطمس آثارهم، وبدل حالهم، فبعدما كانوا قبلة الملوك يزدحمون على أبوابهم، نزلت بهم وبقصورهم المذلة، والهوان، وأزال كذلك دولة الأيوبيين على الرغم من عظمتها ومنعتها، قال:[٢]

هُوَ الدّهرُ ما تبنيه كفّاكَ يهدمُ ... وإنْ رُمْتَ إنصافاً لديهِ فَيظْلَمُ
أبَاد مُلوكَ الأرضِ كِسرى وقَيْصراً ... وأُصمتْ لدى فرسانها مِنْهُ أسْهُمُ
ومُلكُ بَني العبّاسِ زال ولَم يَدَعْ ... لهَمْ أثراً من بعدهم وَهُمْ هُمُ
وأعتابهُم أضحتْ تداسُ وعهدها ... تُباسُ بأفْواه المُلُوكِ وتُلثَمُ
وأفنى بَني أيّوبَ مَع كَثْرِ جَمْعِهِمْ ... وما منهُمُ إلا مليكٌ معظّمُ

مهد الشاعر بأبياته السابقة للحديث عن حلب، التي شملها عدوان الدهر، وليعزي نفسه ، فإن ما أصابها قانون عام يشمل جميع المدن والممالك، ثم ألقى الضوء على نكبتها منذ لحظة هجوم المغول عليها، وحصارهم لها، وكشف عن عددهم وعدتهم، وخططهم العسكرية، وأجمل ما جرى فيها من المصائب، أما الغزاة، فكانت أعدادهم كبيرة كالسحاب المتراكم، أو أسراب القطاة، أو أمواج البحار الزواخر، هاجموا حلب بخيولهم السريعة الجرداء، وحاصروها ستة أيام، ثم شرعوا باقتحامها، والاستيلاء عليها، وكان هجومهم مباغتاً وسريعاً وعنيفاً لم تصمد أمامه حصونها المنيعة ، وهذا ما عبر عنه إذ قال: [٣]

وَعَن حَلَبٍ ما شئتَ قُلْ من عَجَائِبٍ ... أحلّ بها يا صَاح إن كُنْتَ تَعلَمُ
غداة أتاها للمنيّةِ بَغْتَةً ... من المُغْلِ جيشٌ كالسّحاب عَرَمْرَمُ
أحاطوا كأسراب القَطا بربوعِهَا ... على سُبَقٍ جُرْدٍ من الخيل طهّم
ومِن بَعْدِ ستٍّ هاجَموها وما لَهُم ... من الموت واقٍ لا ولا منه مِعْصَمُ
فَمَا دَفَعتْ أسوارها عنهم الذي ... دَهاهمُ ولا ما شيّدوا ورَمّموا
أتوها كأمواجِ البحارِ زَوَاخرٍ ... ببيضٍ وسُمْرٍ والقتامُ مُخيّمُ

---

[١] العيني، عقد الجمان، ١/٣٤٠.

[٢] أبو الفداء، المختصر، ٣/١٢١٥، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/٢٠٨، العيني، عقد الجمان، ١/٣٤٠، الغزي، نهر الذهب، ٣/١٦٤، الطباخ، أعلام النبلاء، ٢/٢٥٤.

[٣] العيني، عقد الجمان، ١/٣٤٠-٣٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويسلط الشاعر الضوء على الأفعال التي اقترفها المغول في حلب، ويصور دخولهم لـــها يوماً عصيباً وهنا يتأثر بالقرآن الكريم، إذ جعل أحداثه تشبه أهوال يوم القيامة، فقد أظلم جوهـــا، وسيرت الجبال، وعطلت العشار[١] ، وأذهلت كل مرضعة عما أرضعت، وأجرى المغـــول مـــن دماء أهلها أنهارا، واعتدوا على مساجدها ومدارسها فـــهدموها وجعلوهـــا ركامـــاً[٢] ، وعبثـــوا بمصاحفها وكتب علومها، ويركز الشاعر على وصف ما جرى لنساء حلـــب الجميـــلات، فقـــد سباهن المغول، وأهانوهن، وجزوا منهن الشعور، ولطخوا وجوههن بالدماء مـــن شـــدة اللطـــم، وكانوا قساة في تعاملهم معهن،"ينالون أغراضهم الدنيئة بالقوة،ولا يرقون للوجـــوه الجميلـــة ولا تلين قلوبهم للأصوات الضعيفة التي تستغيث مولولة شاكية"[٣]، يقول: [٤]

فَلَو حَلَبُ البيضاءُ عايَنَتْ تُربهـــا ... وَقَدْ عَنْدمَ الفضيُّ من تربها الدّمُ
وَقَد سُيرّت تلك الجبالُ وسجّرتْ ... بهنّ بحـــارُ المـــوتِ والجَوُّ أقتَمُ
وَقَد عُطّلت تلك العِشارُ وأُذهلتْ ... مَرَاضعُ عمّا أَرضَعتْ وهي هيّم
فيالَكَ مـــن يـــومٍ شديـــدٍ لُغامُهُ ... وقد أصبَحَت فيه المســـاجِدُ تُهدمُ
وَقَد دَرَسَتْ تلك المدارسُ وارتمَتْ ... مَصَاحِفُها فوق الثّرى وهي ضُخَّمُ
وقد جُزّرت تلك الشُّعورُ وضُمِّخَتْ ... وجوه بأمواهِ الدّمـــــاء وهي تُلطمُ
وكلّ مَـــهاةٍ قـــد أُهينـــــتْ سَبيّةٌ ... وقد طال ما كانت تُعـــزُّ وتُكـــرمُ
وتنادي إلى من لا يجيبُ نداءهـــا ... وتشكو إلى مَنْ لا يـــرقُّ وَيَرحَمُ
فما غادروا إلاّ اليَسيرَ وقـــد أتـــى ... الحسابُ على البَاقين بالحرف يُقْسَمُ

ويستمر الشاعر في مناجاة حلب، ووصف ربوعها الدارسة المقفرة، ويتساءل عن ســـبب انقلاب الأحوال فيها مستخدما أسلوب المقابلة، فقد أضحت تلك المدينة جهنم تحرق كـــل شـــيء فيها، وصار لسان حالها ينطق عن بؤسها وشقائها، بعدما كـــانت عـــامرة، وملجـــأ للخـــائفين، والمحتاجين، ومصدر رعب للمسيئين ، ويكرر السؤال عن أهلها وعن أحبائه فيها وعن نســـائها الجميلات، وينهي قصيدته ببيان أن ما نزل بها هو من قضاء الله وقدره، فيقول:[٥]

فيا حَلَباً[٦] أنىّ ربوعُكِ أقفَرتْ ... وأعْيَتْ جـــواباً فهـــي لا تتكلّمُ
وكُنْتِ لمن وافاكِ بالأمس جَنّةً ... فما بالُ هذا اليوم أنـــتِ جَهَنّمُ ؟
وكيف أصابتك الحَوادثُ غِرّةً ... بعين الرّدى والبؤسُ عنك يترجمُ

---

[١] الناقة التي أتى عليها من وقت الحمل عشر أشهر. الرازي، مختار الصحاح، مادة "عشر".

[٢] انظر ما فعل المغول بمساجد حلب وعمارتها: أبو الفداء، المختصر، ٢٠٣/٣، المقريزي، السلوك، ج١ق٢٣١/١.

[٣] رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص٨٨، ٩٦.

[٤] أبو الفداء، المختصر، ٢١٥/٣، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢٠٨/٢، العيني، عقد الجمان، ٣٤١/١، الغزي، نهر الذهب، ١٦٥/٣، الطباخ، أعلام النبـــلاء، ٢٥٤/٢.

[٥] العيني، عقد الجمان، ٣٤١/١-٣٤٢، وورد البيت الأخير في أبو الفداء، المختصر، ٢١٦/٣.

[٦] الصحيح، "يا حلب".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما كُنت ملجاً لمن خاف حائراً وفيك لذى البأساءِ والضـرّ أنعمُ
أما كنْتِ غوثاً للوفود ومَقصِداً يَخَافُك ذو شرٍّ ويَرجـوكِ مُعْدمُ
يعزّ على قلبي المعُنىّ بأننّـي أرى رَبْعَكِ المأنوسَ قفراً ويَعْظُمُ
فأين أحبّائي الذين عَهدتـهم بِرَبعكِ والقطّان فيـك مُخـيّمُ؟
وأينَ شموسٌ كنّ بالأمسِ طُلّعاً فأينَ أستقلّوا بالرّكابِ ويَمّمـوا؟
ولكنّما لله فـي ذا مشيـئةٌ فَيَفْعَلُ فينـا ما يشاءُ ويَـحكُمُ

ويلاحظ على الشعراء الذين رثوا حلب أن روحهم المعنوية كانت محطمة، وقـد بـدت روح الاستسلام جلية في أشعارهم، ومرد ذلك إلى الواقع المرير الذي يحيط بـهم، فـلا مجـير يسمع صوت استغاثتهم، إذا ما استغاثوا، وهم في المقابل يواجهون عدوا شرساً لا رحمة لديه ولا شفقة، ولم يكن قد مني بهزيمة واحدة حتى ذلك الوقت أي إلى سنة ٦٥٨هـ .

وتلك الروح الإنهزامية التي سيطرت على المسلمين آنذاك عبر عنها أبو الفداء إذ قـال: "وكانت القلوب قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام، ولأنهم مـا قصدوا إقليماً إلا فتحوه، ولا عسكراً إلا هزموه"[١] ، لذلك خلت المراثي من الاستنجاد والحـض على الجهاد، فلمن يتوجه الشعراء بالنداء بعدما سقطت الدولة الإسلامية فـي إيـران، وبغـداد والشام؟.

ووصف أحد الشعراء ما أصاب معرة النعمان على أيدي لمغول، فكنى عنهم "بالأعـلجم"، وصورهم وهم يسخّرون أهلها لهدم قلعتهم، وحثّ أولئك الأهل على الامتناع عن ذلك لأنه تفريط بممتلكاتهم، لكن صوته الداعي إلى التمرد ما لبث أن خفت حين بين حالة العجـز التـي كـانوا عليها، وكشف في نهاية أبياته عن موقف المغول من الحضارة والمدنية، فبين أن السـبب الـذي دعاهم إلى هدم القلعة هو إسرافها في علوها، وهذا ما جاء في قوله :[٢]

رِفْقاً عَلَيْها قَلْـعةً منيـعةً يَهدمُها مَنْ هو من حِزْبها
فغَايةُ المُفْرطِ في سِلْمـها كغايةِ المفُرطِ في حَربـها
تَحُثّنا في هَدْمِهـا أعْجمٌ ونَحنْ مكروبون من كَربها
تَبْخَلُ أيدينـا بأرْواحـنا وتشتكي مِنّا إلى ربِّـها
لمّا رَأوْها أسْرَفَتْ في العُلا كان عُلاها مُنْتهى ذَنْبـها

وكان لسقوط الشام سنة ٦٩٩هـ صدىً كبير في الشعر العربي، فقد عمل "الشعراء فـي هذه النازلة أشعاراً كثيرة"[٣] ، إلا أن ما عثر عليها منها قليل، وجله في رثاء دمشق، وذلك لكـثرة

---

[١] أبو الفداء، المختصر، ٣/٢٠٥، وانظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧/٦٩.

[٢] ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/١٩٩.

[٣] الداوادار، كنز الدرر، ٩/٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما نزل فيها وبضواحيها، من عمليات قتل ونهب وأسر وتدمير أطال المؤرخون في وصفها، والحديث عنها[١]، وقد عثر على قصيدتين في رثائها إحداهما للشاعر تقي الدين بن تمام الحنبلي، وبلغت ثمانية وثمانين بيتاً، ونظم الأخرى علاء الدين بن علي الأوتاري الدمشقي، وعدد أبياتها تسعة وأربعون بيتاً، فضلاً عن عدد من المقطوعات نظمها شعراء آخرون، ولم تحظ الشام عامة إلا بمقطوعة واحدة قيلت في رثائها.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك شعراً ضاع ولم يصل إلينا، ودليل ذلك ما قاله ابن الجزري في ترجمة شهاب الدين أبي العباس التبريزي المعروف بابن كَرَشْتْ، المتوفى سنة ٧٣٥هـ، فقد ذكر أن للأخير قصائد في واقعة التتار سنة ٦٩٩ هـ، إلا أنه لم يثبت شيئاً منها[٢].

وتعد قصيدة تقي الدين بن تمام الحنبلي من أبرز القصائد التي قيلت في رثاء دمشق، فقد تعرض قائلها للتنكيل من المغول، إذ أسروه وربطوا في رقبته حبلاً وجروه[٣]، فنظمها وهو في أسرهم يعاني مرارة العذاب[٤] .

وبدأ الشاعر قصيدته بالشكوى من الدهر وخطوبه التي سلطت الأعداء المغول على دمشق، يتحكمون بأهلها، ويعفون رسومها، ويكشف الشاعر عن الأثر الذي خلفته تلك المأساة في نفوس المسلمين، فقد تمزقت قلوبهم حسرة عليها، وبكوها بالدماء، يقول:[٥]

هو الخَطْبُ من شَكوى الرزيّة أعْظَمُ أصابَ فَما أبقى وللدهْر أسهُمُ
فلا قَلبُ إلا قد تمَزّق حَسْرَةً ولا طرفُ إلاّ كفّ مَدْمَعِهِ دَمُ
على جلّق الفيحاء تَعفو رُسُومها وأيدي العدا فيها تَجورُ وَتْحكُمُ
دِمَشْقُ ديارُ الشّام للحُسْنِ شامَةٌ بِها تُشرق الدُّنيا منارا وتَبسمُ
جَرَتْ زفراتُ الدّهر فيها فَحَرّقتْ مواسمَ حُسْنٍ بالملاحَةِ تُوسَمُ
وَهَبّتْ عَلَيْها الحادثاتُ فأقْفرتْ ربوعٌ بها كان السّرورُ يخُيمُ

وينتقل الشاعر إلى تصوير الأعمال الوحشية التي اقترفها المغول في دمشق، فقد تفننوا في تعذيب السكان، وأنزلوا فنون العقاب المختلفة بهم، وعلى الرغم من أن القائد المغولي غازان كان مسلماً حين غزا الشام سنة ٦٩٩ هـ، إلا أن الشاعر وسمه بالكافر[٦] الذي ملك دمشق واستباح دماء المسلمين، ولم ينج من مجازرهم حتى الأطفال الصغار، فارتكبوا بحقهم أبشع صور القتل، ولم يرحموا طفولتهم وبراءتهم، كما أهانوا علماء المسلمين، وتعرضوا للنساء ذوات

---

[١] انظر الداوادار، كنز الدرر، ٤٣/٩، الكتبي، عيون التواريخ، ١٤٦/١٩، الصفدي، نكت الهميان، ٢٠٤/٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٠/١٤، العيني، عقد الجمان، ٣٤/٤، المقريزي، السلوك، ج١ ق٣/٨٩٥.

[٢] ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٧٨٨/٣.

[٣] انظر الكتبي، عيون التواريخ، ١٤٦/١٩، العيني، عقد الجمان، ٣٧/٤.

[٤] انظر الكتبي، عيون التواريخ، ١٥٠/١٩.

[٥] المصدر نفسه، ١٥٠/١٩.

[٦] انظر راند عبد الرحيم، صورة المغول، ص٥٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحسن والجمال، والصون ، والعفاف، ففجروا بهن، وتركوهن يلطمن الخدود، ويذرفن الدماء الغزار، ويشير الشاعر إلى انعدام المجير الذي يذب عنهن، وينقذهن من وحشية المغول [١] ، يقول:[٢]

تَملّكها مَلِكٌ من التّرك كافرٌ ... فَكَم مُسْلِمٍ فيها إلى السّيفِ يُسلمُ
وَحكّم فيها المُغلَ بالحور آثماً ... فكم جار فيها بالرّديّةِ مجرمُ
وكم قَتَلوا طِفلاً يُرَعْرَعُ ماشياً ... كما افترّ عن ثَغْرِ الأقَاحَةِ مَبسمُ
إذا قَابلتْ شمسُ الضحَى نورَ وَجهِهِ ... فَعَنْ فَلَقِ الصُّبحِ المنيرِ تترجمُ
وَكم زجروا من عالمٍ وهو عاملٌ ... أقام مَنارَ الحقّ والحقُّ أقوَمُ
وكم هتكوا من دُميةٍ بدمائها ... وكم تركوا من حيّ حوراءَ تَلْطُمُ
مُحَجّبَةٌ ما لاحت الشمسُ وَجْهَها ... ولا نَظرتها العينُ أو نالها الفَمُ
معفّرةٌ في التّرب في كفّ فاجرٍ ... ولا مانعٌ من ظُلمها وَهي تُظْلَمُ
تبذّلها منهم دنيٌّ وفاجرٌ ... وطالَ إلى أوطانها وهي تنعمُ

ومثّل المغول بجثث القتلى، وأحرقوا المدينة، وهدموا مدارسها ومساجدها وعفوا رسومها [٣] ، ونهبوا أموالها، وأذلوا سادتها ذوي العز والجاه، وهذا ما جاء في قوله: [٤]

وكَمْ من أمورٍ لَيْسَ يُمْكن وَصفُها ... إذا ذُكرَتْ أُعيَتْ وللفكرِ تُفْحِمُ
حريقٌ وَقَتْلٌ وابتذالٌ وَمُثلةٌ ... وسبيٌ وَسَلبٌ والفِعالُ المُحرّمُ
فجامُعها المعمورُ بالذّكرِ عاطِلٌ ... ودارُ دروس العلمِ فيها تُهَدمُ
مدارسُها أضحى يُقَسّمُ نَهبُها ... وكانَتْ بها الدُّنيا تنيرُ وتبسمُ
وجامعها وهو الجديدُ حديثُه ... يُعادُ دُروساً في الطّروس وَيُردمُ
وَسَاداتُ أهلِ الشّامِ أضحوا أذلّةً ... بهم كانت الدُّنيا تُعزُّ وَتُكرمُ
يطيبُ النّبا عنهم بطيبِ حَديثهم ... وَيَحلو إذا ما حَدّثَ الرّكبُ عَنْهُمُ
أناخ عليهم كاملُ الدّهرِ عادياً ... فأخنى عليهم والحوادثُ تحطمُ

ثم يسلط الشاعر الضوء على هزيمة عساكر المسلمين في معركة وادي الخزندار ويعبر عن ذهوله وحيرته ، فهو لم يخطر في ذهنه أن يفر المسلمون من ساحة الوغى ، وأن يتركوا ديارهم فريسة سهلة يلتهمها المغول ، ويستولون عليها ، ولذا يتوجه بالدعاء إلى الله أن يهيئ

---

[١] رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص ٨٩.

[٢] الكتبي، عيون التواريخ، ١٩/١٥٠-١٥١

[٣] لقد فصل المؤرخون في وصف الأعمال الوحشية التي ارتكبها المغول بحق مساجد دمشق ومساجدها، انظر الدواداري، كنز الدرر، ٣١/٩، ٤٠، الكتبي، عيون التواريخ، ١٩/١٤٤-١٤٨-١٥٠، الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ٢/٢٠٤-٢٠٥، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٤/١٠، النويري، نهاية الأرب، ٣١/٣٩٦، العيني، عقد الجمان، ٤/٣٤، ٣٧، ٣٨، ٣٩، المقريزي، السلوك، ج١ ق٣/٨٩٣-٨٩٥.

[٤] المصدر نفسه، ١٩/١٥٠-١٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهذا الدين ، ولهذه الأمة من يخلصها من براثن الغزاة ويحمي ديارها من عدوانهم ، ويحث المسلمين على التكاتف والتعاضد لنصرة الإسلام ، وصدّ ذلك الغزو ، فيقول [١]:

وما كان ظَنّي أنّ قومي يَصدّهم ... عن الرّوح سَهْمٌ أو من الموتِ يهدمُ
ولكنّهم فرّوا فلا فلّ جمعهم ... لأمرٍ أراد اللهُ واللهُ يحكُمُ
عَسَى ثائراً لله ينْصرُ دينَهُ ... يغير على الأعداء يَوماً ويُرغمُ
يُراعي حِمى الإسلامِ بالسّيف ضارباً ... ويهتك سترَ الخطبِ والخَطبُ مُظْلمُ
فيا عُصْبةَ الإسلامِ دعوة مُنْشِدٍ ... فشدّوا عُرى الإسلامِ عقداً وابْرموا
تولّتْ جيوشُ السّلمِ عَنّا فنالنا ... من الدّهر خطبٌ بالحوادث يَدهُمُ
وساروا وشاقوا اليعملاتِ [٢]رواسياً ... إلى أرض مصر فالصّعيد فيمموا
وخلّوا وأخلو للعدا دار ملكهمْ ... فجاءوا لها الأعداء جيشاً وخيّموا

والجديد في قصيدة الشاعر هو الدعوة إلى الجهاد ، وهذا ما اختفى في مراثي بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، والشام سنة ٦٥٨ هـ ، وذلك لأن روح الأمل تجددت في نفوس المسلمين ، وأحيته انتصاراتهم على المغول.

ويخص الشاعر الصالحية في دمشق بالرثاء، فقد كان البلاء هناك شديداً ، وكان معظم فساد المغول وأحلافهم [٣] فيها ، ويقال : إنه لم يبق شيء فيها على حاله[٤] وقد صورها الشاعر قفراً موحشاً ، هدمت قصورها ، وصار بنيانها العالي ركاماً ، وشتت أهلها ، حتى غدا حديثهم مثل حديث عاد وجرهم الذين أهلكهم الله تعالى ، ولم يبق لهم باقية ، وصور الشاعر ما حل بالمساجد من أعمال هدم وتخريب ، وبين صدى ذلك في الأماكن الدينية الأخرى[٥] ، فقال [٦] :

أسكان سَفْحِ الصّالحيّة لا خَلَتْ ... فَقَدْ أوحَشَتْ لمّا نأيتم وبنتمُ
نأيتم عن الأوطانِ يا جيرةَ الحمى ... فما الذي ضرّكم لو عَطَفْتُمُ
وكنتُ أراعي الدّارَ والرّبعُ آهلٌ ... وللطّير في ذاك الجَنَاب ترنُّمُ
فَلَمّا رأيتُ الحيّ أصبَحَ خَالياً ... ولم ألقَ حيّاً في الدّيار يُسلّمُ
بكيتُ وأبكيتُ الرّسومَ وطالما ... بكى الدّار بَعْدَ الظّاعنين مُتَيّمُ

---

[١] الكتبي : عيون التواريخ ١٥١/١٩ .

[٢] واحدها يعملة ، وهي الناقة السريعة اشتق اسمها من العمل ،انظر ابن منظور، اللسان، مادة (عمل).

[٣] انظر الصفدي ، تحفة ذوي الألباب ٤٨/٤٠ العيني ، عقد الجمان، ٤٨/٤٠

[٤] انظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٠/٤ الذهبي ، دول الإسلام ١٠/١٥٤، العبر، ٣٦٥/٣، الكتبي ، عيون التواريخ ١٤٤/١٩، المقريزي ، السلوك ، ج١ ق٣/٨٩٢.

[٥] انظر رائد عبد الرحيم ، صورة المغول ، ص ٨٣ ، ٩٧.

[٦] الكتبي ، عيون التواريخ ، ١٥٢/١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فكم من قصـــورٍ شـــاهقاتٍ رأيتُـــها وبنيانها العالي على الأرْضِ يركَـــمُ
تشـــتّتَ أهلوهـــا وقُـــوّضَ حُسْـــنُها كـــأنّ حديـــثَ القَـــوْمِ عـــادٌ وَجُرْهـــمُ
نأسى بما قـــد أصـــاب بيتـــاً مُقَدّســـاً على مِثْلـــهِ تبكـــي الحطيـــمُ وَزَمْـــزَمُ
وبالمسجد الأقصـــى تشـــرّف قـــدرُهُ علـــى أنّـــهُ أمـــرٌ مـــن الله مُـــبْرَمُ

أما قصيدة علاء الدين علي الأوتاري الدمشقي التي قالها في رثاء دمشق، فقد عزى فيـــها تلك المدينة بمغانيها التي تضررت أكثر من غيرها في المزة[١] ، والنيربين[٢] والوادي ، وصـــور ما نزل بجبل قاسيون[٣] والعقيبة والقصر[٤] ، والشاغور[٥] ، فقد نهب المغول سكانها ، وقتلوهـــم، وأسروا أولادهم، وسبوا الذراري ذوات الصون والعفاف ، وأخذوهن إلـــى بلادهـــم ، ودمـــروا القصور ، وأحرقوا المساجد[٦]،وخربوها وبدا الشاعر مؤمناً بأن ما نزل في تلك المنـــاطق أمـــر مبرم من الله سبحانه وتعالى ، فقال[٧] :

أحْسَـــن الله يـــا دِمَشْـــقُ عَـــزاكِ فـــي مغـــانيكِ يـــا عمـــادَ البـــلادِ
وبرســـتاق نـــيربيكِ مـــع المـــزّ زَة مـــع رونـــقٍ بـــذاك الـــوادي
وبـــأنسٍ بقاســـيون ونـــاسٍ أصْبَحـــوا مَغْنَمـــاً لأهـــل الفَســـادِ
طرقتـــهم حـــوادثُ الدّهـــرِ بالقتـــ ـــل ونَـــهبِ الأمـــوالِ والأولادِ
وبنـــاتٍ محجّبـــاتٍ عـــن الشّمـــ ـــسِ تناءت بهنّ أيـــدي الأعـــادي
وقصـــورٍ مشـــيّداتٍ تقضّـــتْ فـــي ذراهـــا الأيـــامُ كالأعيـــادِ
وبيـــوتٍ فيـــها التّـــلاوةُ والذّكـــ ـــرُ وعـــالي الحديـــث بالإســـنادِ
حرّقوهـــا وخرّبوهـــا وبـــادتْ بقضـــاء الإلـــه ربّ العبَـــادِ
وكـــذا شـــارعُ العقيبـــةِ والقصـــ ـــرُ وشـــاغورُها وذاك النّـــادي
أصبحوا اليوم مثـــل أمـــسٍ تَقَضّـــى وبكتـــهم ســـماؤهم والغَـــوادي

وصور الشاعر المعاناة الشديدة التي قاساها أهل دمشق ، فقد قرحـــت المأســـاة قلوبـــهم ، وذاقوا مرارة العيش، وكانت أصواتهم ترتفع مولولة شاكية، وعيونهم تفيض من الدمع ، ولكـــن

---

[١] قرية كبيرة وسط بساتين دمشق ، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، مادة "مزة"

[٢] محلة في دمشق ، وهي من أعظم المحلات وأحضرها، انظر البدري ، نزهة الأنام ، ٨٠ــ٨٢.

[٣] الجبل المشرف على مدينة دمشق ، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، مادة "قاسيون".

[٤] وهو قصر حجاج الذي تعرض لعبث المغول في تلك السنة، انظر الدواداري ، كنز الدرر، ٢٤/٩.

[٥] محلة بالباب الصغير من دمشق مشهورة ، وهي في ظاهر المدينة ، انظر ياقوت ،معجم البلدان، مادة "شاغور" .

[٦] انظر ما قاله المؤرخون عن أعمال المغول في تلك المناطق : الدواداري ، كنز الدرر ، ٢٤/٩ ، الذهـــبي ، دول الإســـلام ، ١٥٤/١، المقريـــزي، الســـلوك ، ج١ق٣/٨٩٣. ، العيني ، عقد الجمان ، ٣٢/٤،٣٤.

[٧] النويري ، نهاية الأرب ، ٢٢٧/٥ ، محمد كرد علي ، خطط الشام ، ٣٧٦/٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المغول لم يرحموهم ، ولم يأبهوا باستغاثاتهم ، وكان لذلك الغزو أثره على جميع نواحي حياة أهل دمشق، إذ غلت الأسعار، وجاعوا، وأجلوا من ديارهم ، وزجوا مع سادتهم في السجون ، وجبى المغول أموالهم ونهبوها، فقال[١]:

ولَكمْ سورُها حَوى من مُعَنّى ... مقرّح القَلْبِ والحشى والفُؤادِ
إنْ بَكى لا يفيده أو تشكّى ... وَجَدَ المُشْتَكَى حَليف سُهادِ
يشْتكي فوْق ما اشتكاه بأضعا ... فٍ فيغدو وهمُّهُ في ازديادِ
فالغَلا والجَلا مع الجوع والعُرْ ... ي ونَهْبِ الأقوات والأزوادِ
وبوزنِ الأموال مِنْ غَيْرِ وَجْدٍ ... باعتساف الغُتْم[٢] الغِلاظِ الشّدادِ

ثم صور الشاعر الهزيمة التي مني بها الجيش الإسلامي في تلك السنة ، فعلى الرغم من أن أفراده كانوا شجعاناً ومزودين بأحدث الأسلحة ، إلا أنهم لم يصمدوا أمام المغول ،وقوتهم، وحشودهم العسكرية ، ففروا لا يلوون على شيء، وتمنى الشاعر أن يأتيه البشير بأخبارهم ، وأن يجتمع بهم ، فقال متحسراً[٣]:

لَهْفَ نَفسي على جيوشٍ تولّتْ ... ثم ولّتْ جريحة الأكبادِ
كلّ ندبٍ عَضْبٍ حميٍّ كميٍّ ... أمجدٍ أصْيَدٍ شُجاعٍ جَوادِ
إنْ سَطا في هبّاته كان بَحْراً ... أوسَطا خِلْتَهُ من الآسادِ
أو بدا حاملاً تخل عَنْتَرياً ... أو غدا سابقَ الجواد فغادي
إن أتاني مبشّرٌ بلقاهُمْ ... حازَ روحي ومُهجتي وقيادي
ولَثَمتُ التّرابَ شكراً وعفّر ... تُ خدودي على بلوغ مُرادي

وكشف الشاعر عن أفعال جديدة ارتكبها الغزاة بحق أسرى المسلمين من الأطفال والشيوخ والنساء ، فقد داستهم خيول المغول بسنابكها ، وعوضوا عن حياة النعيم بالذل والشقاء ، وصوّر الشاعر صرخات الاستنجاد التي كانوا يطلقونها ولكن لا مجيب لندائهم ، وبين كثرتهم وكساد سوقهم ، إذ صور المغول يطوفون بهم الأسواق ، وليبيعوهم بالثمن القليل ، فقال[٤] :

مَنْ لأسرى كسْرى حَيارى دَهَتْهُم ... دَهْمَتُهم جيادُ أهل العِنادِ
منهم الطّفلُ والصّبيّة والشّا ... بُّ ينادي فمن يجيبُ المنادي ؟
ويُنادى عليهم برغيفٍ ... وبنزرٍ بخسٍ بسوق الكَسادِ

---

[١] النويري ، نهاية الأدب ، ٥/٢٢٧ــ٢٢٨.

[٢] جمع أغتم ، وهو من لا يفصح ، انظر ابن منظور ، اللسان ، مادة "غتم".

[٣] النويري ، نهاية الأرب ، ٥/٢٢٨ ــ ٢٢٩ .

[٤] المصدر نفسه ، ٥/٢٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عُوّضوا عـــن ســرورهم بغــرورٍ وقصــور البــلاد سُــكْنَى البــوادي
وبــأهلِ الــوداد شـــــرّ أنـــاسٍ وبليــنِ المِــهادِ شَـــــوْك القتـــادِ

وركز الشعراء على إبراز عمليات نهب الأموال التي قام بها المغول فـــي دمشـــق ، فقـــد قرروا على البلد تقارير تضاعفت غير مرة ، وحصل على أهل دمشق الذل والـــهوان ، وطـــال ذلك عليهم[١] "وكان المطلوب شيئاً كثيراً لا تحمله البلد ولا تقاربه، فعسر ذلك على النـــاس "[٢]، ولم يعف من المصادرة والجباية الحثيثة أحد، ولم تبق محل ولا حارة إلا ودخلـــها المغـــول [٣] حتى قيل : إن "الواحد منهم يأتي إلى الطميرة والخبيئة كأنه هو الذي تولى طمرها ، ودفنها مـــن سرعة هدايته إلى مكانها"[٤] ،وجملة الأمر كما يقول المقريزي : لم تخرج هذه السنة "إلا وأهـــل دمشق في فقر مدقع" [٥] ، وقد صور صلاح الدين الصفدي القائد المغولي غـــازان غـــولاً ابتلـــع أموال دمشق ، وترك سكانها يقاسون الشدائد[٦] فقال [٧] :

وَجَاءَهـــــا غـــــازانُ بـــــالمغولِ وأكَـــل الأمـــوالَ مثـــل الغـــول
وأبصـــر النـــاسُ بـــه شـــدائداً كـــادوا يكونـــون لـــه حَصـــائدا
ثُـــم جَبـــى أمْوالـــها وَســـــارا وتَـــركَ النّـــاسَ بـــها سُـــكارى

وجعل الشاعر علاء الدين الوداعي " غازان شيخاً صوفياً يسلك الناس في طريق الزهـــد ، حتى غدوا على يديه فقراء يلبسون الصوف والخلقان" [٨] وهذا ما عبر عنه بقوله [٩] :

مَـــا لَبِســـتُ الصّـــوفَ مِـــنْ عَبَـــثٍ لا ولا الخُلْقـــــان مَجّانـــــــا
إنّـــه زيّ لِمَـــنْ هـــــو مِـــــنْ فقـــراءِ الشـــيخِ غازانـــــا

وصور الشعراء الجيش المغولي الغازي ، فألقوا الضوء على حشودهم الكثيرة، وأضفـــوا على أفراده صفات خارقة إذ جعلوهم كالجن في تصرفاتهم ،ولعل ما حدا بالشعراء إلى ذلك أنـــهم نظروا إلى أفعال المغول " الخارقة في الشام في تلك السنة ، فاستبعدوا أن تكـــون تلـــك أفعـــال بشر"[١٠].

---

[١] ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٣٦/٤ ، العيني ، عقد الجمان ، ٣٦/٤.

[٢] الدواداري ، كنز الدرر ، ٣٠/٩ ، الكتبي ، عيون التواريخ ، ١٤٦/١٩.

[٣] الكتبي ، عيون التواريخ ، ١٤٧/١٩.

[٤] المصدر نفسه ، ١٤٤/١٩.

[٥] المقريزي ، السلوك ج١ق٣/٩٠٣ ، ٨٩٣—٨٩٤.

[٦] انظر رائد عبد الرحيم ، صورة المغول ، ص ٩١ ,

[٧] الصفدي ، نخفة ذوي الألباب ، ٢٠/٢، أمراء دمشق في الإسلام ، ص ١٥٨.

[٨] رائد عبد الرحيم ، صورة المغول ، ص ٩١—٩٢.

[٩] الكتبي ، عيون التواريخ ، ١٥٣/١٩، المقريزي، السلوك ج١ ق٣/٩٠٤. وانظر في الموضوع ذاته الأشعار التي وردت في عيون التواريخ ١٥٣/١٩، السلوك ج ق٣/٩٠٣.

[١٠] رائد عبد الرحيم ، صورة المغول ، ص ٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يغفل الشعراء عن ذكر أحلاف المغول الذين قدموا برفقتهم إلى ديار الإسلام ، وهؤلاء الأحلاف صنفان ، صنف من العرب المسلمين ، وآخر من غيرهم لا تربطهم بالمسلمين رابطة دينية ، ولكنهم أعداء لهم اغتنموا فرصة الزحف المغولي للثأر منهم وضرب دينهم[١] .

أما الأحلاف من العرب المسلمين، فكان أكثرهم تردداً في الشعر "الحن والبن" وهما ولدا الشيخ علي الحريري، شاركا المغول في نهب أموال المسلمين ، والمطالبة بها ، وكانا من أكبر المصائب على الناس[٢].

وقد تجلت المعاني السابقة في غير مقطوعة ، ومنها قول كمال الدين بن الزملكاني[٣] :

لَهفي على جلّق يا سوء مـا لقيتْ ... مِن كلّ عِلجٍ لَهُ فـي كُفْـرِهِ فَـنُّ

بالطمّ والرمّ[٤] جاءوا لا عديد لَـهُم ... فالجنُّ بَعْضـهم والحـنُّ والبـنُّ

وقول علاء الدين الوداعي الكندي [٥]:

دهَتنـا أمـورٌ لا يُطـاقُ احتمالـها ... فَسَلَّمنا منـها إلالـه لـه المـنُّ

أتَتْنَـا تتـارٌ كالرِّمـالِ تخالـهم ... هم الجنُّ حتّى معهم الحنُّ والبـنُّ

ومن أحلاف المغول المسلمين سيف الدين قبجق المنصوري ، وكان المذكور من مهّد للمغول غزو الشام في تلك السنة [٦]، وهذا ما عبر عنه الصفدي بقوله[٧]:

هـو الـذي أتـى بغـازان إلـى ... دمشق فانهلّ بـها مِنه البـلا

وصـار للمُغْـلِ عَلَيْـها نائبـاً ... وكان عينـاً للخطـوبِ حاجبـا

وممّن عاونوا المغول شيخ الشيوخ نظام الدين محمود بن علي الشيباني ، وكان ذا هيبة في نفوس المغول ، حصل "فوق الثلاثين ألف دينار ، وكان لا يزال الدبوس على كتفه ، ويفخم كلامه ، ولم يكن فيه شيء من أخلاق المشايخ، وكان كثير الطمع[٨]" . وقد سخر منه علاء الدين الوداعي الكندي حين صوره شيخاً صوفياً يدعو أهل دمشق إلى التزهد والتجرد من كل شيء ، حتى تم له ما أراد فغدوا على يديه فقراء لا يملكون شيئاً ، فقال[٩] :

---

[١] راند عبد الرحيم، صورة المغول، ص١٠٥ وما بعدها .

[٢] العيني ، عقد الجمان ، ٣٦/٤، وانظر الدواداري ، كنز الدرر ، ٣١/٩، الكتبي ، عيون التواريخ ١٤٦/٩، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠٢/٨ .

[٣] الدواداري ، كنز الدرر، ٣٠/٩ الكتبي ، عيون التواريخ ، ١٤٥/٩، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٠٢/٨. المقريزي ، السلوك ج٣/١٥٩٤/٨، العيني ، عقد الجمان ، ٣٦/٤.

[٤] بمعنى العدد الكثير ، انظر الزبيدي ، تاج العروس ، مادة "طمم".

[٥] الدواداري ، كنز الدرر ، ٣٠/٩، الكتبي ، عيون التواريخ ، ١٤٥/٩، العيني ، عقد الجمان ، ٣٦/٤، ولمزيد من الأمثلة انظر : كنز الدرر ، ٣٠/٩، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ١٢/٨.

[٦] انظر راند عبد الرحيم ، صورة المغول ، ص ١١٦.

[٧] الصفدي ، تحفة ذوي الألباب ، ٢٠٢/٢، أمراء دمشق ، ص١٥٧.

[٨] العيني ، عقد الجمان ، ٣٩/٤، وانظر المقريزي ، السلوك ، ج٣/١٥٩١/٨.

[٩] الكتبي ، عيون التواريخ ، ١٥٣/٩، العيني ، عقد الجمان ، ٨٧/٤، المقريزي ، السلوك ، ج٣/١٥٩١/٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شَـيْخُ غـــازان مـــا خَـــلا أحَـــدٌ مـــن تَجـــرّدهْ
وغـــدا الكـــلُّ لابســـي خِرقـــةِ الفَقْـــرِ مـــن يـــدِهْ

ومن الشعوب الأخرى الذين مالأوا المغول وشاركوهم في غزو الشام في تلـــك الســـنة الكرج والأرمن ، وقد قام هؤلاء بتدمير المدارس في دمشق ، ونـــهبوا مســـاجدها ، وأحرقـــوا بعضها مثل جامع التوبة في العقيبة ، وأسروا خلقاً كثيراً ، وسبوا مـــن بنـــات المشـــايخ جمـــاً غفيراً[١]، وهذا ما عبر عنه الكمال ماجد الشافعي في قوله[٢]:

أتى جيشُهم بالمُغْلِ والكـــرجِ عُصْبَـــةٌ وأصْحَابِ سيس فيه الحنُّ والبـــنُّ

ولم يقتصر الأمر على تلك الأحلاف بل صور الشعراء ما فعله بعضها في مدينة دمشـــق سنة ٦٩٩هـــ ، فهذا الشاعر جمال الدين عبد الواحد التبريزي نظم قصيدة بعد انتصار المســلمين على المغول في معركة مرج الصفر سنة ٧٠٢ هـــ ، فحرض فيها المسلمين على القضاء علـــى الأرمن ،وإبادتهم وهدم ديارهم وإحراقها ، وحتى ينجح في مسعاه، وفي التـــأثير علـــى نفـــوس المسلمين ، واستثارة حميتهم ، ذكّرهم بما اقترفه أولئك القوم بحق المسلمين حين دخلوا دمشـــق سنة ٦٩٩هـــ، في أبيات ترتفع "فيها نبرة الغضب ويلهب رنينها كل من عنـــده حميـــة للإســـلام والمسلمين"[٣]، وفيها طلب الشاعر من المسلمين مهاجمة سيس موطن الأرمن لأخذ الثأر منـــهم ، وعجب من قعود المسلمين عن محاربة قوم ما فتئوا يسهرون ويخططـــون،ويكيـــدون للإســـلام والمسلمين ، وحذرهم التقاعس ، فإنهم إن فعلوا ذلك فإن الأرمن طالما آذوهم ،وخير دليل علـــى ذلك الفظائع التي ارتكبوها في الصالحية حيـــث أســـروا الشـــيوخ وســـبوا الحريـــم ، وهتكـــوا أعراضهنّ، وقتلوا الأطفال ودمروا وأحرقوا المساجد والمباني ، وهذا ما جاء في قوله[٤]:

هبّوا إلى سيس من أحْلامِ رقدتكـــمْ وسارِعوا في طلابِ الثّارِ وابتدروا
بكلّ غـــيرانَ أخّـــذُ الـــرّوحِ همتـــه في غير نَفْس الرّدى مالَـــهُ وَطَـــرُ
أيرقدُ اللّيلُ في أمْـــنٍ وفـــي دَعَـــةٍ عن كيدِ قومٍ لَهُمْ في شأنكم سَـــهَرُ
إن تَتْرُكوهم فإنّ القَوْمَ مـــا تركـــوا يوماً عليكم ولا أبقَوا ولـــم يَـــذروا
أما رَأيتـــمُ وَعَـــايَنتُم وقـــد فَعَلـــوا في الصّالحيّة ما لا تَفْعَـــل التّـــترُ
اشفوا صدورَكـــمُ إن كنتُـــمُ غُـــيُراً على نسائكُمُ يـــا قـــومُ وادّكـــروا

---

[١] انظر أبو الفداء ، المختصر ، ٤٢/٤، ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، ٢٣٩/٢، الذهبي ، دول الإسلام / ١٥٤/١، ابن كثير ، البداية والنهايـــة، ٩/١٤ـــ١٠، ابن سباط ، تاريخ ابن سباط ٥٢١٥١٩/١ الغزي ، نهر الذهب ، ١٧٢/٣، عادل هلال ، العلاقات بين المغول وأوروبا ، ص١٣٣، ١٣٤، رائد عبد الرحيـــم ، صورة المغول ، ص ١١١.

[٢] الدواداري ، كنز الدرر ، ٣٠/٩، الكتبي ، عيون التواريخ ، ١٤٥/١٩.

[٣] رائد عبد الرحيم ، صورة المغول ، ص ١١٠.

[٤] الدواداري ، كنز الدرر، ٩٦/٩ـــ١٩٧، النويري ، نهاية الأرب ، ٥١/٣٢ـــ٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رثاء المدن التي احتلها الصليبيون

رثاء الإسكندرية :

تعرضت مدينة الإسكندرية في العصر المملوكي الأول لهجمة صليبية عنيفة بقيادة ملك قبرص بطرس لوزنجان ، وذلك سنة ٧٦٧هـ، وكان المذكور قد تولى الحكم سنة ٧٦١ هـ ، فكرس جهده لخدمة القضية الصليبية، فاستطاع أن يهيئ حملة عسكرية صليبية قوامها سبعون قطعة بحرية من أهل رودس والبنادقة والجنويين والفرنسيين والقبارصة، وكانت نقطة تجمع تلك القوات جزيرة رودس [١].

أما الدولة المملوكية في ذلك الوقت، فكانت تعاني شيئاً من عدم الاستقرار السياسي ، ذلك أن سلطانها الأشرف شعبان بن الملك الناصر محمد كان صغير السن، ويتولى أمور دولته الأمير الأتابكي يَلبُغا الخاصكيّ، فهو "صاحب الأمر والنهي والحل والعقد، وهو السلطان في الباطن والأشرف بالاسم .[٢]

وكانت أخبار الحشود الصليبية تأتي يَلبُغا وهو لا يكترث بها ، بل كان يقول : "إن القبرسي أقل وأذل من أن يأتي إلى الإسكندرية" [٣]، وكان يعتقد أن تلك الأخبار إشاعة ومكيدة من منافسيه على السلطة والحكم [٤].

وتوجه الملك القبرصي بقواته إلى الإسكندرية وأرسى بميناءها وبات يتحين الفرصة المناسبة للانقضاض عليها، وكانت طريقته إليها سالكة، ذلك أن نائبها صلاح الدين خليل بن عرام قد توجه إلى الحج، واستناب عنه الأمير (جَنْغَرا) أحد أمراء العشرات ،فصار الأمر كما يقول النويري إلى غير أهله "بولاية جَنْغَرا وقلة جنده ، وجهله بتدبير الأمور، وعدم معرفته بمواقع الحروب ، فحصل التفريط بولاية ضعفاء الرجال كبار الأعمال[٥].

وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من محرم من سنة ٧٦٧هـ ، اقتحم بطرس لوزنجان بجنوده الإسكندرية "والنيل منتشر على البلاد، قصد الملعون بإتيانه ذلك الزمن لتتعوق النجدة من مصر"[٦] والتقوا بالمسلمين فهزموهم لقلة عددهم وعدتهم ، ففروا لا يلوون على شيء واستولى الذعر على أهل الإسكندرية فتركوا مدينتهم بما فيها للفرنج، حتى ضاقت الأبواب على الفارّين

---

[١] انظر النويري ، الإلمام ، ١٧٤/٢، ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ٢٨٨/٣-٢٨٤، درة الأسلاك ، ٤٣/٣، المقريزي ، السلوك ، ٢٨٣/٤، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٢٤/١١، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ق٢١/٢٣،٢٣ ، ابن العراقي ، الذيل على العبر ، ١٩١/١، عزمي أبو عليان، ضد الصليبيين في عهد المماليك، ص ١٠٩.

[٢] ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ٢١٣/٥ ، وانظر النويري ، الإلمام ، ٩/١.

[٣] النويري ، الإلمام ، ١١١/٢، وانظر عزمي أبو عليان ، ضد الصليبيين في عهد المماليك ،ص ١٠٩-١١٠، سعيد عاشور ،الحركة الصليبية ١١٦٥-١٣٦٤/٢.

[٤] انظر المقريزي ، السلوك ، ٢٨٣/٤ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ق٢٢/٢٣.

[٥] النويري ، الإلمام ، ١٣١/٢، ، المقريزي ، السلوك ، ٢٨٣/٤.

[٦] النويري ، الإلمام ، ٦٥/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكثرتهم [١]،وأقام الصليبيون في المدينة ثمانية أيام، [٢] يقتلون، وينهبون ،ويأسرون،ويحرقون،[٣] ثم هربوا إلى البحر لما أحسوا بمجيء العساكر الإسلامية لنجدة الإسكندرية[٤] .

وقد هز سقوط الإسكندرية العالم الإسلامي بأسره، ذلك أن المأساة التي حلت بها كانت " من أشنع ما مر بالإسكندرية ، من حوادث ومنها اختلت أحوالها ، واتضع أهلها ، وقلت أموالهم،وزالت نعمهم[٥]، وكان لذلك صداه في الشعر العربي ، فنظم الشعراء قصائد كثيرة في رثائها ، يقول ابن حبيب:"وتكلم أهل الأدب في هذه الواقعة نظماً ونثراً[٦]، ووصل من تلك المراثي سبع قصائد وثلاث مقطوعات جلّها أوردها النويري في كتابه "الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية" . وهو كتاب كما يتضح من عنوانه هدف صاحبه من تأليفه الحديث عن تلك الوقعة، ووصف ما جرى بالإسكندرية وسكانها جراء الغزو الصليبي .

واتسمت جل القصائد التي رثت الإسكندرية بسمات عدة ، منها الطول الذي أتاح للشعراء التفصيل في عرض الأحداث ، ومنها الأسلوب القصصي والواقعية ، وهاتان السمتان ينبغي تأكيدهما لبروزهما بصورة جلية في جميع تلك القصائد ، فقد عمد قائلوها إلى وصف وقعة الإسكندرية منذ قدوم الفرنج بسفنهم إليها ، والتقائهم بالمسلمين هناك وكسرهم ، وما تخلل ذلك من أعمال قام بها الصليبيون في تلك المدينة ، حتى قدوم العساكر من قبل السلطان الأشرف وأتابكه يلْبُغا الخاصكي ، ورحيل الفرنج عنها مراعين في ذلك كله تسلسل الأحداث وواقعيتها ، وتكاد تتفق المضامين التي قدموها مع ما ذكره المؤرخون وزاد من واقعية تلك الأشعار أن معظم الرثاة كانوا معايشين للأحداث ، وربما اصطلى بعضهم بنارها، لذلك جاء وصفهم لها دقيقاً ، ويلاحظ أن أبياتاً من قصائدهم نظمت بضمير المتكلم ، وهي تدلل على المشاركة في الصراع ، وصرح بعضهم بالذعر الذي استولى على نفسه ، وصور فراره من الإسكندرية تاركاً وراءه ممتلكاته [٧] .

---

[١] النويري، الإلمام، ٢،١٦٢، المقريزي ، السلوك ، ٢٨٤/٤.

[٢] وذكرت بعض المصادر أنهم أقاموا ثلاثة أيام أو أربعة انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه ٢٨٩/٣٠. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ٢٥/١١.

[٣] انظر النويري ، الإلمام ، ٢/ص ١٥٩ وما بعدها ، ابن كثير ، البداية والنهاية، ٣٣٦/١٤، المقريزي ، السلوك ، ٢٨٤/٤، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٢٥/١١، ابن إياس ، بدائع الزهور ج١ق٢/٢١،٢٢.

[٤] انظر ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ٢٨٩/٣، المقريزي ، السلوك ، ٢٨٤/٤. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٢٥/١١، ابن العراقي ، الذيل على العبر ، ١٩١/١.

[٥] انظر عزمي أبو عايان ، ضد المماليك في عهد المماليك ، ص ١١٦.

[٦] ابن حبيب ، درة الأسلاك، ٤٤/٣، وانظر المقريزي ، السلوك ، ٢٨٥/٤، ابن العراقي ، الذيل على العبر ، ١٩١/١، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ق٢/٢٤.

[٧] انظر النويري ، الإلمام ، ٢١٦/٢، ٥٢/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وزاد من واقعية تلك الأشعار كذلك أن بعض الشعراء نظموها بهدف التأريخ لوقعة الإسكندرية ، ومن هؤلاء محمد بن قاسم النويري ، وهذا ما يوضحه قوله في ختام إحدى مراثيه[١]:

فالنّويري قد رثى الثّغرَ حقّاً عام سَبْع يا وَيْحَهُ من عامِ

بَعْدَ ستّين بَعْدَ سبع مئين وأتى بالتاريخ للأعلامِ

وعلى ما يبدو أن ذلك كان هدفاً عاماً سعى الشعراء إليه ، وكشفت عنه قصائدهم إذ عنوا بذكر التواريخ والأيام والأعداد بصورة دقيقة لا تختلف عما ذكره المؤرخون، فضلاً عن دقتهم في بيان تفاصيل الوقعة.

أما عن مضامين المراثي الأخرى، فقد تعددت وتنوعت، وتناولت النكبة من جوانبها المختلفة، تحدث الشاعر فيها عن الأسباب التي أدت إلى سقوط الإسكندرية، وصوروا العدو الصليبي القادم إلى أرض المعركة، وما قام به من أعمال وحشية فيها، وألقوا الضوء على هزيمة الجيش الإسلامي، ودعوا المسلمين إلى الجهاد.

لقد كان الشعراء مشاركين في غمرة الأحداث، ومطلعين على خفايا الأمور، لذلك راحوا يفتشون عن الأسباب الحقيقية التي وقفت وراء هزيمة المسلمين في الإسكندرية، وجرت ذلك البلاء عليهم، فتكلموا بصراحة وجرأة، وألقوا باللوم على الأمير جَنْغرا، وكان المذكور قد أشير عليه قبل الالتقاء بالصليبيين أن يدخل بجيشه مدينة الإسكندرية، ويتحصن بالأسوار، ويقاتل خلفها حتى تأتي النجدة من سلطان المماليك، لكنه أبى وفضّل المواجهة قائلاً "لست أترك أحداً من الفرنج يصل إلى الساحل ولو قُطّعت مني الأوداج، ونفذت المقاتل.[٢] ولكن قراره كما صوره أبو عبد الله محمد بن طاهر الإخميمي لم يكن صائباً، وجر الوبال على المسلمين وذلك انه لم يصمد أمام قوة الهجوم الصليبي، فولى من أمامهم، وترك الإسكندرية فريسة سهلة، ولقمة سائغة في أفواههم ، وهذا ما عبر عنه بقوله:[٣]

وهُم[٤]كانوا عليه ضرَراً لا لكنّ جَنْغرا أصلُ الضرر

غرّ بالعالمِ إذ أخرجهُمْ للقا الأعداد عبادِ الصّور

خارجَ الأبوابِ إذ فَتَحَها وهو منه كان خطأً وغَرَر

لو على الأسوار أضحى راكباً ثم بالخندقِ قد أجرى نَهَر

كان للثّغر وِقَاءً والعدا لم تنلْ منه مدى الدّهرِ وَطَر

---

[١] النويري، الإلمام، ٣/٢١٨.

[٢] المصدر نفسه،٢/١٤٥، وانظر ٢/١٤٣.

[٣] المصدر نفسه، ٣/٢٥٥-٢٢٦.

[٤] "هم" يعني هم العربان الذين تحدث عنهم في الأبيات السابقة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بل أضاعَ المسلميـــنَ رأيهُ حيـــن لا أسْعَدَهُ حكمُ القَدَر

ويُرجع محمد بن قاسم النويري سقوط الإسكندرية إلى خلوها مـــن الحـــامي ذي الحنكـــة السياسية، وهو يقصد به صلاح الدين بن عرّام الذي ذهب إلى الحجاز حاجاً، وترك جنغرا مكانـه في نيابة الإسكندرية ، فلم يستطع الذب عنها، بل هُزم هزيمـــة نكـــراء، وأصيـــب فـــي أرض المعركة، ولُطّخ بدمائه ، فلو كان ابن عرام هناك- كما يعبر عن ذلك الشاعر- لقاتل الصليبيـــن قتالاً عنيفاً ومنعهم بشجاعته، وحذقه وحسن تدبيره من دخولها، يقول:(١)

لو بها كان حاميـــاً يَحْمِيَنّـــها من ذوي الرأيِ ناهِضاً متسامي
لم يَرعْها جمعُ النّصـــارى بسوءٍ لو أتوا كالسّيولِ أو بحر طامي
لهف نفسي لو كان فيها صلاحُ الدّ دين المقرُّ العـــالي زين الكِرامِ
نائباً للسّلطانِ فيـــها فأضحـــى قاصداً للحجازِ بالإحـــرامِ
جنغرا صـــار نائباً عنـــه فيـــها زمنَ الحـــجّ مدّةَ الأيـــامِ
فغدا جرحُه يسيـــلُ دمـــاءً من حسامٍ أصابَه وسهـــامِ
لهف نفسي لو كان فيها مقيمـــاً ابنُ عرّام عند وقـــعِ الصّدامِ
كان يلقاهُمُ بصـــدرٍ رحيـــبٍ وبِرُمحٍ مُثَقّفٍ وحُســـامِ
وبرأيٍ مهـــذبٍ مـــع قـــومٍ وحّدوا اللهَ عنـــد وقعِ الصّدامِ

أما شعر أبي عبد الله محمد بن حسن الشاطبي، فبين أن سبب انكسار المسلمين وهزيمتـــهم أنهم استهانوا بالصليبيين، واستهونوا أمرهم، وقالوا بحق بطرس لوزنجان: " ما يقدر على هـــذه المدينة الحصينة والقلاع المشيدة المتينة، (٢) وجاء ذلك في قوله:(٣)

هوّن المسلمونَ أمرَ لقائهم فأُذيقوا منـــهم أشدَّ هـــوانِ

وذهب بعض الشعراء إلى أن الهزيمة كانت عقاباً من الله تعالى للمسلمين على تفريطـــهم بحقوقه، وعزوفهم عن شرعه، وغرقهم في المفاسد والمحرمات مثل: شـــرب الخمـــر، وخيانـــة الأمانة، وتجلى ذلك في قول الشاعر ذاته:(٤)

إباحةُ قبحٍ وارتكابُ جرائـــــرٍ وتضييعُ أحـــكامٍ وخونُ أمينِ
وبعد فأمرُ اللهِ ما منه مهـــربٌ ولا معقلٌ من حُكمِهِ بحصينِ
أرى ذاك تمحيصاً لنا من ذنوبنا وما أنا فيـــما قُلْتُهُ بضَنينِ

وقول ابن أبي حجلة التلمساني: (٥)

---

(١) النويري، الإلمام، ٢/٢١٧-٢١٨.
(٢) المصدر نفسه، ٢/١٣٩.
(٣) المصدر نفسه، ٣/٢٢٢.
(٤) المصدر نفسه، ٣/٢١٨.
(٥) النويري، الإلمام، ٣/١، ولمزيد من الأمثلة انظر ، ٤/١٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحقُّك هذا من ذنـــوبٍ تقدّمَتْ وقرعِ كؤوسِ الخَمْرِ في الثّغرِ بالثّغْر

ويعلل أحد الشعراء كسرة المسلمين، وعجزهم عن الصمود لقلة استعدادهم أمـــام الفرنـــج المدججين بالسلاح، فقد كان هؤلاء لابسين الحديد، والمسلمون "كلحم على وضم، فكيـــف يقـــاتل هؤلاء اللحم الحديد، وكيف يبرز العاري لمن كسي الزرد النضيد؟"[١]، يقول: [٢]

قد ولّتِ المسلمونَ لـــمّـــا باللّبـــس وافاهـــم جنودُ
وكيف لا يهربون منـــهم والنّـــاسُ لحمٌ وهمُ حـــديدُ

ويردّ بعض الشعراء تلك النازلة إلى تدبير الله وقضائه الذي لا مرد له، ويتضح ذلك فـــي قول أبي عبد الله بن طاهر الإخميمي:[٣]

إنْ يكنْ حكمُ القضا أبادَه[٤] وعليه حادثُ الدّهرِ جَسَر
فلله العقبى بنصرٍ عـــاجلٍ من إله العالمينَ يُنتَظـــر
وإذا ما أنفذ الله القضـــا لم يكن لمخلوق فيه مفـــر

* * *

وقد اتخذ الصراع بين المسلمين والصليبيين منذ بداية الحمـــلات الصليبيـــة علـــى بـــلاد المسلمين شكلا دينيا، فقد صورهم الشعراء وقد قدموا تحـــت شـــعار الصليـــب للقضـــاء علـــى المسلمين[٥] ،ولم يفت الشعراء الذين رثوا الإسكندرية ذلك، ولذا هاجموا الفرنج فـــي عقيدتـــهم، ورموهم بالكفر والشرك والضلال، ومن ذلك قول أبي عبد الله محمد بن حسن الشاطبي:[٦]

عصابةُ كفرٍ أترعَتْ أكؤسَ الرّدى مذاقَتُها تُنْحِلْنَ كلَّ سمـــــــينِ
معالمُ توحيدٍ أبـــــاحَ جَنَابـــهمْ عديمو حجىً بين الأنامِ ودينِ
لقد شاهدتْ عيني العجائبَ ما رأتْ كظفرِ شمالٍ وانهزامِ يميـــنِ
يقول فقيدُ الأهلِ بالحالِ مُعلمـــي ألم ترَ حزبَ الشّركِ قد ملَكوني

تتجلى في هذه الأبيات طبيعة الصراع، فالصليبيون عصابة كفر لا دين لهم، وهم أهـــل الشمال، أما المسلمون فهم أهل التوحيد، كتابهم بيمينهم يوم القيامة.

ومثله قول ابن أبي حجلة التلمساني:[٧]

ألا في سبيلِ اللهِ ما حلّ بالثّغرِ على فِرقَةِ الإسلامِ من عُصْبةِ الكُفْرِ

---

[١] النويري، الإلمام، ١٤٨/٢،السلوك ١٠٩/٥.

[٢] المصدر نفسه، ١٤٨/٢، المصدر نفسه، ١٠٩/٥.

[٣] النويري، الإلمام، ٢٣٠/٣.

[٤] الماء تعود على ثغر الإسكندرية

[٥] انظر د. عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، ص ١٨٢، عبد القادر أبو شريفة، صورة الصليبيين في الأدب العربي، ص ٥٣.

[٦] النويري، الإلمام، ٢١٨/٣، ٢٢٠.

[٧] المصدر نفسه، ٢٢٩/٢، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٢٩١/٣، درة الأسلاك، ٣/ ورقة ٤٥، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ٢٤/٢ وانظر أمثلة أخرى في الإلمام، ٢٢٣/٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويجعلهم النويري عبادا للأصنام في قوله:[١]

لهف نفسي على مدينـــــةِ قومٍ وحّدوا للمـــــهيمنِ العلاّمِ
كيف أمستْ بها الفرنجُ النّصارى الكلابُ العبّـــادُ للأصنامِ

وهم في نظر أبي عبد الله محمد النسّتراوي عباد للصور، وهذا ما جاء في قولـه إذ كنـى عنهم ببني الأصفر، ووصف تغير الحال في ثغر الإسكندرية:[٢]

فغدا بعد ابتسامٍ عابســاً ببنـــي الأصفرِ عبّادِ الصّور

ويصورهم النويري كفاراً وشياطين، ومجسمة، عطلوا دين الله تعالى كما يبدو في قوله:[٣]

نُهِبَتْ بأيدي كلّ علجٍ كافرٍ متعطّلٍ متجسّمٍ خنّاسِ

* * *

ومن الأمور التي لفتت أنظار الشعراء، وركزوا على تصويرها ،عنف الحملـة الصليبيـة على الإسكندرية، وقوة ذلك الغزو وقسوته، فقد أجمعوا على أنه حادث جلل، وغزو فظيع مـادت له الأرض، وجعل هوله الأعمى بصيراً، والسميع أصم، وهو فتنة وبلاء أصاب الإسلام، وعـم جميع المسلمين وداهية حطت على رؤوسهم، وجعلتهم عبرة لكل معتبر، وحديثه يشجي القلـوب، ويدمي العيون، ومصيبة تخرج عن حد الوصف والتعبير، ومن ذلك ما قاله أبـو عبـد الله بـن طاهر الإخميمي:[٤]

حادثٌ حلّ أرى النّاسَ العِبَـر فيما قد هـــالَ منـه يُعْتَبـر
يا له من حادث ما مثّلُـــهُ طَرَقَ الإسلامَ من عَهْدِ عُمـر
وبلاءٌ قد دها النّاسَ فلـــم نَرَ منـــه أدْهـــى وأمـــر
جرّعَ الإسلامَ سمّا ناقعـــاً وعليهم سيفُ بغيٍ قد شَهَـــر
فلكم أطْرشَ سَمْعاً وأعيـــا ذكرُه ولكم أعمـــى بَصَـــر
مادت الأرضُ له واضّطربتْ ولقد حلّ بها كلُّ العِبـــرُ
ليس يرجى للهنا من أوبـــةٍ لا ولا صفو الزّمانِ من كَـدر
ليت يوم دخـــلوه عَنْـــوة صبحُه الواضحُ ما كان انْفجَر
أسفرتْ غرّتُهُ عـن فتنـــةٍ ذُهِلَ البادونُ منها والحَضَـر

ويقول محمد بن قاسم النويري:[٥]

هو يشجي القلوبَ عندَ سماعٍ فتصيرُ الدّموعُ منه هوامـي

---

[١] النويري، الإلمام، ٢/٢١٣.
[٢] المصدر نفسه، ٣/٢٢٤/٢٢٤.
[٣] المصدر نفسه، ٤/٥١.
[٤] المصدر نفسه، ٣/٢٢٣-٢٢٤.
[٥] المصدر نفسه، ٢/٢١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كيف لا أُجري الدّموعَ كوبلٍ هاطلٍ مُسْبلٍ كهُطْلِ الغَمامِ
لبلاءٍ قد عمّ جَمْعَ أنـــاسٍ سُلبوا عزّهم بحدّ الحُسامِ

وكان لهذا الغزو أثر في نفس أبي عبد الله محمد النستراوي فأيقن أنه غمة لا مـلاذ منـها ولا مناص ولا تكشف إلا بالاستغاثة بالرسول صلى الله عليه وسلم، فهو الكهف الذي يأوى إليـه المسلمون عند كربتهم، وهو الذاب عنهم في الدنيا والآخرة لأنه صاحب الدعاء المستجاب عنـد الله سبحانه وتعالى، يقول:[1]

يالها من خذلةٍ قـد خُذلـوا كسرة يجبرُهـا من قد كَسَـر
لا يُرجى لبلاها كاشـفٌ غيرُ من لله حقـاً قد نَصَـر
كاشفُ الخَطْبِ المَهولِ إنْ غزا فارجُ الهمّ إذا ضاق المقـر
سيّدُ الرّسلِ الـذي يَقْدُمُـه نَصْرُه بالرّعبِ شهراً إن سفـر
يا رسولَ اللهِ إنّا فِئَـةٌ بك لُذنا من لئيمٍ قـد غَـدَر
يا رسولَ اللهِ قـد حَلّ بنـا من بني الأصفرِ بؤسٌ وَضَرَر
يا ملاذ النّاسِ يا كهفَ الورى يا كفيلَ البَدْوِ جمعاً والحضـر
لك نشكو ما أتى من حـادثٍ قد عَرانا من ملاعيـن عُـور
فاسألِ الرّحمنَ في نُصْـرتِنا وخذ الثّأرَ لـنا ممّـن قـهر

* * *

ووقف الشعراء طويلاً يتحدثون عن العدو الصليبي الغازي، ويصفـون حشـوده وجيشـه القادم إلى الإسكندرية، فهو على أكمل هيئة، أعداده كبيرة، ومتزود بأحدث الأسـلحة وأقواهـا، ومعتمد على القطع البحرية المتنوعة والكثيرة في نقل الرجال والسلاح، والطعام والخيول، أمـا الفارس الصليبي فمحصن تحصيناً كاملاً يرتدي الدروع من رأسه إلى أخمص قدميـه، وعلـى رأسه خوذة مصقولة تقية الحرّ، وضربات المسلمين، ويحمل سيفاً حاداً، ورمحاً طويلاً ويتنكـب قوساً، وقد وصفه النويري إذ قال:"وكانت الفرنجة مسربلة بـالزرد النضيـد، متجلبـة بصفـائح الحديد، على رؤوسهم الخوذ اللامعة، وبأيديهم السيوف القاطعة، قد تنكبـوا القسـي الموتـورة، ورفعوا أعلام الصلبان المنشورة".[2]

وفي القصيدة التي نظمها النويري في رثاء الإسكندرية صـور الشـاعر عـدة الجيـش الصليبي، فقد اصطحبوا معهم سبعين مركباً هيئوها للحرب والقتال، وعمروهـا فـي قـبرص، فدهنوها بالشحم والقار والزفت، وكانت هيأتها وهي تزدحم في المـاء كالثعـابين حيـن تلتقـي ببعضها البعض، أما الجنود الصليبيون فذوو أجساد قوية، يتسربلون بالحديد والدروع، ويحملـون

---

[1] النويري، الإلمام، ٤/١٧٦-١٧٧.
[2] المصدر نفسه، ٢/١٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأسلحة الفتاكة، وهاجم هؤلاء الإسكندرية هجوماً عنيفاً وسريعاً، معتمدين على خيولهم القويـــة، يقول:[١]

عمروهـــا بقبرصٍ فـــي سنـــينَ نحـــو سبعينَ مركباً بتمـــامِ
دهنوها بالقارِ ثـــم بزِفْـــتٍ وبِشَحمٍ تمشـــي بلا أقـــدامِ
فوقَ شبرٍ مـــن الميـــاه تـــراها كالثّعابين تلتقـــي بازدحـــامِ
فأتوا سرعةً ببيضِ قلـــــوعٍ نحـــو إسكندريـــةٍ كالغمـــامِ
قصدوا نحوَها بحـــربٍ متيـــنٍ بلباسِ ســـردٍ وحـــدٍّ حســـامِ
عن قريبٍ شاهدتَ جمعَ النّصارى نَزَلوا البرَّ فيهمُ كـــلُّ حـــامِ
بدروعٍ ما مثلُـــها مـــن دروعٍ مُسْبَلاتٍ علـــى علوجٍ جســـامِ
وخيولٍ قد أنزلوهـــا سريـــعاً عاليـــاتٍ كأكبـــرِ الأنعـــامِ

ويعدد الشاعر أبو عبد الله محمد بن حسن الشاطبي أنواع القطع البحرية التي عبر بها الصليبيـون البحر إلى ثغر الإسكندرية فيقول:[٢]

أتاه عدوٌ ماردٌ في عوالـــمٍ معدّ بلقياه بحـــربٍ زبـــونِ
قراقرُ [٣]في آثارهنّ مراكبٌ وكم من غرابٍ كالطيّورِ وشَيني[٤]

ويقول ابن أبي حجلة التلمساني مصوراً عدة الفرنج:[٥]

أتاها من الإفرنج سبعونَ مَرْكِباً فَصَاحتْ بها الغربانُ في البرّ والبَحْرِ
وصيّر منها أزرقَ البحرِ أسودا بنو الأصفرِ الباغونَ بالبيضِ والسّمرِ

لا يخفي ما في أبيات الشاعر من صورة جميلة جمع فيها "ألوانـــاً مختلفـــة مـــن الزرقـــة والسواد والصفرة والبياض والسمرة،[٦] فمراكب الفرنج سوداء اللون وهي التي تسمى بالغربـــان ملأت البحر والبر، حتى صار منها لون البحر الأزرق أسود لكثرتها، أما البيض والسمر، فـــهي الأسلحة التي كانت بحوزتهم وعنى بها السيوف والرماح.

ويقول النويري مصوراً أشرعة سفن الصليبيين، وهيأة الجندي الصليبي وتجهيزاته العسكرية:[٧]

من قبرس جاء بسفنٍ خِلتـــها بقلوعِها تزهو على القِرطاسِ

---

[١] النويري، الإلمام، ٢/٢١٣-٢١٤.

[٢] المصدر نفسه، ٣/٢١٨.

[٣] قراقر أو قرقورة، والجمع، قرار وقراقير، نوع من السفن الحربية ذات أحجام مختلفة، ومنها أنواع حربية، واخرى مدنية، وتستخدم بصفة عامة لحمل المون، انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٣/٢٨٨ حاشية (١).

[٤] شيني أوشاني، أو شينية أو شونة، والجمع شوانٍ، سفينة حربية كبيرة، ومن أهم القطع التي يتكون منها الأسطول في العصور الوسطى، انظر ابن حبيب، تذكـــرة النبيه، ٣ ٢٨٨.

[٥] النويري، الإلمام، ٢/٢٥٤، تذكرة النبيه، ٣/٢٩١، درة الأسلاك، ٣/٤٥.

[٦] النويري، الإلمام، ٢/٢٥٤.

[٧] المصدر نفسه، ٤/٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أتَتِ الفرنجُ إلى محلّ ديارِهـا بالمرهفاتِ تجلّبوا بلبـاسِ
من أعيُنِ الزّردِ النفيذِ تَسَرْبلـوا وتنكّبوا بوقارةِ الأقـواسِ
والبيضُ فوقَ رؤوسِهم مصقولةٌ موضوعةٌ كالوزنِ بالقَسْطاسِ

فأشرعة سفنهم بيضاء تزهو على أوراق الكتابة، وجنودهم يغطي أجسادهم الحديد، ولا يظهر منها سوى العينين.

* * *

وتحدث الشعراء في قصيدة الرثاء عن القتال الذي دار بين المسلمين والصليبيين حين اقتحموا الإسكندرية، وسلطوا الضوء على الهزيمة التي نزلت بالمسلمين، والفزع الذي ملأ قلوبهم ، وأفقدهم القدرة على مواصلة الجهاد، ففروا مكسورين يجرون أذيال الفشل.

وكان ذلك مجالاً واسعاً للشعراء لمهاجمتهم، والتعريض بهم، ووصف تخاذلهم وتراجعهم في وقت كانت الأمة في أشد الحاجة إليهم، ليذودوا عن حياضها، وكشف الشعراء عما فعل الصليبيون بهم، فقد غدوا لعبة في أيدي جنودهم، فالمسلمون منهزمون والصليبيون يقتفون أثرهم، يقتلون ويذبحون ويشتتون وتحدث الشعراء كذلك عن شجاعة الجندي الصليبي وبأسه في القتال وكأنهم أرادوا بذلك " المقارنة بين موقف الصليبيين الذي يثير الإعجاب، وموقف المسلمين الذين لم يقذفوا بقوتهم كلها في الميدان، ولم يستنفذوا الطاقة في دفع العدو عن بلادهم".[١]

ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن هناك مقولة تداولها الباحثون ومفادها، أن الشعر العربي شعر انتصارات لا شعر هزائم،[٢] وهي مقولة صادقة إلى حد ما، ولكنها لا تنطبق على مراثي الإسكندرية لكثرة ما فصلت في وصف الهزيمة، وتقريع الجنود المسلمين ولعل ذلك يدل على نقمة الشعراء على الجنود الفارين.

ومن الأمثلة على ذلك القصيدة التي نظمها أبو عبد الله محمد بن طاهر الإخميمي، فقد خصص الشاعر جزءاً كبيرا منها تناول فيه موضوع الهزيمة، مبيناً عجز أسلحة المسلمين، وقوتهم العسكرية والدفاعية عن التصدي للصليبيين، ومكرراً حرف النفي "لا" للدلالة على ذلك الفشل الذريع، يقول:[٣]

لم يكنْ في ذلك اليوم الذي شرّه كان على النّاسِ استطر
نفعَ الإسلامَ سورٌ مانـعٌ أحكمتْ من حُكْم بانيه المرر
لا ولا دافعَ عنـهم مَدْفَعٌ للعدا من نارِهِ يرمـي شَرَر
لا ولا أسلحـةٌ مـعتدّةٌ للقا الأعداءِ كانـت تدّخـر

---

(١) عبد القادر أبو شريفة، صورة الصليبيين، ص١٠٠.

(٢) انظر، د. نصرت عبد الرحمن، شعر الصراع مع الروم، ص ٩٧، د. عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية ص ١٥٠ و ١٩٦، عبد القادر أبو شريفة، صورة الصليبيين في الأدب العربي، ص.١٣٢، رائد عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي، ص ٦٣.

(٣) النويري، الإلمام، ٣/٢٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا ولا نيرانُ نفطٍ لا ولا منجنيق قد رَمـــى ثاني حجر
لا ولا عبدٌ تقيٌّ قد دعـــا بانتصارِ الدّين في وقتِ السّحر

لقد تعطلت كل الأسلحة في أيدي المسلمين، ولم تنل من أعدائهم مرادها، ودارت الدوائـــر على أصحابها، فغدت هاماتهم منتشرة في أرض المعركة، وأجسادهم مقطعة فتكت فيها أســـلحة الصليبيين، وتعثرت خيولهم فصارت تلقي بفرسانها من فوق ظهورها، ويتضح ذلك فـــي قـــول الشاعر نفسه:[١]

فلكم سيفٍ نبـــا من بعدمـــا كان في الصّخرِ لحديه أثـــر
ولكم رمحٍ طويـــلٍ هـــزّه رامحٌ يبغي الطّعانَ فانكســـر
ولكم قوسٍ رُمي نحـــو العدا فأتى في رَمْيهم عنهم قصـــر
ولكم من قامـــةٍ مفلوقـــةٍ فَلَقتْها البيضُ تفليقَ الشّجـــر
ولكم رأسٍ على وجه الثّرى من على الأبدانِ تجري كالأكر
ولكم من سابقٍ فارسُـــــهُ إذ كبا من فوقه للأرض خـــر

ويصور محمد بن قاسم النويري الذعر الذي استولى على نفوس المسلمين عقب الـــهجوم الصليبي، فقد ترك الباعة بضائعهم، وأسرعوا يبتدرون الهرب، والفرنج في إثرهم، فكان أولئـــك الفارون فريقين: فريق نجا من القتل، وآخر عملت به سيوف الصليبيين عملها، فأطـــارت منـــهم الرؤوس وكسرت منهم العظام، يقول:[٢]

فرّت المسلمون منهم سريعـــاً قصدوهمْ بالضّربِ في الأجسامِ
تركوا الباعةُ التي حاككوا النا س دسوتَ الطّغام بالانهـــزام
منهم سالمٌ من القتل حتمـــاً ثم منهمْ رؤوسهمْ في الطّغـــام
قَطَعَتْها السّيوفُ ثمّ تراهـــا غَمْغَمَتْ باللّسانِ لا بالكـــلامِ
عائماتٌ من حدّ سيفٍ صقيلٍ خَرَط العُنْقَ سرعةً بالعظـــامِ

ويستمر الشاعر في عرض كسرة المسلمين ووصف فرارهم، فقد تزاحموا على بـــاب ورد المطل على بحر الإسكندرية فمات كثير منهم في الزحام، ونجح آخرون فـــي النجـــاة فـــاعتلوا الأسوار وراحوا يرمون الصليبيين بسهامهم، ولكنها لم تجد نفعاً في جنودهم المتدرعين بـــالحديد، فقاموا بدورهم بحرق ذلك الباب، ودخول المدينة، والتنكيل بسكانها، يقول:[٣]

قصدَ المسلمونَ للبابِ قصـــداً مات من مات من قُوى الازدحامِ

---

[١] النويري، الإلمام ٣/٢٦٦.
[٢] المصدر نفسه، ٢/٢١٤.
[٣] المصدر نفسه، ٣/٢١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غلّقوا البابَ واعتلوا فوقَ سـورٍ ورموهم بخارقاتِ السّـــــهامِ
صارت السّهمُ لا تؤثرُ فيـــهمْ من لباسِ الحديدِ والاخـــترامِ
زحفوا أحرقوا لبابٍ صغيـــر بابِ وردٍ مُوجّـهٍ بالرّخـــــامِ
هجموا منه هجمةً عاصفـوهمْ بسيوفٍ في المسلمـــين الكـرامِ
ضربوهم ضرباً قوياً فخـرّوا بصعيدٍ صرعى بذوقِ الحِمـــامِ

ويعرّض أبو عبد الله محمد بن حسن الشاطبي بالجنود المسلمين الذين ولوا الأدبار بعدمـا حمي الوطيس، ويتعجب من جبنهم وإلقائهم السلاح، ويصور صرخات الاستنجاد التـي كـانوا يطلقونها والفرنج يفتكون بهم، ويذيقونهم من العذاب ألواناً، يقول:[1]

عجبتُ لمن ألقى السّلاحَ جبانـــةً وولّى بوجهٍ كالـــحٍ ومُهيـــنِ
إذ ادّاركَ المولى بلطفِ عبيـــده أمدّوا بعقلٍ في الخُطوبِ رصينِ
وإن خُذِلوا فالرأيُ مِنْهم مُشَتّـــتٌ ولو أنّهم في الحَرْبِ أسْدُ عريـنِ
ينادي لسانُ الحالِ بالحال انظـروا كلابُ النّصارىَ ويْحَكُمُ أكَلونـي
تحكّم أعداءُ الـهُدى فيّ بالـرّدى فلو أن حوليَ عُصْبَةً نَصَرونـي

ويكشف الإخميمي عن شجاعة الجندي الصليبي، فهو كالليث في الشجاعة، أمـا الجنـود المسلمون فقد تراجعوا أمام تلك الشجاعة، وكانت حالهم معهم كحال الأنعام الفـارة مـن ليـث مفترس، وينعتهم الشاعر بالجبن، ويعد تخاذلهم، وتهاونهم في الدفاع عن ديار المسلمين ودينـهم من الكبائر التي لا تغتفر، يقول:[2]

وبنو الأصفرِ في ثغرِ الهُـدى جَعَلتْ أسيافُهم فيـه ثغـر
وأبـادوا بالقـنا حمـاتَه وإليه كلُّ علـجٍ قد عبـر
وهُمُ جفلاً من الرّعـبِ كـما تجفل الأنَعامُ من ليـثٍ زأر
واستهابَ المسلمونَ حربـهم وبدا منهم ملالٌ وضَجَـر
وعلى الأعقابِ ولّـوا هرَبـاً والعدا من خلفهمْ تقفوا الأثـر
قبّحها عنـد اللقـا تولِيـةً فهي عند الله من إحدى الكِبَر
لو بهم كان شجاعـاً باسـلاً بقتالٍ ذلك اليـوم اشتـهر
لـمحى عن حوزةِ الدّينِ الرّدى بالرُّدينياتِ والعضْبِ الذّكـر

---

[1] الدوبري، الإلمام، ٢١٩/٣.
[2] المصدر نفسه، ٢٢٣/٣، ٢٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصور الشعر العربي الذي قيل في رثاء الإسكندرية الأفعال التي ارتكبها الصليبيون هناك، وكشف عن أخلاقهم وهمجيتهم وخلو قلوبهم من الرأفة والرحمة، وبين ما يتصفون به من قسوة ولؤم وحقد، وتحدث المؤرخون عن تلك الفظائع فذكروا أن الفرنج أسروا النساء والأطفال، وانتهكوا المحرمات، وقتلوا الرجال والعجائز حتى الأطفال والمجانين والبلهاء، وحرقوا كثيرا من الأسواق والحوانيت والرباطات، واعتدوا على المساجد، ونهبوا من الأموال والذخائر الشيء الكثير، وملأوا منها مراكبهم[١]، حتى "ثقلت بما فيها فصاروا يلقون في البحر على ما قيل لتخفّ"[٢]، ومن القصائد التي صور فيها الشعراء ما نزل بالإسكندرية والمسلمين فيها، قصيدة أبي عبد الله بن طاهر الإخميمي، ومما جاء فيها:[٣]

كم أراقوا دما فيه وما ... رقَّ قلبٌ منهمُ وانزجر
ولكم شيخٍ تفانى عمرُه ... ذبحوا بالمدا ذبحَ البقر
وصغيرٍ بضّعوه ثم ما ... رحِموا من كفرهمْ منه الصّغر
ولكم طفلٍ نجيبٍ قاريٍ ... حسبه من عُمْرِه درس السّور
وإذا لم ينظر الله له ... أخرجوه عن هُدى خَيرِ البَشَرْ
ولكم سترٍ غداً مُنْهتكاً ... وبدا للنّاسِ منه ما ستر
ومبانٍ زُخْرِفَتْ أرجاؤُها ... فَوَهى ما طالَ منها وانْدَثر
ومن الأموالِ مالو قصدوا ... حَصْر نَزْرٍ منه يوماً ما انْحَصَر
ولقد أضحى بها من كان في ... أعظمِ العزّ ذليلاً مُحتَقر
قد خَلَتْ أوطانهُ من أنَعمٍ ... وَهْو من بعدِ الغنى قد افتقر

يكشف هذا الشعر عن معالم النكبة، فالصليبيون وحوش كاسرة لا ترق قلوبهم ولا تلين، فقد استباحوا دماء المسلمين، فذبحوا الشيوخ العجائز، وقتلوا الحيوانات وقطعوا الأطفال الصغار، ومن نجا منهم أجبروه على مفارقة الإسلام واعتناق النصرانية، واعتدوا على النساء المستورات فكشفوا سترهن، وفجروا بهن، وهدموا المباني العامرة ذات الزخارف الجميلة، ونهبوا الأموال الكثيرة، فغدا العزيز من أهل الإسكندرية ذليلاً والغني فقيرا.

ويتحسر أبو عبد الله بن حسن على ما اقترفه الفرنج من عمليات قتل وهتك، ونهب للأموال الظاهرة والمخزونة، فيقول:[٤]

وقتلُ رجالٍ وانتهابُ ذخائرٍ ... وهتكُ حريمٍ في الخدورِ مصونِ

---

[١] انظر: النويري، الإلمام، ٢/١٥٩، ١٦٤، ١٦٦، ١٧١-١٧٢، ١٧٩، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٣/٢٧٩، درة الأسلاك، ٣/٤٤، المقريزي، السلوك، ٤/٢٨٤، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق٢/٢٣، ابن العماد، شذرات الذهب، ٨/٣٥٧.

[٢] النويري، الإلمام، ٢/١٧٤.

[٣] المصدر نفسه، ٣/٢٢٣-٢٢٤.

[٤] المصدر نفسه، ٣/٢١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد قُطّعَتْ منيّ المفاصلُ مذ رأتْ لكلٍّ قتيلٍ ظلّ غيرَ دفينِ
وحرّمَت الأجفانُ نومي وحقّ لـي على حرمٍ فارقنَ كلّ خـدينِ
تلهّبَ صدْري من شواظِ حريقـهمْ ومن نهب مالٍ ظاهرٍ ودفينِ

ويتحدث الشاعر محمد بن قاسم النويري عن جرائم الصليبيين هناك، فقد نـهبوا السـلاح الذي ادخره قادة المماليك عبر السنين، واستولوا على أموال التجار وتركوهم يعانون ذل الفقـر، وسطوا على الحوانيت، وأخذوا ما فيها من قماش ومطرزات، وحلي، وفـراش وحريـر، كمـا خربوا الربط وقتلوا الدواب[١]، يقول متحسراً:[٢]

لهف نفسي على سـلاحٍ كثيـرٍ كيف صار السّلاحُ عند اللّئام
أخذوه مـن القـياعِ اللّواتـي حَبَسَتها بها كـرامُ الأنـامِ
لهف نَفسي على الجزيرةِ مـاذا حلّ فيها من الفرنجِ الطغّـامِ
خربوا رُبْطَها وعاثوا وعـادوا عرقبوا للجمالِ والأنعـامِ
لهف نفسي على التجار جميعـاً أصبَحوا بَعد العـزّ في إعدامِ
لهف نفسي على حوانيـت بـزٍّ وقماشٍ مطـرّزِ الأكمـامِ
لهف نَفسي على حلـيٍّ كثيـرٍ وستورِ الحريرِ ذي الإرتسامِ
كيف صارت عند النَّصارى بقهرٍ وبجـورٍ وعنـوةٍ وانتقـامِ

ويتحدث الشاعر نفسه عن أسرى المسلمين وما فعل بهم الفرنج بعد أسرهم، فقـد قيـدوا أقدامهم بالحديد، وأهانوهم بعد طول عز واحترام، وشـمل الأسـر الرجـال والنسـاء والخـدم والشباب، وحرق الفرنج صروح العلم والمدينة وتركوها خراباً بعد ما كانت مركـزاً للإشـعاع الحضاري، يقول:[٣]

لهف نفسي على الأسارى جميعاً أصبَحوا بعَد عزةٍ واحترامِ
في كبولِ الحديدِ قـد قيّدوهـمْ بقيودِ الحديدِ في الأقـدامِ
ينَهبونَ ويأسـرونَ رجـالاً ونساءً مع جملةِ الخـدّامِ
لَهف نَفسي على مدينـةِ عـلمٍ بحريقٍ متوّجٍ بِقتـامِ
أسَروا من شَبابها كـلَّ شـبٍّ حَسَنٍ مُشبهٍ لبدرِ التّمـامِ
حملوا المالَ والأسارى جميـعاً سرعة لا إطالة الأيـامِ

---

[١] ذكر النويري أن الصليبيين اعتمدوا على الدواب في نقل غنائمهم إلى مراكبهم، وبعدما انتهوا من ذلك قتلوها، انظر الإلمام، ٢/١٣٧.
[٢] النويري، الإلمام، ٢/١١٢.
[٣] المصدر نفسه، ٢/٢١٢-٢١٣، ٢١٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبيّن ابن أبي حجلة التلمساني أن الفرنج خصوا فقراء الناس بالقتل، وأجبروا الأسرى من الصغار على التنصر وخاصة البكر من النساء، لضعفهن وقلة حيلتهن، ويعد الشاعر ذلك فتنة عظيمة أضر وأعظم على المسلمين من فتنة القبر، يقول:[١]

وكم قتلوا فيها فقيراً ونصّروا صغيراً من الأسرى ولا سيما البكرِ
فيا لك من هولٍ عظيمٍ وفتنةٍ أضرّ على الإنسانِ من فتنةِ القبرِ

إلى جانب الأعمال السابقة، شرد الصليبيون سكان الإسكندرية في البلاد، فغدوا حيارى هائمين على وجوههم، ويتجلى ذلك في قول النويري متحدثاً عن ذلك الشتات، ومصوراً صرخات الحزن والألم التي كانت تطلقها نساء الإسكندرية بعد ما فقدن الكرامة والزوج والابن والبيت والحلي:[٢]

شردتْ منهمْ خلائق شتّى عالمٌ لا تعدُّ بالأقلامِ
خرجوا بالشتاتِ من باب برٍّ سلكوا الطّرقَ يرتمون المرامِ
وغدوا في البلادِ جمعاً حيارى سَكِروا بالإرجافِ لا بالمدامِ
كل أنثى تَصيح بَعلي وابني ثم بنتيَ والطّرفُ بالدّمعِ هامي
ثم أخرى تقولُ داري وحليّي وقماشي واكشفتي واسقامي
وا بلائي عَدِمتُ سترة حالي ما بقي لي خلفي ولا قدّامي
يا عيوني ابكوا على ما جرى لي ضاعَ عقلي منّي وزالَ احتِشامي

ولم يكن الصليبيون وحدهم الذين عاثوا في الإسكندرية فساداً وغنموا أموال سكانها، بل فعل مثلهم عوام الناس والعربان، فقد نهب هؤلاء نهباً كثيراً من أهل الإسكندرية الشاردين، وأخذوا ما تركه الفرنج، فاستغنى منهم "من كان فقيراً وافتقر من أهل البلد من كان غنياً"[٣]، ولو سلمت الإسكندرية منهم كما يقول النويري لبقي "لغالب أهلها متاعهم وأثاثهم".[٤]

ويهاجم أبو عبد الله محمد بن حسن الشاطبي أولئك العربان ، ويتعجب من أفعالهم تلك التي لا يقوم بها مسلم يخشى الله، ويحسب للعواقب حساباً، يقول:[٥]

ومن أعظمِ الأوصابِ أن مَسلّماً غدا يحوزُ ويحوي لا يدينُ بدينِ
تجرأ بعد الرّوم بالنّهبِ عادياً ولم يَخْشَ ما يَلقاهُ بعد مَنونِ
ولم يرتقبْ سوءَ الحسابِ وهوله وضَبط حفيظٍ كاتبٍ وظنين

---

[١] النويري، الإلمام، ٢/١٧٠، ٢٧٢، ابن حبيب تذكرة النبيه، ٣/٢١٩، درة الأسلاك، ٣/٤٥، ابن إياس،بدائع الزهور، ج١ ق٢/٢٤.
[٢] النويري- الإلمام، ٢/٢١٥، ٢١٦.
[٣] المصدر نفسه، ٢/٢٧٠.
[٤] المصدر نفسه، ٢/٢٦٩.
[٥] المصدر نفسه، ٣/٢٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقول في قصيدة أخرى:[١]

أغرَبُ القولِ بعدَ ذا في فريقيـ ـنِ رعاعِ النّاس والعربـانِ
طُعنوا في كبودهمْ بالطّواعيـ ـنِ لأجلِ الفرارِ يـومَ الطّعانِ
ودنوا لانتهابِ كـلّ مكـانٍ من النّواحي وكلّ قاصٍ ودانِي

وقد عبر عن ذلك ابن أبي حجلة التلمساني في قوله:[٢]

لئن نهَبَ الإفرنجُ جانبَ بَحْرِها فقد نهبَ العُربانُ جانبها البرّ

* * *

ودعا الشعراء في مراثيهم إلى الجهاد وضرب الأعـداء الصليبيـن، واسـتثاروا حميـة المسلمين للنهوض والأخذ بالثأر منهم، وغزوهم في عقر ديارهم ،وتوجهوا بالخطاب إلـى قـادة المسلمين، وحثوهم على ترك الخنوع، واستنهاض الهمم، ليذبوا عن حماهم، ويحفظوا لأمتهم مـاء وجهها، من ذلك قول أبي عبد الله محمد بن حسن الشاطبي:[٣]

فيا ليتَ شعري هل لثأرِيَ طالـبٌ يَجلّي صَدى قلبي بفكّ رهيـنِ
أيا معشرَ الإسلامِ بِالله فاضرعـوا بإخلاصِ قصدٍ واصطحابِ يقينِ
بتمكينِ أربابِ النّهى من عدوّنـا بنصرٍ وفتـحٍ للأنـام مُبيـنِ

وتتضح الدعوة إلى الجهاد بصورة جلية في قصيدة الشاعر أبي عبد الله الإخميمـي، فـهو يخاطب الأمير يلبغا الخاصكي، ويحضه على جهاد الصليبيين ونصره الدين، ويبين له أنه القـادر على حفظ البلاد من اعتداءات الفرنج والتتار، ويدعوه إلى إعداد العدة للقتال بأن يجفـوا النـوم ويعمر السفن، ويشحنها بالرجال الشجعان المزودين بالأسلحة والدروع، ويطلب منه أن يتوجـه بهم إلى قبرص لتخريبها وإبادة سكانها، وأن لا يستثني منهم أحداً سوى المسلمين، يقول:[٤]

أيها المولى الأميـرُ و الـذي من نداه وابلُ السّحب انهمـر
إنّ دين الله أنـتَ سيْفُـه وعلى نُصْرتِكَ الدّينُ اقتصـر
وإذا ما لم تَقُـمْ فـي نصـرهِ طَمِعَ الإفرنـجُ فيـه و التتّـر
لا تنمْ عن نصرهِ واجفُ الكرى واسهر العيَن فذا وقتُ السّهـر
واعمر السّفنَ كثيراً مثل مـا ذلك الكلب اللّعين قد عمـر
لا تكن في حَملها مُختصـراً مثل سيفٍ في الوغى قد انشهر
من كماةِ التّرك كـلٌّ باسـلٌ ثابتٌ عند اللّقا فحـلٌ ذكـر
وتوجّه بهـم لقبـرص واركز الصّنجقَ فيها فوق بـر

---

[١] النويري، الإلمام، ٣/٢٢٢.
[٢] المصدر نفسه، ٢/٢٦٩.
[٣] المصدر نفسه، ٣/٢٢١.
[٤] المصدر نفسه، ٣/٢٨٨-٢٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وضع السّيفَ ولا تَتْركْ سـوى مَنْ لتوحيدِ الإله قد ذَكـر

ويواصل الشاعر دعوة يَلْبُغا إلى الاقتصاص من القبارصة، وكسر صليبهم ، وإحـراق العـامر في ديارهم وهدمه، وأسر ملكهم، والتنكيل به كما نكل بحريم المسلمين، حاثاً إياه على اسـترداد أسرى المسلمين، يقول:[1]

واكسر الصّلبانَ واحرقْ قُبرصاً ثم لا تترك بناءً من حَجَر
وخذ السّلطانَ مأسـوراً كـما لحريمِ المسلمينَ قد أسَـرَ
واقترحْ ما شئتَ في تعذيـبه فهو كلبٌ للأنامِ قد عقـر
ولأسرى المسلميـنَ ردّهـم لحماهمْ أيها المولى الأقَـر
لتكون الآخـذَ الثّأر الـذي لك في الدُّنيا له عَظْمُ الفخر

[1] النويري، الإلمام، ٢٢٩/٣. ولمزيد من الأمثلة انظر ، ٨٨/٣-٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل السادس

موضوعات رثاء أخرى

١- رثاء الحيوان

٢- رثاء الغلمان والمغنين

٣- رثاء مظاهر حضارية

٤- رثاء اللهو والمجون

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رثاء الحيوان

كان رثاء الحيوان من الموضوعات الجديدة التي طرأت على شعر الرثاء في العصر العباسي الأول لأسباب حضارية وإنسانية، وكان أبو نواس أول من رثاه في ذلك العصر عندما رثى كلب صيد له نهشته حية.[١]

أما في العصر المملوكي الأول، فقد رثى الشعراء حيواناتهم بقصائد ومقطوعات كثيرة ضاع أغلبها، ولم يبق منها سوى القليل، وهذا ما أكده المؤرخون أنفسهم إذ أحجموا عن إثبات بعضها، واختزلوا بعضها الآخر، ولا أدل على ذلك مما عبر عنه الصفدي حين تحدث عن الأشعار التي نظمت في رثاء حمار أبي الحسين الجزار يقول: "وحكى لي بعض الأفاضل أنه جمع مراثي حمار أبي الحسين الجزار في مجلدة جيدة، ولم أرها أنا"[٢]. وقد فقدت تلك المجلدة، ولم يبق منها إلا ما عثر عليه من أشعار في كتب الأدب والتاريخ، لكنها لا تشكل بمجموعها مجلدة، أو جزءاً صغيراً منها. ومن الأمثلة على اختزال مراثي الحيوان ما قيل بحق حمار السراج الوراق، فقد ذكر أنه سقط في بئر ونفق، فنظم الصاحب تاج الدين بن حنا أبياتاً يعزي الوراق به، فأجابه الأخير بقصيدة طويلة على وزنها، إلا أنهم لن يثبتوا منها سوى تسعة أبيات.[٣]

وقد اشتهر في هذا الاتجاه من الرثاء عدد من الشعراء، ومنهم بالإضافة إلى الجزار والوراق وتاج الدين بن حنا، ابن نباتة، وناصر الدين بن النقيب، وشمس الدين بن دانيال وغيرهم، وكان الأخير أكثرهم قولاً فيه، فقد عثر على ثلاث قصائد كاملة من شعره الذي جمعه الصفدي، اثنتان في رثاء إكديشة، وواحدة في رثاء ثور القاضي شرف الدين بن زنبور . وإلى جانب تلك الحيوانات، رثى الشعراء الخيل والبغال والحمير ، في حين اختفت الأشعار التي ترثي البعير أو الناقة أو الطيور وغيرها من الحيوانات.

وقبل الشروع في تناول مضامين تلك المراثي، يجدر بنا السؤال عن البواعث التي حفزت الشعراء على رثاء الحيوان؟

إن من يقرأ التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي للعصر المملوكي الأول، ويعكف على النظر في حياة الأدباء الذين نظموا في هذا اللون من الرثاء، ويتعرف إلى مذاهبهم الأدبية يدرك ببساطة الأسباب التي جعلتهم يطرقون هذا الموضوع ، وهي أسباب متنوعة منها:

---

[١] انظر طه عبد الرحمن،ملامح من رثاء الحيوان في الشعر العباسي، ص ٤٧٢، مظفر غانم،الرثاء في شعر العصر العباسي الأول،ص٤٣٤، ٤٣٦، د. محمد هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، ص ٤٦٩.

[٢] الصفدي، الغيث المسجم، ٢٣٥/٢.

[٣] انظر الصفدي. أعيان العصر، ١٢٣/٥، الوافي، ٢١٩/١، الكتبي، فوات الوفيات، ٢٥٧/٣-٢٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولاً: روح الفكاهة والدعابة التي صبغت جزءاً كبيراً من أشعار ذلك العصر، وجعلت منها تياراً قائماً بذاته له أدباؤه، وأساليبه وطرق التعبير الخاصة به، ولعل هذه الروح الفكهة الساخرة لم تتسع في عصر كما اتسعت في عصر المماليك، فمن يتصفح آثار الشعراء فيه "لا يلبث أن يغرق في الضحك لكثرة ما دأبوا عليه من مزاح ومداعبات في كل مكان، وفي كل ناد لاهمّ للشعراء إلا أن يتحفوا معاصريهم بنكتهم ونوادرهم".[١] ولكنهم لم يقصدوا في كثير من الأحيان إلى الإضحاك والتندر بحد ذاته، وإنما هناك رسالة يسعون إلى تبليغها، ففكاهتهم كانت مرآة تعكس الواقع وجوانبه الاجتماعية والنفسية والفكرية والسياسية، فهي تؤدي "أغراضاً مختلفة، منها الدلالة على وضع الشاعر ونفسيته، ومنها الدلالة على المجتمع والعصر، ومنها انتقاد المظاهر الخاطئة والتنبيه عليها، وإظهار عبثية الحياة في عصر اختلطت فيه الأمور وشاعت المظالم، واشتد الفقر، ومنها ضرورة الضحك لتخفيف الكبت الذي يحسه الشاعر ويعاني منه الناس".[٢] إن تلك الدلالات هي التي تفسر رواج شعر الفكاهة في ذلك العصر وفي غيره من العصور التي اتسمت بالضعف والتفكك سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي، ذلك أنها بما تقدمه من هزل ودعابة تعيد للنفس توازنها وتخرج الإنسان" من دائرة الحرج فتتحول المأساة إلى ملهاة".[٣]

وقد كان رثاء الحيوان إحدى وسائلهم المتنوعة في التفكه، ونقد أوضاعهم الشخصية، ووصف فقرهم، ومعاناة الناس في المجتمع المحيط بهم، ونجحوا في رسم صورة واضحة لتلك الحياة المريرة، وساعدهم على ذلك النجاح أمران:

الأمر الأول: أنهم يعبرون عن واقع حقيقي كانوا يعانونه، فجلهم من أصحاب الحرف الذين عاشوا حياة فاقة وشظف وفقر مدقع، فابن دانيال كان كحالاً، وأبو الحسين الجزار كان جزاراً، واشتغل السراج الوراق بالوراقة، وهذه المهن كانت تدر عليهم دخلاً شحيحاً، ولذا أكثروا من الشكوى ووصف حياتهم البائسة وفقرهم في شعرهم، وعبروا عن ضيقهم وعوزهم، فابن دانيال مثلاً اتخذ من شعره "وسيلة للتفريج عن هموم النفس، وكبح جماحها في وقت لا يجد فيه متنفساً لضيقه وبرمه بالحياة".[٤] فقد ظل "يعاني من الفقر والبؤس والحرمان فترة تطول وتقصر حسب الظرف الذي يقتضيه تحصيل المال وعدمه".[٥]

يقول معبراً عن فقره ورزقه الشحيح:[٦]

---

[١] د. شوقي ضيف، الفكاهة في مصر، ص ٥٤.

[٢] د. محمود سالم، أدب الصناع وأرباب الحرف، ص ٢٨٥.

[٣] د. رياض قريحة، الفكاهة في الأدب الأندلسي، ص ٦.

[٤] الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ٦ من مقدمة المحقق.

[٥] المصدر نفسه، ص ١٧ من مقدمة المحقق.

[٦] المصدر نفسه، ص٩٢-٩٣، أعيان العصر، ٤/٤٣١، الوافي، ٥/٥٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٩/١٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا سائلي عن حرفتي في الورَى واضَيعتي فيـــهم وإفلاسي
ما حَـــالُ مَنْ دِرهَـــمٌ إنفاقُـــه يأخُذُه من أعُيـــنِ الناسِ[١]

وعاش مثله أبو الحسين الجزار إذ كان فقيراً مرتزقاً بشعره في أول حياته، "واحتاج فـــي آخر عمره إلى الاستجداء بغير الشعر، وكان كثير التبذير لا تكاد خلّته تسد أبداً، ولا يغفل طلبـه، ولكن بأحسن الصور".[٢]

الأمر الثاني: إن أصحاب الحرف هؤلاء تميزوا بالدماثـــة وخفـة الظـل وروح التنـدر والدعابة، فشكلوا بمجموعهم مدرسة للأدب الساخر في ذلك العصر، وقد أفاض المؤرخون فـــي وصف مجونهم والحديث عن قصصهم الساخرة، وبينوا دورهم فـــي إتحـاف أبنـاء مجتمعـهم وإضحاكهم بما قدموه لهم من أدب ساخر، فقد قالوا عن ابن دانيال: إنه "صاحب النكت الغريبـــة العجيبة ... وكان كثير المجون والدعابة"[٣] ، وأنه "حين يصور كثيراً من أحوال عصره فـــي شعره ونثره يميل إلى المجون واللهو والخلاعة".[٤] ويدلل على خفة ظله وتحامقه أنه كان يرفّـه عن الشعب المصري في وقته ويسليه عن طريق تمثيلياته المعروفة بـــ "خيال الظل"، إذ كان هـو الممثل والمؤلف في آن واحد. وقد جعلت تلك الروح الساخرة أدباء عصره "يخشون دعابتـه، أو يقصدون إليها، ويثيرونه من أجلها"،[٥] وهي التي دعت بعض الباحثين إلى القـول: إنـه كـان" امتداداً لتلك المدرسة التي تزعمها أبو نواس، ومطيع ابن إياس، والحسين بن الضحاك وغـيرهم من شعراء المجون في العصر العباسي".[٦] وقيل في أبي الحسين الجزار ما قيل في ابن دانيـــال فقد كان "حلو النادرة صاحب مجون وزوايد"،[٧] و "ظريفاً حلو المحاضرة"،[٨] وكذلـــك وصـف الأديب سراج الدين الوراق.[٩]

وحين مزج هؤلاء الشعراء بين دعابتهم وفقرهم وبراعتهم الفنية خرجت مراثي الحيـــوان عندهم تعكس روحهم الساخرة، وتعبر عن تعاستهم وعوزهم، وتكشف عـن حـال النـاس فـي واقعهم وما هم عليه من شظف وفقر، وقد وصلوا في أشعارهم تلك "إلى مرتبة عالية من الإبـداع لأنهم لا يتكلفون القول فيها، ولا يدعونها ادعاءً، وإنما يقررون حالاً موجودة وإن زادهـــا الفـن

---

[١] إشارة إلى حرفة الكحالة التي كان يمتهنها.

[٢] الكتبي، فوات الوفيات، ٤/٢٧٧-٢٧٨.

[٣] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٩/١٥١ وانظر الصفدي، أعيان العصر، ٤/٤٢٢، الوافي، ٣/٥١ المختار من شعر ابن دانيال، ص ٦ من مقدمة المحقق، المقريزي، السلوك، ٢/٤٦٢، شوقي ضيف، الفكاهة في مصر ص ٨٢.

[٤] الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ٨ من مقدمة المحقق.

[٥] د. محمود سالم، أدب الصناع وأرباب الحرف، ص ٢٨٠.

[٦] الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ٨ من مقدمة المحقق.

[٧] الكتبي، فوات الوفيات، ٤/٢٧٧، ابن سعيد، المغرب قسم شعراء مصر، ١/٢٩٧، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ١/٦٠.

[٨] العيني، عقد الجمان، ٢/٢٨٠.

[٩] انظر ابن حبيب، تذكرة النبيه، ١/٣٣١، الكتبي، فوات الوفيات، ٤/١٤٠، ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ١/٣١٦، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١/٣٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يستأجرها الناس في قضاء حاجاتهم وسفرياتهم نظرا لسرعتها ووداعتها" [١]، وقال: "وقد أدى ضيق الطرقات وكثرة ما فيها من مارة ودواب إلى أن شدد المحتسب على أصحاب الدواب بأن يشددوا في أعناق دوابهم الأجراس وصفاقات الحديد والنحاس ليعلو جلبة الدابة إذا عبرت السوق"[٢]، وأكثر أدباء ذلك العصر من وصفها والحديث عنها في أدبهم [٣]، على العكس مما صرّحت به بعض الدراسات الحديثة [٤]، وقد كان الأدباء أصحاب الحرف ممن صوروا مكانتها في حياتهم، وكشفوا عن دورها في توفير سبل الراحة لهم، فهذا أبو الحسين الجزار يقول :[٥]

لئن قطع الغيثُ الطّريق فبغلتي وحاشاك قبقابي وجوختي الدّارُ

ويعكس ابن دانيال حالة الذل التي آل إليها بعدما ترك ركوب الدواب وأضحى راجلا: [٦]

قُلتُ لمِن أبْصَرني ماشياً بَعْدَ رُكوبِ المُهْرِ والجَحْشِ
ما طَبعي الذلّ ولكنّني أمشي مع الدّهر كما يمشي

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يكون موت تلك الحيوانات خسارة لأولئك الشعراء، فهي التي تضمن لهم الاحترام والتقدير، وبموتها أضحوا أذلاء، وفقدوا المعين الذي لا يرجون شراء غيره لبؤسهم وفقرهم، ولذلك قاموا يرثونها ويبكون أنفسهم من خلالها.

إن الحديث عن البواعث والحوافز السابقة ليس كلاما نظريا، وإنما تؤديه وتدعمه النصوص الشعرية، ومنها مراثي الحيوان التي نظمها شمس الدين بن دانيال، فقد رثى هذا الشاعر إكديشه بقصيدتين جميلتين نظمها بأسلوب قصصي ساخر، فصور ما عاناه ذلك الحيوان من جوع، وما أصابه من أمراض أدت به إلى الهلاك. وتبدأ القصيدة الأولى حيث أعلن الشاعر عن حزنه على إكديشه، فطلب من عيونه استدرار الدموع الغزار، وبين أن الجوع هو السبب الحقيقي وراء نفوقه، فقد اضطره إلى أكل روثه وزبله حتى أضحى ممغوصاً وفاقداً القدرة على الشم، ثم أخذ في تصوير ضعفه والحديث عن عيوبه، فتبين أنه كان حين يركبه في الغزو دائم التوجس والخوف، ولا أمل له بالنجاة، لكنه مع ذلك يعترف بفضله عليه إذ كان عونا له وصديقا وفيا، يقول:[٧]

---

[١] د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص٨٤.

[٢] المرجع نفسه، ص٨٤ وانظر ص٨٣.

[٣] انظر الحلي، الديوان، ص٢١٧-٢٤٦ الصفدي أعيان العصر، ٢١/٥، الكتبي، فوات الوفيات، ٢٨٩/٤ الغزولي، مطالع البدور، ١٩١/٢-١٩٢، ٢٠٢-٢٠٣.

[٤] انظر ياسين الأيوبي، آفاق الشعر في العصر المملوكي، ص١٩٦.

[٥] الكتبي، فوات الوفيات، ٢٨٩/٤.

[٦] الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص٢١٧.

[٧] المصدر نفسه، ص٢١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يا عَينُ جودي بدمع مِنْك مُنْسَجِـــمِ وأبكي على فَقْدِ إكديشٍ لَنَا هَـــرِمِ
قضى له الجوعُ أن يقضـــى بـــلا سببٍ سواه لا مِنْ أذَى داءٍ ولا أَلَمِ
ما زال يَستَافُ زبلاً إذْ يَرُوث إلـــى أنْ ماتَ من علّة الأمْعَاصِ و الخشَمِ[1]
كم وقعةٍ لي عَلَيْه في الغَزَاةِ وكَـــم جَفَلتُ مِنْ جَفلةٍ كالنّومِ في الحُلُـــمِ
يرجو الفرارَ سوى مَنْ كان رَاكِبَـــه في الحَرْبِ فَهْوَ شهيدٌ غيرُ مُنْـــهَزِمِ
قد كان عَوني على ضَعفٍ به زَمَناً حتّى غدا زَمِناً[2] بالوَيْلِ ثم عَمَـــي

ويرسم الشاعر صورة ساخرة ومؤلمة لإكديشه، إذ كان في إسطبله كالخلد يبحـــث تحـــت أكوام الزبل عن طعامه، ويصف ما نزل به من عمى وصمم وقد تجاوز التسعين مـــن عمـــره، وتبدو هنا روح التندر جلية، فلم يسمع عن إكديش بلغ ذلك العمر. ويختـــم الشـــاعر قصيدتـــه إذ جعل ذلك الحيوان رفيقه،يقول:[3]

وَصَارَ في عَرْصَةِ الإسْطَبلِ تُبْصِرُهُ كالخُلدِ يَبْحَثُ في الأزبالِ والأكَمِ
وَمَاتَ في آخرِ التّسعين ذا هَـــرمٍ وذا خَنَانٍ وذا مَغْلٍ[4] وذا صَمَـــمِ
فبتُّ أبكي لأيامٍ لنـــا سَلَفَـــتْ لحِفْظِ عهدي وما بالعَهدِ مـــن قِدَمِ
إنَّ الرَّفيق ليبكي للرَّفيق وقَـــدْ قالوا: المعارفُ بين النَّاس كالذِّممِ

تكشف القصيدة السابقة عن مراد ابن دانيال من رثاء إكديشه، فليس همه البـــوح بأحزانـــه وأشجانه عليه، ذلك أن موت حيوان هرم كهذا فيه كل تلك العلل والأمراض لا يعني لـــه شـــيئا، ولكنه أراد من ذلك إبراز قدرته على استغلال المواقف وجعلها مادة مسلية تغرق متلقيـــها فـــي الضحك، وتخفف عنه أعباء الحياة، هذا فضلا عن أنه اتخذ من إكديشه رمـــزا لنقـــد أوضاعـــه الشخصية، وبيان أنه ليس وحده الذي يعاني مرارة الجوع والفقر، وإنما شاركه في ذلك حيوانـــه، فهو لو كان غنيا لما تركه ينفق جوعا، وتنطبق الصور السابقة على قسم كبير من أبناء مجتمعـــه ودوابهم، فمن المؤكد انهم كانوا يتضورون جوعا مثله، ويعانون منه كما يعاني.

أما القصيدة الثانية، فإنها تزيد على الأولى جمالا وبراعة في التصوير، وتبرز فيها معـــالم التجديد بصورة جلية، ويبدؤها الشاعر بالحديث عمن بكى ذلك الإكديش، فإذا كان الإنسان يندبـــه أهله وأقاربه ومن لهم علاقة به، فإن إكديشه بكته الخيول ورجال الحرب والغزو، فهذه المعـــاني جديدة نابعة من واقع ذلك الحيوان، ثم ينتقل الشاعر إلى وصف فقره حين صـــور عجـــزه عـــن توفير القوت لإكديشه، الأمر الذي دفعه إلى جمع زبله وتقديمه طعاما له. وتظهر المعاني الجديدة إذ أكد الشاعر ضعف إكديشه. وهرمه، فرسم له صورة شيخ كبير يتزيّا بزيّ الحكمة والذكاء، قد

---

[1] " داء يعتري الأنف" الرازي، مختار الصحاح، مادة "خشم".

[2] آفة في الحيوانات مستديمة. انظر الرازي، مختار الصحاح، مادة "زمن"

[3] الصندي، المختار من شعر ابن دانيال، ٢١- ٢١٧.

[4] داء في البطن، انظر ابن منظور، لسان العرب "مغل"

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عمل فيه الهزال وتقدم العمر عمله، فأفقده القدرة على الحركة وورود الماء، ويستفيد الشاعر من المتنبي لا ليصف شجاعة إكديشه، إنما ليكشف عن عجزه عن المواجهات في الحروب، فإذا كان الأبطال يصولون ويجولون بدوابهم في ساحة المعركة، فإن إكديشه جامد كالحائط لا يقوى على الحركة، وقد بلغ به الضعف أن جعل كلاب السوق تتغامز عليه، وهنا تبرز المفارقة في هذه القصيدة، فإذا كان ذلك الحيوان قد وصل إلى تلك الحالة من السقم والإعياء فلِمَ البكاء والتحسر على فقده؟ يقول: [١]

بكَتْ فَقْدَ إكديشي خيولُ المرابطِ ... وناحَ عليه كلُّ غازٍ مُرابِطِ
لقد كَان شيخاً ما يزال مُحَنّكاً ... بتجربةٍ ذا فِطنةٍ بشرائطِ
وكان إذا ما رَاثَ أجمعُ رَوثَهُ ... بكفيّ وأحويهِ له في الخرائطِ
وما كان من فَرطِ الشّجاقطّ وارداً ... سِوَى ما أسقيه له بالمَساعطِ
وَكُنْتُ عليه راكباً مثل راجلٍ ... لحُقْرتِهِ أو صاعداً مثْل هابطِ
وما سُقْتُهُ في السّوق إلاّ تغامزتْ ... على أخذِهِ منّي كلابُ المسافطِ

ثم يرسم الشاعر بأسلوب القصة والحوار لوحة جميلة تعبر عن حال إكديشه الجائع، وشكواه إلى صاحبه ونقمته عليه، ومن ثم موته واجتماع الكلاب الجائعة لأكله من كل حدب وصوب، يقول: [٢]

وكَم قال لي إذ كان يأكُلُ زبلهُ ... أتَمنَعني للجوع من أكْل غائطي
فَقلتُ له يَكفيك زبلُكَ بلغةٌ ... إذا عَزّ ما تقتاتهُ كالمغالطِ
فَهَمْلَجَ من غَيْظٍ عَلَيّ بِرَفسةٍ ... وَقَدْ كان لولا غَيْظُه غيرَ ناشطِ
وقال لحاك الله من مُتَصنّعٍ ... يَصُوقني بالمَسْحِ مِثْل المواشطِ
وبطني خالٍ مثلَ رأسك فارغٌ ... على أنّهُ من حرقةٍ مثْلُ شائطِ
فأغلقتُ للإسطبل باباً موثّقاً ... وغادَرْتُهُ في زبلهِ أي خابطِ
فأصبَحَ مرفوع القوائمِ داعياً ... عليّ ولم أقدر على ردّ فاقِطِ
وعاينته كالطّبل منتفخاً وَقَدْ ... أضيفَ إلى موتى الخيول السّواقطِ
وجاءت كلابُ السّوقِ ما بين لاهثٍ ... طماعيّةٌ فيه وما بينَ لاعطِ
فأعليتُ صوتي بالبكاء لفقدِهِ ... فآها عليه من أنيسٍ مخالطِ

إن هذه القصيدة غنية بدلالاتها، فهي تفوق سابقتها في ذلك، فواضح أن الشاعر يسخر من نفسه، ومن إكديشه، ومن مجتمعه، وواضح أنه يوجهها إلى الناس كي يستمتعوا ويتفكهوا بمعانيها الساخرة، وتكمن براعة الشاعر في هذه القصيدة أيضا أنه استطاع أن يتخذ من إكديشه

---

[١] الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١٥٩-١٦٠.

[٢] المصدر نفسه، ص ١٦٠-١٦١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رمزا يعبر عن بؤسه وسوء حاله، وعن الثورة التي قد يسببها الجوع، فكأنه يحذر أصحاب السلطة من تماديهم وظلمهم للناس، وينذرهم مما قد يفعله الجوع بالشعب، وهو حين يعطي صورة للكلاب الجائعة التي اجتمعت لتأكل إكديشه الميت يدلل على ان الجوع قد تجاوز الناس إلى حيواناتهم، يهددها بالانقراض والهلاك، ويؤكد ذلك حين بين أن إكديشه ليس وحده الذي نفق منه، "ولكنه أضيف إلى موتى الخيول السواقط" .

* * *

ونال الحمار عناية الشعراء فكان أكثر حيوان حظي بمراثيهم، فقد اتخذوا من موته مادة لمراسلاتهم الشعرية، وإظهار روحهم الفكهة، ونقد بعض المظاهر الاجتماعية في عصرهم، فهذا حمار سراج الدين الوراق يسقط في بئر وينفق، فينظم الصاحب الوزير تاج الدين بن حنا قصيدة يعزي بها ذلك الأديب، ويصور فيها الحالة المتردية التي وصل إليها الحمار من شدة جوعه وعطشه، الأمر الذي أجبره على الانتحار ورمي نفسه في البئر، ثم يتوجه بسهام النقد اللاذع إلى صاحبه الوراق، فيرميه بالبخل والتقصير في رعاية حماره، ولا يكتفي الوزير بذلك، ولكنه يهاجم قوم الشاعر مباشرة ويقصد بهم العرب فيبين أن أمّة نفق حمارها جوعا وعطشا قد حطت من قدر حاتم الطائي الذي ملأ صيته الأرض لجوده وكرمه، وضرب به المثل، [١] يقول: [٢]

يفديك جَحْشُكَ إذا مَضى متردّياً ... وبتالدٍ يُفدَى الأديبُ وَطَارفِ
عَدِم الشّعيرَ فلم يَجِدْهُ ولا رأى ... تبناً وراحَ من الظّما كالتّالفِ
ورأى البُوَيْرة غيرَ خافٍ ماؤها ... فَرَمى حُشاشة نفسِهِ لمِخاوِفِ
فهو الشّهيدُ لكم بوافِرِ فضلكمُ ... هذي المكارمُ لا حمامَة خاطِفِ[٣]
قومٌ يموتُ حمارُهمُ عطشاً لقد ... أزروا بحاتم في الزمّانِ السّالفِ

ويرد سراج الدين الوراق على قصيدة الوزير ابن حنا بقصيدة أخرى يرثي بها حماره، وُصفت بأنها في غاية الحسن،[٤] عبر فيها عن حزنه وأساه على ذلك الحمار، وأضفى عليه سمات معنوية تقرب من السمات الإنسانية، فبين أنه كان صابرا على عسره ويسره، ومسلما زمام أموره له، ومقتديا به في القناعة، ومشاركا إياه في السراء والضراء، واستمر على طاعته حتى سقط في البئر ونفق، ثم ألقى الشاعر الضوء على أهمية ذلك الحمار بالنسبة له، حين تحدث

---

[١] انظر د. محمود سالم أدب الصناع وأرباب الحرف، ص ٢٦٧.

[٢] الصفدي، أعيان العصر، ١٢٢/٥، الوافي ٢١٩/١، الكتبي، فوات الوفيات ١٥٧/٣.

[٣] قوله: لا حمامة خاطف، إشارة إلى الأبيات التي مدح بها ابن عنين الإمام فخر الدين الرازي، وقد جاءت حمامة فدخلت حجره هربا من جارح كان خلفها. انظر الصفدي، الوافي ٢١٩/١٠، أعيان العصر ١٢٢/٥-١٢٣.

[٤] انظر الصفدي، الوافي، ٢١٩/١، الكتبي، فوات الوفيات، ٢٥٧/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن الوظائف المنوطة به مثل تحريك السواقي ونقل الماء، ولذلك كله استحق رثاء صاحبه وبكاءه[١]، يقول: [٢]

ولَكَم بَكَيتُ عَلَيه عند مَرَابعٍ ... ومَراتعٍ رشّتْ بدمعي الذّارفِ
يُمْسي على يُسري وعُسْري صابراً ... بمعارفٍ تُلْهيه دون مَعَالفِ
وقد استمرّ على القَنَاعةِ يَقْتدي ... بي وهي في ذا الوقت جلُّ وظائفي
ودَعَاهُ للبئر الصَّدى فأجابَه ... واعتاقهُ صَرْفُ الحِمَامِ الآزفِ
وهو المُدلُّ بألفةٍ طالتْ وما ... أنسى حُقوق مرابعي و مآلفي
وموافقي في كلِّ ما حَاوَلْتُهُ ... في الدّهرِ غيْر مُوَافقي و مخالفي
دَوران ساقيةٍ لطاحونٍ لنِقلِ ... الماءِ في شاتٍ ويومٍ صائفِ
لكنْ بماء البئرِ راحَ بنَقلِهِ ... فثلاثُ شاماتٍ[٣] بموتٍ جارفِ

ويموت حمار أبي الحسين الجزار فيهب الشاعر إلى رثائه بقصيدة يقول فيها: [٤]

ما كلُّ حينٍ تنجحُ الأستارُ ... نَفَقَ الحِمَارُ وبارت الأشعارُ
خُرجي على كتفي وها أنا دائرٌ ... بين البيوتِ كأنّني عَطّارُ
ماذا عليّ جَرَى لأجَل فراقِهِ ... وَجَرتْ دموعُ العين وهي غزارُ
لم أنسَ حدّة نَفْسِه وكأنّهُ ... من أنْ تُسابقه الرّياحُ يغارُ
وتخالُهُ في القفر جنّاً إنّما ... ما كلّ جنٍّ مثله طيّارُ
وإذا أتى للحوضِ لم يُخلَع لَهُ ... في الماء من قبل الورودِ عذارُ
ويلين في وَقْتِ المضيق فيلتوي ... فكأنّما بيديكَ منهُ سوارُ
ويشير في وقت الزّحامِ برأسِهِ ... حتى يحيدَ أمامك الخطّارُ
لم أدْرِ عيباً فيه إلاّ أنّهُ ... مع ذا الذّكاءِ يُقالُ عنه حِمارُ
ولقد تَحامته الكلاب وأحْجَمَتْ ... عنه وفيه كلّما تختارُ
راعَتْ لصاحبه عهوداً قد مَضَت ... لمّا عَلِمن بأنّه جزّارُ

لقد مزج الجزار في هذه القصيدة بين دعابته وخفة ظله وبين براعته الفنية، فإذا بها كما يقول ابن أبي حجلة التلمساني من أطرف ما مر في هذا الباب[٥]. ويكشف الشاعر عن الخسارة الكبيرة التي مني بها بعد موت حماره، ويقارن بين حاله قبل موته وبعده، ويبين أنه كان معينا له في سفره وتجواله، ولذا غدا عقب نفوقه راجلا يحمل متاعه على كتفه، ويتجول به بين البيوت،

---

[١] انظر د. محمود سالم، أدب الصناع وأرباب الحرف، ص ٢٦٧.

[٢] الصفدي، الوافي، ٢١٩/١، أعيان العصر، ١٢٣/٥، الكتبي، فوات الوفيات، ٢٥٧/٣-٢٥٨.

[٣] "والمراد شاه مات، حسب ما يقال في لعب الشطرنج" الكتبي، فوات الوفيات، ٢٥٨/٣، حاشية ١.

[٤] الصفدي، الغيث المسجم، ٢٣٥/٢، الغزولي، مطالع البدور، ٢٠٢/٢

[٥] ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص ١٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتلك المعونة التي كان يقدمها الحمار للشاعر هي التي دعته إلى بكائه والوفاء له، وتذكر خصاله الحميدة، إذ كان يسابق الريح والجن في سرعته، ويخلو من العيوب، ويتمتع بذكاء نادر، ويصوره بعد موته تتحاشاه الكلاب، ولا تجرؤ على الاقتراب من رمّته على الرغم من رغبتها فيها، ذلك أنها حفظت عهد صاحبه الجزار الذي كان يعطف عليها، ويطعمها ما تبقّى من أشلاء الحيوانات التي لا حاجة له فيها. إن هذه القصيدة فضلا عما فيها من فكاهة وإطراف تعكس أهمية الحمار في المجتمع المملوكي، وتكشف عن دوره، في خدمة سكانه والتخفيف عنهم، وهي تصلح أن تكون دليلا ووثيقة تشهد على جانب من جوانب حياتهم في ذلك المجتمع الذي عاش فيه الجزار، وسبر أغواره، والتقط صوره من حوارية وطرقه.

وقد جعل الشعراء من موت ذلك الحمار مادة لمبارياتهم الشعرية، إذ نظموا مقطوعات كثيرة بعثوا بها إلى الجزار ليعزوه بحماره، ولم يكن قصد الشعراء من ذلك مواساة صديقهم وتسليته، وإنما هدفوا منها إظهار روح الفكاهة والدعابة والسخرية منه حتى وصلت في بعضها إلى درجة الهجاء، ويوضح ذلك ما كتبه له بعض أصحابه:[١]

ماتَ حِمارُ الأديبِ قُلْتُ لَهمْ مَضى وَقَدْ فاتَ فيه ما فاتا
مَنْ ماتَ في عزّهِ استراحَ وَمَنْ خلّف مِثْلَ الأديبِ ما ماتا

فهذا هجاء مقذع وإهانة وصل فيه الشاعر إلى أن نسب الجزار إلى الحمار.

وقريب من المعنى السابق ما جاء في قول شرف الدين البوصيري حين عزاه :[٢]

فَلا تأسَ يا أيُّهذا الأديبُ عليه فللموتِ ما يولَدُ
إذا أنْتَ عِشْتَ لنا بَعْده كَفَانا وجودُك ما نفقدُ

وكانَ الجزار يرد عليهم إهانتهم فيواجههم الهجاء بهجاء مثله، وقد تجلى ذلك حين أجاب عن سؤال رجل رآه ماشيا بعد موت حماره، فسأله عن حاله، فقال: [٣]

كَمْ من جَهولٍ رآني أمشي لأطلبَ رزقا
فقال لي: صِرت تمشي وكلّ ماشٍ ملقّى
فَقُلْتُ:مات حِماري تعيش أنت وتبقَى

---

[١] العسقدي، الغيث المسجم، ٢/٢٣٥، ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ١٢٤، الغزولي، مطالع البدور، ١٩٢/٢.

[٢] العسقدي، الغيث المسجم، ٢/٢٣٥، الغزولي، مطالع البدور، ١٩٢/٢.

[٣] المصدر نفسه، ٢/٢٣٤- ٢٣٥، ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص ١٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر أن سائله أراد العبث به "فرد عليه هذا الرد المفحم، المتمثل في العبارة التي يتبادلها الناس في التعزية "تعيش أنت وتبقى"، وكأنه بهذا الرد جعله خلفا للحمار الميّت فأهانه، وأضحك الناس منه، مثلما أضحكهم من أديب مات حماره" [١].

ويظهر أن حمار كل من الجزار والوراق لم يكن وحده الذي عزى فيه الشعراء، فهذا الشاعر جمال الدين بن نباتة يعزي رجلا بحمار له نفق، فيصور حزن صاحبه عليه، وبكاء الإسطبل الذي كان يعيش فيه، والحبال التي كانت تقوده، يقول: [٢]

مَضَيْتَ وقَدْ كانَتْ لمِنَ أنْتَ عِنْدَهَ مَصائدُ نرجو نَفْعَها ونطارد

فأصْبَحَ يبكي والمجر[٣]الذي خلا ومَثْلُكَ من تبكي عليه المقاودُ

ومن الحيوانات التي رثاها الشعراء "البغل"، فقد عثر على مقطوعة واحدة نظمها الشاعر ابن نباتةفي رثاء بغلة كان يعتمد عليها في رحلة تجارية، فنفقت معه في الطريق، ولكنه يقلل من قيمتها إذا ما قورنت بالربح الوفير الذي عاد به، يقول: [٤]

سافرتُ للسّاحل مُستَبضِعاً قَصداً وحَمْداً حَسَن الجملةِ

فيالهُ مِنْ مَتْجَرٍ وافرٍ ما نَفَقَتْ فيه سوى بغلتي

ولم تحظ الخيول بعناية كبيرة من قبل الشعراء على الرغم من دورها الكبير في ذلك العصر، وربما يفسر ذلك أن الشعراء الذين رثوا الحيوان كانوا من الطبقة الفقيرة التي كان مركوبها الحمار، ولم يكن يسمح لها بركوب الخيول، ذلك أنها كانت مركوب أرباب الدولة الذي يميزهم عن عامة الشعب، ويؤيد هذا الكلام أن المقطوعة التي وصلت في رثائها كانت للأمير الشاعر ناصر الدين بن النقيب، وهو أحد أرباب الدولة المملوكية، وفيها يقارن الشاعر بين حصانه الميت وبين الحي الذي يركبه، فيبين أن الأول كان سريعا يسابق الريح والبرق، ويسخر من الثاني فيصوره مقيدا وعاجزا عن الحركة، يقول: [٥]

نَفَقَتْ لي رأسٌ من الخيلِ كانَتْ تَسْبقُ البرقَ والرّياحَ الزّعازعْ

وابتلى اللهُ في المشاعرِ أُخْرى بشقاقٍ لها عن المَشْي مانعْ

وإذا قيل كم لَكَ اليوم رأسٌ قُلْتُ رأسٌ لكنْ بغير كَوارعْ

ورثى الشاعر شمس الدين بن دانيال ثور القاضي شرف الدين بن زنبور بقصيدة وصلت إلينا كاملة، قصد الشاعر من قولها الوصف المحض، والتندر والفكاهة، وإبراز قدرته على

---

[١] د. محمود سالم، أدب الصناع وأرباب الحرف، ص ٢٦٤.

[٢] ابن نباتة، الديوان، ص ١٦٤.

[٣] لم يعثر في المعاجم العربية على دلالة مناسبة لهذه الكلمة تناسب هذا السياق، ولعلها كلمة كان لها دلالة خاصة في ذلك العصر، وربما كانت بمعنى "إسطبل" كما هو واضح من السياق.

[٤] الصفدي، الغيث المسجم، ٢/٢٣٥.

[٥] ابن حجة، كشف اللثام، ص ٢٨، الغزولي، مطالع البدور، ٢/١٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

توظيف ثقافته المتنوعة وبيئته المحيطة في التصوير والإتيان بالمعاني الجديدة الظريفة، وقد عبر فيها عن أحزانه وهي مشاعر زائفة لا حرارة فيها ولكنها من مقتضيات قصيدة الرثاء، ثم يبين المكانة العظيمة التي كان عليها ذلك الثور، ولكنه لم يعبر عنها بطريقة تقليدية، وإنما حاول التجديد، فعمد إلى قصة الإسكندر الكبير ذي القرنين ليربط بين شخصيته وشخصية ذلك الثور، فذو القرنين كان ذا قوة وبأس ونجدة وسيادة، اتخذ من القرنين شعارا يضعه على رأسه ليرمز به إلى السيادة، وهكذا صور الشاعر ثور ابن زنبور، وليصوره الشاعر مقاتلا عنيدا لا يقهر جعل من لونه الأبيض وما عليه من بقع حمراء بمثابة الدرع الذي يحميه، وتحدث عن ترفه حين صوره يتحلى بأنواع الزينة والأحجار الكريمة غالية الثمن، يقول: [١]

عَلى مثله ثوراً بكاي يَزِيدُ ... فَلاَ بَرَدَا جَفْنَاي وهو يَجودُ
رُزِئنا بذي القَرْنينِ بأساً ونَجْدةً ... له عَدَدٌ من بأسِهِ وَعديدُ
بدا وهلالُ الأفقِ تاجٌ لرأسِهِ ... ومن شَفَقٍ درْعٌ له وبُرودُ
وذي أربَعٍ قد قُمِّعتْ بزبرجَدٍ ... وَهَيْهاتَ يَحْكي وما أقلّ عمودُ
وفي الجزْعِ من رَوْقَيه شَبْهٌ ولَونُهُ ... عقيقٌ ونَظْمُ الوَدْعِ منه عُقودُ
خَلاَ مِنْهُ بُرْجُ الثّورِ والشّرفُ الذي ... سعودٌ لهُ نَحْو العُلا وَصُعودُ

ثم يسرد الشاعر محاسن ذلك الثور، ووظائفه التي كان يتولاها، فيصوره قويا تضطرب الأرض من حركته، يفوز دائما بمصارعات الثيران، ويدير الدولاب فيسقي الأرض ويرويها، وفي كل ذلك يلجأ الشاعر إلى المبالغة، ويستوحي معاني القرآن للتعبير عن مضامينه، وبلغ الأمر به أنه راح يتغزل بالثور كما يتغزل بالنساء، فوسمه بالنضارة والشباب، ووصف رضابه وشفتيه، ولذلك كله أدركته عين الحسد فأهلكته "وحزنا عليه حرمت البراهمة أكل لحم البقر، وبكته دواليب السقي، وأنّت له الأتراس التي كان يجرها في البيادر، وهذه أمور معروفة، ربطها ابن دانيال بموت الثور عن طريق الإيهام، فالبراهمة يحرمون أكل لحوم البقر منذ القدم، ولا علاقة لذلك بثوره، ودواليب الماء ترفع الماء وتنزله، والأتراس تصدر صوتا عند جرها، وقد تنبه ابن دانيال لذلك، فربطها بموت الثور ببراعة وفنّ"،[٢] يقول:[٣]

فَكَم لِرهانٍ مِنْه فرّ مُحَارِبٌ ... هز يماً وأدْنى ما وراهُ بريدُ
وقالوا نراه يَبْحَثُ الأرضَ نَاطِحاً ... فَيَصْعَدُ نَحْوَ الجوِّ مِنْه صَعيدُ
فَقُلْتُ لهم يبغي الذي يَحْمِلُ الثّرى ... بقرنيهِ فالأرضونَ منه تَميدُ
وما زالَ يسقي الحَرْثَ رَيّاً فأخْصَبَتْ ... مرابعُ منها قائمٌ وَحَصيدُ

---

[١] العسقدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١٣٢.

[٢] د. محمود سالم، أدب الصناع وأرباب الحرف، ص ٢٧١.

[٣] العسقدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١٣٢-١٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأهالهُ رود الشّبـــابِ أخـــا لمـــــى شهيُّ رضابِ المَرشفينِ بَرودُ
رمتْه عيونُ الحاســـــدينَ بنَظَـــــرةٍ فَلَيْتَ بقَى دَهْراً ومَات حَسودُ
ومِنْ أجْلِهِ قـــدْ حَـــــرّمتْ لَحْمَ مِثْلِهِ بَراهمةٌ في شرعِها وَهُنـــودُ
بكَتْـــهُ قواديـــسُ[1] السّواقي بأدمـــعٍ غزارٍ لها بين الحياض مدودُ
وأنّتْ له الأتْـــراسُ حُـــزْناً وحُرْقَةً وذَابَ لَهُ قَلْبٌ عليه جريـــــدُ

ويختم الشاعر قصيدته بالتأكيد على مكانة الثور، فجعله مميزاً بروثه ذي الرائحة العطـرة، وسيداً لأبقار البلاد جميعها، لو أدرك زمان المرتدين من اليهود لعبدوه، يقول:[2]

ومِنْ بَعْدِه ما عانَقَ البـــابُ سيّـــداً لَهُ كلُّ أبقارِ البلادِ عبيـــدُ
ولا جازَ من تَحْتِ الـــجَوائزِ مِثْلُهُ وسرقينُه مِسْكٌ يَفوحُ وعودُ
فَلَوْ كانَ في أيّامِ موسى صَبَا إلى عِبادَتِهِ في المشركيْنَ يَهودُ

وقبل ختم الحديث عن هذا الموضوع لا بد من تسجيل النتائج التي وصل البحث إليها وهي:

أولاً: أن هذا اللون من الرثاء ليس جديداً على الأدب العربي، وإنما الجديد تلك الرمزيـــة والدلالات النقدية الساخرة التي نفذ إليها الشعراء من خلالـــه، وتلـــك الألفـــاظ والصـــور التـــي استوحوها من بيئتهم وأودعوها في قصائدهم ومقطوعاتهم، هذا فضلاً عـــن ثقافتـــهم الشـــخصية وبراعتهم الفنية التي ساعدتهم في تقديم صور جديدة لم يسبقوا إليها.

ثانياً: توصل البحث إلى أن هناك أوجه اتفاق واختلاف بين مراثي الحيوان ومراثي الإنسان أما عن أوجه الاتفاق، فتتلخص في تصوير الحزن والدموع، وفي بعض الصفات التـــي وســـموا بها حيواناتهم، كالقوة والشجاعة، والسيادة، والضعف، والذكاء، والحكمة، والصبر، والقناعة.

أما أوجه الاختلاف، فتتمثل في المعاني التي تصلح للحيوان ولا تصلـــح للإنســـان مثـــل حديثهم عن وظيفة ذلك الحيوان كالنقل، وتحريك السواقي والدواليب، وتصويرهـــم حياتـــه فـــي الإسطبل، وأكله من روثه وزبله، وحركاته الخاصة كالرفس وضرب الأرض بقرنيـــه، وكذلـــك حديثهم عن قوائمه الأربعة، وقرنيه، بالإضافة إلى ذلك حديثهم عمن يبكي عليه مثـــل الســـواقي، والنواعير، والمقاود، والإسطبلات.

ثالثاً: اختفى في هذا الاتجاه من الرثاء الحديث عن المصير والقبر، والمعاني الفلسفية التي تَفيـــض بالحكمة والموعظة، وتتناول مشكلتي الحياة والموت، والمعاني المعـــبرة عـــن الدعـــاء بالســـقيا والمغفرة.

---

(١) أوعية مربوطة بعجلات السواقي، تمتلئ بالماء عند انخفاضها، وتفرغ ما فيها في الحوض الموصل إلى ترعة الأرض المراد سقيها، انظر د. عامر نجيب، الزراعـــة في مصر في الدولة المملوكية الثانية، ص ١٨٢، ١٨٣، المعجم الوسيط، مادة "قدس".

(٢) العسقلاني، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١٣٣-١٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رثاء والغلمان والمغنين

انتشر الغلمان انتشاراً كبيراً في العصر المملوكي الأول، فقد كانت هناك روافد عدة تغذي المجتمع بأعدادهم الكبيرة ،" فهناك أسواق النخاسة التي تقذف كل يوم بأجناس وأجناس من الغلمان، وهناك سبي الحروب، وهناك الطوائف الوافدة" [١]، ومن تلك الطوائف المغول، فبعد دخولهم في الإسلام تدفقت أعداد كبيرة منهم إلى بلاد المسلمين، واختلطوا بسكانها، وشاركوهم جوانب حياتهم المختلفة حتى وصل بعضهم إلى السلطة والحكم، وقد كثر الوافدون منهم في عهد الظاهر بيبرس، إذ ملأوا مصر والشام بطوائفهم "وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم" [٢]. وتوافدوا بكثرة بعده، ففي سنة ٧٠٢ هـ قدم "البريد بحضور جماعة من المغل وافدين إلى بلاد الإسلام نحو مائتي فارس بنسائهم وأولادهم.." [٣]، وقد أشاد المؤرخون بجمال أولئك الوافدين، ووصفوا شغف السادة وعامة الشعب بهم، وخاصة بتلك الطائفة منهم المعروفة "بالأويراتية" ، التي قدمت إلى مصر والشام سنة ٦٩٤هـ في عهد السلطان المغولي الأصل زين الدين كَتُبُغا، وعددها ثلاثمائة وافد، وكان هؤلاء "صورا جميلة فأفتن بهم الأمراء، وتنافسوا في أولادهم من الذكور والإناث، واتخذوا منهم عدة صيروهم من جملة جندهم، وتعشقوهم، فكان بعضهم يستنشد من صاحبه من اختص به، وجعله محل شهوته، ثم ما قنع الأمراء ما كان منهم بمصر حتى أرسلوا إلى البلاد الشامية واستدعوا منهم طائفة كبيرة، فتكاثر نسلهم في القاهرة، واشتدت الرغبة ... في أولادهم على اختلاف الآراء في الإناث والذكور، فوقع التحاسد والتشاجر بين أهل الدولة إلى أن آل الأمر بسببهم، وبأسباب أخر إلى خلع السلطان الملك العادل كَتُبُغا من الملك"[٤]. وبلغ شغف الناس بهم أن راح شعراؤهم ينظمون فيهم الأشعار معبرين عن محاسنهم، وهيامهم بهم[٥].

واتخذ السلاطين والأمراء، وبعض عامة الشعب الميسورون مماليك يربونهم، ويعتمدون عليهم في حاجاتهم، وكان عددهم عند بعضهم كبيرا، فهذا الملك الظاهر بيبرس وصل عدد مماليكه "أربعة آلاف مملوك" [٦]، وقيل عن المنصور قلاوون: إنه جمع "من المماليك خلقا عظيما لم يجمعهم أحد قبله، فبلغت عدتهم أثني عشر ألفا، وصار منهم الأمراء والكبار والنواب، ومنهم تسلطن" [٧]، وذكر أن الملك الناصر محمد بن قلاوون كان يعطي التاجر الذي يجلب له المماليك أغلى القيم فيهم، فيأخذهم ويحسن تربيتهم، وينعم عليهم بالملابس الفاخرة والذهب والخيول فشاع "في البلاد إحسان السلطان إليهم، فأعطى المغل أولادهم وأقاربهم للتجار رغبة في

---

[١] فوزي أمين، أدب العصر المملوكي الأول، ص ٣٥٨.

[٢] المقريزي، الخطط، ٣/٣٨٥.

[٣] المقريزي، السلوك، ٢/٣٧٨.

[٤] المصدر نفسه، ٣/٤٤، الخطط، ٣/٤٤.

[٥] انظر المقريزي، الخطط، ٣/٤٤، رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ١٢٤.

[٦] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ٢٤٤، الصفدي، الوافي، ١٠/٣٣٨، ابن تغري بردي، ٧/١٦٠.

[٧] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧/٢٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السعادة، فبلغ ثمن المملوك على التاجر أربعين ألف درهم... وكان الملك الناصر يدفع للتاجر في المملوك الواحد مائة ألف درهم وما دونها" [١].

وتفشى الفسق بهؤلاء المماليك حتى إذا أراد سلطان أن يبطش بأحد أمرائه اتخذ من فسق ذلك الأمير بمماليكه ذريعة يصدر الفقهاء على أساسها فتواهم بقتله، وهذا ما فعله السلطان كتبغا المنصوري مع الأمير بيدرا [٢]. ولا أدل على تلك الممارسات الخاطئة مما ذكره السبكي عن فرقة من المماليك تدعى "الجمدارية" فقال: "وأكثر ما يكونون صبيانا ملاحا مردا، ويتعاناهم الملوك، وكذا الأمراء، يكونون بالنوبة مع المخدوم ... ، وصارت الجمدارية تتنوع في الملابس المهيجة للشهوات، ويتزينون فيربون في ذلك على النساء، ويفتنون الناس بجمالهم" [٣].

واستولت فئة من الغلمان على قلوب العامة والخاصة في ذلك العصر، وهم طائفة المغنين، ولا بد هنا من الحديث عن الغناءوالمغنين آنذاك لعلاقة ذلك بالموضوع الذي نتناوله بالدراسة، فقد اتسم الناس في العصر المملوكي، وخاصة في مصر بروح المرح، وسيطرت عليهم تلك الروح حتى في أحلك ظروفهم، وهذا ما عبر عنه ابن بطوطة حين وصف أهل مصر بأنهم "ذوو طرب وسرور ولهو" [٤].

وتعددت وسائل التسلية والترفيه عن النفس يومذاك، ومنها الغناء، إذ اهتم الناس "اهتماما كبيرا بأنواع الموسيقى والغناء، ومما جعل للموسيقى والغناء أهمية كبيرة، تشجيع السلاطين وإغداقهم على المغنين والمغنيات" [٥]،والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها أنه حين ولد للملك الناصر محمد بن قلاوون ابنه الصالح عمل الأفراح لمدة أسبوع، واستدعى المغنين والمغنيات، فحصل لهم شيء كثير، حتى إن مغنيات القاهرة جاء قسم كل واحدة منهن عشرة آلاف سوى التفاصيل والحرير والمقانع [٦] والخلع " [٧].وكان عدد أولئك المغنين كبيراً فما إن يسمعوا بحفلة أو فرح حتى يجتمعوا من كل حدب وصوب للمشاركة فيه[٨]،ففي سنة ٧٢٣هـ "حضرت ثماني جوق من مغاني القاهرة "عرس ابنة السلطان الناصر محمد بن قلاوون[٩]. وفرضت الدولة المملوكية على المغنين والمغنيات ضريبة عرفت باسم "ضمان المغاني"، وقد وصفها المقريزي بأنها بلاء

---

[١] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٢٧/٩- ١٢٨.

[٢] انظر المقريزي، السلوك، ٢٤٨/٢.

[٣] السبكي، معيد النعم، ص ٣٥.

[٤] ابن بطوطة، الرحلة، ٢٥/١.

[٥] د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٠٣.

[٦] غطاء الرأس.

[٧] المقريزي، السلوك، ٢٣٢/٣.

[٨] انظر المصدر نفسه، ٣٦٢/٢.

[٩] المصدر نفسه، ٦٦/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عظيم[١]، إذ كانت تحصل الدولة على نقود كثيرة ذلك أن "العرس ما كان يتهيأ حتى يغرم أهلـــه للضامنة خمسمائة درهم فما فوقها، بحسب حال أهل العرس، ولا تقدر امرأة وإن جلت تنتقش إلا باطلاق من الضامنة، ولا يضرب بدف في عرس أو ختان أو نحو ذلك إلا بإطلاق، وعلى كـــل إطلاق فريضة مال مقررة في الديوان، وكان على كل مغنية قطيعة تحملها إلى الضامنـــة، فـــإن باتت في غير بيتها قامت بمال للضامنة، واستمرت تلك الضريبة حتى أبطلها السلطان الأشـــرف شعبان سنة ٧٧٨هـ [٢].

واشتهر عدد من المغنين والمغنيات والموسيقيين في ذلك العصر ترددت أسماؤهم في كتب التاريخ والتراجم، ومنهم من كان يلازم السلطان طوال الوقت، وآخرون كـــانوا يدعـــون إلـــى الاحتفالات والأفراح، ومن المغنين مغني الشام واسمه خروف [٣]، وخالد بن المصنـــف، وقـــد ترجم له الصفدي وأشاد به كثيرا ووصف شهرته وتمكنه، وملازمته للأمير سيف الديـــن تنكـــز نائب الشام فقال: "ولقد رأيت بمصر جماعة من أرباب هذا الفن... يعـــترفون لـــه ويعظمونـــه ويأخذون در قوله، وينظمونه، وقالوا: هذا ذكره إلى يوم القيامة خالد، لأن علم النغم قال لـــه دون الناس نعم" [٤]، ومن المغنين عبد العزيز الحفني المتوفي سنة ٧١٠هـ، وقد وصف بأنه أعجوبـــة زمانه في فن الغناء [٥]، ومن الموسيقيين الذين أشير إلى عظم مكانتهم في ذلك العصر، الشـــاعر شمس الدين الدهان الدمشقي الذي كان ينظم الشعر ويعرف الموسيقى، فيعمـــل الشـــعر ويلحنـــه ويغني به المغنون، وكان يلعب بالقانون[٦]، وقد أدى اهتمام الناس بالموسيقى في ذلك العصـــر أن ألف بعضهم التصانيف المفيدة فيها[٧].

وقد أكثر المؤرخون من الحديث عن إعجاب علماء ذلك العصر وأدبائه وشـــغفهم بالغنـــاء والمغنيين، فهذا عبد القوي بن محمد بن جعفر الإسنائي المتوفى سنة ٦٩٨هـ مـــدرس العزيّـــة بقوص كان "محبا للسماع، لا يؤثر عليه شيئا في الانتفاع، يكاد إذا سمع شـــبابه يطـــير طربـــا"، وكانت وصيته بعد موته "أن تخرج جنازته بالدفوف والشـــبابه، وتمنـــع النائحـــات والباكيـــات عليه"[٨]، ويذكر الصفدي أن القاضي أبا بكر بهاء الدين ابن غانم حين كان في صفد "حصل لـــه

---

[١] انظر المقريزي، الخطط، ٢٠٠/١

[٢] انظر ابن العراقي، الذيل على العبر ٤٢٧/٢، ٤٤٩، المقريزي، السلوك، ٤/٥.

[٣] انظر الصفدي، أعيان العصر، ٦٧٣/٢.

[٤] المصدر نفسه، ٣٠٨/٢.

[٥] ابن حجر، الدر الكامنة ، ٣٨٤/٢.

[٦] انظر الصفدي، الوافي، ٢٠٩/٤، الكتبي، فوات الوفيات، ٥/٤، ابن حجر، الدرر الكامنة، ١٩٦/٤.

[٧] انظر د سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٠٤.

[٨] الأدفوي، الطالع السعيد، ص ٣٣٣، الصفدي، أعيان العصر، ١٣١/٣، الوافي، ٧٠/١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ميل إلى مغن يدعى طُقْصُبَا، وصار يعمل به السماع في كل ليلة، وقرّر ذلك كل ليلة عند واحد من أكابر الناس" [١].

ولذلك لا عجب إذا أكثر الأدباء من ذكر الغناء والمغنين في شعرهم ونثرهم، فقد احتل التغني بجمال الغلمان أو التغزل بالمذكر مساحة واسعة من غزليات العصر المملوكي، ونافس المرأة في ذلك الغرض الشعري كثرة وصفات [٢]. ووجدت مصنفات أدبية وضعت خصيصا لذلك، ومنها كتاب الصفدي "الحسن الصريح في وصف مئة مليح، " وشعر ابن الوردي في "مئة غلام مليح" [٣]، هذا فضلا عن الأشعار المتفرقة في كتب الأدب والتاريخ والتراجم [٤]، وهي أشعار نظمها أدباء ماجنون، وفقهاء أتقياء، فالتغزل بالمذكر كان ظاهرة عامة آنذاك لم تقتصر على فئة من الشعراء دون غيرهم، ويستشف من كلام المؤرخين والأدباء أن هناك مدرسة خاصة في ذلك الموضوع ينتمي إليها عدد من الأدباء، وهم في ثلاثة فرق: فريق قصد الأطراف والخلاعة والمجون، وفريق عبر عن حبه الحقيقي للغلمان ، والفريق الثالث رغب في المنافسة والابتكار والتجديد، والأدلة على ذلك كثيرة، ومنها ما قيل في ترجمة عبد الرحيم بن محمد السمهوري المتوفي سنة ٧٢٠ هـ أنه كان "جاريا على مذهب أهل الأدب في حب الشراب والشباب والطرب"[٥] وقيل في الأديب محمد بن فضل الله بن كاتب المرج القوصي: "وجرى على مذهب أهل الأدب في أنهم يستجلون محاسن الشباب ويستحلون التشبيب بالشراب ووصف الحباب"،[٦] ويدلل على أن غرض بعض الشعراء الفقهاء من التغزل بالغلمان هو الابتكار والتجديد ما قاله ابن الوردي قبل ذكره الأبيات التي نظمها في مئة مليح "... فإني التقطت من شعري، وجلوت من بنات فكري هذه النبذة التي أكثر معانيها مبتكر، وغالب اقتباسها وتضمنيها لم تتقدمني به الفكر ولَعمري ما أنصفني من أساء بي الظن، وقال عني: كيف رضي مع درجة العلم والتقوى بهذا الفَن، فالصحابة رضي الله عنهم كانوا ينظمون وينثرون، ونعوذ بالله من قوم لا يشعرون، وما كل متهالك هالك"[٧]، واضح من كلام ابن الوردي أن هناك طائفة تستنكر على الشعراء النظم في ذلك الموضوع، وقد استنكروا عليه القول فيه، ولكن مبرره لهم أنه لا ينظم فيه بقصد التهتك والخلاعة، وإنما بقصد الابتكار والتجديد.

---

[١] الصفدي، الوافي، ٢٥٣/١٠، أعيان العصر، ٦/٢، ابن حجر، الدرر الكامنة، ٤٩١/١.

[٢] انظر د. فوزي أمين، أدب العصر المملوكي الأول، ٣٦٢.

[٣] انظر ابن الوردي، الديوان، ص ٤٤٠- ٤٥٨.

[٤] انظر الصفدي، الوافي، ٢١٠/٤- ٢١٢، الكتبي، فوات الوفيات، ٥/٤- ٦، الشاب الظريف، الديوان، ٩١، ٩٢، ٩٦، ١٠٢، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٠، الحلبي، الديوان، ٣٨٧- ٤٠٧، ابن مراد العمري، كتاب النثر في ترجمة أدباء العصر ١٦٨/٢- ١٧٧.

[٥] الصفدي، الوافي، ٣٩٢/٨-٣٩٣، أعيان العصر، ٥٦/٣، الأدفوي، الطالع السعيد، ٣١٣، ابن حبيب، تذكرة النبيه ١١١/٢، ابن حجر، الدرر الكامنة، ٤٧٢/٢، السيوطي، بغية الوعاة، ٩٤/٢.

[٦] الأدفوي، الطالع السعيد، ص ٦٠٣، الصفدي، الوافي، ٣٣٠/٤.

[٧] ابن الوردي، الديوان، ٤٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يكتف رواد هذه المدرسة بالغزل، لكنهم نظموا أشعارا في رثاء الغلمان والمماليك والمغنين للغايات التي قالوا من أجلها في غزلهم، وهي قصائد ومقطوعات ضاع كثير منها، ولم يبق سوى القليل، ذلك أن المؤرخين أحجموا عن ذكر بعضها، واختزلوا بعضها الآخر، ويؤكد ذلك ما جاء في أخبار الشاعر شمس الدين بن الدهان، فقد قيل عنه: إنه "ربى مملوكا اشتراه وأحبه وهذبه، وخرجه فمات فأسف عليه أسفا كبيرا، ورثاه بشعر كثير غنى به ونقله المغنون، وتداوله الناس"[١] وأنه كان "يلحن الأبيات، ويغني بها على قانونه على طريق الحزن فلا يكون له في ذلك نظير"[٢]، لكن المؤرخين لم يثبتوا له إلا مقطوعة واحدة[٣]، وأجزاء من قصيدتين ذكروا أنهما طويلتان، وأن إحداهما "تزيد على الخمسين بيتاً". [٤]

وشارك في نظم هذه المراثي عدد من الملوك والفقهاء والشعراء، والكتاب والنقاد أمثال شهاب الدين محمود، وصلاح الدين الصفدي، وشمس الدين بن الدهان، وجمال الدين بن نباتة، وصفي الدين الحلي، ومجير الدين بن تميم، والملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وغيرهم. وأكثر شاعر وصل شعره في هذا الموضوع هو صفي الدين الحلي، إذ وصل من شعره قصيدتان كاملتان في رثاء مملوكه، بلغت إحداهما عشرين بيتا، والثانية خمسة وعشرين، ويليه شهاب الدين محمود، فقد نظم قصيدة في رثاء شاب جميل بلغت خمسة وعشرين بيتا، ثم محمد بن كاتب المرج القوصي، إذ وصلت قصيدته عشرين بيتا.

ومن الجدير بالذكر أن هذا اللون من الرثاء لم يكن جديدا في هذا العصر، وإنما نظم فيه الشعراء منذ العصر العباسي، وسببه التغيرات الحضارية التي أحدثها الانفتاح على الشعوب المختلفة والاندماج بهم آنذاك[٥]، وقد عد الدكتور عناد غزوان هذا الرثاء جزءا من كتابه "المرثاة الغزلية"، ذلك أن الشعراء يبكون فيه غلمانهم، ويتغزلون بهم[٦].

أما عن مضامين ذلك اللون من الرثاء فقد تعددت وتنوعت، واختلفت من شاعر إلى آخر على حسب درجة العلاقة التي كانت تربطه بالمرثيين، وإن كانوا يشتركون في الحديث عن حزنهم عليهم، وفي التغزل بهم، ووصف جمالهم الحسي المادي أو المعنوي، ومن الشعراء الذين رثوا غلمانهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فقد ذكر المقري أن النور بن سعيد صاحب كتاب "عدة المستنجز، وعُقْلة المُستوفز" ذكر في كتابه "قال من دخل على الملك الناصر وقد نزل بميدان دمشق، قبلت يده، وجعلت أدعو له، وأظهر تعزيته على ما جرى من تلك

---

[١] الصفدي، الوافي، ٢١٠/٤، أعيان العصر، ٦٠٦/٤،الكتبي، فوات الوفيات، ٥/٤، ابن حجر، الدرر الكامنة، ١٩٧/٤.

[٢] ابن حجر، الدرر الكامنة، ١٩٧/٤، وانظر الصفدي ، أعيان العصر، ٦٠٦/٤.

[٣] انظر الكتبي، فوات الوفيات، ٥/٤.

[٤] الصفدي، أعيان العصر، ٦٠٧/٤، ابن حجر، الدرر الكامنة، ١٩٧/٤، وانظر الأدفوي، الطالع السعيد، ص ٦٠٧-٦٠٨.

[٥] انظر مظفر غانم، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص ٣٧٩.

[٦] انظر المرثاة الغزلية، ص ٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصائب العظيمة[١]، فأضرب عن ذلك، وقال لي فيم تتغزل اليوم؟ ثم أنشدني قوله في مملـــوك فقد له في هذه الكائنة: [٢]

والله ما أبكـــي لمُلك مَضى ولا لحالٍ ظاعنٍ أو مقيـمْ
وإنمّا أبكـي وَقَد حُقّ لـــي لفَقْدِ مَنْ كُنْتُ به في نَعيـمْ
يَطلُعُ بدراً ينثنـي بانَـــةً يَمُرُّ فيما رُمْتُهُ كالنّسيـــمْ
في خاطري أبْصِرُهُ خاطـراً فألتوي مِثْل التواءِ السقيـمْ
يا عَاذلي دَعْني وما حلّ بي فما سوى الله بحالي عليـمْ
إنْ مِتُّ من حُزْنٍ له أستَرِحْ وإن أعِشْ عِشْت بهمٍّ عظيمْ

تعكس الأبيات السابقة حالة الحزن التي عاشها ذلك الملك عقب زوال ملكه على يد المغول سنة ٦٥٨ هـ. ولكن معاناته هو لم يكن سببها ما خسر من ملك، أو مَنْ قُتـل مـن المسـلمين، وإنما عز عليه موت مملوكه الذي كان مصدر سعادته، لما كان يتحلى به من جمال وجه، وليـن قد، ووصل به الأسى عليه أنه تمنى الموت بعده، وإذا كان الملك الناصر قد نظـم فعـلا تلـك الأبيات في تلك الأوقات العصيبة التي كان يمر بها، وتمر بها دولة المسلمين، فإن ذلـك مؤشـر على مدى السقوط والفردية التي وصل إليها، إذ لم يعد يعنيه أمر المسلمين، ولا ما نزل بهم مـن قتل وأسر وتشريد على يد أعدائهم المغول وأحلافهم من الصليبيين وغيرهم، وإنما همه الوحيـد من بين الآلاف الذين قتلوا مملوكه وأيامه معه.

وفي الحقيقة إن مضمون أبيات الملك الناصر يشكك في نسبتها إليه، إذ لا يعقل أن تصـدر عن رجل وصف بأنه كان حسن السيرة، "سمحا، جوادا، حليما، حسن الأخـلاق، محببـا إلـى الرعية، فيه عدل" [٣] "وحسن العقيدة، والظن بالصالحين، يكرمهم ويجري عليـهم الرواتـب"[٤]، وخاصة في ذلك الوقت العصيب ولا يعقل أيضا أن يرى ملكه يسلب أمـام عينيـه، ولا يشـغله سوى مملوكه، ويؤكد ذلك المؤرخون الذين ذكروا أن الهمّ الذي كان يؤرقه وقتذاك هو موطنـه، ولذا رثاه بمراث كثيرة.

ويموت مملوك الشاعر شمس الدين بن الدهان الدمشقي الذي رباه، وشغف به حبا، فيرثيه، ويذرف عليه الدموع الغزار، ويحزن حزنا عظيما يوشك منه على التلف، ويتأسف علـى قامتـه الرشيقة، ووجهه الذي فاق البدر حسنا، فيقول: [٥]

---

(١)يعني سقوط الشام سنة ٦٥٨ هـ بيد المغول.

[٢] المقري، نفح الطيب، ١٢٧/٣.

[٣] الذهبي، تاريخ الإسلام، وفيات ٦٥٩ هـ، ص ٤٠١، العبر، ٢٩٧/٣، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٤٠/٢.

[٤] المصدر نفسه، وفيات ٦٥٩ هـ، ص ٤٠٢.

[٥] الكتبي، فوات الوفيات، ٥/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تَيَّمَ قلبـــي وزادنـــي أسَفَـــا بَدْرٌ به البَدْرُ قد غـدا كلفا
مُهَفْهَـفُ القدِّ ليـــنُ قامَتـــهِ علّم غُصْنَ الأراكـةِ الهيَفَا
يا راحلاً أودع الحَشا حُرقـــاً كِدْتُ بِها أن أشـارفَ التّلَفا
بَعْدك دَمْعي قَدْ كاد يُغرقنـــي وكُلّما قُلْتُ قد كفـى وكَفا

ويتحدث في قصيدة أخرى عن تعاسته بعد ذلك المملوك، ويصف أرقه، وقلة صبره، فيقول:(١)

سلوا طولَ هذا اللّيلِ يخبركمْ عنّـي بأنّي لم يُغْمَـــض لِفَقْدكُمُ جَفْنـــي
رحلتُمْ بصَبْري واستَمَرّ مَريرُكـــمْ وأسْلمتُمُ قَلْبيَ إلى لَوْعَةِ الحُـــزْنِ
وعوّضتموني عَنْ سُروريَ بالأسى وبالبُعْدِ عن قُربي وبالخوفِ عَنْ أمني
وقد كان ظنّي أن يدومَ وِصالكـمْ فَا خلَفتِ الأيّامُ في وصلكم ظنّـــي

ويركز الشاعر الدهان في قصيدة أخرى على وصف مناقب مملوكه، واستجلاء محاسـنه، فيصوره كالبدر أو الشمس جمالاً، ويجعله خالٍ من العيوب، وعفيف النفس، يحمل رزانة الشـيوخ على الرغم من صغر سنه فيقول: (٢)

فُجِعْتُ به كالبدرِ في السّنّ والسّنا وكالشّمسِ في إشراقها والمنـــافعِ
سريعٌ إلى داعي الجميل مُبَـــرّأٌ من العيب عفٌّ طرفُه في المجَامعِ
جميلُ المحيّا فيه تَلمحُ صادقـــاً رَزَانةَ كهلٍ وهو في سنّ يافـــعِ

وعلى ما يبدو أن الدهان كان يقوم بممارسات لا أخلاقية مع مملوكه الراحل، وهـذا مـا كشف عنه جمال الدين الخطيب الصوفي، إذ تحدث عن ذلك صراحة، وسخر من الدهان، فطلـب منه أن يصنع تمثالا لذلك المملوك ليقضي وطره منه، يقول:(٣)

لئنْ ماتَ يا دهّانُ مملوكُك الّذي بلَغْتَ في الفِسقِ ما كنْتَ ترتجي
فَمثّلْهُ بالأصْبَاغِ وَجْهاً وقامَـــةً وَخَصْراً وَرِدْفاً ثم عانقه واصْلُجِ(٤)

ولفظة "الفسق" هي رواية الوافي، وأعيان العصر، أما في الدرر فقد وردت "العشـــق" وإن صحت رواية الوافي،وأعيان العصر، فإنها تميط اللثام عن مدى الانحدار الذي بلغه بعض النـاس في المجتمع المملوكي، فجعلهم يتركون النساء جانبا، ويقضون وطرهم من الغلمان والمماليك.

---

(١) الصفدي، أعيان العصر، ٦٠٧/٤.

(٢) المصدر نفسه، ٦٠٦/٤-٦٠٧.

(٣) الصفدي، الوافي، ٢١٠/٤،أعيان العصر، ٦٠٦/٤، ابن حجر، الدرر الكامنة، ١٩٧/٤

(٤) وردت في المعاجم بمعنى أصم، انظر ابن منظور، اللسان "صلج"، المعجم الوسيط، مادة "صلج"، ولعل الشاعر يريد بها معنى آخر.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يكن الشاعر مجير الدين بن تميم وحده الذي بكى محاسن غلامه، وإنما شاركته في ذلك حمائم الأيك، يقول: [١]

وَكَمْ ساعَدَتْني مُذْ دَفَنْتُ قَوامَه حمَائمَةُ أيكٍ بالغرام تَبُوحُ
فَكُنْتُ وإيّاها لأجْلِ قَوامِهِ كلانا على الغُصْنِ الرّطيب ينوحُ

ولا يخفى ما في البيت الثاني من تورية في قوله: "كلانا على الغصن الرطيب ينوح"، وهذا يدل على أن الشاعر لم يكن صادقا في حزنه، وإنما رغب في التصنع والابتكار والتجديد، ولكنه لم يفلح في مسعاه، ذلك أن الصور التي قدمها تقليدية ومتداولة في شعر الغزل.

ومن هؤلاء الشعراء جمال الدين بن نباته، فقد رثى عبدا له اسمه فرج، فاتخذ من اسمه وسيلة ليصنع منه تورية، ويبرز قدرته على التلاعب بالألفاظ، يقول: [٢]

كان لي عَبْدٌ يُسَمّى فَرَجا نَصَبَ الدّهْرُ عليه الشّركا
وأنَا اليوم كما تنظرني ليسَ عندي فرجٌ غير البُكا

ولعل التلاعب بالألفاظ هو ما جعل ابن حجلة التلمساني يشيد بتلك المقطوعة، إذ قال: "وما أحسن ما أنشدني به الشيخ جمال الدين بن نباتة ..."[٣]، فهو حتما لم يبنِ رأيه على ما فيها من حزن عميق وأسى بالغ ،فهي لا تشي بذلك، وإنما بناه حين أعجبته قدرة الشاعر على توظيف اسم عبده "فرج" فيها.

وإذا كان الشعراء السابقون قد فتنوا بمحاسن غلمانهم ومماليكهم المادية، فإن بعضهم شغف بالمعنوية منها، فهذا الشاعر صلاح الدين الصفدي يعبر عن إعجابه بسمتي العفة والطهارة اللاتي كان يتحلى بهما مليح من قرية قَدَس [٤]، يقول في رثائه:[٥]

يا حبيباً قد قَضَى وَمَضى طاهراً ما عيبَ بالدّنس
إنْ تفرّقنا عن قَدَس فاللّقا في حضرة القُدس

ولا تخفى رغبة الشاعر في التّصنع والإتيان بالجناس المحبب إلى قلبه، ولعل الذي حدا بالشعراء إلى إسباغ سمتي العفة والطهارة على مماليكهم وغلمانهم، هو شيوع الفحش بهؤلاء، فصار الشعراء يتحرزون بذكرها خشية أن يظن أحد أنهم من أرباب الفسق والفجور، وأن الذي دعاهم إلى رثائهم هو شعورهم بفقدان متعهم وملذاتهم.

---

[١] الصفدي، الوافي، ٤/٦١.

[٢] ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص ١٠٨.

[٣] المصدر نفسه، ص ١٠٨.

[٤] وهي بليدة ينسب إليها بحيرة بين صفد وباتياس. انظر ياقوت، معجم البلدان، مادة "قدس".

[٥] الصفدي، جنان الجناس، ص ٥٨-٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويرثي الشاعر شرف الدين الأنصاري المملوك سابق الدين على لسان صاحبه المنصور علي، فيلقي مسؤولية موته على الدهر، ويشيد بما كان يتحلى به من حسن وشجاعة، وعطف على الفقراء، ويعجب من الدهر الذي طوى تلك المحاسن والمآثر تحت التراب، فيقول:[١]

إنْ خانَني زمَني فيه فَلا عَجَبٌ ... قَدْ كُنْتُ أذخرُهُ عوناً على زَمَني

ما راقَ في ناظري من بَعْدِه أسَدٌ ... على جَوادٍ،ولا بَدرٌ على غُصُنِ

ما كُنْتُ أحْسبُ كفَّ الدّهرِ قادرةً ... أنْ تُدرجَ الحُسْنَ والإحْسَانَ في كَفَنِ

ورثى الشعراء الغلمان والمماليك والشباب بقصائد طويلة، عبروا فيها عن حزنهم الصادق والحقيقي، فأشادوا بمحاسنهم وفضائلهم النفسية، وتحدثوا عن مكانتهم عندهم، والدور الذي لعبوه في حياتهم، ومن هؤلاء الشعراء شهاب الدين محمود الحلبي الذي رثى شاباً جميلاً فُقِد بقصيدة هي أطول ما وصل في هذا الباب، وفيها يصور شغفه بذلك الفقيد، والألم الذي يعتصره عليه، فيجرد من نفسه شخصاً آخر يخاطبه ويحاوره، ويطلب منه ترك ملذات الحياة ومتعها التي غدت مرة بعده، لا طعم لها، ويصب جام غضبه على الدهر، ويظهر نقمته عليه فهو الذي اختطف منه ذلك الجار الحبيب، يقول:[٢]

واسْلُ عن طيبِ الحياةِ فَقَدْ ... صِرْتَ لا قَلْباً ولا سَكَنَا

لا تقلْ أرجو الإيابَ فكَمْ ... نازحٍ بعد البعاد دَنَا

فهو دَهْرٌ كان مُلْتَهِياً ... عنكمُ والآن قد فَطِنَا

حيرةٌ واللهِ بَعْدَهم ... لم أجدْ حُسْناً ولا حَسَنَا

سَلبوا روحي فَلَيْتَهُمُ ... عوّضوني عَوْضَهم ثَمَنَا

ودَرَوْا أنّي أموت بِهِمْ ... فكَسَوني بالضّنا كَفَنَا

ثم يمزج الشاعر حزنه على ذلك الراحل بالتغزل به واستجلاء محاسنه، وقد عبر عن معانيه حين أجرى حواراً بينه وبين مظاهر الطبيعة الجميلة التي أضناها الأسى عليه، فتوقف النسيم عن الهبوب، وشجر الدوح عن الحركة، وهجرته الحمائم، وغابت البدور عن أفق السماء، وهو في كل ذلك يظهر براعته في التصوير، وقدرته على حسن التعليل الذي شاع وانتشر في شعر ذلك العصر، يقول:[٣]

---

[١] شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص ٤٧٣.

[٢] الكتبي، فوات الوفيات، ٤ ٨٧.

[٣] المصدر نفسه، ٤ ٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قُلْتُ للبدْرِ المنيـــر وقَـــدْ غابَ مَن أربى عليه سَنـــا
غبْ أوِ اطلُعْ إنْ أردْتَ فما فيكَ لي عَنْ مَنْ فَقَدْتُ غِنى
أنبأتني الشّمـــسُ عنْه وعَنْ بَدْرها إذ غـــابَ واقترنا
نَحْنُ كنّا إخوةً شَـــــرفاً فأصـــاب الدّهرُ أحْسَنَنَا
وسألتُ الدّوحَ بَعْدَهـــــم هل أمالَتْ نَسْمَةٌ غُصنـــا
أو تَمَشّتْ في خمائلـــــه ذاتُ طَوْقٍ تَبْعَـثُ الشّجنا
أو سقاهُ الطلّ مضطجـــعاً فَلَوَى أعطافـــَهُ وثنـــى
قال لي ذاك النّســـيمُ نأى مُذْ تَنَاءَوْا والغَمَامُ ونَـــى
وعيونُ النّورِ قد رمـــدتْ وغناءُ الوُرْقِ عـــاد عَنا
فإذا مِلْنَا فـــلا طـــرَبٌ بل لأنّ الوُرقَ نحن لَنَا

ويواصل الشاعر قصيدته مخاطباً أولئك الجيران الذين هجروه، ويتمنى أن تعـــود أيـــام الوصل تجمعهم، ولكن اليأس من اللقاء يغلب على مشاعره، فقد غـــادروا دون رجعـــة أو أمـــل باللقاء، وتركوه يصارع الموت وحيدا، ويختم قصيدته بالدعوة لقبرهم بالسقيا، وهو في كل ذلـــك يقصد الشاب الراحل، يقول:[1]

سادتي هلْ بَعْد بُعْدِكُـــمُ ترجُع الأيّامُ تَجْمَعُنـــــا
أرتجي واليأسُ يهزأُ بـــي أن يضمَّ الدّهرُ أُلفتنـــا
وضلالُ الحبِّ غادر لـــي فيكمُ بَعْدَ المنَونِ مُنـــى
إن قَضى صبٌّ يهيم على فَقْد أحبابٍ نأوْا فأنـــــا
فسقاكم كلُّ ساريـــــــةٍ من دموعي تخجل المُزنا

تعبر القصيدة السابقة عن أحاسيس نفس صادقة، لوعها الفراق، وأشجاها الحزن والبكـاء، وتكشف عن علاقة وثيقة ربطت الشاعر بالشاب الفقيد جعلته يحظى بتلك المكانة الكبـــيرة فـــي قلبه، ولذا خاطبه الشاعر بـــ "جيرتي"، و "جيرة"، و "ســـادتي" ،وهـــي ألفـــاظ ودلالات تجعـــل القصيدة بمنأى عن أنها قيلت في رثاء شاب لا صلة له بالشاعر، ولا تربطه به علاقة وطيدة.

ومثل تلك المشاعر والأحزان عكسها محمد بن فضل الله بن كاتب المرج القوصي فـــي قصيدته التي رثى بها شاباً أمرد من أولاد الجند كان يشتغل بالأدب، ويقال له ابن بدران، وهـــو لا يكتفي فيها بتجسيد أحاسيسه الحزينة، وإنما صور مشاعر الناس كلهم على ذلك الفقيد، وتحـدث عن المرض الذي ألم به فأودى بحياته، وهو مرض ذات الجنب، وهاجم الدنيا ووســـمها بـــالغدر ببني الإنسان، لأنها تسعدهم وتشقيهم في الوقت ذاته ،والكل فيها إلى زوال، يقول:[2]

---

[1] الكتبي، فوات الوفيات، ٤/٨٨.

[2] الأدفوي، الطالع السعيد، ٦٠٧-٦٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تَزَلْزَل عَقْلٌ فيك كالجَبَل المرُســـى ولانَت قلوبٌ كالحجارة أو أقســـا
وَجُرِّعَ كلٌّ من حِمامك غُصَّـــــةً وما مِثْلَهَا مما يُساغُ ولا يُحْســـا
مَرِضْتَ فَطُمْنَا بأخبار صحّـــــةٍ فيا ليتها صَحّتْ ولو أعقبت نكْسا
وَمتَّ بذات الجنْبِ وهي شَهَـــادَةٌ فَبُعدك فيه قارنَ السَّعْدَ لا النَّحْسا
سَبَقْتَ بطَرْفٍ في يد الموت باكياً فَلَيْتَكَ لم تَسْبق ولم تَدْعِ النَّفســا
وَتَعْساً لدنياكم أراحتْ وأتْعَبَـــتْ وَصَبَّحَ فيها البِشْرُ قوماً فما أمْسى
أيا موتُ كم أبْليتَ ثوبَ شبيبـــةٍ فَأَنْتَ الذي تُبلي ونحن الذي نُكسا

ثم يخاطب الشاعر الباكين على ذلك الشاب، ويطلب منهم أن يكفوا عن ذلك، فليس هـــو ممن يخشى عليه وحشة القبر، وقبره قد حوى بموته الأنس كله، ويؤكد الشاعر محاسن الفقيـد إذ طلب من المعزين أن يعزوا فيه الشمس والقمر، ويعجب منها إذ رآها تبزغ بعده، يقول:(١)

أيَا مَنْ بكاهُ حَسَـــرَةً وتفجّـــعَا لأنْ حَلَّ قَبراً موحشاً ضمّه رمْســا
على غيره خَفْ وَحْشَةَ القبر إنني رأيتهُمُ في قبره دَفَنوا الأُنســـــا
ويا مَنْ تواسى عنه مالَكَ والأسَى أ أبْصَرْتَ مَحْزوناً لدى حُزْنه آسا ؟
فإن أنْتَ كُنْتَ عَنه مُسلِّياً وَمُعزِّياً فَعَزّ أخاه البدر أو أُخته الشّمْســـا
وأعْجب مِنْها اليَومَ أضْحَتْ منيرةً وَرَوْنَقُ ذاك الوَجْهِ كالأمسِ قد أمسى

ثم يلقي الشاعر الضوء على مصير ذلك الرجل، فيأسى عليه إذ أضحى مرتعاً للديـــدان، وهو الذي كان يأنف عن تقبيل الشّفاه اللّعس في حياته، ويشيد بجماله وفصاحته، ويعجـــب مـــن الأرض التي طوت تلك المحاسن والصفات، وعلى ما يبدو أن الشاب مات في شـــهر رمضـــان، ولذا يهنيه الشاعر بذلك، ويختم قصيدته بالدعوة له بالرحمة ولقبره بالسقيا، فيقول:(٢)

وَقَبّلك الدّيدانُ مَيـــــتاً وكُنْـــتَ لا تُقَبلُ من غـــيدٍ مَراشفـــهَا اللُّعـــسَا
أتَغْدو خَليطَ الأرضِ مع ما حَوَيْتَ مِنْ فصاحة نُطـــقٍ وهي تُعْرف بالخَرسا ؟
وتُسْلَبُ أثوابَ الشّبَابَ جديـــــــدةً وغيرُك يُتلفها وَيَخْلُقُـــهَا لبْســـــا
ليَهْنكَ لقْيَا الله في شَـــــهْرِ رَحْمَـــةٍ تَقَدّست الدُّنيا به وَغَـــدتْ قُدْســـــا
لئن كنْتَ غُصناً طَابَ أصلاً ومغرساً فكم جَعَلوا في التّربِ غُصْناً وكم غَرْساً
لكن عَهْدِنا الغُصْنَ يُنْقَلُ للثّـــــرى فيزدادُ ترطيباً فـــزدتَ بـــه يَبْســـا

ويموت للشاعر صفي الدين الحلي مملوك رباه فأحســـن تربيتـــه، فيرثيـــه بقصيدتيـــن جميلتين، تكمن أهميتها في أنهما تكشفان عن معاناة حقيقية، وحب عميق هذا فضلاً عـــن أنـــهما تضيفان معاني جديدة لم يوردها الشعراء في مراثيهم السابقة، وهي معان تؤكد أن العلاقة التـــي

---

(١) الأدفوي، الطالع السعيد، ص٦٠٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كُنْتُ أمّلْتُ أنْ تشيّـــع نَعْشي وَتواريَ في التّرب عَظمي الرّميما
وتوقّعتُ أن أردَّ بك الخطـــ ـــبَ فأمسى نواكَ خطباً جَسيمـــا
قد تبوّأتَ قاطِنـــاً الخلـــ ـــدَ فأوْرَثتَ في فؤادي الجحيمـــا
وتفرّدتَ بالنّعيـــمِ من العيـــ ـــشِ وأبقيْتَ لي العذاب الأليَـــما
فَسقَى عَهْدك العِهادُ فقـــد فـــزْ تَ بزلفى الجنانِ فوزاً عظيـــما
وعليك السّلامُ حـــيّاً ومَيـــتاً ورضيـــعاً ويافـــعاً وفطيـــما

وتصوّر القصيدة الثانية الخسارة الكبيرة التي مني بها الحلي بموت مملوكه، وتعبر عـــن علاقة أمتن وأشد قوة ربطتهما، فقد عده الشاعر فيها بمثابة الابن، وجعله يتفوق علـــى أقربائـــه الحقيقيين حظوة ومنزلة، لأن هؤلاء كانوا يرجون موت الحلي وهلاكه كي يتمتعوا بماله وجاهـه، أما مملوكه الذي جلبه رضيعاً ورباه، فكان له نعم الخادم المطيع، الذي أفنى حياته فـــي خدمتـــه، وحرص دائماً على إرضائه وعلى مصالحه وتلبية احتياجاته، ولو كان ذلك على حساب نفسه، ثم يستجلي الشاعر محاسن مملوكه وخصاله الحميدة، فيتحدث عن أمانته وفصاحته وقوته وجمالـــه، فيقول:[١]

لا عَبدُ يُغْنـــي عَنْهُ ولا وَ لَـــدُ ما كلُّ عَبْدٍ علـــــيه يُعتَمَدُ
ولا سليـــلٌ يســـرُّهُ تَلَفـــي كناصحٍ في رِضـــايَ يَجتَهِدُ
ذا يتمنّى فقدي لكي يـــجدَ الـــ ـــمالَ وهذا لحـــزنه يَجِدُ
ربيبُ بَيْتي، بل ربَّ نـــعْمَتِهِ وَمَنْ به في الأمور أعتَـــضدُ
يَسعى لِنَفْعِي بالطّبع منـــه، ولا يَقْصرُ في فِعله ويَضْطَـــهدُ
وهو القويُّ الأمين إن عَرَضَتْ لي أزمَةٌ كان مِنْه لي مَـــدَدُ
مَنْظَرُهُ صالحٌ ومَخْبَـــــرهُ فالبدرُ في بُرْدتيهِ والأسَـــدُ
كان لساناً لي ناطقاً، و يـــداً طولى، وَظَهراً إليه استَـــنِدُ

ثم يتحدث الشاعر عن رعايته لذلك المملوك مذ كان صغيراً، وحسن معاملته له، إذ كـــان له بمثابة الأب العطوف الذي أشرف على تعليمه وتثقيفه وتهذيبه حتى غدا على درجة عالية مـــن الثقافة والفصاحة وحسن الخلق، والقدرة على الكتابة، واتقان فن القول، وهو يمـــزج ذلـــك كلـــه بالحسرة عليه واللوعة على فراقه، يقول:[٢]

---

[١] الحلي . الديوان. ص ٣١١.

[٢] المصدر نفسه، ص ٣١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كَفلتُهُ يَافعاً فَكنُـــــتُ لـــــه كالوَالد البرّ، وهو لي وَلَدُ
مُعْتقداً فـــيه مـــا تحقّق لـــي من وُدّه وهـــــو فيّ مُعْتَقَدُ
وَظَلتُ أغذوهُ بالعلوم، ومـــــا يَزينُهُ وهو فيـــه مُجْتَـــهِدُ
فَجَاء مُستَعذَبَ الخلائق واللفّـــ ـظ وَمِصبَاحُ فَهْمِهِ يَقِـــدُ
مَهْذَّبُ اللَّفظِ مـــا بِمَنْطقـــــــهِ زَيَغٌ، ولا في خِـــلالِهِ أوَدُ
يُعربُ ألفاظَهُ فيَنْفـــثُ فـــــي سِحْر المَعاني وما بها عُقَدُ
وإنْ خطّ طرساً، فالدّرُّ مُنْتَظَمٌ أو قَال لَفْظاً فَجَوْهَـــرٌ بَدَدُ
لله قَلْبٌ رثَتْ عَلائقـــــــــهُ به وأثْوَابُ حُزْنِهِ جُـــدَدُ
قَطَعْتُ من غَيْرِه الرّجاءَ فَما وَجَدْتُ مِثْلاً له ولا أجِـــدُ

تكشف القصيدتان السابقتان عن المكانة التي حظي بها ذلك المملوك فـــي حجـــر ســـيده الحلي، وتبينان أنه لم يكن مملوكاً عادياً كغيره من المماليك، وإنما هو على درجة كبيرة من العلم والمعرفة وحسن الخلق فضلاً عن الجمال وحسن الخلقة، وتجليان الصورة عن الدور الذي لعبـــه في حياة سيده، ولذا كان موته خسارة عظيمة، ومصاباً جللاً نزل بالحلي الأمر الذي جعله يرثيـه، ويندبه ويكثر فيه البكاء.

* * *

أما المغنون في ذلك العصر، فلم يحظوا بمراث كثيرة على الرغم من شهرتهم ودورهـــم في المجتمع المملوكي، وشغف العامة والخاصة بهم، وكل ما عثر عليه أربع مقطوعات نظمـــها صلاح الدين الصفدي، إحداها في رثاء خالد بن المصنف المغني المتوفى سنة ٧٣٥هـــ، وثلاثـــة في رثاء طقْصُبا المغني.

أما المقطوعة التي رثى بها خالد بن المصنف، فقد وصف فيها الحزن العام علـــى ذلـــك الفقيد، وأشاد بقدرته على الغناء حين جعله سيد ذلك الفن، وجعل سائر المغنين سابقيهم ولاحقيـــهم عيالاً عليه، ثم صور حزن آلات الغناء عليه ودعوتها بالرحمة له، وهي صورة مســـتوحاة مـــن بيئة الغناء والمغنين آنذاك، يقول [1]

قَد مَضى خالدُ المغنّي وَ وَلّىَ وعليه الدّموعُ وَقْفَـــا جـــوارِ
كم له نَوبةٌ، وما كان فيـــــنا بأمير تُـــدَقُّ في الأسحـــــــارِ
ولأقوالِهِ المَطاعَـــةِ يَعْنـــــو كلُّ مَنْ جاء باقي في الأعصارِ
هَكَذا فَلْتَكُنْ أمارَةُ مَنْ اتْـــــ ـــقَنَ فَنّا وَغَيْـــرُهُ ذو افتـــــقارِ
رَحْمةُ الجَنْكِ والدّفوفِ عليه وصلاةُ العيـــــدانِ والمِزْمـــارِ

---

[1] الصفدي، أعيان العصر، ٢/١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما المقطوعات الأخرى، فيذكر الصفدي أنه نظمها تلبية لزغبة القاضي بهاء الدين بن غانم، وذلك حين زار بصحبته قبر طقصبا فوجدا "قبره قد نبتت به أنواع الزهور"[١]،وهي مقطوعات لا تنبئ عن مشاعر صادقة، وحزن حقيقي، وإنما هدف الشاعر من نظمها إظهار براعته الشعرية وقدرته على التصوير وحسن التعليل، ولذا راح يحلق بخياله معللاً ومفسراً وجود الزهور الجميلة على قبر ذلك المغني، فتارة يبين أن أنفاسه هي التي أهدت إلى وجه الأرض تلك الزهور، فيقول:[٢]

بنَفسي حبيبٌ قَبرُهُ راحَ رَوْضَةً خمائلُها مَسروقةٌ من مخايلهْ
دَرَى أنّه لا صَبْرَ للنّاس بَعَـده فأهدى لهم أنفاسَهُ في شمايلهْ

وتارة يكشف عن أن محاسنه الجميلة التي ذوت في باطن الأرض هي التي خرجت على ظهرها على شكل زهور ورياض جميلة، يقول:[٣]

لا تُنكروا زهراً من حَول تُرْبتهِ أضْحى نسيمُ الصَّبَا من نَشرِهَا عَطِرا
هذه محاسنُ ذاك الوجهِ غيّرهـا بَطْنُ الثّرى فاستحالتْ فوقه زَهَـرا

وتارة أخرى يصور ذلك المغني بالقمر، وتلك الزهور بالنجوم التي تدور في فلكه، فيقول:[٤]

أفْدي حبيباً غدا في التّربِ مَضْجَعُهُ وفيه لذّ بجفني الدّمعُ والسَّهَرُ
تحكي نجومَ السّما أزهارُ تربتـهِ لأن طَلْعَتَه تَحْتَ الثّـرى قَمَرُ

وبعد تلك الجولة في الأشعار التي رثي بها الغلمان والمماليك والشباب والمغنين تبين أن الشعراء عبروا فيها عن مشاعرهم الحزينة، وأساهم ولوعتهم، وقد تفاوتت درجة الصدق فيها من شاعر إلى آخر حسب درجة العلاقة التي تربطه بمرثيه، وكشف البحث عن أن بعض الشعراء لم يرث مملوكه أو غلامه بدافع إظهار حرقته عليه، وإنما قصد من ذلك إظهار براعته الفنية، وقدرته على التلاعب بالألفاظ.

وأظهر البحث أن الشعراء تغزلوا بمرثييهم ، وأثنوا على خصالهم الحميدة، وأنهم سلكوا في التعبير عن ذلك نهجين:

الأول: وصفوا محاسن مرثييهم الحسية المادية، فأبرزوا جمال وجوههم، ورشاقة قدودهم وجعلوها تضاهي في حسنها مظاهر الطبيعة الجميلة، ولذا صوروا حزن تلك المظاهر عليهم، وتعطلها بعدهم.

أما في النهج الثاني، فقد أشادوا بفضائلهم النفسية وصفاتهم المعنوية، وتعددت المعاني التي قدموها وتنوعت واتسع مجال القول فيها، إذ تحدثوا عن أخلاق غلمانهم ومماليكهم،

---

[١] الصفدي، أعيان العصر، ١١/٢.
[٢] المصدر نفسه، ١١/٢.
[٣] المصدر نفسه، ١٢/٢.
[٤] المصدر نفسه، ١٢/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشجاعتهم وثقافتهم، وعلومهم وفصاحتهم وأمانتهم وعطفهم على الفقراء وغير ذلك من الخصال الحميدة التي أوضحتها الصفحات السابقة.

وكشف بعض الشعراء عن الممارسات اللاأخلاقية التي كان يمارسها بعض الناس مع مملوكه، وفي مقابل ذلك بينوا المكانة المرموقة التي حظي بها بعض المماليك في حياة أسيادهم ونفوسهم حتى أنزلوهم منها منزلة الابن أو الصديق، وفضلوهم على الخلق كلهم، وأشرفوا على تربيتهم وتثقيفهم، وبنوا الآمال العظيمة عليهم.

وتحدث الشعراء عن مصير مرثييهم بعد الموت، وجاء ذلك في معرض مقارنتهم بين حالتهم النفسية الحزينة والوضع الذي آل إليه أولئك المرثيون، الذين غدوا يتقلبون في نعيم الجنة ومتعها، ودعوا لهم بالرحمة والمغفرة، ولقبورهم بالسقيا، كما تناولت أشعارهم المعاني الفلسفية التي تتحدث عن مشكلتي الحياة والموت.

رثاء مظاهر حضارية

وصف شعراء العصر المملوكي الأول أدواتهم وأشياءهم المادية التي يستخدمونها في حياتهم، ويعتمدون عليها في أمورها، وأكثروا من ذلك، فقالوا في البساط، والمصلى، والناعورة، والكأس، والمروحة، وغير ذلك، وكان وصفها ظاهرة عامة لم يقتصر على شاعر دون غيره، ولعل شعر الألغاز الذي شاع في ذلك العصر، كان قائماً على التلغيز بتلك الأدوات والأشياء الحضارية.[١]

ولم يكتف شعراء هذا العصر بوصف أدواتهم، ولكنهم رثوها حين تلفت، وحين شعروا بفقد عامل من عوامل عونهم وسعادتهم، ولم يكن رثاء تلك الأدوات جديداً في الشعر العربي، وإنما وجد منذ العصر العباسي الأول.[٢] إلا أن الشعر الذي نظم في العصر المملوكي الأول كان قليلاً ولا يمثل ظاهرة عامة، إذ لم يسفر البحث في المصادر المتوفرة إلا عن مقطوعتين، وقصيدة طويلة، قيلت في رثاء قدح، وسهم، ونرد، وبعد الإطلاع على تلك النصوص الشعرية، وحياة ناظميها اتضح أن نظمها لم يكن سببه إظهار الحزن والبكاء والتفجع على ما خسره الشعراء بفقدها، وإن حاولوا إقناع المتلقين بذلك، وإنما كان الهدف منها:

أولاً: رغبة الشعراء في إظهار قدرتهم على الابتكار والتجديد والتصوير، وتوظيف المعاني المستمدة من بيئة الأداة المرثية.

ثانياً: إبراز روحهم الفكهة والساخرة عن طريق تلك الأشعار، ويدلل على ذلك مضمونها، وأن بعض ناظميها وهو شمس الدين بن دانيال تميز بروحه الهزلة ومجونه.

---

[١] انظر ياسين الأيوبي، آفاق الشعر في العصر المملوكي، ص ٣٩٤-٣٩٩.

[٢] انظر مظهر عايد، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص ٤٩١-٤٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثاً: نقد المجتمع وإظهار ما فيه من انحرافات، وتجلى ذلك في قصيدة ابن دانيال في رثاء نـرد صديقه صفي الدين.

ومن الشعراء الذي رثوا أدواتهم مجير الدين بن تميم إذ قال يرثي قِدْحَهُ:[١]

أيا قَدحاً قد صدَع الدّهرُ شَملـــهُ فأصبحَ بعد الرّاحِ قد جاور التُّربا

سأبكيك في وقتِ الصّبوحِ وإنّني سأكثر في وَقْتِ الغبوقِ لك النّدْبَا

يستعين الشاعر على رثاء قدحة بالمعاني التقليدية المسـتوحاة مـن مراثـي الإنسـان، وبالألفاظ المستمدة من وظيفة ذلك القدح، فيحمل الدهر مسؤولية تلفه، ومجاورته التراب، ويعلهد نفسه أن يظل وفياً له وباكياً عليه في أوقات شرب الخمر وهي الصبوح والغبوق، وهي الأوقـات التي يفتقده فيها.

ويرثي أيدُمُر المحيوي سهماً له انكسر بأبيات يعبر فيها عن أثر انكساره في نفسه، فقـد لازمته الأحزان، وهجره النوم، ويستذكر وظيفة ذلك السـهم حيـن كـان يـروع الحيوانـات، ويصطادها، ويكشف عن غبطة تلك الحيوانات والطيور بموته، إذ نعمت بالحياة، وأضحت فـي مأمن من المخاوف، ثم يوظف الشاعر ألوان القسي الصفر، وحركتها أثناء الرمي، ليجعل منـها دليلاً على حزنها وأنينها على سهمه المكسور، وينهي أبياته متعجباً من الموت الذي سطا علـى سهمه، بعد أن كان له دور كبير في خطف الأرواح وإنهاء الآجال، يقول:[٢]

يا سَهمُ هَاجَ رَداكَ لي بَلبـالاً وأطالَ نومي والهمومَ أطـالا

مُذْ بِنْتَ ما راع الحَمامُ حَمامـةً يوماً ولا عَلقَ المَنونُ غَـزالا

ولطالما شوّشْتَ من سِرْب المها أَلفاً ومن سَطْر الكراكـي دالا

ولطالما أوْجَسْتَ نبأةَ طائـر يوماً فَطِرْتَ فَجُسْتَ منه خِلالا

قد كُنْتُ أعجبُ للقسيِّ سقيمةً صُفراً ترنّ كأنّهـنّ ثكالـى

فإذا بها عِلْماً بيَوْمِكَ في الرَّدى كانَتْ عليْكَ تُكابِـدُ الأهْوالا

عَجَباً من الآجالِ كيف تقسّمَتْ فيه وكان يُقـسّمُ الآجـالا

ولا يخفى من الأبيات حرص الشاعر على إبراز براعته الفنية، وسـعيه إلـى توظيـف المعاني المنتزعة من بيئة ذلك السهم ووظيفته لابتكار معان جديدة لم يُسبق إليها.

ونظم الشاعر شمس الدين بن دانيال قصيدة رثى بها نرد صاحبه صفي الدين، بلغ عـدد أبياتها خمسة عشر بيتاً، وفيها يعزّي الشاعر صاحبه بنرده ويواسـيه، ويطلـب منـه التجمـل والعزوف عن البكاء خشية سخرية الحساد الذين يترقبون نزول المصائب به، ثم يتحـدث عـن أحجار ذلك النرد والمادة المصنوعة منها وهي العاج، ويصف ما عليها من نقـوش خضـراء،

---

[١] الصفدي، الوافي، ٥/٢٣٠، الكتبي، فوات الوفيات، ٤/٥٥.

[٢] المصدر نفسه، ١٠/١٠،المصدر نفسه، ١/٢١٠-٢١١، الغزولي، مطالع البدور، ٢/١٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصورها تضاهي بجمالها ما يزين أكف النساء البيض المخدرات من وشـــم وحنـــاء، ويشـــير الشاعر إلى الوظيفة التي كانت تؤديها تلك الأحجار في عصره، ويبين أهميتها عند من يمارسـون لعب القمار، ويعكفون على شرب الخمر، ثم يكشف في نهاية قصيدته عما فعلته بصاحبها صفـــي الدين، إذ شغلت عقله، وأنسته أداء واجباته الدينية من صلاة وصوم وغيرها، وهو في كل ذلـــك يستخدم أسماءها الفارسية للتعبير عن معانيه، ومنها قوله:[١]

عزاؤك طولَ الدّهر يا ابن أبي الفَخْرِ عزيزُ أسى إذْ لستَ تجنحُ للصّبـــرِ
فلا تبدينّ حُزناً فيشمتَ حاســـــدٌ وكَفكفْ دموعَ العينِ في السرّ والجَهْرِ
وعُجْ سالياً عن بنتِ عاجٍ عَدِمتَهـــا فصوصُ قمارٍ كنّ أغلى من البَـــدْرِ
مُنعّمَةٌ بيضاءُ خُضـــرٌ نُقُوشُهـــا كنقشِ كفوفِ الغيد أُضْحَيْنَ في الخدْرِ
تُطاوِعُها في الأمرِ وهي أبيَّـــــةٌ مرادُكَ بَيْنَ الشُّرب في النّهي والأمـــرِ
وللبِنْج[٢] فعلُ البَنْج في اللّبِّ ما بدا وألهاك عن صَوْمِ الفريضةِ والفـــطرِ
إذا ما بدا للدُّوّ [٣] شكلان أمسيـــا أليفين وَصْلاً لا يُراعان بالَهْجـــــرِ
وكالخالِ نَقْشُ اليكَ يسبيكَ لَوْنُـــةً فأنت به صبٌّ الفؤادِ مَدى الدّهـــــرِ
تروقك من شَفْعٍ ووَتْرٍ نقوشُـــــها وتُلْهيكَ ما لاحَتْ عن الشّفعِ والوتـــرِ

ويبدو أن الشاعر حين يرثي ذلك النرد، ويتحدث عن دوره في حلقات القمار والشـــراب، وشغف صفي الدين به شغفاً جعله يلهو عن فرائض دينه، يعطي صورة عن مجتمعه، وما فيـــه من انحرافات، ويُظْهِرُ ما يتحلى به من خفة ظل ومرح.

ومن المظاهر الحضارية التي رثاها الشعراء البساتين ، وهي من ألـــوان الرثـــاء التـــي ظهرت في الشعر العربي منذ العصر العباسي الأول،[٤] وقد نظم فيه شعراء العصر المملوكـــي الأول إلا أن ما وصل من مراثيهم لا يمثل ظاهرة عامة شاع القول فيها شيوعاً كبيراً، ذلـــك أن البحث لم يسفر سوى عن ثلاث مقطوعات نظمها الشعراء عقب ما أصاب الصقيع بساتين دمشـق سنة ٦٦٦هـــ، وقد ذكر المؤرخون في حوادث تلك السنة أنه حين "أراد الظـــاهر (بيـــبرس) أن يقرر القطيعة[٥] على البساتين بدمشق، واحتاط عليها وعلى الأملاك والقرى، وهو نـــازل علـــى الشقيف، قال القاضي شمس الدين بن عطا الحنفي: هذا ما يحل ولا يجوز لأحد أن يتحدث فيـــه، وقام مغضباً، وتوقف الحال، وصقعت البساتين تلك السنة، وعدمت الثمار جملة كافية"[٦] ، وقـــد

---

[١] العسقدي، المختار من شعراء ابن دانيال، ص ٢٣٢- ٢٣٣.

[٢] الحجر الذي يحمل العدد خمسة.

[٣] الحجر الذي يحمل العدد اثنين.

[٤] انظر مظفر غانم، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص ٤٧٩.

[٥] بمعنى الضريبة.

[٦] العسقدي، الوافي، ١٠/٣٤٥، الكتبي، عيون التواريخ، ٢٠/٣٦٢، فوات الوفيات، ١/٢٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصف الشعراء في مقطوعاتهم ما نزل بالبساتين جراء البرد والصقيع، وقارنوا بين حالها قبله وبعده، إذ عدمت الثمار والنضارة والجمال بعد ما كانت مأوى للحسن والبهاء كله، وتحسروا عليها وبكوها، وعللوا ما أصابها بأنه حزن منها على ما نزل بأصحابها الذين أجبروا على تركها ودفع الضريبة لبيبرس.

ومن هؤلاء الشعراء الذين رثوها، وتحسروا عليها مجد الدين بن سحنون خطيب النيرب في قوله معبراً عن المعاني السابقة[١] :

وآهاً لأعطاف الغُصونِ وما الّذي صنَعَتْهُ أيْدي البَرْدِ في أثوابها
صبَغتْ خَمائلَها الصبَا فكأنّها قَدْ سُوّدتْ أسفاً على أصْحابها

وقريب من المعنى السابق ما يحمله قول الشاعر الشيخ نور الدين أحمد بن مصعب، لكنه يجعل ذلك السواد الذي صبغها ثياب حداد ارتدتها الأشجار حزناً على فراقها لأربابها[٢] :

لَهْفي على حُلَلِ الغُصونِ تبدّلتْ مِنْ بَعْدِ خُضرةِ لونها بِسَوادِ
وأظنّها حَزِنَتْ لِفُرقةِ أهلِها فَلذاكَ قَدْ لبَستْ ثِيابَ حدادِ

ويقف الشاعر ذاته في مقطوعة أخرى على تلك البساتين والرياض، فيسألها عن حسنها وجمالها ونضرتها، فتجيبه أنها احترقت من أنفاسها الحزينة بعدما هجرها روادها، وهجرتها الطيور المغردة، وقت الربيع، ويبدي الشاعر حزنه وأسفه، ويذرف عليها الدموع، فيقول:[٣]

لماّ وَقفتُ على الرّياضِ مُسائلاً ما حلّ بالأغصانِ و الأوراقِ
قالتْ أتى زَمَنُ الرّبيعِ ولا أرى مَنْ كانَ يألفُني مِنْ العُشّاقِ
وتَناشَدتْ أطيارُها في دَوْحِها لماّ أضاءَ الجوُّ بالإشراقِ
فَتَذكّرَتْ أيّامَهمُ فَتَنَفّستْ فَأصابَها لَهَبٌ مِنْ الإحْراقِ
أبْلغهمُ عَنّا السّلامَ وَقُلْ لَهُم ها قَدْ وَفَتْ بالعَهْدِ و الميثاقِ
فَغَدوتُ أُبْدي ما جَرى متأسفاً والدّمعُ يَسبِقُني مِنْ الآماقِ

ويظهر من المقطوعات الماضية أن الشعراء كانوا على درجة كبيرة من الحزن والأسى على تلك البساتين، ولعل ذلك ما يميزها عن مراثي البساتين التي نظمت في العصر العباسي الأول، ذلك أن الأخيرة جاءت خالية من الحزن والبكاء حتى كادت "تتباعد عن الرثاء".[٤]

---

[١] الصفدي، الوافي، ١٠/٣٤٥،الكتبي، عيون التواريخ، ٢٠/٣٦٢، فوات الوفيات، ١/٢٤٦.

[٢] المصدر نفسه، ١٠/٣٤٥، المصدر نفسه، ٢٠/٣٦٣، المصدر نفسه، ١/٢٤٦، ابن حبيب، درة الأسلاك، ١/١١٦.

[٣] الكتبي، عيون التواريخ، ٢٠/٣٦٣.

[٤] مظفر غانم، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، ص ٤٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رثاء اللهو والمجون

عاش الناس في العصر المملوكي الأول حياة قاسية وصعبة سببها الحروب التي دارت بينهم وبين أعدائهم من مغول وصليبين، والكوارث الطبيعية والأمراض التي كانت تصيب البلاد بين حين وآخر، هذا فضلا عن ظلم الطبقة الحاكمة وقهرها لهم، وقد ولدت تلك الحياة اتجاهين في مجتمعهم: اتجاه ارتد إلى الدين والزهد فوجد فيه ملاذه، واتجاه آثر حياة العبث واللهو ليخفف من معاناته، وينسى همومه. وقد توفرت لرواد هذا الاتجاه، عوامل شجعتهم على الانغماس فيه، ومنها انتشار الخمور والحشيش والحانات التي كانت تملأ البلاد، وقد شاعت الخمرة شيوعاً كبيراً فعصرت في أنحاء البلاد، وبيعت على رؤوس الأشهاد[١]، ولا أدل على ذلك مما ذكره المقريزي حين تحدث عن عيد من أعياد النصارى شاركهم فيه المسلمون، قال "ويباع في ذلك اليوم من الخمر بنحو مائة ألف درهم حتى إنه في سنة باع رجل نصراني بمائتين وعشرين ألف درهم خمراً، فكان أهل شبرا يوفون الخراج من ثمن الخمور" [٢].

وذكر كثير من الأوروبيين الذين زاروا مصر في ذلك العصر "أن الخمور متوفرة في البلاد وأنهم لم يلقوا أية صعوبة في الحصول على نبيذ فاخر في أي وقت" [٣].

ولم يقل انتشار الحشيش عن الخمور آنذاك، فقد فشا كما يقول المقريزي: "أمرها واشتهر أكلها، وارتفع الاحتشام من الكلام بها حتى لقد كادت أن تكون من تحف المترفين، وبهذا السبب غلبت السفالة على الأخلاق، وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس، وجهروا بالسوء من القول، وتفاخروا بالمعايب، وانحطوا عن كل شرف وفضيلة، وتحلوا بكل ذميمة من الأخلاق ورذيلة، فلولا الشكل لم تقض لهم بالإنسانية، ولولا الحس لما حكمت عليهم بالحيوانية" [٤]. ولم يتفش الحشيش بين الطبقات الدنيا فحسب، وإنما تخطاها إلى غيرها من الطبقات، فأكله كثير من العلماء، وأفتى بعضهم بإباحته، وشغف به الصوفية والفقراء شغفا كبير فنسب إليهم، إذ أطلق عليه المعاصرون "حشيشة الفقراء"، وكان للحشيش أماكن خاصة لزراعته معروفة بين الناس، وتميز بعضها بجودة إنتاجها دون غيرها، ولذلك كله نظم بعض أدباء ذلك العصر أشعارا كثيرة أوضحوا فيها مزايا الحشيش وفضلوه على الخمر. [٥]

وقد دفع ذلك الأمر وتلك التجاوزات الخاطئة بعض أرباب الدولة المملوكية إلى وقفها، ومعاقبة المخالفين بعقوبات تصل إلى حد القتل، ومن هؤلاء الملك الظاهر بيبرس، فقد ذكر المؤرخون أنه لم يشرب خمرا قط في حياته، "وحذر منه وأخذ خطوط ولاة ممالكة بأن لا يمكنوا

---

[١] د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٢٣١.

[٢] المقريزي، السلوك، ٣٦٢/٢.

[٣] د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٢٣١.

[٤] المقريزي، الخطط، ٢٣١/٣.

[٥] انظر المصدر نفسه، ٤٨/٣، ٤٩، ٢٠٩، ٢٢٦، ٢٣١، د. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ٢٢٩- ٢٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحدا من تعاطيه البتة، وساوى في المنع بين أمرائه ورعيته" [١]، وأثر عنه أنه شنق أحد أمرائه بيده لأنه أدمن شربها [٢]، وأنه كان لا يشمل بإحسانه أرباب الملاهي والمغاني "فإنه لم ينفق لهم في أيامه سلع، ولا لهم بالأرزاق بذلك طمع" [٣].

وقد أطال المؤرخون في الحديث عن دوره في إبطال الخمور وإراقتها، وإزالة المنكرات، ونفي الفساق من البلاد على مدار سنوات حكمه [٤]، واتخذ إجراءات صارمة لمنعها كان أشدها ما فعله سنة ٦٦٦ هـ، ففيها أمر "بإبطال ضمان الحشيش، وإحراقها، وأخرب بيوت المسكرات، وكسر ما فيها من الخمور وأراقها، ومنع الحانات والخواطيء واستتاب العلوق واللواطي، وعم هذا الأمر سائر جهات الديار المصرية، وبرزت المراسيم الشريفة، بمنع ذلك من سائر الجهات والبلاد الشامية، فطهرت في أيامه سائر البقاع، وامتنع الناس غاية الإمتناع" [٥]، ولم يكتف بإصدار ذلك المرسوم، وإنما تشدد في تطبيقه، وجعل الحد على مخالفيه القتل بالسيف والصلب، وهذا ما فعله مع ابن الكزروني إذ أمسك "وهو سكران فصلب وفي حلقه جرة خمر" [٦]، وكان لتلك الإجراءات الصارمة صداها في شعر الشعراء إذ راح الأدباء يتحدثون عن قسوتها، ويصفون ما نزل بالمخالفين من عقوبات، وكثرت مقطوعاتهم التي تخاطب إبليس، وتعلن عن توبته، وتصور حالته وحال أتباعه، وتحذره من البقاء في مصر [٧]، وكان الأديب شمس الدين ابن دانيال أحدهم، فقد صورها في أدبه، إذ نظم المقطوعات في ذلك، وجعل تلك الحادثة مادة تمثيليته المعروفة بـ "طيف الخيال، ورثى الخلاعة والمجون بقصيدة طويلة، ومما جاء في تلك التمثيلية قوله "إلا أنني من حين توبتي من هذه الخصال، وتوديعي لأخي وصال، ورجوعي من الموصل الحدباء إلى الديار المصرية في الدولة الظاهرية، سقى الله عهدها، وأعذب في الجنان وردها، وجدت تلك الرسوم الدارسة، ومواطن أنسها غير آنسة، عافية الآثار ساقطة الجد بالعثار، وقد هزم أمر السلطان جيش الشيطان، فانكفت ألسنة البواطي، [٨]، وتابت الباغيات والخواطيء، وتأذى الفلاح غاية الأذية، وصلب نباذ في عنقه نباذية [٩]...، وشاعت الأخبار، وقوي الإنكار، وانكسر الخمار، وانطحن المزار [١٠]، وانزوى المسطول في القرنة الغبرا،

---

[١] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٣٠٠.

[٢] المصدر نفسه،ص ١٣٣.

[٣] المصدر نفسه، ص٤٢٥، وانظر، المقريزي، السلوك، ٢/٨٧.

[٤] انظر بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٥٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/٣٠، المقريزي، الخطط، ١/١٩٨، السلوك، ٢/٣٤، ٣٦، ٤٩، ٥٩، ٧١، ٧٥.

[٥] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ١/٣٢٦، وانظر الكتبي، عيون التواريخ ٢٠/٣٨٠، المقريزي، الخطط، ١/١٩٩.

[٦] الصفدي، الوافي، ١٠/٣٤٣، وانظر الكتبي، عيون التواريخ، ٢٠/٣٨٠، المقريزي، السلوك، ٢/٤٩.

[٧] انظر هذه الأشعار في: الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١٠٥، الوافي، ١٠/٣٤٣- ٣٤٤، أعيان العصر، ٤/٤٣٢- ٤٣٣، الكتبي، فوات الوفيات، ١/٢٤٥، ٢٣٦، ٣/٥٤، عيون التواريخ، ٢٠/٣٨٠ – ٣٨١، بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٥٦، المقريزي، الخطط، ١/١٩٩، السلوك، ٢/٣٨.

[٨] جمع باطية إناء للخمر ضيق أسفله، واسع أعلاه، "معرب"، ويتخذ من الخزف عادة، انظر المختار من شعر ابن دانيال، ص ١٢ حاشية (٣١٥)

[٩] وعاء الخمرة

[١٠] صانع المزر وهو النبيذ المأخوذ من الشعير والحنطة، المنجد في اللغة والإعلام، مادة "مزر".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصارت كل يابسة بين يديه خضرا، وتقرت في الأصفاد، وبات محمص الفؤاد، فدعاني بعض الأخلاء إلى محله، وأنزلني بين قومه وأهله، واعتذر إليّ عن تقصيره في إكرامي، ولاختصاره في الضيافة، إذ لم يأت بمرامي، وقال غلب على ظني أن أبا مرة [١] قد مات، وعد من جملة الرفات، قم بنا نبكيه، ونصف الحالة هذه ونرثيه.. " [٢].

بدأ ابن دانيال قصيدته برثاء إبليس، فأعلن عن موته، وبطلان شرائعه بعد تعطل حانات الخمر، وأماكن شربها، ثم ألقى الضوء على ما أصاب مجمع الخلاعه من دمار وتخريب، فأوعية الخمر كسرت، وزج بائعها في السجن، وروادها أضحوا ذاهلين من هول ذلك اليوم، وفضل بعضهم التجريس[٣]على تركها، ونعى الشاعر على إبليس صمته، مكررا السؤال عن حاله، وهي تساؤلات جاءت لتؤكد هلاكه وتراجع سطوته، وحتى تكون المعاني مقبولة عند المتلقين، وشاهدا على واقع الحال، استوحى الشاعر ألفاظه وصوره من مجتمعه عامة، وبيئة اللهو والمجون خاصة، ولذا امتازت تلك الصور بالجلبة، والتكسير، والزعيق، يقول:[٤] .

ماتَ يا قومُ فجأةً إبلـــيسُ وَخَلا مِنهُ رَبْعُهُ المأنـــوسُ
ونَعاني حَدسي به إذ تُـــوفّي ولَعَمري مَماتُهُ محَـــدوسُ
هو لَوْ لم يكُن كما قُلْتُ مَيّتـاً لم يغيـر لِحُكمـهِ نامـوسُ
أين عيناهُ تنظُـرُ الخمـرَ إذْ عُطّل منه الرّاووقُ والمجريسُ [٥]
والبواطي بها تَكسّرنَ والخَمّا رُ من بَعدِ كَسرِها محبـوسُ
وذوو القَصفِ ذاهلون وقد كا دَت على سلّها تَسيلُ النّفـوسُ
كم خليعٍ يقول ذا اليوم يـومٌ مِثْلما قيل قمطريرٌ [٦] عبـوسُ
وفتى قائلٍ لقد هان عنـدي بعد هذا في شربها التّجريـسُ
أين عيناه تَنظر المِزْرَ إذا أوْ حَشَ منه المأجورُ و القـادوسُ [٧]
وعجينُ البقولِ قَد بـدّدوه وهو بالتُّربِ خَلْطَةٌ مبـسوسُ
والقناني مكسّراتٌ كمـا قَدْ كُسّرتْ في رَحى البدورِ الكؤوسُ

ثم يصور أرباب الخلاعة وهو ينادون على بعضهم بأسمائهم المستعارة، ويبكون على مصيرهم بعد ما كسدت سوقهم، وأضحوا بلا مأوى، وينشدون الرحيل عن مصر، ويعاود

---

[١] يقصد إبليس.

[٢] إبراهيم حمادة، خيال الظل ومثيليات ابن دانيال، ص ١٥٠- ١٥١ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ١ ٣٢٥- ٣٢٦.

[٣] وأصله أن يركب المذنب دابة ووجهه إلى ذنبها وفي عنقه جرس، انظر الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١١٢ حاشية ٣١٧.

[٤] الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ١١١- ١١٣، إبراهيم حمادة، خيال الظل ومثيليات ابن دانيال ١٥١- ١٥٢ ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١ ق١/ ٣٢٧- ٣٢٨، الكتبي، عيون التواريخ، ٣٨١/٢٠.

[٥] الراووق والمجريس، أماكن شرب الخمر انظر الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١١٢، حاشية ٣١٤، المعجم الوسيط مادة "روق"

[٦] شديد البرد

[٧] الماجور والقادوس: أوعية الخمر انظر إبراهيم حمادة، خيال الظل، ص ١٥١، حاشية (٣)، المعجم الوسيط ،مادة "قدس".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحديث عن إبليس فينعى عليه صمته، ويتحسر على ما فعله جنود الظاهر بيبرس بالحشـــيش إذ اقتلعوها من أماكن زراعتها، وأحرقوها بنار عظيمة، يقول: [١]

وتَرى "زنكلونَ" يزعقُ زيـــنو ... نَ "وناتو" يَصيحُ يا جامـــوسُ
نهبوا الكلّ والطّراطير[٢] والطّارَ ... وَضَاعت خريطتي والفلـــوسُ
أين سكركتي [٣] وطاجنةَ [٤] الفا ... ر وأين المزراقُ [٥] والدبّوسُ [٦]
أين نمشي يا بنت عمّي وزينونُ ... أخي من قضيّتي محبـــوسُ
أين عيناه والحشائـــشُ يُخْـــرَ ... قنَ بنارٍ تُراعُ مِنْها المجـــوسُ
قَلعوها من البساتيـــــن إذ ذاكَ ... صِغَاراً خُضراً وَهُنَّ غُـــروسُ
والحرافيشُ حَوْلَها يتباكـــــونَ ... دُموعاً يُطْفـــى بِهنّ الوطـــيسُ
ذا ينادي رفيقَهُ يا عنيكيـــــــر ... وهذا يصيحُ يا جامـــــــوسُ
ارْحَلوا هذهِ بـــــلادُ عَفَـــــافٍ ... وسعودُ الخلاّع فيها نحـــوسُ

يتحدث الشاعر عن عنصر جديد من عناصر اللهو والمجون، وهن الخواطيء من النســـاء اللواتي احترفن الزنى والعمل في الخمارات، فيفحش في القول إذ وصف معاناتهن بعد ما فقـــدن الأنيس ومصدر الرزق، ثم عاد مرة أخرى فصور حال أرباب اللهو والخلاعة،يقول:[٧]

وقَضيبُ وزينـــــــبٌ وكَهـــارٌ ... باكياتٌ ونُزْهَةٌ و عـــــروسُ
ذي تنادي حريفـــــــــها لِوَادعٍ ... لا عناقٌ ولا ضمٌّ لا تبـــويسُ
انقضى كلُّ ذاك والعهدُ في حلْـــــ ... ـقي لم يبق بَعْدَها لي أنيسُ
أين زامَرْدُ ازعقوا لـــي بـــــزَا ... مردَ والأحمدون يا طـــاووسُ
مَنْ تُرى بَعْدَ مَوْتِهِ يُضحكُ المعـــ ... ـشوقَ لي إنْ بدابه تعـــبيسُ

هناك أبياتٌ أخرى أوردها الصفدي في "المختار من شعر ابن دانيال"، مدح فيها الشـــاعر الوزير تاج الدين بن حنا، فصور عدله وجوده، وأثنى على دوره فـــي القضـــاء علـــى الفســـاد والمعاصي، وتطهير البلاد منها، وإعادة المجتمع إلى الطريق القويم، ومنها قوله: [٨]

---

[١] الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١١٣- ١١٤، إبراهيم حمادة، خيال الظل، ص ١٥٢- ١٥٣، الكتبي، عيون التواريخ، ٣٨١/٢٠- ٣٨٢، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ١/٣٢٧- ٣٢٨.

[٢] مفردها طار وتعني الآلات موسيقية،انظر الصفدي ، أعيان العصر، ٣٠٧/١.

[٣] السكركة: شراب مسكر يصنع من طحين الذرة والشعير، انظر إبراهيم حمادة، خيال الظل، ص ١٥٢، حاشية (١).

[٤] الطاجنة، المقلى فارسية معربة، ابن منظور، لسان العرب، مادة "طجن"

[٥] المزراق: الرمح القصير انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة "زرق".

[٦] عصا طويلة في طرفها كتلة من الحديد، دوزي، تكملة المعاجم العربية، ٢٨٩/٤، مادة "دبس".

[٧] الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١١٤- ١١٥، إبراهيم حمادة، خيال الظل، ص ١٥٣- ١٥٤ الكتبي، عيون التواريخ، ٣٨٢/٢٠، ابن إياس، بدائـــع الزهور، ج ١ ق ١/٣٢٨.

[٨] الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص ١١٦- ١١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولَقَدْ قُلْتُ يوم أنْكـــرَ من أنكـــر ... قولي لماّ ثوى إبليـــسُ
هو لولا عدلُ الوزير لمـــا مـــات ... ولا ضمّ جسمَـــه ناووسُ [1]
كيف يحيا في عَصْر من ليس يخفى ... عَنْهُ مَيْنٌ كلاّ ولا تَلبيـــسُ
طَهّر الله بالمطْهّر تـــاجِ الديـــنِ ... دينَ الورَى فلا تدنيـــسُ
عترْةٌ منهم العطـــــاءُ طليـــقٌ ... وعليهم كلُّ الفَخارِ حبيسُ
ولقـــد قِستـــــهُ بجنّةِ عـــدْنٍ ... وحماهُ بغيره لا أقَيـــسُ

وتبرز هذه الأبيات عنصر المفارقة جلية في هذه القصيدة، وتثير أسئلة عديدة أهمها:

كيف نوفق بين حزن الشاعر على مجمع الخلاعة والمجون، وبين مدحه ابن حنا والإشادة بدوره في محاربة الماجنين ؟، ولماذا لم يثبت الشاعر تلك الأبيات في تمثيليته ؟ وهل كان ابن دانيال حزينا بالفعل أم لا؟.

يمكن الإجابة عن تلك الأسئلة بالنظر إلى الدوافع التي حفزت ابن دانيال على نظم تلك القصيدة،فهو لم يكن حزينا بالفعل على ما نزل بالخلاعة والمجون، ولكنه سعى إلى تحقيق غايات خاصة منها:

أولا: الترفيه عن الشعب المصري، وتسليته والحصول على نقوده، فمن المعروف أن ابن دانيال كان يؤلف تمثيلياته المعروفة بخيال الظل، ويمثلها بنفسه أمام الجماهير المصرية، ويجعل الواقع وما يدور فيه من أحداث مادة لها، لتكون أكثر وقعا في نفوس الناس في مجتمعه، وتلقى قبولا لديهم، وهذا ما عبر عنه حين قال: "إن لكل أسلوب طريقة، وتحت كل خيال حقيقة" [2]، ولذا عمد الأديب إلى هذه الحادثة فأخرج منها عملا فنيا أقبل الناس على مشاهدته ليستريحوا من كد الحياة وعنائها، ولينسوا همومها ومشكلاتها، وقد ضمن عمله ذلك قصيدته التي رثى بها الخلاعة والمجون، ولكنه حذف منها الأبيات المتعلقة بالوزير ابن حنا لأن إثباتها ليس في مكانه، ولن يساعد الشاعر على تحقيق غرضه وهو جلب السرور إلى العامة، فهؤلاء لن يقبلوها، أو يقتنعوا بها، ذلك أن قسما كبيرا منهم ناقم على الوزير الذي حرمهم متعهم وملذاتهم.

ثانيا: إن ابن دانيال وجد الفرصة مواتية لتحقيق غاية أخرى، وهي كسب رضى الوزير ابن حنا، ونقوده، ولذا نظم تلك الأبيات التي أطال فيها من مدحه، ويؤكد رغبة ذلك الشاعر في الحصول على المال أنه أكثر من الإشادة بجود ابن حنا وكرمه، ولعله كان مدركا أن الوزير مهتم بالشعر وأنه كان "يختار الشعراء لمدحه، ويجزل لهم العطاء". [3]

---

[1] وجمعها نواوس، وهي قبور النصارى" انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة "نوس".
[2] إبراهيم حمادة، خيال الظل، ص ١٤٩.
[3] الصفدي، أعيان العصر، ج ٥، ٥١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومهما قيل في هذه القصيدة فإنها تبقى دليلا على عبقرية فذة، وموهبة عظيمة تمتع بها ابن دانيال مكنته من استغلال أحداث عصره، واقتناصها لينسج منها عملا فنيا جديرا بالاهتمام، استطاع من خلاله أن يصور جوانب من المجتمع المملوكي، ولذا استوحى معانيه وألفاظه وصوره منه، فساهم في إعطاء صورة عن أرباب اللهو والمجون وممارساتهم، وكشف عن العنف الذي انتهجه بيبرس في تطبيق مرسومه، كما كشف عن الاختلاط الذي حدث بين الجنس العربي وغيره من الأجناس التي سكنت مصر آنذاك أمثال المغول والأتراك، فأبرز ناحية حضارية ومنعطفا تاريخيا عاشته الأمة العربية في عصر المماليك.

وقد نالت هذه القصيدة إعجاب الأوساط الأدبية في عصره مما دفع بعضهم إلى النظم على منوالها، فهذا الشاعر الشعبي إبراهيم المعمار يصرح بذلك الإعجاب حين قال: "ولما وقفت على قصيدة الشيخ شمس الدين بن دانيال، فقلت لو أني أدركت ذلك الزمان لرثيت الخلاعة والمجون بهذا الزجل المصون"،[1] وهو زجل طويل نظم باللهجة العامية، وتكتفي هذه الدراسة بالحديث عن مضمونه.

وفيه يحتذي المعمار حذو ابن دانيال، فيصور مجمع الخلاعة عقب القرار الذي أصدره بيبرس بتعطيل الحانات والخمور، فجميع عناصر ذلك المكان باكية وحزينة ، ومنها أوعية الخمر وآلات الطرب والرياحين، وأرباب اللهو والمجون، ثم يتخيل الشاعر صاحبا خليعاً له جاء يطلب الخمرة فلم يجدها، فيصف تنقله وإياه في بلاد مصر يبحثان عنها، ويصور المشقة التي كابداها، وهو يعرض لذلك بأسلوب قصصي يذكر بطريقة أبي نواس في وصف مغامراته الماجنة، وظلا على تلك الحال إلى أن وصلا ديرا، فطلبا من صاحبه الخمرة، فلبى بدوره طلبهم، وأحضر لهما ما يريدان، لكنه كان خائفا ترتعد فرائصه خشية، أن يراه أحد، فابتهجا لها، ولكن سعادتهما لم تكتمل إذ اكتشفا أنها خمرة فاسدة، فعاودا البحث عنها دون جدوى، فقد خلت البلاد منها، الأمر الذي اضطر الشاعر إلى إعلان توبته، والرجوع عن ذنوبه الكثيرة.[2]

---

[1] ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ١/٣٢٨- ٣٢٩.

[2] انظر الزجل في ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١ ق ١/٣٢٨- ٣٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل السّابع

الدراســـــــة الفنية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بنية القصيدة

اهتم النقاد العرب ببنية القصيدة، وعناصر هذا البناء، وهي : المطلع، والمقدمة، وحسن التخلّص، والمضمون، والخاتمة.

أما المطلع، فقد أطلقوا عليه حسن الابتداء، وبراعة الاستهلال، وعنوا به عناية كبيرة، فإنه أوّل ما يطرق السّمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده. توفّرت الدواعي على استماعه" [١]، واستماع ما "يجيء بعده من الكلام"[٢]، وعدّوا إجادته دليلاً على مقدرة الأديب شاعراً كان أم ناثراً، فقد سئل "بعضهم عن أحذق الشعراء، فقال: من أجاد الابتداء والمطلع"[٣]، "وقال بعض الكتّاب: أحسنوا معاشر الكتّاب الابتداءات فإنّهن دلائل البيان"[٤].

ولكي يحقق المطلع دوره في تحسين القصيدة وتجميلها، وفي جذب انتباه المتلقين، اشترطوا أن يكون دالّا على ما بنيت عليه القصيدة "مشعراً بغرض الناظم من غير تصريح بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الذوق السليم، ويستدل بها على قصده من عتب أو عذر، أو تنصل، أو تهنئة، أو مدح، أو هجو"[٥]، وأن يحترز الشاعر فيه" مما يتطير منه، ويستجفى من الكلام والمخاطبة والبكاء، ووصف اقتفار الديار، وتشتيت الألاّف،ونعي الشباب، وذم الزمان ولا سيما في القصائد التي تتضمن المدائح والتهاني، ويستهل ذلك في المراثي،ووصف الخطوب الحادثة .."[٦]. ومن معايير المطلع "أن يكون خالياً من المآخذ النحوية، وأن تراعى فيه جودة اللفظ والمعنى معاً"[٧]، و " أن يكون تام الموسيقى بالتصريع بأن يستوي آخر جزء في صدر البيت، وآخر جزء في عجزه وزناً وروياً وإعراباً"[٨].

وإذا نظرنا إلى قصائد الرثاء في هذا العصر، فإننا نجد عناية فائقة من الشعراء بمطالعها، إذ جاءت في أغلبها متفقة مع ما ذهب إليه النقاد واشترطوه، وأشعرت بمضمون القصيدة وهو الرثاء، واتسمت بالسهولة، والبعد عن التعقيد والتكلّف، والحشو، والغريب من الألفاظ، كما يبدو التلاؤم واضحاً بين شطري المطلع الواحد، ولجأ كثير من الشعراء إلى التصريع رغبة منهم في تحقيق الموسيقى، وجذب انتباه المتلقين وإصغائهم، وابتعد جلّهم عن المطالع الغزلية، لأنها مناقضة لغرض الرثاء.[٩]

---

[١] ابن الأثير، المثل السائر، ٢/٢٢٤، وانظر ابن حجة، خزانة الأدب، ١/٢١.

[٢] العسكري، الصناعتين، ٤٩٦، ابن رشيق، العمدة، ١/٢١٨.

[٣] ابن الأثير، المثل السائر، ٢/٢٢٧.

[٤] العسكري، الصناعتين، ٢٨٩، وانظر ابن حجة، خزانة الأدب، ١/٣٠.

[٥] ابن حجة، خزانة الأدب، ١/٣٠، وانظر ابن الأثير، المثل السائر، ٢/٢٢٣، د. يوسف بكار، بناء القصيدة، ٢٦٩، د. عبده قلقيلة، النقد في العصر المملوكي، ص٤٠١، د. أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، ص ٣٠٦، د. محمد عبد المطلب، اتجاهات النقد، ص١٦٦.

[٦] العسكري، الصناعتين، ص٤٨٩، وانظر ابن الأثير، المثل السائر، ٢/٢٢٤، ابن حجة، خزانة الأدب، ١/٢١.

[٧] د. يوسف بكار، بناء القصيدة، ص٢٧٥.

[٨] د. أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، ص٣٠٧، وانظر د. عبده قلقيلة، النقد في العصر المملوكي، ص٣٩٦، د. محمد عبد المطلب، اتجاهات النقد، ص١٧١.

[٩] انظر القرطاجني، منهاج البلغاء، ص٣٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتحدث عدد من الشعراء في المطلع عن الموت، وتقلبات الحياة والدنيا والدهـــر، ومـــن ذلك ما استهل به شافع بن علي الكاتب قصيدته التي نظمها في رثاء الملك المنصور قلاوون:[١]

ومن كانتْ منيّتُهُ بأرضٍ فليس يموتُ في أرضٍ سواها

وصوّروا فيها حزنهم وأرقهم، وما فعله بهم الفراق، كما وصفوا عظم الخطب والمصيبـة التي خلفها المرثي بموته، ويتجلى ذلك في مطلع القصيدة التي رثى بها علم الدين البرزالي تقـــي الدين ابن تيميّة: [٢]

عزّ النّصيرُ والفراق رماني بسهامِهِ وترادفتْ أحزاني

ومطلع قصيدة ناصر الدين بن النقيب في رثاء الظاهر بيبرس: [٣]

للأرضِ بَعْدَكَ رجّةٌ وتَزَلْزُلُ لم يَستقرّ بمنْ عليها مَنْزلُ

وحين رُثي العلماء والأدباء تحدث الشعراء في مطالع قصائدهم عن أثر موتـــهم علـــى الأقلام، والعلوم والآداب، والأوراق، والسيوف، وصوروا حزنها عليهم، ومثـــال ذلـــك مطلـــع القصيدة التي نظمها صلاح الدين الصفدي في رثاء جمال الدين بن غانم:[٤]

تبكي الطّروسُ عليكَ والأقلامُ وتنوحُ فيكَ على الغُصونِ حَمامُ

ودعا كثير من الشعراء في مطالع قصائدهم لقبر المرثي، كما دعوا للمعزّى وحثّوه علـــى الصبر الجميل، وحمدوا الله على مصابهم، ومن ذلك مطلع قصيدة ابن نباتة التي رثى بها شـــرف الدين ابن فضل الله العمري: [٥]

سقاكَ وحيّاك الحَيا أيُّها القَبْرُ وفاضَتْ على مغناكَ أدْمُعه الغُزْر

ومطلع قصيدة شهاب الدين التبريزي في رثاء ابن تيمية: [٦]

صَبْراً جميلاً فالمصابُ كبيرُ كادَتْ جبالُ الأرضِ منه تمورُ

وجَمع بعض الشعراء في المطلع بين التهنئة والعزاء، واقتصر ذلك على القصائد التـــي رُثي بها أرباب الدول، وهو ابتداء متلائم مع الموقف الذي وقفه أولئك الشـــعراء أمـــام الملـــوك الجدد، ومراعٍ لمقتضى الحال، ويتجلى ذلك في مطلع القصيدة التي نظمها تقيّ الدين بن شـــبيب الحرّاني في رثاء بيبرس، وتهنئة ابنه الملك السّعيد:[٧]

جلّ المُصابُ ولكنْ جلّت النِّعَمُ وأجْدَبَ الكونُ لكن جادَت الدِّيَمُ

---

[١] شافع بن علي، الفضل المأثور، ص١٧٦، حسن المناقب السرية، ص١٤٠.

[٢] ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٣/٨٤٠.

[٣] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٨.

[٤] الصفدي، الوافي، ١٧/٣٥٢، الكتبي، فوات الوفيات، ٢/٢٠٧.

[٥] ابن نباتة، الديوان، ص٢٣٢.

[٦] الكرمي، الكواكب الدرية، ص٢٣٢.

[٧] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وزاد من جمال المطالع في مراثي هذا العصر أنّ الكثير من قائليها استخدموا فيها النداء، والاستفهام والتصريع، وهذا الأمر كما يقول ابن الأثير يوقظ السامعين للإصغاء "لأنه يقرع السّمع شيء غريب ليس بمثله عادة ليكون سبباً للتطلع نحوه والإصغاء إليه" [١]. ومن ذلك مطلع قصيدة أبي الحسين الجزّار في رثاء بيبرس: [٢]

أيَطْمعُ خَلْقٌ أنْ يكونَ مُخَلّدا وقد قَضَتِ الأيّامُ أن يَرِدَ الرَّدى ؟

أما التصريع، فأمثلته كثيرة، ومنه ما جاء في مطلع القصيدة التي نظمها ابن الوردي في رثاء أحد أصدقائه: [٣]

دموعٌ يستبقنَ إلى النّحورِ ونيرانٌ تَشبّ من الصُّدورِ

ومن الأمور التي ساهمت في تحسين المطالع أن بعض الشعراء تأثر فيها بمعاني القرآن الكريم، وصوره، وقصصه، ويتجلى ذلك في مطلع القصيدة التي نظمها صفي الدين الحلّي في رثاء خاله جلال الدين عبد الله بن حمزة: [٤]

جبالٌ بأرياحِ المنيّةِ تُنْسَفُ غَدَتْ وهي قاعٌ في الوقائعِ صَفْصَفُ

وأخفق بعض الشعراء في مطالعهم، وذلك لطغيان الصنعة والتعقيد عليها، ومن الأمثلة على ذلك مطلع القصيدة التي نظمها الصفدي في رثاء نجم الدين الصفدي: [٥]

يا ذاهباً عَظُمَتْ فيه مُصيباتي بأسْهُمٍ رَشَقَتْ قلبي مُصيباتِ

ومطلع قصيدة محمد بن طاهر الإخميمي في رثاء الإسكندرية: [٦]

حادث حلّ أرى النّاسَ العبر فَبِما قد هالَ منه يُعْتَبر

ابتعد أغلب الشعراء في العصر المملوكي الأول في مراثيهم عن المقدمة الغزلية والطلّلية، وولجوا إلى موضوعهم مباشرة، وهذا تقليد سار عليه جلّ شعراء العربيّة منذ العصر الجاهلي في هذا الغرض الشعري، ذلك أن الغزل لا يتلاءم وموضوع الرثاء، ولا يتفق مع حالة الشاعر النفسيّة التي تعيش تحت وطأة الحزن، وثقل واقعة الموت، وقد أشار ابن رشيق الى ذلك حين قال: "وليس من عادة الشعراء أن يقدّموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك في المدح

---

[١] ابن الأثير، المثل السائر، ٢/٢٢٤، وانظر حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص٣١٠.

[٢] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٢

[٣] ابن الوردي، الديوان، ص٤٢٨.

[٤] الحلّي،الديوان، ص٢٨٣، وانظر ابن نباتة، الديوان، ص٤٣.

[٥] الصفدي، الوافي، ١٢/٢٦٢.

[٦] النويري، الإلمام، ٣/٢٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن هذه المقدمة لا تعد إخلالاً بوحدة القصيدة، فهي مرتبطة بموضوعها وهو الرثاء ارتباطاً وثيقاً، فالشاعر تحدث فيها عن رحلة الموت، ومصير الإنسان في قبره، ورمز لشيخيه بتلك المحبوبة "مي"، فوصف جمالها، ومآثرها، وتحدث عن حبه العميق لها.

ونظم الشاعر عبد الله بن خضر الرومي قصيدتين في رثاء ابن تيمية، فقدم لهما بالغزل، والوقوف على الأطلال، وقد بلغت القصيدة الأولى مئة واثني عشر بيتاً، تغزل في ستة وعشرين بيتاً، فوصف حبه وعشقه لجيران الحمى الذين هجروه، وتحدث عن مكانتهم في نفسه، واسترجع الأيام التي قضاها بقربهم، وألحّ على ذكراهم، ومنها قوله:[١]

لقد عذّبوا قلبي بنار المَحَبّةِ ... وذابَ فؤادي من فراقِ الأحبّةِ
وزادَ غرامي واشتياقي إلى الحِمى ... وهيّج بَلبالي حنيني ولَوْعتي
فيا عُظْمَ أحزاني ووجدي عليهُمُ ... ويا طولَ أشواقي إليهمْ ووحشتي
ملأتُ النّواحي من نُواحي وكيف لا ... أنوحُ على قومٍ همُ خيرُ جيرتي
فَلَمْ أنْسَ أيّاماً تقضّتْ بقربهمْ ... ومن عيشتي لمّا تولّتْ تولّتِ
ومن عَجَبي أنّي أحنُّ إليهمُ ... وهم ساكنو قلبي وروحي ومُهجتي

وبلغت القصيدة الثانية إحدى وأربعين بيتاً، وجاءت المقدمة الغزلية في سبعة عشر بيتاً، تحدث فيها الشاعر عن جيرانه وأحبابه الذين سارت بهم الهوادج، تاركة إياه وحيداً ملوعاً يقاسي مرارة العشق، ونيران الفراق، ولعل هؤلاء الأحبة هم مرثيه ابن تيمية، ويؤكد ذلك أن رحلتهم كانت إلى الموت، مما يجعل هذه المقدمة جزءاً لا يتجزأ من موضوع المرثية غير منفصل عنه أو مخلاً بوحدته، ومنها قوله:[٢]

لله عيشاً تقضّى بالثّنيّاتِ ... مع جيرةٍ لذّ لي فيهم صباباتي
ما كان أهنا زماني في ربوعهمُ ... والسّعدُ يَسْعى بما في إراداتي
والكأسُ تُجلى بأنواعِ السّرور وفي ... قُرْبِ الأحبّةِ تبدو لي سَعاداتي
قد كنْتُ في قربهم والوصلُ مُقْترني ... لم يَخطر الصدُّ والهجرانُ في ذاتي
واليوم أصبَحْتُ أبكي بعد بُعْدهمُ ... لما تناءوا نأتْ عنّي مسرّاتي
لما سروا وفؤادي في هوادجهم ... ناديت من حُرَقي: يا عُظم لوعاتي
فاندبْ على ما مَضى من عيْشِنا وَصَفا ... وابْكي على ما جرى يا قلبي العاني
واذكرْ مصارعَ قومٍ كيف قد شربوا ... بعد الزّلال بكاساتِ المنيّاتِ

---

[١] الكرمي، الكواكب الدرية، ص٢٢١.

[٢] المصدر نفسه، ص٢٢٨-٢٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستعاض بعض الشعراء في مقدمة قصائدهم عن أطلال سلمى وليلى وسعاد بأن وقفوا على أطلال المرثي نفسه، وديارِه التي كان يعيش فيها، أو يعمل، وهي أماكن مستقاة من واقعهم، وحياتهم، وحضارتهم، ولا تمثل حياة البادية وخيامها. وقد أشاد ابن رشيق بهذا النهج، وعدّه تطوراً طبيعياً يتلاءم مع الحياة الجديدة التي أفرزتها الحضارة والمدنيّة، وانتقد شعراء الحاضرة الذين يقفون في مقدمة قصائدهم على أطلال المحبوبة المتمثلة في الخيام والنؤى والأثافي، وبيّن أنه لا معنى أن يذكر الحضري ديار البادية وخيامها التي تقلبها الرياح، وتهدم أركانها، ويعلّل ذلك بأن هذه المقدمة لا تتلاءم مع حياة الحضارة والمدنية، "لأن الحاضرة لا تنسفها الرياح، ولا يمحوها المطر، إلا أن يكون ذلك بعد زمان طويل لا يمكن أن يعيشه أحد من أهل الجيل".[١]

ومن ذلك قصيدة ابن نباتة، التي رثى فيها القاضي كمال الدين بن الزملكاني، وقدم لها بالوقوف على مدارس العقل والنقل التي كان يدّرس فيها ذلك القاضي، فقال : [٢]

بلّغا القاصدينَ أنّ اللّيالي ... قبضتْ جُمْلة العلا بالكمالِ

وقفا في مدارسِ النّقلِ والعقـ ... ـلِ ونوحا معي على الأطلالِ

سائلاها عسى يجيبُ صَداها ... أين ولّى مجيبُ أهلِ السُّؤالِ

ومن أمثلتها أيضاً مقدمة القصيدة التي نظمها الشاعر شهاب الدين محمود في رثاء الملك الأمجد الأيوبي، فقد وقف على أطلال ذلك الملك، واصفاً أيام العز التي كانت في أكنافها، وهي أيام بدلتها تصاريف الزمان، فقال: [٣]

هو الرّبع ما أقوى وضاعَتْ ملاعبُهْ ... مُشرّعة إلاّ وقَدْ لانَ جانبُهْ

وَقَفْتُ بهِ والشّوقُ نحو قبابِهِ ... تجاذبني طوراً وطوراً أجاذبُهْ

أسائلُهُ جهلاً ومن سَفَهِ الهوى ... مخاطبةُ الإنسانِ من لا يخاطبُهْ

وعهدي به والعزّ عن كلّ ناظرٍ ... يطوفُ به إلاّ عن العزّ حاجبُهْ

لئن قلّصتْ كفُّ الزّمانِ ظلالَهُ ... وشابتْ هنيٌّ العيش فيها شوائبُهْ

فقد كان مغنىً صافياتٍ ظلالُهُ ... على نازليهِ صافياتٍ مَشاربُهْ

ومن أمثلة المقدمة الخمرية ، مقدمة قصيدة صفي الدين الحلي في رثاء الملك المنصور الأرتقي، وهي مقدمة على غير عادة الشعراء في مراثيهم، ولعل سبب ذلك أن الحلي حين قدم إلى العراق، وحضر إلى ماردين للعزاء، وجد العزاء قد انقضى، وأبناء الملك "قد خلعوا الحزن،

---

[١] ابن رشيق، العمدة، ٢٢٦/١.

[٢] ابن نباتة، الديوان، ص٤٠٥،الصفدي، الوافي، ٢١٩/٤، أعيان العصر، ٦٣٨/٤، الكتبي، فوات الوفيات، ١١/٤، ابن العجمي، كنوز الذهب، ٣٢٦/١-٣٢٧.

[٣] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٢٢٧/٢، الكتبي، عيون التواريخ، ٤٢٣/٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونصبوا مجلس الأنس" [١]،ومن هنا كانت هذه المقدمة متلائمة مع الظـــرف، والموقـف الـذي نظمت فيه القصيدة، ومنها قوله: [٢]

أدِرْها بأمنٍ لا يغـــيّرك الوَهـمُ وزفّ على الجلاسِ ما خَلّفَ الكـرمُ
وداو أذاهـا بالسّـماعِ فإنّـــها بـلا نَغَـمٍ غـمٌّ بـلا دَسـمٍ سُـمُّ
مُعَتّقَةٌ لـــو غَسّـلوا ميّتـاً بـها لما ذاب منه المخُّ وانْهَشَـمَ العَظْـمُ
ولـو لا انقـاءُ اللهِ قُلْـتُ بأنّـها بها تَنطقُ الأمواتُ أو تُسْمَعُ الصـمُّ
فخذها على طيبِ السّماعِ فإنّـها بشاشةُ وجهِ العَيْشِ إن عَبَسَ الـهمُّ
ولا تخش من إثمٍ إذا ما شَـرِبْتَها لظاهرِ قولِ النّاسِ إنّ اسمها الإثـمُ

ثم تخلص إلى رثاء الملك المنصور، فقال: [٣]

فما كلُّ وَصْفٍ في الحقيقةِ ذاتُـهُ وليس المُسَمّى فـي حقيقـة الإسـمُ
ولو أنّ وَصْفَ الشّيءِ عينٌ لذاتِهِ أو الذّكرَ للشيء المُرادِ هو الجُـرْمُ
لما ماتَ من سمّوه باللّفظِ خـالداً ولا خرّ ملكٌ في الثّرى واسمه نَجْـمُ

أما التخلص أو الخروج، فقد اهتم النقاد العرب به، ووضعوا له المحددات والضوابـط، فهو أن "يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني، فبينا هو فيه إذ أخذ في معنـى آخـر غـيره، وجعل الأول سبباً إليه، فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض، ومن غير أن يقطع كلامـه، ويسـتأنف كلاماً آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أُفرغ إفراغاً" [٤]، "ولا يشترط أن يتعيّن المُتخلّص منـه، بل يجري ذلك في أيّ معنى كان، فإن الشاعر قد يتخلّص من نسـيب أو غـزل، أو فخـر، أو وصف روض، أو وصف طلل بال، أو ربع خال، أو معنى من المعاني يؤدي إلى مدح أو هجـو، أو وصف حرب، أو غير ذلك" [٥]، ويرى حازم القرطاجني أن التخلص قد يأتي في "شطر بيـت أو في بيت بجملته، أو في بيتين"[٦]، ودعا إلى أن يتحرز الشاعر فيه من "انقطاع الكـلام، ومـن التضمين، والحشو، والإخلال، واضطراب الكلام، وقلّة تمكّن القافية"[٧].

إن اهتمام النقاد العرب بالتخلّص نابع من حرصهم على وحدة القصيدة وتلاحم أجزائـها، ذلك أن الكلام إذا انقطعت أجزاؤه، ولم تتصل فصوله، ذهب رونقه، وغاض ماؤه [٨].

---

[١] الحلي، الديوان، ص٢٨٧.

[٢] المصدر نفسه، ص٢٨٧.

[٣] المصدر نفسه، ص٢٨٧.

[٤] ابن الأثير، المثل السائر، ٢/٢٢٤، وانظر ابن رشيق، العمدة، ١/٢٣٧، ابن حجة، خزانة الأدب، ١/٣٢٩.

[٥] ابن حجة، خزانة الأدب، ١/٣٢٩.

[٦] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص٣٢٠.

[٧] المصدر نفسه، ص٣٢١، وانظر د. عبد قلقيلة، النقد في العصر المملوكي، ص١٣.

[٨] انظر العسكري، الصناعتين، ص٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا نظرنا إلى قصائد الرثاء في هذا العصر، فإننا نجد جلّ الشعراء قد أجادوا حسن التخلص، والربط بين أجزاء القصيدة ومعانيها، وجاء ذلك في القصائد المبدوءة بالغزل، والطلل، والخمر، وفي تلك القصائد التي نظمت بهدف التّعزية، إذ تخلّص الشعراء فيها من الحديث عن المرثي والإشادة بصفاته ومآثره، إلى الإشادة بالمعزّى، وحثّه على الصبر والسلوان.[١]

ومن ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها شهاب الدين محمود في رثاء الملك الأمجد الأيوبي فقد بدأها بالوقوف على أطلال ذلك الملك، "هو الربع ما أقوى وضاعت ملاعبه"، ثم تخلّص إلى رثائه والإشادة به، فقال: [٢]

عَهِدْتُ به من آلِ أيوبَ ماجداً كريمَ المُحيّا زاكياتٍ مناسبُهْ

وبرز حسن التخلص في المراثي التي رُثي بها الظاهر بيبرس، فقد انتقل الشعراء من رثائه إلى الحديث عن مناقب ابنه الملك السعيد [٣]، ويتجلّى ذلك في قصيدة ناصر الدين بن النقيب في رثائه إذ قال: [٤]

لم أنْسَهُ في يومِ عَرضِ جُيُوشِهِ وأَمَامَهُ الولدُ السّعيدُ المُقْبِلُ

وقصيدة أبي الحسين الجزار التي يقول فيها: [٥]

ولو فُديَ الإنسانُ يوماً بدونِهِ كانَتْ له الأملاك حاشا ابنه الفدا

وأخفق بعض الشعراء في التخلص، ووقعوا في الاقتضاب، وهو "أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه،ويستأنف كلاماً آخر من مديح أو هجاء، أو غير ذلك، ولا يكون للثاني علاقة بالأول"[٦]. ومن أمثلته ما جاء في إحدى القصائد التي نظمها عبد الله بن خضر الرومي في رثاء ابن تيمية، إذ بدأها بالغزل "لقد عذّبوا قلبي بنار المحبة ..."، ثم انتقل إلى الرثاء ، فقال:[٧]

وقد آنَ أن أُبدي خفايا صَبابَتي وأُظهرُ للعذّالِ أصْلَ رزيّتي

وأبكي على من كان يجمعُ شَمْلَنا على طاعةِ الرّحمنِ في كلّ لَمْحَةِ

ومن ذلك ما نجده في قصيدة صلاح الدين الصفدي التي نظمها في رثاء كمال الدين بن جمال الدين بن ريّان، فإنه لم يحالفه التوفيق في التخلص، إذ استخدم عبارة "دع ذا"، حين خرج من الحديث عن سنّي عمره، وذنوبه الكثيرة إلى الإشادة بمرثيّه، فقال: [٨]

ستّونَ عاماً كانَتْ أمامي لم أدرِ حتّى غَدَتْ ورائي

---

[١] انظر الصفدي، أعيان العصر، ٤٤٩/٣، ١٨٩/٥.

[٢] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٤٧٧/٢، الكتبي، عيون التواريخ، ٤٢٣/٢٠.

[٣] انظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٧، ٢٥٥.

[٤] المصدر نفسه، ص٢٥٠.

[٥] المصدر نفسه، ص٢٥٣.

[٦] ابن الأثير، المثل السائر، ٢٤٤/٢، وانظر ابن رشيق، العمدة، ٢٣٩/١، ابن حجة، خزانة الأدب، ٣٣١/١.

[٧] الكرمي، الكواكب الدرية، ص٢٢٣.

[٨] الصفدي، أعيان العصر، ٧٦/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأثقلتْ بالذنوبِ ظهري وأسمعتني داعي الفَناءِ
دع ذا فخطبي به جسيمٌ جلّ وَعُذ بي إلى الرّجاءِ
كان جميل الصفاتِ فرْداً في الجَهْرِ منه وفي الخفاءِ

أما الخاتمة، فقد أطلق عليها النقاد حسن المقطع، وحسن الخاتمة[١]، والانتهاء[٢]، ودعوا إلى تحسينها، وإجادتها، لأنها "آخر ما يبقى في الأسماع، وربما حفظ دون سائر الكلام"[٣]، وهي "أبقى في السمع، وألصق بالنفس لقرب العهد بها، فإن حَسُنَتْ حَسُنَ، وإن قبحت قبح"[٤].

ويرى حازم القرطاجني أن تكون خاتمة القصيدة أحسن مما جاء في حشوها، وأن يتجنب الشاعر فيها اللفظ الكريه، والمعنى المنفر للنفس، كما رأى أن تكون مناسبة للغرض الذي سيقت إليه"[٥]، قال: "فأما الاختتام، فينبغي أن يكون بمعاني سارّة فيما قصد به التهاني والمديح، وبمعانٍ مؤسية فيما قصد به التعازي والرثاء، كذلك يكون الاختتام في كلّ غرض بما يناسبه"[٦]، واشترط النقاد أن تتضمن الخاتمة "معنى تاماً يؤذن بأنه الغاية والمقصد والنهاية"[٧]،وأن "تتضمّن حكمة أو مثلاً سائراً"[٨] .

وإذا نظرنا إلى قصائد الرثاء في هذا العصر، فإننا نجد عناية من الشعراء في خواتيمها، فجاءت ملائمة لغرض الرثاء. فقد ختموها بالحكمة والموعظة، والحديث عن الموت وحتميته، وقوة بأسه، وهذا الأمر أعجب حازم القرطاجني، فعدّه عاملاً من عوامل جمال الخاتمة، وزيادة حسنها، قال: "وإذا ذُيّلت أواخر الفصول بالآيات الحكمية والاستدلالية، واتضحت شيات المعاني، التي بهذه الصفة على أعقابها، فكان لها ذلك بمنزلة التحجيل، زادت بذلك بهاءً، ووقعت في النفوس أحسن موقع"[٩]، ومن ذلك ما قاله برهان الدين القيراطي في خاتمة قصيدة رثى فيها جمال الدين الإسنائي: [١٠]

وهذي سبيلُ العالمينَ جميعهمْ فما الناسُ إلاّ راحلٌ بعد راحلِ

---

[١] انظر ابن حجة، خزانة الأدب، ٤٩٣/٢.

[٢] انظر ابن رشيق، العمدة، ٢٣٩/١.

[٣] ابن حجة، خزانة الأدب، ٤٩٣/٢، وانظر ابن رشيق، العمدة، ٢٣٩/١.

[٤] ابن رشيق، العمدة، ٢١٧/١، وانظر د. يوسف بكار، بناء القصيدة، ص٣٠١، د. عبده قلقيلة، النقد في العصر المملوكي، ص٤٠٩.

[٥] انظر د. محمد عبد المطلب، اتجاهات النقد، ص١٨٠، د. عبده قلقيلة، النقد في العصر المملوكي، ص٤٠٩.

[٦] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص٣٠٦.

[٧] د. محمد عبد المطلب، اتجاهات النقد، ص١٨٠، وانظر د. يوسف بكار، بناء القصيدة، ص٣٠٢.

[٨] د. يوسف بكار، بناء القصيدة، ص٣٠٢.

[٩] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص٣٠٠.

[١٠] القيراطي، الديوان، ص٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وختم عدد من الشعراء قصائدهم بالدعاء، وبرز ذلك بصورة جلية في مراثي العلماء، وخاصة في الأشعار التي نظمت في رثاء محيي الدين النووي[١]، ومنها خاتمة القصيدة التي رثاه بها الشاعر محمد المنبجي البزاز: [٢]

فسقى ضريحاً حلّ فيهِ رَحْمةٌ يَهْمي على كرِّ العصورِ سجالُها
وأحلّه الرّحمنُ عاليَ جنّةٍ مأنوسَةٍ رضْوانُه بوّابُها

وقال الصفدي في خاتمة قصيدة رثى بها محمد بن سيد الناس:[٣]

سقى الغَمامُ ضريحاً قد تضمّنَهُ صوباً إذا انهلّ لا ترقى غواديهِ
وباكرتهُ تحيّاتٌ نوافِحُها من الجنان تحيّيهِ فتحييهِ

وختم بعضهم قصائده بالسلام على المرثي وضريحه، ومن ذلك خاتمة القصيدة التي نظمها برهان الدين القيراطي في رثاء تقي الدين السبكي، يقول: [٤]

سلامٌ عليه من ضريحٍ فإنّه تحومُ المعالي حَوْلَه فَتُسلِّمُ [٥]

وختم آخرون قصائدهم بحمد الله والتسليم لقضائه ومشيئته، ويتجلى ذلك في خاتمة قصيدة كمال الدين بن العديم في رثاء حلب سنة ٦٥٨هـ: [٦]

ولكنّما لله في ذا مشيئة فيفعلُ فينا ما يشاء ويَحْكُمُ

وخاتمة القصيدة التي نظمها عبد الله بن خضر الرومي في رثاء ابن تيمية، يقول: [٧]

والحَمْدُ لله حمْداً لا انقطاعَ لهُ أرجو به من إلهي مَحْو زلاتي

* * *

اهتم النقاد العرب بوحدة القصيدة، ففي كتبهم التفاتات نقدية كثيرة تؤكد حرصهم عليها، وعنايتهم بها[٨]، فابن طباطبا يرى أن "أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاماً يتساوى به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله، فإذا قُدِّم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نقض تأليفها، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بنفسها وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها لم يحسن نظمه، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، نسجاً وحسناً وفصاحة، وجزالة ألفاظ، ودقة

---

[١] انظر ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٣١، ٣٤، ٤٤، ٤٦، ٤٧، ٤٩، ٥٢، ٥٥، ٥٦، ابن الوردي، الديوان،ص٢٢٨، القيراطي، الديوان، ص٢١، ٧٩، السيوطي، حسن المحاضرة،١/٤٣٩.

[٢] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٣٧.

[٣] الصفدي، الوافي، ١/٣٠٢.

[٤] القيراطي، الديوان، ص٥٠.

[٥] ولمزيد من الأمثلة انظر ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٤٤، ، القيراطي، الديوان، ص٥١، ٦٠، ابن نباتة، الديوان، ص١٠٠، الحلي، الديوان، ص٣٢٢.

[٦] العيني، عقد الجمان، ١/٣٤٢، الطباخ، أعلام النبلاء، ٢/٢٥٤.

[٧] الكرمي، الكواكب الدرية، ص٢٣١.

[٨] انظر تفصيل ذلك في يوسف بكار، بناء القصيدة، ص٣٨٧ وما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معان،وصواب تأليف ... "[١]، ويرى الحاتمي أن " القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه"[٢].

وإذا نظرنا إلى قصائد الرثاء في هذا العصر، فإننا نجد الوحدة الموضوعية تجلت فيها بأدق صورها، فقد وصف الشعراء فيها حزنهم على الفقيد، وحزن الناس، وبينوا أثر موته على كل ماله علاقة به، وعلى مظاهر الطبيعة، وصوروا فداحة الخطب، وعظم المصيبة، وتحدثوا عن مناقب الفقيد ومآثره، ودعوا له بالرحمة والمغفرة، ولقبره بالسقيا، كما تحدثوا عن الحياة والموت، والدهر، وعزوا ذوي الفقيد، وحثوهم على التجلد والصبر، وأشادوا بهم. وهذه المحاور جميعها تصب في موضوع الرثاء، وهي جزء لا يتجزأ من بناء قصائده، صحيح أن بعض الشعراء ابتدأ قصيدته بالغزل والوقوف على الأطلال، إلا أن ذلك - كما اتضح في الصفحات السابقة- كان ممتزجاً بموضوع القصيدة وهو الرثاء.

وتجلت هذه الوحدة في القصائد التي رثت المدن الإسلامية، فقد صور الشعراء فيها حزنهم وحياتهم المريرة، وتحدثوا عن المحتل، فتناولوا صفاته، وأخلاقه، وعدده وعدته، وخططه العسكرية، وصوروا ما فعله بالمسلمين وديارهم من قتل، وأسر، وسبي، ونهب، وتشريد، وتدمير، كما صوروا هزيمة الجيش الإسلامي، ودعوا إلى الجهاد واسترداد البلاد المحتلة، وهذه الموضوعات جميعها تصب في موضوع رثاء المدن.

وتجلت في بعض مراثي هذا العصر الوحدة العضوية، وبرز ذلك بصورة جلية في مراثي الإسكندرية، وساعد على ذلك الأسلوب القصصي، فكان كلّ جزء منها يؤدي إلى الذي يليه، ويمكن التمثيل على ذلك بالقصيدة التي نظمها الشيخ أبو عبد الله النستراوي في رثائها، فقد بدأها الشاعر بتصوير الغزو الصليبي، فبين أنه غزو مباغت جاء الناس على حين غرة، وداهية لم ير مثلها من قبل غيّرت معالم الإسكندرية، وقلبت أحوالها، يقول:[٣]

خاطر فاجا الوَرى لمّا خَطَـــر ... أوْقَعَ النّاس الرّزايا والخَطَـــر

بَغْتَـــةً جـــاء فمـــا أعْجَلَـــــهُ ... أخْذَةٌ كـــانَتْ كلَمْـــحِ البصَـــرَ

يا لها من داهيـــةٍ مـــرّتْ فلـــم ... أرَ منـــها أدْهـــــى وأمَـــــر

ثم تحدث الشاعر عن الجيش الصليبي القادم إلى الإسكندرية بقيادة بطرس لوزنجان، وسفنه الكثيرة التي ملأت الميناء، وشحنت بالخيل والرجال والطعام، ووصف بعض خطط

---

[١] ابن طباطبا، عيار الشعر، ص١٢٦.

[٢] ابن رشيق، العمدة، ١١٧/٢.

[٣] النويري، الإلمام، ١٧١/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصليبيين العسكرية، قبل هجومهم على المدينة، فقد أرسلوا غراباً، للتحرش بالمسلمين، وقياس قدرتهم على المواجهة، وحين تأكدوا من ضعفهم، شرعوا في منازلة بر الإسكندرية، يقول:[١]

جاء كلبُ الرّوم بالسّفنِ التي ... وَقْرُها خَيْلٌ ورَجْلٌ ومَسير
ملأ المينةَ منهم ولقد ... سَيَّرَ الملعونُ فيها وعَبَر
وأتى منهم غُرابٌ مُسْرعاً ... جرّ بالمِجْداف جرّاً مُسْتَطَر
جاء للبرّ فاحتاطت به ... عُصْبَةُ الإسلامِ يبغون الظّفر
فانثنى منهم سريعاً راجعاً ... ولباقيهم جميعاً قد صَفَرَ
فأتوا للبرّ عن آخرهِمْ ... ورَموا خيلاً ورَجْلا ونَفَر

وصور الشاعر المعركة التي دارت بين الفرنج والمسلمين، فركز على هزيمة العساكر الإسلامية، فقد دارت عليهم الدوائر، وتعطلت الأسلحة في أيديهم عن أداء مهمتها، فلم تفد منجنيقاتهم ولا رماحهم، ونبالهم ، وسيوفهم، وخيولهم، في دفع الفرنج عنهم، ففروا تاركين سلحة القتال:[٢]

وأُحيطَ المُسلمونَ بالبَلا ... واستطالَ السّيف فيهم وانْشَهَر
لم يفدْ مذ دفعوا بمدفعٍ ... ورَموا بالمنجنيقِ فانكَسَر
لا ولا عدّتهُم مُعْتَدّةٌ ... للقاء الرّومِ وكان يُخْتَبر
فلكمْ رامٍ رمى عن قَوْسِهِ ... نبلةً خابتْ وأرمتْ بالوَتر
ولكم سيفٍ صقيلٍ باترٍ ... قد نَبا في ضربةٍ ثم انبَتَر
ولكمْ من رامحٍ عاجَلَهُ ... علجُ رومٍ فتَولّى ودَبَر
ولكمْ من فارسٍ جوادُه ... كرّه في حلبةِ الميدانِ خَرّ

ثم ألقى الشاعر الضوء على أفعال الصليبيين في الإسكندرية ، فقد قاموا بعد اقتحامها بهتك النساء الجميلات العفيفات، وقتل الأطفال الرضع، والشيوخ الكبار، وأسر الشبان والصغار، والشيوخ، فقال:[٣]

أينَ عيْنيكَ ترى الثّغرَ وقد ... هَتَكَ الإفرنجُ منه ما اسْتَتَر
وبناتٍ خفراتٍ حُرمٍ ... قد أزالوا عنهنّ ذاك الخَفَر
ولكم مُرْضِعَةٍ قد نَحَروا ... طِفلها في صَدْرِها أيضاً انتحر
ولكم شيخٍ كبيرٍ قتلوا ... ما رَعوا في أمره حقّ الكِبَر

---

[١] النويري، الإلمام، ٤/١٧٢.
[٢] المصدر نفسه، ٤/١٧٢-١٧٣.
[٣] المصدر نفسه، ٤/١٧٤-١٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أســـروه واســـتباحوا أســـرَهُ وبـــهم أمســـى ذليـــلاً مُحتقـــر[١]
مـــا رعـــوا شـــاباً ولا ذا شَـــيبةٍ فصغـــيرٌ وكبـــيرٌ مُسْـــتطر

وتحدث الشاعر عن موقف سلطان مصر الأشرف شعبان من سقوط الإسـكندرية، فقـد ذكر أنه كان غداة وصول نبأ الوقعة بسرياقوس [٢]، فقام من وقته ورجع إلـى القلعـة ورسـم للعساكر بالسفر إلى الإسكندرية، وصل السلطان الظهر، وركب من يومه ومعه الأتـابك يلبُغـا والعساكر الإسلامية في الحال، وعدوا النيل، وجدوا في السير من غير ترتيب، ولا تعبئة، وبينمـا هم في ذلك جاء الخبر بأن العدو لما سمعوا بقدوم السلطان تركوا الإسكندرية وهربـوا[٣]، وقـد صور الشاعر ذلك بقوله:[٤]

ساقت البُرْدُ لمصـر غـارةً سـوقَ عُنْـفٍ لا يخـافونَ الغـير
وجدوا السُّلطان في سِـرْياقُس نـازلاً فيـها فـأعطوه الخَـبَر
بطقوا بَلْبيسَ فـي سـاعَتِهْم في حَمامٍ طـالعوا المولـى الأقَـرّ
يلبُغـا مدبّـرَ الملـكِ الـذي أمْـرُهُ ونَهْيُـهُ قـد اشْـتَهَر
جاءهم سَـوْقاً علـى حالَتِـهِ ساعة الوَقْـتِ سـريعاً مـا فَـتَر
جَهّز الجيشَ وأعطى بـالملا أوْقَـرَ السّـفنَ ونـادى بالسَّـفر
لم يكـن إلاّ قليـلٌ وَصَلـوا بجيوشٍ ليـس تُحْصـى كـالمَطَر
ومَضوا الإفرنجُ في سـاعتهم وخذوا في البَحْر جداً فـي السّـفر
وغدا الثّغرُ الشّـنيبُ أبْخَـر عـبرةٌ يُبْصرُهـا مـن اعتـبر

تتكون هذه القصيدة من خمسة أجزاء تبدو فيها الوحدة الموضوعية والعضوية جلية، ففـي الجزء الأول، أعطى صورة عن الغزو الصليبي وعنفه، وفي الجـزء الثـاني والثـالث صـور الصليبيين لحظة اقتحامهم الإسكندرية ومقاتلتهم للعساكر الإسلامية، وانتصارهم عليها، ووصـف في الجزء الرابع ما فعلوه في المدينة من قتل وسبي ونهب وغير ذلك، وفـي الجـزء الخـامس تحدث عن خروج المماليك لجهادهم، ومن ثم رحيل الصليبيين عن المدينة بعد أن تركوها خراباً. إن كلّ جزء من هذه الأجزاء ساهم في بناء قصة سقوط الإسكندرية الأمر الذي يصعـب معـه زحزحة أي جزء من مكانه إلى مكان آخر في القصيدة.

---

[١] خطأ نحوي والصواب "محتقرا".
[٢] بليدة في نواحي القاهرة، ياقوت، معجم البلدان، مادة "سرياقوس".
[٣] انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١١/٢٥.
[٤] النويري، الإلمام، ٤/١٧٥-١٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأمثلة على الوحدة الموضوعية في مراثي هذا العصر قصيدة ابن نباتة في رثـــاء القاضي الأديب بدر الدين بن العطار، فقد بدأها الشاعر بالتعبير عن ذهوله من مـــوت مرثيـــه، وتصوير جزعه، وحزنه، وأرقه، ودموعه الغزار، فقال:[١]

حُجبْتَ ولم أحسبْ سنا البدر يُحْجَبُ ولا خِلْتُهُ في باطنِ الأرْض يَغْـربُ
وأوْرثْتَ عيني جودَ كفِّكَ فـــانبرتْ تَسـحُّ بـأنواءِ الغمـامِ وتسـكُبُ
يُذكّرنـي بـدرُ السّـماءِ سـمِيّهُ فها أنا أرْعى كـلّ بـدرٍ وأرْقُـبُ
عليكَ خشيتُ الخَطْبَ قبـلَ أوانِـهِ وحاذَرْتُ صرفَ الدّهرِ وهو مغيّـبُ

ثم صور الشاعر أثر موت ابن العطار على حياته وشعره، وعلى الفقـراء والمحتـاجين الذين يتوافدون عليه، وألقى الضوء على حال الأخلاق والآداب بعده، فقال: [٢]

لمِن يسـتجدُّ الفِكْـرُ بَعْـدكَ مدحَـةً يُفضّـضُ فـي ألفاظِـها ويُذهَّـبُ
لمـنْ نـترجّى بعـدَ بـابِكَ إنّـه لِبَذْلِ النّـدى بـابٌ صحيـحٌ مجـرّبُ
على شَرَفِ الأخلاقِ بعـدك والوفـا سلامٌ كوجهِ الرّوضِ والرّوضُ مُعْجبُ
مَضَتْ صدقاتُ السرِّ بَعْدَكَ وانقضـتْ فيـا أسـفاً للسّـر بـالصّدر يذهـبُ
مضى رونقُ الآداب بعـد وضوحِـهِ وغُيّـبَ ذاك المَنْظَـرُ المتـأدّبُ

ثم انتقل الشاعر إلى الحديث عن مناقب مرثيه، فأشاد بنسبه ، وأثنى على جوده، وأخلاقه الحميدة، وتقواه، وأدبه، ووصف حسن أيامه، فقال: [٣]

ألا فـي سـبيل الله سـاكن مَلْحَـدٍ وأوصافُهُ في الأرضِ تُملى وتُكتَـبُ
فتـى كَرُمـتْ أنسـابُهُ وخلالُـهُ فـآلاؤه إرثٌ لديـهِ ومكسـبُ
أخـا أدبٍ بيـن المكـارم والتّقـى على شرف الدّارين يَسْعى ويـدأبُ
فلو لم تَجُدنـا غـرّ نعمـاه جادنـا بفضلِ دُعاهُ وابـل الغيـثِ يسـكبُ
مضى حيثُ تنأى عنه كـلُّ ذميمـةٍ وأعمالُـهُ بالصّالحـاتِ تقـرّبُ
وأيامُـهُ بدريّـةٌ لا يضيرُهـا بـوادرُ مـا تـأتى ومـا تتجنّـبُ

وهاجم الشاعر الدنيا، فوسمها بالغدر، وصورها مطية يركبها الخلق إلى الموت، وعجب من المغترين بها، وهي التي تختطف أحلامهم وآمالهم، فقال: [٤]

لحـى اللهُ دنيـا لا تكـون مطيّـةً إلى دَرَكِ الأُخـرى تُـزمُّ وتُرْكَـبُ

---

[١] ابن نباتة، الديوان، ص٤٤.
[٢] المصدر نفسه، ص٤٤.
[٣] المصدر نفسه، ص٤٥.
[٤] المصدر نفسه، ص٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عَجِبْتُ لِمَنْ يرجو الرّضا وهو مُـهْمِلٌ وتسويفنا مع ذلـك العلـمِ أعْجَـبُ
مـا هـذه الأيّـامُ إلاّ مراحـلٌ وأجْدِرْ بها تقضي قريبـاً وتقضـبُ
إذا كانت الأنفـاسُ للعُمْـرِ كالخُطـا فإنّ المدى أدْنـى منـالاً وأقـربُ

ويختم الشاعر قصيدته بالحديث عن مصير مرثيه، وبالدعاء لقبره بالسقيا، وتمنّي المـوت بعده، يقول: [1]

أسـاكن جنّـاتِ النّعيـمِ مـهّناً وتاركنـا فـي حَسْـرَةٍ نتلـهّبُ
سقى عَهْدَكَ الصّوبُ الملثُّ فطالمـا سـقانا مُلـثٌّ مـن نوالِـكَ صيّـبُ
ولا أغمدتْ أيدي النّوائب غَرْبَـها فما في حيـاةٍ بعـد موتـك مَرْغـبُ

إن هذه القصيدة على الرغم من تعدد المحاور فيها إلا أنها تصب في غرض واحد وهو الرثاء.

---

[1] ابن نباتة، الديوان، ص٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللّغة والأسلوب

اهتم النقاد بلغة الشعر، فهي المادة الأولية له، وهي كالألوان للتصوير، والرخام للنحت، وربطوا بين الأسلوب والمضمون، فذهبوا إلى أن كل موضوع يناسبه شكل معين من أشكال التعبير الشعري، فإذا كان الغرض رثاء أو غزلاً، كانت ألفاظ الشعر رقيقة سهلة، وإن كان الغرض حماسة، أو فخراً، أو مدحاً، كانت لغة الأدب جزلة ، يقول الجرجاني: "ولا آمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحداً، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مدحك كوعيدك،... بل ترتب كلا مرتبته، وتوفيه حقه، فتلطف إذا تغزلت، وتفخم إذا افتخرت، وتتصرف للمديح تصرف مواقعه، فإن المديح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف، ووصف الحرب والسّلاح، ليس كوصف المجلس والمدام، فلكل واحد من الأمرين نهج، هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه"[١].

وينبغي أن يكون هناك تلاؤم بين الألفاظ والمعاني،فاللفظ "جسم وروحه المعنى،وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم،يضعف بضعفه،ويقوى بقوته"[٢]،ولهذه المشاكلة بين اللفظ والمعنى "قيمة جمالية، لأنها تؤدي إلى حسن الشعر وحلاوته، وقوة تأثيره في نفس المتلقي"[٣]،أما إذا قصّر الشاعر في ذلك، فإنه يكون "سبباً في ضعف بنائه اللغوي،وسوء تأثيره في النفوس"[٤].

وإذا نظرنا إلى أسلوب أشعار الرثاء في العصر المملوكي الأول، فإننا نجد أن كثيراً منها جاء متفقاً مع ما ذهب إليه النقاد، فقد اتسم بالرقة واللين، والسهولة، والفصاحة، والبعد عن الابتذال، ويبدو التلاؤم بين الألفاظ والمعاني جلياً.

ولعل سبب ذلك أن أكثر تلك المراثي نظمها شعراء احترفوا فن الشعر، وعدوا من فحول زمانهم أمثال: ابن نباتة، وصفي الدين الحلي، وبرهان الدين القيراطي، وشمس الدين بن دانيال، وناصر الدين بن النقيب، وشمس الدين الكوفي الواعظ، وأبي الحسين الجزار، وسراج الدين الوراق، وابن الوردي، وشهاب الدين محمود الحلبي، وعلاء الدين الوداعي، ومجد الدين ابن الظهير الإربلي، ومحيي الدين بن عبد الظاهر[٥]، وغيرهم.

---

(١) الجرجاني، الوساطة، ص٣٣، وانظر ابن الأثير، المثل السائر، ١٦٨/١، د. احسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص٣٢٢، د. عبد الفتاح عثمان، نظرية الشعر، ص١٢٦، محمد اليازجي، في النقد العربي القديم، ص٢٧٢، د. يوسف بكار، بناء القصيدة، ص ١٩٠-١٩١، ١٩٤،٢٠٢،د. أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، ص٤٧٧، د. محمد عبد المطلب، اتجاهات النقد، ص١٢٩.

(٢) ابن رشيق، العمدة، ١٠٤/١، وانظر ابن طباطبا، عيار الشعر، ص١٢٦، العسكري، الصناعتين، ص١٧٩.

(٣) د. عبد الفتاح عثمان، نظرية الشعر، ص١٢٦.

(٤) المرجع نفسه، ص١٢٦.

(٥) انظر ما قيل فيهم، ابن سعيد، المغرب، ٢٩٦/١، الصفدي، الوافي، ١٩٩/١، ٢٧٤/٢، ٥١/٣، ٢٧٧/٤، ٤٨١/١٨،أعيان العصر، ٦٨/٣، الكتبي، فوات الوفيات، ١٥٧/١، ص٣٣٥، ٣٣٠/٣،ص٣٧٢، العمري، مسالك الأبصار، ج١١ق١/٨٣،٩٦، المقريزي، المقفى، ٦٩٤/٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٧٤٩/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان كثير من الشعراء الذين نظموا في الرثاء يشتغلون بالفقه، والحديث، والإفتاء، والقضاء، والنحو، واللغة، والكتابة، وهؤلاء تفرض عليهم طبيعة وظائفهم وشروطها أن يشتغلوا باللغة ويتقنوها، ولذا يتوقع القارئ لأشعارهم أن تكون لغتها فصيحة.

أما السهولة التي دعا إليها النقاد في الشعر عامة، والرثاء خاصة[١]، فكانت مذهب الشعراء في العصر المملوكي الأول، إذ حرصوا على اختيار اللفظ العذب الرقيق، والابتعاد عن الألفاظ الغريبة، وطالبوا أن يكون الشعر سهلاً، فهذا ابن الوردي يقول:[٢]

إذا أحْبَبْتَ نَظْمَ الشِّعر فاخترْ ... لِنَظْمِكَ كلَّ سَهْلٍ ذي امتناعِ

ولا تقصدْ مجانَسَةً ومكِّنْ ... قوافيه وَكِلْهُ إلى الطّباعِ

وامتدح نقاد العصر المملوكي الأديب الذي يستعمل الألفاظ السهلة في أدبه، وعابوا عليه استعماله الغريب منها، ومن ذلك ما جاء في قول الصفدي في ترجمته للشاعر الحسن بن علي ابن شنّار.كان "متين التركيب بليغ المعاني، فصيح الألفاظ، إلا أنه يستعمل الغريب فيما يعاني، فينقل على السمع" [٣]، وامتدح الصفدي الكاتب عبد الوهاب بن فضل الله العمري لأنه كان يتجنب "مستثقل الألفاظ، ويتحيد عن الألفاظ الغريبة التي تهجر من الإعراب، فلا يخرج الكتاب من يده إلا عذباً، فصيح الألفاظ ، ظاهر المعاني".[٤]

ومن الأشعار التي اتسمت بالرقة واللين، والفصاحة، والسهولة، والتلاؤم بين الألفاظ والمعاني، قول الشاعر جمال الدين بن نباتة في رثاء ابنه عبد الرحيم: [٥]

ليتَ القَضا إذْ لم يَدَعْكَ أهاب بي ... حتّى ندومَ معاً على مِضْمارِ

ليتَ القَضا الجاري تمهّلَ وِرْدُهُ ... حتّى حَسِبْتَ عواقبَ الإضمارِ

ما كُنْتَ إلاّ مِثْلَ لَمْحَةِ بارقٍ ... ولّى وأغرى الجَفْنَ بالإمطارِ

أبكيكَ ما بكَتِ الحَمامُ هديلَها ... وأحنُّ ما حنّت إلى الأوكارِ

أبكي بمحمرِّ الدّموع وإنّما ... تبكي العيونُ نظيرَها بنضارِ

يعبر الشاعر عن معاني الحزن والبكاء، ولذا استخدم الألفاظ والعبارات الدالة على ذلك "أغرى الجفن بالإمطار"، "أبكيك"، "وأحنّ"، "أبكي بمحمرّ الدموع"، "تبكي العيون"، هذا فضلاً عن تكرار أسلوب التمنيّ الذي زاد من التعبير عن حزن الشاعر، وعمق مأساته.

---

[١] انظر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٣، قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص١٠، العسكريين، العسكري، ص٨١، ابن رشيق، العمدة، ٢٢٨/١، حازم القرطاجني، منهاج البلغاء، ص٣٥١.

[٢] انظر محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ج٤ م٣٨١/٨، د. هنريت العسايغ، اتجاهات الشعر، ص٤٤، د. عبد قلقيلة، النقد الأدبي، ص٢٨٦-٢٨٧، د. أحمد الحيب، الحركة الشعرية، ص٣٧٨.

[٣] الصفدي، أعيان العصر، ٢١٤/٢.

[٤] المصدر نفسه، ١٩١/٣.

[٥] ابن نباتة، الديوان، ص٢١٨، ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص١٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ذلك القصيدة نظمها عفيف الدين التلمساني في رثاء ابنه شمس الدين ، ومنها قوله:[١]

يا نـــار قلبـــي وأيـــنَ قلبـــي أوْ ... يا كبدي لـــو يكـــونُ لـــي كبـــدُ
يا بائع المـــــوتِ مُشـــتريه أنـــا ... فالصّبرُ ما لا يصـــــابُ والجَلَـــدُ
يا ليتني لم أكنْ أبـــا لـــكَ ويـــا ... ليت ما كُنْـــتَ أنـــت لـــي ولـــدُ
لو أنّ عينـــيّ مِنْـــك مـــا رأتـــا ... ما رأتـــا مـــا دهاهمـــا الرّمـــدُ
لو أنّ أُذنـــيّ منـــك مـــا سَـــمِعا ... نُطْقـــاً لمـــا صَمَتـــا لمـــا أجِـــدُ

ومن القصائد الجميلة التي تحققت فيها الأساليب السابقة، قصيدة شمس الديـــن الكوفـــي الواعظ، في رثاء تاج الدين بن عبدوس، ومنها قوله: [٢]

أتاجَ الدّينِ قد أفنيـــتَ صَـــبْري ... وكنتُ على الخُطوبِ من الجـــلادِ
أتاجَ الدّينِ قد أوْحَشْـــتَ عينـــي ... وإن كُنْتَ انتقلتَ إلـــى فـــؤادي
فلو كان التّلاقـــي بَعْـــدَ شَـــهْرٍ ... لكنتُ أضجّ من طـــول البعـــادِ
فكيف وليس في الدّنيـــا تـــلاقٍ ... وميعادُ التّلاقـــي فـــي المعـــاد؟

ويبدو التلاؤم بين الألفاظ والمعاني في القصائد التي رثت المدن المحتلة بيد المغول،فقـــد عبر فيها الشعراء عن أشجانهم،وصوروا فظاعة ما ارتكبه المغول فيها من قتل وأســـر،وســـبي ونهب، وتدمير[٣]،ومن ذلك قصيدة كمال الدين بن العديم،في رثاء حلب سنة ٦٥٨هـــ،يقول [٤]

يَعُزُّ على قلبي المُعَنّـــى بـــأنّني ... أرى رَبْعَك المَأنوسَ قَفْراً ويَعْظُمُ
فأينَ أحبـــائي الذيـــن عَهِدتُـــهم ... بَرِبعكَ والقطّـــانُ فيـــك مخَيّـــمُ؟
وأينَ شموسٌ كنّ بالأمس طلّعـــا ... فأينَ استقلّوا بالرّكاب ويمّمـــوا ؟
فها أنا ذو وَجْدٍ يحيـــدُ بـــأضلعي ... عليك وعيشي في البـــلاد يُذَمّـــمُ
أنوحُ على أهليك في كلّ مـــنزلٍ ... وأبكي الدّجى شوقاً وأسأل عَنْـــهُمُ

فالشاعر يعبر عن معاني الدمار والفناء، والحزن، والشوق، فاختار الألفـــاظ والعبـــارات الدالة على ذلك، "قفراً"، "أحبائي"، "وجد يحيد بأضلعي"، "أبكي"، "شوقاً".

وبرز التلاؤم بين الألفاظ والمعاني في الأشعار التي نظمت في رثاء العلمـــاء والأدبـــاء، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها شهاب الدين في رثاء القاضي نجم الديـــن ابن صَصَري: [٥]

---

[١] الصفدي، الوافي، ٣/١٣٥-١٣٦، الكتبي، فوات الوفيات، ٣/٣٨٢، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٨/٨٨-٨٩.

[٢] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣٣٨.

[٣] انظر الكتبي، عيون التواريخ، ١٩/١٥٢، ٢٠/١٣٧-١٤٢.

[٤] الصفدي، أعيان العصر، ١/٣٣٢.

[٥] الصفدي، أعيان العصر، ١/٣٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكتابةٍ يَجْلـــو السّـــجلَ جلالُـــها تاجـــاً يزيـــنُ النـــيّراتِ مُرَصّعـــا
وبلاغـــةٍ لا قلـــبَ إلاّ ودّ أنْ تُملى وتُنْشَـــر لـــو تَحـــوّل مَسْـــمَعا
وفصاحةٍ في القَوْلِ أتْقَنَ عِلْمَـــها نَظْماً ونثراً حيـــن حازهمـــا معـــاً
وعبـــارةٍ كـــالنّيل نيـــل بيانُـــها مع انّـــها أروى وأعـــذبُ مَشْـــرعاً
ولكم له مـــن قبـــلُ درُّ رســـائلٍ أبـــدى دُررَ البيـــانِ فأبْدعـــا

يعبر الشاعر عن مقدرة ابن صَصْرَي العلمية والأدبية، فاختار الألفاظ والعبارات المعبرة عن ذلك "كتابة"، "السجل"، "بلاغة"، "فصاحة"، "نظماً ونثراً"، "عبارة"، "رسائل"، "البيان".

واتسمت الأشعار التي نظمت في رثاء المرأة بالتلاؤم بين الألفاظ والمعـــاني أيضـــاً، إذ عبر الشعراء فيها عن حبهم للمرأة المرثية، وصوروا محاسنها، ومواطن الجمـــال فيـــها، ولـــذا استخدموا الألفاظ الدالة على ذلك، ويتجلى ذلك في القصيدة التي نظمها ابـــن نباتـــة فـــي رثـــاء جاريته، ومنها قوله: [١]

بكَيْتُكِ "للحُسْن" الذي قـــدْ شَـــهِدْتُهُ وللشّيَمِ الغُرِّ التـــي قـــد عَهِدْتُـــها
وَرَوْضَةُ لَحْدٍ حلّها "غُصْنُ قامـــةٍ" لعمري لقد طابَتْ وقد طابَ نَبْتُـــها
"خبيّة حُسْنٍ" كنْـــتُ مغتبطـــاً بـــها ولكن برغمي في التّراب دفنتُـــها
وآنسة قد كان لي "ليـــنُ عطفـــها" فَلَمْ يبق لـــي إلا نداهـــا ونَعْتُـــها
أنادي ثرى "الحَسْناء" والتّرب بيننـــا وعزّ على صَمْتِ "المتيّم" صَمْتُـــها

واستخدم عدد من الشعراء ألفاظ الهجاء وعباراته، وذلك حين رسموا صـــوراً ســـاخرة للموتى من أرباب الدول، والعلماء والأدباء، وحين سخروا من أعـــداء المســـلمين وقادتـــهم[٢]، فالشاعر أبو عبد الله بن حسن الشاطبي، استخدم لفظة "كلاب"، إذ قال فـــي رثـــاء الإســـكندرية، ووصف الصليبيين المهاجمين لها:[٣]

ينادي لسانُ الحالِ بالحالِ انظروا كلابُ النّصارى ويحكم أكلوني

ومثله قول النستراوي في وصف القائد الصليبي بطرس لوزنجان: [٤]

جاء كلبُ الرّوم بالسّفن التي وقَرْها خيلٌ ورَجْلٌ ومَيَـــر

وهجا قطب الدين عمر أبا الحسين الجزار بعد موته، فاستعمل الألفاظ المعبرة عن ذلك، فقال:[٥]

الشّاعرُ الجـــزّارُ مـــا ت فبئسَ ما ضـــمَّ الـــتّرابُ

---

[١] ابن نباتة، الديوان، ص٧٤.
[٢] انظر ص ٨٨، و ١٢٤ من هذه الرسالة.
[٣] النويري، الإلمام، ٣/٢١٩.
[٤] المصدر نفسه، ٤/١٧٢.
[٥] الكتبي، فوات الوفيات، ٤/٢٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واتّسمت بعض المراثي في هذا العصر بالضعف والركاكة، وعدم الملاءمة بين الألفاظ والمعاني، ويعود ذلك إلى غير سبب، ومنها الصنعة والتكلف، واستخدام مصطلحات العلوم[١]. ومنها أن كثيراً من الذين شاركوا في نظم تلك المراثي كانوا لا يحترفون فن الشعر، فقد كان منهم العالم، والفقيه، والتاجر، والجندي، ولذا أتوا بشعر ركيك ليس له من الشعر سوى الوزن والقافية، وزاد من ركاكتها، وضعف أسلوبها أن العلماء والفقهاء استخدموا فيها أساليبهم التي يعتمدون عليها في مجادلاتهم ومناظراتهم، وأبحاثهم العلمية، وهي أساليب لا تليق بالشعر.

وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك حين تحدث عن الملكة الشعرية، فبين أن الفقهاء، وأهل العلوم قاصرون في البلاغة، ذلك أن محفوظهم ممتلئ بالقوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن اسلوب البلاغة وهي عبارات وقوانين تجعل الملكة الناشئة عنها في غاية القصور والانحراف عن أساليب العرب في كلامهم[٢].

إن ما قاله ابن خلدون ينطبق على جل المراثي التي نظمها العلماء والفقهاء في العصر المملوكي الأول. ويمكن التمثيل على ذلك بما جاء في قصيدة تقي الدين حسين التي نظمها في رثاء جمال الدين بن مالك النحوي، فقد لجأ فيها إلى أساليب العلماء، فاستعمل لفظة "أعني"، ويتجلى ذلك في قوله: [٣]

رحِمَ المهيمنُ روحَه فضريحُه ... يعتادُهُ صوبٌ يسحُّ غمامُهُ

"أعني" ابن مالكٍ الموسّد في الثّرى ... وعلومه بين الورى أعْلامُهُ

ومثله قول الشيخ محفوظ بن وشاح الحلّي في رثاء نجم الدين الحلي المعروف بالمحقق: [٤]

أقلقني الدّهرُ وفرطُ الأسى ... وزادَ في قلبي لَهيبَ الضّرامِ

لفقد بحر العِلْمِ والمُرتَضى ... في القول والفعل "وفصل الخصامِ"

"أعني" أبا القاسم شمسَ العُلا ... الماجدَ المقدامَ ليث الزّحامِ

ويستخدم محمود بن الأثير الحلبي لفظة "أيضاً" إذ قال في رثاء ابن تيمية: [٥]

لا يخافُ الملوكَ أيضاً ولا الخَلْـ ... ـقَ ولا العداة مع اللّوامِ

ولم يحالف بعض الشعراء التوفيق في الملاءمة بين ألفاظهم ومعانيهم، ذلك أنهم نظموا مراثيهم بهدف التسجيل التاريخي، فسعوا إلى المعنى، وقلّت عنايتهم بالألفاظ الأمر الذي جعل أشعارهم تخلو من العاطفة، ولا ترتفع إلى مستوى الحدث، وبرز ذلك بصورة جلية في مراثي

---

[١] سيأتي الحديث عن ذلك في الصفحات القادمة من هذا الفصل.

[٢] انظر ابن خلدون، المقدمة، ٣/١٣١٤-١٣١٥.

[٣] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٣/٧٨.

[٤] السيد الهادي، فقهاء الفيحاء، ١/٢٠٤.

[٥] الكرمي، الكواكب الدرية، ص٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإسكندرية، وبعض الأشعار التي رثت بغداد، والشيخ تقي الدين ابن تيمية [١]، ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في قول ابن أبي حجلة التلمساني واصفاً ما فعله المغول في بغداد:[٢]

فقَتَل الخليفة المُسْتعصما ... فلا تَسَلْ عمّا جرى من الدّما

ولم يزلْ يقتل قوماً قوماً ... والدّمُ يجري أربعين يوماً

وقتلوا حتى الضّرير الصّرصري ... والبنتَ والطّفل الذي في السّرر

فما جرى في سائر الأعصارِ ... نظيرَ فِعْلِ هذه التّتار

ومن المآخذ والعيوب التي يمكن أن تؤخذ على لغة المراثي في هذا العصر، وقوع بعض الشعراء في اللّحن، والضرورات الشعرية، ولم يكن سبب ذلك ضعف ثقافتهم اللغوية، ذلك أنهم من الشعراء والفقهاء والكتاب، الذين عرفوا بثقافتهم اللغوية الواسعة أمثال جمال الدين بن نباتة، وبرهان الدين القيراطي، وشافع بن علي الكاتب، وغيرهم.

وقد عاب بعض النقاد العرب القدامى والمحدثين على الشعراء اللحن في شعرهم، لما فيه من تحطيم للغة، وعبث بتقاليدها المرعية، وقوانينها المتوارثة[٣]، فالعسكري ينصح الشاعر قائلاً: "وينبغي أن تتجنب ارتكاب الضرورات، وإن جاءت فيها رخصة من أهل العربية فإنها قبيحة تشين الكلام وتذهب بمائه.[٤]

ويرى ابن طباطبا أنه ينبغي للشاعر "أن لا يظهر شعره إلا بعد تثقفه بجودته وحسنه وسلامته من العيوب التي نبه عليها، وأمر بالتحرز منها، ونهي عن استعمال نظائرها، ولا يضع في نفسه أن الشعر موضع اضطرار، وأنه يسلك سبيل من كان قبله، ويحتج بالأبيات التي عيبت على قائلها، فليس يُقتدى بالمسيء، وإنما الاقتداء بالمحسن"[٥]. فالشعر الحسن عنده هو الذي يكون خالياً من الخطأ واللحن، لأن الفهم يأنس من الكلام الصواب، ويستوحش من الخطا[٦]، ونجد نقاد العصر المملوكي الأول يؤاخذون الشاعر إذا لحن، وخرج عن قواعد اللغة [٧].

ومن مظاهر ذلك اللحن صرف مالا ينصرف، كما يبدو في قول شافع بن علي الكاتب: [٨]

أين الذي رأينا في الوجود لهم ... "عجائباً" من ذوي الأديان والملَل

ومثله قول ابن نباتة: [٩]

---

[١] ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص٨٣.

[٢] المصدر نفسه، ص٨٣.

[٣] انظر نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، ص٢٩٦، د. عبد الفتاح عثمان، نظرية الشعر، ص١١٥، د. يوسف بكار، بناء القصيدة، ص١٠٦-١٠٩.

[٤] العسكري، الصناعتين، ١٦٨.

[٥] ابن طباطبا، عيار الشعر، ص١٦.

[٦] المصدر نفسه، ص٢٠.

[٧] انظر د. عبده قلقيلة، النقد الأدبي، ص٢٩٥-٣٠١.

[٨] شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص١٤١، الفضل المأثور، ص١٧٣.

[٩] ابن نباتة، الديوان، ص٢٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان عليهِ جَوْهرُ الذّكرِ "أبيضاً" فزاوجت فيهِ جوهر الدّمع "أحمرا"

وكثر اللحن في القصائد التي قيلت في رثاء الإسكندرية، فالشاعر النويري يحذف النون من الفعل "يكتبون" وإن لم يسبقها ناصبٌ أو جازم، فيقول:[١]

يكتبوا النّهْبَ في الجرائدِ حقّاً بحُلاها بألسنِ الأقلام

وتميزت مراثي الشعراء في العصر المملوكي الأول بميزات عديدة، ومنها الأثر الإسلامي الذي بدا جلياً فيها، وقد فرض عليهم ذلك طبيعة الموضوع الذي عبروا عنه، فهم ينظمون في موضوع الرثاء، فيتحدثون عن القبر، والمصير، والحشر، والآخرة، والموت، وهي أمور جلّى الإسلام حقيقتها، وكشف النقاب عن كثير من خباياها، ولذا فإن من الطبيعي أن ينهل الشعراء المسلمون من الأفكار التي قدمها الإسلام، وأن يعكسوها في مراثيهم، خاصة وأنها أضحت جزءاً لا يتجزأ من فكرهم وكيانهم. إلى جانب ذلك فإن القرآن الكريم منذ نزوله على سيدنا محمد، صلّى الله عليه وسلّم، والشعراء يعدونه المثال المُحتذى، يغرفون من معينه، ويسعون إلى الاستفادة من بلاغته ومضامينه المختلفة هذا فضلاً عن أن جل شعراء الرثاء في هذا العصر كانوا يشتغلون في العلوم الدينية مثل: الفقه وأصوله، والحديث، والتفسير، ويتولون المناصب الدينية مثل: القضاء، والإفتاء، وقراءة القرآن، ومن البدهي أن تتسرب إلى أشعارهم ألفاظ، ومصطلحات ومعان وصور من تلك العلوم.

وقد بدا التأثر بالقرآن الكريم جلياً، ويتجلى ذلك في أربعة وجوه، المعاني والصور، والقصص القرآني، والاقتباس. ففي قول شرف الدين بن سليمان الإربلي:[٢]

عَزّ البقاءُ فكلُّ حيٍّ فانِ لا دايمٌ يبقى سوى الرّحمن

نفذ القضاء بسابق المحتومِ في قول المهيمن من عليها فانِ

يبدو الشاعر متأثراً بقوله تعالى: "كلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ، ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذو الجلالِ والإكرام" [٣] .

والشاعر صلاح الدين الصفدي في قوله مصوراً الحزن على أخيه إبراهيم: [٤]

ألا يا دَهْرُ قد راعَيْتَنا في أخي فتركْتَنا نَصْلى سَعيرا

ينظر الى قوله تعالى: "إنّ الذّينَ يأكلونَ أمْوالَ اليَتامى ظُلْماً إنّما يأكلون في بُطونهم ناراً، وسَيصْلَونَ سَعيرا"[٥] .

ويبدو الشاعر ذاته في قوله مصوراً حياة أخيه في القبر: [٦]

---

[١] النويري، الإلمام، ٢/٢١٢، ولمزيد من الأمثلة انظر القيراطي، الديوان، ص٥٨.

[٢] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٧.

[٣] سورة الرحمن، آية٢٦-٢٧.

[٤] الصفدي، الوافي، ٥/٣٣٥.

[٥] سورة النساء، آية ١٠.

[٦] الصفدي، الوافي، ٥/٣٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد نوَّرَ التّوحيدُ ظُلْمَةَ قَبْرِهِ وحيّاهُ رضْوانٌ بروحٍ وَرَيْحانِ

متأثراً بقوله تعالى:" فأمّا إنْ كانَ من المقرّبين، فروحٌ وَرَيْحانٌ وَجَنّاتُ نعيم"[١]

وقال برهان الدين القيراطي مصوراً أثر تقي الدين السبكي في أهل الإلحاد والضلال: [٢]

وأخاف في ذا الآن كلَّ أخي هـوىً في النّار يَنْهلُ مـن حَميـمِ آنِ

فهو يأخذ معانيه من قوله تعالى في صفة أهل النار: "هـذه جَـهنّمُ التـي يكـذّبُ بـها المجرمون، يطوفون بيْنها وبين حميمٍ آن"[٣] .

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر مصوراً أثر موت الظاهر بيبرس على الأرض:[٤]

أم تَرى الأرضَ قد بها خَسَفَ اللـ ـه تَعالى بالخَلْقِ فهي تمورُ

فهو ينظر إلى قوله تعالى: "أ أمِنْتُمْ مَنْ في السّماءِ أنْ يَخْسِفَ بكم الأرضَ فإذا هي تمورُ".

وبرز التأثر بمعاني القرآن الكريم وصوره جليّاً في مراثي صفي الدين الحلّي، ففي قوله في رثاء أخيه عبد الله بن سرايا: [٥]

جَعَلْتَ جبالَ الصّبْرِ بالحُزْنِ صَفْصَفَلْ وَصَيّرتَ أطـوادَ التّجلّـد كالعِـهْنِ

يبدو متأثراً بقوله تعالى: "ويَسْألونَكَ عَنِ الجبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها ربّي نَسْـفاً، فيَذَرها قاعـاً صفْصَفاً"[٦]، وقوله تعالى: "وتكونُ الجبالُ كالعِهْن"[٧].

ويتجلى تأثره بمعاني القرآن وصوره في قوله: [٨]

شوسٌ تظنُّ العدا سِهامَهُمُ شُهُباً بها الماردونَ قد رُجموا

وقوله: [٩]

يا رجيمَ الخُطوبِ فاسترق السّمـ ـعَ فأُفقُ العُلا بغيرِ شهابِ

فهو ينظر إلى قوله تعالى: "إلاّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فاتّبَعَهُ شِهابٌ ثاقب" [١٠]،وقوله تعـالى: "إلاّ مَنْ استَرَقَ السّمعَ فاتبعَهُ شِهابٌ ثاقب"[١١]

---

[١] سورة الواقعة، آيات ٨٨-٨٩.

[٢] القيراطي، الديوان، ص٥٩.

[٣] سورة الرحمن، آيات، ٤٣-٤٤.

[٤] ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام، ص١٨١.

[٥] الحلي، الديوان، ص٣١٠.

[٦] سورة طه، آيات ١٠٥-١٠٦.

[٧] سورة المعارج، آية ٩.

[٨] الحلي، الديوان، ص٢٨٢.

[٩] المصدر نفسه، ص٢٩٠.

[١٠] سورة الصافات، آية ١٠.

[١١] سورة الحجر، آية١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واقتبس بعض الشعراء آيات من القرآن الكريم، أو أجزاء منها، ولكن ذلك كان قليلاً في المراثي قياساً بتأثر الشعراء بمعاني القرآن وصوره، ويتجلى ذلك في قول ابن الوردي في رثاء الشيخ مهنا بن إبراهيم الفوعي: [١]

"ليتني متُّ قبلَ هذا" [٢] فإنّي حاملٌ فيكَ ما شَجاني وأضْنى

وقول أبي محمّد البسطي:[٣]

سُقيتَ الحيا ما دامتِ الأرضُ مَسْجدا وما تُليَتْ "إنّا وجدناه صابرا"[٤]

ويكثر الاقتباس في قول ابن نباتة:[٥]

عَريتَ وجوّعْتَ الفؤادَ فحبّذا مساكنُ فيها "لا تجوعُ ولا تَعرى"[٦]

بكى الجامعُ المعمورُ فَقْدكَ بَعْدَما "لَبِثْتَ على رَغْم الدّيار به عُمراً"[٧]

وفارقْتَه بعد التّوطّنِ سارياً إلى جنّةِ المأوى "فَسُبْحانَ مَنْ أسرى"[٨]

لقد كُنْتُ ألقاهُ وَصَدْرِيَ مُحْرجٌ فيفْتَحُ لي يُسْراً "ويشرحُ لي صدرا"[٩]

واستوحي الشعراء قصص القرآن الكريم، واستفادوا من دلالاتها في التعبير عن معانيهم وفي تشكيل صورهم، ومن أكثر هذه القصص ترداداً في شعرهم قصة سيدنا يوسف عليه السلام، وحزن أبيه يعقوب عليه السلام حتى ابيضت عيناه، يقول تعالى في حديثه عن يعقوب وأبنائه: "وتولّى عَنهم وَقال يا أسَفي على يوسفَ وابيضّتْ عيناهُ من الحزنِ فهو كظيمٌ، قالوا تالله تفتأ تذكُرُ يوسف حتى تكونَ حرضاً أو تكون من الهالكين"[١٠]

وقد شبه الشعراء أنفسهم بيعقوب عليه السلام، وشبهوا المرثي بيوسف، ويتجلى ذلك في قول السيف الشطرنجي في رثاء الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب:[١١]

قد سقى يوسف النّاسَ كأسَ صَبْرٍ مُرّةً لا تقرّ في الأحْشاءِ

فهمُ في مَحَلِ يعقوبَ في الحُزْ ن وإجراء دمعهمْ بالبكاءِ

وقول ابن نباتة:[١٢]

---

[١] ابن الوردي، الديوان، ص٢٢٨.

[٢] انظر سورة مريم، آية ٢٣.

[٣] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٤٢.

[٤] انظر سورة ص، آية ٤٤.

[٥] ابن نباتة، الديوان، ص٢٢٠، الصفدي، أعيان العصر، ٦٣/١، ابن حبيب ، تذكرة النبيه، ٥٨/٢.

[٦] انظر سورة طه، آية ١١٨.

[٧] انظر سورة يونس، آية ١٦.

[٨] انظر سورة الإسراء، آية ١.

[٩] انظر سورة طه، آيات ٢٥-٢٦.

[١٠] سورة يوسف، آيات ، ٨٤-٨٥.

[١١] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٥٠/٢.

[١٢] ابن نباتة، الديوان، ص٣٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويالكَ من حُزْنٍ تجدّدَ عِندنا به حُزن يعقوب الذي كاد يُقْلعُ

وقول صفي الدين الحلي: [١]

هدّ قلبي من كان يؤنـــسُ قلبـــي إذْ نبذنـــاه بـــــالعراءِ سَـــقيما
ونأى يُوسفي، فقد ذهبـــتْ عيـــــ ـــناي مِنْ حُزْنِهِ وكنْتُ كظيمـــــا

وترددت قصة موسى عليه السلام في غير سورة من سور القرآن الكريم، واشتملت على أحداث متنوعة استفاد منها الشعراء، ووظفوها في مراثيهم، ومنها هلاك فرعون في النيـــل إثـــر ملاحقته موسى وأتباعه، وجاء ذلك في قول علاء الدين بن فضل الله العمري بحق النشو المقتول سنة ٧٤٠هـ: [٢]

في يَوم إثنينِ ثاني الشّهر من صفَـــرٍ نادى البشيرُ إلى أن أسْمع الفَلكـــا
يا أهلَ مِصْرَ نَجـــا موســـى ونَيلكُـــمُ طغى وفِرْعونُ وهو النّشو قد هَلكا

ويصور صفي الدين الحلي نفوس أنسابه وخاله بعصيّ السحرة، والموت بعصا موسى التي لقفت تلك العصي وقهرتها، فيقول:[٣]

أفـــي كـــلّ يـــومٍ للمنيّـــةِ غـــــارةٌ تُغيرُ على سِرْبِ النّفـــوسِ فتخطـــفُ
كـــأنّ جبـــالَ السّـــاحرينَ نفوسُـــنا وتلك عَصـــــا موســـى لـــها تَتَلَقّـــفُ

ويشير الشاعر شمس الدين الكوفي الواعظ إلى قصة موسى وهارون في قوله:[٤]

لدنياهُ هارون استخارَ مُساعداً وموسى لأُخراه شفيعاً مُكرّما

واستوحى غير شاعر قصة نوح عليه السلام والطوفان، ومنهم صلاح الدين الصفدي في قوله:[٥]

طوفان عِلْمٍ جَرَتْ فيه السّفينةُ مِنْ آدابهِ واستوتْ منه على الجودي

ويوظف صفي الدين الحلي قصة إسماعيل عليه السلام حين فدي بذبح عظيم في قوله:[٦]

لو أنّ إسماعيلَ مِثل سميّهِ يُفْدى فَدَتْهُ ترائبٌ ونحورُ

ويستلهم أحد الشعراء قصة موسى عليه السلام حين كلم الله سبحانه وتعالى، وقصة نوح والسفينة وقصة إسماعيل في قوله: [٧]

شاهدت بَعْدَك حـــال مَـــنْ فارقْتَـــهُ أنْـــتَ الحَيـــاةُ لـــه وأنْـــتَ الـــرّوحُ
أمْســـى لـــه قَلْـــبُ الكليـــمِ ونـــاره يَصْلى الخليـــلُ بـــها وأنـــت ذبيـــحُ

---

[١] الحلي، الديوان، ص٢٢٨.
[٢] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٩/١٠٤.
[٣] الحلي، الديوان، ص٢٨٣.
[٤] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٣/١٦.
[٥] الصفدي، أعيان العصر، ٥/٣٧٥.
[٦] الحلي، الديوان، ص٣٢٧، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٢/٢٢٤.
[٧] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد رأيتكَ فـــوق أعـــواد الـــرّدى وأمـــامكَ التّـــهليلُ والتّســـبيحُ
والنّـــاسُ كالطّوفـــانِ وهـــي سَـــفينةٌ تجري بأدمعنـــا وشـــخصُك نـــوحُ

وتأثر الشعراء بمعاني الحديث النبوي الشريف وصوره، وأخذوا منها ما يتـــلاءم مـــع المعـــاني والمواقف التي عبروا عنها، فالشاعر صلاح الدين الصفدي في قوله:[١]

وتَدبيرٌ خلا عن حظِّ نفسٍ ونابَ الرّعبُ فيه عن الحُسامِ

ينظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "أُعطيتُ خَمْساً لم يُعطَهُنّ أحَدٌ من قبلي، نُصِرتُ بـــالرّعب مسيرة شهر ..."[٢]

وقال الشيخ أبو عبد الله الغرناطي: [٣]

ولا بدّ أن يستوفي المـــرءُ عُمْـــرَهُ ويُفْـــرَغُ زادٌ خَصَّـــــهُ وشـــرابُ

فهو يستوحي قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أيّها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطّلـــب، فإنّ نفساً لن تموتَ حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، خذوا مـــا حلّ، ودعوا ما حرّم"[٤]

واستلهم غير شاعر المعاني[٥] التي جاءت في قوله صلـــى الله عليـــه وســـلم، "إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبـــق عالمـــاً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأخذوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا " [٦]

وممن تأثروا به أبو الفضل يوسف بن محمد المصري إذ قال في رثاء النووي: [٧]

فالعلم مقبوضٌ بقبضِ نفوسهمْ قد جاء ذاك عن النبيّ الهادي

واستخدم الشعراء حشداً كبيراً من الألفاظ والمصطلحات الدينية، ولا تكاد تخلو قصيدة أو مقطوعة منها، وهي مستمدة من القرآن الكريم والحديث الشريف، والعلوم الدينية، ومن ذلك قـــول علاء الدين بن غانم في رثاء ابن تيمية: [٨]

صارَ جارَ الإله ربّ السّماوا ت الرّحيمِ المهيمن العلاّمِ

ويستخدم الأديب الأمين سلطان ألفاظ "الدين"، "والشريعة"، و"الأمر بـــالمعروف"، و "ربّ"، و "دار النعيم" في قوله: [٩]

---

[١] الصفدي، أعيان العصر، ١٣٦/٢، الوافي، ٤٣٤/١٠.
[٢] البخاري، الصحيح، ١٠٩/١، ٣٣٤/٤.
[٣] ابن العجمي، كنوز الذهب، ٤٧٠/١، الطباخ، أعلام النبلاء، ٧٨/٥.
[٤] ابن ماجة، السّنن، ٦/٣.
[٥] انظر الكرمي، الكواكب الدرية، ص٢١٠، ٢١٥.
[٦] البخاري، الصحيح، ٢٥٨/١.
[٧] ابن العطار ، ترجمة الإمام النووي، ص٣٨.
[٨] الكرمي، الكواكب الدرية، ص١٩٢.
[٩] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يـا مُحْيِيـاً للدّيـنِ بعـد إماتَـةٍ ومؤيّـداً لشـريعة أسْمـاها
يـا آمـراً بـالعرفِ يُرضـي ربّـهُ بوّئـتَ مـن دار النّعيـمِ عُلاهـا

ويستخدم برهان الدين القيراطي حشداً من الألفاظ الإسلامية في قوله: [١]

وروّاه مـولاهُ الرّحيـمُ برَحْمـةٍ يحيّيـه منـها هـاطلٌ بعـد هـاطلِ
ووافاه رضـوانُ الجنـانِ مُبـادراً بشـيراً برضـوانٍ سـريعٍ مُعـاجلِ
وحيّاه بالرّيحان والرّوح والرّضـى إلهُ البرايا فـي الضّحـى والأصـائلِ

وظهرت معانٍ إسلامية كثيرة في مراثي هذا العصر ، وهي معان قدمها القرآن الكريـم والحديث النبوي الشريف، فصارت جزءاً لا يتجزأ من الفكر الديني الإسلامي ، فقد بين الإسـلام لأتباعه أن الموت حتم على بنى البشر، وأن الحياة الدنيا دار الفناء ، ومعبر إلى الحياة الآخـرة، وقد صدر جلّ الشعراء عن هذه الأفكار حين تحدثوا عن الموت والدنيا، ومثال ذلك قول شـرف الدين بن سليمان الإربلي:[٢]

عزّ البقـاءُ فكـل حـيٍّ فـانِ لا دائمٌ يَبقى سـوى الرّحمَـن
ننسى الرّدى ونغالط الأيّام فـي تبعيده وهو القريـبُ الدّانـي

وقول السيف الشطرنجي:[٣]

كلّ حيٍّ مصيره للفناءِ ثم لم يبقَ غيرُ ربٍّ السّماءِ

والموت في الفكر الإسلامي ليس فناء البشر، فهناك حياة القبر والـبرزخ وهـي الحـد الفاصل بين الدنيا والآخرة، وفيها إما أن يعيش الإنسان في نعيم، فيكون قبره قطعة من الجنـة، وإما أن يعيش في شقاء ، واستفاد الشعراء من هذه المعاني حين دعوا للمرثي وقبره، وصـوروه جنة فيه الحور والولدان، والسندس، والأرائك، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها قول الصفدي فـي رثاء أثير الدين أبي حيان: [٤]

ما باتَ في أبيض أكفانهِ إلاّ وأضْحى سُنْدساً أخْضَرا
تصـافحُ الحورُ له راحةً كم تعبتْ في كلٍّ ما سَطّرا

وقال الشيخ محمد الحنفي في رثاء جمال الدين بن مالك النحوي: [٥]

روْضُهُ حفـرةٌ أعـدّت لمثـوا هُ يزهـر أعمالـه أكمامـة
زخرفتْ للقدوم منـه قصـورٌ وجنـان ولدانـه خَدامـة

---

[١] القيراطي، الديوان، ص٢١، السيوطي،حسن المحاضرة، ١/٢٦٣-٢٦٤.
[٢] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ٢٥٧.
[٣] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٢/١٤٩.
[٤] السيوطي، حسن المحاضرة، ١/٤٣٩، بغية الوعاة، ١/٢٨٥.
[٥] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ٣/٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبرزت المعاني الدينية حين صوروا الملائكة متزاحمة حول قبر المرثي ونعشه، ويتجلى ذلك في قول زين الدين بن الوردي في رثاء ابن تيمية:[١]

ولو حَضَروه حين قَضَى لألفوا ملائكةَ النّعيمِ بـه أحاطوا

وتأثروا بالمعاني الإسلامية والصور التي جاءت في القرآن الكريم والحديث حين تحدثوا عن البعث، والحساب، والصراط، والميزان، ومن ذلك قول برهان الدين القيراطي: [٢]

ما هذه الأرواح من خلاّقنا إلاّ ودائع كنّ في الأبدانِ
رجعتْ لعالمها الذي كانت به في البرزخ المعلوم للدّيانِ
حتى إذا الأُخرى أطلّ زمانُها عادت بإذن اللهِ للجثمانِ
وتجمّعت بعدَ البلى أجسادُنا حتّى استوت بالهيكلِ الإنسان

ويرسم أحد الشعراء صورة ليوم الحساب والناس يومذاك في قوله يرثي النووي: [٣]

يوماً تكون عُصاةُ النّاسِ قد جمعتْ والنّارُ ذات لظىً والربُّ غَضْبانُ
يفرّ كلّ امرئ من هول مَصْرَعِهِ من ابنه وأخيه وهو حيرانُ
فعند ذاك بلا ريبٍ على عَجَلٍ بالبشر من ربّنا يأتيك رضوانُ

وتأثر الشعراء بالمعاني الإسلامية وصور القرآن والحديث حين صوروا المرثي من أهل الجنة ينعم فيها، ويتقلب بمتعتها وملذاتها، كما تأثروا بها حين صوروا الملائكة والحور والولدان والجنة مُهلّلة مستبشرة بقدوم المرثي ، ويتجلى ذلك في قول الصفدي :[٤]

وباتَ بالحورِ والولدان مُشْتَغِلاً إذْ أقْبَلَتْ تَتَهادَى في تلقّيهِ

ومن المعاني الإسلامية الإيمان بالقضاء والقدر، وحمد الله في السراء والضراء، والرضاء بحكمه، ومنها الإيمان بفكرة الثواب الذي يناله الصابرون على مصابهم، ويتضح ذلك في قول ابن الوردي: [٥]

وكيف رَضيتَ هذا البُعْدَ لكنْ قضاءُ الواحدِ الربِّ القديرِ
ولو أنّا صَبَرْنا كان أوْلى فما نالَ الثوابَ سوى الصّبورِ
وفي خير الأنام لنا عزاءٌ وغايتُنا إلى هذا المَصيرِ

وقول شهاب الدين الزرعي: [٦]

فالحَمْدُ لله المُهَيْمِنِ دائماً وإليه فيما نابني اسْتَرْجِعُ

---

[١] ابن الوردي، الديوان، ص٢٦٦.
[٢] القيراطي، الديوان، ص٥٩.
[٣] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٥٧.
[٤] الصفدي، الوافي، ١/ ٣٠٠.
[٥] ابن الوردي، الديوان، ص٣٢٨.
[٦] ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٢/ ٥٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستلهم الشعراء التاريخ بأحداثه وشخصياته ، ووظفوه في خدمة المعاني التي عبروا عنها، فحين تحدثوا عن حزنهم استحضروا شخصية الخنساء، وبكاءها على أخيها صخر، وتجلى ذلك في شعر غير شاعر، ومنهم صفي الدين الحلي، إذ قال في رثاء الأمير ركن الدين إسحاق:(١)

أيا صَخْرَ الجَنَانِ أدَمْتَ نوحي فها أنا فيك خنساءُ الرّجالِ

وجاء ذلك في قول ابن الوردي في رثاء الشيخ مهنا بن إبراهيم الفوعي:(٢)

أيّ قَلْبٍ به لو كان صَخْراً ما يُحاكي الخَنساء نوحاً وحُزْنا

واستدعى الشعراء الشخصيات التاريخية حين أشادوا بمرثييهم، ووصفوا جودهم، وحلمهم، وتقواهم، وشجاعتهم، وهنا برزت أسماء مثل "حاتم الطائي"، و"البرامكة"، و "الأحنف ابن قيس"، و"الإسكندر"، ومن ذلك ما جاء في قول مجد الدين الإربلي:(٣)

وَجَنَت على الدّينِ الحَنيفِ جناية تلوى رزيّتُها بحلمِ الأحنفِ

وقول كمال الدين بن العطار:(٤)

قد حرّكَ الثّقلين فَقْدُ مُصابِهِ فالظّاهرُ المودي أو الإسكندرُ

ويطالعنا في مراثي هذا العصر حشد من أسماء العلماء والأدباء السابقين، استحضرها الشعراء حين قرنوا بينها وبين مرثييهم من العلماء والأدباء، كما يبدو في قول برهان الدين القيراطي:(٥)

أُربيتَ في الجودِ على حاتمٍ وَفُقْتَ في العِلْمِ على "الحاتمي"

إحسانُكم نرويهِ عن نافعٍ وعونكم نرويهِ عن "عاصم"

وقول محمد بن فضل الله بن كاتب المرج القوصي:(٦)

ويا مَنْ يُعَزّي فيه هل أنْتَ بالغٌ عزاء الورى لو كُنْتَ سحبان أو قُسّا

ويوظف ابن نباتة شخصية مالك بن نويرة، وأخيه متمم إذ قال في رثاء الملك المؤيد، وأشاد بابنه الأفضل:(٧)

فَقَدْنا لأعناق البريّةِ "مالكاً" وشُمْنا لأنواعِ الجميل "مُتَمّما"

---

(١) الحلي، الديوان، ص٢٩٦.

(٢) ابن الوردي، الديوان، ص٢٢٧، تاريخ ابن الوردي، ٣٠٢/٢.

(٣) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٦٢.

(٤) الصفدي، الوافي، ١٧٢/٨، العمري، مسالك الأبصار، ج ٨ ق ٩٥/١.

(٥) القيراطي، الديوان، ص٧٦.

(٦) الأدفوي، الطالع السعيد، ص٦٠٨.

(٧) ابن نباتة، الديوان، ص٢٤٩، ابن حجة، خزانة الأدب، ١٤٠/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعاد الشعراء إلى التاريخ اليوناني، ووظفوا بعض شخصياته في شعرهم، أمثال: "جالينوس، وبطليموس"، وتجلى ذلك في قول شمس الدين الكوفي الواعظ:[١]

أنا أشكو أمراضَ حُزْنٍ وَشَوْقٍ كَلَّ عنها علاجُ جالينوس

وقول شمس الدين بن دانيال:[٢]

نَجْمُ هذا آيُ النّجومِ ولَمْ لا أخْبَرَ النّاسَ عنه بَطْليموسُ

* * *

واستفاد الشعراء من الأمثال الشعبية، فوظفوها في مراثيهم، ومنها ما زال يتردد على ألسنة الناس في أيامنا هذه، ومن ذلك ما جاء في قول صفي الدين الحلي:[٣]

وراموا بأنواعِ العقاقيرِ برأهُ "وهل يُصلِحُ العَطّارُ ما أفسدَ الدّهرُ"

وقول أحد الشعراء:[٤]

عَلامة ولئن يكنْ علماؤنا جمّا "فكلُّ الصّيد في جوف الفَرا"

ويضمن أحد الشعراء المثل الشعبي "من خَلّف ما مات" إذ قال معزياً أبا الحسين الجزّار بحماره وساخراً منه:[٥]

مَنْ ماتَ في عِزّهِ استَراحَ وَمَنْ "خَلّف مثل الأديب ما ماتا"

ويوظف الشاعر تقي الدين المغربي المثل القائل: "إن الزيادة فوق القدر نقصان"، في قوله:[٦]

قَدْ كان يَكْفيه أدْنَى ما تَعلّمه "إنّ الزّيادة فوق القَدر نُقْصان"

وقال الصفدي:[٧]

آهِ كيف القرارُ فَوْقَ فِراشٍ مَلأتْهُ الأحزانُ خرطَ القتادِ

فهو ينظر إلى المثل: "دونه خرط القتاد" الذي يضرب لما هو مستحيل وقوعه.[٨]

وضَمّن شهاب الدين العزازي، المثل القائل: "الغيث أوّله الومض" في قوله:[٩]

وكان إذا استجداه عافٍ تَهَلّلت أسرّتُه "والغيثُ أوّله الوَمْضُ"

---

[١] الكتبي، عيون التواريخ، ١٣٨/٢٠، ولمزيد من الأمثلة انظر الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص١١٦،إبراهيم حمادة، خيال الظلّ، ص١٥٤، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١/٣٢٨.

[٢] الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص١١٧.

[٣] الحلي، الديوان، ص٣٢١.

[٤] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٥٤.

[٥] ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص١٢٤، الصفدي، الغيث المسجم، ٢٣٥/٢، الغزولي، مطالع البدور، ٩٢/٢.

[٦] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٤٠٩.

[٧] الصفدي، الوافي، ٢١٨/١٩، أعيان العصر، ٥١٩/١.

[٨] الصفدي، أعيان العصر، ٥١٩/١ حاشية ٢.

[٩] العزازي، الديوان،ص٧٥، ولمزيد من الأمثلة انظر الحلي، الديوان، ص٣١٠، ابن نباتة، الديوان، ص٥٧٣، القيراطي، الديوان، ص٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن السمات الأسلوبية التي تميزت بها مراثي هذا العصر أسلوب الحوار، وهو ما أطلق عليه علماء البديع المراجعة[١]، وبرز ذلك في المراثي التي نظمها شمس الدين بن دانيال في رثاء إكديشه، فقد راح يحاوره فيها، ويصف له فقره، ويشكو له جوعه، وحالته السقيمة[٢]. وبرز أسلوب الحوار في مراثي بغداد، وذلك حين وقف الشعراء على أطلالها يناجونها، ويسألونها عن مصابها، وعمّا فعل الدّهر بسكانها، وعمارتها، وحضارتها، فتجيبهم أنهم هلكوا وأصبحوا عبرة لكل معتبر، ومن ذلك ما جاء في قول شمس الدين الكوفي الواعظ:[٣]

ولَقَد قَصَدْتُ الدّارَ بعد رحيلكم ... ووَقَفْتُ فيها وقْفة الحَيْرانِ
وسألتُها لكْن بِغَيْرِ تَكلُّمٍ ... فَتَكَلّمَتْ لكنْ بِغير لسَانِ
نادَيتها يا دارُ ما صنَعَ الأُلي ... كانوا هم الأوطار في الأوطانِ
أين الذين عَهدتُهمْ ولعزّهمْ ... ذلاً تخرُّ معاقدُ التّيجانِ
قالتْ: غدوا لمّا تَبدّد شملُهمْ ... وتبدّلوا مِنْ عزّهم بهوان
كدمِ الفصادِ يُراقُ أرْذَلَ مَوْضِعٍ ... أبداً ويَخْرُجَ من أعزّ مَكانِ

وحاور الشعراء الموت حين تساءلوا عن المصير الذي آل إليه مرثيوهم بعد عز وسلطان، ومن ذلك قول ناصر الدين بن النقيب في رثاء بيبرس:[٤]

أيْنَ الذي كانتْ لَبودُ خُيولِهِ ... ليْسَتْ تَجِفُّ ولَيْسَ عنَها ينزلُ ؟
أين الهمامُ الظّاهرُ الملكُ الذي ... كَمْ أعْمَلَ الأفكارَ فيما يَعْمل ؟
فأجاب صوتُ المَوْتِ: حيٌّ قد مَضَى ... لسبيلهِ وإلى القُبورِ المَوْئِلُ

ويحاور أحد الشعراء شقيقته، فيصف لها حزنه وحياته بعد مرثية محيي الدين النووي، وهي بدورها ترد عليه، وتنعى عليه ذلك، يقول: [٥]

وشقيقة أفزعتها لمّا أتى النـ ... ـاعي به إذ قُمْتُ أمشي القَهْقَرى
وأعضُّ من وَجْدٍ عليه أناملي ... وأهيمُ مِنْهُ تأسُّفاً وتَحسُّراً
قالت: أويحك ما دهاك وما الذي ... لَكَ قد أصابَ وما الذي لك قد عَرا
فأجبْتُها ثكلتك أمُّك تسألي ... عَمَّا جَرى لي هَلْ قليلٌ ما جَرى ؟
هذا دعامةُ ديننا بل كسرُهُ ... إن الرّزيّة فيه أم حَبَوْ كَرى [٦]

---

[١] انظر الحموي، خزانة الأدب، ٢١٨/١.

[٢] انظر ص ٢١٥ وما بعدها من هذه الرسالة.

[٣] الكتبي، فوات الوفيات، ٢٣٤/٢.

[٤] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٠.

[٥] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٥٤.

[٦] كناية عن الداهية، ولمزيد من الأمثلة انظر الصفدي، الوافي، ٣٩٣/٢١، الحلي، الديوان، ص٢٩٦، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٧، الدواداري، كنز الدرر، ٢١٧/٨، العيني، عقد الجمان، ٤١٤/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأساليب الجديدة في هذا العصر الرثاء على ألسن الآخرين، ومن ذلك قول شرف الدين الأنصاري في رثاء سابق الدين مملوك المنصور على لسانه : [١]

لِمَنْ أُسَكّنُ قَلْبي عَنْك يا سَكَني ؟ بِمَنْ أُعَلّلُ آمالي ؟ بِمَنْ ؟ بِمَنِ ؟
يا هالكاً عَذَرَتْني فيه عاذلتي وَلَوْ عُذِلْتُ لَطاشَ العَذْلُ عن أُذني

ونظم الشاعر زين الدين بن الوردي قصيدة في رثاء زوجة على لسان زوجها ومطلعها: [٢]

أوْحشني يا صَنْعَةَ البَاري جمالُك العاري من العارِ

ومن الأساليب البارزة في مراثي هذا العصر المبالغة، وهي سمة أساسية من سمات الشعر، وقد تجلت حين تحدث الشعراء عن حالتهم النفسية، وصوروا حزنهم، ودموعهم التي استحالت إلى دماء، وحين صوروا الأرض قد اضطربت ومادت بسكانها، ومظاهر الطبيعة تعطلت عن أداء مهمتها، كما ظهرت تلك السمة حين رسم الشعراء صورة مثالية لمرثييهم في شجاعتهم، ونداهم، وعلمهم، وزهدهم وغير ذلك، وبرزت هذه السمة في مراثي المدن الإسلامية، وذلك في الصور التي قدمها الشعراء لمصابها، وما فعل الأعداء فيها من قتل ونهب وتدمير. والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها قول أبي عبد الله الغرناطي في رثاء أحمد بن يوسف الغرناطي:[٣]

فوالله ما يأتي الزّمانُ بِمِثْلِهِ وإنْ زَعَموا إتيَانه فَكَذابُ
ولو أنّ ما بي مِنْ فراقك بالحَصَى لذابَ فَكَيْفَ القَلْبُ ليس يُذابُ ؟

ويبالغ ابن نباتة حين صور بذل الملك الأفضل في حال فقره يفوق عطاء السّحاب:[٤]

وأعْطى عَطاءَ السُّحبِ في حالِ عُسْرَةٍ تقومُ بأعذارِ النّفوس الشّحائحِ

ويبالغ سراج الدين الوراق إذ صور موت الحافظ زكي الدين المنذري رزءاً لا مثيل له، وحين صور الخلق كلهم قد أودى بهم الحزن وأهلكهم، فقال:[٥]

عمّ فيك المصابُ حتّى لَقينا كلّ حَيّ أوْدى به ما لَقينا
فكأنّا لم نَدْر قَبْلَكَ رُزْءاً أو كأنّا لم ندرِ مَنْ قَدْ رُزينا

ومن المبالغة قول أحد الشعراء في رثاء النووي:[٦]

قَد رجّت الأرضُ الفَضاءُ لِفَقْدِهِ وتَزَعْزَعَتْ بِرواسي الأعلامِ

---

[١] شرف الدين الأنصاري، الديوان، ص٤٧٣.
[٢] انظر ابن الوردي، الديوان، ص٣٩٧-٣٩٨.
[٣] سبط ابن العجمي، كنوز الذهب، ٤٧١/١-٤٧٢، الطباخ، أعلام النبلاء، ٧٧/٥-٧٨.
[٤] ابن نباتة، الديوان، ص٩٩.
[٥] الصفدي، الوافي، ١٥/١٩.
[٦] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن السمات الأسلوبية الأسلوب القصصي، ونجد هذا الأسلوب جلياً في مراثي المدن الإسلامية وخاصة مدينة الإسكندرية [١]، وفي مراثي أرباب الدول وذلك حين أشاد الشعراء بشجاعتهم وصوروا معاركهم التي خاضوها ضد الصليبيين والمغول، فقد وصفوها من بدايتها إلى نهايتها وما تخللها من ضرب، وقتل، وكر، وفّر [٢]. وبرز هذا الأسلوب في القصيدة التي نظمها شمس الدين بن دانيال في رثاء مجمع الخلاعة والمجون، وذلك حين رسم على شكل قصة صورة لما أصاب ذلك المجمع ورواده، وأدواته، وأوعية الخمر، وبائعيه[٣].

ولجأ ابن دانيال الى ذلك الأسلوب في الأشعار التي نظمها في رثاء إكديشه، فقد صوره وهو يعاني الجوع، ويبحث في إسطبله عن الطعام، ويهاجم صاحبه الشاعر، وما زال كذلك حتى نفق وتجمعت الكلاب من كل حدب وصوب، لتأكل من رمّته.

ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في قول النويري في رثاء الإسكندرية، إذ صور هجوم الصليبيين على المدينة، وسفكهم دماء المسلمين فيها، يقول:[٤]

لاقتهمُ جَمْعُ المَغاربة التي ... من تَونسٍ أو ضيغمٍ مكناسِ
رَمَتِ الفرنجُ عليهمُ فتراجعوا ... عنهم ففرّوا مع رعاعِ الناسِ
فَسَعى العدوُّ وراءهم بسلاحِهِ ... ضربوا الجُسومَ وسفقوا للرّاسِ
قَصَدوا المدينة أحرقوا باباً لها ... يُدْعى ببابِ الوردِ بَين النّاسِ
هجموا من البابِ المعيّن ذكرُه ... دخلوا وكرّوا كرّةً في النّاسِ
فَسعوا ورا من فرّ عند دخولهم ... سفكوا الدّماء بكلّ قَلْب قاسِ

ورسم السراج عبد اللطيف التكريتي بأسلوبه القصصي صورة تتبع فيها حركة المغول وجيشهم، منذ بدء الهجوم على العالم الإسلامي، واستيلائهم على المدن الإسلامية في إيران والعراق، والجزيرة الفراتية والشام، يقول:[٥]

تتر أتوا تترى كأنّ جيوشَهم ... سَيْلٌ تحادرَ أو أظلّ سَحابُ
فتحوا مدائنَ فارسٍ وحُصونَها ... وسبوا ذراريها ولم يرتابوا
وأتوا إلى دار السّلام فنكّسوا ... علمَ الخِلافةِ بالعراقِ وآبوا
وديار بكرٍ والجزيرة كمْ خَلَتْ ... منها قُرىً وشوارعٌ ورحابُ
ركبوا ظهورَ الصافناتِ وغيّروا ... نهرَ الفُراتِ وهم له ركابُ

---

[١] انظر ص ٢٠٠ من هذه الرسالة.
[٢] انظر ص ٢٥٩ وما بعدها من هذه الرسالة.
[٣] انظر ص ٢٤٤ من هذه الرسالة.
[٤] النويري، الإلمام، ٥٢/٤.
[٥] المصدر نفسه، ٢٢٦/٢-٢٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملكوا الشآمَ مع العراقِ فعـــمّ وا دينا بمصـــر الخـــوفُ والإرهـــابُ

* * *

ومن الأساليب التي برزت في المراثي ظاهرة التكرار وتعني "تناوب الألفـاظ وإعادتـها في سياق التعبير بحيث تشكل نغماً موسيقياً يتقصّده الناظم"[١] ،ويبين ابن رشيق، أن أولـــى "مـــا يكرر فيه الكلام باب الرثاء، لمكان الفجيعة، وشدة القرحة التي يجدها المتفجع" [٢]. وقد حـــرص شعراء الرثاء في هذا العصر على تكرار ألفاظهم وعباراتهم إدراكاً منهم لما يوفره ذلك من قيـــم موسيقية تؤكد معانيهم، وتقرع نفوس المتلقين "فالتكرار يضع في أيدينا مفتاحاً للفكرة المتســـلطة على الشاعر، ومن ثم يغدو بمثابة الضوء الذي يسلطه الشاعر على الأعماق كي يسهل الإطـــلاع على خباياها وعلى اللاشعور الكامن فيها"[٣] .

وجاء هذا التكرار على مستوى البيت الواحد، والأبيات المتتابعة، ومن الأمثلة على ذلـــك قول شهاب الدين بن الفضل الله العمري في رثاء ابن تيمية: [٤]

" أهكذا" بالدّياجي يُحْجَـــبُ القَمَـــرُ وَيُحْبَسُ النّوءُ حَتّى يَذْهَـــبَ المَطَـــرُ ؟

" أهكذا" تُمْنَعُ الشمسُ المنيرة عَـــنْ منـــافعِ الأرضِ أحيانـــاً فَتُسْـــتَتَرُ ؟

" أهكذا" الدّهـــرُ ليـــلاً كلُّـــه أبـــداً فَلَيْسَ يُعْـــرَفُ فـــي أَوْقاتِـــهِ سَـــحَر ؟

" أهكذا" السّيْفُ لا تَمْضي مَضَارِبُهُ والسَّيفُ في الفَتْكِ ما في عَزْمِهِ خَـوَرُ ؟

" أهكذا" القَوْسُ تُرْمى بالعراء ومـــا تَصْمي الرّمايا وما في باعها قِصَـــرُ ؟

" أهكذا" يُتْرَكُ البَحْرُ الخِضَـــمّ ولا يُلْوى عليه، وفـــي أصدافـــه الـــدُّررُ ؟

" أهكذا" بتقيّ الديـــن قـــد عبثـــتْ أيدي العـــدا وتعـــدّا نَحْـــوه الضّـــررُ

فهو يكرر أداة الاستفهام الهمزة، ولفظة "هكذا" سبع مرات، ليؤكد بتكرارهـــا اســـتغرابه وتعجبه من المصير الذي آل إليه رجل عظيم مثل ابن تيمية، وليعبر عن حسرته، ويثير الآســـى في نفوس المتلقين.

وكرروا ألفاظ اللهفة، والحسرة، والأسف، ليؤكدوا حزنهم ولوعتهم، والخســـارة الكبـــيرة الناجمة عن موت المرثي، فالشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر يكرر لفظة "أسفي"، أربع مـــرات إذ قال في رثاء بيبرس:[٥]

أسَفي على تلك الجيوش وقولـها أين الـــذي كُنّـــا بـــه لا نُخْـــذَلُ ؟

---

[١] ماهر هلال، جرس الألفاظ، ص٢٣٩، وانظر ابن حجة، خزانة الأدب، ٣٦١/١.

[٢] ابن رشيق، العمدة، ٧٦/٢.

[٣] د. مصطفى الشورى، شعر الرثاء في العصر الجاهلي، ص٥٣.

[٤] المقريزي، المقفى، ٤٧٥/١، الكرمي، الكواكب الدرية، ص١٨٢-١٨٣.

[٥] شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص١٦٥، الدواداري، كنز الدرر، ٢١٦/٨، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ٩١/٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أسَفي على السَّيرِ التـــي أَلَفْتُـــها كيف اغتـــدَتْ بوفاتـــه تتكمّـــلُ ؟
أسَفي على الدّررِ التي نَظَمْتُـــها كيف انثنتْ برثاي فيـــه تفصـــلُ ؟
أسَفي على الغُررِ التي بيّنتُـــها لِـــمْ لا بَـــدَتْ بحياتـــه تَتَحجّـــلُ ؟

ولننظر إلى هذا الإيقاع الحزين الذي يوفره الشاعر جمال الدين بن نباتة بتكراره لفظـــة "لهفي" ست مرات، في قوله في رثاء القاضي تاج الدين بن الزيات: [١]

فَلَهْفي على دنيـــا العفـــاةِ تنكّـــرتْ ولَهْفي على رَبْـــعِ السّـــماحَةِ أقفـــرا
ولَهفي على بيت السّـــيادةِ والتّقـــى ولهفي على حيّ القـــراءة والقِـــرى
ولَهفي على حكـــمٍ تحـــفُّ بلينـــه بوادر تَحمـــي صَفَـــوْه أن يكـــدّرا
ولَهفي على رأي يضيء به الـــهُدى إذ النّجمُ في أفـــقِ السّـــماء تحـــيّرا

ومن التكرار ما جاء في قول صفي الدين الحلي في رثاء الملك الناصر محمد بن قلاوون:[٢]

فَتَىً كان مِثْل الدّهر بطشـــاً وبَسْـــطَةً يُرجّى وَيُخْشى عِنْدَهُ النّفْـــعُ والضـــرُّ
فَتَىً طبّق الأرضَ البســـيطةَ جـــودُهُ ففي كلّ قُطْرٍ من نـــداهُ بـــها قَطْـــرُ
فَتَـــىً لَفْظُـــهُ مـــع رأيـــهِ ونَوالِـــهِ يجـــيء ارتجـــالاً لا يُغَلْغِلُـــهُ الفِكْـــرُ
فَتَىً لمْ ترنّحْ نَشْـــوَةُ الكِـــبْرِ عطْفَـــهُ ومِنْ بَعْض ما قَدْ نالَهُ يَحْـــدث الكِـــبْرُ
فَتَىً لمْ يَدَعْ في مُهْجَةِ المَجْدِ حَسْـــرةً مدى الدّهرِ إلاّ أنْ يَطولَ لـــه العُمْـــرُ
فَتَىً ذَخَـــرَ الحُسْـــنى فـــأعْقبَ فِعْلَـــهُ عواقبَهُ الحُسْنى، فقـــد نفـــعَ الذّخـــرُ

فالحلي يكرر لفظة "فتى" ست مرات ليفيد بتكرارها إضافة إلى تقوية الجرس الموســيقي، التأكيد على عظمة الناصر وخصاله الحميدة.

ويكرر الشاعر شهاب الدين محمود الحلبي الفعل الماضي "كان" ثلاث مرات ليؤكد عمـق السعادة التي قضاها في صحبة مرثية شمس الدين المقدسي، فيقول:[٣]

كانتْ تَطيبُ لنا الحياةُ بأُنْسِهِ وبِقُرْبِهِ فعلى الحَياةِ سَلامُ
كانتْ لياليَنا بطيب بقائِهِ فينا تضيء كأنّها أيّامُ
كانتْ به تُرْوى القُلوبُ وتنثني ولها إليه تَعَطّشٌ وأوامُ

وأكثر الشعراء من تكرار "كم الخبرية"، وبرز لك بصورة جلية في معرض حديثهم عـــن الخصال الحميدة التي كان يتحلى بها المرثي، وعن المآثر التي خلفها وراءه، وقد أفاد تكرارهـــا

---

[١] ابن نباتة، الديوان، ص٢٢٤.

[٢] الحلي، الديوان، ص٣٢٠.

[٣] الصفدي، الوافي، ٢٢٤/١٨، ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ٣٠٩/٤، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٨٧/٤-١٨٨، الكتبي، عيون التواريخ، ٣٣٤/٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التكثير والتعظيم، ومن ذلك ما جاء في قول علاء الدين علي المعروف بقاضي اللاذقية في رثاء بيبرس:[١]

كم قد أبادَ جُموعَ الكُفْرِ حين طغوا ... وكَمْ عَزيزٍ رأى من سيفهِ الهونا
وكم حصونٍ منيعاتٍ مُشَيّدَةٍ ... عَزّتْ على غيرهِ دانتْ لَهُ لينا
وكم غزاةٍ في إثرها صِلَةٌ ... وفكّ نَفْسٍ قَضَتْ في سِجْنِها حينا
وكم أقام منار الدّين مُجْتَهِداً ... فأصْبَحَ النّاسُ صُوّاماً مُصلّينا

فقد أفاد تكرارها هنا التأكيد على شجاعة بيبرس، وفتوحاته، ومآثره الحميدة.

وعمل الشعراء على زيادة النغم الموسيقي داخل القصيدة وتنويعه، وذلك عندما كرروا فيها غير لفظة وعبارة، ويتضح هذا التنوع في التكرار في قول جمال الدين بن نباتة: [٢]

"ليت" المؤيّدَ لا زالت عوارفُهُ ... فزادَ قَلْبَ المُعَنّى في تلظّيهِ
"ليت" الحِمامَ حَبَا الأيّامَ مَوْهِبَةً ... فكان يُفني بني الدّنيا ويبقيه
"ليت" الأصاغرَ تفدي الأكبرون بها ... فكانت الشّهبُ في الآفاق تفديه
" أعزز عليّ" بأنّ ألقى عَوارِفَه ... ملءَ الزّمان وأنّي لا أُلاقيه
أعزز علي" بأن تُبْلى شَمائلُهُ ... تَحْتَ التّرابِ وما تبلى أياديه
"أعزز عليّ" بأن ترعى النجومُ على ... سَرْحٍ من الملكِ قد خلاّه راعيه
"هلاّ" بغير عِماد الدين حادثة ... أَلْقَتْ رداه وأوْهَتْ من مبانيه
"هلاّ" ثنى الدّهرُ غرباً من محاسنِهِ ... فكان كوكبَ سَعْدٍ في لَيَاليه
ترى درى الدّهرُ مقدارَ الذي فقدتْ ... من فيضِ أدمعه أحوال أهليه
ترى درى الدّهرُ ما مغزى سماحته ... فَجَاء مُهْجته في زيّ عافيه

ويستمر الشاعر في أبيات كثيرة على هذا المنوال:[٣]

* * *

وبرزت ظاهرة في مراثي هذا العصر يجدر تسجيلها في هذا المقام، وهي أن بعض الشعراء كرروا أبياتاً شعرية في غير قصيدة نظموها، وربما أجروا عليها تعديلاً طفيفاً، ويدل ذلك على زيف مشاعرهم وانفعالاتهم، وهذا الأمر هو ما جعلهم يقتطعون تلك الأبيات من قصيدة كانوا قد نظموها سابقاً، ثم يضمونها إلى قصيدة قالوها لاحقاً، ويرسلونها إلى ذوي المرثي

---

[١] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٤.

[٢] ابن نباتة، الديوان، ص٥٧١، الصفدي، الوافي، ١٧٥/٩، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٤٠٤/٢، النجوم الزاهرة، ٢١٦/٩.

[٣] ولمزيد من الأمثلة على تكرار العبارات والألفاظ انظر ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٣٤، ٥٠، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٤، ابن الوردي، الديوان، ص٢٢٧، الصفدي، الوافي، ٢١٩/٤، ٢١٨/٦، أعيان العصر، ٦٣٨/٤، ابن نباتة، الديوان، ص١٣٨، ٢١٨، ٤٠٥-٤٠٦، الحلي، الديوان، ص٢٩٣-٢٩٤، ص٣٢٣، القيراطي، الديوان، ص٢٠، الكتبي، فوات الوفيات، ١١/٤، ابن العجمي، كنوز الذهب، ٣٢٧/١، الكرمي، الكواكب الدرية، ص١٩٤-١٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليعزوهم في مصابهم، ومن الأمثلة على ذلك هذه الأبيات، التي جاءت في القصيدة التي نظمها برهان الدين القيراطي في رثاء بهاء الدين السبكي:[١]

تعزّي بكَ الأمصارُ مِصْراً لعلْمِها ... بأنّك ما زلتَ العزيزَ على مصرِ
بكَتْ عينُ شمسِ الأُفْقِ بَدْر مَنْ ... مناقبه تزهو على الأنْجم الزّهرِ
توقّع قلبُ النّيل فقدانَ ذاته ... ألَسْتَ تَراه في احتراقٍ وفي كَسْرِ
لئن غادرتْك الأرضُ حمْلاً ببطنها ... فإنّا حَمَلْنا كلّ قاصِمة الظّهرِ
ولو أنّ عيني يطرقُ النومُ جَفْنَها ... تَعَلّلتُ للنّوم الذي لي به يسري
لقد عَطّلتْ منه الرّياسةُ جيدها ... وَقَدْ كان حلاّها بعقدٍ من النّحرِ
وطرفُ الدواة الأسودُ أبيضّ بَعْده ... من الحُزْن يشكو فَقْدَ أقلامِهِ الخُضْرِ

فهذه الأبيات وردت بعينها في القصيدة التي نظمها القيراطي في رثاء سعد الدين بن موفق الدين.[٢]

وبرزت هذه الصورة في مراثي الشاعر جمال الدين بن نباتة، ومن ذلك قوله في رثاء محمد بن شهاب الدين محمود الحلبي:[٣]

والمَرْءُ في الأصلِ فَخّارٌ ولا عَجَبٌ ... إن راحَ وهو بكفّ الدّهر مكسورُ

وقد غير الشاعر الكلمة الأخيرة من البيت، وضمه إلى القصيدة التي نظمها في رثاء بدر الدين ابن فضل الله العمري، فقال:[٤]

والمَرْءُ في الأصلِ فَخّارٌ ولا عَجَبٌ ... إن راحَ وهو بكفّ الدّهر مُنْحَطم

ومما يؤكد أن هذا التكرار مقصود، أن الشاعر لم يجر تغييره إلا في الكلمة الأخيرة حيث اضطرته القافية لذلك.

وقال ابن نباتة في رثاء ابنه عبد الرحيم:[٥]

وبدتْ لدى البيداءِ مطيُّ قبورهمْ ... عِلْماً بأنهم على أسفارِ

وقد جاء هذا البيت بعد تغيير طفيف في القصيدة التي نظمها الشاعر في رثاء شرف الدين بن فضل الله العمري فقال:[٦]

وبدتْ لدى البيداءِ مطيّ قبورهمْ ... ليعلمَ أهلُ العَقْلِ أنّهمُ سَفْرُ

---

[١] القيراطي، الديوان، ص٢٥.
[٢] المصدر نفسه، ص٥٠-٥١.
[٣] ابن نباتة، الديوان، ص٢٢٢، الصفدي، الوافي، ١٤/٥، أعيان العصر، ٢٥٦/٥.
[٤] ابن نباتة، الديوان ص٤٦١.
[٥] المصدر نفسه، ص٢١٩.
[٦] المصدر نفسه، ص٢٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأفاد النداء معنى التعظيم، ومن ذلك قول ابن الوردي: [١]

فياالله ماذا ضَمّ لَحْدٌ ... وياالله ما ضَمّ البِسَاطُ

واستخدم الشعراء النداء المعبر عن معنى التعجب ، وتجلى ذلك في قول ابن الوردي: [٢]

فيا بَدرَ السّمـــاءِ أراك تبدو ... وَقَدْ واروا سميّك في القُبورِ

ويا مَطَرَ السّماءِ أراك تهمي ... أظنّك باكياً صَدْرَ الصّـــدور

وخرج النداء ليفيد معنى الزجر ، وهذا ما جاء في قول محمد بن عيســـى القوصـــي، إذ نعى على الشمس طلوعها بعد مرثيه تقي الدين بن دقيق العيد:[٣]

يا شمسُ مالَكِ تطلعين ألم تَرَي ... شَمْسَ المعارف غيّبتْ بكُسُوفِ ؟

ومنه قول أحد الشعراء:[٤]

يا نفسُ لا تُخدعي باللّهو واتّعظي ... فإنّ رِبْحَكِ عند اللّهو خُسْرانُ

وكثيراً ما خاطب الشعراء المرثي دون اللجوء إلى أدوات النداء ومن ذلك قول القيراطي:[٥]

أبا حامدٍ كُنْتَ الفريدَ الذي لَه ... فوائدُ عزٍّ من فرائده الغرّ

أما الاستفهام فهو كما يرى الزوزني "مستحب في النسيب والمرثية لأن الهوى والمصيبـة يدلهان صاحبهما"[٦]،وقد استعان الشعراء بأدواته المختلفة مثل "أين"، و "مَنْ"، و"الهمزة"،وعـبروا من خلالها عن معاني عدة،ومنها الألم والحزن، ومن ذلك قول محيي الدين بن عبد الظاهر:[٧]

أين الذي أسرَ الملوكَ فـأصبَحوا ... في أسْرِهِ مِنْ بعض ما يتَخـوّلُ

أين الذي فتـــح البـــلادَ فَســـيفُهُ ... مِفتاحُ ما بيدِ الأعـــادي يُقْفـــلُ

واستخدم الشعراء الاستفهام ليفيد معنى التعظيم، وهذا كثير في مراثيهم، ومنه قول محمـد المنبجي البزاز:[٨]

مَنْ للمَسائل أعضَلَتْ مَنْ للفتـــا ... وي اشْكَلَتْ عن أن يردّ جَوابـــها ؟

مَنْ للتّقى من للحيا من للحِجَـــى ... طويـــتْ لِفَقْـــدِ أليفـــها أبوابُـــها ؟

وقول شهاب الدين محمود الحلبي: [٩]

---

[١] ابن الوردي، الديوان، ص٢٦٦.

[٢] المصدر نفسه، ص٣٢٧.

[٣] السيوطي، حسن المحاضرة، ٢٧٦/١.

[٤] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٥٧.

[٥] القيراطي، الديوان، ص٢٦.

[٦] الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص١٣١.

[٧] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٥، شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص١٦٥، الدواداري، كنز الدرر، ٢١٦/٨، ابن الفرات، تاريخ ابن الفـــرات، ٩١/٧.

[٨] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٣٧.

[٩] الصفدي، الوافي، ٢٤٣/١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مَنْ للعفاةِ والعناةِ وَهَـلْ لَـهمُ مِنْ بَعْدُ فـي ذاك المَقـام مَقـامُ ؟

ومن المعاني التي عبر عنها الاستفهام التمني، وجاء ذلـك فـي قـول أبـي الفضـل يوسـف المصري: [١]

أترى تعودُ لَنَا ليالي أُنْسِكُمْ ؟ هَيْهات لكن ذاك يومُ معادي

وقول شمس الدين الكوفي الواعظ:[٢]

أترى تَعودُ الدّار تَجْمَعُنَا كَمَا كُنّا بكلّ مَسَرّةٍ وتهاني

واستخدم الشعراء أسلوب الاستفهام الدال على الاستنكار، وتجلى ذلك في قول أحد الشعراء:[٣]

أين الوفاءُ وما العيونُ قريحةٌ لمّا فقدت ولا الجفونُ دوامي ؟

وجاء الاستفهام دالاً على التعجب، والاستبعاد ، والنفي. أما التعجب فقد جاء في قـول ابن نباتة: [٤]

أينفذ عَنّـي الحُـزْنُ بَعْـدَ مُحَمّـدٍ وما استنفذتْ كفّـي نوافـلَ مالـهِ ؟

أ أنسى له في كلّ جَـدْبٍ غمائمـاً تَحُثُّ علـى رَغـمِ الحيـا وَمطالـهِ

أ أنسى له فـي كـلّ دُرْجٍ قَلائـداً مُنَظّمـة مـن رفْـدِهِ وَمَقالـهِ

ومن الاستفهام الذي يفيد معنى الاستبعاد قول أحد الشعراء: [٥]

كيف التَصبُّر وهو فيك ملامَةٌ ؟ وبما التّسلي وهوَ عَنْكَ بعيدُ ؟

وجاء معنى النفي، في قول أبي محمد عبد الله الأندلسي:[٦]

تبكي وهلْ يَنْفَعُ الثّكْلى تَعدّدُها ؟ أوْ هل يردّ فَقيداً دَمْعُها الجاري ؟

واستخدم الشعراء أسلوب الأمر، وقد خرج عن معناه الحقيقي ليعبر عن معـانٍ شـتى، وأبرزها الالتماس، "وهو طلب الفعل الصادر عن الأنداد والنظراء المتساوين قدراً ومنزلـةً" [٧] ، وجاء هذا المعنى حين عزى الشعراء ذوي المرثيين، وحثوهم على الصبر والتجلد والتماسك فـي مصابهم، مثل قول الصفدي معزياً كمال الدين بن إبراهيم الحلبي في والده: [٨]

كَمال الدين لا تجزعْ وَسَلّم لإمرٍ شاءه الباري تَعالى

وجاء الأمر الدال على الالتماس في قول نجم الدين بن صصري: [٩]

---

[١] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٣٩.

[٢] الكتبي، فوات الوفيات، ٢/٢٣٤.

[٣] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٤٥.

[٤] ابن نباتة، الديوان، ص٤٠٨.

[٥] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٤٨.

[٦] المصدر نفسه، ص٥٠.

[٧] عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص٨٤.

[٨] الصفدي، أعيان العصر، ١/١٣٠.

[٩] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تعزّوا جميعَ النّاسِ عنه فكلّكمْ مُصَابٌ به من عالمينَ وَجاهلِ

وجاء الأمر دالاً على التمنّي، وذلك في قول نجم الدين بن صصري مخاطباً عيونه: [١]

وسيلي دَماً فالدّمْعُ ليس بنافعٍ غليلي ولا مُطْفٍ أوامَ مفاصلي

وخرج الأمر ليفيد معنى الدعاء حين دعا الشعراء لمرثيهم بالرحمة والسقيا، ومن ذلك قول ابن نباتة في رثاء ابنه: [٢]

ويا رحيماً دعاه واصل برحماك عَبْدَكْ

ويستخدم أبو الفضل محمد بن يوسف المصري الأمر الدال على النصح والإرشاد والدعاء في قوله: [٣]

يا صائراً هذا المصير ألا استفقْ من غَفْلَةٍ تردى وطول رُقاد

واعْمل لِنَفْسِكَ قبل سكناك الثّرى وتَصيرُ في لَحْدٍ من الألحادِ

لا تستطيعُ إذاً لنفسكَ حيلةً وأحذر إلهكْ فهو بالمرصادِ

أما أسلوب التمني فقد جاء معبراً عن آمال الشعراء ورغباتهم لحظة وقوع الحدث، فقد تمنوا الموت على الحياة، وتمنوا لو أنهم يستطيعون فداء مرثيهم بمهجهم ونفوسهم، ومن الأمثلة على ذلك قول شمس الدين الكوفي الواعظ: [٤]

يا ليتني قَدْ مِتُّ قَبْلَ فِراقكمْ ولساعةِ التّوْديعِ لا أحياني

وبرز التمني بصورة جلية في مراثي جمال الدين بن نباتة، ومن ذلك قوله: [٥]

لَيْتَ الرّدى إن لم يَدَعْكَ أهابَ بي حتّى نَدومَ معاً على مِضْمارِ

ليت اللّقا الجاري تَمَهّل وردُهُ حتّى حسبتَ عواقبَ الإضْمارِ

وفي قصيدة أخرى نظمها ابن نباتة في رثاء ابنه عبد الرحيم، تمنى الموت على الحياة، وتمنى لو أنه لم ينجب ذلك الابن فقال: [٦]

بنيّ ليتك لم تَعْرفْ ولاءك في حُبّي فَرُحْتُ بِدَمعي شاكيَ الغرقِ

وليت نَجْمَكَ لم يُشْرقْ على سَحَري ولَيْتَ بَرْقَكَ لم يُومض على أُفُقي

ما كان أقْصَرَ أوقاتٍ بك استُرِقَتْ فَلَيْتَ عُمْري مَقْطوعٌ على السَّرقِ

---

[١] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٣٣.

[٢] ابن نباتة، الديوان، ص١٥٧.

[٣] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٣٩.

[٤] الكتبي، فوات الوفيات، ٢/٢٣٤.

[٥] ابن نباتة، الديوان، ص١٣٨.

[٦] المصدر نفسه، ص٣٤٨، وانظر ص٥٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأساليب البارزة في مراثي العصر المملوكي الأول أستخدام مصطلحات العلـــوم، وقد حذر النقاد القدماء من استخدامها في الأدب عامة والشعر خاصة، وذلك لحرصهم على نقـاء لغة الشعر، ولأنها تضعف الصناعة الشعرية بجمودها وفراغها من النبض الإنساني[١].يقول ابـن سنان: "ومن وضع الألفاظ في مواضعها أن لا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور مـــن الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم، والألفاظ التي تختص بها أهل المهن والعلوم" [٢].

ولعل سبب استخدام الشعراء المصطلحات في مراثيهم يعود إلى "أنهم كـــانوا يمتـــهنون الكثير من المهن غير صناعة الشعر، فمنهم القاضي، والمفتي، والمحـــدث، والفقيـــه، والكـــاتب، والعالم في اللغة والنحو، وقراءة القرآن، ومن الطبيعي أن تنعكس الكثير من المصطلحات التـــي كانوا يستخدمون في أشعارهم" [٣]، هذا فضلاً عن ملاءمة استخدام تلـــك المصطلحـــات لبعـــض ألوان الرثاء، ومنها مراثي العلماء والأدباء على سبيل المثال، إلى جانب ذلـــك فـــإن اســـتخدام مصطلحات العلوم سمة بارزة في شعر العصر المملوكي، ومرد ذلك إلى الثقافة العلمية الواســـعة آنذاك، فقد أخذ الشعراء منها بنصيب وعكسوه في شعرهم [٤]، كما اتجهوا إلـــى النظـــم العلمـــي "فنظموا في الفقه والمواريث والأحكام المختلفة، وفي النحو والبلاغة والعروض، والتاريخ وغـــير ذلك".[٥]

وأشار السبكي إلى شيوعها وقتذاك، وأثر ذلك على الشعر حين تحدث عن علماء عصره فقال: "ومن العلماء طائفة استغرق حب النحو واللغة قلبها، وملأ فكرها، فأداها إلى التقعـــر فـــي الألفاظ، وملازمة حوشي اللغة،بحيث خاطب به من لا يفهمه" [٦].

ويضاف إلى الأسباب السابقة أن عدداً من نقاد العصر المملوكي قد استحسنوا زركشـــة لغة الشعر بمصطلحات العلوم [٧]، وجعلوا من استخدامها قانوناً يصدرون عنه في نقـــد الشـــعر، وحكمهم على تميزه.ومن الأمثلة على ذلك القصيدة التي نظمها شرف الدين الحصني في رثـــاء جمال الدين بن مالك، فقد طغت عليها المصطلحات النحوية، الأمر الذي جعل الصفدي يشيد بـــها وينظم على منوالها، فقال معبراً عن إعجابه بها: "وما رأيت مرثية في نحوي أحسن منها علـــى

---

[١] انظر د. عبد الفتاح عثمان، نظرية الشعر، ص١٠٧،١٠٨.

[٢] ابن سنان، سر الفصاحة، ص١٤١.

[٣] رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ١٨٣.

[٤] انظر محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، م ٨ ج١٣١/٤.

[٥] المصدر نفسه، م ٨ ج١٣١/٤.

[٦] انظر د. عبده قاقيلة، النقد الأدبي، ص٢٨٧، د. هنريت الصايغ، اتجاهات الشعر العربي، ص٤٢٦، رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ص١٨٣.

[٧] الصفدي، الوافي، ٣٦٤/٣، السيوطي، بغية الوعاة، ١٣٥/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طولها، ولي في شيخنا العلامة أثير الدين أبي حيان مرثيه تقاربه هذه[١]" ومما جاء في مرثية الحصني قوله:[٢]

يا شتاتَ الأسماءِ والأفعالِ بَعْدَ موت ابن مالك المفْضالِ
وانحراف الحروف من بعد ضَبْطٍ مِنْه في الانفصال والاتّصالِ
مصدراً كان للعلوم بإذن الـ ـلهِ من غير شبهةٍ ومُحالِ
عَدم النّعْتُ والتعطّف والتّو كيدُ مستبدلاً من الإبدالِ
ألمّ اعتراه أسْكَن مِنْه حركاتٍ كانت بغير اعتلالِ
رفعوه في نَعْشه فانتصَبْنا نَصْبَ تمييزٍ كيف سير الجبالِ

وكانت المصطلحات النحوية من أكثر المصطلحات شيوعاً في مراثي هذا العصر، فالشاعر صلاح الدين الصفدي استعمل حشداً منها في قصيدته التي رثى بها أثير الدين أبا حيان ومنها قوله: [٣]

أمْسى "منادىً" للبلى" مفرداً " "قَضَمّهُ " القبر على ما تَرى
يا أسفاً كان هُدىً "ظاهرا" فَعادَ في تربته "مُضْمراً"
وكان "جمعُ" الفَضْلِ في غير عَصْرِه "صحّ" فَلَمّا أنْ قَضَى كُسِّراً"
"وعُرِّف" الفَضلُ به بُرهَةً والآن لمّا أنْ قَضَى "ذكّرا"
وكان "ممنوعاً من الصّرفِ" لا يطرق من وافاه خَطْبٌ عَرا

وأكثر جمال الدين بن نباتة من استخدام مصطلحات النحو في مراثيه، ويتجلى ذلك في قوله:[٤]

كُنْتَ غوثَ الوجودِ حَقّاً ولكن ليس في النّاسِ عَنْك مِنْ "إبدال"
كُنْتَ دون الأنامِ عَوْناً على خفـ ـضِ حياةٍ لنا "بتمييز حالِ"

وقوله:[٥]

حتى إذ لاح "مَرْفوعاً"مدائدُهُ وراح ذيلُ علاه وهو "مجرور"
ما أعْجَبَ الدّهْر في حالي تقلّبه "وَصْلٌ" وصدٌّ و"تعريف" "وتنكير"

واستخدم الشعراء مصطلحات أدبية ، فالشاعر سراج الدين الوراق يستخدم مصطلحات "النظم"، و"القافية"، و"النثر"، في قوله:[٦]

---

[١] الصفدي، الوافي، ٣٦٣/٣، السيوطي، بغية الوعاة، ١٣٤/١-١٣٥، الكتبي، فوات الوفيات، ٤٠٨/٣-٤٠٩.

[٢] المصدر نفسه، ٣٦٣/٣، المصدر نفسه، ١٣٤/١-١٣٥، الكتبي، فوات الوفيات، ٤٠٨/٣-٤٠٩.

[٣] الصفدي، الوافي، ٢٨١/٥-٢٨٢، أعيان العصر، ٣٢٨/٥-٣٢٩، السيوطي، حسن المحاضرة، ٤٣٨/١، بغية الوعاة، ٢٨٤/١، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق ٥٠١/١-٥٠٢.

[٤] ابن نباتة، الديوان، ص٤٠٦.

[٥] المصدر نفسه، ٢٢١، الصفدي، الوافي، ١٣/٥-١٤، أعيان العصر، ٢٥٦/٥.

[٦] الصفدي، الوافي، ١٣/١٩، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٣٠٩/٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رثياك بالدرّ النّظيمِ فـــهذه للدالِ قافيـــةٌ وتلـــك الـــراءُ

وتوخّيا نثرَ العقيقِ مَدامعـــاً إذ كُنْتَ لم تُنْصَف بنظمِ رثاء

واستخدموا مصطلحات عروضية، ويتجلى ذلك في قول شهاب الدين بن العطار: [١]

بَدَتْ أجزا ابنِ عـــرامٍ خليـــلٍ مُقَطّعَةٌ من الضّـــربِ الثّقيـــلِ

وأبْدَتْ أبْحرُ الشّعرِ المراثـــي محـــرّرةٌ بتقطـــعِ الخليـــــل

فهو يستخدم مصطلحات "مقطعة"، "والضرب الثقيل"، "وبحور الشعر".

وقال برهان الدين القيراطي مستخدماً عدداً من أسماء بحور الشعر:[٢]

أفإن أصمّ صداك عنّي إنّ لي منك الصّدى "المهموزُ" و"المقصورُ"

وقول أحد الشعراء: [٣]

وأرى "حقيقةَ" عيشنا "كمجازها" ما أشْبَه الإيجادَ بالإعدامِ

وأكثر الشعراء من استخدام مصطلحات الحديث، وبرز ذلك بصورة جلية فـــي مراثـــي العلماء، ومن ذلك ما جاء في قول تقي الدين الدقوقي :[٤]

يشتاقه "الإرسال" في إسناده والنّسخ والمَنْسوخُ ثمّ المُحْكَمُ

وبكته عَنْعَنَةُ الحديثِ وطرفُهُ وبيان ما يحوي عليه المُعْجَمُ

وقول أبي الفضل يوسف بن محمد الكاتب:[٥]

من ذا يبينُ "مُرْسلاً" مـــن "مُسْـندٍ" أو مِنْ حديث عُـــدّ فـــي الإفـــرادِ

أو كان "مقطوعاً"، "ضعيفاً" مُعضـــلاً أو كان "موضوعاً" لـــذي إلحـــادِ

أو من يبين "منكـــراً" فـــي "متنِـــهِ" أو من يُعـــرّفُ "علّـــةَ الإســـنادِ"

واستخدموا الكثير من المصطلحات الفقهية، فالشاعر محيي الدين بن عبد الظاهر يستخدم مصطلحي "معجل"، و "مؤجل" في قوله: [٦]

قد جاءه الملكُ العقيمُ "مُعَجّلاً" وليَأْتيـــنّ إليه منـــه مؤجّلُ

ويستخدم صفي الدين الحلي مصطلحات "الجمع والقصر" ، "والحرام" في قوله:[٧]

فَتى يكرهُ التّقصيرَ حتّى تظنّهُ يكونُ "حراماً" عنده "الجمعُ والقصرُ"

---

[١] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ١٥١/١١.

[٢] القيراطي، الديوان، ص٢١، السيوطي، حسن المحاضرة، ٣٦٣/١.

[٣] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٤٥.

[٤] الكرمي، الكواكب الدرية، ص٢١٩.

[٥] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٣٨.

[٦] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٦.

[٧] الحلي، الديوان، ص٣٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستخدم عدد من الشعراء مصطلحات صوفية مثل "التجريد" ،و"التسليك"، و"المريد"، ويتجلى ذلك في قول ابن نباتة:[١]

إنْ يفقد المستفيدُ العِلْمَ من كلمٍ مُلكاً فَقَدْ فَقَدَ الصّوفيُّ تسليكا

وقول أبي المعالي القاسم بن أبي الحديد:[٢]

أُغفِلتْ بعده العلومُ وضاقَتْ طُرُق الفِقهِ على سلوك المريد

وأكثر الشعراء من استخدام المصطلحات الفلكية، وبرز ذلك بصورة جلية في مراثي ابن نباتة كما يبدو في قوله :[٣]

خَلَع الصّباحُ على المجرّةِ سَجْفَهُ أم قسّمت شمس النّهارِ دراري

أم غابَ مع طفلِ أخيرِ دجنتي لا كوكبي فيها ولا أسحاري

مالي وعتب الشّهب في تقديرها ولقد تُصاب الشّهبُ بالأقدار

لا عقرب الفَلْكِ اللّسوب [٤]من الوَدى ينجو ولا أسدُ البروجِ الضّاري

يرمي الهلالُ بقوسِهِ أرواحنا ولقد تُصابُ القوسُ بالأوتارِ

* * *

واستخدم عدد من الشعراء ألفاظاً ومصطلحات من واقع الصراع في العقيدة مع الصليبيين، وبرز ذلك بصورة جلية في مراثي أرباب الدول، ومنها ألفاظ "بيعة"، "كنيسة"، و"الناقوس"، ويتجلى ذلك في قول أبي الحسين الجزار في رثاء بيبرس:[٥]

وكمْ بَيْعةٍ قد جاءها وكنيسةٍ فغادرها بالمشرفيّةِ مَسْجدا

وكم خَلَفَ الناقوسَ فيها مؤذّنٌ وكم كرّر التّوحيدَ فيها وردّدا

ووردت ألفاظ "الإنجيل"، "والصلبان"،و"الأسقف"، في قول شرف الدين بن سليمان الإربلي:[٦]

ومقرّبُ الأملِ البعيدِ بفتحِهِ ومُبَعّدُ "الإنجيلِ" و "الصُّلبان"

وقول مجد الدين بن الظهير الإربلي :[٧]

لولاه دام وتلك أشنعُ خطّةٍ أبداً على الحكّام حكم الأُسقُفِ

ويستخدم ابن أبي حجلة التلمساني لفظة "التثليث" في قوله في رثاء الإسكندرية: [٨]

أقاموا على التّثليث فيها ثلاثة كمعبودهم في النّهبِ والقتلِ والأسْرِ

---

[١] ابن نباتة، الديوان، ص٣٦٧.

[٢] ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٣١١.

[٣] ابن نباتة، الديوان،ص٢١٩، وانظر ص١٩١،٣٤٨، الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص١٣٢، ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٩.

[٤] بمعنى لدغ انظر ابن منظور، لسان العرب، مادة "لسب".

[٥] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٣.

[٦] المصدر نفسه، ص٢٥٣.

[٧] المصدر نفسه، ص٢٦١.

[٨] النويري، الإلمام، ٢٥٦/٢، ابن حبيب، درة الأسلاك، ٤٥/٣، تذكرة النبيه، ٢٩١/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتسربت إلى اللغة العربية في العصر المملوكي الأول ألفاظ غير عربية من لغات عديدة أمثال: التركية، والمغولية، والأرمنية، وقد وجدت بعض تلك الألفاظ طريقها إلى اللغة الشعرية، ومنها لغة شعر الرثاء. ومنها لفظ "البشاخين[١]"، التي وردت في قول النويري مصوراً ما فعله الصليبيون في الإسكندرية: [٢]

والبشاخين والمساندَ أيضاً مع فرشٍ وثيرة الأجرامِ

واستخدم برهان الدين القيراطي لفظة "يزك"، وهي تركية بمعنى طلائع الجيش[٣]، فقال[٤]:

وكم أدارَ على حصن الهدى "يَزكاً" وقامَ في مرقبِ التّنزيهِ كالرّصَدِ

ونجد لفظة "رنك"، وهي لفظة تركية، وتعني الشعار الذي يتخذه الأمير لنفسه عند تسأمير السلطان له[٥]،في قول كمال الدين بن العطار في رثاء بيبرس:[٦]

أرخت ذوابلُهُ ذوائبها أسىً "ولِرنكه" وَجْهٌ عليه أصفَرُ

واستخدم شمس الدين بن دانيال لفظة "قربوس"، وهي لفظة تركية بمعنى حنوّ الفرس،[٧]، كما يبدو في قوله:[٨]

قالت النّاسُ قَبْلَها ما بلغنا أنّ بَحْراً يحوزه "قربوسُ"

وفي القصيدة ذاتها استعمل ابن دانيال حشداً من الألفاظ التركية فقال:[٩]

أسْمُر لركزكّ بين الأكواشي بسعي وهو كرٌ لكلّ خشنى يموسِ

ليس تُصمي كشّ المزّية إلا مِنْ مَها الرّصف أو فتى سالوسِ [١٠]

واستخدم الشاعر علاء الدين الأوتاري مجموعة من الألفاظ المغولية في قصيدته التي نظمها في رثاء دمشق سنة ٦٩٩هـ، فقال: [١١]

---

[١] ومفردها بشخانة، وهي بالفارسية بَشه خانه،وتعني "كلّة"، "ناموسية"، وزخارف السرير أو الغرفة لصيانة الحشايا والمخدات.دوزي، تكملة المعاجم العربية، مادة "بشخانة"، ٣٤٨/١.

[٢] النويري، الإلمام، ٢١٢/٢.

[٣] انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ٢٣/٧،٦١/٨،٣٩٣، ١١٣/١٠،٢١٢/١٢، ٤٥٧.

[٤] القيراطي، الديوان، ص٣٢.

[٥] انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ٦٣/٤.

[٦] الصفدي، الوافي، ١٧٢/٨.

[٧] الصفدي،، المختار من شعر ابن دانيال، ص١١٧، حاشية ٢٤٥.

[٨] المصدر نفسه، ص١١٧.

[٩] الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ص١١٤، الكتبي، عيون التواريخ، ٣٨٢/٢٠.

[١٠] فسر الصفدي معاني هذه المفردات بقوله: "لركزك: الوالي، الأكواشي، الرجال، خشنى: جاهل، يموس: معلم، كش المزية: آكل الحشيش، الرصف: الخلاعة، سالوس: عيّار". الصفدي المختار من شعر ابن دانيال، ص١١٤، حاشية (٣٢٧-٣٢٨).

[١١] النويري، نهاية الأرب، ٢٢٨/٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كاترُ آقجا كبر خوار أنْت ياغيه لمحمود غازان قا آن البلادِ [١]

ووردت لفظ "تكفور"، وهي بالأرمنية تاكفور، ومعناها الملك[٢]، في قول الصفدي: [٣]

وكم قد ساس في سيسٍ أموراً رأى "تكفورها" فيها الخبالا

الاتباعيّة

أشار النقاد العرب القدامى وهم يتحدثون عن الزاد الثقافي الذي ينبغي على الشاعر أن يتزود به إلى ضرورة الاهتمام بأشعار السابقين، والتعمق في دراستها، والإكثار من حفظها وتأمل الأساليب المتنوعة للشعراء الفحول الذين سبقوه، وترسم تقاليدهم الفنية الموروثة "حتى تنشأ عنده ملكة الشعر، وتقوى باحتذائه النماذج الجيدة، والنسخ في منوالها" [٤].

وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم، فليس على أحد فيه عيب إلاّ إذا أخذه بلفظه كله أو أخذه فأفسده، وقصر فيه عمن تقدمه [٥]، يقول أبو هلال العسكري: "ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم، والصب على قوالب من سبقهم، ولكن عليهم إذا أخذوها أن يكسوها ألفاظاً من عندهم، ويبرزوها في معارض من تأليفهم، ويوردوها في غير حليتها الأولى، ويزيدوها في حسن تأليفها، وجوده تركيبها، وكمال حيلتها ومعرضها" [٦].

وقد شاعت ظاهرة الاحتذاء والتقليد عند شعراء العصر المملوكي الأول، ومن يطالع كتب الأدب والنقد في ذلك العصر يدرك تلك الحقيقة، ويتبين له أن بعضهم رمي بالسرقة لشهرته في ذلك، ومن هؤلاء صلاح الدين الصفدي. يذكر ابن حجة أن الشاعر جمال الدين بن نباتة كان "يخترع المعنى الذي لم يسبق إليه، ويسكنه بيتاً من أبياته العامرة بالمحاسن فيأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي بلفظه، لم يغير فيه غير البحر"[٧]، الأمر الذي جعل ابن نباتة يضج من ذلك، ويؤلف كتابه المعنون بـ "خبز الشعير" ويعني أنه مأكول مذموم، ويبنيه "على قوله قلت أنا، فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال ..."[٨].

---

[١] يقول محقق كتاب "نهاية الأرب": "عرضنا هذا البيت على العالم الجليل موسى أفندي جار الله نزيل القاهرة ... فشرحه بما يأتي: كاتر: هات، آقجا: النقود، كبر خوار: كافر حقير غير كفاي، ياغيه: العدو الباغي، قا آن: كبير الملوك. ومعنى البيت :هات أيها الكافر الحقير الخراج أنت عدو لقاآن "خاقان البلاد محمود غازان"، انظر نهاية الأرب، ٥/٢٢٨حاشية (٣).

[٢] انظر، دوزي، تكملة المعاجم العربية، مادة "تكفور"، ٢/٥٥.

[٣] الصفدي، أعيان العصر، ١/١٣١.

[٤] د. عبد الفتاح عثمان، نظرية الشعر، ص٧٩، وانظر د. بدوي طبانة، السرقات الأدبية، ص٥١.

[٥] انظر العسكري، الصناعتين، ص٢١٨، ابن وكيع، المنصف، ١/١٠٢ وما بعدها،ابن حجة، خزانة الأدب، ٢/٢٦٠، د. بدوي طبانة، السرقات الأدبية،ص١٨٧.

[٦] العسكري، الصناعتين، ص٢١٨، وانظر د. بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية، ص١٧٢.

[٧] ابن حجة، خزانة الأدب، ٢/١٢١.

[٨] المصدر نفسه، ٢/١٢١، كشف اللثام، ص٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وممن هاجم الصفدي ورماه بالسرقة الشاعر ابن أبي حجلة التلمساني ، قال :[١]

إنّ ابن أيبك لـم تـزلْ سَـرِقاتُهُ تـأتي بكـلّ قبيحـةٍ وقبيـحِ

نَسَبَ المَعاني في النّسيمِ لِنَفْسِـهِ جـهلاً فـراحَ كلامُـه فـي الرّيـحِ

ورمي جمال الدين بن نباتة بالسرقة، فقد تتبع ابن حجة الحموي سرقاته، وقال فيه: "ومع علو قدر الشيخ جمال الدين بن نباتة، وهو الذي مشت ملوك الأدب قاطبة بعـد الفـاضل تحـت أعلامه تطفل على موائد الوداعي[٢] ومعانيه، وعلى الأنواع الغريبة من تواريه [٣] ".

إن الأمثلة السابقة [٤] تدل على شيوع ظاهرة الاحتذاء فـي ذلـك العصـر، وتبيـن أن الشعراء لم يكتفوا بتقليد سابقيهم، وإنما كانوا يأخذون المعاني من بعضهم، وينسبونها لأنفسهم.

ويؤكد شيوع تلك الظاهرة ما نجده في شعر الرثاء، إذ يتضح أن ناظميه كانوا مطلعيـن اطلاعاً واسعاً على التراث الشعري، فحذوا حذو سابقيهم من فحول الشعراء العرب عبر عصـور الأدب العربي المختلفة، وتأثروا بهم، وقلدوهم، واتخذ هذا التقليد سبلاً شتى:

ومنها أن كثيراً منهم نقلوا عبارات سابقيهم من الشعراء بلفظها ومعناها، وربما أجـروا عليها تعديلاً بسيطاً، كأن يقدموا ويؤخروا فيها، أو يباعدوا بين ألفاظها، ومن ذلك ما جـاء فـي قول برهان الدين القيراطي: [٥]

وأقلامُهُ قيد الأوابد لم يَزَلْ يقيّدُ منها كل صَعْبِ التّناولِ

فهو يأخذ عبارة "قيد الأوابد" من قول امرئ القيس : [٦]

وقد اغتدي والطّيرُ في وُكُناتها بمنجـردٍ قيد الأوابدِ هَيْكَلِ

ويأخذ الشاعر شهاب الدين بن فضل الله العمري عبارة "فتيت المسك" في قوله:[٧]

وسرى عليكَ من القبول مُعَطّرٌ يلقي فتيتَ المِسْكِ من أذياله

من قول امرئ القيس: [٨]

وتضحي فتيتُ المِسْكِ فوقَ فِراشِها نؤومُ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تفضُّلِ

ويبدو الشاعر صلاح الدين الصفدي في قوله: [٩]

---

[١] ابن حجة، خزانة الأدب، ٢/٦٥.

[٢] يقصد الشاعر علاء الدين الوداعي الكندي.

[٣] انظر ابن حجة، خزانة الأدب، ٢/١٠٨، كشف اللثام، ٥٦ وما بعدها.

[٤] لمزيد من الأمثلة انظر ابن حجة، خزانة الأدب، ٢/٢١٠،٣١٤، كشف اللثام، ص١٥٠.

[٥] القيراطي، الديوان، ص٢٠.

[٦] امرؤ القيس، الديوان، ص٥١.

[٧] ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٢/٢٣٤.

[٨] امرؤ القيس، الديوان، ص٤٥، الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص٣١.

[٩] الصفدي، الوافي، ١/٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جَرى الأسى عَبراتَي كالعقيقِ وقد أصمّ سَمْعي وأصْمى القَلْبَ ناعيهِ

وقوله : [١]

أصمّ نعْيكَ سَمْعي عن تَحقُّقِهِ وهانَ ما للّيالي من ملمّاتِ

متأثراً بقول أبي تمام:[٢]

أصمَّ بكَ النّاعي وإنْ كان أسْمَعا وأصْبَح مغنى الجودِ بَعْدَكَ بلْقَعا

وقال شرف الدين حسين: [٣]

ستُذْكَرُ عند المُعضلاتِ لِكَشْفِها كمثل افتقادِ البَدْرِ في الظُّلَمِ الحُلْكِ

فهو يقدم ويؤخر في قول أبي فراس الحمداني: [٤]

سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهُمُ وفي اللّيلة الظّلماءِ يُفتقدُ البَدْرُ

ويأخذ شمس الدين الكوفي الواعظ عبارة "الذكر الجميل" في قوله: [٥]

هو الحاكمُ العَدْلُ الذي شاع فَضْلُهُ فانْجَدَ بالذكّرِ الجميلِ واتْهَما

من قول المتنبي: [٦]

لحبُّ ابن عبد الله أوّلى فإنّه به يبدأُ الذّكرُ الجميلُ ويُخْتَمُ

* * *

وحذا الشعراء حذو سابقيهم في المعاني والصور، فأخذوا منها ما يتلاءم مع الموضوعات التي عبروا عنها ، وصوروها ، وبرز ذلك بصورة جلية في مراثيهم. فقد نهجوا نهج سابقيهم في المعاني والصور التي قدموها للموت، وذلك حين تحدثوا عن حتميته وعدله، وصوروه كأساً يدور على الخلق كلهم قويهم وضعيفهم، مليكهم وعامتهم وضربوا الأمثال على ذلك بالأمم البائدة والملوك السابقين أمثال عاد وتبع وإرم، وكسرى، وقيصر، والهرمزان، والزباء.

وحذوا حذو سابقيهم في نظرتهم للدهر، إذ عبروا عنه بصروف الليالي، وتصاريف الزمان، وصوروه عدواً لبني البشر، وجعلوا له أيد تختطفهم واحداً تلو الآخر.

وبرزت الاتباعية حين تحدثوا عن الدنيا، فبينوا أنها دار فناء لا أمان لها، ووسموها بالغدر والخيانة.

---

[١] الصفدي،الوافي، ٢٦٢/١٢.

[٢] التبريزي، شرح ديوان أبي تمام،٩٩/٤.

[٣] السبكي، طبقات الشافعية، ٤٠٧/٥.

[٤] أبو فراس، الديوان، ١١٠/٢.

[٥] اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٦/٣

[٦] البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ٩٦/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجاروا القدماء في رسم صورة مثالية للمرثي، فقد أضفوا عليه كل الصفات الحميدة التي يعتز بها العربي والمسلم منذ القديم مثل: الجود، والشجاعة، والحلم، والعفة، والزهد، والتقوى، وغيرها مما مر في ثنايا هذه الرسالة.

وأخذوا معاني سابقيهم وهم يصفون حزنهم ودموعهم الممتزجة بالدماء ، وحين صوروا أرقهم وتعاستهم، وأكبادهم الممزقة، وقلوبهم المشتعلة بنيران الحزن والأسى.

والأمثلة على هذا الضرب من التأثر كثيرة في مراثي هذا العصر، يتبين منها أن عدداً من الشعراء كانوا يقصدون احتذاء نماذج شعرية معينة، محاولين تقليدها، والاستفادة مما جاء فيها من معانٍ وصور. ومن ذلك ما جاء في القصيدة التي نظمها شمس الدين الهواري في رثاء شهاب الدين أبي جعفر الأندلسي، فقد عبر الشاعر عن علاقته المتينة بمرثيه، وشبهها بتلك العلاقة التي ربطت جذيمة الأبرش بندمانه، وتحدث عن سرعة الموت وزوال الدنيا وانقضائها، فقال: [١]

وكُنّا كندماني جُذَيْمةَ لم يَكُنْ ... بعضٌ علَيْنا للتفرق نابُ

فلم نَدْرِ إلاّ والتفرّق واقعٌ ... وقد سُدَّ من دون التّواصل بلبُ

كأنْ لم يكنْ مِنّا اجتماعٌ ولم نَبِتْ ... ومن بيننا للكشفِ منه كتاب

يتأثر الشاعر بالمعاني والصور التي قدمها مُتَمِّم بن نويرة في رثاء أخيه مالك:[٢]

وكَنّا كَنْدمانيّ جُذَيمة حِقْبَةً ... من الدّهرِ حتّى قيل لن نتصدّعا

وَعِشْنا بِخَيْر في الحياةِ وَقْبلَنا ... أصاب المنايا رهط كسرى وتبّعا

فلمّا تفرّقنا كأني ومالكاً ... لطولِ اجتماعٍ لم نبتْ لَيْلَةً معا

ويتأثر شهاب الدين العزازي بأبيات مُتَمِّم السابقة، فيحاول توظيف معانيها وصورها، في بيت واحد فيقول في رثاء الملك المنصور الثاني صاحب حماة: [٣]

نشا والنّدى تربيّ هوى ومودّةٌ ... فلمّا قضى نَحْبا قضى والنّدى مَعاً

وصور الشعراء المنية ذات أظفار ، وتجلى ذلك في قول شهاب الدين العزازي: [٤]

فَقَدْ جلّ خَطْبٌ تخطّا إليهِ ... بسوءٍ وأنْشَبَ ناباً وظفرا

وقول صفي الدين الحلي: [٥]

وللمنيّة أظفارٌ إذا ظَفرتْ ... رأيْتَ كلَّ عميدٍ وهو مَعْمودُ

---

[١] ابن العجمي، كنوز الذهب، ١/٤٧٢، الطباخ، أعلام النبلاء، ٥/٧٧-٧٨.

[٢] المبرد، التعازي والمراثي، ص١٦، القرشي، جمهرة أشعار العرب، ٢/٣٣٠.

[٣] العزازي، الديوان، ص٢٤.

[٤] المصدر نفسه، ص٩١.

[٥] الحلي، الديوان، ص٣٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وللمنيّة أظفارٌ إذا ظَفرتْ رأيْتَ كلَّ عميدٍ وهْو مَعْمودُ

وقول ابن نباتة: [١]

بينا الفتى راتعٌ بالأمنِ إذ بَرَزتْ أهلَةٌ بالمنايا ذاتُ أظفار

فهؤلاء الشعراء يتأثرون بالصورة التي رسمها أبو ذؤيب للموت، إذ قال في رثاء أبنائه:[٢]

وإذا المنيّة أنشبَتْ أظفارَها أُلْفيتَ كلّ تميمةٍ لا تَنْفَعُ

ويبدو الشاعر زين الدين بن الوردي، في قوله مصوراً شخصية كمال الدين بن العجمي: [٣]

تَتَصرّمُ الدّنيا وتأتي بَعْدَهُ أُمَمٌ وأنْتَ بِمِثْلِهِ لا تَسْمَعُ

متأثراً بقول أبي تمام في رثاء محمد بن حميد: [٤]

هيهات لا يأتي الزّمانُ بِمِثْلِهِ إنّ الزّمانَ بِمِثْلِهِ لبخيلُ

وبقول المتنبي في مدح سيف الدولة: [٥]

مَضَت الدّهورُ وما أتَيْنَ بِمِثْلِهِ ولقد أتى فَعَجِزْنَ عن نُظَرائِهِ

وقال الحلي رابطاً مصير الأمة بموت الملك ناصر الدين الأرتقي: [٦]

لم يَعْلَم العالمون ما فقدوا مِنْه ولا الأقربونَ ما عَدموا

ما فَقْدُ فردٍ في الأنامِ كَمَنْ إن ماتَ ماتَتْ لِفَقْدِهِ أُمَـــمُ

فهو يتأثر بالمعاني التي جاءت في قول أحد الشعراء: [٧]

لَعَمْرُكَ ما الرّزيّةُ فَقْدُ مـالٍ ولا شاةٌ تَموتُ ولا بَعـــيرُ

ولكنّ الرّزيّـــةَ فَقْـدُ قَـرْمٍ يموتُ لِمَوْتِهِ خَلْـقٌ كَثـيرُ

إن الأمثلة السابقة تؤكد أن احتذاء الشعراء كان واعياً مقصوداً، ويتبين منها أنهم أخفقـوا في التفوق على سابقيهم، فظلت أشعارهم أقل جمالاً وفنية.

وتأثر الشعراء بمعاني سابقيهم حين نظموا المنثور من كلامهم، ويتجلى ذلك فـــي قـول صلاح الدين الصفدي، في رثاء أخيه: [٨]

بأي خدّيكَ تبدّى البلى وأيّ عَيْنيك رَعى الدّودُ

---

[٥] الحلي، الديوان، ص٣٠٣.

[١] ابن نباتة، الديوان، ص٢٢٣.

[٢] القرشي، جمهرة أشعار العرب، ٢/٣٣٠.

[٣] ابن الوردي، الديوان، ص٤٢٩.

[٤] التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ٤/١٠٢.

[٥] البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ١/١٣٧.

[٦] الحلي، الديوان، ص٤٦.

[٧] ابن رشيق، قراضة الذهب، ٣٨-٣٩.

[٨] الصفدي، الوافي، ٥/٣٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو يأخذ شطره الأول من قول عمر بن عبد العزيز يعظ أصحابه، ويحذرهم من الموت وما بعده: "يا مُغْمِضَ الوالد والولد، وغاسله، يا مكفن الميت، ويا مُدْخله في القبر، وراجعاً عنه، لَيت شعري بأيّ خديك بدأ البلى". [١]

وقال ابن نباتة في رثاء تاج الدين بن الزيات: [٢]

وَقَدْ وَعَظَتْنا الحال منه كأنّهُ خطيبٌ رقى من صهوةِ النّعش منبرا

مواعظُ من حيث السكوت وإنّها لأبلغُ من نُطْقِ الفصيحِ إذا انبرى

فهو يأخذ معانيه من قول "خطيب من الخطباء حين قام على سرير الإسكندر وهو ميت، الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس"[٣] .

وينظم الشاعر ذاته عبارة عبد المطلب حين قدم أبرها لهدم الكعبة وهي : "إن للبيت رباً يحميه" في قوله: [٤]

لا تخشَ بيتَكَ أن يلوي الزّمانُ به "فإن للبيت رباً سوف يحميه"

* * *

ومن مظاهر الاتباعية المعارضات، وقد شاعت هذه الظاهرة شيوعاً كبيراً في مراثي هذا العصر، فقد أعجب الشعراء بقصائد نظمها فحول الشعراء السابقين في العصر الجاهلي والإسلامي والعباسي، فعارضوها محاولين إظهار براعتهم الشعرية وقدرتهم على الإبداع والتفوق، والتزموا فيها البحر والقافية، وحرف الروي، وتأثروا بمعانيها وألفاظها وصورها، وضمنوا بعض أبياتها، الأمر الذي يدل على أن معارضتهم واعية مقصودة.

ولم تكن معارضتهم لقصائد الرثاء فحسب، ولكنهم عارضوا قصائد نظمت في موضوعات أخرى، مثل الغزل والمديح والهجاء.

وكان أبو تمام والمتنبي أكثر شاعرين عارضهما الشعراء، وذلك لشهرتهما الفنية، وجودة مراثيهما، فهذا ابن رشيق يصف مراثي أبي تمام فيقول: "وأبو تمام من المعدودين في إجادة الرثاء". [٥]

ومن الجدير ذكره أن معارضة المتنبي وأبي تمام وتقليدهما لم يقتصر على شعراء المراثي، بل كان ظاهرة عامة في العصور المتأخرة [٦]، وبلغ الأمر بشعراء العصر المملوكي الأول أنهم انقسموا فريقين: فريق يقدم أبا تمام ويدافع عنه، وآخر يقدم المتنبي ويدافع عنه أيضاً،

---

[١] ابن الجوزي، مناقب عمر بن عبد العزيز، ص٢٥٧.

[٢] ابن نباتة، الديوان، ص٢٢٤.

[٣] الجاحظ، البيان والتبيين، ٨١/١.

[٤] ابن نباتة، الديوان، ص٥٧٣.

[٥] ابن رشيق، العمدة، ١٤٩/٢.

[٦] انظر د. عبد الجليل عبد الهدي، بيت المقدس، ص٢٨٥، د. هنريت الصايغ، اتجاهات الشعر، ص٤٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشاعر شهاب الدين العزازي في قصيدته التي رثى بها الملك المنصور الثاني صاحب حماة، ومطلعها [١]

ترى عَلِمَ النّاعي جَلالَةَ مَنْ نَعى وهل عَرَفَ الدّاعي إلى الموتِ مَنْ دَعا

يعارض قصيدة متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك ، ومطلعها: [٢]

لعمري وما دَهري بتأبين مالكٍ ولا جَزِعاً ممّا أصابَ فأوْجَعا

ويشير ابن أبي حجلة التلمساني إلى أن ابن نباتة في قصيدته التي رثى بها ابنه عبد الرحيم، ومطلعها:[٣]

الله جارُكَ إنّ دمعي جاري يا موحشَ الأوطانِ والأوطارِ

يعارض قصيدة أبي الحسن بن علي التهامي في رثاء ابنه ومطلعها: [٤]

حُكمُ المنيّةِ في البريّةِ جاري ما هذه الدُّنيا بدارِ قرارِ

والشاعر علاء الدين بن علي المعروف بابن قاضي اللاذقية في قصيدة رثى بها الظاهر بيبرس، ومطلعها: [٥]

دَهْرٌ خؤونٌ ووقْتٌ جائرٌ فينا ولا نرى فيه أياماً تصافينا

يعارض نونيه ابن زيدون "أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ..... "، ويتأثر بألفاظها، وصورها، ومعانيها، وينقلها من الحزن على فراق الحبيبة إلى الحزن على المرثي.

ففي قوله مخاطباً عيونه: [٦]

ولتنثري الدّرَ من دمعي المصون جوىً مُجْزّعاً بجُمانٍ من مآقينا

وقوله: [٧]

أو كُنْتَ تنظُرُ في الدّيجورِ حالَتَنا لكان يُشْجيكَ في الظّلما تأسينا

فهو يستمد معانيه وألفاظه من قول ابن زيدون: [٨]

بنتُم وبنّا فما ابتلّتْ جوانحُنا شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا

تكادُ حين تناجيكم ضَمائرُنا يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا

---

[١] العزازي، الديوان، ص٢٣٠.

[٢] القرشي، جمهرة أشعار العرب، ٢/٢٣٠

[٣] ابن نباتة، الديوان، ص٢١٧، ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص١٣٨.

[٤] ابن أبي حجلة، سلوة الحزين، ص١٣٤.

[٥] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٤.

[٦] المصدر نفسه، ص٢٥٤.

[٧] المصدر نفسه، ص٢٥٤.

[٨] ابن زيدون، الديوان، ص١٤٢-١٤٣، المقري، نفح الطيب، ٣/٢٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعارض عدد من الشعراء أبا العلاء المعري في غير قصيدة من قصائده ،ففي القصيدة التي نظمها شهاب الدين بن فضل الله العمري في رثاء والدة الإمام تقي الدين السبكي، ومطلعها:[١]

مُصيبةُ الفاقدِ في فقدهِ تَظْهَرُ للواحدِ في وَحْدِه

يعارض قصيدة أبي العلاء في رثاء ابن عمه جعفر بن علي بن المهذب، ومطلعها: [٢]

أحْسَنُ بالواجدِ من وَجْدِهِ صَبْرٌ يعيدُ النّارَ في زندِه

وعارض صفي الدين الحلي في قصيدة نظمها في رثاء أخيه، ومطلعها: [٣]

بكيتُ دماً لو كانَ سَكْبُ الدّما يُغْني وضاعَفْت حُزْني لو شَفَى كمدا حزني

قصيدة أبي العلاء في رثاء أبيه، ومطلعها: [٤]

نَقَمْتُ الرِّضا حتّى على ضاحِكِ المُزْن فلا جادني إلاّ عبوسٌ من الدَّجنِ

وعارض الشعراء أبا تمام في غير قصيدة من قصائده، ومنها أبياته المشهورة "السيف أصدق أنباء من الكتب .." ، وعلى الرغم من أن هذه القصيدة قيلت في مدح المستعصم، ووصف شجاعته، وفتحه عمورية، وما جرى فيها من قتال، إلا أن بعض الشعراء استطاع أن يستفيد من معانيها وصورها وتراكيبها وألفاظها، ويوظفها في شعر الرثاء، إلا أنه قصّر في الوصول إلى المستوى الفني الذي وصلت إليه قصيدة أبي تمام.

ومن هؤلاء ابن نباتة، فقد عارضها في قصيدة رثى بها تقي الدين السبكي، ومطلعها: [٥]

نعاهُ للفَضْلِ والعلياءِ والنّسبِ ناعيه للأرضِ والأفلاكِ والشُّهُبِ

وممن عارضوها تاج الدين السبكي في قصيدته التي رثى بها شمس الدين الذهبي، ومطلعها: [٦]

من للحَديثِ وللسّارين في الطّلَبِ من بَعْدِ موتِ الإمام الحافظ الذّهبي

وعارضها أحد الشعراء في قصيدة رثى بها أبا الفرج الموفق يعقوب بن القف النصراني الطبيب، ومطلعها: [٧]

يا مَأْتماً قد أتى بالويلِ والحَرَبِ رَمَيْتَ رُكْنَ الحِجا والعلمِ بالعَطَبِ

وعارض الحلي في قصيدة رثى بها الملك الناصر محمد بن قلاوون، ومطلعها: [٨]

وفى ليَ الدّمعُ إذ خانني الصّبْرُ وأنْجَدَ فيك النّظمُ إذ خُذِل الصبْرُ

---

[١] السبكي، طبقات الشافعية، ٥/٩٨.

[٢] المعري، ديوان سقط الزند، ص٧١.

[٣] الحلي، الديوان، ص٣٠٩.

[٤] المعري، ديوان سقط الزند، ص٥٨.

[٥] ابن نباتة، الديوان،ص٤١، السبكي، طبقات الشافعية، ٥/٣٩٧، السيوطي، حسن المحاضرة، ١/٢٧٩، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١/٥٥٦.

[٦] السبكي، طبقات الشافعية، ٩/١٠٩، السيوطي، ذيل طبقات الحفاظ، ص٢٣١.

[٧] الصفاعي، تالي وفيات الأعيان، ص٤٤.

[٨] الحلي، الديوان، ص٣١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قصيدة أبي تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي، ومطلعها: [١]

كذا فليجلّ الخَطْبُ وليَفْدحِ الأمْرُ فليسَ لِعَيْنٍ لم يفضْ ماؤُها عُذْرُ

ويتأثر الشاعر بكثير من المعاني التي جاء بها أبو تمّام، وضمّن بعض ألفاظها وأجـــزاء من أبياتها كما يتجلى في قوله: [٢]

توفيـت الآمـالُ بعـد محمـدٍ وأصبح في شُغْلٍ عَنْ السّـفَرِ السّـفْرُ

عليك سلامُ الله ما ذُكِرَ اسـمُكم وذلك بيـن النّـاسِ آخِـرُهُ الحَشْـرُ

واهتم الشعراء بأشعار المتنبي، فعارضوا غير قصيدة منـها، واتبعـوه فـي أوزانـها، وقوافيها، وحروف رويها، وضمنوا بعض أجزائها، وأبياتها، ونالت قصيدته "وا حر قلبـاه ممـن قلبه شبم ....." ، عناية الشعراء، فعارضها غير شاعر منهم. ويتجلى ذلك في قصيدة ابن نباتـة، التي نظمها في رثاء بدر الدين بن فضل الله العمري، ومطلعها:[٣]

بكى لك العاليانِ القدرُ والهِمَمُ والماضيان سنانُ الرّأي والقَلَمُ

ويبدو تأثر ابن نباتة جلياً في قوله:[٤]

والخَيْلُ واللّيْـلُ والبيـداءُ شـاهِدَةٌ والضّربُ والطّعْنُ والقِرْطاسُ والقَلَـمُ

عَمري لقد صَرَخَ النّاعونَ في رجبٍ فأسْمَعَ النّوح شَجْواً من بـه صَمَـمُ

وعارضها الصفدي في قصيدة رثى بها تقي الدين السبكي، ومطلعها: [٥]

أ هكذا جَبَلُ الإسلامِ يَنْهَدِمُ وهكذا سَيْفُه المسلولُ يَنْثَلِمُ

ويضمن الصفدي أبياتاً وأجزاء من قصيدة المتنبي، ويأخذ بعض ألفاظها، ويحاول تقليد معانيـها، وإبرازها في حلية جديدة، كما يبدو في قوله:[٦]

واللّيلُ والذّكرُ والمحرابُ شاهدةٌ والشّرعُ والحُكْمُ والتّصنيفُ والقَلَمُ

ويظهر من البحث في مراثي هذا العصر أن صلاح الدين الصفدي كـان أكـثر شـاعرٍ إعجاباً بالمتنبي، إذ عارضه في غير قصيدة، واستفاد من معانيه وصوره، ونقـل الكثـير مـن ألفاظه، وأجزاء قصائده، ففي القصيدة التي نظمها في رثاء موسى بـن يحيـى بـن فضـل الله العمري، ومطلعها:[٧]

---

[١] التبريزي، شرح ديوان أبي تمام،٤/٧٩.

[٢] الحلي، الديوان، ص٣١٩، ٣٢٢.

[٣] ابن نباتة، الديوان، ص٤٦٠.

[٤] ابن نباتة ، الديوان، ص٤٦٠، وانظر البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ٤/٨٣،٨٥،٨٧.

[٥] الصفدي، أعيان العصر، ٣/٤٥٠، السبكي، طبقات الشافعية، ٥/٤٠١.

[٦] المصدر نفسه، ٣/٤٥٠، المصدر نفسه، ٥/٤٠١.

[٧] الصفدي، أعيان العصر، ٥/٤٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قَد شبَّ جَمْرُ الأسى في القَلْبِ واشْتَعلا مُذْ قيل لي إنّ موسى قد قضى الأجلا

يعارض قصيدة المتنبي في مدح سعيد بن عبد الله بن الحسن الكلابي المنبجي، ومطلعها: [١]

حيَا وأيْسَرُ ما قاسيتُ ما قتلا والبينُ جارَ على ضعفي وما عَدَلا

وعارض الصفدي في قصيدة رثى بها الأمير ناصر الدين محمد بن جنكلي بن البابا،ومطلعها:[٢]

هي الأيّام ليس لها ذِمامُ وليس لها على عَهْدٍ دوامُ

قصيدة المتنبي في مدح المغيث بن العجلي: ومطلعها:[٣]

فؤادٌ ما تسلّيه المُدامُ وَعُمْرٌ مِثْلُ ما تَهَبُ اللّئامُ

وشاعت ظاهرة التضمين في مراثي هذا العصر شيوعاً كبيراً، وهي ما أطلق عليها النقاد الاجتلاب [٤]، أو الإيداع بمعنى "أن يودع الناظم شعره بيتاً من شعر غيره، أو نصف بيت، أو ربع بيت بعد أن يوطئ له توطئة مناسبة" [٥].

وقد اهتم شعراء العصر المملوكي ونقاده بالتضمين، فأعجبوا به، وأدخلوه في أنواع البديع، وعدوه علامة هذا الفن، ويبين ابن حجة أن المتأخرين من الشعراء أو الذين عبر عنهم بالفرقة "التي مشت تحت العلم الفاضلي، وتحلّت بالقطر النباتي" ، أضافوا إليه محاسن "ولم يرضوا بنقله مجرداً من التورية، أو ما يناسبها من أنواع البديع"[٦]

وكان التضمين مذهب بعض الشعراء في ذلك العصر، ومنهم مجير الدين بن تميم، يقول: [٧]

أطالعُ كلّ ديوانٍ أراهُ ولم أزْجرْ عن التّضمينِ طيري

أضمّنَ كلّ بيتٍ فيه معنى فشعري نِصفُه من شعر غيري

وقد ضمن شعراء المراثي أشعاراً لامرئ القيس، وحسان بن ثابت، وقريظ بن أنيف، وجرير، والفرزدق، وأبي نواس، وابن الرومي، وأبي تمام، والمتنبي، وأبي العلاء، وغيرهم وبرز التضمين بصورة جلية في المراثي التي نظمها صلاح الدين الصفدي.

وحاول الشعراء توظيف تلك الأشعار في التعبير عن مواقفهم المختلفة، إلا أن جلهم أخفقوا في جعلها جزءاً من قصائدهم، وأبياتهم، فلم تبد ملتحمة في النص، وإنما بدت غريبة عنه.

---

[١] البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ٢٨٢/٣.

[٢] الصفدي، أعيان العصر، ٣٨٢/٤، الوافي، ٣١١/٢.

[٣] البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ١٩٠/٤.

[٤] انظر ابن رشيق، قراضة الذهب، ص٨٥.

[٥] ابن حجة، خزانة الأدب، ٣١٢/٢.

[٦] المصدر نفسه، ٣١٢/٢.

[٧] ابن حجة، خزانة الأدب، ٣٢٨/٢، الكتبي ، فوات الوفيات، ٥٥/٤، الصفدي، الوافي، ٢٣٠/٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أمثلة ذلك قول برهان الدين القيراطي: [١]

فَقَدْناه فرداً في جريـــدةِ عَصْرِنـــا فحُزْنـــي مقيـمٌ مـــا أقـــام عَســـيبُ

فهو يضمن عجز قول امرئ القيس: [٢]

أجارتنا إن المَـــزارَ قَريـــبُ وإنّي مقيمٌ مـــا أقـــامَ عَســـيبُ

وقال صلاح الدين الصفدي: [٣]

أقول وقد أُنســـيتُ أُنســـي لِفَقْـــدِهِ "قفا نَبْكِ من ذكْرى حبيبٍ وعِرفـــانِ"

ونوحا على رَبْعِ الصّبا من شـبيبتي "وَرَسْمٍ عَفَتْ آياتُـــه مُنْـــذُ أزمـــان"

وكُفّا عناء الدَّمْعِ عنّي فقد حَـــوَى "أفانين جَرْيٍ غير كـــزٍّ ولا وانِ "

ولا تَحْقِلا بالسُّحبِ مِنْ بَعْدِهِ فقـــد "تعاور فيـــه كـــلُّ أوطـــف حَنّـــان"

فهو يضمن أعجاز أبياته من قول امرئ القيس:[٤]

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذكْرى حبيبٍ وَعِرْفـــانِ وَرَسْمٍ عَفَـــتْ آياتـــهُ مُنْـــذُ أزْمـــانِ

وَغَيْثٍ كألوانِ القَنَـــا قَـــدْ هِيْطَـــهُ تَعاوَرَ فيـــه كُـــلُّ أوْطَـــفَ حَنّـــانِ

على هَيْكلٍ يُعْطيـــكَ قَبْـــلَ سُـــؤالهِ أفانين جَـــرْيٍ غـــير كـــزّ ولا وانِ

وأعجب غير شاعر بصدر بيت الشاعر عمرو بن معدي كرب: [٥]

وكلُّ أخٍ مفارقه أخوه لعمر أبيكَ إلاّ الفَرْقدانِ

فضمنوه أعجاز أبياتهم، وبرز ذلك في مراثي الإخوة، ومنهم زين الدين بن الوردي إذ قال فـــي رثاء أخيه: [٦]

أزال فِراقه لذّات عَيْشي "وكلُّ أخٍ مُفَارقـــه أخوه"

وصلاح الدين الصفدي في رثاء أخيه: [٧]

وكيف يَلَذّ للعقلاء عَيْشٌ "وكلُّ أخٍ مُفَارقه أخوه"

وقال صلاح الدين الصفدي: [٨]

وكُنْتَ إذا دَجا لَيْلُ القَضَايـــا وكانَت مِنْ مَـــهمّات جِسَـــامِ

تُفرّجُها بِقَول مِنْـــك فَصْـــل "لأن القَوْلَ ما قَالتَ حَـــذَامِ"

---

[١] القيراطي، الديوان، ص٢٠٣.

[٢] امرؤ القيس: الديوان، ص٧٩.

[٣] الصفدي، الوافي، ٥/٣٣٢-٣٣٣.

[٤] امرؤ القيس، الديوان، ص١٧٣، ١٧٤.

[٥] المبرد، التعازي والمراثي، ص٨٥.

[٦] ابن الوردي، الديوان، ص٣٧٢، تاريخ ابن الوردي، ٢/٣٤٢.

[٧] الصفدي، الوافي، ٥/٣٣٦.

[٨] الصفدي، الوافي، ١٠/٤٣٥، أعيان العصر، ٢/١٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو يضمن في عجز بيته الثاني عجز الشاهد النحوي المشهور:[١]

إذا قالت حَذَام فصدّقوها فإنّ القَولَ ما قَالَت حَذَام

وقال ابن نباتة في رثاء الملك الأفضل:[٢]

نَهَضْتَ فما قُلْنَا سيادة مَعْشر تداعَتْ ولا بنيانَ قَوْمٍ تَهدّما

فهو يضمن عجز البيت الذي نظمه عبدة بن الطبيب في تأبين قيس بن عاصم:[٣]

فَما كان قيسٌ هلْكُهُ هلْكَ واحدٍ ولكنّه بنيانُ قَوْمٍ تَهَدّما

وضمن الشاعر صلاح الدين الصفدي في عجز بيته: [٤]

مَنْ للظّلام إذا نَام الأنام غدا "يُقطّع اللّيل تَسْبيحاً وقرآنا"

عجز بيت حسان بن ثابت في رثاء عثمان بن عفان:[٥]

ضحّوا بأشْمَط عِنْوانُ السّجود به يُقطّع اللّيل تسبيحاً وقرآنا

وضمن محيي الدين بن عبد الظاهر بيت الشاعر الحسين بن مطير الأسدي، وذلك حين وصف عزاء الظاهر بيبرس، فقال:[٦]

فتى عيشَ في معروفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ كَما كانَ بَعْدَ السّيل مَجْراه مَرْتَعا

وضمن غير شاعر عجز بيت للفرزدق ورد في قصيدته التي نظمها في مدح زين العابدين بن علي، يقول: [٧]

هذا الذي تَعْرفُ البَطْحاءُ وَطْأتَهُ والبيت يَعْرفهُ والحلُّ والحَرَمُ

ويتجلى ذلك في قول الصفدي:[٨]

قُلْ للعِدا إن جَهِلْتم قَدْرَ رتبته "فالبيت يَعْرِفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ"

وقول شهاب الدين بن فضل الله العمري:[٩]

هذا الذي نَشِدَ المُخْتارُ هِجْرته "فالبيت يَعْرِفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ"

كما ضمن غير شاعر بيت جرير أو عجزه:[١٠]

إنّ العيونَ التي في طرفِهَا حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثم لم يُحيينَ قَتْلانا

---

[١] ابن عقيل، شرح ابن عقيل، ٩٤/١.

[٢] ابن نباتة، الديوان، ص٤٢٩.

[٣] ابن رشيق، العمدة، ١٥٣/٢، قراضة الذهب، ص٣٨.

[٤] الصفدي، أعيان العصر، ٤٢٩/٢.

[٥] حسان بن ثابت، الديوان، ص٤٦٩.

[٦] ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ١١٥/٤، المقريزي، الخطط،٣٣٤/٤، ابن رشيق، العمدة، ١٤٨/٢.

[٧] الفرزدق، الديوان، ٨٤٨/٢.

[٨] الصفدي، أعيان العصر، ٤٥٠/٣، السبكي، طبقات الشافعية، ٤٠١/٥.

[٩] الصفدي، اعيان العصر، ٥٣/٤.

[١٠] جرير، الديوان،١٦٠/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنهم صلاح الدين الصفدي في قوله: [١]

مِثْل العيونِ التي في طَرْفِها حَوَرٌ "قَتَلْنَنَا ثمّ لم يُحيينَ قَتْلانا"

وشرف الدين حسين في قوله: [٢]

إنّ الخُطوبَ التي ساقَتْ منيّتَهُ "قَتَلْنَنَا ثم لم يُحيينَ قَتْلانا"

وضمّنوا أشعاراً لأبي نواس، ففي قول عفيف الدين التلمساني: [٣]

لقد أجْفلت غرُّ المسائلِ بَعْـــدَه وعهدي بها من قبلُ وهي أوانـسُ

تطاردُ منهنّ الشّـــرودَ كأنّـــها "مها تدرّيها بالقســـيّ الفـــوارسُ"

فهم يضمّن عجز بيت أبي نواس: [٤]

قرارتُها كِسرى وفي جَنَباتها "مها تدرّيها بالقسيّ الفوارسُ"

ويضمن الصفدي في قوله:[٥]

وكأنّ قبرَكَ للعيون إذا بدا "قَصْرٌ عليه تَحيَّةٌ وَسَلامُ"

صدر قول الأشجع السلمي: [٦]

قصرٌ عليه تَحيّةٌ وَسَلام نثرتْ عليه جمالَها الأيّامُ

---

[١] الصفدي، أعيان العصر، ٤٣٠/٢.

[٢] المصدر نفسه، ٤٣٢/٢.

[٣] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٥٢.

[٤] أبو نواس، الديوان، ٨/٢.

[٥] الصفدي، الوافي، ٣٥٣/١٧، الكتبي، فوات الوفيات، ٢٠٨/٢.

[٦] د. خليل الحسون، أشجع السلمي حياته وشعره، ص٢٥٢.

ولمزيد من الأمثلة على التضمين انظر ابن نباتة، الديوان، ص٤٢، ١٠٠، الصفدي، أعيان العصر، ١٣٧/١، ٥٢٠، الوافي، ٣٦٦/٣، ٢٢٠/٩، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٥٢/٣، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٣٢٧/٢، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ٣٠٩/٧، الكتبي، فوات الوفيات، ٥٥/٤، السبكي، طبقات الشافعية، ٣٩٩/٥، السيوطي، حسن المحاضرة، ٢٨٠/١، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١ /٥٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصّنعة البديعية

شاع البديع في العصر المملوكي شيوعاً كبيراً، وأضحى " غاية من الغايات التي يُنظم الشعر من أجلها، وهدفاً من الأهداف التي يتبارى الشعراء ويتنافسون في سبيل الإجادة فيها، وبلوغ الغاية منها [١]"، "وكان ذلك على حساب المعاني والأفكار في الكثير من الأحيان" . [٢] وقد أدى ولعهم بالبديع إلى زيادة عدد أنواعه، فوصلت إلى أكثر من مئة وأربعين نوعاً [٣] ، كما أدى إلى ابتكار فنّ البديعيات التي التزم فيها قائلوها بأن " يكون كلّ بيت منها شاهداً على نوعه بمجرّده، وليس له تعلق بما قبله، ولا بما بعده " . [٤]

ويعود شيوع هذه الظاهرة في أدب ذلك العصر إلى أسباب عديدة، منها أسباب اجتماعية، فقد كان الناس في العصر المملوكي متأثرين بمظاهر عصرهم، وبآيات حضارته التي كانت مزدانة، تجنح نحو الترف، والزخرف المبالغ فيها، الأمر الذي جعل الأدباء منهم يتوجهون " إلى الزخرفة والتنميق والصنعة" . [٥]

وساعدت الحياة الثقافية آنذاك على الجنوح نحو هذه الظاهرة، فقد تأثر الأدباء بمذاهب المتقدمين في هذه الصناعة، أمثال الحريري، والقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، فساروا على دربهم، وحاكوهم في الإكثار منها. [٦]

وعلى الرغم من أن البديع كان هو الغالب على أهل العصر المملوكي كما يقول ابن خلدون[٧]، إلا أنه وجدت طائفة من النقاد والأدباء ثاروا على الإفراط في استخدام فنونه، فاشترطوا " أن تقع من غير تكلف، ولا اكتراث فيما يقصدونه منها... لأنها إذا برئت من التكلف سلم الكلام من عيب الاستهجان، لأن تكلفها ومعاناتها يصير إلى الغفلة عن التراكيب الأصيلة للكلام، فتخل الإفادة من أصلها، وتذهب بالبلاغة رأساً على عقب، ولا يبقى في الكلام إلا تلك التحسينات" [٨]، كما اشترطوا " الإقلال منها، وأن تكون في بيتين أو ثلاثة من القصيد، فتكفي في زينة الشعر ورونقه" [٩]، يذكر ابن خلدون أن أبا القاسم الشريف السبتي، وهو أحد علماء اللغة والأدب في وقته، كان يقول : "هذه الفنون البديعية إذا وقعت للشاعر أو الكاتب، فيقبح أن يستكثر منها لأنها من محسنات الكلام ومزيناته، فهي بمثابة الخيلان في الوجه يحسن بالواحد والاثنين

---

[١] د. محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك،٤/ ١٥٠، وانظر عبده قلقيلة، النقد الأدبي، ص ٢١٧، د. محمد كامل الفقي، الأدب في العصر المملوكي، ص ١٣٧، د. محمود سالم، المدائح النبوية، ص٤٢٢.

[٢] د. عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس، ص ٢٩٤ .

[٣] انظر ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير، ابن حجة، خزانة الأدب .

[٤] ابن حجة، خزانة الأدب، ٣٤٩/١.

[٥] د. عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس، ص ٢٩٥.

[٦] انظر د. محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ٤/ ١٤٩، ٣٨٨، د. عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس، ص ٢٩٥، أحمد الهيب، الجانب البديعي، ص ٨.

[٧] انظر ابن خلدون، المقدمة، ٣/ ١٣٢٠ .

[٨] المصدر نفسه، ٣/ ١٣٢٠.

[٩] المصدر نفسه، ١٣٢١/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منها، ويقبح بتعدادها"[١]، ويبين ابن خلدون أن أصحاب الأذواق في البلاغة في عصره، كانوا يسخرون من كلف الأدباء بالفنون البديعية، ويعدون ذلك من القصور عن سواه" [٢]، وينقل عن أستاذه الشيخ أبي البركات البلفيقي، " وهو من أهل البصر في اللسان والقريحة" ،قوله : ".. إنّ من أشهى ما تقترحه عليّ نفسي أن أشاهد في بعض الأيام من ينتحل فنون هذا البديع في نظمه ونثره، وقد عوقب، بأشد العقوبة، ونودي به" [٣] .

وإذا نظارنا إلى مراثي هذا العصر، فإننا نجد في هذا المجال تيارين :

تيار أسرف في استخدام الفنون البديعية، فطغت الزخرفة اللفظية على المضامين والمعاني التي أراد التعبير عنها، الأمر الذي أدى إلى التعقيد والتكلف، وتيار آخر وهو الغالب، أكثر من استخدامها، إلا أنها كانت كما يقول ابن الأثير "كالغرة في الوجه" [٤]، لا أثر لها على المعاني التي عبر عنها.

وشغف أدباء ذلك العصر بفنون بديعية أكثر من غيرها، فاستحوذت على اهتمامهم، ومنها التورية والجناس، الأمر الذي أدى إلى ظهور مذاهب خاصة فيها لها مؤيدوها.

أما التورية، فقد أطلقوا عليها السّحر الحلال [٥]، وعدّوها من أغلى فنون الأدب، وأعلاها رتبة[٦]، وادّعوا أنه ما تنبه لمحاسنها إلاّ المتأخرون من الشعراء والكتّاب[٧]، ويعلل الصفدي "حسن التورية عند المتأخرين بسهولة اللّغة، واستعمال اللفظ المشهور دون الغريب فيخفّ على السمع، ويصل الذهن إلى معناه، فيرشفه دون مشقة [٨] " .

وقد انخرط في سلك التورية عدد كبير من شعراء مصر والشام في العصر المملوكي، وتنافسوا في الإتيان بكل بديع منها، ومن هؤلاء الشعراء سراج الدين الوراق، وأبو الحسين الجزار، والنصير الحمامّي، وناصر الدين بن النقيب، وشمس الدين بن دانيال، ومحيي الدين بن عبد الظاهر، وابن نباته،وعلاء الدين الوداعي الكندي،وبرهان الدين القيراطي،وشهاب الدين بن أبي حجلة التلمساني، وابن الوردي، وشمس الدين بن العفيف التلمساني، وشرف الدين الأنصاري، وابن حجة الحموي، وغيرهم [٩] .

---

[١] ابن خلدون، المقدمة، ٣/١٣٢١.

[٢] المصدر نفسه، ٣/١٣٢٠.

[٣] المصدر نفسه، ٣/١٣٢٠ – ١٣٢١.

[٤] انظر ابن الأثير، المثل السائر، ١/٤٩ وما بعدها .

[٥] انظر ابن حجة، خزانة الأدب، ٢/٢١٠، كشف اللثام، ص ١٥.

[٦] المصدر نفسه، ٢/٤٠، المصدر نفسه، ص ٤.

[٧] الصفدي، فض الختام،ص ١٢١، ابن حجة خزانة الأدب، ١/١٢٢، كشف اللثام، ص ٤، ٧ .

[٨] الصفدي، فض الختام، ص ٤٩، ١٢٤.

[٩] انظر الصفدي، فض الختام، ص ١٢٤ – ١٣٢، الوافي، ٢/ ٤٤، أعيان العصر، ٣/ ٦٧٧ – ٦٧٨، ابن حجة، كشف اللثام، ص ١٤، ٥٨، ٨٥، ٨٦، خزانة الأدب، ١/١٢٢، ١٢٣، ٢/٤٣، ١٠٧، ١٠٨، ١٥٥، الغزولي، مطالع البدور، ١/٩٠، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١ ق١/٥٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووقفت أسباب عديدة وراء شيوع هذا المذهب عند أولئك الشعراء،فالصفدي يرد ذلك إلى البيئة الطبيعية الجميلة في مصر والشام، وهذا له أثر على مزاج الشعراء، فجعلهم يتميزون بالخفة والمرح والطرب [١].

واتسم الأدب في العصر المملوكي الأول بروح السخرية والفكاهة والنقد، ومن هنا كانت حاجة الأدباء إلى التورية ليتمكنوا من التعبير عمّا يختلج في نفوسهم، وعمّا يعانونه من مرارة في العيش دون أن يتعرضوا لبطش الحكام ورجال الدولة، ولهذا برع فيها أرباب الحرف أكثر من غيرهم أمثال : الورّاق، والجزار، وابن دانيال، والنصير الحمامي، وساعدتهم بدائعهم وألقابهم في نظمها " حتى قيل للسراج الورّاق : لو لا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك" [٢] .

وبرزت التورية بصورة جلية في مراثي جمال الدين بن نباته، وبرهان الدين القيراطي، وهم من رواد حلْبتها في ذلك العصر. ومن ذلك ما جاء في قول ابن نباتة موظفاً المظاهر الحضارية في صنعها : [٣]

والجامعُ الرَّحْبُ أضحى صدرُهُ حَرِجا والنّسرُ ضمَّ جناحيهِ من الرّهبِ

جاءت التورية في لفظة " النسر" فالمعنى القريب لها هو النسر الحقيقي لوجود شيء من لوازمه، وهو " ضمّ جناحيه". أما المعنى البعيد وهو المقصود، فقبة النسر في الجامع الأموي.

ويوظف ابن الوردي مظاهر الطبيعة في صنع التورية، فيقول في رثاء قاضي القضاة في حماة نجم الدين بن العديم: [٤]

قد كان شمسُ الدّينِ شمْساً أشْرَقَتْ بحماةَ للدّاني بها والقاصي

عَدِمَتْ ضياء ابن العديمِ فانْشدَتْ مات المطيعُ فيا هلاكَ العاصي

فهو يوظف اسم نهر حماة " العاصي" في توريته، وقد أعجب ذلك الشوكاني صاحب كتاب " البدر الطالع"، فقال معلقاً على الأبيات: " وما أحسن التورية في قوله: فيا هلاك العاصي لأنّ في حماة نهراً يقال له العاصي" [٥].

ووظف الشعراء أسماء المرثيين في التورية، جاء ذلك في قول صلاح الدين الصفدي في رثاء شمس الدين الذهبي : [٦]

لمّا مضى شيخُنا وعالمُنا ومات فنُّ التاريخ والنَّسبِ

قلتُ عجيبٌ وحقّ ذا عَجَبٌ كيف تخطّى البلى إلى الذّهبِ

---

[١] انظر العسقلاني، نفح الخاتم، ص ١٤٣.

[٢] ابن حجة، خزانة الأدب، ٢/٤٨، كشف اللثام، ص ١٧، الغزولي، مطالع البدور، ، ١/٩٠.

[٣] ابن نباته، الديوان، ص ٤١، السبكي، طبقات الشافعية، ٥/٣٩٨، السيوطي، حسن المحاضرة،، ١/ ٢٧٩.

[٤] ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/ ٢٩٥، ابن حجر، الدرر الكامنة، ٣/ ٢٦٦، الشوكاني، البدر الطالع، ٢/ ٢٤٨.

[٥] الشوكاني، البدر الطالع، ١/ ٢٤٨ .

[٦] العسقلاني، أعيان العصر، ٤/ ٢٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتلاعب الصفدي باسم مرثيه " زين الدين بن الوردي" ، فيقول : [١]

لئن ذوى الـوردي فـي هـذه الد دنيا لـقد أينـعَ فـي الـخُـلْـدِ
والعلمِ روضٌ مـالـه رونَـقٌ لأنّـهُ خـالٍ مـن الـوردي

فهو يوري في لفظة " الوردي" ، فالمعنى القريب لها نبـات الـورد، لوجـود " أينـع"، و"الروض"، أما المعنى البعيد وهو المقصود، فمرثيه ابن الوردي.

واستغل عدد من الشعراء الشخصيات التاريخية في تورياتهم مثل شـخصيات الملـوك، والخلفاء، والفقهاء والمحدّثين واللّغويين [٢]، ويتجلى ذلك في قول شهاب الدين بن العطـار فـي رثاء صدر الدين بن التركماني قاضي الحنفية : [٣]

وفاتُكَ صَـدْرَ الدّينِ قاضي قُـضاتِنا قـد اغبرّ مـن زَهْـرِ العلومِ أنيقُهُ
وقطّب بعد الضّحْكِ وجـهاً وكيف لا يقـطّب والنّعمانُ مـات شـقـيقُهُ

وقول صفي الدين الحلي في رثاء ناصر الدين الأرتقيّ: [٤]

وكيف جارَ عَلَيْـكَ الدّهـرُ مُعْتديـاً أما تعلّـمَ مِنْـكَ العَـدلَ يـا عُمَـرُ

أما الجناس، فكان الصفدي أكثر ناقد وأديب ولوعاً بـه، إذ ألّـف فيـه كتابـه " جنـان الجناس"، أشاد فيه بهذا الفنّ، وجعله في المحلّ الأعلى من البديع، وأطلق عليه السحر الحـلال[٥]، وراح يتكلّفه في شعره، ويأتي منه بما يثقل على الآذان، وينفر منه المتلقّون، الأمر الـذي جعـل بعض نقاد عصره وأدبائه يثورون عليه، ويعيبون عليه كلفه به، وفي مقدمة هؤلاء ابـن حجـة الحموي الذي قال : "وكان الشيخ صلاح الدين الصفدي يستسمن ورمه، ويظنه شـحماً، فيشـبع أفكاره، ويملأ بطون دفاتره، ويأتي فيه بتراكيب تخفّ عندها جلاميد الصخور[٦]، وهـاجم ابـن حجة أصحاب هذا المذهب في عصره، وذلك في معرض حديثه عـن التوريـة، وحثـه علـى استخدامها في الأدب، فرأى "أن الفرقة الناجية من التعسف والتكلف في النظم لم ترض بالجنـاس إذا أمكنت التورية[٧]". وهاجم ابنُ نباتة الصفدي، فقد ذكر ابن حجة أن هذا الشاعر لمّـا وقـف على كتاب الصفدي "جنان الجناس"، "قرأه جنان الخناس"، فجرى بينهما بسبب ذلك مـا يطـول شرحه" [٨].

---

[١] الصفدي، أعيان العصر، ٣/ ٦٧٩.

[٢] انظر القيراطي، الديوان، ٢٥، ٥٠، السيوطي، حسن المحاضرة، ١/ ٣٦٥.

[٣] ابن حجر، رفع الإصر عن قضاة مصر، ص ٣٧٤.

[٤] الحلي ، الديوان، ص٢٩٤

[٥] انظر الصفدي، جنان الجناس، ص ٧ .

[٦] ابن حجة، خزانة الأدب، ١/ ٥٥ – ٥٦، كشف اللثام، ص ٦.

[٧] المصدر نفسه، ١/ ٦٩ .

[٨] ابن حجة، خزانة الأدب، ١/ ٥٦، كشف اللثام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتحدث النقاد عن قيمة الجناس في العمل الفني، فبينوا أنه إذا جاء غير متكلف أو مقصود في ذاته تمّ به المعنى، وظهر حسنه [١]، ويذهب عبد القادر الجرجاني إلى أن " ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان هناك اللفظ وحده كان فيه مُستحسن، ولما وجد فيه إلا معيب مستهجن، ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به" [٢].

ويعود جمال الجناس إذا لم يكن متكلفاً إلى ذلك الجرس الموسيقي الصادر عن تكرار الكلمات المتماثلة تماثلاً تاماً أو ناقصاً، الأمر الذي يزيد من تأثير الكلام ووقعه في نفس المتلقي[٣]. كما يعود جمال الجناس وتأثيره إلى "ما فيه من إيهام النفس أن الكلمة المكررة ذات معنى واحد، فإذا أمعن المرء فيها النظر ، رأى للكلمتين معنيين مختلفين، فيدفع ذلك إلى الإعجاب بالشاعر الذي اهتدى إلى هذا الاستخدام".[٤]

وقد أدى استخدام كثير من شعراء الرثاء للجناس إلى توفير العنصر الموسيقي في مراثيهم وإلى زيادة جمالها، وتأثيرها في النفوس، وجعل المتلقي مشاركاً في إستجلاء المعاني، ومحاولة التفريق بينهما، خاصة في الجناس التام الذي تشابهت أصوات كلماته، واختلفت معانيها. والأمثلة على ذلك كثيرة، ومن ذلك ما جاء في قول صفي الدين الحلي [٥]:

وَبَكَتْ لـه أهلُ الثّغور وطالما ضَحِكَتْ لِدَسْتِ المُلْكِ منه ثُغورُ

وقول محيي الدين بن عبد الظاهر: [٦]

تَعْساً لها مِنْ نَكْبَةٍ وافى بها يومُ الخميس إلى الخَميسِ تولولُ

وقال شمس الدين الكوفي الواعظ في رثاء بغداد: [٧]

عندي لأجْلِ فِراقكم آلامُ فإلامَ أعذل فيكمُ وأُلامُ

من كان مِثلي للحبيبِ مفارقاً لا تعذلوه فالكَلامُ كِلام

فهو يجانس بين " آلام "، و" إلام "،و" أُلام "، والكَلام "، و" الكِلام "،وعلى الرغم من كثرة الجناس في هذين البيتين، إلاّ أنه لم يكن له أثر على المعاني التي عبر عنها الشاعر، وعلى العكس من ذلك، فإنّ تكرار المفردات السابقة، وما فيها من حروف مدّ أتاحت له التعبير عن آهاته وأحزانه، وزادت من القيمة الموسيقية في أبياته.

---

[١] انظر ابن رشيق، العمدة، ٣٢٩/١.

[٢] الجرجاني، أسرار البلاغة، ص٥.

[٣] انظر أحمد موسى، الصبغ البديعي، ص٣٠، علي الجندي، فن الجناس، ص٢٩، ٣٠، د. عبد الواحد الشيخ، البديع والتوازي، ص٣٤،٣٢.

[٤] د. أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي، ص ٤٥-٤٧٦.

[٥] الحلي، الديوان، ص٣٢٧، ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٣٢٤/٢.

[٦] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٤٥، الدواداري، كنز الدرر، ٢١٦/٨.

[٧] الكتبي، فوات الوفيات، ٢٣٢/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليهنك أنّ الدّمْعَ بَعْدكَ مُطْلَــقٌ لِفَرطِ الأسى والقَلْبُ بالهمِّ في سـجْنِ

فهو يطابق بين " مطلق " و " سجن "

ويوظف الشاعر شهاب الدين بن فضل الله العمري الطباق ليقابل بين ابن تيميّه وأعدائـه، فيقول[١]:

أيذهبُ المَنْهلُ الصافي وما نقعتْ به الظّمــاءُ ويبقــى الحمــأةُ الكَــدَرُ

فهو يطابق بين " المنهل الصافي " ، و " الحمأة الكدر ".

ويكثر الطباق في قول أحد الشعراء[٢]:

أرى حقيقــة عَيشــنا كمجازهــا مــا أشــبه الإيجــادَ بــالإعدامِ

فهو يطابق بين " حقيقة " ، و " مجاز " ، و " إيجاد " ، و " إعدام ".

وزاد الطباق في مراثي هذا العصر من التوقع، بمعنى أن المتلقي حيــن يســمع اللفظــة الأُولى، يتوقع الكلمة المضادة لها، فكلّ لفظة من ألفاظ الطباق تستدعي الإتيان باللفظة المضــادة لها، ويتجلى ذلك في قول نجم الدين بن صصري [٣]:

تنزّه عــن دنيــاه يرجــو إلهــه فعوّضــهُ عــن عــاجلاتٍ بــآجِلِ

فلفظه " عاجلات " تستدعي " بأجل".

وجاء الطباق عند بعض الشعراء متكلفاً، وهذا ما نلمحه بجلاء في مراثي صلاح الديــن الصفدي، وخاصة حين وظف مصطلحات العلوم في صنعه، ومن ذلك قوله[٤]:

يــا أســفاً كــان هــدىً ظــاهراً فعــادَ فــي تربتــهِ مُضْمــرا

أفديه من مــاضٍ لأمــر الــرّدى مُسْــتقبلاً مــن ربّــه بــالقرا

فهو يطابق بين " ظاهراً " ، و " مضمراً " و " ماضي " ، و" مستقبلاً ".

ومن الفنون البديعية التي برزت في مراثي هذا العصر " حسن التعليل "، ويتجلــى ذلــك في قول صلاح الدين الصفدي في رثاء كمال الدين بن ريّان الطّائي[٥]:

يُمْنــاهُ قَــدْ بَــرَتْ يَراعــاً كأنّــهُ السَّــيفُ فــي المضــاءِ

ووَشّــعَتْ طِرْسَــها ووَشّــتْ بالزّهرِ مــن أحــرفِ الــهجاءِ

غَلِطْــتُ فيمــا أراه حَقّــاً إذ ليــس والزّهــر بالسّــواءِ

لأنّ زهــرَ الرّيــاضِ يــذوي وذا يُــرى دائــمَ الــرّواءِ

---

[١] المقريزي، المقفى، ٤٧٦/١

[٢] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٥.

[٣] المصدر نفسه، ص ٣٤.

[٤] السيوطي، بغية الوعاة، ٣٨٥/١، حسن المحاضرة، ٤٣٨/١، ٤٣٩ وانظر الصفدي، الوافي، ٥/ ٣٣٤.

[٥] الصفدي، أعيان العصر، ٧٥/١، ابن حبيب، تذكرة النبيه ، ١٩٣/٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول ابن الوردي في رثاء ابن تيمية[١]:

هُـمْ حَسـدوه لمّـا لـم ينـالوا مَناقِبه فَقَـدْ مَكَـروا وشـاطوا

* * *

واستخدم الشعراء اللفّ والنّشر " ، وهو " أن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد،وهـذا هـو اللّف، ثم تذكر أشياء على عدد ذلك، كلّ واحد يرجع إلى واحد من المقدّم من غير تعيين ثقة بـأن السّامع يردّ كلّ واحد إلى ما يليق به، وهذا هو النّشر"[٢].ومن ذلك ما جاء في قول ابن نباته[٣]:

وهمّةٌ بين خدّام العُلـى نَشَـأتْ فاللّفظُ والعرضُ ريحانٌ وكـافورُ

فاللفظ ريحان، والعرض كافور.

وقول الصفدي[٤]:

ويـدٌ جودُهـا يفـوقُ الغـوادي تلكَ ماءٌ هَمَـتْ وذا صـبٌّ مـالا

فالماء للغوادي ، والمال لليد.

ومن الفنون البديعية التي استعان بها الشعراء " الاكتفاء " ، وهو " أن يأتي الشاعر ببيـت من الشعر وقافيته متعلقة بمحذوف، فلم يفتقر إلى ذكر المحذوف لدلالة باقي اللفظ عليه، ويكتفـي بما هو معلوم في الذّهن، فيما يقتضي تمام المعنى، وهو نوع ظريف ينقسم قسمين، قسـم يكـون بجميع الكلمة، وقسم يكون ببعضها، والاكتفاء بالبعض أصعب مسلكاً، لكنـه أحلـى موقعـا[٥]. وتكمن قيمة الاكتفاء في أن المتلقي يشارك الشاعر في عمله الفني، فلا يكون مستقبلاً لهذا العمـل فحسب، ومثال ذلك قول علاء الدين بن غانم[٦]:

مـا عـمّ رزءٌ مِثْـلَ رزءك فـادحٌ أضحى به كلّ الأنام علـى شـفا

فهو يقصد" على شفا جرف هار".

وقال تقي الدين الدقوقي[٧]:

ماتَ الصدّيقُ ومـات مَـنْ عادَيتـهُ وتموتُ أنْتَ كمثلِـهِ وكـأن قـد

بمعنى " قد لم تكن ".

ومثله قول بهاء الدين الإربلي[٨]:

وجاشتْ إليّ النفّـسُ حُرْقـاً ولوْعَـة فَقُلْتُ تعزّي واصبري فكأن قـد

---

[١]. ابن الوردي، الديوان، ص ٢٦٦.

[٢]. ابن معصوم، أنوار الربيع، ٣٤١/١، وانظر ابن حجة، خزانة الأدب، ١٤٩/١.

[٣]. ابن نباته، الديوان، ص ٢٢١.

[٤]. الصفدي، أعيان العصر ، ٤٤٨/٣.

[٥]. ابن حجة، خزانة الأدب، ٣٨٢/١.

[٦]. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ١٢٩/٤.

[٧]. الكرمي، الكواكب الدرية، ص ٢١٦.

[٨]. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص ٣٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الفنون البديعية المستخدمة " التوشيع " ، وهو " أن يتكلّم المتكلّم أو الشاعر باسم مثنى في حشو العجز، يأتي بعده باسمين مفردين هما عين ذلك المثنى، يكون الآخر منهما قافية بيته. أو سجعه كلامه كأنهما تفسير له"[١]. ومن ذلك ما جاء في قول سراج الدين الوراق[٢]:

شُقّت جيوبُ القوافي والقلوبُ معاً واستشعر الماضيان الخوفُ والجَزَعا

وبرز هذا الفن بصورة جليّة في قول صلاح الدين الصفدي[٣]:

وهكذا كلّ ميّتٍ حلّ في جدثٍ بكى له الفاقدان العلْمُ والكرمُ
وقد نعى العَدلُ منه سيرةً كَرُمتْ يُحفُّها الزّاهرانِ الحِلْمُ والنّعمُ
والوُرقُ تُملي لنا في وَصفهِ خُطَباً يُقلّها المنبرانِ البانُ والسّلمُ
ولو أراد الأعادي كتْمَها اعترفتْ بفضلها الشاهدانِ العُرْبُ والعَجَمُ

إن استخدام التوشيع في الأبيات السابقة أضفى عليها قيمة جمالية ، تركّزت في نهاية كلّ بيت منها ، كما أدى إلى توفير العنصر الموسيقي فيها، ومرد ذلك إلى تكرار صيغة المثنى والمفرد المنتهي في الغالب بحرف الميم، والمتفق بعدد الحروف.

* * *

ومن الفنون البديعية التي برزت بجلاء في مراثي هذا العصر " الكلام الجامع " ، وهو "أن يأتي الشاعر ببيت مشتمل على حكمة، أو وعظ، أو غير ذلك من الحقائق التي تجري مجرى الأمثال ويتمثل الناظم بحكمها أو وعظها، أو بحالة تقتضي إجراء المثل " [٤]. وقد وجد الشعراء الرثاء ميداناً واسعاً لهذا الفن البديعي، وجاء بصورة بارزة حين تحدّثوا عن الحياة والموت والدهر والزمان، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها قول ناصر الدين بن النقيب [٥].

والخَوْفُ عَونٌ للشّجاعِ على الجبا ن مُساعِدٌ والوَهْمُ ممّا يَقْتُلُ
مالي أراك أطَلْتَ غيبةَ غائبٍ ما يُرتَجى مِنه كتابٌ مُرْسَلُ
وكذاك مَنْ أمسى بلحدٍ ثاوياً سيقيمُ في غيباتِهِ ويَطولُ

يتساءل الشاعر عن غيبة مرثيه الطويلة، ويسأل سؤال من يتجاهل المعرفة، ولكنه يجيب بأن ذلك أمر طبيعي ، يشمل كلّ الذين اختطفهم الموت، وأضحوا في قبورهم جاثمين.

ويتجلى ذلك الفن في قول صفي الدين الحلي إذ صور الناس كقطع النقود، يتفاوتون في قيمتهم[٦].

---

[١]. ابن حجة، خزانة الأدب، ٣٧٢/١.

[٢]. الصفدي، الوافي ، ٥٣/١٢.

[٣]. الصفدي، أعيان العصر، ٤٥٠/٣، السبكي ، طبقات الشافعية، ٤٠١/٥.

[٤] ابن حجة، خزانة الأدب، ٢٥١/١.

[٥] ابن شداد ، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٩.

[٦] الحلي، الديوان، ٢٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنّاسُ كـــالعَينِ إن نَقَدتَـــهُمُ تفـاوتَتْ عنـــد نَقْـــدِكَ القيـــمُ

* * *

واستخدم الشعراء فنوناً بديعية أخرى كان لها دور في تشكيل الإيقاع الموسـيقي، ومـن تلك الفنون ، الموازنة، ورد العجز إلى الصدر، والتقسيم، والتعديد ، ولزوم ما لا يلزم.

أما الموازنة، فهي أن "يكون صدر البيت الشعري وعجزه متسـاوي الألفـاظ وزنـاً[١]" وتحدث ابن الأثير عن قيمة هذا الفن في نفوس المتلقين، فقال: " وللكلام بذلك طـلاوة ورونـق وسببه الاعتدال، لأنه مطلوب في جميع الأشياء، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة، وقعـت مـن النّفس موقع الاستحسان[٢]"، ومن ذلك قول صلاح الدين الصفدي [٣]:

فليسَ بـاغي معاليـه بـذي ظَفَـرٍ وليـس راجـي أياديـهِ بمـردودِ

وقول ابن نباته [٤].

يا ضلالي من بَعـد ذاك المحيّـا وافتقـاري مـن بعـد ذاك النّـوالِ

ويجمع شمس الدين الكوفي الواعظ بين الموازنة والطباق في قوله[٥]:

فحزنُك كـلّ يـوم فـي انتقـاصٍ وَحُزنـي كـلَّ يـومٍ فـي ازديـادِ

واستخدم الشعراء التصدير أو ما يسمى "برد العجز إلى الصدر"، في مواطن كثيرة مـن أشعارهم، ومن ذلك ما جاء في قول ابن الوردي: [٦]

وكنّا في "الصّـدور" لـه حَفَرنـا ومثل البدرِ يُحفَـرُ فـي "الصّـدور"

إن تكرار لفظة "الصدور" أضفى قيمة موسيقية على البيت، وأكد مكانة المرثي في قلـوب أبناء مجتمعه.

ويبرز ذلك في قول صفي الدين الحلي: [٧]

فمفرَدُهـا مـن نـثرِ سَـيْفِكَ تـوأمٌ وتوأمُها من نَظْمِ رُمْحِكَ مُفْـوَدُ

وبرز التقسيم بصورة جلية في مراثي هذا العصر، وهو فنّ يعمل على توفـير إيقاعـات ناتجة عن الوقفات التي نلاحظها عند قراءة النص، وعن استيواء مقادير الجمل المقسمة، واتفاقـها أحياناً في الوزن، وتكرار قوافيها، هذا فضلاً عن اتخاذها شكلاً نحوياً واحداً في بنائها، وهذا مـا نلمحه في قول محمد المنبجي البزاز: [٨]

---

[١] ابن الأثير، المثل السائر، ٢٧٢/١.

[٢] المصدر نفسه ، ٢٧٢/١.

[٣] الصفدي ، أعيان العصر ، ٤٤٨/٣.

[٤]. ابن نباتة، الديوان، ص ٤٠٧.

[٥]. ابن الفوطي، الحوادث الجامعة ، ص ٣٨٨.

[٦] ابن الوردي، الديوان، ص٤٠٧.

[٧] الحلي، الديوان، ص٣٢٨.

[٨] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أضْحى على الدّنيا لِفَقْـــدِكَ وَحْشَـــةٌ ما اعتادها من قبـــل ذا أربابُـــها
مســـــوّدةٌ أيامُـــــــها متغـــــيّرٌ أحوالُـــها مُسْـــتَوْحِشٌ مِحْرابُـــها

وقول شهاب الدين الزرعي: [١]

فالحزنُ وقـــفٌ والدّمـــوعُ طليقـــةٌ والوَجْدُ باقٍ والســـــرورُ مـــودّعُ

وقول تاج الدين السبكي: [٢]

كالزّهرِ في حسبٍ والزّهر فـــي نسَـــبٍ والنّهر في حدبٍ والدّهرِ في رُتَـــبِ

أما التعديد، فهو "عبارة عن إيقاع منفرد على سياق واحد، فإن روعي في ذلـــك ازدواج، أو مطابقة، أو تجنيس، أو مقابلة، فذلك الغاية في حسن النسق [٣]"، وكذلك لهذا الفن البديعـــي دور كبير في إبراز الموسيقى الداخلية في مراثي هذا العصر، وزاد من بروزها أن بعـــض الكلمـــات جاءت متفقة في وزنها، وحرفها الأخير ، ويتجلى ذلك في قول برهان الدين القيراطي:[٤]

أبكيـــكَ للإســـلامِ والأحكـــام والأ قـــلام والإحســـانِ والإيمـــانِ

وقول شهاب الدين الصفدي: [٥]

تبكـــي عليـــك مَحـــافلٌ وجحـــافلٌ ومنـــاصلٌ وذوابـــلٌ وقصـــورُ

ومنه قول شرف الدين بن سليمان الإربلي: [٦]

يا جامعاً شَـــمْل المكـــارم والعُلـــى والعِلْمِ والمعـــروفِ والإحســـانِ

واستخدم الشعراء "لزوم ما لا يلزم" في مراثيهم، فساهم هذا الفن في توفـــير الموســـيقى الداخلية فيها، وقد دعا ابن الأثير إلى أن يكون هذا الفن عفوياً غير متكلـــف، "فـــإن الألفـــاظ إذا صدرت فيها عن سهولة خاطر، وسلاسة طبع، وكانت غير مستجلبة، ولا مكلفة، جـــاءت غـــير محتاجة إلى التآلف، ولا شك أن صورة الخلقة غير صورة التخلق [٧]"، ومن ذلك ما جـــاء فـــي القصيدة التي نظمها الشاعر أحد الشعراء في رثاء النووي، إذ التزم فيها بحرف الواو قبل قافيـــة القصيدة يقول [٨] :

---

[١] ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٥٦٨/٢.
[٢] السبكي، طبقات الشافعية، ١١١/٩.
[٣] ابن حجة، خزانة الأدب، ٣١١/٢.
[٤] القيراطي، الديوان، ص٥٨.
[٥] الصفدي، أعيان العصر ١٨٧/٤٠.
[٦] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص٢٥٧.
[٧] ابن الأثير، المثل السائر، ٢٦٩/١.
[٨] ابن العطار، نزهة الإمام النووي، ص٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولو لم تكن جارَ الحمى مـــا شـــاقني بَـــرْقٌ يضـــيءُ بِسَـــفْحِهِ ويلـــــوحُ
فلأبكينّـــــك بالدّمـــــاء إذا قضـــــى دمعـــي عليـــك صبابـــةٌ وأنـــــوحُ
ولو ارْعويتُ شـــرحتُ رُزئـــي إنّمـــا عندي لِمخْتصر الخُطـــوب شـــروحُ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصورة الشعرية

الصورة الشعرية هي المنبع الأساسي للشعر [١]، وهي " فكرة وشعور، ولغة، وموسيقى، وخيال"[٢]، تنقل إحساس الشاعر إلى المتلقي، فتثير انفعاله، وتؤثر في فكره ووجدانه، بحيث تجبره على الاستجابة العاطفية أو النفسية المطلوبة[٣] .

وقد أكثر شعراء الرثاء منها، واستعانوا بها في نقل أفكارهم وأحاسيسهم، واعتمدوا في صنعها على التشخيص والتجسيم والوصف، مستخدمين ضروب علم البيان من تشبيه واستعارة وكناية. وهذه الضروب كما يرى عبد القاهر الجرجاني "تكسب المعاني نبلاً وفضلاً، وتوجب لها شرفاً، وأن تفخمها في نفوس السامعين، وترفع أقدارها عند المخاطبين" [٤]، كما أنها تهدف إلى الإيضاح " إذ ترى الجماد ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية" [٥] وأتكأوا على الأساليب التصويرية عند أسلافهم، ولجأوا أحياناً إلى التوليد والابتكار أو إلى إلباس الصورة لباساً جديداً ضمن الإطار التصويري الموروث.

واستمدوا صورهم من مظاهر الطبيعة الصامتة والمتحركة، وكان عالم الحيوان والطيور ميداناً رحباً استقوا منه صورهم الدالة على معانيهم، فقد صوروا المرثي بالأسد لشجاعته وقوة بأسه، ومن ذلك ما جاء في قول علاء الدين علي المعروف بابن قاضي اللاذقية في رثاء بيبرس: [٦]

مُحَمَّدٌ ناصرٌ للدّين ليثٌ وغىً مُمَكَّنٌ في العُلا والمَجْدِ حامينا

ويقارن الصفدي بين مرثيه الأمير سيف الدين تنكز وبين أعدائه، فيصوره ليثاً في الشجاعة والإقدام، ويصورهم أنعاماً في جبنهم وفرارهم أمامه، يقول : [٧]

إذا قيل هذا اللّيثُ وافى مضوا هَرَباً كأمثالِ النّعام

وشبه الشعراء أعداء المسلمين من مغول وصليبيين وقادتهم بالكلاب لخستهم ودنائتهم[٨]، واعتمدوا على صور الحيوان حين رثوا الاسكندرية، وتحدثوا عن عدد الصليبيين وعدتهم، فشبهوا خيولهم الضخمة بالأنعام [٩]، وسفنهم المتحركة في الماء بالأفاعي الملتوية [١٠]، كما صوروا جيشهم القادم إلى تلك المدينة بالجراد المنتشر في الحصيد، ويتجلى ذلك في قول النستراوي: [١١]

---

[١] انظر سي دي لويس، الصورة الشعرية، ص ٢٠.

[٢] الأخضر عيكوس، مفهوم الصورة الشعرية قديماً، ص ١٧ .

[٣] المرجع نفسه، ص ٨٠، وانظر ص ٦٨ .

[٤] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ١٠٩ .

[٥] الجرجاني، أسرار البلاغة، ص ٣٣.

[٦] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٥.

[٧] الصفدي، الوافي، ١٠/٤٣٥، أعيان العصر، ٢/ ١٣٧.

[٨] انظر النويري، الإلمام ٢/ ٢١٧، ٣/ ٢١٩، ٤/ ١٧٢، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ٨/ ١٠٢.

[٩] انظر النويري، الإلمام، ٢/ ٢١٤.

[١٠] انظر ص ٢٠٠من هذه الرسالة .

[١١] النويري، الإلمام، ٤/ ١٧٤.

٥٤٢٣٣٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد كانوا غداةَ دَخَلوا كجرادٍ في حصيدٍ مُنْتشر

ويصور الصفدي البشر في الحياة الدنيا وغفلتهم عن الموت كالذود في المرعى غافلة عن جزاريها، يقول : [١]

والموتُ يقظانٌ لهذا الورَى وكلّنا في غفْلةِ النّائم

كالذّودِ في المرعى به غفْلةٌ عن مُلْتَقى جزّارهِ الغاشمِ

وصور الشاعر ذاته شوقه لمرثيه بشوق الطائر إلى الماء بعد عطش كثير، يقول : [٢]

وكُنْتُ في شوقٍ كطيرٍ قد انـ ـقضّ إلى مَنْهَلِهِ حائمِ

وصور أبو العباس أحمد الضرير الواسطي حالة حزنه عقب مرثيه بالطائر الواقع في الشرك لا يستطيع الخلاص منه، فقال : [٣]

أصْبَحْتُ مِنْ بَعْدِهِ كالطّيرِ تَلْتَمِسُ النـ ـنهوض أنّى وقد هيضَ الجناحانِ

واستوحى الشعراء صورة الحمائم الباكية على إلفها، وذلك حين قرنوا حزنهم وشجوهم بحزنها وشجوها، ومن ذلك قول محمد بن سليمان الجعبري: [٤]

فدموعي مثلُ الغمامِ انسجاماً ونُواحي في اللّيل مثلُ القُماري

واعتمد الشعراء بصورة جلية على مظاهر الطبيعة الصامتة في تشكيل صورهم، فقد صوروا المرثي بحراً في جوده،وعلمه،وفضله،ويتجلى ذلك في قول ابن فضل الله العمري:[٥]

بَحْرٌ من العِلْم لا تَرقى له قِنَنٌ فَغاضَتْ الأبحُرُ العُظمى وما شعروا

وقول نجم الدين بن صصري : [٦]

لقد كان بحراً للفضائلِ طامياً غزيرَ عُبابٍ ما لَهُ من سواحلِ

واستوحى الشعراء صورة البحر حين صوروا جيوش المسلمين وأعدائهم، ومن ذلك قول أبي الحسين الجزار في رثاء بيبرس: [٧]

أتاها وقَدْ جاسَ العدوُّ خِلالَها بجيش يحاكي جَمْعُهُ البَحْرَ مُزبدا

ويصور النستراوي جيش المسلمين القادم لنجدة أهل الإسكندرية بالمطر، وفي ذلك دلالة على الخير العميم الذي سيحل على أهلها بقدومه، يقول : [٨]

لم يكن إلاّ قَليلٌ وَصَلوا بجيوشٍ ليس تُحصى كالمَطَر

---

[١] الصفدي، أعيان العصر، ٤/ ٢٨٠.

[٢] المصدر نفسه، ٤/ ٢٨٢.

[٣] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٣.

[٤] ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ٢/ ٢٢٥.

[٥] المقريزي، المقفى، ١/ ٤٧٦، الكرمي، الكواكب الدرية، ص ١٨٤.

[٦] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ١، ٣٤.

[٧] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٣.

[٨] النويري، الإلمام، ٤/ ١٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصور الشعراء دموعهم الغزيرة بالنيل والغمام، ويتضح ذلك في قول ابن نباته: [١]

بكَرتْ علـــى مثـواكَ أدْمُـعُ نـائحٍ كـالنّيلِ ذات وفـــاً وذات منـــادي

وقول شافع بن علي الكاتب : [٢]

وأضْرمتْ في الحشا ناراً توقّد مـــع فَيْضِ المدامع مثل العارضِ الـــهَطلِ

وصور الشعراء من يرثونهم بالغيث في الجود، والطود في الحلم، والنســيم والريــاض الخضراء في الخلق والرقة واللطف، ويتجلى ذلك في قول مجد الدين أبي العباس البغدادي:[٣]

كان كـــاللّيثِ فـي النّوائـب فتكـاً كـان كـــالغيثِ بـــالمواهبِ هـــامِ

وقول ابن نباته: [٤]

وطودُ حلمٍ مـــن بعـد مـا زحمـت وكـرَ السّماءِ ونسـريها معاليكـــا

وقول الصفدي: [٥]

ولُطـفٍ كالنّسـيم أتـى رياضـــاً فـــهبّ علـــى أزاهرهـــا شـــمالاً

وقول شهاب الدين محمود الحلبي: [٦]

وخلائقٌ كـــالرّوض دَبجَـهُ الحيـا أُصُـلا فوشّـى حلّتيـــه ووشّـــعا

واستعار الشعراء صورة الثريا، والزهرة، والنجم، والشمس، والقمـر، والـهلال، حيـن صوروا حسن المرثي وجماله [٧]، والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها ما جاء في قول برهان الديـن القيراطي:[٨]

لـهفي علـى ذاك الـهلالِ الـذي شـقّتْ لـه السّحبُ ثيـابَ الدّجـونِ

وقوله في رثاء ابنه عبد الرحيم: [٩]

بالرّغمِ إن باتَ بدرُ الأُفـق مُعْتليـاً وبات بـدري مدفونـاً علـى الطّـرقِ

وشخّص الشعراء مظاهر الطبيعة، فصوروها حزينة على مرثيـيـهم، تـذرف الدمـوع الغزيرة وتلطم الخدود، وترتدي ملابس الحداد، ويتجلى ذلك في قول الصفدي : [١٠]

بكى الغمامُ بدمْعِ الوُدْقِ مُـذْ عقَـدتْ حمائمُ البـانِ مـن شـجوي مناحـاتِ

---

[١] ابن نباته، الديوان، ص ١٦٠.

[٢] شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص ١٤٢، الفضل المأثور، ص ١٧٧.

[٣] الكرمي، الكواكب الدرية، ص ١٩٥.

[٤] ابن نباته، الديوان، ص ٣٦٨.

[٥] الصفدي، أعيان العصر، ١/ ١٣٠.

[٦] المصدر نفسه، ١/ ٣٢٣.

[٧] انظر العزازي، الديوان ، ص ٩٢، ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٣، ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ٢/ ٣١٩، ص ٢٠٣، ص ٣٩٨، ابن حبيب، درة الأسلاك، ١/ ١٨٢، الحلبي، الديوان، ص ٣٢١، ابن نباته، الديوان، ص ٧٣، ٥١٦، القيراطي، الديوان، ص ٤٠.

[٨] القيراطي، الديوان، ص ٢٠ – ٢١.

[٩] ابن نباته، الديوان، ص ٥١٨.

[١٠] الصفدي، الوافي، ١٢/ ٢٦٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولطَّم الرّعدُ خدَّ السّحبِ وانتشرتْ ذوائبُ البرقِ حُمْراً في الدّجنّاتِ

وكان للواقع الحربي الذي عاشه المسلمون في ذلك العصر أثر كبير في الصورة الشعرية، فقد صور الشعراء العلماء بالسيف المسلط على رقاب الأعداء، وصوروا أقلامهم في مضائها بالرماح يوم النزال، ويتجلى ذلك في قول برهان الدين القيراطي : [١]

فردٌ مضى في ذوي الأهواءِ مَنْطِقُهُ يوم الجدالِ كسيفِ الصّيقلِ الفَرْدِ

وقول ابن نباته : [٢]

أين ملْكُ الأقلامِ يوم انتصارٍ كعوالي الرّماحِ يوم النّزال

وصور الشعراء أدوات الحرب والقتال باكية حزينة، وبرز ذلك في مراثي أرباب الدول، فالشاعر كمال الدين بن العطار يصور القسي والسيوف قد انحنت عقب موت الظاهر بيبرس، ويجعل من موتها أنيناً وتوجعاً، فيقول : [٣]

بَكَت القسيُّ لِفَقْدِهِ حتى انثنتْ ولها عليه من الرّنينِ توجّعُ

ولِحُزنها بيضُ الصّفاح قد انحنتْ وتبيتُ في أغمادها تتستّرُ

* * *

واستمد الشعراء صورهم من الواقع ومظاهره الاجتماعية والحضارية، فالشاعر ابن الوردي يصور مرثيه تاجاً مرصعاً بالعلوم، فيقول : [٤]

لهفي عليه وليس لهفي نافعاً قد كان تاجاً بالعلومِ يُرصّعُ

وصور شمس الدين بن دانيال الصوت الصادر عن أحجار النرد بصوت العود والدف والزمر، فقال: [٥]

إذا لَثَمتْ ثغراً هناك بدا لها طنينٌ كصوتِ العودِ والدّفِ والزّمرِ

ويصور الشعراء شعرهم ودموعهم بالدر لنفاستها، كما استوحوا صورة الدر واللؤلؤ حين صوروا كلام المرثي وحلاوته في النفوس، ومن ذلك ما جاء في قول برهان الدين القيراطي: [٦]

سأرثيه بالدرِّ النّظيمِ ومُقْلتي تزينهُ من درِّ المدامعِ بالنّثرِ

وقول أحد الشعراء: [٧]

وكَمْ شنّف الأسماع درّاً ولؤلؤاً إذا ما شجى في مجلسٍ منهُ مَنْطقُ

---

[١] القيراطي، الديوان، ص ٣٢.

[٢] ابن نباته، الديوان، ص ٤٠٦.

[٣] الصفدي، الوافي ١٧١/٨ ١٧٢، العمري، مسالك الأبصار، ج١، ق١ / ٩٤ – ٩٥ .

[٤] ابن الوردي، الديوان، ص ٤٢٩.

[٥] الصفدي، المختار من شعر ابن دانيال، ، ٢٢٣.

[٦] القيراطي، الديوان، ص ٥٠.

[٧] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصور الشعراء المدارس والمساجد محترقة باكية تعمرها الوحشة والكآبة، وبرز ذلك في مراثي العلماء، ومنه قول علاء الدين الوداعي: [١]

إنّ المدارسَ وَحشةٌ لفراقِهِ أضْحَتْ دوارسَ لا تبين دثورا

وكذا المساجدُ بالمصابيحِ انثنتْ تُبدي عليه حُرْقَةً وزفيرا

وصور الشعراء الرسائل والكتب التي كتبها مرثيوهم من العلماء والأدباء وما عليها من خطوط جميلة بالبرد المطرز بأنواع الرسوم، وبالعروس المتحلية بأنواع الزينة، ويتجلى ذلك في قول الصفدي :[٢]

كمْ من كتابٍ سارَ عَنْك كأنّه بردٌ أجادَ طرازه الرقّامُ

وقول برهان الدين القيراطي : [٣]

خَلّفْتَ فينا تصانيفَ محبّرةً مِثْلَ العروسِ عليها الحلْيُ والحلَلُ

ويستوحي الصفدي صورة الحانة وما فيها من ماجنين ليشبه بها الرسائل الصادرة عن مرثيه شهاب الدين بن فضل الله العمري، فيقول : [٤]

ورسالة أنْشَأْتَها هي حانَةُ النـ ـنبّاذِ حازَتْ حَضْرَةَ الفكّاهِ

وصور الشعراء العلوم وكتبها حزينة وكئيبة، تذرف الدموع الغزار، وبرز ذلك في مراثي العلماء، ومن ذلك قول أحد الشعراء: [٥]

وارحمتا للعلومِ بَعْدَ مَصْرَعِهِ فكم لها من كآباتٍ وأحزانِ

وقول ابن نباتة : [٦]

تبكي عليك من العلومِ صحَائفٌ ومن الجيوشِ أسنّةٌ ورماحُ

ويصور الصفدي الأيام امرأة جميلة ترتدي التاج على رأسها، والشنوف في آذانها، والطوق في جيدها فيقول : [٧]

وزان أيّامَه من بعدما عَطلتْ بجوهرٍ تزدهي منه بتضيدِ

فالتّاجُ في رَأسِها راقَتْ جواهرُهُ والشّنفُ في آذانها والطوقُ في الجيدِ

ويصور الشاعر ذاته الشعر الذي كان ينظمه مرثيه محمد بن سيد الناس في نفوس متلقيه بالسحر والخمر الذي يدخل النشوة في نفوس شاربيه، فيقول : [٨]

---

[١] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٠ .

[٢] ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٣/ ٥٥.

[٣] القيراطي، الديوان، ص ٧٩.

[٤] ابن حبيب، تذكرة النبيه، ٣/ ١٢٧.

[٥] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٣.

[٦] ابن نباتة، الديوان، ص ١١٣.

[٧] الصفدي، أعيان العصر، ٥/ ٤٢٢.

[٨] الصفدي، الوافي، ١/ ٣٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما كان ذاك الـــذي تلقـــاه ينظمُـــهُ شـــعراً ولكنّـــه ســـحْرٌ يعانيـــهِ

يـــهزّ ســـامعَه حتـــى يخيّـــلَ لـــي كـــأس الحميّـــا أدارتْـــها قوافيـــهِ

وركز الشعراء في مراثيهم على تصوير الموت، فصوروه منهلاً يـــرده النـــاس كلـــهم، وكأساً دائراً عليهم، وسهماً مسدداً إليهم، له أيدٍ وعيون تتربص بهم، وأشراك تصيدهـــم ويتجلـــى ذلك في قول الصفدي : [١]

إنْ كُنْتَ جُرّعْتَ كأسَ المـــوتِ واحـــدةً في كـــلّ يـــومٍ أذوقُ المـــوتَ ألوانـــاَ

وقول شهاب الدين محمود: [٢]

ومنهلٌ ما لحيٍّ فـــي الـــورى صَـــدَرٌ إلاّ عن الـــرّي فـــي أثنـــاء مـــوردهِ

وقوله: [٣]

أترى دَرى صرفُ الرّدى لمّـــا رَمـــى أنّ المُصـــابَ بِسَـــهْمِهِ الإســـلامُ

سَـــهْمٌ تقصّـــدَ واحـــداً فغـــدا وفـــي كـــلّ القُلـــوبِ لوقعِـــهِ آلامُ

ما خِلْـــتُ أنّ يـــدَ المنـــونِ لـــها علـــى شـــمسِ المعـــارفِ والـــهُدى إقـــدامُ

وقال أحد الشعراء : [٤]

إن كانَ قـــد عَلِقَتْـــهُ أشـــراكُ الـــرّدى مـــن بَعْـــدِ علـــمٍ نـــافذِ الأحكـــام

وصور يوسف بن أحمد السّملوطي الموت حيواناً له كلكلٌ ومخالب تعلق بأرواح البشر،فقال: [٥]

فَحَـــطّ عَمْـــداً علينـــا المـــوتُ كَلْكَلَـــهُ فصـــيّر الشّـــملَ منّـــا غـــير ملتئـــمِ

رمـــى مخاليبـــهُ مـــا بيننـــا علقـــتْ بواحـــدٍ هـــو بالبـــاقين كلّـــهم

وصور الشعراء الدهر ذا ناب وأيد تهدم ما بنى الخلق في دنياهم، ومن ذلك ما جاء فـــي قول الصفدي: [٦]

وكيـــف ينوبـــهُمْ خَطْـــبٌ مُلِـــمٌّ ونابُ الدّهـــرِ فيـــهم غـــيرُ نـــامِ

وقول أبي الحسين الجزار : [٧]

وما زال هذا الدّهرُ يهدمُ مـــا بنـــى ويَخْلِقُ ما قـــد كـــان بـــالأمسِ جـــدّدا

واعتمد الشعراء على الكناية في تشكيل صورهم، وقد " تفطن النقـــاد والبلاغيـــون إلـــى أهميتها الفنية المتمثلة في قدرتها على السمو بالمعنى والارتفاع بالشـــعور إلـــى مســـتوى مـــن

---

[١] الإبشيهي، المستطرف، ٢/٢٤٥.

[٢] الصفدي، أعيان العصر، ٥/ ١٨٩.

[٣] الصفدي، أعيان العصر، ١٨/ ٢٤٢، ابن رجب، الذيل على طبقات الحنابلة، ٤/ ٢٤٢.

[٤] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٤٥.

[٥] الأدفوي، الطالع السعيد، ص ٧١٨.

[٦] الصفدي، أعيان العصر، ٢/ ١٣٦.

[٧] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التصوير الإيحائي الشفاف الذي لا يثير المخيلة فحسب، بل ينفذ إلىٰ الذهن عن طريق الحس، فيصدمه أولاً بالمعطى الحسي، ثم يفجؤه بعد ذلك بما يخفيه هذا المعطى عن طريق الحس، وفكره، وشعوره، بوساطة الإيماءة السريعة أو اللمحة الخاطفة التي يتلقفها العقل لائذاً ببهجة الاكتشاف ومسيرة المفاجأة" [١].

ولم تبرز الكناية بصورة جلية في مراثي هذا العصر قياساً بالضروب البيانية الأخرى، فقد رمز الشعراء للخارجين عن الدين بأهل الزيغ والضلال، ورمزوا للمغول والصليبيين بالشرك والكفر، ورمزوا للصليبيين ببني الأصفر، كما يبدو في قول أبي عبد الله محمد بن طاهر الإخميمي: [٢]

وبنو الأصفر في ثغر الهُدى جَعَلَتْ أسيافُهم منه ثغر

وأكثر الشعراء من الكنايات حين تحدثوا عن المرأة المرثية، والنساء اللواتي سباهن الأعداء، ووصفوا عفتهن وطهارتهن[٣]، ومن ذلك قول برهان الدين القيراطي في رثاء زوجة القاضي تقي الدين ناظر الجيش: [٤]

إنْ غُيبتْ في ثرى اللّحودِ فكم قد حجّبتها السّتورُ والسّجُفُ

وجاءت الكناية حين تحدث الشعراء عن الحزن على المرثي، فكنّوا عن ذلك بشقّ الجيوب، وتمزيق القمصان، كما يبدو في قول ابن نباته: [٥]

عليك ابنَ فضل الله شقّتْ جيوبَها فضائلُ في طيّ البلاد لها نَشْرُ

ومن الكناية قول أبي عبد الله محمد بن الحسن الشاطبي: [٦]

عَضَضْتُ بناني عند ذا من تأسّفي وأسقطتُ حُزنا في التّراب جبيني

فهو يكنى عن الندم بعبارة " عضضت بناني" .

وتميزت صور الشعراء بشكل عام بعدد من المميزات، ومنها غزارة الصورة الشعرية، ويدل ذلك على عنايتهم بها، واعتمادهم عليها في نقل أفكارهم وأحاسيسهم، وتنبههم لقيمتها في العمل الشعري، وفي جذب انتباه المتلقين وجاءت هذه الغزارة في البيت الواحد تارة، وفي مجموعة من الأبيات تارة أخرى [٧] .

---

[١] الأخضر عيكوس، مفهوم الصورة الشعرية قديماً، ص ٨٩ .

[٢] النويري، الإلمام، ٣/ ٢٢٣.

[٣] انظر رائد عبد الرحيم، صورة المغول، ٢٢١.

[٤] القيراطي، الديوان ، ص ٤٠ .

[٥] ابن نباته، الديوان، ص ٢٣٢.

[٦] النويري، الإلمام، ٣/ ٢٢١.

[٧] انظر ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٣٥، ٤٨، ٥١، العزازي، الديوان، ص ٢٤، الصفدي، الوافي، ٥/ ٢٨١، ١٧/ ٣٥٣، أعيان العصر، ٥/ ٣٢٨، الكتبي، فوات الوفيات، ٢/ ٢٠٧، السيوطي، حسن المحاضرة، ١/ ٢٣٨، الكرمي، الكواكب الدرية، ص ٢٠٧، ٢٠٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحرص الشعراء على استخدام عنصر اللون في تشكيل صُورهم الشعرية، فقد اختـــاروا اللون الأحمر حين صوروا الدموع الممتزجة بالدماء، ويتجلى ذلك في قول أحد الشعراء: [١]

قد سال بحرُ دماءٍ مـــن لواحظـــهمْ مُـذْ قـام مكتبئـاً يرثيـك عُثْمـــانُ

وقول برهان الدين القيراطي:[٢]

صَعّـدتُ أنفاســي فعــاد لحينـــها بعــد البيــاضِ بصبغــةِ العقيـــانِ

واستخدموا اللون الأحمر للدلالة على شدة القتل الذي نزل بأعداء المسلمين علـى أيـدي المرثيين من أرباب الدول، ومن ذلك ما جاء في قول مجد الدين بن الظهير الإربلي فـــي رثـاء بيبرس:[٣]

مَنْ للسّوابحِ والبحـــارِ دم الطُّلـــى والشهبُ تظهرُ في العجاج وتختفـي

مستورةٌ بـــدم النّحـــورِ حجولُـــها والبيضُ تحزرُ والغوافـــي تختفـي

فهو يستخدم مجموعة من الألفاظ الدالة على ألوان مختلفـــة وهـــي "دم" ، و " الشـــهب"، والعجاج"، و"البيض" .

وبرز عنصر اللون في قول تقي الدين بن شبيب الحراني:[٤]

" بدورُ" تَمٌ لهم من " بيضِهم" " شـهبٌ" أسودُ حربٍ لهم من " سُمْرِهم" أجَـــمُ

وبرز اللون الأسود، والألفاظ الدالة عليه بصورة جلية في مراثي هذا العصر، وهو لـون استخدمه العرب للدلالة على الحزن و" الظلام، والظلم، واليأس [٥]"، أما شعراء المراثـــي، فقـد عبروا به عن أيامهم، ولياليهم،ودنياهم، ويأسهم بعد المرثي، كما عـبروا عـن حـزن مظـاهر الطبيعة والكون، والتغير الذي طرأ عليها، ولذا أكثروا من ترداد ألفاظ " دوامس"، و"الظـــلام"، و "حداد"، و "وحشة"،و " الليل" ، ويتجلى ذلك في قول الأديب الأمين سلطان : [٦]

قد أظلَمَ الأُفقُ المنـــيرُ لفقـدِ مَـنْ حـــازَ الفَضـائلَ كلّـها وَحواهـــا

أضحى على الأقطارِ منه وَحْشَـــةٌ حتّـــى تشـابه صبحُـها بِمَسـاها

وقول عفيف الدين التلمساني: [٧]

وكـانت لياليـه كأيامـــــهِ سَـــناً فأيّامُنـا مثـل اللّيـالي دوامـــسُ

ومن الصور التي غلب عليها اللون الأسود ما جاء في قول مجد الدين بن الظهير الإربلي:[٨]

---

[١] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٥٧ .

[٢] القيراطي، الديوان، ص ٥٨ .

[٣] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦٣.

[٤] المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

[٥] د. يوسف نوفل، الصورة الشعرية واستيحاء الألوان، ص ٢٨.

[٦] ابن العطار، ترجمة الإمام النووي، ص ٥٢.

[٧] المصدر نفسه، ص ٥٤.

[٨] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في ليلة غارَتْ عيــونُ نجومــها أسَفاً وهل عُذرٌ لمنْ لــم يأسـفِ
لَبِستْ عليهِ حدادها وبكتْ أســىً وبمن بكاهُ مِنَ الورَى لَمْ تَكتفــي

واستعان الشعراء بالألفاظ الدالة على الحركة والصوت في تشكيل صورهم، وبرز ذلــك في مراثي أرباب الدول حين وصفوا المشاهد الحربية، وما يتخللها من كر وفر، وفلق للــهامات، وقعقعة للسيوف، وحركة للقسي والرماح، وكذلك حيــن صــوروا الأرض وميدهــا، ومظــاهر الطبيعة، والكون وهي تنوح وتبكي، وتمزق الشعور، وتلطم الخدود، ويتجلى ذلك في قول محيــي الدين بن عبد الظاهر : [1]

مــا للجيــاد كئيبــــةً محزونـــةً أفــذا الحنيــنُ أنينُــها إذ تَصْــهلُ؟
مــا للقســيّ تئــنّ أنّـــةَ فــاقدٍ إنّ القســيّ لفيــه أيضــاً ثكّــلُ
ما للسّيوفِ قد انحنتْ أتــرى درَتْ أنّ المنــونَ لحدّهــا سَــتُفلّلُ

فهو يكثر من استخدام ألفاظ الصــوت والحركــة، " الحنيــن"، و"الأنيــن"، و"تصــهل"، و"انحنت".

وتبرز الألفاظ الدالة على الحركة والصوت في قول مجد الدين الإربلي: [2]

أسرى على الأعداءِ من طيفٍ علــى أمدٍ يشُقُّ علــى الــبريدِ الموجــفِ
بأجــادلٍ يختــالُ فــوق أجــادلٍ تروي النّجاء على البروق الخطّــفِ
وبكل أجدل يستشيطُ إلــى الوغــى في ظَهْرِ أجْردَ بالسّــنانِ مشــنّفِ
كم جرّ أرْعَنَ كالجبالِ وكم جَــرى طلقَ العِنانِ وكم لهُ مــن موقِــفِ
كم صبّح الأعداءَ في رَهَجِ الوغــى بمنير وَجْهٍ في الصّباحــةِ يوســفي
كم شام في قممِ العلوجِ صوارمــاً لسوى النّفوسِ بروقُها لم تخطــفِ

ومن مميزات صورهم الواقعية، وبرزت هذه السمة جلية في مراثي هذا العصر، ويمكــن التمثيل على ذلك بقول النويري في رثاء الإسكندرية، مصوراً هربه وعودته إلى بلده نويرة :[3]

كُنْــتُ فيــهم بعيلتــي وبقلبــــي حــرّ نــار الجــوى كوخــز السّــهامِ
لأثــاث تركتُــــهُ مــــع كُتُــبٍ نَسَــخْتُها أنــــاملي بــــالدّوامِ
وتذكــرتُ مــا جــرى لأنــــاسٍ فَكَحُلــمِ رأيتــــه فــــي منــــامِ
فحمــدتُ الإلــه ربّــي طويــــلاً وتوجّــهت بالعيــال أمــــامي
قــاصداً نحــو بلدتــي ومقــامي مــن قديــــم الزّمــان والأيّــامِ

---

[1] ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص ٢٤٤ – ٢٤٥.
[2] المصدر نفسه، ص ٢٦٠ .
[3] سرور، الإلمام، ٢١٦ – ٢١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقدم الشعراء لوحات متضامة الأجزاء في مراثيهم، الأمر الذي جعل انتزاع التشبيه أو المجاز، أو الكناية منها أمراً صعباً يخل بها، فتغدو مثل جسم الإنسان حين يفقد أحد أعضائه، ويتجلى ذلك في مراثي أرباب الدول حين صور الشعراء حروبهم مع أعداء المسلمين من مغول وصليبيين [١]، وبرزت اللوحات المتضامة حين صوروا أحزانهم، وحياتهم عقب المرثي.

ورسم الشعراء صوراً لعالم الغيب والخوارق، فالشاعر زين الدين بن الوردي يصور خوف إبليس من مرثيه ابن تيمية: [٢]

وكان يَخافُ إبليسٌ سطاه بوعظٍ للقلوبِ هو السّياطُ

وصور الجندي المصري محمد بن أند المغيثي مؤمني الجنّ يبكون ابن تيمية ، فقال : [٣]

ولمؤمنيّ الجنّ حزنٌ شاملٌ ونياحةٌ نَطَقَتْ بها الأحلامُ

وصور الصفدي ملائكة العرش وهي تبكي محمد بن سيد الناس، فقال: [٤]

يا راحلاً فوق أعناقِ الرّجال وأجـ ـفانُ الملائكِ تَحْتَ العرشِ تبكيه

ومن الخصائص التي تميزت بها الصورة الشعرية التشابه،وظهر ذلك حين صور الشعراء حزنهم ودموعهم، وأرقهم،وحياة الجحيم التي يعيشونها،وحين شخصوا مظاهر الطبيعة والكون، وصوروا حزنها،وتغيرها، وتعطلها،وتشابهت الصور التي أشادوا فيها بالمرثي،ووصفوا جوده،وحلمه،وزهده،وتقواه،وشجاعته،وغير ذلك،وتشابهت صورهم حيث رثوا المرأة،ووصفوا جمالها،وشبهوها بالشمس،والظبي،والبدر،وحين تحدثوا عن عفتها واحتجابها،كما قدم الشعراء صوراً متشابهة للقبر،والمصير الذي آل إليه المرثيون،وكذلك حين تحدثوا عن الموت،وقوته، وحتميته،وحين هاجموا الدهر،والدنيا،والزمان،والليالي،ووسموها بالغدر والخيانة.

---

[١] انظر، ص ٧٦-٧٧ من هذه الرسالة .

[٢] ابن الوردي، الديوان، ص ٢٦٦.

[٣] الكرمي، الكواكب الدرية، ص ٢٠٨.

[٤] الصفدي، الوافي، ١/ ٣٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خاتمة

حاول هذا البحث إعطاء صورة عن فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي الأوّل، وتبين منه:

أوّلاً: أن الشعراء نظموا في ألوان الرثاء المختلفة، فقد قالوا في رثاء النفس والأهل والأقارب، وأرباب الدول، والعلماء والأدباء، والمرأة، والمدن التي سقطت بيد المغول والصليبيين، كما رثوا اللهو والمجون، وبعض المظاهر الحضارية .وهذه الألوان تقليدية لا جديد فيها سوى رثاء السهم، والنرد، واللهو والمجون.

ثانياً: أن شعراء هذا العصر توسّعوا أكثر من سابقيهم من الشعراء في القول في بعض ألوان الرثاء، منها العلماء والأدباء ، وأرباب الدول ، وهجاء الموتى منهم ، وقلّت الأشعار التي نظمت في ألوان أخرى من الرثاء مثل رثاء الآباء والأمهات .

ثالثاً: ظهر من البحث أن بعض الشعراء نظموا دواوين خاصة في الرثاء، ومنهم صلاح الدين الصفدي. ونظمت دواوين شعرية في رثاء سلطان كالظاهر بيبرس، أو عالم كمحيي الدين النووي، وتقي الدين بن تيمية.

وأفرد بعض الشعراء أبواباً خاصة في دواوينهم لذلك الغرض الشعري، مثل: صفي الدين الحلي. وشكل الرثاء عند بعضهم الآخر جزءاً كبيراً من دواوينهم أمثال: جمال الدين بن نباتة، وبرهان الدين القيراطي .

رابعاً: يتبين من مراثي هذا العصر أن أغلب المعاني والأساليب التي جاء بها الشعراء تقليدية، لا جديد فيها إلا ما برز في مراثي اللهو والمجون والحيوان، ومراثي المدن .فقد اتخذ الشعراء من الحيوان المرثي رمزاً لنقد الحكام والمجتمع، وأوضاعهم الشخصية، وأكثروا في مراثي الإسكندرية من تصوير هزيمة الجيش الإسلامي، ووصف ما نزل به على أيدي الصليبيين،ودخلت مراثي بغداد والشام بعض الألفاظ المغولية. وهذه الأمور جميعها لا عهد لشعر الرثاء بها قبل هذا العصر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المصادر والمراجع

المصادر المخطوطة:

- ابن حبيب، بدر الدين بن عمر الحلبي، ت ٧٧٩هـ، درة الأسلاك في دولة الأتراك، الجزء الأول والثالث، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، رقم ٥٣٩ و ٥١٤٦ (صورة بالميكروفيلم).
- العزازي، شهاب الدين بن عبد الملك أحمد بن عبد الملك، ت ٧١٠ هـ، ديوان شهاب الدين العزازي، نسخة مصورة عن مخطوطة دار الكتب القومية، مصر، رقم ٢٨٢.
- ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى، ت ٧٤٩هـ،مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الثامن، القسم الأول، الجزء الحادي عشر، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، رقم ١٥٢٩(صورة بالميكروفيلم).
- القيراطي، أبو اسحق إبراهيم ابن عبد الله الطائي المصري، ت ٧٨١، الديوان، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، رقم ٧٨٤ (صورة بالميكروفيلم).
- الكاني، محمد بن مصطفى بن جعفر، بغية الخاطر ونزهة الناظر، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، رقم ١٣ (صورة بالميكروفيلم).
- الكتبي، محمد بن شاكر، ت ٧٦٤ هـ، عيون التواريخ، الجزء التاسع عشر، مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية، رقم ٤٢٥٧ (صورة بالميكروفيلم).

المصادر المطبوعة:

- القرآن الكريم.
- الإبشيهي، بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد، ت ٨٥٤ هـ، المستطرف في كل فن مستظرف، ط١، ٣م، عني بتحقيقه: إبراهيم صالح، دار صادر، بيروت، ١٩٩٩م.
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكريم الشيباني، ت ٦٣٠هـ، الكامل في التاريخ، ١٢ م، دار صادر، ودار لبنان، بيروت، ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن بسام المحتسب، محمد بن أحمد، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق وتعليق: حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨ م.
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي، ت ٧٧٩هـ، رحلة ابن بطوطة، ٢م، دار المشرق العربي، بيروت.
- البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، ت ٧٣٩ هـ، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط١، ٣م، تحقيق وتعليق: علي محمد البجاوي، دار الجليل، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- بيبرس المنصوري، ركن الدين الخطائي، ت ٧٢٥ هـ، التحفة الملوكية في الدولة التركية، ط١، نشره وقدم له ووضع الفهارس: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.
- نفسه، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق : دونالد س. ريتشاردز، ط١، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- نفسه، مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، ط١، حققه وقدم له ووضع فهارسه: عبد الحميد صالحة حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي، ت ٨٧٤ هـ، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، الجزء الثاني إلى السابع،محققون مختلفون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- نفسه، النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة، ط١، ١٦م، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣ هـ -١٩٩٣م.
- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ت ٢٣١هـ، شرح ديوان أبي تمام، ٤م، شرحه: الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ابن تيمية، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، ت ٧٢٨هـ ، مجموعة فتاوي ابن تيمية، دار المنار، القاهرة، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو محمد بن بحر، ت ٢٥٥، البيان والتبيين، ٤م، تحقيق وشوح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩٣م.
- الجرجاني، عبد القاهر أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد، ت ٤٧١هـ، أسرار البلاغة في علم البيان، صححها وعلق حواشيه: السيد محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- نفسه، دلائل الإعجاز، ط ٢، حققه وقدم له: د. محمد رضوان الداية، د. فايز الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- الجرجاني، علي بن عبد العزيز، ت ٣٩٢هـ، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ط ١، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٥م.
- جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي، ت ٧٢٨م، ديوان جرير، بشرح: محمد بن حبيب، ٢م، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، مصر.
- ابن الجزري، شمس الدين أبو عبد الله القرشي، ت ٧٣٨هـ، تاريخ ابن الجزري، تحقيق : د. عمر عبد السلام تدمري، ط١، ٣م، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي القرشي البغدادي، ت ٥٩٧هـ ، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد، ضبطه وشرحه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٤م.
- ابن حبيب ، بدر الدين بن عمر الحلبي، ت ٧٧٩ هـ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، الجزء الأول - الجزء الثالث، حققه ووضع حواشيه: محمد أمين، مطبعة دار الكتب، القاهرة.
- ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد، ت ٨٣٧ هـ، ثمرات الأوراق، تحقيق وتعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- نفسه، خزانة الأدب وغاية الأرب، ط٢، ٢م، شرح: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ١٩٩١م.
- نفسه، كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام، المطبعة الأنسية، بيروت، ١٣١٢هـ - ١٨٩٤م.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، ت ٨٥٢هـ، أنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، ط٣، ٩م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- نفسه، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ٥م، حققه وقدم له ووضع فهارسه: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٦٦م.
- نفسه، رفع الإصر عن قضاة مصر، ط١، تحقيق : د. علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨هـ -١٩٩٨م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن أبي حجلة التلمساني ، ت ٧٧٦هـ، سلوة الحزين في موت البنين، تحقيق وتقديم: د. مخيمر صالح، دار الفيحاء، عمان، الأردن.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، ت ٤٥٦هـ، جمهرة أنساب العرب، محقق ومعلق: ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٨م.
- حسان بن ثابت الأنصاري،، ت ٥٤هـ، شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، ضبط الديوان وصححه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٠م.
- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد، ت ٢٤١هـ، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ط١، حققه وضبط نصه: السيد أبو المعاطي النوري، أيمن إبراهيم الزاملي، أحمد عبد الوزاق عيد، إبراهيم محمد النوري، محمد مهدي المسلمي، محمد محمود خليل، عالم الكتب بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ابن خلدون، عبد الله بن محمد، ت ٨٠٨هـ، مقدمة ابن خلدون، مهّد لها ونشر الفصول والفقرات الناقصة من طباعتها وحققها، وضبط كلماتها، وشرحها، وعلّق عليها، وعمل فهارسها: د. علي عبد الواحد وافي، ط٣، ٣م، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، ت ٦٨١هـ -وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨م، حققه، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.
- ابن دانيال، شمس الدين محمد الموصلي الكحال، ت ٧١٠، أو ٧١١هـ، المختار من شعر ابن دانيال، اختيار: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، حققه وعلق عليه واستدرك: محمد نايف الدّليمي، مكتبة بسام، الموصل، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي، ت ٨٠٩هـ، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، تحقيق: سمير طبارة، ط١، المكتبة العربية، صيدا، ١٩٩٩م.
- الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك:
  - كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السابع، وهو الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، مصادر تأريخ مصر الإسلامية، يصدرها قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
  - كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن وهو الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق: أولرخ هارمان، مصادر تأريخ مصر الإسلامية يصدرها قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

• كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء التاسع، وهو الدرّ الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: هاني روبرت رويمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة.

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، ت ٧٤٨، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حوادث ووفيات، ٦١١- ٦٢٠ هـ، تحقيق، د. عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، حوادث ووفيات، ٦٥١- ٦٨٠هـ، تحقيق : د. عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- نفسه، دول الإسلام، ط٢، ٢م، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٣٦٤هـ.
- نفسه، العبر في خبر من غبر، ٣م، حققه: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.
- نفسه، ذيول العبر في خبر من غبر، ٣م، حققه: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، ت ٦٦٦هـ، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦م.
- ابن رجب الحنبلي، زين الدين أبو الفرج البغدادي ثم الدمشقي، ت ٧٩٥هـ - الذيل على طبقات الحنابلة، ٤م، دار المعرفة، بيروت.
- ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي، ت ٤٥٦هـ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ط٥، ٢م، حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- نفسه، قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، تحقيق : الشاذلي بويحيى، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٣م.
- الزبيدي، محب الدين أبو الفضل محمد مرتضى الحسيني، ت ١٢١٣هـ - تاج العروس من جواهر القاموس، ١٠م، دار ليبيا للنشر، بنغازي، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م.
- الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد، شرح المعلقات السبع، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله، ت ٤٣٦هـ، ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق : علي عبد العظيم، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة.
- ابن سباط الغربي، حمزة بن أحمد، ت ٩٢٦هـ صدق الأخبار تاريخ ابن سباط، حققه: عمر عبد السلام تدمري، ٢م، جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٣م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي، ت ٦٥٤هـ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ط١، القسم الثاني من الجزء الثامن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٢م.
- سبط بن العجمي الحلبي، ت ٨٨٤هـ، كنوز الذهب في تاريخ حلب، الجزء الثاني، تحقيق: د. شوقي شعث، المهندس فالح البكّور، ط١، دار القلم العربي، حلب، سوريا، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن عبد الكافي، ت ٧٧١هـ، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، ٦م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، ت ٩٠٢هـ، الذيل التام على دول الإسلام للذهبي، حققه وعلق عليه: حسن إسماعيل مروة، قرأه وقدم له: محمود الأرناؤوط، ط١، مكتبة العروبة، الكويت، دار ابن العماد، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، ت ٩٠٢هـ، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق: د. بشار عواد معروف، عصام فارس الحرستاني، د. أحمد الخطيمي، ط١، ٤م، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- ابن سعيد الأندلسي، نور الدين أبو الحسن، ت ٦٨٥هـ، المغرب في حلى المغرب، الجزء الأول، عني بنشره وتحقيقه والتعليق عليه: د. زكي محمد حسن، د. شوقي ضيف، الدكتور إسماعيل كاشف، مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، ت ٩١١هـ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ٢م، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
- نفسه، تاريخ الخلفاء، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.
- نفسه، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ٢م، مصطفى فهمي الكتبي، القاهرة، ١٣٢١هـ - ١٩٠٣م.
- نفسه، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن، ت ٩١١هـ، ذيل طبقات الحفاظ للذهبي، وضع حواشيه: الشيخ زكريا عميرات، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- شافع بن علي، ت ٧٣٠هـ، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق ونشر: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- شافع بن علي، ناصر الدين بن علي الكافي العسقلاني المصري، ت ٧٣٠هـ، كتاب الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، ط١، المكتبة المصرية، صيدا، لبنان، ١٩٩٨م.
- ابن الشحنة، محب الدين أبو الوليد محمد، ت ٨١٥هـ، روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر على هامش الجزء التاسع من تاريخ ابن الأثير، (الكامل في التاريخ)، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٩٠هـ.
- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم، ت ٦٨٤هـ، تاريخ الملك الظاهر، باعتناء : أحمد حطيط، يطلب من دار النشر فرانز شتاينر، بفيسبادن، طبع على مطابع مركز الطباعة الحديثة، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- شرف الدين الأنصاري، شيخ الشيوخ عبد العزيز بن محمد ، ت ٦٦٢هـ، ديوان الصاحب شرف الدين الأنصاري، تحقيق: عمر موسى باشا، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٣٧٨هـ - ١٩٦٧م.
- ابن الشعار، كمال الدين أبو البركات المبارك بن محمد، ت ٦٦٤هـ، قلائد الجمان في فوائد شعراء هذا الزمان المشهور بعقود الجمان في شعر هذا الزمان، الجزء الثالث، تحقيق: نوري حمودي القيسي، محمد نايف الدليمي، دار الكتب، الموصل، ١٩٩٢م.
- شمس الدين محمد بن عفيف الدين التلمساني، ت ٦٨٨هـ، ديوان الشاب الظريف، ط١، قدم له وشرحه ووضع فهارسه: د. صلاح الدين الهواري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- شهاب الدين محمود، أبو الثناء بن سليمان الحلبي الحنفي، ت ٧٢٥هـ، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، المطبعة الوهبية، مصر، ١٢٩٨هـ.
- الشوكاني، محمد بن علي، ت ١٢٥٠هـ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ويليه الملحق التابع للبدر الطالع، جمعه سنة ١٣٤٨هـ بالقاهرة محمد بن محمد بن يحيى بن زبارة الحسني اليمني الصنعاني، وضع حواشيه : خليل المنصور، ط١، ٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، ت ٧٦٤هـ، أعيان العصر وأعوان النصر، حققه: د. علي أبو زيد، د. نبيل أبو عمشة، د. محمد موعد، د. محمود سالم محمد، قدم له: مازن عبد القادر المبارك، ط١، ٥م، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- نفسه، تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، القسم الثـــاني، تحقيق: إحسان بنت سعيد خلوصي، وزهير حميدان الصمصام، منشورات وزارة الثقافـة، سوريا، ١٩٩٢م.
- نفسه، جنان الجناس في علم البديع وفي آخره مناهج التوسل في مبـــاهج الترســـل، ط١، دار المدينة، بيروت.
- نفسه- الغيث المسجم شرح لاميـــة العجـــم، ط١، ٢م، دار الكتـــب العلميـــة، بـــيروت، ١٣٩٥هـــ - ١٩٧٥م.
- نفسه، فض الختام عن التورية والاستخدام، دراسة وتحقيـــق: الحمـــدي عبـــد العزيـــز الحناوي، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٧٩م.
- نفسه، الوافي بالوفيات، الجزء الأول إلى الجزء السابع والعشرين، محققون مختلفون.
- صفي الدين الحلي، ت ٧٥٠هـــ، الديوان، شرحه وضبط نصوصه وقدم لـــه: د. عمـــر فاورق الطباع، ط١، دار الأرقم، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـــ- ١٩٩٧م.
- الصفاعي،فضل الله بن أبي الفخر، ت ٧٢٦هـــ، تالي وفيات الأعيان، تحقيـــق: جـــاكلين سوبله،المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٤م.
- ابن طباطا العلوي، محمد بن أحمد، عيار الشعر، ط١، شرح وتحقيـــق: عبـــاس عبـــد الساتر، مراجعة، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢هـــ - ١٩٨٢م.
- ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا، ت ٧٠٩هـــ، الفخري فـــي الآداب الســـلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، ١٣٨٦هـــ -١٩٦٦م.
- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي، ت ٩٥٣هـــ، نقد الطالب لزغـــل المنـــاصب، تحقيق: محمد أحمد دهمان، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٢م.
- ظهير الدين الكازروني، ت ٦٧٩ هـــ، مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية، عنـــي بتحقيقها ونشرها: كوركيس عواد، ميخائيل عواد، مطبعة الإرشاد، ١٩٦٢م.
- العاصمي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك، ت ١١١١هـــ ، سمط النجوم العوالي فـــي أنباء الأوائل والتوالي، ط١، ٤م، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معـــوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي، ت ٣٢٨ هـــ، العقد الفريد، ط٣، ٧م، دار إحيـــاء التراث العربي، لبنان، ١٤٢٠- ١٩٩٩م.
- عبد القاهر الجرجاني، أبو بكر عبد الرحمن بن محمد، ت ٤٧١هـــ، أسرار البلاغة فـــي علم البيان، صححه وعلق حواشيه، السيد محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- نفسه، دلائل الإعجاز، ط٢، تحقيق: رضوان الداية، وفايز الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الملطي، ت ٦٨٥هـ، تاريخ مختصر الدول، وقف على تصحيحه وفهرسته الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، لبنان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ابن العراقي، ولي الدين أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين، ت ٨٢٦هـ، الذيل على العبر في خبر من عبر، ط١، ٣م، حققه وعلق عليه: صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، ت ٣٩٥هـ، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، حققه وضبط نصه:د. مفيد قميحة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله العقيلي الهمذاني المصري، ت ٧٦٩هـ، شرح ابن عقيل ومعه منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل تأليف: محمد محيي الدين عبد الحميد، ٢م، دار الخير.
- علاء الدين بن العطار، ت ٧٢٤ هـ، ترجمة الإمام النووي، ضمن كتاب النووي، مختصر طبقات الفقهاء، تحقيق: عادل عبد الموجود، علي معوض، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- ابن العماد، شهاب الدين أبو الفرح عبد الحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي، ت ١٠٨٩هـ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط١، ١٠م، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثة: عبد القادر الأرنؤوط، حققه وعلق عليه: محمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤١٢هـ.
- عمر البزاز، أبو حفص عمر بن علي البغدادي، ت ٧٤٩ هـ، الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ويليه ذيل في أسماء أصحاب الشيخ وأعوانه ومحبيه وأعدائه والمعرضين عليه، حققه: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت.
- العمري، عصام الدين أبو النور عثمان بن علي الدفتري، ١١٩٣هـ، الروض النضر في ترجمة أدباء العصر، تحقيق: سليم النعيمي، ٢م، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٤م.
- العيني، بدر الدين محمود، ت ٨٥٥هـ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، الجزء الأول إلى الجزء الرابع، حققه ووضع حواشيه، محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، ت، ٥٠٥ هـ، سكرات الموت وشدته وحياة القبور حتى النفخ في الصور، دراسة وتحقيق وتعليق: عبد اللطيف عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٦م.

- الغزولي، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي، ت ٨١٥هـ ، مطالع البدور ومنازل السرور، ط١، ٢م، مطبعة إدارة الوطن، القاهرة، ١٣٠٠هـ.

- الغزي، كامل بن محمد بن مصطفى البابي الحلبي، ت ١٣٥١ هـ، نهر الذهب في تاريخ حلب، ٣م، المطبعة المارونية، حلب، ١٣٤٥هـ - ١٩٢٨م.

- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسين المكي، ت ٨٣٢هـ، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، تحقيق وتعليق ودراسة: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط١، ٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن شاهنشاه بن أيوب، ت ٧٣٢هـ، تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه : محمود ديّوب، ط١، ٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٨٠٧هـ، تاريخ ابن الفرات، المجلد السابع والثامن، حققه وضبط نصه: قسطنطين زريق، المطبعة الأمريكانية، بيروت، ١٩٣٦م.

- أبو فراس الحمداني، الحارث بن سعيد بن حمدان، ت ٣٧٥ هـ، ديوان أبي فراس، تحقيق:سامي الدهان، ٣م، المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٩٤م.

- الفرزدق، أبو فراس العمري همام بن غالب التميمي، ت ١١٠هـ ، شرح ديوان الفرزدق، ٢م، ط١، عني بجمعه وطبعه والتعليق عليه: عبد الله الصاوي، مطبعة الصاوي، القاهرة،١٣٥٤هـ - ١٩٣٦هـ.

- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى، ٧٤٩هـ، التعريف بالمصطلح الشريف، دراسة وتحقيق: د. سمير الدروبي، ط١، جامعة مؤتة، الكرك، ١٩٩٢م.

- نفسه، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين، ط١، دراسة وتحقيق: دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.

- ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق البغدادي، ت ٧٢٣هـ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، المكتبة العربية، بغداد، ١٩٣٢م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- نفسه،مجمع الآداب، حققه : د. مصطفى جواد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم.
- ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي، ت ١٠٢٥م، ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، ط١، ٣م، المكتبة العتيقة، تونس، دار التراث، القاهرة، ١٣١٩هـ - ١٩٧١م.
- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد الأسدي الدمشقي، تاريخ ابن قاضي شهبة، ت ٨٥١هـ، الجزء الثالث، حققه: عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٧م.
- قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، ت ٢٨٠هـ، كتاب نقد الشعر، عني بتصحيحه : س. أ. بونيباكر، طبع بمطبعة بريل ليدن.
- القرشي، محمد بن أبي الخطاب، ت ١٧٠هـ، جمهرة أشعار العرب، ٢م، ط١، حققه وعلق عليه وزاد في شرحه: د. محمد علي الهاشمي، دار القلم، دمشق، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- القرطاجني، أبو الحسن حازم، ت ٦٨٤ هـ، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، ط٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، ت ٨٢١ هـ ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط١، ١٤م، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- نفسه، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط١، الجزء الثامن، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه، د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- نفسه، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط٣، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ت ٧٥٢هـ، الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والإرشاد وأقوال العلماء، ط٣، حيدر أباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية.
- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ت ٢٧٣هـ، سنن ابن ماجه، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، ٢م، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢م.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، ت ١٨٦هـ، التعازي والمراثي، حقق وقدم له : محمد الديباجي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، ١٩٧٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، ت ٣٥٤هـ، شرح ديوان المتنبي، وضعه: عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.
- مجد الدين بن الظهير الإربلي، ت ٦٧٧هـ، ديوان ابن الظهير الإربلي، جمع وتحقيق ودراسة: د. ناظم رشيد، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
- محيي الدين بن عبد الظاهر، عبد الله بن عبد الظاهر، ت ٦٩٢هـ- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ط١، حققه: مراد كامل، راجعه: محمد علي النجار، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١م.
- نفسه، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ط١، تحقيق ونشر: عبد العزيز الخويطر، الرياض، المحقق، ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- محيي الدين القرشي الحنفي، ت ٧٧٥هـ، الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية، ط٢، ٣م، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- المدائني، أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله، ت ٢٢٥هـ، التعازي، تحقيق : ابتسام مرهون الصفار، بدري محمد فهد، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧١م.
- المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، ت ٤٢١هـ، شرح ديوان الحماسة، القسم الأول، نشره: أحمد أمين، عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٧١ هـ - ١٩٥١م.
- مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي، ت ١٠٣٣هـ، الكواكب الدّرية في مناقب المجتهد ابن تيمية، ط١، تحقيق وتعليق: نجم عبد الرحمن خلف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- نفسه، الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، تحقيق وتعليق: نجد عبد الرحمن خلف، ط١، دار الفرقان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م.
- مسلم بن الحجاج، أبو الحسين القشيري النيسابوري، ت ٢٦١هـ ، صحيح مسلم، ط١، دار الأرقم بن أبي الرقم، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- مشرف الدين بن مصلح بن عبد الله، ت ٦٩١هـ ، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، ط١، حققها وعلق عليها: جعفر مؤيد شيرازي، قدم لها : إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.
- نفسه، كليات شيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي، مطبعة علوي، بومباي، ١٨٨٧م.
- المعري، أبو العلاء أحمد بن عبد الله، ت ٤٤٩هـ، ديوان سقط الزند، شرحه وضبط نصوصه وقدم له: عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن معصوم، علي صدر الدين المدني، ت ١١٢٠هـ، أنوار الربيع في أنواع البديع، ط١، حقق وترجم لشعرائه: شاكر هادي شكر، مكتبة العرفان، كربلاء، العراق، ١٣٨٨هـ - ١٩٨٦م.
- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، ت ٨٤٥ هـ، إغاثة الأمة بكشف الغمة، قام على نشره: محمد مصطفى زيادة، جمال الدين الشيال، ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٧م.
- نفسه، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م.
- نفسه، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة قطعة منه، حققه: د. عدنان درويش، محمد المصري، ٢م، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق، سوريا، ١٩٩٥م.
- المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ:
  - السلوك لمعرفة دول الملوك، ط٢، الجزء الأول، القسم الثاني، قام بنشره: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٧٠م.
  - السلوك لمعرفة دول الملوك، ط٢، الجزء الأول، القسم الثاني، والجزء الأول، القسم الثالث، صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٧٠م.
  - السلوك لمعرفة دول الملوك، ط٢، الجزء الثالث، القسم الثالث، حققه ووضع حواشيه: سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧١م.
- نفسه، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١، ٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- نفسه، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، وضع حواشيه : خليل المنصور، ط١، ٤م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- نفسه، المقفى الكبير، ط١، ٨م، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني، ت ١٤٠١هـ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٨م، حققه: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ - ١٩٨٦م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم الأنصاري، ت ٧١١هـ، لسان العرب، ط٣، ١٨م، نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه: مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الكتبي، محمد بن شاكر، ت ٧٦٤هـ:
  - عيون التواريخ، الجزء العشرون، تحقيق: فيصل السامر، ونبيلة داود، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م.
  - عيون التواريخ، الجزء الحادي والعشرون، تحقيق: فيصل السامر، ونبيلة داود، دار الشؤون الثقافية والنشر، بغداد، ١٩٨٤م.
- نفسه، وفيات الأعيان والذيل عليها، ٥م، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣ م - ١٩٧٤م.
- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقي، ت ٧٧٤هـ، البداية والنهاية، ط١، ١٤م، تحقيق: أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- النابغة الذبياني، زياد بن معاوية بن ضباب، ت ١٨ ق. هـ، ديوان النابغة الذبياني، جمعه وشرحه وكمله وعلق عليه: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٦م.
- ابن نباتة، جمال الدين المصري الفارقي،ت ٧٦٨هـ ، ديوان ابن نباتة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
- النسوي، محمد بن أحمد، ت ٦٣٩هـ، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، دار الفكر، القاهرة، ١٩٥٣م.
- أبو نواس، أبو علي الحسن بن هاني، ت ١٩٨هـ، شرح ديوان أبي نواس، ٢م، ط١، ضبط معانيه وشروحه وأكملها: إيليا حاوي، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، ١٩٨٣م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٢هـ، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الخامس، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .
- نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الثالث والعشرون،هدارة، الجزء التاسع والعشرون، الجزء الحادي والثلاثون، الجزء الثاني والثلاثون،محققون مختلفون، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- النويري، محمد بن قاسم بن محمد الإسكندري، ت بعد ٧٧٥هـ ، كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الأسكندرية، الجزء الثاني، تحقيق: د. إتيين كومب، د. عزيز سوريال عطيه، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن، الهند، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- كتاب الإلمام، الجزء الثالث والرابع، تحقيق : د. عزيز سوريال عطية، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن، الهند، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، ت ٣٩٥هـ، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٢م.
- الهمذاني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق المعروف بابن الفقيه، ت ٥٠٩هـ، تحقيق: يوسف الهادي، ط١، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- الهمذاني، رشيد الدين فضل الله أبو الفضل بن أبي ألخير، ت ٧١٦هـ ، تاريخ غازان خان، ط١، ترجمة : د. فؤاد عبد المعطي الصياد، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- جامع التواريخ، المجلد الثاني، نقله إلى العربية : محمد صادق نشأت، محمد موسى هندواي، فؤاد عبد المعطي الصياد، راجعه وقدم له: يحيى الخشاب، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، ت ٦٢٨ هـ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، حققه ووضع حواشيه ، حسني محمد ربيع، راجعه، وقدم له: سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٢م.
- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر، ت ٧٤٩هـ، تتمة المختصر في أخبار البشر المسمى تاريخ ابن الوردي، ٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.
- نفسه، ديوان ابن الوردي، ط١، حققه وعلق عليه وجمع ملحقه: أحمد فوزي الهيب، دار القلم، الكويت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ابن وكيع التنيسي، أبو محمد الحسن بن علي الضبي، ت ٣٩٣هـ، المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره، حققه وقدم له: عمر خليفة بن إدريس، ط١، ٢م، جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٩٤م.
- اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي اليمني المكي، ت ٧٦٨هـ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط١، ٤م، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي، ت ٦٢٦هـ، معجم البلدان، ٤م، دار صادر، بيروت.
- اليوسفي، عماد الدين موسى بن محمد، ٧٥٩هـ ، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- اليونيني،قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن قطب الدين البعلبكي الحنبلي، ت ٧٢٦هـ: ذيل مرآة الزمان، ط١، المجلد الأول إلى المجلد الرابع، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند.

المراجع الحديثة:

- إبراهيم حمادة، خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال، المؤسسة المصرية، القاهرة، ١٩٦١م.
- د. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ط٧، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.
- نفسه، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، ط٣، دار الشروق، عمان، ١٩٩٣م.
- أحمد إبراهيم موسى، الصبغ البديعي في اللغة العربية، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٩م.
- د. أحمد أحمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ، القاهرة.
- نفسه، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٤م.
- أحمد غسان سبانو، مملكة حماة الأيوبية، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٤م.
- أحمد فوزي الهيب، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.
- بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- نفسه، السرقات الأدبية، دراسة في ابتكار الأعمال الأدبية وتقليدها، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٩م.
- بروان، إدوارد جرانفيل، تاريخ الأدب العربي في إيران من الفردوسي إلى السعدي، نقله إلى العربية: إبراهيم أمين شواربي، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.
- برتولد شبولير، العالم الإسلامي في العصر المغولي، ط١، نقله إلى العربية: خالد أسعد عيسى، دار حسان، دمشق، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- نفسه، المغول في التاريخ، ط١، ترجمه عن الفرنسية: يوسف شلب الشام، دار طلاس.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- جين كلور فادية، الغزل عند العرب، ترجمة إبراهيم الكيلاني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٩م.
- حسن الأمين، جنكيز وهولاكو الغزو المغولي للبلاد الإسلامية من بغداد إلى عين جالوت، ط٢، دار المنار، بيروت، ١٩٨٣م.
- د. حسن علي قرعاوي، الحكمة في شعر المتنبي، ط١، دار عمار، عمان، الأردن، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
- حسين علي محفوظ، المتنبي وسعدي، أثر الثقافة العربية في سعدي الشيرازي، مطبعة الحيدري، طهران، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م.
- خليل بنيان الحسون، أشجع السلمي حياته وشعره، دار المسيرة، بيروت، ١٩٨١م.
- رياض قزيحة،الفكاهة في الأدب الأندلسي، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٩٨م.
- رينشاردز أ.أ، مبادئ النقد الأدبي، ترجمة وتقديم: مصطفى بدوي، مراجعة لويس عوض، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٣م.
- رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، الجزء الأول، نقله إلى العربية، د. محمد سليم النعيمي، وزارة الثقافة والفنون، الجمهورية العراقية، ١٩٧٨م.
- تكملة المعاجم العربية، الجزء الثاني، ترجمة د. محمد سليم النعيمي، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، ١٩٨١م.
- رينيه غروسية، جنكيز خان قاهر العالم، نقله إلى العربية : خالد أسعد عيسى، دار حسان، دمشق، ١٩٨٢م.
- سامي الدهان، الغزل منذ نشأته حتى صدر الدولة العباسية، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤م.
- ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ٥م، نقله إلى العربية السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، الجزء الثاني، ط٤، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.
- نفسه، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة، القاهرة، ١٩٦٢م.
- السيد الباز العريني، المغول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
- سيسل دي لويس، الصورة الشعرية، ترجمة: مالك ميري، حسن إبراهيم، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٢م.
- شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، مصر.
- نفسه، الرثاء، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- نفسه، الشعر وطوابعه الشعبية عبر العصور، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٥م.
- نفسه، الفكاهة في مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.
- الطباخ، محمد راغب بن محمود بن هاشم الحلبي، ت ١٩٥١م، أعلام النبـــلاء بتـــاريخ حلب الشهباء، نقحه ووقف على طباعته : محمد كمـــال، ط٢، ٧م، دار القلـــم العربـــي، حلب، سوريا، ١٤٠٨هـــ - ١٩٨٨م.
- د.عبد الجليل عبد المهدي، بيت المقدس في أدب الحروب الصليبية، دار البشير، عمـــان، ١٤٠٩هـــ - ١٩٨٩م.
- عبد الحميد جيدة، قصيدة الهجاء عند دعبل الخزاعـــي وابـــن الرومـــي، دار الشـــمال، طرابلس، لبنان، ١٩٨٥م.
- عبد الحميد يونس، الظاهر بيبرس في القصص الشعبي، دار القلم، القاهرة، ١٩٩١م.
- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م.
- عبد الفتاح عثمان، نظرية الشعر في النقد العربي القديم، مكتبة الشباب، القاهرة.
- عبد المعين الملوحي، الشعراء الذين رثوا أنفسهم قبل الموت، دار الحضـــارة الجديـــدة، بيروت، ١٩٩٢م.
- عبد الواحد حسن الشيخ، البديع والتوازي، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية، الإســـكندرية، ١٩٩٩م.
- عبده عبد العزيز قلقيلة، النقد الأدبي فـــي العصـــر المملوكـــي، ط١، مكتبـــة الأنجلـــو المصرية، القاهرة، ١٩٧٢م.
- عزمي أبو عليان، ضد الصليبيين في عهد المماليك، ط١، دار النفائس، عمـــان، الأردن، ١٤١٥هـــ - ١٩٩٥م.
- علي الجندي، فن الجناس، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٤م.
- د. عمر موسى باشا، الأدب في بلاد الشام عصور الزنكييـــن والأيوبييـــن والممـــاليك، ط١، دار الفكـــر المعـــاصر، بـــيروت، لبنـــان، دار الفكـــر، دمشـــق، ســـوريا، ١٤٠٩هـــ - ١٩٨٩م.
- نفسه، أمير شعراء المشرق ابن نباتة المصري، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.
- عناد غزوان إسماعيل، المرثاة الغزلية في الشعر العربي، مطبعـــة الزهـــراء، بغـــداد، ١٩٧٤م.
- فايد أحمد حماد عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكيـــة الأولى، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٧م.
- فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- فوزي محمد أمين، أدب العصر المملوكي الأول قضايا الفن والمجتمع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣م.
- كليمان هوار، خطط بغداد، ط١، عرّبه وعلق عليه: ناجي معروف، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- مأمون فريز جرار، أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي من القرن السابع إلى القرن التاسع الهجري،ط١، مكتبة الأقصى، عمان، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ماهر هلال، جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠م.
- مجد باكير البرازي، النقد العربي القديم، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- د. محمد إبراهيم حوّر، رثاء الأبناء في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، مكتبة المكتبة، أبو ظبي، ١٩٨١م.
- نفسه، صفي الدين الحلي حياته وآثاره وشعره، ط٢، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- د. محمد التونجي، بلاد الشام إبان الغزو المغولي، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- نفسه، التيارات الأدبية إبان الزحف المغولي، ط١، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧م.
- محمد رضا الشبيبي، مؤرخ العراق ابن الفوطي، بحث في أدوار التاريخ العراقي من مستهل العصر العباسي إلى أواخر العصر المغولي، ٢م، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.
- د. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي في الدولة الأولى، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر.
- د. محمد عبد المطلب، اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، ط١، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- محمد كامل الفقي، الأدب في العصر المملوكي، ط٣، دار الموفق، مصر، ١٢٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- محمد كرد علي، خطط الشام، ط٣، ٦م، مكتبة النوري، دمشق، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ١٩٨١م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- محمود رزق سليم، صفي الدين الحلي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠م، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي، المجلد الثالث والرابع، مكتبة الآداب، الجماميز، مصر.
- د. محمود سالم محمد، أدب الصناع وأرباب الحرف حتى القرن العاشر الهجري، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- مخيمر صالح يحيى، رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن.
- مصطفى عبد الشافي الشورى، شعر الرثاء في العصر الجاهلي دراسة فنية، الدار الجامعية، بيروت، ١٩٨٣م.
- مقبول علي بشير النعمة، المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م.
- ممدوح حقي، عشر قمم في التاريخ العربي، ط٤، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٧٥.
- نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، ط٣، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٧م.
- نصرت عبد الرحمن ، شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ "العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع"، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٧٧م.
- هادي السيد حمد كمال الدين، فقهاء الفيحاء أو تطور الحركة الفكرية في الحلة، وزارة المعارف، بغداد، ١٩٧٢م.
- هارولد لام، جنكيز خان وجحافل المغول، ترجمة: متري أمين، مراجعة وتقديم : زكي نجيب محفوظ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م.
- ياسين الأيوبي، آفاق الشعر في العصر المملوكي، ط١، جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٥م- ١٤١٥هـ.
- د. يوسف حسين بكار، بناء القصيدة العربية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٧٩ هـ- ١٩٧٩م.
- يوسف نوفل، الصورة الشعرية واستيحاء الألوان، دراسة تحليلية إحصائية لشعر البارودي ونزار قباني وصلاح عبد الصبور، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٥م.

الرسائل الجامعية:

- أحمد موسى يعقوب، شعر رثاء الإخوة من الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي،دراسة نصية موازية، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد، الأردن، ١٩٩٦م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- آمنة سليمان محمد البدوي، شعر النازحين من الأندلس إلى مصر والشام في القرن السابع الهجري بين التأثر والتأثير، رسالة دكتواره، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩٦م.
- حسين جمعة، الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ١٩٨٢م.
- حسين خريوش، ابن بسام وكتابه الذخيرة، رسالة دكتوراه، جامعة الإسكندرية، مصر، ١٩٧٧م.
- خضراء رشود الجعافرة، الحركة الأدبية في عهد الملك المؤيد صاحب حماة وابنة الأفضل ٧١٠هـ - ٧٤٢هـ، رسالة ماجستير، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن، ١٩٩٥م.
- خلود يحيى أبو جرادة، المرأة في أدب الدولة المملوكية الأولى في مصر (٦٤٨هـ - ٧٨٤هـ) ، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٩٢م.
- رائد مصطفى عبد الرحيم، صورة المغول في الشعر العربي - العصر المملوكي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٧م.
- روضة المحمد، اتجاهات الرثاء في القرن الثالث الهجري من خلال أعلامه أبي تمام - ديك الجن- دعبل الخزاعي- البحتري ، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ١٩٨٣م.
- عامر نجيب موسى ناصر، الحياة الزراعية في مصر زمن الدولة المملوكية الثانية (٧٨٤- ٩٢٣م / ١٣٨٢ - ١٥١٧م)، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٨م.
- عبد القادر شريف عبد الله أبو شريفة، صورة الصليبيين في الأدب العربي، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ١٩٧٧ - ١٩٧٨م.
- محمود سالم محمد، المدائح النبوية في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق، ١٩٨٧م.
- مظفر عبد الستار غانم، الرثاء في شعر العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، العراق، ١٩٨٤م.
- هنريت زاهي سابا الصايغ، اتجاهات الشعر العربي في القرن السابع الهجري في بلاد الشام، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، ١٩٨٠م.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

دوائر المعارف:

- بارتولد - "تتر" ، دائرة المعارف الإسلامية.

كتاب لمجموعة من المؤلفين:

- إبراهيم أنيس، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر، محمد علي النجار، المعجم الوسيط، ط٢، ٢م، دار الدعوة، استنابول، تركيا، ١٩٨٩م.
- د. عادل إسماعيل، محمد هلال، العلاقات بين المغول وأوروبا وأثره على العالم الإسلامي، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، مصر، ١٩٩٧م.
- د. فائق مصطفى، د. عبد الرضا علي، في النقد الأدبي الحديث منطلقات وتطبيقات، ط١، دار الكتب، جامعة الموصل، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- قاسم المومني، فخري كتاني، شعراء عاشوا في قلعة عجلون في القرنين السابع والثامن الهجريين، ط١، منشوارت وزارة الثقافة والسياحة والآثار، دائرة الفنون والثقافة، عمان، الأردن، ١٩٨٥م.

الدوريات العربية

- أحمد الإسكندري، صفي الدين الحلي، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، الجزء الثالث والرابع، المجلد الثاني عشر، ١٩٣٢م، ص ٢٤٣ - ٢٩٨.
- د. أحمد فوزي الهيب، الجانب البديعي في شعر ابن الوردي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، الجزء الأول، المجلد الثاني والسبعون، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ص ٣- ٦٨.
- د. الأخضر عيكوس، مفهوم الصورة الشعرية قديما، الآداب، جامعة قسنطينة، الجزائر، العدد الرابع، سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ص ٦٨- ٩٧.
- حسين محفوظ، سعدي الشيرازي خريج بغداد في العصر العباسي الأخير، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع ٦، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٣م، ص ١٥٥- ١٧٨.
- طه محسن عبد الرحمن، ملامح من رثاء الحيوان في الشعر العباسي، آداب الرافدين، ع ٧، جامعة الموصل، ١٩٧٦م، ص ٤٥٥- ٤٧٦.
- د. عبد الجليل عبد المهدي، المرأة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، ع ٣٨، سنة ١٩٩٠م، ص ٣٥- ٧٥.
- د. عبد العزيز الشحادة، رثاء الإخوة في الشعر الجاهلي، البصائر، ع ٢، مجلة علمية تصدر عن جامعة البنات الأردنية الأهلية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص ٣٩- ٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عبد الوهاب عزام بك، الشيخ سعدي الشيرازي شعره العربي، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، م١، ع٨، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ١- ١٢.
- ناظم رشيد، من آثار الغزو التتري في الأدب خلال القرنين السابع والثامن الهجري، آداب الرافدين، ع ١٢، جامعة الموصل، ١٩٨٠كم، ١٤٠٠هـ، ص ١٧١ -٢٠٧.
- د. نعمان محمود جبران، د. محمد حسن عبد الكريم العمادي، محاولات المغول "إيلخانية فارس" للتحالف مع القوى الأوروبية لاقتسام بلاد الشام، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، ع٢٠، جامعة قطر، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ص ٢٣٧- ٢٧٣.
- د. نوري حمودي القيسي، تقويم جديد لدور الأدب العربي في العصور المتأخرة، مجلة كلية الآداب، ع ٢٢، جامعة بغداد، ١٩٧٨، ص ١١ - ٧١.

الدوريات الأجنبية

-De Somogy Joseph - Aqasida on the destruction of Baghdad by the Mongols, Bulletin of the school of oriental studies, Vol. V 11: 41- 48, 1933- 1935.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

The Art of Elegy in the Arab Poetry in the First Mamluki Era

Prepared By
Raed Mustafa Hassan Abdul Raheem

Supervised by
Dr. Abdul Jalil Hassan Abdul Muhdi

The Significance of this study stems from the fact that an enormous number of elegiac poems were versified in the First Mamluki era. Those poems were of different kinds and they were characterized by the multiplicity of their themes. In that era, a good number of poets composed special collections of poems meant to elegize scientists and kings. Other poets devoted special parts of their collections to this type of poetry.

The purpose of this study is to present a full picture of this kind of poetry, its different forms and its various themes. The study also aims to show the poets' attitude towards death and to present the artistic features that characterize this kind of poetry.

The study could be best described as descriptive, analytical and based on the inductive methods.

The study has seven chapters and a conclusion. The First Chapter deals with some of the poems versified for the purpose of elegizing the self and the relatives.

This Chapter shows that poets lamented not only the self but also for the parents, brothers and uncles.

The Second Chapter deals with some of the great number of poems composed in lamentation for kings, princes, notable persons and leaders.

It also shows the motive behind these poems. In this type of poetry, the poets depicted the great event and they shows its impact on the self, people, the natural world and every thing that is related in a way or another with the dead persons. The poets talked about the virtues of the dead persons, life and death, and the conventions related to the grief, consolation and funeral rites. Their poems were meant to console and to congratulate.

However, some of their poetry intended to satirize some of the dead notable persons.

The Third Chapter is devoted to the discussion of a number of poems composed to elegize the scientists and the men of the letters. The study shows that such poems were the most popular.

It's also shows that there were several motives that stimulated the poets to write such poetry. In those poems, the poets focused on the event

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

and they showed its impact on others. They also consoled themselves and they offered their condolences to the dead's relative. Not only this, but they also gave some sort of particularity to the place associated with dead persons. They, too, satirized their envies and enemies.

However, some of the dead persons being lamented were also satirized by some
poets.

The Forth Chapter discusses a number of poems composed particularly to elegize the woman. In spite of the fact that there were a few poems versified to serve this purpose, those poems were of two groups. In the first group, the poets elegized the daughter, the wife and the maid.

Second group was devoted to lamenting the death of the friends mother's, his sister and his wife.

The Fifth Chapter deals with elegizing the cities conquered by the Tatars and the crusaders not only some poets elegized Baghdad which was invaded by the Tatars in 656 H. Sham in 658 H and 699 H, but others elegized Alexandria which was conquered by the crusaders in 767 H.

The Sixth Chapter contains other topics for elegizing. Of these topics are the animal, the singers, pastime and some cultural aspects.

The Seventh Chapter sheds lights on the artistic features of the elegiac poetry in that era. It comments on the Language of that poetry, its stylistic and creative features as well as its poetic imagery.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit